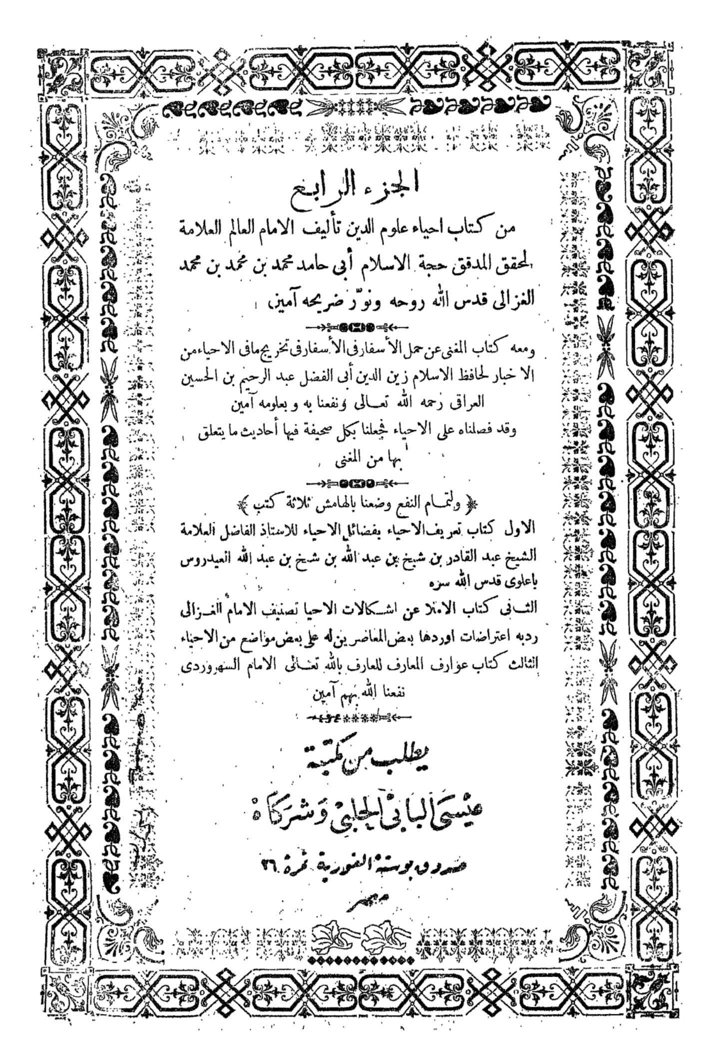




الجزء الرابع

من كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام العالم العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه ونوّر ضريحه آمين

ومعه كتاب المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج مافى الاحياء من الاخبار للحافظ الاسلام زين الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى رحمه الله تعالى ونفعنا به وبعلومه آمين

وقد فصلناه على الاحياء فجعلنا بكل صحيفة فيها أحاديث ما يتعلق بها من المغنى

﴿ ولتمام النفع وضعنا بالهامش ثلاثة كتب ﴾

الاول كتاب تعريف الاحياء بفضائل الاحياء للاستاذ الفاضل العلامة الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوى قدس الله سره

الثانى كتاب الاملا عن اشكالات الاحيا تصنيف الامام الغزالى ردبه اعتراضات اوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الاحياء

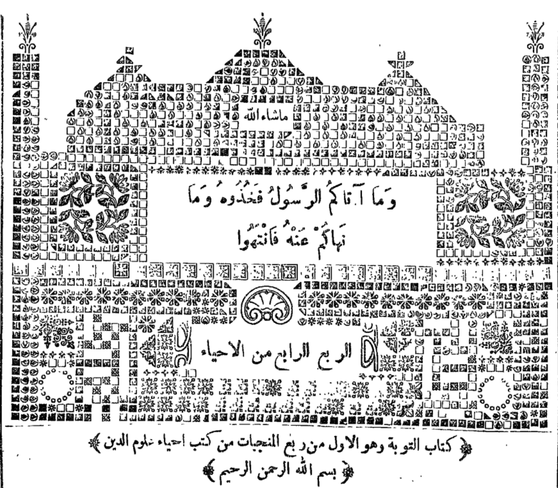
الثالث كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى الامام السهروردى نفعنا الله بهم آمين

يطلب من مكتبة

عيسى البابى الحلبى وشركاه

صندوق بوستة الغورية نمرة ٣٦

بمصر



﴿كتاب التوبة وهو الاول من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب * و بذكره يصدر كل خطاب * و بحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب * و باسمه يتسلى الاشقياء وان أرخى دونهم الحجاب * وضرب بينهم و بين السعداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ونتوب اليه توبة من يوقن انه رب الارباب ومسبب الاسباب ونرجوه رجاء من يعلم انه الملك الرحيم الغفور التواب * ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب * انه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب * ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب * وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب * ﴿أما بعد﴾ فان التوبة عن الذنوب * بالرجوع الى ستار العيوب وعلام الغيوب * مبدأ طريق السالكين * ورأس مال الفائزين * وأول أقدام المريدين * ومفتاح استقامة المائلين * ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ولابينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء أجمعين * وما أجدر بالاولاد * الاقتداء بالآباء والاجداد فلا غرو أن أذنب الادمى واجترم * فهى شنشنة يعرفها من أخزم * ومن أشبه أباه فما ظلم * ولكن الاب اذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد ان هدم * فليكن النزوع اليه فى كلا طرفى النفى والاثبات والوجود والعدم * ولقد قرع آدم سن الندم * وتندم على ما سبق منه وتقدم * فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم * بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين * والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين * والرجوع الى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الادميين * فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان * والتجرد للشر شيطان * والمتلافى للشر بالرجوع الى الخير بالحقيقة انسان * فقد ازدوج فى طينة الانسان شائبتان * واصطحب فيه سجيتان * وكل عبد مصحح نسبه اما الى الملك أو الى آدم أو الى الشيطان * فالتائب قد أقام البرهان * على صحة نسبه الى آدم بملازمة حد

(الباب التاسع والاربعون فى استقبال النهار والادب فيه والعمل) قال الله تعالى وأقم الصلاة طرفى النهار أجمع المفسرون على ان احد الطرفين أراد به الفجر وأمر بصلاة الفجر واختلفوا فى الطرف الاخر قال قوم أراد به المغرب وقال اخرون صلاة العشاء وقال قوم صلاة الفجر والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل صلاة العشاء ثم ان الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها وقال ان الحسنات يذهبن السيئات أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات (وروى ان أبا اليسر كعب

الانسان

الانسان * والمصر على الطغيان * مسجل على نفسه بنسب الشيطان * فاما تصحيح النسب الى الملائكة

﴿كتاب التوبة﴾

بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الامكان * فان الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لايخلصه الااحدى النارين * نار الندم اونار جهنم فالاحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الانسان من خبائث الشيطان واليك الان اختيار اهون النارين * والمبادرة الى اخف الشرين * قبل ان يطوى بساط الاختيار * و يساق الى دار الاضطرار * امالى الجنة واما الى النار * واذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والافات المانعة منها والادوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر اربعة اركان (الركن الاول) فى نفس التوبة و بيان حدها وحقيقتها وانها واجبة على الفور وعلى جميع الاشخاص وفى جميع الاحوال وانها اذا صحت كانت مقبولة (الركن الثانى) فيما عنه التوبة وهو الذنوب و بيان انقسامها الى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى و بيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات و بيان الاسباب التى بها تعظم الصغائر (الركن الثالث) فى بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب و بيان اقسام التائبين فى دوام التوبة (الركن الرابع) فى السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج فى حل عقدة الاصرار من المذنبين و يتم المقصود بهذه الاركان الاربعة ان شاء الله عزوجل (الركن الاول) فى نفس التوبة

﴿بيان حقيقة التوبة وحدها﴾

اعلم ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم و يلتئم من ثلاثة امور مرتبة علم وحال وفعل فالعلم الاول والحال الثانى والفعل الثالث والاول موجب للثانى والثانى موجب للثالث ايجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت ﴿أما العلم﴾ فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد و بين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فان كان فواته * بفعله تاسف على الفعل المفوت فيسمى تالمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما فاذا غلب هذا الالم على القلب واستولى انبعث من هذا الالم فى القلب حالة اخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال و بالماضى و بالاستقبال اما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا واما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى اخر العمر واما بالماضى فبتلافى مافات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر فالعلم هو الاول وهو مطلع هذه الخيرات واعنى بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بان الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الايمان مهما اشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب اوانحسار حجاب فراى محبوبه وقد اشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب فى قلبه وتنبعث تلك النيران بارادته للانتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال والتلافى للماضى ثلاثة معان مرتبة فى الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا مايطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتاخر و بهذا الاعتبار قال عليه السلام (١) الندم توبة اذ لايخلو الندم عن علم اوجبه واثمره وعن عزم يتبعه و يتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه اعنى ثمرته ومثمره و بهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة انه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا فان هذا يعرض لمجرد الالم ولذلك قيل هو نار فى القلب تلتهب وصدع فى الكبد لاينشعب و باعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة انه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح اسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث انس وقال صحيح على شرط الشيخين

ابن عمرو الانصارى كان يبيع التمر فاتت امرأة تبتاع تمرا فقال لها ان هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فهل لك فيه رغبة قالت نعم فذهب بها الى بيته فضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم ثم أتى النبي عليه السلام وقال يارسول الله ماتقول فى رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شىء مما يفعل الرجال بالنساء الاركبه غير انه لم يجامعها قال عمر ابن الخطاب لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيا وقال انتظر امر ربي وحضرت صلاة العصر وصلى النبي عليه الصلاة

وقال سهل بن عبدالله التسترى التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك الا بالخلوة والصمت واكل الحلال وكانه اشار الى المعنى الثالث من التوبة والاقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر واذا فهمت هذه المعانى الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت ان جميع ماقيل فى حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الامور اهم من طلب الالفاظ المجردة

﴿ بيان وجوب التوبة وفضلها ﴾

اعلم ان وجوب التوبة ظاهر بالاخبار (١) والايات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الايمان صدره حتى اقتدر على ان يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة فالسالك اما اعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه واما بصير يهدى الى اول الطريق ثم يهتدى بنفسه وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه فيفتقر الى ان يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله اوسنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير فسيرهذا وان طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بادنى اشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق فى قلبه نور القرآن ونور الايمان وهو لشدة نور باطنه يجتزئ بادنى بيان فكانه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج الى نص منقول فى كل واقعة فمن هذا حاله اذا اراد ان يعرف وجوب التوبة فينظر اولا بنور البصيرة الى التوبة ماهى ثم الى الوجوب ما معناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك فى ثبوته لها وذلك بان يعلم ان معنى الواجب ماهو واجب فى الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هلاك الابد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض فان مالاغرض لنا آجلا وعاجلا فى فعله وتركه فلامعنى لاشتغالنا به اوجبه علينا غيرنا اولم يوجبه فاذا عرف معنى الوجوب وانه الوسيلة الى سعادة الابد وعلم ان لا سعادة فى دار البقاء الا فى لقاء الله تعالى وان كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين مايشتهى محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم انه لا مبعد عن لقاء الله الا اتباع الشهوات والانس بهذا العالم الفانى والاكباب على حب مالا بدمن فراقه قطعا وعلم انه لا مقرب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للانس به بدوام ذكره والمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم ان الذنوب التى هى اعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين اعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك فى ان الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم ان الذنوب اسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق البعد ومالم يتوجع فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك فى ان المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول الى المحبوب وهكذا يكون الايمان الحاصل عن نور البصيرة واما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود اكثر الخلق ففى التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به الى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذا امر على العموم وقال الله تعالى يا أيها الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا الاية ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب ماخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقال عليه السلام (٢) التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وقال رسول الله

(١) الاخبار الدالة على وجوب التوبة مسلم من حديث الاغر المزنى يا ايها الناس توبوا الى الله الحديث ولابن ماجه من حديث جابر يا ايها الناس توبوا الى ربكم قبل ان تموتوا الحديث وسنده ضعيف (٢) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثانى دون الاول واما الشطر الاول فروى ابن ابى الدنيا فى التوبة وابو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث انس بسند ضعيف ان الله

والسلام العصر فلما فرغ اتاه جبريل بهذه الاية فقال النبي عليه السلام أين ابو اليسر فقال ها انا ذا يارسول الله قال شهدت معنا هذه الصلاة قال نعم قال اذهب فانها كفارة لما عملت فقال عمر يارسول الله هذا له خاصة أولنا عامة فقال بل للناس عامة * فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا فى أول الليل ثم يؤذن ان لم يكن اجاب المؤذن ثم يصلى ركعتى الفجر يقرأ فى الاولى بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون وفى الثانية قل هو الله احد وان أراد قرأ فى الاولى

يصلى

صلى الله عليه وسلم (١) لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في ارض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع راسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش اوماشاء الله قال ارجع الى مكاني الذي كنت فيه فانام حتى اموت فوضع راسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وفي بعض الالفاظ قال من شدة فرحه اذا أراد شكر الله أنا ربك وانت عبدي ويروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقال يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام ياجبريل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فاين مقامي فاوحى الله اليه ياادم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيته كالبيتك ومن سالني المغفرة لم أبخل عليه لاني قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب والاخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع منعقد من الامة على وجوبها اذ معناه العلم بان الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم ازالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير في سابق الاحوال وذلك لايشك في وجوبه واما التندم على ماسبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلافي فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لامحالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله فان قلت تألم القلب امرضروري لايدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب فاعلم ان سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل الى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى ان العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله والله خلقكم وماتعملون هذا هو الحق عند ذوي الابصار وماسوى هذا ضلال فان قلت افليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم وذلك لايناقض قولنا ان الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار ايضا من خلق الله والعبد مضطر في الاختيار الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بان هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الخواطر المتعارضة في ان هذا الطعام هل فيه مضرة مع انه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله املا ثم خلق العلم بانه لامانع ثم عند اجتماع هذه الاسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزام الارادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولابد من حصوله عند تمام اسبابه فاذا حصل انجزام الارادة بخلق الله تعالى اياها تحركت اليد الصحيحة الى جهة الطعام لامحالة اذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الارادة وهما ايضا من خلق الله وانجزام الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع وهما ايضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق ارادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما مالم يخلق علما بانه موافق للنفس اما في الحال او في المآل ولا يخلق العلم ايضا الا باسباب اخر

قولوا آمنا بالله وما أنزل الآية في صورة البقرة وفي الاخرى ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول ثم يستغفر الله و يسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد وان اقتصر على كلمة أستغفر الله لذنبي سبحان الله بحمد ربي أتى بالمقصود من التسبيح والاستغفار (ثم يقول) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم اني أسالك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعثي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلقني بها رشدي وتعصمني بها من كل سوء اللهم

يحب الشاب التائب ولعبد الله بن احمد في زوائد المسند وابي يعلى بسند ضعيف من حديث علي ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب (١) حديث لله افرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في ارض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم في حديث انس ثم قال من شدة الفرح اللهم انت عبدي وانا ربك اخطا من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصرا

ترجع الى حركة وارادة وعلم فالعلم والميل الطبعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة ابدا تستردف الحركة وهكذا الترتيب فى كل فعل والكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فلذلك يجب تقدم البعض وتاخر البعض كما لا تخلق الارادة الا بعد العلم ولا يخلق العلم الا بعد الحياة ولا تخلق الحياة الا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لا أن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لا ان العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم الا اذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لا ان العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة الا جسم حى عالم ولا يدخل فى الوجود الا ممكن وللامكان ترتيب لا يقبل التغيير لان تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الالهى والقدرة الازلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى انا كل شيء خلقناه بقدر وعن القضاء الكلى الازلى العبارة بقوله تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وأما العباد فانهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد وبعد علم بما اليه ميله يسمى الادراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الامور الاربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت اذ قتلت ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وعند هذا تتحير عقول القاعدين فى بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل انه جبر محض ومن قائل انه اختراع صرف ومن متوسط مائل الى انه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا الى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه وان القصور شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراق النور من كوة نافذة الى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل فى حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الاسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الاسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا ان لا خالق الا الله ولا مبدع سواه فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن ايصال ذلك الى الافهام بمثال فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا انه حمل الى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذى نقدر عليه فطلبوه فلما وصلوا اليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سالهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذى لمس الرجل ان الفيل ماهو الا مثل اسطوانة خشنة الظاهر الا انه ألين منها وقال الذى لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس فى غلظ الاسطوانة اصلا بل هو مثل عمود وقال الذى لمس الاذن لعمرى هو لين وفيه خشونة فصدق احدهما فيه ولكن قال ماهو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وانما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه اذ اخبر كل واحد عما اصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال اكثر ما اختلفت الناس فيه وان كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك امواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع الى ما كنا بصدده وهو بيان ان التوبة واجبة بجميع اجزائها الثلاثة العلم والندم والترك

أعطني ايمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم انى اسالك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الاعداء ومرافقة الانبياء اللهم انى انزل بك حاجتى وان قصر رأيى وضعف عملى وافتقرت الى رحمتك واسالك ياقاضى الامور وياشافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته احدا من عبادك أو خير انت معطيه احدا من خلقك فانا ارغب اليك

وان النـدم داخل فى الوجوب لكونه واقعا فى جملة افعال الله المحصورة بين علم العبد وارادته وقدرته المتخللة بينها وماهذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

﴿بيان أن وجوب التوبة على الفور﴾

اما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه اذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والمتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل بل هى من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه السلام (١) لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وما أراد به نفى الايمان الذى يرجع الى علوم المكاشفة كالعلم بالله و وحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى وانما اراد به نفى الايمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما اذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى انه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد انه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله اصلا فالعاصى بالضرورة ناقص الايمان وليس الايمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا اعلاها القلب والروح وادناها اماطة الاذى عن البشرة بان يكون مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقى البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها واظلافها وهذا مثال مطابق فالايمان كالانسان وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذى ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة هو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع اعضائه الباطنة والظاهرة لا اصل الروح وكما ان من هذا حاله قريب من ان يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الاعضاء التى تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا اصل الايمان وهو مقصر فى الاعمال قريب من ان تقتلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان فى مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل ايمان لم يثبت فى اليقين اصله ولم تنتشر فى الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة الا ما يسقى بالطاعات على توالى الايام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصى للمطيع انى مؤمن كما انك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر انا شجرة وانت شجرة وما احسن جواب شجرة الصنوبر اذا قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف فعنـد ذلك تنقطع اصولك وتتناثر اوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة مع الغفلة عن اسباب ثبوت الاشجار وسوف ترى اذا انجلى الغبار * افرس تحتك ام حمار وهذا امر يظهر عند الخاتمة وانما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة التى لا يثبت عليها الا الاقلون فالعاصى اذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة اذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وان الموت غالبا لا يقع فجاة فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم اذا مرض خاف الموت وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة ثم اذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار فالمعاصى للايمان كالمأكولات المضرة للابدان فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى ان يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصى فاذا كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم ومايضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الابد اولى بان يجب عليه ذلك واذا كان متناول السم اذا ندم يجب عليه ان يتقيأ ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه

فيه وأسالك اياه يارب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين حربا لاعدائك وسلما لاوليائك نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء منى ومنك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان انا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والامر الرشيد أسالك الامن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود انك رحيم ودود وانت تفعل ما تريد سبحان من تعطف بالعز وقال به سبحان من لبس المجد وتكرم

(١) حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبى هريرة

المشرف على هلاك لا يفوت عليه الا هذه الدنيا الفانية فتناول سموم الدين وهي الذنوب اولى بان يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فان المخوف من هذا السم فوات الاخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفى فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذى تتصرم اضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته اذ ليس لمدته إخر البتة فالبدار البدار الى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الامر فيه الاطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بانه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولا يغرنك لفظ الايمان فتقول المراد بالاية الكافر اذ بين لك أن الايمان بضع وسبعون بابا وان الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن فالمحجوب عن الايمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الايمان الذى هو اصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التى هى حروف وفروع سيساق الى الموت المعدم للروح التى هى اصل فلا بقاء للاصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الاصل ولا فرق بين الاصل والفرع الا فى شىء واحد وهو ان وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الاصل واما وجود الاصل فلا يستدعى وجود الفرع فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والاصل فلا يستغنى احدهما عن الاخر وان كان احدهما فى رتبة الاصل والاخر فى رتبة التابع وعلوم المعاملة اذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فان هي لم تعمل عملها الذى تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزاد فى عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما اوردنا من الاخبار فى كتاب العلم

﴿بيان ان وجوب التوبة عام فى الاشخاص والاحوال فلا ينفك عنه احد البتة﴾

اعلم ان ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال تعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون فعمم الخطاب ونور البصيرة أيضا يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان ولا يتصور ذلك الا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل الا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان الى اغواء الانسان اذ كمال العقل انما يكون عند مقارنة الاربعين وأصله انما يتم عند مراهقة البلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة اذ لا يثبت احدهما للاخر لانهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزعج الاخر بالضرورة واذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ثم يلوح العقل الذى هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدى أعدائه شيأ فشيأ على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وانجز اللعين موعوده حيث قال لاحتنكن ذريته الا قليلا وان كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادات ولا معنى للتوبة الا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان الى طريق الله تعالى وليس فى الوجود ادمى الا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة فكان الرجوع عما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروريا فى حق كل انسان نبيا كان أو غبيا فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بادم عليه السلام وقد قيل

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها * سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التى لا مطمع فى تبديلها فاذا كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما تبعا لابويه غافلا عن حقيقة اسلامه

به سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى الجود والكرم سبحان الذى احصى كل شىء بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبي ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى اللهم زدنى نورا واعطنى نورا واجعل لى نورا ولهذا الدعاء أثر كثير ومارأيت احدا حافظ عليه الا وعنده خير ظاهر وبركة وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا يحفظه

فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الاسلام فانه لا يغنى عنه اسلام ابويه شيأ ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله فى المنع والاطلاق والانفكاك والاسترسال وهو من اشق ابواب التوبة وفيه هلك الاكثرون اذ عجزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل ان التوبة فرض عين فى حق كل شخص لا يتصور ان يستغنى عنها احد من البشر كما لم يستغن آدم فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا واما بيان وجوبها على الدوام وفى كل حال فهو ان كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الانبياء كما ورد فى القرآن والاخبار من خطايا الانبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا فى بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا فى بعض الاحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وافعاله وكل ذلك نقص وله اسباب وترك اسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع عن طريق الى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص وانما يتفاوتون فى المقادير فاما الاصل فلا بد منه ولهذا قال عليه السلام (١) انه ليغان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة الحديث ولذلك اكرمه الله تعالى بان قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره فان قلت لا يخفى ان ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص وان الكمال فى الخلو عنه وان القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وانه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وان الانتقال الى الكمال من اسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد اطلقت القول بوجوب التوبة فى كل حال والتوبة عن هذه الامور ليست بواجبة اذ ادراك الكمال غير واجب فى الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة فى كل حال فاعلم انه قد سبق ان الانسان لا يخلو فى مبدأ خلقته من اتباع الشهوات اصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ما مضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس فى وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وافسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل بل لا بد من محو تلك الاريان التى انطبعت فى القلب كما لا يكفى فى ظهور الصور فى المرآة قطع الانفاس والبخارات المسودة لوجهها فى المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الاريان وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله عليه السلام (٢) اتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا لا يستغنى العبد فى حال من احواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات هذا فى قلب حصل اولا صفاؤه وجلاؤه ثم اظلم باسباب عارضة فاما التصقيل الاول ففيه يطول الصقل اذ ليس شغل الصقل فى ازالة الصدأ عن المرآة كشغله فى عمل اصل المرآة فهذه أشغال طويلة لا تنقطع اصلا وكل ذلك يرجع الى التوبة فاما قولك ان هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال فاعلم ان الواجب له معنيان احدهما ما يدخل فى فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم فلو كلف الناس كلهم ان يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم يؤدى ذلك الى بطلان التقوى بالكلية

(١) حديث انه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة مسلم من حديث الاغر المزنى الا انه قال فى اليوم مائة مرة وكذا عند ابى داود وللبخارى من حديث ابى هريرة انى لاستغفر الله فى اليوم اكثر من سبعين مرة وفى رواية البيهقى فى الشعب سبعين لم يقل اكثر وتقدم فى الاذكار والدعوات (٢) حديث اتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذى من حديث ابى ذر بزيادة فى اوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم فى رياضة النفس

والمحافظة عليه منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ثم يقصد المسجد للصلاة فى الجماعة ويقول عند خروجه من منزله وقل رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ويقول فى الطريق اللهم انى اسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا اليك لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك اسألك ان تنقذنى من النار وان تغفر لى ذنوبى انه لا يغفر الذنوب الا انت (وروى) ابو سعيد الخدرى ان رسول الله صلى

فانه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فما يحتاج اليه فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثانى هو الذى لا بد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة فى الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوع أى لمن يريدها فانه لا يتوصل اليها الا بها فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لاجلها كما يقال العين والاذن واليد والرجل شرط فى وجود الانسان يعنى انه شرط لمن يريد أن يكون انسانا كاملا ينتفع بانسانيته و يتوصل بها الى درجات العلا فى الدنيا فاما من قنع باصل الحياة ورضى أن يكون كلحم على وضم و كخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين و يد ورجل فاصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لا يوصل الا الى أصل النجاة وأصل النجاة كاصل الحياة وماوراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الاعضاء والآلات التى بها تتهيأ الحياة وفيه سعى الانبياء والاولياء والعلماء والامثل فالامثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان طوافهم ولاجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام الى أن توسد حجرا فى منامه فجاء اليه الشيطان وقال اما كنت تركت الدنيا للاخرة فقال نعم وما الذى حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم فى الدنيا فلا تضع رأسك على الارض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الارض وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الارض لا يسمى واجبا فى فتاوى العامة أفترى ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم (١) لما شغله الثوب الذى كان عليه علم فى صلاته حتى نزعه (٢) وشغله شراك نعله الذى جدده حتى أعاد الشراك الخلق لم يعلم أن ذلك ليس واجبا فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده فاذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك الا لانه رآه مؤثرا فى قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المحمود الذى قد وعد به أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد ان شرب اللبن وعلم انه على غير وجه أدخل أصبعه فى حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ماعلم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب فى فتوى الفقه اخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب امكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك الا لسر وقر فى صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وان خطر طريق الآخرة لا يعرفه الا الصديقون فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله و بطريق الله و بمكر الله و بمكان من الغرور بالله واياك مرة واحدة ان تغرك الحياة الدنيا واياك ثم ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور فهذه أسرار من استنشق مبادى روائحها علم ان لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى فى كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وان ذلك واجب على الفور من غير مهلة ولقد صدق ابو سليمان الدارانى حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره الا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله وانما قال هذا لان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهر نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لان توصلك الى سعادة الابد وتنقذك من شقاوة الابد وأى جوهر أنفس من هذا فاذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وان صرفتها الى معصية فقد هلكت هلاكا فاحشا فان كنت لا تبكى على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها انه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه و بين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع الناس عن التدارك قال بعض العارفين ان

(١) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الذي كان عليه فى الصلاة تقدم فى الصلاة أيضا (٢) حديث نزعه الشراك الجديد واعادة الشراك الخلق تقدم فى الصلاة أيضا

الله عليه وسلم قال من قال ذلك اذا خرج الى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضى صلاته واذا دخل المسجد أو دخل سجادته للصلاة يقول بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفرلى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ويقدم رجله اليمنى فى الدخول واليسرى فى الخروج من المسجد او السجادة فسجادة الصوفى بمنزلة البيت والمسجد ثم يصلى صلاة الصبح فى جماعة فاذا سلم يقول لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده

ملك الموت عليه السلام اذاظهر للعبد أعلمه انه قد بقي من عمرك ساعة وانك لاتستأخرعنها طرفةعين فيبدو للعبد من الاسف والحسرة ما لوكانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على ان يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليستعتب فيها و يتدارك تفريطه فلايجد اليه سبيلا وهواول مايظهر من معانى قوله تعالى وحيل بينهم و بين مايشتهون واليه الاشارة بقوله تعالى من قبل ان يأتى احدكم الموت فيقول ربى لولا اخرتنى الى اجل قريب فاصدق وا كن من الصالحين ولن يوخرالله نفسا اذاجاء اجلهافقيل الاجل القريب الذى يطلبه معناه انه يقول عندك كشف الغطاء للعبد ياملك الموت اخرنى يوما اعتذرفيه الى ربى واتوب واتز ودصالحا لنفسى فيقول فنيت الايام فلا يوم فيقول فاخرنى ساعة فيقول فنيت الساعة فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد انفاسه فى شراسفه و يتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمرفيضطرب اصل ايمانه فى صدمات تلك الاحوال فاذازهقت نفسه فان كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وان سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ولمثل هذا يقال وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذاحضر احدهم الموت قال انى تبت الآن وقوله انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ومعناه عن قرب عهد الخطيئة بان يتندم عليها و يمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل ان يتراكم الرين على القلب فلايقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اتبع السيئة الحسنة تمحها ولذلك قال لقمان لابنه يابنى لاتؤخر التوبة فان الموت يأتى بغتة ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين احدهما ان تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلايقبل المحو الثانى ان يعاجله المرض اوالموت فلايجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد فى الخبر(١) ان اكثر صياح اهل النار من التسويف فما هلك من هلك الا بالتسويف فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة الى ان يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم ولاينجو الا من اتى الله بقلب سليم فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر اسباب الطاعة فمن خان فى الامانة ولم يتدارك خيانته فامره مخطر قال بعض العارفين ان لله تعالى الى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الالهام احدهما اذاخرج من بطن أمه يقول له عبدى قد اخرجتك الى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وانظر الى كيف تلقانى والثانى عند خروج روحه يقول عبدى ماذا صنعت فى امانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فالقاك على الوفاء اواضعتها فالقاك بالمطالبة والعقاب واليه الاشارة بقوله تعالى أوفوا بعهدى أوف بعهدكم و بقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون

﴿ بيان ان التوبة اذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لامحالة ﴾

اعلم انك اذافهمت معنى القبول لم تشك فى ان كل توبة صحيحة فهى مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من انوار القرآن علموا ان كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ومستعد لان ينظر بعينه الباقية الى وجه الله تعالى وعلموا ان القلب خلق سليما فى الاصل وكل مولود يولد على الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا ان نار الندم تحرك تلك الغبرة وان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وانه لاطاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لاطاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون وكما ان الثوب الوسخ لايقبله الملك لان يكون لباسه فالقلب المظلم لايقبله الله تعالى لان يكون فى جواره وكما ان استعمال الثوب فى الاعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه و يطهره و يزكيه وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما ان كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية

(١) حديث ان أكثر صياح أهل النار من التسويف لم أجد له أصلا

الخير وهو على كل شيء قدير لااله الاالله وحده صدق وعده ونصر عبده واعز جنده وهزم الاحزاب وحده لااله الاالله اهل النعمة والفضل والثناء الحسن لااله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولوكره الكافرين و يقرأ هو الله الذى لااله الاهو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما الى آخرها فاذا فرغ منها يقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الامى وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه اداء واعطه الوسيلة والمقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ماهو أهله واجزه عنا أفضل ماجازيت نبيا عن أمته وصل على

والتطهير واما القبول فبذول قدسبق به القضاء الازلى الذى لامرد له وهو المسمى فلاحا فى قوله قد افلح من زكاها ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة اقوى واجلى من المشاهدة بالبصر ان القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا يستعار لاحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل و يستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وان بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكانه لم يبق من الدين الا قشوره ولم يعلق به الا اسماؤه وقلبه فى غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره اجهل واغنى به قلبه اذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه فمن يتوهم ان التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم ان الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا ان يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك ان تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا مالم يغير صفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف المتمكن به فهذا حال امتناع اصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر فى قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والاخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيئات وقال تعالى غافر الذنب وقابل التوب الى غير ذلك من الايات وقال صلى الله عليه وسلم أفرح بتوبة احدكم الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة وقال صلى الله عليه وسلم (١) ان الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب الا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم (٢) لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم وقال ايضا (٣) ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يا رسول الله قال يكون نصب عينه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم (٤) كفارة الذنب الندامة وقال صلى الله عليه وسلم التائب من الذنب كمن لاذنب له و يروى (٥) ان حبشيا قال يارسول الله انى كنت اعمل الفواحش فهل لى من توبة قال نعم فولى ثم رجع قال يارسول الله أكان يرانى وانا اعملها قال نعم فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه و يروى (٦) ان الله عزوجل لما لعن ابليس ساله النظرة فانظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من

جميع اخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اللهم صل على محمد فى الاولين وصل على محمد فى الاخرين وصل على محمد الى يوم الدين اللهم صل على روح محمد فى الارواح وصل على جسد محمد فى الاجساد واجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك اللهم انت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وادخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام اللهم انى اصبحت لا استطيع دفع ما اكره ولا املك نفع ما ارجو واصبح الامر

(١) حديث ان الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار الحديث مسلم من حديث ابى موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار الحديث وفى رواية للطبرانى لمسيء الليل ان يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى يبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث ابى هريرة واسناده حسن بلفظ لو اخطأتم وقال ثم تبتم (٣) حديث ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك فى الزهد عن المبارك ابن فضالة عن الحسن مرسلا ولابى نعيم فى الحلية من حديث ابى هريرة ان العبد ليذنب الذنب فاذا ذكره احزنه فاذا نظر الله اليه أنه احزنه غفر له الحديث وفيه صالح المري وهو رجل صالح لكنه مضعف فى الحديث ولابن ابى الدنيا فى التوبة من حديث ابن عمران الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلى (٤) حديث كفارة الذنب الندامة احمد والطبرانى وهق فى الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيي بن عمرو بن مالك الشكرى ضعيف (٥) حديث ان حبشيا قال يارسول الله انى كنت اعمل الفواحش فهل لى من توبة قال نعم الحديث لم اجد له اصلا (٦) حديث ان الله لما لعن ابليس ساله النظرة فانظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب بن آدم مادام فيه الروح الحديث احمد وابو يعلى والحاكم وصححه من حديث ابى سعيد ان الشيطان قال وعزتك يارب لا ازال أغوى عبادك ما دامت ارواحهم فى اجسادهم فقال وعزتى وجلالى لا أزال اغفر لهم مااستغفرونى اورده المصنف بصيغة و يروى كذا ولم يعزه الى النبى صلى الله عليه وسلم فذكرته احتياطا

قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة مادام الروح فيه وقال صلى الله عليه وسلم[1] ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ والاخبار فى هذا لا تحصى (واما الآثار) فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى انه كان للاوابين غفورا فى الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الفضيل قال الله تعالى بشر المذنبين بانهم ان تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين انى ان وضعت عليهم عدلى عذبتهم وقال طلق بن حبيب ان حقوق الله اعظم من ان يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين وقال عبد الله ابن عمر رضى عنهما من ذكر خطيئة ألمها فوجل منها قلبه محيت عنه فى أم الكتاب وروى ان نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أذنب فاوحى الله تعالى اليه وعزتى لئن عدت لاعذبنك فقال يارب انت أنت وأنا أنا وعزتك ان لم تعصمنى لاعودن فعصمه الله تعالى وقال بعضهم ان العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ليتنى لم اوقعه فى الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول اما انى قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له وروى ان رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فاعرض عنه ابن مسعود ثم التفت اليه فرأى عينيه تذرفان فقال له ان للجنة ثمانية ابواب كلها تفتح وتغلق الا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف فقال انى لارجوان يكون المسلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغنى ان توبة المسلم كاسلام بعد اسلام وقال عبد الله بن سلام لا أحدثكم الا عن نبى مرسل او كتاب منزل ان العبد اذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه اسرع من طرفة عين وقال عمر رضى الله عنه اجلسوا الى التوابين فانهم ارق افئدة وقال بعضهم انا اعلم متى يغفر الله لى قيل ومتى قال اذا تاب على وقال اخر أنا من ان احرم التوبة اخوف من ان احرم المغفرة اى من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة وروى انه كان فى بنى اسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك فقال الهى اطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك اتقبلنى فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا احببتنا فاحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فامهلناك وان رجعت الينا قبلناك وقال ذوالنون المصرى رحمه الله تعالى ان لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فاثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عى ولا بكم وانهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكاس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت افكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرؤا صحيفة الخطايا فاورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت ارواحهم فى العلا حتى اناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة واقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة فهذا القدر كاف فى بيان ان كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة فان قلت افتقول ماقالته المعتزلة من ان قبول التوبة واجب على الله فاقول لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله الا ما يريده القائل بقوله ان الثوب اذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وان العطشان اذا شرب الماء وجب زوال العطش وانه اذا منع الماء مدة وجب العطش وانه اذا دام العطش وجب الموت وليس فى شئ من ذلك ما يريده المعتزلة بالايجاب على الله تعالى بل اقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلا للعطش والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به ارادته

(١) حديث ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ لم اجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى اتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذى وتقدم قريبا

بيد غيرى وأصبحت مرتهنا بعملى فلا فقير افقر منى اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسئ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا تسلط على من لا يرحمنى اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها وما عملت فيه من سيئة فاغفر لى انك غفور رحيم ودود رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا اللهم انى أسألك خير هذا اليوم وخير مافيه واعوذ بك من شره وشر ما فيه وأعوذ بك من شر طوارق الليل

الازلية فواجب كونه لا محالة فان قلت فما من تائب الا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لا يشك فى زوال عطشه فلم يشك فيه فاقول شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة فان للتوبة اركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذى يشك فى دواء شربه للاسهال فى انه هل يسهل وذلك لشكه فى حصول شروط الاسهال فى الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك فى قبولها لا محالة على ماسيأتى فى شروطها ان شاء الله تعالى

﴿ الركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها ﴾

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشئ الا بعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل اليها الا به واجبا فمعرفة الذنوب اذا واجبة والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لامر الله تعالى فى ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها الى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير الى مجامعها وروابط اقسامها والله الموفق للصواب برحمته

﴿ بيان اقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد ﴾

اعلم ان للانسان اوصافا واخلاقا كثيرة على ماعرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى اربع صفات صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لان طينة الانسان عجنت من اخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الاخلاط فى المعجون منه اثرا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران فى السكنجبين آثاراً مختلفة * فاما ما يقتضى النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كانه يريد ان يقول انا ربكم الاعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهى المهلكات العظيمة التى هى كالامهات لاكثر المعاصى كما استقصيناه فى ربع المهلكات * الثانية هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والامر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة الى البدع والضلال * الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة واكل مال الايتام وجمع الحطام لاجل الشهوات * الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الاموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة فالصفة البهيمية هى التى تغلب اولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم اذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع والمكر والحيلة وهى الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهى الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه امهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة الى بيان تفصيل ذلك فانه واضح ﴿ قسمة ثانية ﴾ اعلم ان الذنوب تنقسم الى ما بين العبد وبين الله تعالى والى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الاموال وشتمه الاعراض وكل متناول من حق الغير فاما نفس او طرف اومال اوعرض اودين اوجاه وتناول الدين بالاغواء والدعاء الى البدعة والترغيب فى المعاصى وتهييج اسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الر على جانب الخوف ومايتعلق بالعباد فالامر فيه اغلظ ومابين العبد وبين الله تعالى اذا لم يكن شركا فالعفو فيه ارجى

والنهار ومن بغتات الامور وفجات الاقدار ومن شر كل طارق يطرق الا طارقا يطرق منك بخير يارحمن الدنيا والاخرة ورحيمهما اعوذ بك ان ازل او ازل او اضل او اضل او اظلم او اظلم او اجهل او يجهل على عز جارك وجل ثناؤك وتقدست اسماؤك وعظمت نعماؤك اعوذ بك من شر مايلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها اعوذ بك من حدة الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتعاطى الكلفة اللهم انى اعوذ من مباهاة المكثرين والازراء على المقلين وان انصر ظالما او اخذل مظلوما وان

واقرب

وأقرب وقد جاء في الخبر(1) الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى واما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد أي لا بد وان يطالب بها حتى يعفى عنها ﴿ قسمة ثالثة ﴾ اعلم أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف اذ قال تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلا كريما وقال تعالى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم وقال صلى الله عليه وسلم(2) الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة يكفرن ما بينهن ان اجتنبت الكبائر وفي لفظ آخر كفارات لما بينهن الا الكبائر وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه(3) عبد الله بن عمرو بن العاص الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من اربع الى سبع الى تسع الى احدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر هن سبع وقال عبد الله بن عمرو هن تسع وكان ابن عباس اذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن الى سبعين اقرب منها الى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما اوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل انها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة وقال ابن مسعود لما سئل عنها اقرأ من اول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة الى هنا فهو كبيرة وقال ابو طالب المكي الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الاخبار(4) وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم اربعة في القلب وهي الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره * وأربع في اللسان وهي شهادة

---

(1) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر الحديث احمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبراني (2) حديث الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنبت الكبائر مسلم من حديث أبي هريرة (3) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس رواه البخاري (4) الاخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن ابي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الاخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والامن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس والسحر وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم ظلما واكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى وسأذكر ما ورد منها مرفوعا وقد تقدم اربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هي قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث ابي بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وقال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور وقال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم اي قال ان تزاني حليلة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس انما هي أربع لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعوني على ان لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الاوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبزار من حديث ابن عباس باسناد حسن ان رجلا قال يا رسول الله ما الكبائر قال الشرك بالله والاياس

أقول في العلم بغير علم أو أعمل في الدين بغير يقين اعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم أعوذ بعفوك من عقابك واعوذ برضاك من سخطك واعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك اللهم انت ربي لا اله الا انت خلقتني وانا عبدك وابن عبديك وعلى عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي انه لا يغفر الذنوب الا انت اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا اللهم اجعل أوله رحمة واوسطه نعمة وآخره

الزور وقذف المحصن واليمين الغموس وهي التي يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سواكا من أراك وسميت غموسا لانها تغمس صاحبها في النار والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الاجسام عن موضوعات الخلقة وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم * واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواط * واثنتان في اليدين وهما القتل والسرقة * وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما وان سألاه حاجة فلا يعطيهما وان يسباه فيضر بهما و يجوعان فلا يطعمهما هذا ماقاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء اذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الاموال ولم يذكر في كبائر النفوس الا القتل فامافقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع اطرافه لاشك في أنه أكبر من أكل ماله كيف وفي الخبر

من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أولهن الاشراك بالله وفيه والانتقال الى الاعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حثمة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه بن لهيعة وله في الاوسط من حديث ابي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه والرجوع الى الاعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الاشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن ابيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث واثلة ان من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على مالم أقل وله ايضا من حديثه ان من أكبر الكبائر أن ينتفي الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل و بين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولابي داود من حديث سعيد بن زيد من اربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال انهما ليعذبان ومايعذبان في كبير وانه لكبير اما احدهما فكان يمشي بالنميمة واما الآخر فكان لا يستتر من بوله الحديث ولاحمد في هذه القصة من حديث ابي بكرة اما احدهما فكان يا كل لحوم الناس الحديث ولابي داود والترمذي من حديث انس عرضت على ذنوب أمتي فلم ار ذنبا اعظم من سورة من القرآن او آية أوتيها رجل ثم نسيها سكت عليه ابوداود واستغفر به البخاري والترمذي وروى ابن ابي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع اصرار وفيه ابو شيبة الخراساني والحديث منكر يعرف به ﴿ واما الموقوفات ﴾ فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الاشراك بالله والامن من مكر الله والقنوط من رحمة الله والياس من روح الله وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشراك بالله والياس من روح الله والامن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات واكل مال اليتيم والفرار من الزحف واكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمدا واشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم وروى ابن ابي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه وروى ابومنصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الاصرار واسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون او اثنان وثلاثون الا ان بعضها لايصح اسناده كما تقدم وانما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ماورد في الموضوع وما ورد في الموقوف وللبيهقي في الشعب عن ابن عباس انه قيل له الكبائر سبع فقال هي الى السبعين اقرب وروى البيهقي ايضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة والله اعلم

تكرمة اصبحنا واصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيهما لله الواحد القهار اصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة ابينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين اللهم انا نسالك بان لك الحمد لا اله الا انت الحنان المنان بديع السموات والارض ذوالجلال والاكرام انت الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد ياحي ياقيوم ياحي حين لاحي في ديمومة ملكه وبقائه ياحي محي الموتى ياحي مميت الاحياء

من الكبائر (١) السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض اخيه المسلم وهذا زائد على قذف المحصن وقال (٢) أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة انكم لتعملون اعمالا هى أدق فى اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا ان نظر الناظر فى السرقة أهى كبيرة ام لا لايصح مالم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا لامطمع فى تعريفه الا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده فى السرقة فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع وذلك لان الكبير والصغير من المضافات ومامن ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى مادونه وصغير بالاضافة الى مافوقه فالمضاجعة مع الاجنبية كبيرة بالاضافة الى النظرة صغيرة بالاضافة الى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة الى ضربه صغيرة بالاضافة الى قتله نعم للانسان ان يطلق على ماتوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ونعنى بوصفه بالكبيرة ان العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق ماعلى أوجب الحد عليه مصيرا الى ان ماعجل عليه فى الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله ان يطلق على ماورد فى نص الكتاب النهى عنه فيقول تخصيصه بالذكر فى القرآن يدل على عظمه ثم يكون عظيما وكبيرة لامحالة بالاضافة اذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات لاحرج فيها ومانقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شئ من هذه الاحتمالات نعم من المهمات ان تعلم معنى قول الله تعالى ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات كفارات لما بينهن الا الكبائر فان هذا اثبات حكم الكبائر والحق فى ذلك ان الذنوب منقسمة فى نظر الشرع الى مايعلم استعظامه اياها والى مايعلم انها معدودة فى الصغائر والى مايشك فيه فلا يدرى حكمه فالطمع فى معرفة حد حاصر اوعدد جامع مانع طلب لما لايمكن فان ذلك لايمكن الا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يقول انى اردت بالكبائر عشرا اوخمسا ويفصلها فان لم يرد هذا بل ورد فى بعض الالفاظ (٣) ثلاث من الكبائر وفى بعضها (٤) سبع من الكبائر ثم ورد ان السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر وهو خارج عن السبع والثلاث علم انه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع فى عدد مالم يعده الشرع وربما قصد الشرع ابهامه ليكونوا على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها نعم لنا سبيل كلى يمكننا ان نعرف به اجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف ايضا اكبر الكبائر فاما اصغر الصغائر فلا سبيل الى معرفته وبيانه انا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا ان مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق الى جوار الله تعالى وسعادة لقائه وأنه لا وصول لهم الى ذلك الا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله واليه الاشارة بقوله تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون اى ليكونوا عبيدا لى ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد ان يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الاقصى ببعثه الانبياء ولكن لا يتم هذا الا فى الحياة

(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض اخيه المسلم عزاه ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لاحمد وأبى داود من حديث بن زيد والذى عندهما من حديث من اربى الربا استطالة فى عرض المسلم بغير حق كما تقدم (٢) حديث ابى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة انكم تعملون اعمالا هى أدق اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر احمد والبزار بسند صحيح وقال من الموبقات بدل الكبائر رواه البخارى من حديث انس والحاكم من حديث عبادة ابن قرص وقال صحيح الاسناد (٣) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث ابى بكرة ألا أنبئكم باكبر الكبائر ثلاثا الحديث وقد تقدم (٤) حديث سبع من الكبائر طب فى الاوسط من حديث ابى سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله فى الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث ابى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات

ووارث الارض والسماء اللهم انى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لااله الاهو الحى القيوم لاتاخذه سنة ولا نوم اللهم انى اسالك باسمك الاعظم الاجل الاعز الاكرم الذى اذا دعيت به اجبت واذا سئلت به اعطيت يانور النور يامدبر الامور ياعالم مافى الصدور ياسميع ياقريب يامجيب الدعاء يا لطيفا لما يشاء يارؤف يارحيم ياكبير ياعظيم ياالله يارحمن ياذا الجلال والاكرام الم الله لااله الاهو الحى القيوم وعنت الوجوه للحى القيوم يا الهى واله كل شئ الها واحدا لااله الاانت اللهم انى أسألك باسمك ياالله الله الله

الدنيا وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام (١) الدنيا مزرعة الآخرة فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا لانه وسيلة اليه والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيآن النفوس والاموال فكل مايسد باب معرفة الله تعالى فهو اكبر الكبائر ويليه مايسد باب حياة النفوس ويليه مايسد باب المعايش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الابدان والاموال على الاشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها وهذه ثلاثة امور لا يتصور ان يختلف فيها الملل فلا يجوز ان الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه اصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يامرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله او يامرهم باهلاك النفوس واهلاك الاموال فحصل من هذا ان الكبائر على ثلاث مراتب * الاولى مايمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر اذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل والوسيلة المقربة له اليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ويتلوا الجهل الذي يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فان هذا أيضا عين الجهل فمن عرف الله لم يتصور ان يكون آمنا ولا ان يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وافعاله وبعضها اشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبافعاله وشرائعه وباوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم الى مايعلم انها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن والى مايعلم انه لا يدخل والى مايشك فيه وطالب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع * المرتبة الثانية النفوس اذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله فقتل النفس لا محالة من الكبائر وان كان دون الكفر لان ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود اذ حياة الدنيا لا تراد الا للآخرة والتوصل اليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه الكبيرة قطع الاطراف وكل مايفضي الى الهلاك حتى الضرب وبعضها اكبر من بعض ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الانساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الامور التي لا ينتظم العيش الا بها بل كيف يتم النظام مع اباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها باناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور ان يكون الزنا مباحا في أصل شرع قصد به الاصلاح وينبغي ان يكون الزنا في الرتبة دون القتل لانه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تميز الانساب ويحرك من الاسباب مايكاد يفضي الى التقاتل وينبغي ان يكون أشد من اللواط لان الشهوة داعية من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم اثر الضرورة بكثرته * المرتبة الثالثة الاموال فانها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاؤا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبغي ان تحفظ لتبقى ببقائها النفوس الا أن الاموال اذا اخذت امكن استردادها وان اكلت امكن تغريمها فليس يعظم الامر فيها نعم اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي ان يكون ذلك من الكبائر وذلك باربع طرق احدها الخفية وهي السرقة فانه اذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك الثاني اكل مال اليتيم وهذا أيضا من الخفية وأعني به في حق الولي والقيم فانه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الامر فيه واجب بخلاف الغصب فانه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانة في الوديعة فان المودع خصم فيه ينتصف لنفسه الثالث تفويتها بشهادة الزور الرابع اخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طرق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز ان تختلف الشرائع في تحريمها أصلا وبعضها اشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس وهذه الاربعة جديرة بان تكون مرادة بالكبائر وان لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن اكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تاثيرها وأما اكل الربا فليس فيه الا اكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط

الله الذي لا اله الا هو رب العرش العظيم فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم انت الاول والاخر والظاهر والباطن وسعت كل شيء رحمة وعلما كهيعص حم عسق الر حم ن ياواحد ياقهار ياعزيز ياجبار ياأحد ياصمد ياودود ياغفور هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين اللهم انى اعوذ باسمك المكنون المخزون المنزل السلام الطهر الطاهر القدوس المقدس يادهر ياديهور ياديهار ياأبد ياأزل يامن لم يزل ولا يزال ولا يزول هو ياهو لا اله الا هو يامن

(١) حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الاخلاق من حديث طارق بن اشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث واسناده ضعيف

وضعه الشرع ولا يبعد ان تختلف الشرائع فى مثله واذا لم يجعل الغصب الذى هو اكل مال الغير بغير رضاه و بغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا اكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وان عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم ايضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة والمصير الى ان اكل دانق بالخيانة او الغصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع فى مظنة الشك واكثر ميل الظن الى انه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغى ان تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا فى الدين فيبقى مما ذكره ابو طالب المكى القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وحقوق الوالدين * اما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بان يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر ايضا لان العقل محفوظ كما ان النفس محفوظة بل لا خير فى النفس دون العقل فازالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجرى فى قطرة من الخمر فلا شك فى انه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وانما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها فى محل الشك وايجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم امره فيعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس فى قوة البشرية الوقوف على جميع اسرار الشرع فان ثبت اجماع فى انه كبيرة وجب الاتباع والا فللتوقف فيه مجال * واما القذف فليس فيه الا تناول الاعراض والاعراض دون الاموال فى الرتبة ولتناولها مراتب واعظمها التناول بالقذف بالاضافة الى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع امره واظن ظنا غالبا ان الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذى نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث انه يجوز ان تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز ان يرد الشرع بان العدل الواحد اذا رأى انسانا يزنى فله أن يشهد و يجلد المشهود عليه بمجرد شهادته فان لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا فى مصالح الدنيا وان كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة فى رتبة الحاجات فاذا هذا أيضا يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع فاما من ظن ان له ان يشهد وحده اوظن انه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغى ان يجعل فى حقه من الكبائر * وأما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة والا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد من هلاك نفس أو مرض أوغيره * وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف واذا قطع بان سب الناس بكل شئ سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بغصب أموالهم واخراجهم من مساكنهم وبلادهم واجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر اذ لم ينقل ذلك فى السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف فى هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر فاذا رجع حاصل الامر الى أنا نعنى بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم الى ما علم أنه لا تكفره قطعا والى ما ينبغى ان تكفره والى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفى والاثبات و بعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله الا نص كتاب أوسنة واذا لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال فان قلت فهذا اقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق اليه الابهام لان دار التكليف هى دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها فى الدنيا من حيث انها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما وانما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة والابهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرؤن على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ولكن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس فان مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع اشد تأثيرا فى تنوير قلبه من اقدامه على النظر فى اظلامه فهذا معنى تكفيره فان كان عنينا أولم يكن امتناعه الا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا

لاهو الاهو يامن لا يعلم ماهو الا هو يا كان يا كينان ياروح يا كائن قبل كل كون يا كائن بعد كل كون يامكونا لكل كون أهيا أشراهيا أدوناى اصبؤت يامجلى عظائم الامور فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ليس كمثله شئ وهو السميع البصير اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم و بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع اللهم انى أعوذ

لا يصلح للتكفير اصلا وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والاوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الاوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر و يطلقها في السماع فجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت اليه من معصية السماع فكل هذه احكام اخروية و يجوز ان يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها الا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بالفاظ مختلفات فقد روى ابي هريرة رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) الصلاة الى الصلاة كفارة ورمضان الى رمضان كفارة الا من ثلاث اشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة قيل ماترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة ان يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا وامثاله من الالفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لا محالة مبهما فان قلت الشهادة لا تقبل الا ممن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة وهذا من احكام الدنيا فاعلم انا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في ان من يسمع الملاهي و يلبس الديباج و يتختم بخاتم الذهب و يشرب في اواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب احد الى ان هذه الامور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه اذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم ارد شهادته فقد جعله كبيرة بايجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفيا واثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدح في العدالة الا مالا يخلو الانسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الاقوال وسماع الغيبة وترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على حد المصلحة واكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الاهل والولد جميع ما يحتاجون اليه من امر الدين فهذه ذنوب لا يتصور ان ينفك الشاهد عن قليلها وكثيرها الا بان يعتزل الناس و يتجرد لامور الآخرة و يجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك. ولو لم يقبل الا قول مثله لعز وجوده و بطلت الاحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة اهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالاجنبيات وامثال هذه الصغائر من هذا القبيل فالى مثل هذا المنهاج ينبغي ان ينظر في قبول الشهادة وردها الا الى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما ان المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر

﴿بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا﴾

اعلم ان الدنيا من عالم الملك والشهادة والاخرة من عالم الغيب والملكوت واعني بالدنيا حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك واخرتك صفاتك واحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والمتاخر آخره ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الاخرة فانا الان نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك الا بضرب الامثال ولذلك قال تعالى وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون وهذا لان عالم الملك نوم بالاضافة الى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم(٢) الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وماسيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم الا بضرب الامثال المحوجة الى التعبير فكذلك ماسيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا الا في كثرة الامثال واعني بكثرة الامثال وما تعرفه من علم التعبير و يكفيك منه ان كنت فطنا ثلاثة امثلة فقد جاء الى ابن سيرين فقال رأيت كان في يدي خاتما اختم به افواه

بك من فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات اللهم اني اعوذ بك من شر ما علمت وشر مالم اعلم واعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلبي اللهم اني اعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والمسكنة واعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الاخلاق وضيق الارزاق والسمعة والرياء واعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسائر الاسقام اللهم اني اعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن فجاة نقمتك ومن جميع سخطك اللهم اني اسالك الصلاة

(١) حديث الصلاة الى الصلاة كفارة ورمضان الى رمضان كفارة الا من ثلاث اشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة الحديث الحاكم من حديث ابي هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد (٢) حديث الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا لم اجده مرفوعا وانما يعزى الى علي بن ابي طالب

الرجال وفروج النساء فقال انك مؤذن تؤذن فى رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كانى أصب الزيت فى الزيتون فقال ان كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فانها أمك سبيت فى صغرك لان الزيتون أصل الزيت فهو يرد الى الاصل فنظر فاذا جاريته كانت أمه وقد سبيت فى صغره وقال له آخر رأيت كانى أقلد الدر فى أعناق الخنازير فقال انك تعلم الحكمة غير اهلها فكان كما قال والتعبير من اوله الى اخره أمثال تعرفك طريق ضرب الامثال وانما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة ان نظر الى معناه وجده صادقا وان نظر الى صورته وجده كاذبا بالمؤذن ان نظر الى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فانه لم يختم به قط وان نظر الى معناه وجده صادقا اذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذى يراد الختم له وليس للانبياء أن يتكلموا مع الخلق الا بضرب الامثال لانهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم انهم فى النوم والنائم لا يكشف له عن شىء الا بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا ان المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) قلب المؤمن بين أصبعين من اصابع الرحمن وهو من المثال الذى لا يعقله الا العالمون فالجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذى يسمى تاويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الامثلة فى النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعا تعالى الله عن قوله علوا كبيرا وكذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم (٢) ان الله خلق آدم على صورته فانه لا يفهم من الصورة الا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علوا كبيرا ومن ههنا زل من زل فى صفات الهية حتى فى الكلام وجعلوه صوتا وحرفا الى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم (٣) يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد الاحمق ويكذب ويستدل به على كذب الانبياء ويقول ياسبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا الا محال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال وما يعقلها الا العالمون ولا يدرى المسكين أن من قال رأيت فى منامى أنه جىء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد وذبح فقال المعبر صدقت والامر كما رأيت وهذا يدل على ان هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لان المذبوح وقع الياس منه فاذن المعبر صادق فى تصديقه وهو صادق فى رؤيته وترجع حقيقة ذلك الى أن الموكل بالرؤيا وهو الذى يطلع الارواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لان النائم انما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا انما يكلمون الناس فى الدنيا وهى بالاضافة الى الآخرة نوم فيوصلون المعانى الى أفهامهم بالامثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن ادراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل الى الافهام حصول الياس من الموت وقد جبلت القلوب على التاثر بالامثلة وثبوت المعانى فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن عن سرعة التقليب وقد أشرنا الى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات فلنرجع الآن الى الغرض فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن الا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذى نضربه معناه لا صورته فنقول الناس فى الآخرة ينقسمون اصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة الدنيا فى هذا المعنى أصلا البتة فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن ارادته الازلية مطردة لا تبديل لها الا انا ان عجزنا عن احصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن احصاء الاجناس فنقول الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة الى أربعة أقسام هالكين ومعذبين وناجين

(١) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من اصابع الرحمن تقدم (٢) حديث ان الله خلق آدم على صورته تقدم
(٣) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من حديث أبى سعيد

على محمد وعلى آله وأسالك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسالك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل واعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل وأسالك ماسالك عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم واستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأسالك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى الى نفسى طرفة عين وأصلح لى شانى كله يا نور

وفائزين ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على أقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون و يعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ويخلى بعضهم فهم الناجون و يخلع على بعضهم فهم الفائزون فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك الا باستحقاق فلا يقتل الا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له فى أصل الدولة ولا يعذب الا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلى الا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع الا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة واهلاك الهالكين اما تحقيقا بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم فى المعاندة وتعذيب المعذبين فى الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد انواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب الى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم ان الناس فى الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن يعذب مدة ومن ناج يحل فى دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون الى من يحلون فى جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون الى من يعذب قليلا والى من يعذب ألف سنة الى سبعة آلاف سنة (١) وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد فى الخبر وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها

﴿ الرتبة الاولى ﴾ وهى رتبة الهالكين ونعنى بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى اذ الذى قتله الملك فى المثال الذى ضربناه آيس من رضا الملك واكرامه فلا تغفل عن معانى المثال وهذه الدرجة لا تكون الا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه فان السعادة الاخروية فى القرب من الله والنظر الى وجهه وذلك لا ينال أصلا الا بالمعرفة التى يعبر عنها بالايمان والتصديق والجاحدون هم المنكرون والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين و بانبيائه المرسلين انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه و بين مايشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا مع نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وانما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب الا ذاته فقط فاما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها اذ نار الفراق اذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للاجسام فان نار الفراق نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة ونار جهنم لا شغل لها الا مع الاجسام وألم الاجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ولذلك قيل

وفى فؤاد المحب نار جوى * أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة اذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا فقد رؤى من غلب عليه الوجد فعدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما فى قلبه وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها فى الحال لان الغضب نار فى القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) الغضب قطعة من النار واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الاجساد والاشد يبطل الاحساس بالاضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف الا من حيث انه يفرق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التاليف الممكن فى الاجسام فالذى يفرق بين القلب و بين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تاليف أشد احكاما من تاليف الاجسام فهو أشد ايلاما ان كنت من أرباب البصائر وارباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الالم و يستحقره بالاضافة الى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان و بين ألم

(١) حديث ان آخر من يخرج من النار يعذب سبعة الاف سنة الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت الى يوم القيامة وذلك سبعة الاف سنة (٢) حديث الغضب قطعة من النار الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه وقد تقدم

السموات والارض يا جمال السموات والارض يا عماد السموات والارض يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام يا صريخ المستصرخين يا غوث المستغيثين يا منتهى رغبة الراغبين والمفرج عن المكروبين والمروح عن المغمومين ومجيب دعوة المضطرين وكاشف السوء وأرحم الراحمين واله العالمين منزول بك كل حاجة يا أرحم الراحمين اللهم استر عوراتى وامن روعاتى وأقلنى عثراتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك ان اغتال من تحتى اللهم انى ضعيف

الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو فى الميدان مع الصولجان أحب الى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء و بين فعل جميل يقهر به الاعداء و يفرح به الاصدقاء لآثر الهريسة والحلواء وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يلذها الا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها الا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق الا فى اللسان والسمع الا فى الآذان فلا تكون هذه الصفة الا فى القلب فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الالحان وحسن الصورة والالوان وليس لكل انسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر بل أعنى به السر الذى هو من عالم الامر وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وسائر الاعضاء عاله ومملكته ولله الخلق والامر جميعا ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه قل الروح من أمر ربى هو الامير والملك لان بين عالم الامر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الامر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى اذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته ونظر بعين الرحمة الى الحاملين له على ظاهر لفظه والى المتعسفين فى طريق تاويله وان كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التاويل لان الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر وان اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الامر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهى حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ولنعد الى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس الا للجهال المكذبين وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها

﴿ الرتبة الثانية ﴾ رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى باصل الايمان ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه فان رأس الايمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد الا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ الهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قولك لا اله الا الله معنى قوله تعالى قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون وهو ان تذر بالكلية غير الله ومعنى قوله تعالى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد الا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف فى الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير اذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل وذلك قادح فى كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضى لا محالة نقصانا فى درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة انما يكون بسبب أمرين أحدهما قوة الايمان وضعفه والثانى كثرة اتباع الهوى وقلته واذ لا يخلو بشر فى غالب الامر عن واحد من الامرين قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ولذلك قال الخائفون من السلف انما خوفنا لانا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا فى النجاة ولما روى الحسن الخبر الوارد(١) فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان قال الحسن ياليتنى كنت ذلك الرجل واعلم ان فى الاخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة و بين سبعة آلاف سنة

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان أحمد وأبو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون

فقو فى رضاك ضعفى وخذ الى الخير بناصيتى واجعل الاسلام منتهى رضائى اللهم انى ضعيف فقونى اللهم انى ذليل فاعزنى اللهم انى فقير فاغننى برحمتك ياأرحم الراحمين اللهم انك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى وتعلم مافى نفسى فاغفر لى ذنوبى اللهم انى أسألك ايمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى الا ما كتبت لى والرضا بما قسمت لى ياذا الجلال والاكرام اللهم ياهادى المضلين و ياراحم المذنبين ومقيل عثرة العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع

حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث و بين اللحظة و بين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والاسبوع والشهر وسائر المدد وان الاختلاف بالشدة لانهاية لاعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب كما ان الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الاعمال بالمناقشة فى الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب و يتطرق الى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة وهو اختلاف الانواع اذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الاقارب والضرب وقطع اللسان واليد والانف والاذن وغيره فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهى بحسب اختلاف قوة الايمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها اما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرته فبكثرتها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الايمان وهو المعنى بقوله تعالى ومار بك بظلام للعبيد و بقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت و بقوله تعالى وأن ليس للانسان الاماسعى و بقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الاعمال وكل ذلك بعدل لاظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح اذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم[1] سبقت رحمتى غضبي وقال تعالى وان تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجرا عظيما فاذا هذه الامور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فاما التفصيل فلا يعرف الاظنا ومستنده ظواهر الاخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار فنقول كل من أحكم أصل الايمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض أعنى الاركان الخمسة ولم يكن منه الاصغائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه ان يكون عذابه المناقشة فى الحساب فقط فانه اذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته اذ ورد فى الاخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر واقل درجات التكفير ان يدفع العذاب ان لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغى ان يكون بعد ظهور الرجحان فى الميزان و بعد الفراغ من الحساب فى عيشة راضية نعم التحاقه باصحاب اليمين او بالمقربين ونزوله فى جنات عدن او فى الفردوس الاعلى فكذلك يتبع اصناف الايمان لان الايمان ايمانان تقليدى كايمان العوام يصدقون بما يستمعون و يستمرون عليه وايمان كشفى يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ماهو عليه فيتضح ان الكل الى الله مرجعه ومصيره اذ ليس فى الوجود الا الله تعالى وصفاته وافعاله فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الاعلى وهم على غاية القرب من الملأ الاعلى وهم ايضا على اصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين فى المعرفة بالله تعالى لا تنحصر اذ الاحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة و بحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وانما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم و بقدر ماسبق لهم من الله تعالى فى الازل فالطريق الى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم واما المؤمن ايمانا تقليديا فهو من اصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين وهم ايضا على درجات فالاعلى من درجات اصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر وادى الفرائض كلها اعنى الاركان الخمسة التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج فاما من ارتكب كبيرة او كبائر او اهمل بعض اركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الاجل التحق بمن لم يرتكب لان التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ اصلا وان مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت اذ ربما يكون موته على الاصرار سببا لتزلزل ايمانه فيختم له بسوء الخاتمة لاسيما اذا كان ايمانه تقليديا فان التقليد وان كان جزما

الاحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بامر على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا اله الا هو انت الوكيل واليك المصير يامن لا يشغله شان عن شان ولا يشغله سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الاصوات و يامن لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات و يامن لا يتبرم بالحاح الملحين اذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم انى اسالك قلبا سليما واسانا صادقا وعملا

(١) حديث سبقت رحمتى غضبي مسلم من حديث أبى هريرة

فهو قابل للانحلال بادنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما ان ماتا على الايمان يعذبان الا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة فى الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين ففى الخبر (١) آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف فلا تظن ان المراد به تقديره بالمساحة لاطراف الاجسام كان يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فان هذا جهل بطريق ضرب الامثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوى عشرة دنانير فاعطاه مائة دينار فان لم يفهم من المثل الا المثل فى الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان والجمل فى الكفة الاخرى عشر عشيره بل هو موازنة معانى الاجسام وارواحها دون اشخاصها وهياكلها فان الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه الا الجوهريون فان روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة اخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبي بل القروى والبدوى ويقول ماهذه الجوهرة الا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل الف الف مثقال فقد كذب فى قوله انى اعطيته عشرة امثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل الى تحقيق ذلك عنده الا بان ينتظر به البلوغ والكمال وان يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الاموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة اذ يقول صلى الله عليه وسلم (٢) الجنة فى السموات كما ورد فى الاخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة امثال الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوى وكما ان الجوهرى مرحوم اذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم اذا بلى بالبليد الابله فى تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل والانبياء مرحومون بين الامة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الامة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الازلى وهو المعنى بقوله عليه السلام (٤) البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فلا تظنن ان البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذى ينزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام ايضا من البلاء العظيم اذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه الى الله الا فرارا ولذلك لما تاذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال (٥) رحم الله اخى موسى لقد اوذى باكثر من هذا فصبر فاذا لا تخلو الانبياء عن الابتلاء بالجاحدين ولا تخلو الاولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين

(١) حديث ان آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود
(٢) حديث كون الجنة فى السموات خ من حديث ابى هريرة فى اثناء حديث فيه فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال الحديث ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس الا انه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه ابو البحترى واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال قلت يارسول الله اى الناس اشد بلاء فذكره دون ذكر الاولياء وللطبرانى من حديث فاطمة اشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله اخى موسى لقد اوذى باكثر من هذا فصبر البخارى من حديث ابن مسعود

متقبلا أسـ من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم واستغفرك لما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم انى أسألك ايمانا لا يرتد ونعيما لا ينفد وقرة عين الابد ومرافقة نبيك محمد واسألك حبك وحب من احبك وحب عمل يقرب الى حبك اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على خلقك أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وكلمة العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر ولذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك واعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة

ولذلك فلما ينفك الاولياء عن ضروب من الايذاء وأنواع البلاء بالاخراج من البلاد والسعاية بهم الى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب ان يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب ان يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين فاذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه السلام انه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات واياك ان تقتصر بتصديقك على مايدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجلين لان الحمار يشاركك فى الحواس الخمس وانما انت مفارق للحمار بسر الهى عرض على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنه واشفقن منه فادراك مايخرج عن عالم الحواس الخمس لايصادف الا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله واهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى اهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالاعراض عنها فلاتكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم فكل من لم يعرف الا المدرك بالحواس فقد نسى الله اذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسى الله انساه الله لامحالة نفسه ونزل الى رتبة البهائم وترك الترقى الى الافق الاعلى وخان فى الامانة التى اودعه الله تعالى وانعم عليه كافرا لانعمه ومتعرضا لنقمته الا انه اسوأ حالا من البهيمة فان البهيمة تتخلص بالموت واما هذا فعنده امانة سترجع لامحالة الى مودعها واليه مرجع الامانة ومصيرها وتلك الامانة كالشمس الزاهرة وانما هبطت الى هذا القالب الفانى وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب مغربها وتعود الى بارئها وخالقها اما مظلمة منكسفة واما زاهرة مشرقة والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلمة ايضا راجعة الى الحضرة اذ المرجع والمصير للكل اليه الا انها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين الى جهة اسفل سافلين ولذلك قال تعالى ولوترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم فبين انهم عند ربهم الا انهم منكوسون قد انقلبت وجوههم الى اقفيتهم وانتكست رؤسهم عن جهة فوق الى جهة اسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه فنعوذ بالله من الضلال والنزول الى منازل الجهال فهذا حكم انقسام من يخرج من النار و يعطى مثل عشرة امثال الدنيا او اكثر ولايخرج من النار الا موحد ولست اعنى بالتوحيد ان يقول بلسانه لا اله الا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلاينفع الا فى عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وايدى الغانمين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة فحيث لاتبقى رقبة ولامال لاينفع القول باللسان وانما ينفع الصدق فى التوحيد وكمال التوحيد ان لايرى الامور كلها الا من الله وعلامته ان لايغضب على احد من الخلق بما يجرى عليه اذ لايرى الوسائط وانما يرى مسبب الاسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة فمن فى قلبه مثقال دينار من ايمان فهو اول من يخرج من النار وفى الخبر يقال (١) اخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من ايمان وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال و بين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا فى الموازنة بين اعيان الاموال و بين النقود واكثر مايدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذى لايترك فاما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير اليها ففى الاثر ان العبد ليوقف بين يدى الله تعالى وله من الحسنات امثال الجبال لوسلمت له لكان من اهل الجنة فيقوم اصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا واخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لاتبقى له حسنة فتقول الملائكة يار بنا هذا قد فنيت حسناته و بقى طالبون كثير فيقول الله تعالى القوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا الى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم اذ ينقل اليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء ان بعض اخوانه اغتابه ثم ارسل اليه يستحله فقال لا افعل ليس فى صحيفتى حسنة افضل منها فكيف امحوها وقال هو

(١) حديث اخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من ايمان الحديث تقدم

مضلة اللهم اقسم لى من خشيتك ما تحول به بينى و بين معصيتك ومن طاعتك مايدخلنى جنتك ومن اليقين ما يهون به علينا مصائب الدنيا اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعود حتى نجد لذة ماتطلب وخوف ما منه نهرب اللهم البس وجوهنا منك الحياء واملا قلوبنا بك فرحا واسكن فى نفوسنا من عظمتك مهابة وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك احب الينا مما سواك واجعلنا اخشى لك ممن سواك نسالك تمام النعمة بتمام التوبة ودوام العافية بدوام العصمة واداء الشكر

وغيره ذنوب اخوانى من حسناتى اريدان از ين بها صحيفتى فهذا ماأردنا ان نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر اسباب يضاهى حكم الطبيب على مريض بانه يموت لامحالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بان عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك ظن يصيب فى اكثر الاحوال ولكن قد تتوق الى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق الى ذى العارض الخفيف اجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من اسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الاحياء وغموض الاسباب التى رتبها مسبب الاسباب بقدر معلوم اذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة لهما اسباب خفية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى الى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضى الى الهلاك بالغضب والانتقام وراء ذلك سر المشيئة الالهية الازلية التى لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا ان نجوز العفو عن العاصى وان كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وان كثرت طاعاته الظاهرة فان الاعتماد على التقوى والتقوى فى القلب وهو أغمض من ان يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لارباب القلوب انه لا عفو عن عبد الا بسبب خفى فيه يقضى العفو ولا غضب الا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الاعمال والاوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد ولا قوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للانسان الا ما سعى وسعيه هو الذى يرى وكل نفس بما كسبت رهينة ولما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بانفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وهذا كله قد انكشف لارباب القلوب انكشافا اوضح من المشاهدة بالبصر اذ البصر يمكن الغلط فيه اذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها وانما الشان فى انفتاح بصيرة القلب والا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب واليه الاشارة بقوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى ﴿الرتبة الثالثة﴾ رتبة الناجين واعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه ان يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة فى اطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فما هم من اهل الجنة ولا من اهل النار بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالاعراف (١) وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الآيات والاخبار ومن انوار الاعتبار فاما الحكم على العين كالحكم مثلا بان الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا فى عالم النبوة ويبعد ان ترتقى اليه رتبة الاولياء والعلماء والاخبار فى حق الصبيان ايضا متعارضة حتى قالت عائشة رضى الله عنها (٢) لما مات بعض الصبيان عصفور من

---

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الاعراف البزار من حديث أبى سعيد الخدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اصحاب الاعراف فقال هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لابائهم فمنعتهم الشهادة ان يدخلوا النار ومنعتهم المعصية ان يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد ابن اسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من رواية ابى معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن ابيه مختصرا وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ويحيى بن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال اصحاب الاعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبي عن ابن عباس قال الاعراف موضع عال فى الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين (٢) حديث عائشة انها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فانكر ذلك وقال مايدريك رواه مسلم قال المصنف والاخبار فى حق الصبيان متعارضة قلت روى البخارى من حديث سمرة بن جندب فى رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه واما الرجل الطويل الذى فى الروضة

بحسن العبادة اللهم انى أسألك بركة الحياة وخير الحياة وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة وأسالك خير ما بينهما احينى حياة السعداء حياة من تحب بقاءه وتوفنى وفاة الشهداء وفاة من تحب لقاءه ياخير الرازقين وأحسن التوابين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب العالمين. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم ماخلقت واغفر ماقدرت وطيب مارزقت وتمم ماانعمت وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحفظت ولا تهتك ماسترت فانه لا اله الا انت استغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير

عصافير الجنة فانكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ومايدريك فاذا الاشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام ﴿ الرتبة الرابعة ﴾ رتبة الفائزين وهم العارفون المقلدون وهم المقربون السابقون فان المقلد وان كان له فوز على الجملة بمقام فى الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره مافصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذى لايمكن التعبير عنه فى هذا العالم فهو الذى اجمله قوله تعالى فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة اعين وقوله عز وجل اعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولااذن سمعت ولاخطر على قلب بشر والعارفون مطالبهم تلك الحالة التى لايتصور ان تخطر على قلب بشر فى هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والاساور فانهم لايحرصون عليها ولو اعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون الا لذة النظر الى وجه الله الكريم فهى غايات السعادات ونهايات اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك فى الجنة فقالت الجار ثم الدار فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شئ سواه حتى انفسهم ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر الى وجهه والفكر فيه فانه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه لايحس بما يصيبه فى بدنه و يعبر عن هذه الحالة بانه فنى عن نفسه ومعناه انه صار مستغرقا بغيره وصارت هُمومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت اليه لانفسه ولاغير نفسه وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة الى قرة عين لايتصور ان تخطر فى هذا العالم على قلب بشر كالايتصور ان تخطر صورة الالوان والالحان فى قلب الاصم والاكمه الا ان يرفع الحجاب عن سمعه و بصره فعند ذلك يدرك حاله و يعلم قطعا انه لم يتصور ان تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق و برفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف فى بيان توزيع الدرجات على الحسنات والله الموفق بلطفه

﴿بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب﴾

اعلم ان الصغيرة تكبر باسباب * منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لاصغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار

فابراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسول الله واولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطبرانى من حديثه سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اولاد المشركين فقال هم خدمة اهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف رويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائى من حديث الاسود بن سريع كنا فى غزاة لنا الحديث فى قتل الذرية وفيه الا ان خياركم أبناء المشركين ثم قال لاتقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث واسناده صحيح وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفى رواية لاحمد ليس مولود يولد الا على هذه الملة ولابى داود فى آخر الحديث فقالوا يارسول الله افرأيت من يموت وهو صغير فقال الله اعلم بما كانوا عاملين وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن اولاد المشركين فقال الله اعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث ثابت بن الحرث الانصارى كانت يهود اذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذبت يهود مامن نسمة يخلقها الله فى بطن امه الا انه شقى اوسعيد الحديث وفيه عبد الله بن لهيعة ولابى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموؤدة فى النار وله من حديث عائشة قلت يارسول الله ذرارى المؤمنين فقال مع آبائهم فقلت بلاعمل قال الله اعلم بما كانوا عاملين قلت فذرارى المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله اعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث خديجة قلت يارسول الله اين اطفالى منك قال فى الجنة قلت بلاعمل قال الله اعلم بما كانوا عاملين قلت فاين اطفالى قبلك قال فى النار قلت بلاعمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين واسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة فى اولاد المشركين هم من آبائهم وفى رواية هم منهم

خدمتك ومن كل سرور بغير قربك ومن كل فرح بغير مجالستك ومن كل شغل بغير معاملتك اللهم انى استغفرك من كل ذنب تبت اليك منه ثم عدت فيه اللهم انى استغفرك من كل عقد عقدته ثم لم اوف به اللهم انى استغفرك من كل نعمة انعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم انى استغفرك من كل عمل عملته لك فخالطه ماليس لك اللهم انى اسالك ان تصلى على محمد وعلى آل محمد واسالك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه واعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه اللهم احفظنا فيما امرتنا

فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) خير الأعمال أدومها وان قل والأشياء تستبان بأضدادها وان كان النافع من العمل هو الدائم وان قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات اذا دام عظم تأثيره في اظلام القلب الا ان الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق العود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الانسان عليها عمره * ومنها أن يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لان استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الاثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فان القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة وقد جاء في الخبر (٢) المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وانما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله فاذا نظر الى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين انكم لتعملون أعمالا هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات اذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالاضافة الى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف لان الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف * ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى ان من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته اياه كما يقول أما رأيتني كيف مزقت عرضه ويقول المناظر في مناظرته أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى خجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول المعامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فان الذنوب مهلكات واذا دفع العبد اليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر اناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه * ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله اياه ولا يدري انه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال اثما فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد اتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فان ذلك جناية منه

(١) حديث خير الاعمال أدومها وان قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم (٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث البخاري من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا

واحفظنا مما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطيتنا يا حافظ الحافظين ويا ذاكر الذاكرين ويا شاكر الشاكرين بذكرك ذكروا وبفضلك شكروا يا غياث يا مغيث يا مستغاث يا غياث المستغيثين لا تكلني الى نفسي طرفة عين فأهلك ولا الى أحد من خلقك فأضيع اكلأني كلاءة الوليد ولا تخل عني وتولني بما تتولى به عبادك الصالحين أنا عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك جار في حكمك عدل في قضاؤك نافذ في مشيئتك ان تعذب فأهل ذلك أنا وان ترحم فأهل ذلك أنت فافعل اللهم يا مولاي يا ألله يا رب ما أنت له اهل ولا تفعل اللهم يا رب يا ألله

على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا الى جنايته فغلظت به فان انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الاسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الامر وفى الخبر (١) كل الناس معافى الا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله و يتحدث بذنبه وهذا لان من صفات الله ونعمه انه يظهر الجميل و يستر القبيح ولا يهتك الستر فالاظهار كفران لهذه النعمة وقال بعضهم لا تذنب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ولذلك قال تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف وقال بعض السلف ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من ان يساعده على معصية ثم يهونها عليه * ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الابريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته اياهم بترك الانكار عليهم واطلاق اللسان فى الاعراض وتعديه باللسان فى المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه الا الجاه كعلم الجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم و يبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة فطوبى لمن اذا مات ماتت ذنوبه معه وفى الخبر (٢) من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا قال تعالى ونكتب ماقدموا وآثارهم والآثار مايلحق من الاعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها و يحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق وقال بعضهم مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق و يغرق أهلها وفى الاسرائيليات ان عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الاصلاح دهرا فاوحى الله تعالى الى نبيهم قل له ان ذنبك لو كان فيما بينى و بينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فادخلتهم النار فبهذا يتضح ان أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان احداهما ترك الذنب والاخرى اخفاؤه وكما تتضاعف اوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات اذا اتبعوا فاذا ترك التجمل والميل الى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه و يقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وان مال الى التجمل مالت طباع من دونه الى التشبه به ولا يقدرون على التجمل الا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام و يكون هو السبب فى جميع ذلك فحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها اما بالربح واما بالخسران وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها

﴿الركن الثالث فى تمام التوبة وشروطها ودوامها الى آخر العمر﴾

قد ذكرنا ان التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه و بين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلابد من بيانها (أما العلم) فالنظر فيه نظر فى سبب التوبة وسيأتى (واما الندم) فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته و بكاؤه واى عزيز أعز عليه من نفسه واى عقوبة أشد من النار واى شىء أدل على نزول العقوبة من المعاصى واى مخبر اصدق من الله ورسوله ولوحدثه انسان واحد يسمى طبيبا ان مرض ولده المريض لا يبرأ وانه سيموت منه لطال فى الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب باعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت باشد من النار ولا المرض بادل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فالم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به ارجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفى الخبر

ماأناله اهل انك أهـل التقوى واهل المغفرة يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى ما لا يضرك وأعطنى ما لا ينقصك يار بنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى امرنا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من امرنا رشدا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد

---

(١) حديث كل الناس معافى الا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث ابى هريرة بلفظ كل أمتى وقد تقدم

(٢) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم فى آداب الكسب

(١) جالسوا التوابين فانهم ارق أفئدة ومن علامته ان تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة وفى الاسرائيليات ان الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد ساله قبول توبة عبد بعد ان اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته فقال وعزتى وجلالى لو شفع فيه اهل السموات والارض ماقبلت توبته وحلاوة الذنب الذى تاب منه فى قلبه فان قلت فالذنوب هى اعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها فاقول من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه واله وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فاذا قدم اليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل ام لا فان قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم ايضا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بان كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق الا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى الا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغى ان يدوم الى الموت وينبغى ان يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب وان لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم فى العسل النفرة من الماء البارد مهما علم ان فيه مثل ذلك السم اذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث انه سرقة وزنا بل حيث انه مخالفة امر الله تعالى وذلك جار فى كل ذنب (واما القصد الذى ينبعث منه) وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له واداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك مافرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت * وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى ان يرده فكره الى اول يوم بلغ فيه بالسن او الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر الى الطاعات ما الذى قصر فيه منها والى المعاصى ما الذى فارقه منها فان كان قد ترك صلاة او صلاها فى ثوب نجس او صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن اخرها فان شك فى عدد مافاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن انه اداه ويقضى الباقى وله ان يأخذ فيه بغالب الظن ويصل اليه على سبيل التحرى والاجتهاد واما الصوم فان كان قد تركه فى سفر ولم يقضه او افطر عمدا او نسى النية بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ويشتغل بقضائه واما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من اول ملكه لا من زمان البلوغ فان الزكاة واجبة فى مال الصبي فيؤدى ماعلم بغالب الظن انه فى ذمته فان اداه لا على وجه يوافق مذهبه بان لم يصرف الى الاصناف الثمانية او اخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك فان ذلك لا يجزيه اصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه الى تامل شاف ويلزمه ان يسال عن كيفية الخروج عنه من العلماء * واما الحج فان كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد افلس فعليه الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه ان يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا مال فعليه ان يسال الناس ليصرف اليه من الزكاة او الصدقات مايحج به فانه ان مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام (٢) من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها واما المعاصى فيجب ان يفتش من اول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر فى جميع ايامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر الى غير محرم وقعود

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم ارق افئدة لم اجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن ابى الدنيا فى التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله الى النادم اقرب وقال ايضا فالموعظة الى قلوبهم اسرع وهم الى الرقة اقرب وقال ايضا التائب اسرع دمعة وارق قلبا (٢) حديث من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا الحديث تقدم فى الحج

وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من المعصية وافراغ الصبر فى الخدمة وايذاع الشكر فى النعمة أسالك حسن الخاتمة وأسالك اليقين وحسن المعرفة بك واسالك المحبة وحسن التوكل عليك وأسالك الرضا وحسن الثقة بك واسالك حسن المنقلب اليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح امة محمد اللهم ارحم امة محمد اللهم فرج عن امة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم اللهم اغفر لى ولوالدي ولمن توالدا وارحمهما كما ربياني صغيرا

في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها و بان يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة و يطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فياتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات اخذا من قوله صلى الله عليه وسلم (١) اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها بل من قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن و بمجالس الذكر و يكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة و يكفر مس المصحف محدثا با كرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله و بان يكتب مصحفا و يجعله وقفا و يكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو اطيب منه واحب اليه وعد جميع المعاصي غير ممكن وانما المقصود سلوك الطريق المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلب بمعصية فلا يمحوها الا نور يرتفع اليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي ان تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه اصدق والثقة به أكثر من ان يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم ما بينه و بين الله تعالى و يدل على ان الشيء يكفر بضده ان حب الدنيا رأس كل خطيئة واثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين اليها فلا جرم كان كل اذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له اذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم (٢) من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفي لفظ آخر الا الهم بطلب المعيشة وفي حديث عائشة رضي الله عنها (٣) اذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له اعمال تكفرها ادخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه و يقال ان الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع فان قلت هم الانسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة فاعلم ان الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكئيب فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال فما له عند الله قال اجر مائة شهيد فاذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه و بين الله تعالى واما مظالم العباد ففيها ايضا معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد ايضا فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والاتيان بالحسنات التي هي اضدادها فيقابل ايذاء الناس بالاحسان اليهم و يكفر غصب اموالهم بالتصدق بملكه الحلال و يكفر تناول اعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على اهل الدين واظهار ما يعرف من خصال الخير من اقرانه وامثاله و يكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لان ذلك احياء اذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتاق ايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد و بهذا تعرف ان ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة ثم اذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد اما في النفوس او الاموال او الاعراض او القلوب اعني به الايذاء المحض اما النفوس فان جرى عليه قتل خطا فتوبته بتسليم الدية ووصولها الى المستحق اما منه اومن عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وان كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص فان لم يعرف فيجب عليه ان يتعرف عند ولي الدم و يحكمه في روحه

---

(١) حديث اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث ابي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب و بعضه في اوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس (٢) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفي لفظ اخر الا الهم في طلب المعيشة طس وابو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث ابي هريرة بسند ضعيف وتقدم في النكاح (٣) حديث اذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له اعمال تكفرها ادخل الله عليه الغموم تقدم ايضا في النكاح وهو عند احمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن

واغفر لاعمامنا وعماتنا واخوالنا وخالاتنا وازواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الاحياء منهم والاموات يا ارحم الراحمين يا خير الغافرين (ولما كان) الدعاء مخ العبادة احببنا ان نستوفي من ذلك قسما صالحا نرجو بركته وهذه الادعية استخرجها الشيخ ابو طالب المكي رحمه الله في كتاب قوت القلوب وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا اوفي الجماعة اماما اوماموما ويختصر منها ما يشاء (الباب المحسون في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الاوقات فمن ذلك أن

فان شاء عفا عنه وان شاء قتله ولا تسقط عهدته الا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كالوزنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه فى التوبة ان يفضح نفسه و يهتك ستره و يلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى بل عليه ان يتستر بستر الله تعالى و يقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فان رفع أمر هذه الى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه و تكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ماروى (١) ان ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى قد ظلمت نفسى وزنيت وانى أريد ان تطهرنى فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يارسول الله انى قد زنيت فرده الثانية فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماتوبة اصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم (٢) وجاءت الغامدية فقالت يارسول الله انى قد زنيت فطهرنى فردها فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردنى لعلك تريد ان تردنى كما رددت ماعزا فوالله انى لحبلى فقال صلى الله عليه وسلم اما الآن فاذهبي حتى تضعى فلما ولدت أتت بالصبي فى خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فارضعيه حتى تفطميه فلما فطمته أتت بالصبي وفى يده كسرة خبز فقالت يانبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها وامر الناس فرجموها فاقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا ياخالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم امر بها فصلى عليها ودفنت (واما القصاص وحد القذف) فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وان كان المتناول مالا تناوله بغصب اوخيانة اوغبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف اوستر عيب من المبيع اونقص اجرة اجير اومنع اجرته فكل ذلك يجب ان يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من اول مدة وجوده فان مايجب فى مال الصبي يجب على الصبي اخراجه بعد البلوغ ان كان الولى قد قصر فيه فان لم يفعل كان ظالما مطالبا به اذ يستوى فى الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من اول يوم حياته الى يوم توبته قبل ان يحاسب فى القيامة وليناقش قبل ان يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه فاذا حصل مجموع ماعليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب اسامى اصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم وليستحلهم اوليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم ان يفعل منه مايقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا ان يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين ارباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فانه ان لم تف بها حسناته حمل من سيئات ارباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك ممالا يعرف وربما يكون الاجل قريبا فينبغى ان يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق اشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الاوقات هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته اما امواله الحاضرة فليرد الى المالك مايعرف له مالكا معينا ومالا يعرف له مالكا فعليه ان يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه ان يعرف قدر الحرام بالاجتهاد و يتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام (واما الجناية) على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم او يعيبهم فى الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسانه اوآذى قلبه بفعل من افعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات او غاب فقد فات امره

يلازم موضعه الذى صلى هو فيه مستقبل القبلة الا أن يرى انتقاله الى زاويته أسلم لدينه لئلا يحتاج الى حديث أو التفات الى شئ فان السكوت فى هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر يين تجده أهل المعاملة وأرباب القلوب وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة الى المفلحون والآيتين والهكم اله واحد وآية الكرسى والآيتين بعدها وآمن الرسول والآية قبلها وشهد الله وقل اللهم مالك الملك وان ربكم الله الذى خلق السموات والارض الى المحسنين ولقد جاءكم رسول الى

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف اربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم لقد تابت توبة الحديث مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذى قبله

ولا يتدارك الا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا فى القيامة واما من وجده واحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه ان يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفى وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة ياخذها من حسناته او يحمله من سيئاته فان كان فى جملة جنايته على الغير مالو ذكره وعرفه لتاذى بمعرفته كزناه بجاريته أو اهله اونسبته باللسان الى عيب من خفايا عيوبه يعظم اذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له الا ان يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب واما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فان هذه حقه فعليه ان يتلطف به ويسعى فى مهماته واغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه مايستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال فان ابى الا الاصرار فيكون تلطفه به واعتذاره اليه من جملة حسناته التى يمكن ان يجبر بها فى القيامة جنايته وليكن قدر سعيه فى فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه فى اذاه حتى اذا قاوم احدهما الآخر اوازداد عليه اخذ ذلك منه عوضا فى القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلف فى الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء ام ابى فكذلك يحكم فى صعيد القيامة احكم الحاكمين واعدل المقسطين وفى المتفق عليه من الصحيحين عن ابى سعيد الخدرى ان نبي الله صلى الله عليه وسلم[1] قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسال عن اعلم اهل الارض فدل على راهب فاتاه فقال انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة قال لا فقتله فكمل به مائة ثم سال عن أعلم أهل الارض فدل على رجل عالم فقال له انه قتل مائة نفس فهل له من توبة قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى ارض كذا وكذا فان بها اناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع الى ارضك فانها ارض سوء فانطلق حتى اذا نصف الطريق اتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله وقالت ملائكة العذاب انه لم يعمل خيرا قط فاتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا مابين الارضين فالى ايتهما كان ادنى فهو له فقاسوا فوجدوه ادنى الى الارض التى اراد فقبضته ملائكة الرحمة وفى رواية فكان الى القرية الصالحة اقرب منها بشبر فجعل من اهلها وفى رواية فاوحى الله تعالى الى هذه ان تباعدى والى هذه ان تقربى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه الى هذه اقرب بشبر فغفر له فبهذا تعرف انه لا خلاص الا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضى واما العزم المرتبط بالاستقبال فهو ان يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود الى تلك الذنوب ولا الى أمثالها كالذى يعلم فى مرضه ان الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزما انه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه فان هذا العزم يتاكد فى الحال وان كان يتصور ان تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ولكن لا يكون تائبا مالم يتاكد عزمه فى الحال ولا يتصور ان يتم ذلك للتائب فى اول مرة الا بالعزلة والصمت وقلة الاكل والنوم واحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلال اوكانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان رأس المعاصى اكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات فى الماكولات والملبوسات وقد قال بعضهم من صدق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد اليه ابدا ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما ان يتعلم مايجب عليه فى المستقبل ومايحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وان لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة الا ان يتوب عن بعض الذنوب كالذى يتوب عن الشرب

(١) حديث ابى سعيد الخدرى المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسال عن أعلم اهل الارض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث ابى سعيد

الاخر وقل ادعوا الله الايتين واخر الكهف من ان الذين امنوا واذا النون اذ ذهب مغاضبا الى خير الوارثين فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وسبحان ربك الى آخر السورة ولقد صدق الله واول سورة الحديد الى بذات الصدور وآخر سورة الحشر من لو انزلنا ثم يسبح ثلاثا وثلاثين وهكذا يحمد مثله ويكبر مثله ويتمها مائة بلا اله الا الله وحده لا شريك له فاذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القران حفظا او من المصحف او يشتغل بانواع الاذكار ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس فان

والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس ان هذه التوبة لا تصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لا تصح ان عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلا بل وجوده كعدمه فما اعظم خطأك فانا نعلم ان كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ونقول لمن قال نصح ان اردت به ان التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة او الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم فى خفايا اسرار عفو الله فان قال من ذهب الى انها لا تصح انى اردت به ان التوبة عبارة عن الندم وانما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة و يستحيل ان يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لاجل المعصية فان العلة شاملة لهما اذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لان توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف او بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة او الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث انها معصية فلا يتصور ان يكون على بعض المعاصى دون البعض ولو جاز هذا لجاز ان يتوب من شرب الخمر من احد الدنين دون الاخر فان استحال ذلك من حيث ان المعصية فى الخمرين واحد وانما الدنان ظروف فكذلك اعيان المعاصى آلات للمعصية و المعصية من حيث مخالفة الامر واحدة فاذا معنى عدم الصحة ان الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال الا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات فهو كالملك المرتب على الايجاب والقبول فانه اذا لم يتم الايجاب والقبول نقول ان العقد لا يصح اى لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا ان ثمرة مجرد الترك ان ينقطع عنه عقاب ماتركه وثمرة الندم تكفير ماسبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم الا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصى وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو اما ان تكون عن الكبائر دون الصغائر او عن الصغائر دون الكبائر او عن كبيرة دون كبيرة اما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فامر ممكن لانه يعلم ان الكبائر اعظم عند الله واجلب لسخط الله ومقته والصغائر اقرب الى تطرق العفو اليها فلا يستحيل ان يتوب عن الاعظم و يتندم عليه كالذى يجنى على اهل الملك وحرمه و يجنى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الاهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده فى الشرع فقد كثر التائبون فى الاعصار الخالية ولم يكن احد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا و يحذره السكر تحذيرا اخف منه على وجه يشعر معه انه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وان أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على اكل العسل دون السكر * الثانى ان يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده ان بعض الكبائر أشد واغلظ عند الله كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه ان ديوان العباد لا يترك وما بينه و بين الله يتسارع العفو اليه فهذا أيضا ممكن كما فى تفاوت الكبائر والصغائر لان الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسهما وفى اعتقاد مرتكبها ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا اذ يتضح له ان الخمر مفتاح الشرور وانه اذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لا يدرى فبحسب ترجع شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على الماضى * الثالث ان يتوب عن صغيرة او صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم انها كبيرة كالذى يتوب عن الغيبة او عن النظر الى غير المحرم او ما يجرى مجراها وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه امكانه انه مامن مؤمن الا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما اما ضعيفا واما قويا ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية اقوى من المقلبه فى الخوف منها لاسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة واسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه فان سلم عن شهوة

النوم فى هذا الوقت مكروه جدا فان غلبه النوم فليقم فى مصلاه قائما مستقبل القبلة فان لم يذهب النوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة يتاخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة ففى ادامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر فى هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين وأثر ذلك فى حق من يجمع فى الاذكار بين القلب واللسان أكثر واظهر وهذا الوقت اول النهار والنهار مظنة الآفات فاذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه وتبتنى اوقات النهار جميعا على

أقوى منه بان لم يعارضه الا ماهو اضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها واوجب ذلك ترك المعصية وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر الى غير المحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق فى نفسه ان قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى فلا ينبغى ان أخلع العذار وارخى العنان بالكلية بل اجاهده فى بعض المعاصى فعسانى أغلبه فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق ان يصلى و يصوم ولقيل له ان كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وان كانت لله فاترك الفسق لله فان امر الله فيه واحد فلا يتصور ان تقصد بصلاتك التقرب الى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بان يقول لله تعالى على امران ولى على المخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملى فى احدهما بقهر الشيطان عاجز عنه فى الآخر فانا أقهره فيما اقدر عليه وارجو بمجاهدتى فيه ان يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم اذ لا مسلم الا هو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له الا هذا واذا فهم هذا فهم ان غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها والخوف اذا كان من فعل ماض اورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل ان التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لانها متماثلة فى حق الشهوة وفى حق التعرض الى سخط الله تعالى نعم يجوز ان يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما فى اقتضاء السخط و يتوب عن الكثير دون القليل لان لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه و يترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة فانه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا انه لا يمكن ان يتوب عن شىء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وان يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقى عليه اما فى شدة المعصية واما فى غلبة الشهوة واذا حصل هذا التفاوت فى اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله فى الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله فى الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وان لم يكن قد اطاع الله فى جميع الاوامر والنواهى فان قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة فاقول لا لان التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه اياه ولكنى اقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فانى ارجو ان يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته اذ لا خلاف فى انه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وان لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر اسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار ان ندمه بلغ مبلغا اوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذا لا يستحيل ان تبلغ قوة الندم فى حق العنين هذا المبلغ الا انه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهى شيأ يقدر نفسه قادرا على تركه بادنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر انه يقبله والحقيقة فى هذا كله ترجع الى ان ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين احدهما حرقة الندم والآخرة شدة المجاهدة بالترك فى المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا ان يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا ان التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه فى عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا فان قلت اذا فرضنا تائبين احدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والآخر بقى فى نفسه نزوع اليه وهو يجاهدها و يمنعها فايهما افضل فاعلم ان هذا مما اختلف العلماء فيه فقال أحمد بن أبى الحوارى واصحاب ابى سليمان الدارانى ان المجاهد افضل لان له مع التوبة فضل الجهاد وقال علماء البصرة ذلك الآخر افضل لانه لو فتر فى توبته كان اقرب الى السلامة من المجاهد

هذا البناء فاذا قارب طلوع الشمس يبتدىء بقراءة المسبعات العشر وهى من تعليم الخضر عليه السلام علمها ابراهيم التيمى وذكر انه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم و ينال بالمداومة عليها جميع المتفرق فى الاذكار والدعوات وهى عشرة اشياء سبعة سبعة الفاتحة والمعوذتان وقل هو الله احد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسى وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر والصلاة على النبى وآله و يستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات و يقول سبعا اللهم افعل بى وبهم عاجلا

الذى هو فى عرضة الفتور عن المجاهدة وماقاله كل واحد من الفريقين لايخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه ان الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان * احداهما ان يكون انقطاع نزوعه اليها بفتور فى نفس الشهوة فقط فالمجاهد افضل من هذا اذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين وأعنى بقوة الدين قوة الارادة التى تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القائل ان هذا أسلم اذ لو فتر لا يعود الى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الافضل فيه خطأ وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل لانه فى أمن من خطر الشهوة والصبي افضل من البالغ لانه اسلم والمفلس افضل من الملك القاهر القامع لاعدائه لان المفلس لاعدو له والملك ربما يغلب مرة وان غلب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بان العز فى الاخطار وان العلو شرطه اقتحام الاغرار بل هو كقول القائل الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب افضل فى صناعة الاصطياد واعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لانه آمن من ان يجمح به فرسه فتنكسر اعضاؤه عند السقوط على الارض وآمن من ان يعضه الكلب و يعتدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب اذا كان قويا عالما بطريق تاديبهما اعلى رتبة واحرى بدرك سعادة الصيد ﴿ الحالة الثانية ﴾ ان يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تادبت بادب الشرع فلا تهيج الا بالاشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا اعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصودا لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك الى شهواته وان عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة فانت بعد فى طلب الظفر ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالاضافة الى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال ولا يدرى كيف يسلم ومثاله ايضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالاضافة الى من هو مشغول بمقاساة التاديب بعد ولقد زل فى هذا فريق فظنوا ان الجهاد هو المقصود الاقصى ولم يعلموا ان ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون ان قمع الشهوات واماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل فى اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات فان قلت فما قولك فى تائبين احدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والاخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه و يحترق ندما عليه فايهما افضل فاعلم ان هذا ايضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة ان تنصب ذنبك بين عينيك وقال آخر حقيقة التوبة ان تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالاضافة الى حالين وكلام المتصوفة ابدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم ان يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الاجوبة لاختلاف الاحوال وهذا نقصان بالاضافة الى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه امر غيره اذ طريقه الى الله نفسه ومنازله احواله وقد يكون طريق العبد الى الله العلم فالطرق الى الله تعالى كثيرة وان كانت مختلفة فى القرب والبعد والله اعلم بمن هو اهدى سبيلا مع الاشتراك فى اصل الهداية فاقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدئ لانه اذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى ارادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله فهو بالاضافة الى الغافل كمال ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغى ان لا يعرج على غير السلوك فان ظهر له مبادى الوصول وانكشفت له انوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات الى ماسبق من احواله وهو الكمال بل لو عاق المسافر عن الطريق

وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له اهل ولا تفعل بنا يامولانا ما نحن له اهل انك غفور حليم جواد كريم رؤف رحيم (وروى) ان ابراهيم التيمى لما قرأ هذه بعد ان تعلمها من الخضر رأى فى المنام انه دخل الجنة ورأى الملائكة والانبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة وقيل انه مكث اربعة اشهر لم يطعم وقيل لعله كان ذلك لكونه اكل من طعام الجنة فاذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة الى ان تطلع الشمس قدر رمح (روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لان أقعد

الى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر فى عبوره مدة من حيث انه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكي متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع نعم ان لم يكن الوقت وقت الرحيل بان كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على ان لا يعود الى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه انه لا يعود الى مثله فسلوك الطريق اولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه الا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك وقد أشرنا الى تلويحات منه فى كتاب العلم وفى ربع المهلكات بل نقول شرط دوام التوبة ان يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته ولكن ان كان شابا فلا ينبغي ان يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي ان يتفكر فى لذة النظر الى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له فى الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدى أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الانبياء قياس فى غاية الاعوجاج لانهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم الى الدرجات اللائقة باممهم فانهم ما بعثوا الا لارشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وان كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة الا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للامر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) اما انى لا أنسى ولكنى انسى لاشرع وفى لفظ انما اسهو لاسن ولا تعجب من هذا فان الامم فى كنف شفقة الانبياء كالصبيان فى كنف شفقة الآباء وكالمواشي فى كنف الرعاة أما ترى الاب اذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل الى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم (٢) للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه وما كانت فصاحته تقصر عن ان يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم انه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل الى لكنته بل الذى يعلم شاة او طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا فى تعليمه فاياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين نسال الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان اقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم ان التائبين فى التوبة على اربع طبقات * الطبقة الاولى ان يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه الا الزلات التي لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع الى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين اليهم الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (٣) سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا فان فيه اشارة الى انهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع الى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر

---

(١) حديث أما انى لا أنسى ولكن أنسى لاشرع ذكره مالك بلاغا بغير اسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد فى الموطا الا مرسلا لا اسناد له وكذا قال حمزة الكنانى انه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الانماطي وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للائمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا (٢) حديث انه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها فى فيه البخاري من حديث أبى هريرة وتقدم فى كتاب الحلال والحرام (٣) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله الحديث الترمذي من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم

فى مجلس اذكر الله فيه من صلاة الغداة الى طلوع الشمس احب الى من أن أعتق أربع رقاب ثم يصلي ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت واذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد فى باطنه اثرا ونورا وروحا وانسا اذا كان صادقا والذى يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا واحب ان يقرا فى هاتين الركعتين فى الاولى آية الكرسي وفى الاخرى آمن الرسول والله نور السموات والارض الى آخر

نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها والى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها وردها ثم تتفاوت درجات النزاع ايضا بالكثرة والقلة و باختلاف المدة و باختلاف الانواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلى وافضل اذ كل سيئة فانما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء انما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى ان يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه و يكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وان كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغى للمريد الضعيف ان يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الاسباب حتى يتمكن ثم يطمع فى الانكفاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية و ينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء اسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه و يسعى مع ذلك فى كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته فى الابتداء ﴿الطبقة الثانية﴾ تائب سلك طريق الاستقامة فى امهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها فى مجارى احواله من غير ان يقدم عزما على الاقدام عليها ولكنه كلما اقدم عليها لام نفسه وندم وتاسف وجدد عزمه على ان يتشمر للاحتراز من اسبابها التى تعرضه لها وهذه النفس جديرة بان تكون هى النفس اللوامة اذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد وهذه ايضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهى اغلب احوال التائبين لان الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه وانما غاية سعيه ان يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما ان تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك فى غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى اذ قال الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة فكل المام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى والذين اذا فعلوا فاحشه او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فاثنى عليهم مع ظلمهم لانفسهم لتندمهم ولومهم انفسهم عليه والى مثل هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه (١) خياركم كل مفتن تواب وفى خبر اخر (٢) المؤمن كالسنبلة يفيء احيانا و يميل أحيانا وفى الخبر (٣) لا بد للمؤمن من ذنب ياتيه الفنية بعد الفنية اى الحين بعد الحين فكل ذلك ادلة قاطعة على ان هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد اخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق فى اوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومفارقة السيات المختطفات قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) كل بنى آدم خطاؤن وخير الخطائين التوابون المستغفرون وقال ايضا (٥) المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعة اى واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى اولئك يؤتون اجرهم

الآية وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه فى يومه وليلته ثم يصلى ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما فى كل ركعة سورة وتكون صلاته هذه ليستعيذ بالله تعالى من شر يومه وليلته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول اعوذ باسماك وكلماتك التامة من شر السامة والهامة واعوذ باسمك وكلماتك التامة من شر عذابك وشر عبادك واعوذ باسمك وكلماتك التامة من شر ما يجرى به الليل والنهار ان ربى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ويقول بعد الركعتين الاولين اللهم انى اصبحت

---

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب البيهقى فى الشعب بسند ضعيف (٢) حديث المؤمن كالسنبلة تفيء احيانا وتميل احيانا ابو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبرانى من حديث عمار بن ياسر والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تفيء وفى الامثال للرامهرمزى اسناد جيد لحديث انس (٣) حديث لابد للمؤمن من ذنب ياتيه الفنية بعد الفنية الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس باسانيد حسنة (٤) حديث كل ابن ادم خطاء وخير الخطائين المستغفرون الترمذى واستغربه والحاكم وصحح اسناده من حديث انس وقال التوابون بدل المستغفرون قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى (٥) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف

مرتين بما صبروا و يدرؤن بالحسنة السيئة فما وصفهم بعدم السيئة اصلا ﴿ الطبقة الثالثة ﴾ ان يتوب و يستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة الا انه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وانما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو اقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها هذا امنيته فى حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم و يقول ليتنى لم افعله وساتوب عنه واجاهد نفسى فى قهرها لكنه تسول نفسه و يسوف توبته مرة بعد أخرى و يوما بعد يوم فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فامره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله ان يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتاخيره فربما يختطف قبل التوبة و يقع امره فى المشيئة فان تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وان غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ماسبق عليه من القول فى الازل لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على انه سبق له فى الازل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء فى حقه واذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له فى الازل ان يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها من الحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الاسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية وارتباط حصول فقه النفس الذى به تستحق المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم الا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين الا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق فى الازل بتدبير رب الارباب ولذلك قال تعالى ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها قدأفلح من زكاها وقدخاب من دساها فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامة الخذلان قال صلى الله عليه وسلم (١) ان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس انه من أهلها ولا يبقى بينه و بين الجنة الا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها فاذاً الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ماقبله اذيمكن ان يكون الموت متصلا به فليراقب الانفاس والاوقع فى المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر ﴿ الطبقة الرابعة ﴾ ان يتوب و يجرى مدة الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير ان يحدث نفسه بالتوبة ومن غير ان يتاسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى النفس الامارة بالسوء الفرارة من الخير و يخاف على هذا من سوء الخاتمة وأمره فى مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وان ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه كما لا يستحيل ان يدخل الانسان خرابا ليجد كنزا فيتفق ان يجده وان يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الانبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطالب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الاعمال كطالب الكنوز فى المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون الا العالمون والعالمون كلهم محرومون الا العاملون والعاملون كلهم محرومون الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله

وقالا فسعيد بدل لخيرهم (١) حديث ان العبد ليعمل بعمل اهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبى هريرة ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل اهل الجنة الحديث ولاحمد من رواية شهر بن حوشب عن ابى هريرة ان الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

لا استطيع دفع ما أكره ولا املك نفع ما ارجو وأصبحت مرتهنا بعملى واصبح امرى بيد غيرى فلا فقير أفقر منى اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسىء بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى ولا تسلط على من لا يرحمنى اللهم انى اعوذ بك من الذنوب التى تزيل النعم واعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ثم يصلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله فى يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الاطلاق والا فالاستخارة التى وردت بها الاخبار

وترك

وترك نفسه وعياله جياعا بزعم أنه ينتظر فضل الله بان يرزقه كنزاً يجده تحت الارض في بيته الخرب يعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين وان كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظار المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند ارباب القلوب من المتوهين والعجب من عقل هذا المتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة اذ يقول ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الاوعار في طلب الدينار واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ماهذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وانما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الاسباب واجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وان سنته لا تبديل لها فيهما جميعا وانه قد اخبر اذ قال وان ليس للانسان الا ما سعى فكيف يعتقد انه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم وان ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الامر في الدنيا وينسى قوله تعالى وفي السماء رزقكم وماتوعدون فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا الا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بان يكون داخلا تحت قوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا اى ابصرنا انك صدقت اذ قلت وان ليس للانسان الا ما سعى فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة الى سوء المنقلب والمآب

﴿ بيان ماينبغي ان يبادر اليه التائب ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق ﴾

اعلم ان الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن احد الواجبين فلا ينبغي ان يترك الواجب الثاني وهو ان يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات اما بالقلب واما باللسان واما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق باسبابها فاما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات * واما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوأ فاغفرلي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والاذكار * واما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وانواع العبادات وفي الآثار ما يدل على ان الذنب اذا أتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من اعمال القلوب وهي التوبة اوالعزم على التوبة وحب الاقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له واربعة من اعمال الجوارح وهو ان تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفي بعض الآثار[1] تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين

هي التي يصليها أمام كل امر يريده ويقرأ في هاتين الركعتين قل يا ايها الكافرون وقل هو الله أحد ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل اريده في هذا اليوم اجعل فيه الخيرة * ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ في الاولى سورة الواقعة وفي الاخرى سورة الاعلى ويقول بعدها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك احب الاشياء الي وخشيتك اخوف الاشياء عندي واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق الى لقائك واذ أقررت أعين اهل الدنيا بدنياهم فأقرر عيني بعبادتك

(١) أثر ان من مكفرات الذنب ان تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين اصحاب السنن من حديث ابي بكر الصديق رضي الله عنه مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله الا غفر الله له لفظ ابي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعا وموقوفا فلعل المصنف عبر بالاثر لارادة الموقوف فذكرته احتياطا والا فالآثار ليست من شرط كتابي

وفى بعض الاخبار(١) تصلى أربع ركعات وفى الخبر(٢) اذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار وفى الخبر الصحيح (٣) ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى عالجت امرأة فاصبت منها كل شئ الا المسيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ماصليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيئات وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة اذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات لما بينهن الا الكبائر فعلى الاحوال كلها ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار وفى الخبر(٤) المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فاعلم أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها فى كتاب الاذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فكان بعض الصحابة (٥) يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقى الاستغفار معنا فان ذهب هلكنا فنقول الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير ان يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فاما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لان تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الاخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم (٦) ماأصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لاتخلو عن الفائدة وان لم تنته الى أواخرها ولذلك قال سهل لابد للعبد فى كل حال من مولاه فاحسن احواله أن يرجع اليه فى كل شئ فان عصى قال يارب استر على فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب على فاذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة واذا عمل قال يارب تقبل منى وسئل أيضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب

واجعل طاعتك فى كل شئ منى ياأرحم الراحمين ثم يصلى بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئا من حزبه من القرآن ثم بعد ذلك أن كان متفرغا ليس له شغل فى الدنيا يتنقل فى أنواع العمل فى الصلاة والتلاوة والذكر الى وقت الضحى وان كان ممن له فى الدنيا شغل امالنفسه اولعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد ان يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغى أن يفعل ابدا لايخرج من البيت الى جهة الا بعد ان يصلى ركعتين ليقيه الله سوء المخرج ولا يدخل البيت الا و يصلى ركعتين ليقيه الله سوء المدخل بعد ان يسلم على من فى المنزل من الزوجة

---

(١) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدبة فقام نادما فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فانزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفى النهار الآية واسناده جيد (٢) حديث اذا عملت سيئة فاتبعها بحسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية البيهقى فى الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبرانى من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وماعملت من سوء فاحدث لله فيه توبة السر بالسر الحديث (٣) حديث ان رجلا قال يارسول الله انى عالجت امرأة فاصبت منها كل شئ الا المسيس الحديث فى نزول ان الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ماصليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبى امامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم الحديث (٤) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله ابن أبى الدنيا فى التوبة ومن طريقه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ بربه وسنده ضعيف (٥) حديث بعض الصحابة فى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبى موسى الاشعرى ورفعه الترمذى من حديثه أنزل الله على أمانين الحديث وضعفه وابن مردويه فى تفسيره من قول ابن عباس (٦) حديث ما أصر من استغفر الحديث تقدم فى الدعوات

فقال

فقال اول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فالاستجابة اعمال الجوارح والانابة اعمال القلوب والتوبة اقباله على مولاه بان يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده ماواه ثم التنقل الى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفه ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله اليه فيرفعه الى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش وسئل ايضا عن قوله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله فقال انما يكون حبيبا اذا كان فيه جميع ماذكر فى قوله تعالى التائبون العابدون الاية وقال الحبيب هو الذى لا يدخل فيما يكرهه حبيبه والمقصودان للتوبة ثمرتين احداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لاذنب له والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير ايضا درجات فبعضه محو لاصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار من اوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة اصلا فلا ينبغى ان تظن ان وجودها كعدمها بل عرف اهل المشاهدة وارباب القلوب معرفة لاريب فيها ان قول الله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره صدق وانه لاتخلو ذرة من الخير عن اثر كما لاتخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن اثر ولو خلت الشعيرة الاولى عن اثر لكانت الثانية مثلها ولكان لايرجح الميزان باحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير الى ان يثقل فترفع كفة السيئات فاياك ان تستصغر ذرات الطاعات فلاتاتيها وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر فى كل ساعة الا على خيط واحد وتقول اى غناء يحصل بخيط وما وقع ذلك فى الثياب ولاتدرى المعتوهة ان ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وان اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله اصلا بل اقول الاستغفار باللسان ايضا حسنة اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم او فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصانا بالاضافة الى عمل القلب ولذلك قال بعضهم لشيخه ابى عثمان المغربى ان لسانى فى بعض الاحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل فقال اشكر الله اذا استعمل جارحة من جوارحك فى الخير وعوده الذكر ولم يستعمله فى الشر ولم يعوده الفضول وماذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصى فمن تعود لسانه الاستغفار اذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه الى ماتعود فقال استغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه الى قول مااحمقك وما اقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة اذا احدث بظهور مبادى الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله واذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصى فى احدى الكلمتين ويسلم فى الاخرى وسلامته اثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى ان الله لا يضيع اجر المحسنين ومعانى قوله تعالى وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما فانظر كيف ضاعفها اذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول هذا تضعيف فى الدنيا لادنى الطاعات وتضعيف الاخرة اكبر لوكانوا يعلمون فاياك وان تلمح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات فان هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل اليهم انهم ارباب البصائر واهل التفطن للخفايا والسرائر فاى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق فى هذه المكيدة الى ثلاثة اقسام ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات * أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هى كلمة حق اردت بها باطلا فلا جرم اعذبك مرتين وارغم أنفك من وجهين فاضيف الى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه * واما الظالم المغرور فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فاسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل وافق شن طبقه وافقه فاعتنقه

وغيرها وان لم يكن فى البيت احد يسلم أيضا ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين وان كان متفرغا فاحسن اشغاله فى هذا الوقت الى صلاة الضحى الصلاة فان كان عليه قضاء صلى صلاة يوم او يومين اوا كثر والا يصل ركعات يطولها ويقرأ فيها القرآن فقد كان من الصالحين من يختم القرآن فى الصلاة بين اليوم والليلة والا فليصل اعدادا من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله احد وبالايات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير وامثال هذه الاية

*واما المقتصدفلم يقدر على ارغامه باشراك القلب فى العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة الى القلب ولكن اهتدى الى كماله بالاضافة الى السكوت والفضول فاستمرعليه وسال الله تعالى ان يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها واصبح كاتبا والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة اصلا وأصبح كناسا والمقتصد كالذى عجزعن الكتابة فقال لاانكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة الى الكاتب لا بالاضافة الى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا اترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فلا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكرالله بل تذم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكت عن الاستغفار باللسان ايضا احتاج الى استغفارين لا الى استغفار واحد فهكذا ينبغى ان تفهم ذم مايذم وحمد مايحمد والاجهلت معنى ماقال القائل الصادق حسنات الابرار سيئات المقربين فان هذه امور تثبت بالاضافة فلا ينبغى ان تؤخذ من غير اضافة بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى ولذلك قال جعفر الصادق ان الله تعالى خبا ثلاثا فى ثلاث رضاه فى طاعته فلا تحقروا منها شيا فلعل رضاه فيه وغضبه فى معاصيه فلا تحقروا منها شيا فلعل غضبه فيه وخبأ ولايته فى عباده فلا تحقروا منهم احدا فلعله ولى الله تعالى وزاد وخبا اجابته فى دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه

(الركن الرابع فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار)

اعلم ان الناس قسمان * شباب لاصبوة له نشا على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (1) تعجب ربك من شاب ليست له صبوة وهذا عزيز نادر * والقسم الثانى هو الذى لايخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون الى مصرين والى تائبين وغرضنا ان نبين العلاج فى حل عقدة الاصرار ونذكر الدواء فيه فاعلم ان شفاء التوبة لايحصل الا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء اذ لا معنى للدواء الا مناقضة اسباب الدواء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وابطاله ولا يبطل الشىء الا بضده ولا سبب للاصرار الا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة الا العلم ولا يضاد الشهوة الا الصبر على قطع الاسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى واولئك هم الغافلون لا جرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون فلا دواء اذا للتوبة الا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما فيقمع الاسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغى ان تفهم علاج القلب مما به من مرض الاصرار فاذا لهذا الدواء اصلان احدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانهما فان قلت اينفع كل علم لحل الاصرار ام لا بد من علم مخصوص فاعلم ان العلوم بجملتها أدوية لامراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه اكما ان علم الطب نافع فى علاج الامراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الابدان ليكون اقرب الى الفهم فنقول يحتاج المريض الى التصديق بامور *(الاول)* ان يصدق على الجملة بان للمرض والصحة اسبابا يتوصل اليها بالاختيار على مارتبه مسبب الاسباب وهذا هو الايمان باصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان باصل الشرع وهو ان للسعادة فى الاخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الايمان باصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله اما عن تحقيق او تقليد وكلاهما من جملة الايمان *(الثانى)* انه لا بد ان يعتقد المريض فى طبيب معين انه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان ايمانه باصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الايمان ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بان كل مايقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف *(الثالث)* انه لا بد ان يصغى الى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والاسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء

(1) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة احمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة

فتكون

يقرأ فى كل ركعة آيه منها امامرة او يكررها مهما شاء ويقدر للطالب أن يصلى بين الصلاة التى ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان فى الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة الى مائتين الى خمسمائة الى الف ركعة ومن ليس له فى الدنيا شغل وقد ترك الدنيا على اهلها فما باله ينطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى (قال سهل بن عبد الله التسترى) لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله فى الدنيا حاجة فاذا ارتفعت الشمس وتنصف الوقت من صلاة الصبح الى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر

فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء ووزانه من الدين الاصغاء الى الآيات والاخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع مايلقى الى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذى هو الركن الاخر فى العلاج ﴿ الرابع ﴾ أن يصغى الى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولا تفصيل مايضره من افعاله واحواله ومأكوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شئ ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أوذنوب مخصوصة وانما حاجته فى الحال مرهقة الى العلم بانها ذنوب ثم الى العلم بآفاتها وقدر ضررها ثم الى العلم بكيفية التوصل الى الصبر عنها ثم الى العلم بكيفية تكفير ماسبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فالعاصى ان علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لايدرى أن مايرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك وذلك بان يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة اومسجد أومشهد فيعلم أهله دينهم ويميز مايضرهم عما ينفعهم ومايشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغى أن يصبر الى أن يسئل عنه بل ينبغى أن يتصدى لدعوة الناس الى نفسه فانهم ورثة الانبياء والانبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لايعرفون مرضهم كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولامرآة معه لايعرف برصه مالم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لايولدون الاجهالا فلابد من تبليغ الدعوة اليهم فى الاصل والفرع والدنيا دار المرضى اذ ليس فى بطن الارض الاميت ولا على ظهرها الا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الابدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم الى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لايحتمى او الذى غلب عليه الجنون الى القيم ليقيده بالسلاسل والاغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس وانما صار مرض القلوب أكثر من مرض الابدان لثلاث علل احداها أن المريض به لايدرى انه مريض

* والثانية ان عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم بخلاف مرض البدن فان عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع عنه ومابعد الموت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد فى هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وان علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال

* والثالثة وهو الداء العضال فقد الطبيب فان الاطباء هم العلماء وقد مرضوا فى هذه الاعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا الى اغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لان الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الاطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من ان يقال لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الاطباء بل اشتغل الاطباء بفنون الاغواء فليتهم اذلم ينصحوا لم يغشوا واذلم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فانهم اذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم الا مايرغب العوام ويستميل قلوبهم ولايتوصلون الى ذلك الا بالارجاء وتغليب اسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لان ذلك ألذ فى الاسماع وأخف على الطباع فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا اهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه فالرجاء والخوف دواآن ولكن لشخصين متضادى العلة اما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه مالا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة اسرافه فى الخوف بذكر اسباب الرجاء ليعود الى الاعتدال وكذلك المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التى سبقت يعالج

والمغرب يصلى الضحى فهذا الوقت أفضل الاوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الضحى اذا رمضت الفصال وهو أن ينام الفصيل فى ظل أمه عند حر الشمس وقيل الضحى اذا ضحيت الاقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك ان كان هناك حق يقضى مما ندب اليه من زيارة أو عيادة يمضى فيه والا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهرا وباطنا وقلبا وقالبا والا فباطنا وترتيب ذلك انه يصلى مادام منشرحا

ونفسه مجيبة فان سئم ينزل من الصلاة الى التلاوة فان مجرد التلاوة اخف على النفس من الصلاة فان سئم التلاوة ايضا يذكر الله بالقلب واللسان فهو اخف من القراءة فان سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى اليه فادام هذا العلم ملازما لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين الذكر وافضله فان عجز عن ذلك ايضا وتملكته الوساوس وتزاحم في باطنه حديث النفس فلينم ففي النوم السلامه والافكثرة حديث النفس تقسي القلب ككثرة الكلام لانه كلام من غير لسان فيحترز عن

أيضا باسباب الرجاء حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب فامامعالجة المغرور المسترسل فى المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والاغبياء فاذافساد الاطباء هى المعضلة الزباء التي لاتقبل الدواء أصلافان قلت فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق فاعلم ان ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير الى الانواع النافعة فى حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي اربعة انواع الاول ان يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ماورد من الاخبار والاثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم (١) مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان باربعة أصوات يقول احدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا و يقول الاخر ياليتهم اذخلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الاخر ياليتهم اذلم يعلموا لماذاخلقوا عملوا بما علموا وفى بعض الروايات ليتهم تجالسوا فتذاكروا ما علموا و يقول الاخر ياليتهم اذلم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا وقال بعض السلف اذا أذنب العبد امرصاحب اليمين صاحب الشمال وهو اميرعليه ان يرفع القلم عنه ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبها عليه وان لم يستغفر كتبها وقال بعض السلف مامن عبد يعصى الا استاذن مكانه من الارض ان يخسف به واستاذن سقفه من السماء ان يسقط عليه كسفا فيقول الله تعالى للارض والسماء كفا عن عبدى وامهلاه فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب الى فاغفر له ولعله يستبدل صالحا فابدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده وفى حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢) الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم ارسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها وفى حديث مجاهد (٣) القلب مثل الكف المفتوحة كلما اذنب العبد ذنبا انقبضت اصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع وقال الحسن ان بين العبد و بين الله حدا من المعاصي معلوما اذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير والاخبار والاثار فى ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي ان يستكثر الواعظ منها ان كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) فانه ماخلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما اصابه (النوع الثانى) حكايات الانبياء والسلف الصالحين وماجرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق مثل احوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة حتى روى انه لما اكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيا التاج والاكليل من وجهه ان يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فاخذ التاج عن راسه وحل الاكليل عن جبينه ونودى من فوق العرش اهبطا من جوارى فانه لايجاورني من عصاني قال

---

(١) حديث مامن يوم طلع فجره ولاليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان باربعة اصوات فيقول احدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم اجده هكذا وروى ابومنصور الديلمي فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ان لله ملكا ينادي فى كل ليلة ابناء الاربعين زرع قددنا حصاده الحديث وفيه ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم اذخلقوا علموا لماذا خلقوا وتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث (٢) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فاذا انتهكت الحرمات الحديث ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٣) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قلت هكذا قال المصنف وفى حديث مجاهد وكانه اراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه فى شعب الايمان للبيهقى من قول حذيفة (٤) حديث انه صلى الله عليه وسلم ماخلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة البخارى من حديث عمرو ابن الحرث قال ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا امة ولمسلم من حديث عائشة ماترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا وفى حديث ابى الدرداء ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم الحديث وقد تقدم فى العلم

فالتفت آدم الى حواء باكيا وقال هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما وقيل لان المرأة سألته أن يحكم لابيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لابيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فاذا قال أطعمونى فانى سليمان بن داود شج وطرد وضرب وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته و بصقت فى وجهه وفى رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه الى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الاربعين أيام العقوبة قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر اليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم فى عذركم الآن ان هذا امر كان من السماء ولا بد منه وروى فى الاسرائيليات ان رجلا تزوج امرأة من بلدة اخرى فارسل عبده ليحملها اليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبيا فى بنى اسرائيل وفى قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بتركى المعاصى لاجل الله تعالى وروى ان الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر الى قميصه نظرة وكان جديدا فكأنه اعجبه قال فوضعته الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك قالت انما نطيعك اذا اطعت الله وروى ان الله تعالى اوحى الى يعقوب عليه السلام اتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف قال لا قال لقولك لاخوته أخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظى له وتدرى لم رددته عليك قال لا قال لانك رجوتنى وقلت عسى الله ان يأتينى بهم جميعا وبما قلت اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك اذكرنى عند ربك قال الله تعالى فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين وامثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والاخبار وورود الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم ان الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار نعم كانت سعادتهم فى ان عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا اثما ولان عذاب الآخرة اشد واكبر فهذا ايضا مما ينبغى ان يكثر جنسه على اسماع المصرين فانه نافع فى تحريك دواعى التوبة ﴿ النوع الثالث ﴾ ان يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل فى امر الآخرة ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا اكثر لفرط جهله فينبغى ان يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الامر كما حكى فى قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى انه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه اعداؤه قال صلى الله عليه وسلم (١) ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقال ابن مسعود انى لاحسب ان العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام (٢) من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه ابدا وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا فى الوجه ونقصانا فى المال انما اللعنة ان لا تخرج من ذنب الا وقعت فى مثله او اشر منه وهو كما قال لان اللعنة هى الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد ابعد والحرمان عن رزق التوفيق اعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون وحكى عن بعض العارفين انه كان يمشى فى الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشى فى وسط الوحل ويبكى ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض فى الذنوب خوضا وهو اشارة الى ان الذنب تتعجل

(١) حديث ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده واللفظ له الا انه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا تقدم

ذلك قال سهل ابن عبد الله أسوأ المعاصي حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فانه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع كشخص آخر فى باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ويمكن للطالب المجد أن يصلى من صلاة الضحى الى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة أو يقرأ فى كل ركعتين جزأ من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد أخر من الركعات

عقوبته بالانجرار الى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الاخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم انى لاعرف عقوبة ذنبي فى سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى فى فأر بيتى وقال بعض صوفية الشام نظرت الى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر اليه فمر بى ابن الجلاء الدمشقى فاخذ بيدى فاستحييت منه فقلت ياأباعبدالله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدى وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة وقال أبو سليمان الدرانى الاحتلام عقوبة وقال لايفوت أحدا صلاة جماعة الابذنب يذنبه وفى الخبر (١) ماأنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم وفى الخبر (٢) يقول الله تعالى ان أدنى ماأصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتى ان أحرمه لذيذ مناجاتى وحكي عن أبى عمرو بن علوان فى قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائما ذات يوم أصلى فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتى حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت الى الارض واسود جسدى كله فاستترت فى البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غسله فى الحمام بالصابون فلا يزداد الا سوادا حتى انكشفت بعد ثلاث فلقيت الجنيد وكان قد وجه الى فاشخصنى من الرقة فلما أتيته قال لى أما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك بزقة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى فلولا انى دعوت الله لك وتبت اليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة واعلم انه لايذنب العبد ذنبا الا ويسود وجه قلبه فان كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر وان كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار والاخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة ان يكسب مايبعده صفته فان ابتلى بشىء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وان اصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته ﴿النوع الرابع﴾ ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وكل ذلك ممالايمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه بل ينبغى ان يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولا بالنبض والسحنة ووجوه الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها فليستدل بقرائن الاحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حيث قال له واحد أوصنى يارسول الله ولا تكثر على قال لا تغضب (٤) وقال له آخر أوصنى يارسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما فى أيدى الناس فان ذلك هو الغنى واياك والطمع فانه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع واياك ومايعتذر منه وقال رجل لمحمد بن واسع أوصنى فقال أوصيك ان تكون ملكا فى الدنيا والآخرة قال وكيف لى بذلك قال الزم الزهد فى الدنيا فكانه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الاول مخايل الغضب فنهاه عنه وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الامل وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصنى فقال كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما فكانه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لابراهيم بن أدهم أوصنى فقال اياك والناس وعليك بالناس ولابد من الناس فان الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقى النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا فى ماء الياس فكانه تفرس فيه آفة المخالطة واخبر عما كان هو الغالب

حسن ﴿قال سفيان﴾ كان يعجبهم اذا فرغوا ان يناموا طلبا للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها انه يعين على قيام الليل ومنها ان النفس يستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس اذا استراحت عادت جديدة فبعد الانتباه من نوم النهار تجد فى الباطن نشاطا آخر وشغفا آخر كما كان فى اول النهار فيكون للصادق فى النهار نهاران يغتنمهما بخدمة الله تعالى والدؤب فى العمل وينبغى ان يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء بحيث يكون

(١) حديث ماأنكرتم من زمانكم فبما انكرتم من اعمالكم البيهقى فى الزهد من حديث أبى الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلى وهو عبدالله بن هانىء قلت هو متهم بالكذب قال ابن ابى حاتم روى عن ابيه أحاديث بواطيل (٢) حديث يقول الله ان ادنى ماأصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتى أن أحرمه لذة مناجاتى غريب لم أجده (٣) حديث قال رجل اوصنى ولا تكثر على قال لا تغضب تقدم (٤) حديث قال له آخر اوصنى قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم

على حاله فى وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله الى عائشة رضى الله عنها أن اكتبي لى كتابا توصيني فيه ولا تكثرى فكتبت اليه من عائشة الى معاوية سلام عليك أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (١) من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله الى الناس والسلام عليك فانظر الى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت اليه مرة أخرى أما بعد فاتق الله فانك اذا اتقيت الله كفاك الناس واذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام فاذا على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة الى تفرس الصفات الخفية وتوسم الاحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان فان قلت فان كان الواعظ يتكلم فى جمع أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل فاعلم أن طريقه فى ذلك ان يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة اليه اما على العموم واما على الاكثر فان فى علوم الشرع أغذية وادوية فالاغذية للكافة والادوية لارباب العلل ومثاله ماروى ان رجلا قال لابى سعيد الخدرى اوصنى قال عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك فى اهل الارض وذكر لك فى اهل السماء وعليك بالصمت الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان * وقال رجل للحسن اوصنى فقال اعز امر الله يعزك الله وقال لقمان لابنه يابنى زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى اعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة افضل من الصوم ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين * وقال أيضا لابنه يابنى لا تضحك من غير عجب ولا تمش فى غير ارب ولا تسال عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يابنى ان من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لابى حازم أوصنى فقال كل مالو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه * وقال موسى للخضر عليهما السلام اوصنى فقال كن بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران وقال رجل لمحمد ابن كرام اوصنى فقال اجتهد فى رضا خالقك بقدر ما تجتهد فى رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف اوصنى فقال اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف ان تدنسه الافات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا الا مالا بد منه وترك كثرة الكلام الا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس الا فيما لا بد منه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى اما بعد فخف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما فى يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن يسأله أن يعظه فكتب اليه اما بعد فان الهول الاعظم والامور المفظعات امامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك اما بالنجاة واما بالعطب واعلم ان من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر فى العواقب نجا ومن اطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن امن اعتبر ومن اعتبر ابصر ومن ابصر فهم ومن فهم علم فاذا زللت فارجع واذا ندمت فاقلع واذا جهلت فاسأل واذا غضبت فامسك * وكتب مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز رحمه الله اما بعد فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا امير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى عدي بن ارطاة اما بعد فان الدنيا عدوة اولياء

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس الحديث الترمذى والحاكم وفى مسند الترمذى من لم يسم

وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكرا أو مسبحا أو تاليا قال الله تعالى وأقم الصلاة طرفى النهار وقال فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها قيل قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل غروبها صلاة العصر ومن آناء الليل فسبح أراد العشاء الاخيرة وأطراف النهار أراد الظهر والمغرب لان الظهر صلاة فى آخر الطرف الاول من النهار وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب فصار الظهر آخر الطرف الاول والمغرب آخر الطرف الآخر فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الاول وقد عاد بنوم

الله وعدوة أعداء الله فاما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم وكتب أيضا الى بعض عماله أما بعد فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك واعلم انك لا تأتى الى الناس شيا الا كان زائلا عنهم باقيا عليك واعلم ان الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام فهكذا ينبغى أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدرى خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الاغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها ولاجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصى واستسرى الفساد وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون اسجاعا وينشدون ابياتا ويتكلفون ذكر ماليس فى سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل الى القلب بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخاف فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله ﴿ الاصل الثانى الصبر ﴾ ووجه الحاجة اليه ان المريض انما يطول مرضه لتناوله مايضره وانما يتناول ذلك امالغفلته عن مضرته واما لشدة غلبة شهوته فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه فى كتاب رياضة النفس وحاصله ان المريض اذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه ان يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الالم الذى يناله فى تركه فلابد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه فى السعى وراء شهوته فينبغى ان يستشعر ضرر ذنبه بان يستقرى المخوفات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتد خوفه تباعد من الاسباب المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر اليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الاطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم الا بصبر ولا يصبر الا عن خوف ولا يخاف الا عن علم ولا يعلم الا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد فاول الامر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف الى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه واذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعى لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن اعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسنيسره الله تعالى لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الانبياء الا شرح طرق الهدى وانما لله الاخرة والاولى فان قلت فقد رجع الامر كله الى الايمان لان ترك الذنب لا يمكن الا بالصبر عنه والصبر لا يمكن الا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون الا بالعلم والعلم لا يحصل الا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الايمان فكان من اصر على الذنب لم يصر عليه الا لانه غير مؤمن * فاعلم ان هذا لا يكون لفقد الايمان بل يكون لضعف الايمان اذ كل مؤمن مصدق بان المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب فى الاخرة ولكن سبب وقوعه فى الذنب امور * احدها ان العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالاضافة الى تأثرها بالحاضر * الثانى ان الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهى فى الحال اخذة بالمخنق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والالف والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن العاجل لخوف الاجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الاخرة وقال عز وجل بل تؤثرون الحياة الدنيا وقد عبر عن شدة الامر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقوله صلى الله عليه وسلم (٢) ان الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام

النهار جديدا كما كان بنوم الليل ويصلى فى اول الزوال قبل السنة والفرض اربع ركعات بتسليمة واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه صلاة الزوال قبل الظهر فى اول اوقاتها ويحتاج ان يراعى لهذه الصلاة اول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء فيشرع فى صلاة الزوال ويسمع الاذان وقد توسط هذه الصلاة ثم يستمد لصلاة الظهر فان وجد فى باطنه كدرا من مخالطة او مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع اليه ولا يشرع فى صلاة الظهر الا بعد ان يجد الباطن عائدا

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره الحديث متفق عليه من حديث ابى هريرة (٢) حديث ان الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر اليها الحديث ابو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث ابى هريرة وقدم فيه ذكر الجنة

اذهب فانظر اليها فنظر اليها فقال وعزتك لايسمع بها أحد فيدخلها فحفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر وقال وعزتك لقد خشيت ان لا يبقى أحد الا دخلها وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر اليها فنظر وقال وعزتك لا يسمع بها أحد الا دخلها فحفها بالمكارة ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر اليها فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يدخلها أحد فاذا كون الشهوة مرهقة فى الحال وكون العقاب متأخرا الى المآل سببان ظاهران فى الاسترسال مع حصول اصل الايمان فليس كل من يشرب فى مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا باصل الطب ولا مكذبا بان ذلك مضر فى حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الالم المنتظر

* الثالث انه مامن مذنب مؤمن الا وهو فى الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بان ذلك يجبره الا ان طول الامل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الايمان * الرابع انه ما من مؤمن موقن الا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة ايجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب و ينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للاصرار على الذنب مع بقاء أصل الايمان نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح فى أصل ايمانه وهو كونه شاكا فى صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذى يحذره الطبيب عن تناول ما يضره فى المرض فان كان المحذر ممن لا يعتقد فيه انه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به فهذا هو الكفر فان قلت فما علاج الاسباب الخمسة فاقول هو الفكر وذلك بان يقرر على نفسه فى السبب الاول وهو تاخر العقاب ان كل ما هو آت آت وان غدا للناظرين قريب وان الموت اقرب الى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب والمتأخر اذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه أنه ابدا فى دنياه يتعب فى الحال لخوف امر فى الاستقبال اذ يركب البحار و يقاسى الاسفار لاجل الربح الذى يظن انه يحتاج اليه فى ثانى الحال بل لو مرض فاخبره طبيب نصرانى بان شرب الماء البارد يضره و يسوقه الى الموت وكان الماء البارد الذ الاشياء عنده تركه مع ان الموت المه لحظة اذا لم يخف مابعده ومفارقته للدنيا لابد منها فكم نسبة وجوده فى الدنيا الى عدمه ازلا وابدا فلينظر كيف يبادر الى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلى ان يكون قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات عندى دون قول نصرانى يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له الاعوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندى اخف من عذاب المرض وكل يوم فى الاخرة بمقدار خمسين الف سنة من ايام الدنيا وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه و يكلف نفسه تركها ويقول اذا كنت لا اقدر على ترك لذاتى ايام العمر وهى ايام قلائل فكيف اقدر على ذلك ابد الآباد واذا كنت لا اطيق الم الصبر فكيف اطيق الم النار واذا كنت لا اصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف اصبر عن نعيم الآخرة واما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر فى ان اكثر صياح اهل النار من التسويف لان المسوف يبنى الامر على ما ليس اليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وان بقى فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعرى هل عجز فى الحال الا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف اذ تتأكد بالاعتياد فليست الشهوة التى أكدها الانسان بالعادة كالتى لم يؤكدها وعن هذا هلك المسوفون لانهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون ان الايام متشابهة فى ان ترك الشهوات فيها ابدا شاق ومامثال المسوف الا مثال من احتاج الى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع الا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم اعود اليها وهو يعلم ان الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة فى الدنيا اعظم من حماقته اذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فاخذ ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف واما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع امواله و يترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى ان يرزقه العثور على كنز فى ارض خربة فان امكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده وترك ذخائر امواله فى صحن داره وقدر على دفنها واخفائها فلم يفعل وقال

الى حالة من الصفاء والذائقون حلاوة المناجاة لابد ان يجدوا صفو الانس فى الصلاة ويتكدرون بيسير من الاسترسال فى المباح ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الاهل والولد مع كون ذلك عبادة ولكن حسنات الابرار سيآت المقربين فلا يدخل الصلاة الا بعد حل العقد واذهاب الكدر وحل العقد بصدق الانابة والاستغفار والتضرع الى الله تعالى ودواء ما يحدث من الكدر بمجالسة الاهل والولدان أن يكون فى مجالسته غير راكن اليهم كل الركون بل يسترق

انتظر من فضل الله تعالى ان يسلط غفلة اوعقوبة على الظالم الناهب حتى لايتفرغ الى دارى اواذا انتهى الى دارى مات على باب الدار فان الموت ممكن والغفلة ممكنة وقد حكى فى الاسمار ان مثل ذلك وقع فانا انتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر امر ممكن ولكنه فى غاية الحماقة والجهل اذ قد لا يمكن ولا يكون واما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الاسباب التى تعرفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن ان يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ماقاله الانبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن او تقول اعلم انه محال كما اعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة فان قال اعلم استحالته كذلك فهو اخرق معتوه وكانه لا وجود لمثل هذا فى العقلاء وان قال أنا شاك فيه فيقال لو اخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك فى البيت لحظة انه ولغت فيه حية والقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله او تتركه وان كان الذ الاطعمة فيقول اتركه لا محالة لانى أقول ان كذب فلا يفوتنى الا هذا الطعام والصبر عنه وان كان شديدا فهو قريب وان صدق ففوتنى الحياة والموت بالاضافة الى ألم الصبر عن الطعام واضاعته شديد فيقال له ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الانبياء كلهم مع ماظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الاولياء والعلماء والحكماء بل جميع اصناف العقلاء ولست اعنى بهم جهال العوام بل ذوى الالباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس فى العقلاء الا من صدق باليوم الاخر واثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا فى كيفيته فان صدقوا فقد اشرفت على عذاب يبقى ابد الآباد وان كذبوا فلا يفوتك الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف وان كان عاقلا مع هذا الفكر اذ لا نسبة لمدة العمر الى ابد الآباد بل لو قدرنا الدنيا مملوأة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط فى كل الف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص ابد الاباد شيأ فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة تبقى أبد الاباد ولذلك قال ابو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى

قال المنجم والطبيب كلاهما * لاتبعث الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر * اوصح قولى فالخسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الامور وكان شاكا ان صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا والا فقد تخلصت وهلكت اى العاقل يسلك طريق الامن فى جميع الاحوال فان قلت هذه الامور جلية ولكنها ليست تنال الا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته وما علاج القلوب لردها الى الفكر لاسيما من آمن باصل الشرع وتفصيله فاعلم ان المانع من الفكر امران احدهما ان الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة واهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر فى امور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة والثانى ان الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ومامن انسان الا وله فى كل حالة من احواله ونفس من انفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخر الشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه اوفى مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك واما علاج هذين المانعين فهو ان يقول لقلبه ما اشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت ومابعده تالما بذكره مع استحقار ألم مواقعته فكيف تصبر على مقاساته اذا وقع وانت عاجز عن الصبر على تقدير الموت ومابعده ومتالم به واما الثانى وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا فهو ان يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فانها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدثور وهى مشوبة بالمكدرات فمافيها لذة صافية عن كدر وكيف وفى التوبة عن المعاصى والاقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الانس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله الا مايجده من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف اليه من نعيم الاخرة نعم هذه اللذة لاتكون فى ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ماعودتها تتعود والخير

القلب فى ذلك نظرات الى الله تعالى فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة الا ان يكون قوى الحال لايحجبه الخلق عن الحق فلا ينعقد على باطنه عقدة فهو كما يدخل فى الصلاة لايجدها و يجد باطنه وقلبه لانه حيث استروحت نفس هذا الى المجالسة كان استرواح نفسه منغمرا بروح قلبه لانه يجالس ويخالط وعين ظاهرة ناظرة الى الخلق وعين قلبه مطالعة للحضرة الالهية فلا ينعقد على باطنه عقدة وصلاة الزوال التى ذكرناها تحل العقد وتهيء الباطن لصلاة الظهر فيقرأ فى صلاة الزوال بمقدار سورة

عادة والشر لحاجة فاذاهذه الافكار هى المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الافكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب باسباب تتفق لا تدخل فى الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب اليه و يعبر عن السبب الذى اوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوفيق اذ التوفيق هو التاليف بين الارادة و بين المعنى الذى هو طاعة نافعة فى الآخرة وقد روى فى حديث طويل انه قام عمار بن ياسر فقال لعلى ابن ابى طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين اخبرنا عن الكفر على ماذا بنى فقال على رضى الله عنه بنى على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمى نسى الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الامانى فاخذته الحسرة والندامة و بدا له من الله مالم يكن يحتسب فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر فى التوبة كاف واذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلابد من بيان الصبر فنذكره فى كتاب مفرد ان شاء الله تعالى

﴿كتاب الصبر والشكر وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله أهل الحمد والثناء المنفرد برداء الكبرياء المتوحد بصفات المجد والعلاء المؤيد صفوة الاولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى أصحابه سادة الاصفياء وعلى آله قادة البررة الاتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء (أما بعد) فان الايمان نصفان نصف صبر و نصف شكر كما وردت به الآثار وشهدت له الاخبار (١) وهما ايضا وصفان من اوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى اذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الايمان ثم هو غفلة عن وصفين من اوصاف الرحمن ولا سبيل الى الوصول الى القرب من الله تعالى الا بالايمان وكيف يتصور سلوك سبيل الايمان دون معرفة ما به الايمان ومن به الايمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الايمان وعن ادراك ما به الايمان فما احوج كلا الشطرين الى الايضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين فى كتاب واحد لارتباط احدهما بالآخر ان شاء الله تعالى

(الشطر الاول) فى الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر و بيان حده وحقيقته و بيان كونه نصف الايمان و بيان اختلاف اساميه باختلاف متعلقاته و بيان اقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف و بيان مظان الحاجة الى الصبر و بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهى سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده ان شاء الله تعالى

﴿بيان فضيلة الصبر﴾

قد وصف الله تعالى الصابرين باوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا وأضاف اكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا وقال الله تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا وقال تعالى ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما كانوا يعملون وقال الله تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب فما من قربة الا وأجرها بتقدير وحساب الا الصبر ولاجل كون الصوم من الصبر وانه نصف الصبر قال الله تعالى الصوم لى وانا اجزى به فاضافه الى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بانه معهم فقال تعالى واصبروا ان الله مع الصابرين وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وجمع للصابرين بين امورا لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة

البقرة فى النهار الطويل وفى القصير ما يتيسر من ذلك قال الله تعالى وعشيا وحين تظهرون وهذا هو الاظهار فان انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرض وقرأ الدعاء الذى بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن وكذلك ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به الى صلاة الفجر ثم اذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسى و يسبح و يحمد و يكبر ثلاثا وثلاثين كما وصفنا ولو قدر على الآيات كلها التى ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الادعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما ومن له همة ناهضة

﴿كتاب الصبر والشكر﴾

(١) حديث الايمان نصفان نصف صبر و نصف شكر ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن انس و يزيد ضعيف

وأولئك هم المهتدون فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول (وأما الاخبار) فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) الصبر نصف الايمان على ماسيأتى وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بمافاته من قيام الليل وصيام النهار ولان تصبروا على ماأنتم عليه احب الى من أن يوافينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف ان تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ماعندكم ينفد وماعند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم الآية وروى (٣) جابر انه سئل صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال الصبر والسماحة وقال أيضا (٤) الصبر كنز من كنوز الجنة (٥) وسئل مرة ما الايمان فقال الصبر وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم (٦) الحج عرفة معناه معظم الحج عرفة أيضا وقال صلى الله عليه وسلم (٧) أفضل الاعمال ماأكرهت عليه النفوس وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق باخلاقى وان من أخلاقى انى أنا الصبور (٨) وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يارسول الله قال وماعلامة ايمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة وقال صلى الله عليه وسلم (٩) فى الصبر على ماتكره خير كثير وقال المسيح عليه السلام انكم لاتدركون ماتحبون الا بصبركم على ماتكرهون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠) لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين والاخبار فى هذا لاتحصى ﴿وأما الآثار﴾ فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الاشعرى عليك بالصبر واعلم ان الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى واعلم ان الصبر ملاك الايمان وذلك بان التقوى افضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه بنى الايمان على اربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولاجسد لمن لارأس له ولا ايمان لمن لاصبر له وكان عمر رضى الله عنه يقول نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة مايحمل فوق العدلين على البعير وأشار به الى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وكان حبيب بن أبى حبيب اذا قرأ هذه الآية اناوجدناه صابرا نعم العبد انه اواب بكى وقال واعجباه أعطى وأثنى أى هو المعطى للصبر وهو المثنى وقال أبو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر وهذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بين الاعتبار فلاتفهمه الا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة

---

(١) حديث الصبر نصف الايمان ابو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم فى الصوم (٢) حديث من اقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم فى العلم مختصرا ولم اجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة الطبرانى فى مكارم الاخلاق وابن حبان فى الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الايمان فقال الصبر أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن انس مرفوعا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم فى الحج (٧) حديث افضل الاعمال ماأكرهت عليه النفوس لاأصل له مرفوعا وانما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس (٨) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الانصار فقال أمؤمنون انتم فسكتوا فقال عمر نعم يارسول الله الحديث الطبرانى فى الاوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (٩) حديث فى الصبر على ماتكره خير كثير الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم (١٠) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما الطبرانى من حديث عائشة وفيه صبيح ابن دينار ضعفه العقيلى

وعزيمة صادقة لايستكثر شيأ لله تعالى ثم يحيى بين الظهر والعصر كما يحيى بين العشاءين على الترتيب الذى ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ومن دام سهره ينام نومة خفيفة فى النهار الطويل بين الظهر والعصر ولو احبه بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك فى اربع ركعات فهو خير كثير وان اراد ان يحيى هذا الوقت بمائة ركعة فى النهار الطويل أمكن ذلك او بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله احد الف مرة فى كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال اذا كان صائما وان لم يكن صائما فاى وقت

صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق

﴿ بيان حقيقة الصبر ومعناه ﴾

اعلم ان الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين انما تنتظم من ثلاثة أمور معارف واحوال وأعمال فالمعارف هي الاصول وهي تورث الاحوال والاحوال تثمر الاعمال فالمعارف كالاشجار والاحوال كالاغصان والاعمال كالثمار وهذا مطرد في جميع منازل السالكين الى الله تعالى واسم الايمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه في اختلاف اسم الايمان والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم الا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا الا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والانس والبهائم فان الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة أما في البهائم فلنقصانها واما في الملائكة فلكمالها وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون الا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا وأما الملائكة عليهم السلام فانهم جردوا للشوق الى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى تحتاج الى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف وأما الانسان فانه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه الا شهوة الغذاء الذي هو محتاج اليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة اذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي الا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين احداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي يهدي اليه الهداية والتعريف فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية الى مصلحة العواقب بل الى مقتضى شهواتها في الحال فقط فلذلك لا تطلب الا اللذيذ وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية يعرف ان اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر الى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى وذلك بحسب امداد الله تعالى عبده بالتأييد كما ان نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق باتباع الشياطين فاذن ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات في الدنيا والآخرة فاذا قوي يقينه أعني المعرفة التي تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوي ثبات باعث الدين واذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها

تغير فيه الفم وفي الحديث السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعند القيام الى الفرائض يستحب (قيل) ان الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا وقيل هو خبر وان أراد أن يقرأ بين الصلاتين في صلاته في عشرين ركعة في كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ في الركعة الاولى ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (ثم) في الثانية ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (ثم) ربنا لا تؤاخذنا الى آخر السورة (ثم) ربنا لا تزغ قلوبنا الآية (ثم) ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان الآية (ثم)

وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين باذن الله تعالى وتستخيره اياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما
الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين واذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف
عليك أن جانب اليمين الذى هو أشرف الجانبين من جنبتى الدست ينبغى أن يكون مسلما له فهو اذا صاحب اليمين
والآخر صاحب الشمال وللعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب
اليمين ومسىء اليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب اقباله له
حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء اليه فيثبت عليه سيئة
وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيآت باثباتهما فلذلك سميا كراما
كاتبين اما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولان الملائكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبين فلاثباتهما الحسنات
والسيآت وانما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم فانهما
وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ماتعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة وكل شىء من عالم
الملكوت لا تدركه الابصار فى هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة فى القيامة الصغرى ومرة
فى القيامة الكبرى وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت اذا قال صلى الله عليه وسلم [1] من مات فقد قامت قيامته وفى
هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وفيها يقال كفى بنفسك
اليوم عليك حسيبا أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملامن
الخلق وفيها يساق المتقون الى الجنة والمجرمون الى النار زمرا لا آحادا والهول الاول هو هول القيامة الصغرى
ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى مثل زلزلة الارض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل
فى الموت فانك تعلم ان الزلزلة اذا نزلت ببلدة صدق ان يقال قد زلزلت ارضهم وان تزلزل البلاد المحيطة بها بل
لو زلزل مسكن الانسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه لانه انما يتضرر عند زلزلة جميع الارض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة
مسكن غيره فحصته من الزلزلة فقد توفرت من غير نقصان واعلم انك ارضى مخلوق من التراب وحظك الخاص من
التراب بدنك فقط فاما بدن غيرك فليس بحظك والارض التى أنت جالس عليها بالاضافة الى بدنك ظرف ومكان
وانما تخاف من تزلزله ان يتزلزل بدنك بسببه والا فالهواء ابدا متزلزل وانت لا تخشاه اذ ليس يتزلزل به بدنك
فحظك من زلزلة الارض كلها زلزلة بدنك فقط فهى ارضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال ارضك ورأسك
سماء ارضك وقلبك شمس ارضك وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ومفيض العرق من بدنك
بحر ارضك وشعورك نبات ارضك واطرافك اشجار ارضك وهكذا الى جميع أجزائك فاذا انهدم بالموت اركان
بدنك فقد زلزلت الارض زلزالها فاذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة
فاذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا فاذا اظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا بطل سمعك
وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارا فاذا انشقت دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فاذا
انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا فاذا التفت احدى ساقيك بالاخرى وهما مطيتاك
فقد عطلت العشار تعطيلا فاذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الارض فمدت حتى القت مافيها وتخلت ولست اطول
بجميع موازنة الاحوال والاهوال ولكنى اقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من
القيامة الكبرى شىء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت
حواسك التى بها تنتفع بالنظر الى الكواكب والاعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها
لانها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فلا انجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه فقد انشقت
سماؤه اذ السماء عبارة عما يلى جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له فمن اين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هى القيامة

ربنا امنا بما انزلت (ثم) انت ولينا فاغفر لنا (ثم) فاطر السموات والارض انت ولي (ثم) ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن الاية (ثم) وقل رب زدنى علما (ثم) لا اله الا انت سبحانك (ثم) رب لا تذرنى فردا (ثم) وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين (ثم) ربنا هب لنا من ازواجنا (ثم) رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين (ثم) يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور (ثم) رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على (الاية) من سورة الاحقاف (ثم) ربنا اغفر لنا

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته ابن ابى الدنيا فى كتاب الموت من حديث انس بسند ضعيف

الصغرى

الصغرى والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك اذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص و بطلت السموات والارض ونسفت الجبال وتمت الاهوال واعلم أن هذه الصغرى وان طولنا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشير أوصافها وهي بالنسبة الى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة الى الولادة الكبرى فان للانسان ولادتين احداهما الخروج من الصلب والترائب الى مستودع الارحام فهو في الرحم في قرار مكين الى قدر معلوم وله في سلوكه الى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها الى أن يخرج من مضيق الرحم الى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى الى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم الى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت الى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا الى الرحم بل أوسع وأعظم فقس الآخرة بالاولى فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وما النشأة الثانية الا على قياس النشأة الاولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين واليه الاشارة بقوله تعالى وننشئكم فيما لا تعلمون فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء الى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالاعور الدجال فما أعظم غفلتك يامسكين وكلنا ذلك المسكين و بين يديك هذه الاهوال فان كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أوما سمعت قول سيد الانبياء (١) كفى بالموت واعظا اوما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم (٢) اللهم هون على محمد سكرات الموت أوما تستحيي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون و يأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن أفيظنون انهم في الدنيا خالدون أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون انهم اليه لا يرجعون ام يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ان كل لما جميع لدينا محضرون ولكن ما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين وذلك لا ناجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولنرجع الى الغرض فان هذه تلويحات تشير الى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول قد ظهر ان الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيأ على الصبيان والمجانين اذ قد ذكرنا ان الحسنة في الاقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل الى الاستفادة فلا يتصور منهما اقبال واعراض وهما لا يكتبان الا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والاعراض ولعمرى انه قد تظهر مبادي اشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج الى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح الى ان يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد الى مضار الآخرة بل الى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق ان كان من الابرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الاخيار ان يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع

ولاخواننا الذين الآية (ثم) ربنا عليك توكلنا (ثم) رب اغفر لى ولوالدي ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا مهما يصل فليقرأ بهذه الآيات و بالمحافظة على هذه الآيات في الصلاة مواطئا للقلب واللسان يوشك ان يرق الى مقام الاحسان ولو ردد فرد آية من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت مناجيا لمولاه وداعيا وتاليا ومصليا والدؤب في العمل واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمه لا يصح الا لعبد تزكت نفسه بكمال التقوى والاستقصاء في

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ اللهم أعني على سكرات الموت

النبيين والمقربين والصديقين واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار الى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم

﴿ بيان كون الصبر نصف الايمان ﴾

اعلم ان الايمان تارة يختص في اطلاقه بالتصديقات باصول الدين وتارة يختص بالاعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف ابواب وللاعمال ابواب ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين وعلى مقتضى اطلاقين (أحدهما) ان يطلق على التصديقات والاعمال جميعا فيكون للايمان ركنان احدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده الى اصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث الى آخره * الاعتبار الثاني ان يطلق على الاحوال المثمرة للاعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد الى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما وله بالاضافة الى ما يضره حال الصبر وبالاضافة الى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر احد شطرى الايمان بهذا الاعتبار كما ان اليقين احد الشطرين بالاعتبار الاول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر لان كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان فهكذا ينبغي ان تفهم تقديرات الشرع بحدود الاعمال والاحوال ونسبتها الى الايمان والاصل فيه ان تعرف كثرة ابواب الايمان فان اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة

﴿ بيان الاسامي التي تتجدد للصبر بالاضافة الى ما عنه الصبر ﴾

اعلم ان الصبر ضربان احدهما ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها وهو اما بالفعل كتعاطي الاعمال الشاقة اما من العبادات او من غيرها واما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمودا اذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب ان كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة وان كان عن احتمال مكروه اختلفت اساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر فان كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو اطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وان كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وان كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن وان كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلما ويضاده التذمر وان كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وان كان في اخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوما وان كان عن فضول العيش سمي زهدا ويضاده الحرص وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فاكثر اخلاق الايمان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال هو الصبر لانه اكثر أعماله واعزها كما قال

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم

الزهد في الدنيا وانتزع منه متابعة الهوى ومتى بقي على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لا يدوم روحه في العمل بل ينشط وقتا ويسام وقتا ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شئ من الهوى بنقصان تقوى اومحبة دنيا واذا صح في الزهد والتقوي فان ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب فمن رام دوام الروح واستحلاء الدؤب في العمل فعليه بحسم مادة الهوى والهوى روح النفس لا يزول ولكن تزول متابعته والنبي عليه السلام ما استعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته

(١) الحج عرفة وقد جمع الله تعالى اقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى والصابرين فى البأساء اى المصيبة والضراء أى الفقر وحين الباس اى المحاربة أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون فاذا هذه اقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعانى من الاسامى يظن ان هذه الاحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الاسامى مختلفة والذى يسلك الطريق المستقيم و ينظر بنور الله يلحظ المعانى اولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الاسامى فانها وضعت دالة على المعانى فالمعانى هى الاصول والالفاظ هى التوابع ومن يطلب الاصول من التوابع لا بد وان يزل والى الفريقين الاشارة بقوله تعالى افمن يمشى مكبا على وجهه اهدى امن يمشى سويا على صراط مستقيم فان الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه الا بمثل هذه الانعكاسات نسال الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

﴿ بيان اقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف ﴾

اعلم ان باعث الدين بالاضافة الى باعث الهوى له ثلاثة احوال (احدها) ان يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة و يتوصل اليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الاقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين واياهم ينادى المنادى يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية * الحالة الثانية ان تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الاكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا اعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من اسرار الله تعالى وامر من امور الله واليهم الاشارة بقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد ارشادهم فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالامانى وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وسلم (٢) الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وصاحب هذه الحالة اذا وعظ قال انا مشتاق الى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست اطمع فيها او لم يكن مشتاقا الى التوبة ولكن قال ان الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به الى توبتى وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل عقله الا فى استنباط دقائق الحيل التى بها يتوصل الى قضاء شهوته فقد صار عقله فى يد شهواته كمسلم اسير فى ايدى الكفار فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما و يسلمه الى الكفار و يجعله اسيرا عندهم لانه بفاحش جنايته يشبه انه سخر ما كان حقه ان لا يستسخر وسلط ما حقه ان لا يتسلط عليه وانما استحق المسلم ان يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله و باعث الدين وانما استحق الكافر ان يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين و باعث الشياطين وحق المسلم على نفسه اوجب من حق غيره عليه فمهما سخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن ارق مسلما لكافر بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فاخذ اعز اولاده وسلمه الى ابغض اعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته لان الهوى ابغض اله عبد فى الارض عند الله تعالى والعقل اعز موجود خلق على وجه الارض * الحالة الثالثة ان يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين واهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف و يتطرق اليه ايضا ثلاثة احوال باعتبار عدد ما يصبر عنه فانه اما ان يغلب جميع الشهوات او لا يغلب شيا منها او يغلب بعضها دون بعض وتنزيل

(١) حديث الحج عرفة اصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم فى الحج (٢) حديث الكيس من دان نفسه الحديث تقدم فى ذم الغرور

فقال أعوذ بك من هوى متبع ولم يستعذ من وجود الشح فانه طبيعة النفس ولكن استعاذ من طاعته فقال وشح مطاع ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال فقد يكون متبعا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم او النظر اليهم وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال فى النوم والاكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع وهذا شغل من ليس له شغل الا فى الدنيا * ثم يصلى العبد قبل العصر أربع ركعات فان أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له اثر ظاهر

قوله تعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض اولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالانعام بل هم أضل سبيلا اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ولذلك قيل

ولم ارفى عيون الناس عيبا * كنقص القادرين على التمام

و ينقسم الصبر ايضا باعتبار اليسر والعسر الى مايشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب شديد و يسمى ذلك تصبرا والى مايكون من غير شدة تعب بل يحصل بادنى تحامل على النفس و يخص ذلك باسم الصبر واذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى فامامن اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على ان يصرع الضعيف بادنى حملة و ايسر قوة بحيث لا يلقاه فى مصارعته اعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ولا يقوى على ان يصرع الشديد الا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين و باعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما اذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة اورث ذلك مقام الرضا كما سياتى فى كتاب الرضا فالرضا اعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير وقال بعض العارفين اهل الصبر على ثلاثة مقامات * اولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين * وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين * وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين فى كتاب المحبة ان مقام المحبة اعلى من مقام الرضا كما ان مقام الرضا اعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجرى فى صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا * واعلم ان الصبر ايضا ينقسم باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم * فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكاره نفل والصبر على الاذى المحظور محظور كمن تقطع يده او يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن اظهار الغيرة و يسكت على ما يجرى على اهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على اذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الايمان لا ينبغى ان يخيل اليك ان جميعه محمود بل المراد به انواع من الصبر مخصوصة

﴿ بيان مظان الحاجة الى الصبر وان العبد لا يستغنى عنه فى حال من الاحوال ﴾

اعلم ان جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة لا يخلو من نوعين احدهما هو الذى يوافق هواه والآخر هو الذى لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد منهما وهو فى جميع الاحوال لا يخلو عن احد هذين النوعين او عن كليهما فهو اذا لا يستغنى قط عن الصبر ﴿ النوع الاول ﴾ مايوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا وما احوج العبد الى الصبر على هذه الامور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والانهماك فى ملاذها المباحة منها اخرجه ذلك الى البطر والطغيان فان الانسان ليطغى ان رآه استغنى حتى قال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافى لا يصبر عليها الا صديق وقال سهل الصبر على العافية اشد من الصبر على البلاء ولما فتحت ابواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى يا ايها الذين امنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله وقال عز وجل ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال صلى الله عليه وسلم (٢) الولد مبخلة مجبنة محزنة

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث الولد مجبنة مبخلة محزنة ابو يعلى الموصلى من حديث ابى سعيد وتقدم

فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة و يقرأ فى الاربع قبل العصر اذا زلزلت والعاديات والقارعة وألهاكم ويصلى العصر ويجعل من قراءته فى بعض الايام والسماء ذات البروج وسمعت ان قراءة سورة البروج فى صلاة العصر امان من الدماميل ويقرأ بعد العصر ماذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك فاذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقى وقت الاذكار والتلاوة وافضل من ذلك مجالسة من يزهده فى الدنيا و يسدد كلامه عرا التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المريدين فاذا صحت نية القائل

ولما

(1) ولما نظر عليه السلام الى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله انما اموالكم واولادكم فتنة انى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسي ان اخذته ففي ذلك عبرة لاولى الابصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن اليها و يعلم ان كل ذلك مستودع عنده وعسى ان يسترجع على القرب وان لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب وان يرعى حقوق الله فى ماله بالانفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ماانعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وانما كان الصبر على السراء اشد لانه مقرون بالقدرة ومن العصمة ان لا تقدر والصبر على الحجامة والفصد اذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام اقدر على الصبر منه اذا حضرته الاطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا اعظمت فتنة السراء (النوع الثانى) مالا يوافق الهوى والطبع وذلك لايخلو اما ان يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى اولا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب اولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى ازالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة اقسام (القسم الاول) مايرتبط باختياره وهو سائر افعاله التى توصف بكونها طاعة اومعصية وهما ضربان (الضرب الاول) الطاعة والعبد يحتاج الى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لان النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين مامن نفس الا وهى مضمرة ماأظهره فرعون من قوله انا ربكم الاعلى ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فاظهره اذ استخف قومه فاطاعوه ومامن احد الا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه واتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وان كان ممتنعا من اظهاره فان استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر الا عن اضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء فاذا العبودية شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها مايكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع الى الصبر على طاعته فى ثلاث احوال الاولى قبل الطاعة وذلك فى تصحيح النية والاخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس وقد نبه عليه صلوات الله عليه اذ قال (2) انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى وقال تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ولهذا اقدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات * الحالة الثانية حالة العمل كى لايغفل عن الله فى اثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الادب الى آخر العمل الاخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور الى الفراغ وهذا ايضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى نعم اجر العاملين الذين صبروا اى صبروا الى تمام العمل * الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر اليه بعين العجب وعن كل مايبطل عمله و يحبط أثره كما قال تعالى ولا تبطلوا اعمالكم وكما قال تعالى لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والاذى فقد ابطل عمله والطاعات تنقسم الى فرض ونفل وهو محتاج الى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى فالعدل هو الفرض والاحسان هو النفل وايتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج الى صبر (الضرب الثانى) المعاصى فما احوج العبد الى الصبر عنها وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال صلى الله عليه وسلم (3) المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه والمعاصى

(1) حديث لما نظر الى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر الحديث اصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب (2) حديث انما الاعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (3) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشطر الاول والنسائى

والمستمع بهذه المجالسة افضل من الانفراد والمداومة على الاذكار وان عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليتروح بالتنقل فى انواع الاذكار وان كان خروجه لحوائجه وامر معاشه فى هذا الوقت يكون افضل واولى من خروجه فى اول النهار ولا يخرج من المنزل الا وهو على الوضوء وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر واجازه المشايخ والصالحون ويقول كلما خرج من منزله بسم الله ماشاء الله حسبي الله لاقوة الا بالله اللهم اليك خرجت وانت اخرجتنى وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ولا يدع ان يتصدق كل يوم

مقتضى باعث الهوى وأشد انواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فان العادة طبيعة خامسة فاذا انضافت العادة الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعهما ثم ان كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الازراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم فان ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان احداهما نفي الغير والاخرى اثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه وهي ضد ما أمر به من العبودية ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الانس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر (١) من ان الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر على ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا الا بان يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد والا فان لم تستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه ﴿ القسم الثاني ﴾ مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه كما لو اوذي بفعل او قول وجني عليه في نفسه اوماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم ما كنا نعد ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الاذى وقال تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون (٢) وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا فقال بعض الاعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فاخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخي موسى لقد اوذي باكثر من هذا فصبر وقال تعالى ودع أذاهم وتوكل على الله وقال تعالى واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وقال تعالى ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك الآية وقال تعالى ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور اى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقال صلى الله عليه وسلم (٣) صل من قطعك واعط من حرمك واعف عمن ظلمك ورأيت في الانجيل قال عيسى بن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل ان السن بالسن والانف بالانف وانا اقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايمن فحول اليه الخد الايسر ومن اخذ رداءك فاعطه ازارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك امر بالصبر على الاذى فالصبر على اذى الناس من اعلى مراتب الصبر لانه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا ﴿ القسم الثالث ﴾ مالا يدخل تحت حصر الاختيار اوله وآخره كالمصائب مثل موت الاعزة وهلاك الاموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الاعضاء وبالجملة سائر انواع البلاء فالصبر على ذلك من اعلى مقامات الصبر قال ابن عباس رضي الله عنهما الصبر في القرآن على ثلاثة اوجه صبر على اداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر عن المصيبة عند الصدمة الاولى فله تسعمائة درجة وانما فضلت هذه الرتبة مع انها من

بما يتيسر له ولو تمرة اولقمة فان القليل بحسن النيـــة كثير وروى ان عائشة رضى الله عنها اعطت السائل عنبة واحدة وقالت ان فيها لمثاقيل ذر كثير * وجاء في الخبر كل امرىء يوم القيامة تحت ظل صدقته ويكون من ذكره من العصر الى المغرب مائة مرة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت احد

في الكبرى بالشطر الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسناد جيد وقد تقدما (١) حديث ان الغيبة اشد من الزنا تقدم في آفات اللسان (٢) حديث قسمه مرة مالا وقول بعض الاعراب هذه قسمة ما اريد بها وجه الله الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٣) حديث صل من قطعك الحديث تقدم

الفضائل على ماقبلها وهى من الفرائض لان كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم فاما الصبر على بلاء الله تعالى فلايقدر عليه الا الانبياء لانه بضاعة الصديقين فان ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) أسألك من اليقين ماتهون على به مصائب الدنيا فهذا صبر مستنده حسن اليقين وقال أبوسليمان والله مانصبر على مانحب فكيف نصبر على مانكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) قال الله عز وجل اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أوماله أوولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة ان أنصب له ميزانا أوأنشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم (٣) انتظار الفرج بالصبر عبادة وقال صلى الله عليه وسلم (٤) مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها الا فعل الله به ذلك وقال أنس حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) ان الله عز وجل قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود فى دارى والنظر الى وجهى وقال صلى الله عليه وسلم (٦) يقول الله عز وجل اذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فاذا أبرأته ولاذنب له وان توفيته فالى رحمتى وقال داود عليه السلام يارب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الايمان فلاأنزعه عنه أبدا وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر الا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله قيل وكيف ذلك قال الراضى لايتمنى فوق منزلته وقيل حبس الشبلى رحمه الله فى المارستان فدخل عليه جماعة فقال من أنتم قالوا أحباؤك جاؤك زائرين فاخذ يرميهم بالحجارة فاخذوا يهربون فقال لو كنتم أحبائى لصبرتم على بلائى وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة و يطالعها وكان فيها واصبر لحكم ربك فانك باعيننا و يقال أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أماتجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٧) من اجلال الله

(١) حديث أسألك من اليقين ماتهون به على مصائب الدنيا الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم فى الدعوات (٢) حديث قال الله اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ولده أوماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف (٣) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبوسعيد الماليني فى مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم فى الدعوات (٤) حديث مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله انا لله وانا اليه راجعون الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٥) حديث أنس ان الله قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه الحديث الطبرانى فى الأوسط من رواية أبى ظلال القسملى واسمه هلال احد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ ان الله عز وجل قال اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ اذا أخذت كريمتى عبدى لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يارسول الله وان كانت واحدة قال وان كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف (٦) حديث يقول الله اذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه الحديث مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موقوفا على أبى هريرة (٧) حديث من اجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك لم أجده مرفوعا وانما رواه ابن أبى الدنيا فى المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لاتتحدث بمصيبتك

بافضل مماجاء به الا أحد عمل أكثر من ذلك ومائة مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين فقد ورد ان من قال فى يومه مائة مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله و يقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله الكلمات ومائة مرة سبحان الله و بحمده سبحان الله العظيم و بحمده أستغفر الله ومائة مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأسأله التوبة ومائة مرة ما شاء الله لا قوة الا بالله ورأيت بعض الفقراء من المغرب

ومعرفة حقه انلاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك و يروى عن بعض الصالحين انه خرج يوما وفى كمه صرة فافتقدها فاذا هى قدأخذت من كمه فقال بارك الله له فيها لعله احوج اليها منى وروى عن بعضهم انه قال مررت على سالم مولى أبى حذيفة فى القتلى و به رمق فقلت له أسقيك ماء فقال جرنى قليلا الى العدو واجعل الماء فى الترس فانى صائم فان عشت الى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر فى المصائب وليس الامر الى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى فان كان المراد به انلا تكون فى نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل فى الاختيار فاعلم انه انما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة فى الشكوى واظهار الكآبة وتغيير العادة فى الملبس والمفرش والمطعم وهذه الامور داخلة تحت اختياره فينبغى ان يجتنب جميعها و يظهر الرضا بقضاء الله تعالى و يبقى مستمرا على عادته و يعتقد ان ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى(١) عن الرميصاء أم سليم رحمها الله انها قالت توفى ابن لى وزوجى ابو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت فقدم ابو طلحة فقمت فهيأت له افطاره فجعل يا كل فقال كيف الصبي قلت باحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى باسكن منه الليلة ثم تصنعت له احسن ما كنت اتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال مالهم قلت أعير وا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ماصنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وان الله قد قبضه اليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال اللهم بارك لهما فى ليلتهما قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرؤا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتنى دخلت الجنة فاذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة وقد قيل الصبر الجميل هو ان لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع اذ يكون من جميع الحاضرين لاجل الموت سواء ولان البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان الى الموت ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال ان هذه رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه اذا عظم ألمه وسيأتى ذلك فى كتاب الرضا ان شاء الله تعالى وكتب ابن أبى نجيح يعزى بعض الخلفاء ان أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له واعلم ان الماضى قبلك هو الباقى لك والباقى بعدك هو المأجور فيك واعلم ان أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذا مهما دفع الكراهة بالتفكر فى نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والاوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات ان وجوب الصبر عام فى جميع الاحوال والافعال فان الذى كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يسكن وأكثر جولان الخواطر انما يكون فى فائت لا تدارك له أو فى مستقبل لابد وان يحصل منه ماهو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان وآلة العبد قلبه و بضاعته عمره فاذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به انسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون هذا ان كان فكره ووسواسه فى المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات اذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه فى جميع عمره أو من يتوهم أنه ينازعه و يخالف امره أو غرضه بظهور أمارة له منه بل يقدر المخالفة من اخلص الناس فى حبه حتى فى اهله وولده و يتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر فى كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به

بمكة وله سبحة فيها الف حبة فى كيس له ذكر أن ورده ان يديرها كل يوم اثنتى عشرة مرة بانواع الذكر (ونقل) عن بعض الصحابة ان ذلك كان ورده بين اليوم والليلة ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح سبحان الله العلى الديان سبحان الله شديد الاركان سبحان من يذهب بالليل و يأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شان عن شان سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان (روى) ان بعض الابدال بات على شاطئ

ولا بوجعك ولا تزكى نفسك (١) حديث الرميصاء أم سليم توفى ابن لى وزوجى ابو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت الحديث طب ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية والقصة فى الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف

في مخالفته ولا يزال في شغل دائم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لان الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون المخلوق من النار ان يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بان قال خلقتني من نار وخلقته من طين فاذا حيث لم يسجد الملعون لابينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي ان يطمع في سجوده لاولاده ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد اظهر انقياده واذعانه وانقياده بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وانما وضع الجبهة على الارض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولو جعل وضع الجبهة على الارض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما ان الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة فلا ينبغي ان يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق ان الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس الى يوم الدين الا ان تصبح وهمومك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين ولا تظنن انه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدح فانك ان اردت ان يخلو القدح عن الهواء من غير ان تشغله بالماء اوغيره فقد طمعت في غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين يخلو عن جولان الشيطان والا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين الا الشيطان ولذلك قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال صلى الله عليه وسلم (١) ان الله تعالى يبغض الشاب الفارغ وهذا لان الشاب اذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزدوج افراخه ايضا وتبيض مرة اخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا اسرع من توالد سائر الحيوانات لان طبعه من النار واذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسري شيأ فشيأ على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا تبقى النار اذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال اذا لم تكن شهوة فاذا اذا تأملت علمت ان أعدى عدوك شهوتك وهي صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ماهو فقال هي نفسك ان لم تشغلها شغلتك فاذا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن اولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه الا الموت نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم ان الذي انزل الداء انزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وان كان شاقا او ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الاخلاط التي منها تركب الادوية لامراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض الى علم آخر وعمل آخر وكما ان اقسام الصبر مختلفة فاقسام العلل المانعة منه مختلفة واذا اختلفت العلل اختلف العلاج اذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق في بعض الامثلة فنقول اذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه او يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه او يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه اذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والاعمال الصالحة فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع

(١) حديث ان الله يبغض الشاب الفارغ لم أجده

البحر فسمع في هدء الليل هذا التسبيح فقال من الذي اسمع صوته ولا أرى شخصه فقال انا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت فقلت ما اسمك فقال مهليهيائيل فقلت ما ثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة او يرى له (وروى) ان عثمان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فقال سألتني عن شيء عظيم ماسألني غيرك هو لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول

باعث الهوى وكل متصارعين اردنا ان يغلب احدهما الآخر فلا طريق لنا فيه الا التقوية من اردنا ان تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فاما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة امور احدها ان ننظر الى مادة قوتها وهي الاغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والاطعمة المهيجة للشهوة الثاني قطع اسبابه المهيجة في الحال فانه انما يهيج بالنظر الى مظان الشهوة اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) النظرة سهم مسموم من سهام ابليس وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه الا تغميض الاجفان او الهرب من صوب رميه فانه انما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح فان كل مايشتهيه الطبع في المباحات من جنسه مايغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الانفع في حق الاكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الاعمال ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢) عليكم بالباءة فمن لم يستطيع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء فهذه ثلاثة اسباب فالعلاج الاول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته والثاني يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها والثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل اليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب وأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقين احدهما اطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك بان يكثر فكره في الاخبار التي اوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الاثر ان ثواب الصبر على المصيبة اكثر مما فات وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة اذ فاته مالا يبقى معه الا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن اسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي ان يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الايمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوي قوي باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وان ضعف ضعفه وانما قوة الايمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر واقل ما اوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني ان يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرىء عليها وتقوى همته في مصارعتها فان الاعتياد والممارسة للاعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الاعمال ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين وبالجملة فقوة الممارسين للاعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين وذلك لان قواهم لم تتأكد بالممارسة فالعلاج الاول يضاهي اطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بانواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند اغرائه اياهم بموسى حيث قال وانكم اذا لمن المقربين والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة اسباب ذلك منذ الصبا حتى يانس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وان ضعفت ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما اراد فهذا منهاج العلاج في جميع انواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وانما اشدها كف الباطن عن حديث النفس وانما يشتد ذلك على من تفرغ له بان قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب الى جانب وهذا لاعلاج له البتة الا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الاهل والولد والمال والجاه والرفقاء والاصدقاء ثم الاعتزال الى زاوية بعد احراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفي مالم تصر الهموم هما

(١) حديث النظر سهم مسموم من سهام ابليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطيع فعليه بالصوم الحديث تقدم في النكاح

ولا قوة الا بالله عزوجل واستغفر الله الاول الآخر الظاهر الباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسي أعطي ست خصال فاول خصلة ان يحرس من ابليس وجنوده الثاني ان يعطى قنطارا من الاجر الثالثة يرفع له درجة في الجنة الرابعة يزوجه الله من الحور العين الخامسة اثنا عشر ملكا يستغفرون له السادسة يكون له من الاجر كمن حج واعتمر ويقول أيضا في هذا الوقت وفي اول النهار اللهم انت خلقتني وانت هديتني وانت تطعمني وانت تسقيني وانت تميتني

واحدا وهو الله تعالى ثم اذا غلب ذلك على القلب فلا يكفى ذلك مالم يكن له مجال فى الفكر وسير بالباطن فى ملكوت السموات والارض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى اذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الا الاوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة من القراءة والاذكار والصلوات و يحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الاوراد الظاهرة ثم اذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الاوقات الا بعضها اذ لا يخلو فى جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وايذاء من انسان وطغيان من مخالط اذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الانواع الشاغلة * وأما النوع الثانى فهو ضرورى أشد ضرورة من الاول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس واسباب المعاش فان تهيئة ذلك أيضا تحوج الى شغل ان تولاه بنفسه وان تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الاوقات ان لم تهجم به ملمة أو واقعة وفى تلك الاوقات يصفو القلب و يتيسر له الفكر و ينكشف فيه من اسرار الله تعالى فى ملكوت السموات والارض مالا يقدر على عشر عشيره فى زمان طو يل لو كان مشغول القلب بالعلائق والانتهاء الى هذا هو اقصى المقامات التى يمكن ان تنال بالاكتساب والجهد فاما مقادير ماينكشف ومبالغ مايرد من لطف الله تعالى فى الاحوال والاعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد و يجل الصيد وقد يطول الجهد و يقل الحظ والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازى اعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار العبد فى ان يتعرض لتلك الجذبة بان يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المجذوب الى اسفل سافلين لا ينجذب الى اعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب اليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ان لربكم فى ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها وذلك لان تلك النفحات والجذبات لها اسباب سماوية اذ قال الله تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وهذا من اعلى انواع الرزق والامور السماوية غائبة عنا فلا ندرى متى ييسر الله تعالى اسباب الرزق فما علينا الا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة و بلوغ الكتاب اجله كالذى يصلح الارض و ينقيها من الحشيش و يبث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه الا بمطر ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر الا انه يثق بفضل الله تعالى ورحمته انه لا يخلى سنة عن مطر فكذلك قلما تخلو سنة وشهر و يوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات و بذر فيه بذر الارادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة وكما يقوى انتظار الامطار فى أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات فى الاوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما فى يوم عرفة و يوم الجمعة وأيام رمضان فان الهمم والانفاس اسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدر بها الامطار فى اوقات الاستسقاء وهى لاستدرار امطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل الاحوال والمكاشفات حاضرة معك فى قلبك وانما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك و بينها فلا تحتاج الا الى أن تنكسر الشهوة و يرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب واظهار ماء الارض بحفر القنى أسهل وأقرب من استرسال الماء اليها من مكان بعيد منخفض عنها ولكونه حاضرا فى القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الايمان تذكرا فقال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وقال تعالى وليتذكر أولوا الالباب وقال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وانما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا الى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق فى حب الحق شديد والسير من النفس الى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله اشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فان لذة الرياسة

وأنت تحيـي أنت ربى لا رب لى سـواك ولا اله الا أنت وحدك لا شريك لك و يقول ماشاء الله لا قـوة الا بالله ماشاء الله كل نعمـة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السـوء الا الله و يقول حسبي الله لا اله الا هو عليـه توكلت وهو رب العرش العظيم ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة و يقرأ المسبعات قبـل الغروب و يديم التسبيح والاسـتغفار بحيث تغيب الشمس وهو فى التسـبيح والاسـتغفار و يقرأ عنـد الغروب أيضا والشمس والليل والمعـوذتين و يستقبل الليل كما استقبل النهار

والغلبة والاستعلاء والاستتباع اغلب اللذات فى الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون اغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهى الربوبية والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لامور الربوبية وعند العبارة بقوله تعالى قل الروح من امر ربى وليس القلب مذموما على حبه ذلك وانما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الامر اذا حسده على كونه من عالم الامر فاضله واغواه وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب الا بقاء لافناء فيه وعزا لا زل فيه وامنا لاخوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالا لا نقصان فيه وهذه كلها من اوصاف الربوبية وليس مذموما على طلب ذلك بل حق كل عبد ان يطلب ملكا عظيما لا آخر له وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان ملك مشوب بانواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو فى الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الانسان عجولا راغبا فى العاجلة فجاء الشيطان وتوسل اليه بواسطة العجلة التى فى طبعه فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل اليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور فى الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر امكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره اذ علم مداخل مكره فاعرض عن العاجلة فعبر عن المخذولين بقوله تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال تعالى ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا وقال تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ولما استطار مكر الشيطان فى كافة الخلق ارسل الله الملائكة الى الرسل واوحوا اليهم ما تم على الخلق من اهلاك العدو واغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق الى الملك الحقيقى عن الملك المجازى الذى لا اصل له ان سلم ولا دوام له اصلا فنادوا فيهم يا ايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل فالتوراة والانجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وابراهيم وكل كتاب منزل ما انزل الا لدعوة الخلق الى الملك الدائم المخلد والمراد منهم ان يكونوا ملوكا فى الدنيا ملوكا فى الآخرة اما ملك الدنيا فالزهد فيها والقناعة باليسير منها واما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزا لا زل فيه وقرة عين اخفيت فى هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم الى ملك الدنيا لعلمه بان ملك الاخرة يفوت به الدنيا اذ والاخرة ضرتان ولعلمه بان الدنيا لا تسلم له ايضا ولو كانت تسلم له لكان يحسده ايضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم فى التدبيرات وكذا سائر اسباب الجاه ثم مهما تسلم وتتم الاسباب ينقضى العمر حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا اونهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح والزهد فى الدنيا لما ان كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصده عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان وهذا ملك بالاستحقاق اذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر اغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقته الى حيث يريد ويهوى فما اعظم اغترار الانسان اذ ظن انه ينال الملك بان يصير مملوكا وينال الربوبية بان يصير عبدا ومثل هذا هل يكون الا معكوسا فى الدنيا منكوسا فى الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة قال كيف أطلب منك حاجة وملكى اعظم من ملكك فقال كيف قال من انت عبده فهو عبد لى فقال كيف ذلك قال انت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لى فهذا اذا هو الملك فى الدنيا وهو الذى يسوق الى الملك فى الاخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والاخرة جميعا والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والاخرة جميعا فاذا عرفت الان معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل

قال الله تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر او اراد شكورا فكما ان الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ينبغى ان يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب احدهما الاخر ولا يتخللهما شيء كما لا يتخلل بين الليل والنهار شيء والذكر جميعه أعمال القلب والشكر اعمال الجوارح قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا والله الموفق والمعين

الباب الحادى والخمسون فى آداب المريد مع الشيخ

أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب وللقوم فى ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وقد

الغلط فى ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته اذ نصير بتركه ملكا فى الحال وترجو به ملكا فى الآخرة ومن كوشف بهذه الامور بعد ان ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه فى العلاج مجرد العلم والكشف بل لا بد وان يضيف اليه العمل وعمله فى ثلاثة أمور * أحدها ان يهرب عن موضع الجاه كى لا يشاهد اسبابه فيعسر عليه الصبر مع الاسباب كما يهرب من غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله فى سعة الارض اذ قال تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها * الثانى ان يكلف نفسه فى أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزى التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل فى مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغى ان يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة الا المضادة * الثالث ان يرعى فى ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة الى الطرف الاقصى من التبذل فان الطبع نفور ولا يمكن نقله عن اخلاقه الا بالتدريج فيترك البعض و يسلى نفسه بالبعض ثم اذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض الى ان يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيأ فشيأ الى ان يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه والى هذا التدريج الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى واليه الاشارة بقوله عليه السلام (٢) لا تشادوا هذا الدين فان من يشاده يغلبه فاذا ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه الى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر فى جميع الاقسام التى فصلناها من قبل فان تفصيل الآحاد يطول ومن راعى التدريج ترقى به الصبر الى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتنعكس اموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيا لا يصبر عنه وهذا لا يعرف الا بالتجربة والذوق وله نظير فى العادات فان الصبي يحمل على التعلم فى الابتداء قهرا فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى اذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الامر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب والى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين انه سال الشبلى عن الصبر أيه أشد فقال الصبر فى الله تعالى فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فقال فايش قال الصبر عن الله فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تتلف وقد قيل فى معنى قوله تعالى اصبروا وصابروا ورابطوا اصبروا فى الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل فى معناه

والصبر عنك فمذموم عواقبه * والصبر فى سائر الاشياء محمود

وقيل أيضا

الصبر يجمل فى المواطن كلها * الا عليك فانه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

(الشطر الثانى) من الكتاب فى الشكر وله ثلاثة أركان (الاول) فى فضيلة الشكر وحقيقته واقسامه واحكامه (الثانى) فى حقيقة النعمة واقسامها الخاصة والعامة (الثالث) فى بيان الافضل من الشكر والصبر

(الركن الاول فى نفس الشكر)

(بيان فضيلة الشكر)

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه مع انه قال ولذكر الله أكبر فقال تعالى فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون وقال الله تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال تعالى وسنجزى الشاكرين

قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم روى عن عبد الله ابن الزبير قال قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى تميم فقال ابو بكر أمر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمر الاقرع بن حابس فقال ابو بكر ما اردت الا خلافى وقال عمر ما اردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت اصواتهما فانزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تقدموا لا تتكلموا بين يدى كلامه وقال جابر كان ناس يضحون قبل رسول الله فنهوا عن تقديم الاضحية على رسول الله

(١) حديث ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق الحديث احمد من حديث أنس والبيهقى من حديث جابر وتقدم فى الاوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فانه من شاده يغلبه تقدم فيه

وقال عز وجل اخبارا عن ابليس اللعين لاقعدن لهم صراطك المستقيم قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين فى الخلق فقال ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال تعالى وقليل من عبادى الشكور وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى لئن شكرتم لازيدنكم واستثنى فى خمسة أشياء فى الاغناء والاجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء وقال فيكشف ماتدعون اليه ان شاء وقال ويرزق من يشاء بغير حساب وقال ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقال ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية اذ قال تعالى والله شكور حليم وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وقال وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (وأما الاخبار) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وروى عن (٢) عطاء انه قال دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت أخبرينا بأعجب مارايت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأى شانه لم يكن عجبا اتانى ليلة فدخل معى فى فراشى أوقالت فى لحافى حتى مس جلدى جلده ثم قال ياابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى قالت قلت انى احب قربك لكنى أوثر هواك فاذنت له فقام الى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتاخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ولم لاأفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ان فى خلق السموات والارض الآية وهذا يدل على ان البكاء ينبغى ان لا ينقطع أبدا والى هذا السر يشير ماروى انه مر بعض الانبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فانطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى وقودها الناس والحجارة فانا ابكى من خوفه فسأله أن يجيره من النار فاجاره ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكى الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة او أشد قسوة ولا تزول قسوته الا بالبكاء فى حال الخوف والشكر جميعا وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال (٣) ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمادون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال وفى لفظ آخر الذين يشكرون الله على السراء والضراء وقال صلى الله عليه وسلم (٤) الحمد رداء الرحمن وأوحى الله تعالى الى ايوب عليه السلام انى رضيت بالشكر مكافاة من أوليائى فى كلام طويل وأوحى تعالى اليه أيضا فى صفة الصابرين ان دارهم دار السلام اذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر الى ازيدهم ولما نزل فى الكنوز مانزل قال عمر رضى الله عنه اى المال نتخذ فقال عليه السلام (٥) ليتخذ احدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا فامر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال وقال ابن مسعود الشكر نصف الايمان

صلى الله عليه وسلم وقيل كان قوم يقولون لو أنزل فى كذا وكذا فكره الله ذلك وقالت عائشة رضى الله عنها أى لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم وقال الكلبى لاتسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون هو الذى يامركم به وهكذا أدب المريد مع الشيخ ان يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف فى نفسه وماله الا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى فى باب المشيخة وقيل لاتقدموا الا تمشوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى ابو الدرداء قال كنت أمشى امام ابى بكر فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشى امام من هو خير منك

﴿ بيان حد الشكر وحقيقته ﴾

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخارى وأسنده الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنه وفى اسناده اختلاف (٢) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها اخبرينا باعجب مارأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأى أمره لم يكن عجبا الحديث فى بكائه فى صلاة الليل ابو الشيخ ابن حبان فى كتاب اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزى فى الوفاء وفيه ابو جناب واسمه يحيى بن أبى حية ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان فى صحيحه من رواية عبد الملك ابن ابى سليمان عن عطاء دون قولها وأى أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر الحديث (٣) حديث ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون الحديث الطبرانى وابو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى الى الجنة الحمادون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور (٤) حديث الحمد رداء الرحمن لم اجد له أصلا وفى الصحيح من حديث ابى هريرة الكبرياء رداؤه الحديث وتقدم فى العلم (٥) حديث عمر ليتخذ احدكم قلبا ذاكرا ولسانا شاكرا الحديث تقدم فى النكاح

اعلم

اعلم ان الشكر من جملة مقامات السالكين وهو ايضا ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الاصل فيورث الحال
والحال يورث العمل فاما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام
بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل
بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ماقيل فى حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال معانيه (فالاصل الاول)
العلم وهو علم بثلاثة امور بعين النعمة ووجه كونه نعمة فى حقه وبذات النعم ووجود صفاته التى بها يتم الانعام
و يصدر الانعام منه عليه فانه لابد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل اليه النعمة من المنعم بقصد وارادة فهذه الامور
لا بد من معرفتها هذا فى حق غير الله تعالى فاما فى حق الله تعالى فلا يتم الا بان يعرف ان النعم كلها من الله وهو المنعم
والوسائط مسخرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس اذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل
الرتبة الاولى فى معارف الايمان التقديس ثم اذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف انه لامقدس الا واحد وماعداه غير
مقدس وهو التوحيد ثم يعلم ان كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه
المعرفة فى الرتبة الثالثة اذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل وعن هذا عبر رسول
الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (١) من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا اله الا الله فله عشرون حسنة
ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة وقال صلى الله عليه وسلم (٢) افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله
وقال (٣) ليس شىء من الاذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله ولا تظنن ان هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه
الكلمات من غير حصول معانيها فى القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا اله الا الله كلمة تدل على التوحيد
والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بازاء هذه المعارف التى هى من ابواب الايمان
واليقين. واعلم ان تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الافعال فمن انعم عليه ملك من الملوك بشىء فان رأى لوزيره
او وكيله دخلا فى تيسير ذلك وايصاله اليه فهو اشراك به فى النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه
ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا فى حق الملك نعم لا يغض من توحيده فى حق الملك وكمال
شكره ان يرى النعمة الواصلة اليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه وبالكاغد الذى كتبه عليه فانه لا يفرح بالقلم
والكاغد ولا يشكرهما لانه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بانفسهما بل من حيث هما مسخران
تحت قدرة الملك وقد يعلم ان الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الايصال وانه لو رد الامر
اليه ولم يكن من جهة الملك ارهاق وامر جزم يخاف عاقبته لما سلم اليه شيئا فاذا عرف ذلك كان نظره الى الخازن
الموصل كنظره الى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من اضافة النعمة الى الملك وكذلك من عرف
الله تعالى وعرف افعاله علم ان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره كالقلم مثلا فى يد الكاتب وان الحيوانات
التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها فان الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتفعل شاءت أم ابت كالخازن
المضطر الذى لا يجد سبيلا الى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده فكل من وصل اليك نعمة
من الله تعالى على يده فهو مضطر اذ سلط الله عليه الارادة وهيج عليه الدواعى والقى فى نفسه ان خيره فى الدنيا
والآخرة فى ان يعطيك ما اعطاك وان غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل الا به وبعد ان خلق الله
له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا الى تركه فهو اذا انما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه فى العطاء
لما اعطاك ولو لم يعلم ان منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو اذا انما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات الحديث تقدم فى الدعوات (٢) حديث افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث ليس شىء من الاذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم اجده مرفوعا وانما رواه ابن ابى الدنيا فى كتاب الشكر عن ابراهيم النخعى يقال ان الحمد اكثر الكلام تضعيفا

فى الدنيا والآخرة وقيل نزلت فى اقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا سئل الرسول عليه السلام عن شىء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى فنهوا عن ذلك وهكذا أدب المريد فى مجلس الشيخ ينبغى ان يلزم السكوت ولا يقول شيئا بحضرته من كلام حسن الا اذا استامر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له فى ذلك وشان المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق اليه فتطلعه الى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام ارادته وطلبه واستزادته من

اتخذك وسيلة الى نعمة اخرى هو يرجوها وانمــا الذى انعم عليك هو الذى سخره لك والتى فى قلبه من الاعتقادات والارادات ماصار به مضطرا الى الايصال اليك فان عرفت الامور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته الهى خلقت ادم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال الله عزوجل علم ان كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا فاذا لا تشكر الا بان تعرف ان الكل منه فان خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل و بغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح و بنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الاصل (الاصل الثانى) الحال المستمدة من اصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو ايضا فى نفسه شكر على تجرده كما ان المعرفة شكر ولكن انمــا يكون شكرا اذا كان حاويا شرطه وشرطه ان يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالانعام ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول الملك الذى يريد الخروج الى سفر فانعم بفرس على انسان يتصور ان يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة اوجه احدها ان يفرح بالفرس من حيث انه فرس وانه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وانه جواد نفيس وهذا فرح من لا حظ له فى الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فاخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح الوجه الثانى ان يفرح به لا من حيث انه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء او اعطاه غير الملك لكان لا يفرح به اصلا لاستغنائه عن الفرس اصلا او استحقاره له بالاضافة الى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك الوجه الثالث ان يفرح به ليركبه فيخرج فى خدمة الملك و يتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى الى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بان يكون محله فى قلب الملك ان يعطيه فرسا و يعتنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لان لا ينعم الملك بشئ من ماله على احد الا بواسطته ثم انه ليس يريد من الوزارة الوزارة ايضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة و بين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات فالاولى لا يدخل فيها معنى الشكر اصلا لان نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الانعام فى المستقبل وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله و يشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وانمــا الشكر التام فى الفرح الثالث وهو ان يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر الى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا وامارته ان لا يفرح من الدنيا الا بمــا هو مزرعة للاخرة و يعينه عليها و يحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لانه ليس يريد النعمة لانها لذيذة كما يرد صاحب الفرس الفرس لانه جواد ومهملج بل من حيث انه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلى رحمه الله الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس من الالوان والاصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ فى حال الصحة الا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وانمــا يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس باكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة و يستحلى الاشياء المرة كما قيل

ومن يك ذافم مر مريض * يجد مرا به المــاء الزلالا

فاذا هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى فان لم تكن ابل فمعزى فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية اما الاولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه و بين من يريد نعم الله ليصل بها اليه (الاصل الثالث) العمل بموجب الفرح الحاصـل من معرفة المنعم

فضل الله وتطلعه الى القول يرده عن مقام الطلب والاستزادة الى مقام اثبات شئ لنفسه وذلك جناية المريد وينبغى ان يكون تطلعه الى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على ان الصادق لا يحتاج الى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بمــا يريد لان الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق وهو عند حضور الصادقين برفع قلبه الى الله و يستمطر و يستسقى لهم فيكون لسانه وقلبه فى القول والنطق ماخوذين الى مهم الوقت من احوال الطالبين المحتاجين الى ما ينتج به عليه لان الشيخ يعلم تطلع الطالب

وهذا العمل يتعلق بالقلب و باللسان و بالجوارح أما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق واما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه واما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته حتى ان شكر العينين ان تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الاذنين ان تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الاعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مامور به فقد قال صلى الله وسلم (١) لرجل كيف اصبحت قال بخير فاعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال فى الثالثة بخير أحمد الله واشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذى اردت منك وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر معطيا والمستنطق له به معطيا وما كان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من اهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك و بيده كل شىء الى عبد مملوك لا يقدر على شىء فالاحرى بالعبد ان لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وافضى به الضعف الى الشكوى ان تكون شكواه الى الله تعالى فهو المبلى والقادر على ازالة البلاء وذل العبد لمولاه عز والشكوى الى غيره ذل واظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح قال الله تعالى ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فالشكر باللسان من جملة الشكر وقد روي ان وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يا أمير المؤمنين لو كان الامر بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك فقال تكلم فقال لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة أما الرغبة فقد اوصلها الينا فضلك واما الرهبة فقد آمننا منها عدلك وانما نحن وفد الشكر جئناك لنشكرك باللسان وننصرف فهذه هى أصول معانى الشكر المحيطة بمجموع حقيقته فاما قول من قال ان الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر الى فعل اللسان مع بعض احوال القلب وقول من قال ان الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه نظر الى مجرد عمل اللسان وقول القائل ان الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معانى الشكر لا يشذ منه الا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك فى الشكر طفيليا اشارة الى ان معنى المعرفة من معانى الشكر فقط وقول الجنيد الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة اشارة الى حال من احوال القلب على الخصوص وهؤلاء اقوالهم تعرب عن احوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد فى حالتين لانهم لا يتكلمون الا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج اليه واعراضا عما لا يحتاج اليه فلا ينبغى ان تظن انما ذكرناه طعن عليهم وانه لو عرض عليهم جميع المعانى التى شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعاقل اصلا الا ان تعرض منازعة من حيث اللفظ فى ان اسم الشكر فى وضع اللسان هل يشمل جميع المعانى أم يتناول بعضها مقصودا و بقية المعانى تكون من توابعه ولوازمه ولسنا نقصد فى هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة فى شىء والله الموفق برحمته

﴿ بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى ﴾

لعلك يخطر ببالك ان الشكر انما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ فى الشكر فانا نشكر الملوك اما بالثناء لنزيد محلهم فى القلوب و يظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التى هى اعانة لهم على بعض اغراضهم

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف اصبحت فقال بخير فاعاد السؤال حتى قال فى الثانية بخير احمد الله واشكره فقال هذا الذى اردت منك الطبرانى فى الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال فى الثالثة احمد الله وهذا معضل ورواه فى المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال احمد الله اليك وفيه رشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك فى الموطأ موقوفا على عمر باسناد صحيح

الى قوله واعتداده بقوله والقول كالبذر يقع فى الارض فاذا كان البذر فاسدا لا ينبت وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها فالشيخ يتقى بذر الكلام عن شوب الهوى و يسلمه الى الله و يسأل الله المونة والسداد ثم يقول فيكون كلامه بالحق من الحق للحق فالشيخ للمريدين أمين الالهام كما أن جبريل امين الوحى فكما لا يخون جبريل فى الوحى لا يخون الشيخ فى الالهام وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى فالشيخ مقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا لا يتكلم بهوى النفس وهوى النفس

أو بالمثول بين أيديهم فى صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم الا بشيء من ذلك وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين أحدهما ان الله تعالى منزه عن الحظوظ والاغراض مقدس عن الحاجة الى الخدمة والاعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والاطراء وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعا سجدا فشكرنا اياه بما لاحظ له فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بان ننام فى بيوتنا أو نسجد أو نركع اذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ولاحظ لله تعالى فى افعالنا كلها * الوجه الثانى أن كل ماتتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا اذ جوارحنا وقدرتنا وداعيتنا وسائر الامور التى هى أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ولو اعطانا الملك مركوبا فاخذنا مركوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا للاول منا بل كان الثانى يحتاج الى شكر كما يحتاج الاول ثم لايمكن شكر الشكر الا بنعمة أخرى فيؤدى الى ان يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك فى الامرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل الى الجمع فاعلم ان هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وانا لا أستطيع ان اشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك وفى لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتنى وفى خبر آخر اذا عرفت ان النعمة منى رضيت منك بذلك شكرا فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن ادراك معنى ماأوحى اليهم فانى اعلم استحالة الشكر لله تعالى فاما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا افهمه فان هذا العلم ايضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكأن الحاصل يرجع الى أن من لم يشكر فقد شكر وان قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الاولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه فاعلم ان هذا قرع باب من المعارف وهى أعلى من علوم المعاملة ولكنا نشير منها الى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا انه الشاكر وانه المشكور وانه المحب وانه المحبوب وهذا نظر من عرف انه ليس فى الوجود غيره وان كل شيء هالك الا وجهه وان ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا لان الغير هو الذى يتصور ان يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال ان يوجد اذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه وماليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت الى غيره لم يكن له وجود البتة وانما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم الا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذا ليس فى الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فان نظرت من هذا المقام عرفت ان الكل منه مصدره واليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن ابى حبيب حيث قرأ انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب فقال واعجباه اعطى وأثنى اشارة الى انه اذا أثنى على اعطائه فعلى نفسه اثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث قرئ بين يديه يحبهم ويحبونه فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لانه انما يحب نفسه اشار به الى انه المحب وانه المحبوب وهذه رتبة عالية لاتفهمها الا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك ان المصنف اذا حب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع اذا أحب صنعته فقد أحب نفسه والوالد اذا أحب ولده من حيث انه ولده فقد احب نفسه وكل مافى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته فان أحبه فما احب الا نفسه واذا لم يحب الا نفسه فبحق أحب ماأحب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس اى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير الا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم و يقول كيف فنى وطول ظله اربعة أذرع ولعله يا كل فى كل يوم ارطالا من الخبز فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعانى كلامهم وضرورة قول العارفين ان يكونوا ضحكة للجاهلين واليه الاشارة بقوله تعالى ان الذين أجرموا كانوا من الذين

فى القول بشيئين أحدهما طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه اليه وما هذا من شأن الشيوخ والثانى ظهور النفس باستحلاء الكلام والعجب وذلك خيانة عند المحققين والشيخ فيما يجرى على لسانه راقد النفس تشغله مطالعة نعم الحق فى ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب فيكون الشيخ لما يجرى به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كاحد المستمعين (وكان) الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الاصحاب بما يلقى اليه وكان يقول أنا فى هذا الكلام مستمع كاحدكم فاشكل

آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذ انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فاكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ثم بين ان ضحك العارفين عليهم غدا أعظم اذ قال تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة فقال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فهذا احد النظرين * النظر الثانى نظر من لم يبلغ الى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا الا وجود أنفسهم وانكروا ان يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين لانهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لاثبات لهم ولا وجود لهم وانما وجودهم من حيث أوجدوا الا من حيث وجدوا وفرق بين الموجود و بين الموجد وليس فى الوجود الا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان واذا كان كل من عليها فان فلا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام * الفرق الثانى ليس بهم عمى ولكن بهم عور لانهم يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الاخرى ان تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فاثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما ان الذى قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى الى العمش ادرك تفاوتا بين الموجودين فاثبت عبدا وربا فبهذا القدر من اثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل فى حد التوحيد ثم ان كحل بصره بما يزيد فى انواره فيقل عمشه و بقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما اثبته سوى الله تعالى فان بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان الى المحو فينمحى عن رؤية ما سوى الله فلا يرى الا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصا فى وجود ما سوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد و بينهما درجات لا تحصى فبهذا تتفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هى الكحل الذى به يحصل انوار الابصار والانبياء هم الكحالون وقد جاؤا داعين الى التوحيد المحض وترجمته قول لا اله الا الله ومعناه ان لا يرى الا الواحد الحق والواصلون الى كمال التوحيد هم الاقلون والجاحدون والمشركون ايضا قليلون وهم على الطرف الاقصى المقابل لطرف التوحيد اذ عبدة الاوثان قالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الاكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الاحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك و يثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز

لكل الى شأو العلا حركات * ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له واسجد واقترب (١) قال فى سجوده أعوذ بعفوك من عقابك واعوذ برضاك من سخطك واعوذ بك منك لا احصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك فقوله صلى الله عليه وسلم اعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكانه لم ير الا الله وافعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الافعال وترقى الى مصادر الافعال وهى الصفات فقال اعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات الى مشاهدة الذات فقال واعوذ بك منك وهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارا منه اليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه اذ راى ذلك نقصانا واقترب فقال لا احصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك فقوله صلى الله عليه وسلم لا احصى خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله انت كما اثنيت على نفسك بيان انه المثنى والمثنى عليه وان الكل منه بدا واليه يعودوان كل شئ هالك الا وجهه فكان اول مقاماته نهاية

(١) حديث قال فى سجوده اعوذ بعفوك من عقابك واعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة اعوذ برضاك من سخطك و بمعافاتك من عقو بتك الحديث

ذلك على بعض الحاضرين وقال اذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كمستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع الى منزله فرأى ليلته فى المنام كان قائلا يقول له أليس الغواص يغوص فى البحر لطلب الدر ويجمع الصدف فى مخلاته والدر قد حصل معه لكن لا يراه الا اذا خرج من البحر و يشاركه فى رؤية الدر من هو على الساحل ففهم بالمنام اشارة الشيخ فى ذلك فاحسن أدب المريد مع الشيخ السكوت والجمود والجود حتى يبادئه الشيخ بما فيه من الصلاح قولا وفعلا (وقيل أيضا) فى قوله تعالى لا تقدموا

مقامات الموحدين وهو أن لا يرى الا الله تعالى وأفعاله فيستعيذ بفعل من فعل فانظر الى ماذا انتهت نهايته اذا انتهى الى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة الى أخرى الا ويرى الاولى بعدا بالاضافة الى الثانية فكان يستغفر الله من الاولى ويرى ذلك نقصانا في سلوكه وتقصيرا في مقامه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) انه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أولها وان كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالاضافة الى آخرها فكان استغفاره لذلك (٢) ولما قالت عائشة رضي الله عنها أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا معناه أفلا أكون طالبا للمزيد في المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم واذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ولنرجع الى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول الانبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق الى كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول اليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وانما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة اخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالاضافة الى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ولا يعرف ذلك ذلك الا بمثال فاقول يمكنك ان تفهم ان ملكا من الملوك ارسل الى عبد قد بعد منه مركوبا وملبوسا ونقدا لاجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان احداهما ان يكون قصده من وصول العبد الى حضرته ان يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته والثانية ان لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به اليه بل حضوره لا يزيد في ملكه لانه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب والزاد ان يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه فمنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الاولى فان الاولى محال على الله تعالى والثانية غير محال ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرا في الحالة الاولى بمجرد الركوب والوصول الى حضرته ما لم يقم بخدمته أرادها الملك منه أما في الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة أصلا ومع ذلك يتصور ان يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بان يستعمل ما أنفذه اليه مولاه فيما أحبه لاجله لا لاجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بان يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد الا في الطريق فقد شكر مولاه اذ استعمل نعمته في محبته أي فيما احبه لعبده لا لنفسه وان ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته اى استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه وان جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته اذ أهملها وعطلها وان كان هذا دون ما لو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وانما سعادتهم في القرب منه فاعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى اذ قال لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا الآية فاذا نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لاجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غني عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين ان يستعملها في الطاعة فيه من قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين ان يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية وان

بين يدي الله ورسوله لا تطلبوا منزلة وراء منزلته وهذا من محاسن الآداب وأعزها وينبغي للمريد ان لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ بل يحب للشيخ كل منزلة عالية ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب وبهذا يظهر جوهر المريد في حسن الارادة وهذا يعز في المريدين فارادته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه ويكون قائما باداب الارادة قال السري رحمه الله حسن الادب ترجمان العقل وقال أبو عبد الله بن حنيف قال لي رويم يا بني اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا * وقيل التصوف كله أدب لكل

(١) حديث انه ليغان على قلبي الحديث تقدم في التوبة وقبله في الدعوات (٢) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر فما هذا البكاء الحديث رواه ابو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة احاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبة

عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية فهو ايضا كفر ان للنعمة بالتضييع وكل ماخلق فى الدنيا انما خلق آ لة للعبد ليتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شا كر نعمة الله فى الاسباب التى استعملها فى الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال اوعاص استعملها فى طريق البعد فهو كافر جار فى غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من افشائه وقد انحل بهذا الاشكال الاول وهو انه اذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر و بهذا ايضا ينحل الثانى فانا لم نعن بالشكر الا انصراف نعمة الله فى جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث انت محله فقد اثنى عليك وثناؤه نعمة اخرى منه اليك فهو الذى اعطى وهو الذى اثنى وصار احد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى الى جهة محبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بانك شاكر بمعنى انك محل المعنى الذى الشكر عباره عنه لا بمعنى انك موجد له كما انك موصوف بانك عارف وعالم لا بمعنى انك خالق العلم وموجده ولكن بمعنى انك محل له وقد وجد بالقدرة الازلية فيك فوصفك بانك شاكر اثبات شيئية لك وانت شىء اذ جعلك خالق الاشياء شيئا وانما أنت لا شىء اذا كنت انت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك فاما باعتبار النظر الى الذى جعل الاشياء اشياء فانت شىء اذ جعلك شيئا فان قطع النظر عن جعله كنت لا شىء تحقيقا والى هذا اشار صلى الله عليه وسلم حيث قال (١) اعملوا فكل ميسر لما خلق له لما قيل له يارسول الله ففيم العمل اذا كانت الاشياء قد فرغ منها من قبل فتبين ان الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل افعاله وان كانوا هم ايضا من افعاله ولكن بعض افعاله محل البعض وقوله اعملوا وان كان جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من افعاله وسبب لعلم الخلق ان العمل نافع وعلمهم فعل من افعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة الى الحركة والطاعة وانبعاث الداعية ايضا من افعال الله تعالى وهو سبب لحركة الاعضاء وهى ايضا من افعال الله تعالى ولكن بعض افعاله سبب للبعض اى الاول شرط للثانى كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض اذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الارادة والكل من افعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض اى هو شرط ومعنى كونه شرطا انه لا يستعد لقبول فعل الحياة الا جوهر ولا يستعد لقبول العلم الا ذو حياة ولا لقبول الارادة الا ذو علم فيكون بعض افعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى ان بعض افعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره وهذا اذا حقق ارتقى الى درجة التوحيد الذى ذكرناه بان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا والا فانتم معاقبون مذمومون على العصيان وما الينا شىء فكيف نذم وانما الكل الى الله تعالى فاعلم ان هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور وذلك سبب للوصول الى جوار الله والله تعالى مسبب الاسباب ومرتبها فمن سبق له فى الازل السعادة يسر له هذه الاسباب حتى يقوده بسلسلتها الى الجنة ويعبر عن مثله بان كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم واذا لم يعلم لم يخف واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا واذا لم يترك الركون الى الدنيا بقى فى حزب الشيطان وان جهنم لموعدهم اجمعين فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل فما من احد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الاسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والامن والغرور عليه فالمتقون يساقون الى الجنة قهرا والمجرمون يقادون الى النار قهرا ولا قاهر الا الله الواحد القهار ولا قادر الا الملك الجبار واذا انكشف الغطاء عن اعين الغافلين فشاهدوا الامر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار

(١) اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث على وعمران بن حصين

وقت ادب ولكل حال أدب ولكل مقام ادب فمن يلزم الادب يبلغ مبلغ الرجال ومن حرم الادب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي كان ثابت ابن قيس ابن شماس فى اذنه وقر وكان جهورى الصوت فكان اذا كلم انسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتاذى بصوته فانزل الله تعالى الآية تاديبا له ولغيره (اخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال انا ابو الفتح

ولقدكان الملك لله الواحدالقهار كل يوم لاذلك اليوم على الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء الاذلك اليوم فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الاحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فانه أصل أسباب الهلاك

﴿بيان تميز مايحبه الله تعالى عما يكرهه﴾

اعلم ان فعل الشكر وترك الكفر لا يتم الا بمعرفة مايحبه الله تعالى عما يكرهه اذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال او باستعمالها فى مكارهه ولتمييز مايحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان أحدهما السمع ومستنده الآيات والاخبار والثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الاخير عسير وهو لاجل ذلك عزيز فلذلك ارسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى افعال العباد فمن لا يطلع على احكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر اصلا وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو ادراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه اذ ما خلق شيا فى العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة الى جلية وخفية أما الجلية فكالعلم بان الحكمة فى خلق الشمس ان يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الابصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم اخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة فى النعيم ونزول الامطار وذلك لانشقاق الارض بانواع النبات مطعما للخلق ومرعى للانعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التى تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه اذ قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا الآية وأما الحكمة فى سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذى يحتمله فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر اليها وأشار اليه قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة الى عشرة الى ألف الى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم الى ما يعرف حكمتها كالعلم بان العين للابصار لا للبطش واليد للبطش لا للمشى والرجل للمشى لا للشم فاما الاعضاء الباطنة من الامعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والاعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها الاقدرا يسيرا بالاضافة الى ما فى علم الله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فاذا كل من استعمل شيا فى جهة غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه وياخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس اذ الابصار يتم بهما وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه ويتقى بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما فى غير ما أريد تا به وهذا لان المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها ان يستعين الخلق بهما على الوصول الى الله تعالى ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به فى الدنيا والتجافى عن غرور الدنيا ولا أنس الا بدوام الذكر ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر الا بدوام البدن ولا يبقى البدن الا بالغذاء ولا يتم الغذاء الا بالارض والماء والهواء ولا يتم ذلك الا بخلق السماء والارض وخلق سائر الاعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لاجل البدن والبدن مطية النفس والراجع الى الله تعالى هى النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق الآية فكل من استعمل شيا فى غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله فى جميع الاسباب التى لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التى ليست فى غاية الخفاء

الهروى قال انا ابو نصر الترياق قال أنا ابو محمد الجراحى قال أنا ابو العباس المحبوبى قال أنا ابو عيسى الترمذى قال ثنا محمد بن المثنى قال ثنا مؤمل بن اسمعيل قال ثنا نافع بن عمر بن جميل الجمحى قال حدثنى حابس بن ابى مليكة قال حدثنى عبد الله ابن الزبير ان الاقرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابو بكر استعمله على قومه فقال عمر لا تستعمله يارسول الله فتكلما عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى علت اصواتهما فقال ابو بكر لعمر مااردت الا خلافى وقال عمر مااردت خلافك فانزل الله تعالى الاية فكان عمر

حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير و بهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة فى اعيانهما ولكن يضطر الخلق اليهما من حيث ان كل انسان محتاج الى اعيان كثيرة فى مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يعجز عما يحتاج اليه و يملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج الى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه و يحتاج الى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد فى مقدار العوض من تقدير اذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله فى الوزن او الصورة وكذا من يشترى دارا بثياب اوعبدا بخف او دقيقا بحمار فهذه الاشياء لا تناسب فيها فلا يدرى ان الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا فافتقرت هذه الاعيان المتنافرة المتباعدة الى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى اذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوي فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الاموال حتى تقدر الاموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث انهما مساويان بشئ واحد اذا متساويان وانما امكن التعديل بالنقدين اذ لا غرض فى اعيانهما ولو كان فى اعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض فى حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك فى حق من لا غرض له فلا ينتظم الامر فاذا خلقهما الله تعالى لتتداولهما الايدى و يكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ولحكمة اخرى وهى التوسل بهما الى سائر الاشياء لانهما عزيزان فى انفسهما ولا غرض فى اعيانهما ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكانه ملك كل شئ لا كمن ملك ثوبا فانه لم يملك الا الثوب فلو احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام فى الثوب لان غرضه فى دابة مثلا فاحتيج الى شئ هو فى صورته كانه ليس بشئ وهو فى معناه كانه كل الاشياء والشئ انما تستوى نسبته الى المختلفات اذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة الى كل غرض وكالحرف لا معنى له فى نفسه وتظهر به المعانى فى غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذا من كنزهما فقد ظلمهما وابطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لانه اذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة اذ لا غرض للآحاد فى اعيانهما فانهما حجران وانما خلقا لتتداولهما الايدى فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فاخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الاسطر الالهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط الهى لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة اخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن ادراكه فقال تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب او فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا من كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والاعمال التى يقوم بها اخساء الناس والحبس اهون منه وذلك ان الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن ان تتبدد وانما الاوانى لحفظ المائعات ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى اريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الالهية وقيل له (1) من شرب فى آنية من ذهب اوفضة فكانما يجرجر فى بطنه نار جهنم وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لانهما خلقا

بعد ذلك اذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمع كلامه حتى يستفهم وقيل لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي الا كأخ السرار فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام الا اذا بسطه الشيخ فرفع الصوت تنحية جلباب القلب الوقار والوقار اذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول وقد ينازل باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ مالا يستطيع المريد أن يشبع النظر الى الشيخ وقد كنت أحم فيدخل على عمى وشيخي أبو النجيب السهروردى

(1) حديث من شرب فى آنية من ذهب اوفضة فكانما يجرجر فى بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث ام سلمة لم يصرح المصنف بكونه حديثا

لغيرهما الا لنفسهما اذ لا غرض فى عينهما فاذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة اذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشترى به طعاما ودابة اذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به الى مقصوده فانهما وسيلتان الى الغير لا غرض فى أعيانهما وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون ان الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره وكموقع المرآة من الالوان فاما من معه نقد فلو جاز له ان يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده و ينزل منزلة المكنوز وتقييد الحاكم والبريد الموصل الى الغير ظلم كما ان حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد الا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم (فان قلت) فلم جاز بيع احد النقدين بالاخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله فاعلم ان أحد النقدين يخالف الآخر فى مقصود التوسل اذ قد يتيسر التوصل باحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا ففى المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به وهو تيسر التوصل به الى غيره واما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث ان ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الارض واخذه بعينه ونحن لا نخاف على العقلاء ان يصرفوا أوقاتهم الى وضع الدرهم على الارض واخذه بعينه فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس اليه الا ان يكون أحدهما اجود من الاخر وذلك ايضا لا يتصور جريانه اذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردىء فلا ينتظم العقد وان طلب زيادة فى الردىء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بان جيدها ورديئها سواء لان الجودة والرداءة ينبغى ان ينظر اليهما فيما يقصد فى عينه ومالا غرض فى عينه فلا ينبغى ان ينظر الى مضافات دقيقة فى صفاته وانما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة فى اعيانها وحقها ان لا تقصد واما اذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فانما لم يجز ذلك لانه لا يقدم على هذا الا مسامح قاصد للاحسان فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد واجر والمعاوضة لا حمد فيها ولا اجر فهو ايضا ظلم لانه اضاعة خصوص المسامحة واخراجها فى معرض المعارضة وكذلك الاطعمة خلقت ليتغذى بها او يتداوى بها فلا ينبغى ان تصرف عن جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها فى الايدى و يؤخر عنها الاكل الذى اريدت له فما خلق الله الطعام الا ليؤكل والحاجة الى الاطعمة شديدة فينبغى ان تخرج عن يد المستغنى عنها الى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة الا مستغن عنها اذ من معه طعام فلم لا ياكله ان كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا اليه فاما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو ايضا مستغن عنه ولهذا ورد فى الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه فى كتاب آداب الكسب نعم بائع البر بالتمر معذور اذ احدهما لا يسد مسد الاخر فى الغرض و بائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج الى منع لان النفوس لا تسمح به الا عند التفاوت فى الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لا يرضى بها صاحب الجيد واما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الاطعمة من الضروريات والجيد يساوى الردىء فى اصل الفائدة ويخالفه فى وجوه التنعم اسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع فى تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فانه اقوى من جميع ما اوردناه فى الخلافيات و بهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله فى التخصيص بالاطعمة دون المكيلات اذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب اولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله اقوم المذاهب فيه اذ خصصه بالاقوات ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد ان يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم احرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط باطراف لا يقوى فيها اصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق فى اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالاحوال

رحمه الله فيترشح جسدى عرقا وكنت أحمى العرق لتخف الحمى فكنت اجد ذلك عند دخول الشيخ على و يكون فى قدومه بركة وشفاء وكنت ذات يوم فى البيت خاليا وهناك منديل وهبه لى الشيخ وكان يتعمم به فوقع قدمى على المنديل اتفاقا فتألم باطنى من ذلك وهالنى الوطء بالقدم على منديل الشيخ وانبعث من باطنى من الاحترام ما ارجو بركته (قال ابن عطاء) فى قوله تعالى لا ترفعوا اصواتكم زجر من الادنى لئلا يتخطى احد الى ما فوقه من ترك الحرمة وقال سهل فى ذلك لا تخاطبوه الا مستفهمين

والاشخاص فمبنى المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولان أصول هذه المعانى لا تختلف فيها الشرائع وانما تختلف فى وجوه التحديد كما يحد شرع عيسى بن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر لان قليله يدعو الى كثيره والداخل فى الحدود داخل فى التحريم بحكم الجنس كما دخل اصل المعنى بالجملة الاصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين فينبغى ان يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ماخلق لحكمة فلا ينبغى ان يصرف عنها ولا يعرف هذا الا من قد عرف الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا ولكن لا تصادف جواهر الحكم فى قلوب هى مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يتذكر الا اولو الالباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى ادم لنظروا الى ملكوت السماء واذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه اما شكر واما كفر اذلا يتصور ان ينفك عنهما و بعض ذلك نصفه فى لسان الفقه الذى تناطق به عوام الناس بالكراهة و بعضه بالحظر وكل ذلك عند ارباب القلوب موصوف بالحظر فاقول مثلا لو استنجيت باليمين فقد كفرت نعمة اليدين اذ خلق الله لك اليدين وجعل احداهما اقوى من الاخرى فاستحق الاقوى بمزيد رجحانه فى الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر الا بالعدل ثم احوجك من اعطاك اليدين الى اعمال بعضها شريف كاخذ المصحف و بعضها خسيس كازالة النجاسة فاذا اخذت المصحف باليسار و ازلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك اذا بصقت مثلا فى جهة القبلة اواستقبلتها فى قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى فى خلق الجهات وخلق سعة العالم لانه خلق الجهات لتكون متسعك فى حركتك وقسم الجهات الى مالم يشرفها والى ماشرفها بان وضع فيها بيتا اضافه الى نفسه استمالة لقلبك اليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك فى تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار اذا عبدت ربك وكذلك انقسمت افعالك الى ماهى شريفة كالطاعات والى ماهى خسيسة كقضاء الحاجة ورمى البصاق فاذا رميت بصاقك الى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التى بوضعها كمال عبادتك وكذلك اذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لان الخف وقاية للرجل فللرجل فيه حظ والبداءة فى الحظوظ ينبغى ان تكون بالاشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وان سماه الفقيه مكروها حتى ان بعضهم كان قد جمع اكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فاريد ان اكفره بالصدقة نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الامر فى هذه الامور لانه مسكين بلى باصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الانعام وهم منغموسون فى ظلمات اطم واعظم من ان تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة اليها فقبيح ان يقال الذى شرب الخمر واخذ القدح بيساره فقد تعدى من وجهين أحدهما الشرب والآخر الاخذ باليسار ومن باع خمرا فى وقت النداء يوم الجمعة فقبيح ان يقال خان من وجهين احدهما بيع الخمر والآخر البيع فى وقت النداء ومن قضى حاجته فى محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح ان يذكر تركه الادب فى قضاء الحاجة من حيث انه لم يجعل القبلة عن يمينه فالمعاصى كلها ظلمات و بعضها فوق بعض فينمحق بعضها فى جنب البعض فالسيد قد يعاقب عبده اذا استعمل سكينه بغير اذنه ولكن لو قتل بتلك السكين اعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية فى نفسه فكل ماراعاه الانبياء والاولياء من الاداب وتسامحنا فيه فى الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة والا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد الى درجات القرب نعم بعضها يؤثر فى العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة و بعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب

(وقال) أبو بكر ابن طاهر لا تبدؤه بالخطاب ولا تجيبوه الا على حدود الحرمة ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أى لا تغلظوا له فى الخطاب ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادى بعضكم بعضا ولكن فخموه واحترموه وقولوا له يانبى الله يارسول الله ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ واذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب ولما كلفت النفوس بمحبة الاولاد والازواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهى تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها فاذا امتلا القلب

(١) حديث لولا ان الشياطين يحومون على بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء تقدم فى الصوم

الى عالم البعد الذى هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى فى خلق الاشجار وخلق اليد أما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة والاعمال المعينة على الطاعة وأما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق اليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدل عن العدل فان كان له غرض صحيح فله ذلك اذ الشجر والحيوان جعلا فداء لاغراض الانسان فانهما جميعا فانيان هالكان فافناء الاخس فى بقاء الاشرف مدة ما اقرب الى العدل من تضييعهما جميعا واليه الاشارة بقوله تعالى وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه نعم اذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وان كان محتاجا لان كل شجرة بعينها لا تفى بحاجات عباد الله كلهم بل تفى بحاجة واحدة ولو خصص واحدها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر ووضعه فى الارض وساق اليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك فان نبت ذلك فى موات الارض لا بسعى آدمى اختص بغرسه أو بغرسه فلابد من طلب اختصاص آخر وهو السبق الى أخذه فللسابق خاصية السبق فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك وهو مجاز محض اذ لا ملك الا لملك الملوك الذى له ما فى السموات والارض وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره نعم الخلق عباد الله والارض مائدة الله وقد أذن لهم فى الاكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر واراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لا لان اللقمة صارت ملكا له بالاخذ باليد فان اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن اذا كانت كل لقمة بعينها لا تفى بحاجة كل العبيد فالعدل فى التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والاخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته فهكذا ينبغى ان تفهم أمر الله فى عباده ولذلك نقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله وانما سبيل الله طاعته وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا اذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم نعم لا يدخل هذا فى حد فتاوى الفقه لان مقادير الحاجات خفية والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة وأواخر الاعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو واباحتنا ذلك اياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق فكذلك اباحتنا للعوام حفظ الاموال والاقتصار فى الانفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على انه غاية الحق وقد أشار القرآن اليه اذ قال تعالى ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا بل الحق الذى لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله الا بقدر زاد الراكب فكل عباد الله ركاب لمطايا الابدان الى حضرة الملك الديان فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج اليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الاسباب التى بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات ثم لا تفى الا بالقليل وانما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وفرح ابليس لعنه الله بقوله ولا تجد أكثرهم شاكرين فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخر وراء ذلك تنقضى الاعمار دون استقصاء مباديها فاما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير فان قلت فقد رجع حاصل هذا الكلام الى أن لله تعالى حكمة فى كل شىء وانه جعل بعض افعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالهم مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى

حرمة ووقارا يعلم اللسان العبارة (وروى) لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى فمر به عاصم بن عدى فقال ما يبكيك ياثابت قال هذه الآية أتخوف ان تكون نزلت فى أن تحبط أعمالكم وانتم لا تشعرون وانا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملى وأكون من اهل النار فمضى عاصم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فاتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول فقال لها اذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى اذا خرجت عطفته وقال

الحكمة حتى انساقت الحكمة الى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الاسباب من ان تنساق الى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الاشكال باق وهو ان فعل العبد المنقسم الى مايتم الحكمة والى مايرفعها هو ايضا من فعل الله تعالى فاين العبد فى البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا اخرى فاعلم ان تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق الى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير ويجحدها من عجز عن الايضاح فى السير فضلا عن ان يجول فى جول الملكوت جولان الطير فنقول ان لله عزوجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة اعلى واجل من ان تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شانها وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن ان يمتد طرف فهمهم الى مبادى اشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض فى نور الشمس ولكن لضعف فى ابصار الخفافيش فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها الى ان يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم فى الوجود الى اقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الاقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة اخرى استعير لها بمثل الضرورة التى سبقت عبارة المشيئة فهى توهم منها امرا مجملا عند المتناطقين باللغات التى هى حروف واصوات المتفاهمين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الافعال الصادرة من القدرة الى ماينساق الى المنتهى الذى هو غاية حكمتها والى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة الى صفة المشيئة لرجوعها الى الاختصاصات التى بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل انهما جميعا داخلان فى وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية اخرى فى النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما امرا مجملا عند طالبي الفهم من الالفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم من خلقه واختراعه الى من سبقت له المشيئة الازلية ان يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم والى من سبقت لهم فى الازل ان يستعملهم لسياقة حكمته الى غايتها فى بعض الامور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة الى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين فى اتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم اسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه فى الازل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران واردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال وظهر على من ارتضاه فى الازل فعل انساقت بسببه الحكمة الى غايتها فاستعير له عبارة الشكر واردف بخلعة الثناء والاطراء زيادة فى الرضا والقبول والاقبال فكان الحاصل انه تعالى اعطى الجمال ثم اثنى واعطى النكال ثم قبح واردى وكان مثاله ان ينظف الملك عبده الوسخ عن اوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فاذا تمم زينته قال ياجميل ما اجملك واجمل ثيابك وانظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال وكانه لم يثن من حيث المعنى الا على نفسه وانما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الامور فى الازل وهكذا تتسلسل الاسباب والمسببات بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث بل عن ارادة وحكمة وحكم حق وامر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل انه كلمح بالبصر أوهو اقرب ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بازاء الامر الواحد الكلى ولفظ القدر بازاء التفصيل المتمادى الى غير نهاية وقيل ان شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد ان القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره

لا اخرج حتى يتوفانى الله او يرضى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اتى عاصم النبي واخبره بخبره فقال اذهب فادعه فجاء عاصم الى المكان الذى رآه فلم يجده فجاء الى اهله فوجده فى بيت الفرس فقال له ان رسول الله يدعوك فقال أكسر الضبه فاتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مايبكيك ياثابت فقال انا صيت واخاف ان تكون هذه الآية نزلت فى فقال له رسول الله اما ترضى أن تعيش سعيدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال قد رضيت

لا يطيق ملاحظة كنه هذا الامر والاحتواء على مجامعه فالجوا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسال عما يفعل وهم يسئلون وامتلات مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى فى السموات والارض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فمسته نار فاشتعل نورا على نور فاشرقت أقطار الملكوت بين ايديهم بنوره بها فادركوا الامور كلها كما هى عليه فقيل لهم تادبوا باداب الله تعالى واسكتوا (١) واذا ذكروا القدر فامسكوا فان للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الابصار فسيروا بسير اضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لا بصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا باخلاق الله تعالى وانزلوا الى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليانس بكم الضعفاء و يقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وان كان لا يحيا به حياة المترددين فى كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شرابا طيبا عند طيب * كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا واهرقنا على الارض فضله * وللارض من كاس الكرام نصيب

فهكذا كان اول هذا الامر وآخره ولا تفهمه الا اذا كنت اهلا له واذا كنت اهلا له فتحت العين وابصرت فلا تحتاج الى قائد يقودك والاعمى يمكن ان يقاد ولكن الى حد ما فاذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وادق من الشعر قدر الطائر على ان يطير عليه ولم يقدر على ان يستجر وراءه اعمى واذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يمكن العبور الا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على ان يستجر وراءه آخر فهذه امور نسبة السير عليها الا السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشى على الماء الى المشى على الارض والسباحة يمكن ان تتعلم فاما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ولذلك (٢) قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام يقال انه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لمشى على الهواء فهذه رموز واشارات الى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفر ان لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا الى افهام الخلق اذ عرف انه ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم ثم اخبر ان له عبدين يحب احدهما واسمه جبريل وروح القدس والامين وهو عنده محبوب مطاع امين مكين و يبغض الآخر واسمه ابليس وهو اللعين المنظر الى يوم الدين ثم احال الارشاد الى جبريل فقال تعالى قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال تعالى يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده واحال الاغواء على ابليس فقال تعالى ليضلهم عن سبيله والاغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبه الى العبد الذى غضب عليه والارشاد سياقه لهم الى الغاية فانظر كيف نسبه الى العبد الذى احبه وعندك فى العادة له مثال فالملك اذا كان محتاجا الى من يسقيه الشراب والى من يحجمه و ينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف الا اقبحهما واخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب الا الى احسنهما واكملهما واحبهما اليه ولا ينبغى ان تقول هذا فعلى ولم يكون فعله دون فعلى فانك اخطات اذا اضفت ذلك الى نفسك بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل

(١) حديث اذا ذكر القدر فامسكوا الطبرانى من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا
(٢) حديث قيل له يقال ان عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء هذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن ابى الدنيا فى كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزنى قال فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا الى البحر اذا هو قد اقبل يمشى على الماء فذكر حديثا فيه ان عيسى قال لو ان لابن ادم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

يبشرى الله تعالى ورسوله ولا ارفع صوتى ابدا على رسول الله فانزل الله تعالى ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله قال انس كنا ننظر الى رجل من اهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم فقال اف لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة ما كنا نقاتل اعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا ولم يزالا قاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه درع فراه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام

المحبوب بالشخص المحبوب اتماما للعدل فان عدله تارة يتم بأمور لامدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك فى التعبير هو فعله الذى رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الافعال المعتدلة الا انك لاترى الا نفسك فتظن أن مايظهر عليك فى عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه الى نفسك وانما أنت مثل الصبي الذى ينظر ليلا الى لعب المشعبذ الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهى مؤلفة من خرق لاتتحرك بانفسها وانما تحركها خيوط شعرية دقيقة لاتظهر فى ظلام الليل ورؤوسها فى يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد وأما العقلاء فانهم يعلمون ان ذلك تحريك وليس بتحرك ولكنهم ربما لايعلمون كيف تفصيله والذى يعلم بعض تفصيله لايعلمه كما يعلمه المشعبذ الذى الأمر اليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان اهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة الى العلماء ينظرون الى هذه الاشخاص فيظنون انها المتحركة فيحيلون عليها والعلماء يعلمون انهم محركون الا انهم لايعرفون كيفية التحريك وهم الاكثرون الا العارفون والعلماء الراسخون فانهم ادركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل ادق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الاطراف باشخاص اهل الارض لاتدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الابصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط فى مناطات لها هى معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى ايدى الملائكة المحركين للسموات وشاهدوا ايضا ملائكة السموات مصروفة الى حملة العرش ينتظرون منهم ماينزل عليهم من الامر من حضرة الربوبية كى لايعصون الله ماامرهم ويفعلون مايؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات فى القرآن فقيل وفى السماء رزقكم وماتوعدون وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل اليهم من القدر والامر فقيل خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما وهذه امور لا يعلم تأويلها الا الله والراسخون فى العلم وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص الراسخين فى العلم بعلوم لاتحتملها افهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى يتنزل الامر بينهن فقال لو ذكرت ما اعرفه من معنى هذه الآية لرجمتمونى وفى لفظ آخر لقلتم انه كافر ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ماليس منه فلنرجع الى مقاصد الشكر فنقول اذا رجع حقيقة الشكر الى كون العبد مستعملا فى اتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم الى الله واقربهم اليه واقربهم الى الله الملائكة ولهم ايضا ترتيب ومامنهم الا وله مقام معلوم واعلاهم فى رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام وانما علو درجتهم لانهم فى انفسهم كرام بررة وقد اصلح الله تعالى بهم الانبياء عليهم السلام وهم اشرف مخلوق على وجه الارض ويلى درجتهم درجة الانبياء فانهم فى انفسهم اخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته واعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم اذ اكمل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فانهم فى انفسهم صالحون وقد اصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما اصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لانهم اصلحوا دنيا الخلق كما اصلح العلماء دينهم ولاجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان افضل من سائر الانبياء فانه اكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الانبياء ثم يلى العلماء والسلاطين الصالحون الذين اصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع * واعلم ان السلطان به قوام الدين فلا ينبغى ان يستحقر وان كان ظالما فاسقا قال عمرو بن العاص رحمه الله امام غشوم خير من فتنة تدوم وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ويفسدون ومايصلح الله بهم اكثر فان احسنوا فلهم الاجر وعليكم الشكر وان اساؤا فعليهم الوزر

(١) حديث سيكون عليكم امراء يفسدون ومايصلح الله بهم اكثر الحديث مسلم من حديث ام سلمة يستعمل عليكم امراء فتعرفون وتنكرون ورواه الترمذى بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللبزار بسند

فقال له اعلم ان فلانا رجلا من المسلمين نزع درعى فذهب بها وهو فى ناحية من العسكر وعنده فرس يستن فى طيله وقد وضع على درعى برمة فات خالد بن الوليد فاخبره حتى يسترد درعى وأت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له ان على دينا حتى يقضى عنى وفلان من عبيدى عتيق فاخبر الرجل خالدا فوجد الدرع والفرس على ماوصفه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فاجاز أبو بكر وصيته قال مالك ابن أنس رضى الله عنهما لاأعلم وصية اجيزت بعد موت صاحبها الا هذه فهذه كرامة ظهرت

وعليكم الصبر * وقال سهل من انكر امامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ومن اتاه من غير دعوة فهو جاهل وسئل اى الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى ان شر الناس السلطان فقال مهلا ان لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة الى سلامة اموال المسلمين ونظرة الى سلامة أبدانهم فيطلع فى صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الخشبات السود المعلقة على ابوابهم خير من سبعين قاصا يقصون

﴿الركن الثانى من اركان الشكر ما عليه الشكر﴾

وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة واقسامها ودرجاتها واصنافها ومجامعها فيما يخص و يعم فان احصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فنقدم امورا كلية تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد والله الموفق للصواب

﴿بيان حقيقة النعمة واقسامها﴾

اعلم ان كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الاخروية وتسمية ماسواها نعمة وسعادة اما غلط واما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة نعمة فان ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشىء صدقا ولكن يكون اطلاقه على السعادة الاخروية اصدق فكل سبب يوصل الى سعادة الاخرة و يعين عليها اما بواسطة واحدة او بوسائط فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لاجل ان يفضى الى النعمة الحقيقية والاسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات ﴿القسمة الاولى﴾ ان الامور كلها بالاضافة الينا تنقسم الى ماهو نافع فى الدنيا والاخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق والى ماهو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق والى ماينفع فى الحال و يضر فى المآل كالتلذذ باتباع الشهوات والى مايضر فى الحال و يؤلم ولكن ينفع فى المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع فى الحال المضر فى المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع اذا وجد عسلا فيه سم فانه يعده نعمة ان كان جاهلا واذا علمه علم ان ذلك بلاء سيق اليه والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الالباب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه الا انه شاف من الامراض والاسقام وجالب الصحة والسلامة فالصبى الجاهل اذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة و يتقلد المنة ممن يهديه اليه و يقربه منه و يهيىء له اسبابه فلذلك تمنع الام ولدها من الحجامة والاب يدعوه اليها فان الاب لكمال عقله يلمح العاقبة والام لفرط حبها و قصورها تلحظ الحال والصبى لجهله يتقلد منة من امه دون أبيه و يانس اليها والى شفقتها و يقدر الاب عدواله ولو عقل لعلم ان الام عدو باطنا فى صورة صديق لان منعها اياه من الحجامة يسوقه الى امراض وآلام اشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل انسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو ﴿قسمة ثانية﴾ اعلم ان الاسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والاهل والولد والاقارب والجاه وسائر الاسباب ولكن تنقسم الى مانفعها اكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الاسباب والى ماضرها اكثر من نفعه فى حق اكثر الاشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع والى ما يكافىء ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالاشخاص فرب انسان صالح ينتفع بالمال الصالح وان كثر فينفقه فى سبيل الله و يصرفه الى الخيرات

ثابت بحسن تقواه وادبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعتبر المريد الصادق و يعلم ان الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وان الذى يعتمده مع الشيخ عوض مالو كان فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم بواجب الادب اخبر الحق عن حالهم واثنى عليهم فقال اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى اى اختبر قلوبهم واخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه وكما ان اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب

ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله فى الارض يأوى اليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الاجر وكان على الرعية الشكر وان جار اوحاف اوظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر واما قوله وما يصلح الله بهم اكثر فلم اجده بهذا اللفظ الا انه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع اليه الناس لما انكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله اصبروا فان جور امامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثا والامارة الفاجرة خير من الهرج رواه الطبرانى فى الكبير باسناد لا باس به

فهو

فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه ورب انسان يستضر بالقليل أيضا اذ لا يزال مستصغراله شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه ﴿قسمة ثالثة﴾ اعلم ان الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى ماهو مؤثر لذاته لا لغيره والى مؤثر لغيره والى مؤثر لذاته ولغيره * فالاول مايؤثر لذاته لا لغيره كلذة النظر الى وجه الله تعالى وسعادة لقائه وبالجملة سعادة الاخرى التى لا انقضاء لها فانها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها * الثانى مايقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته كالدراهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة الى اللذات سريعة الايصال اليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالرباو يظنون انها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الاصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده وهو غاية الجهل والضلال الثالث مايقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين الى لقاء الله تعالى أو ليتوصل بها الى استيفاء لذات الدنيا وتقصد أيضا لذاتها فان الانسان وان استغنى عن الشئ الذى تراد سلامة الرجل لاجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث انها سلامة فاذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ومايؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الاول فامامالا يؤثر الا لغيره كالنقدين فلا يوصفان فى أنفسهما من حيث انهما جوهران بانهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمرا ليس يمكنه ان يتوصل اليه الا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة (قسمة رابعة) اعلم ان الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى نافع ولذيذ وجميل فاللذيذ هو الذى تدرك راحته فى الحال والنافع هو الذى يفيد فى المآل والجميل هو الذى يستحسن فى سائر الاحوال والشرور أيضا تنقسم الى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد * فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الاوصاف الثلاثة أما فى الخير فكالعلم والحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة عند اهل العلم والحكمة وأما فى الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم وانما يحس الجاهل بألم جهله اذا عرف انه جاهل وذلك بان يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذ ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه فانه ان ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان وان اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات او بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال فى عذاب دائم لا محالة * والضرب الثانى المقيد وهو الذى جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض فرب نافع مؤلم كقطع الاصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحمق فانه بالاضافة الى بعض الاحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يهتم بالعاقبة فيستريح فى الحال الى ان يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء المال فى البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال نافع للنفس فى نجاتها والنافع قسمان ضرورى كالايمان وحسن الخلق فى الايصال الى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل اذ لا يقوم مقامهما البتة غيرها والى مالا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا فى تسكين الصفراء فانه قد يمكن تسكينها ايضا بما يقوم مقامه ﴿قسمة خامسة﴾ اعلم ان النعمة يعبر بها عن كل لذيذ واللذات بالاضافة الى الانسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات أما العقلية فكلذة العلم والحكمة اذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج وانما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذا أقل اللذات وجودا وهى اشرفها اماقلتها فلان العلم لا يستلذه الاعالم والحكمة لا يستلذها الاحكيم وماأقل اهل العلم والحكمة وماأكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم وأما شرفها فلانها لازمة لا تزول ابدا

فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ (قال أبو عثمان) لا ادب عند الاكابر وفى مجالسة السادات من الاولياء يبلغ بصاحبه الى الدرجات العلا والخير فى الاولى والعقبى ألا ترى الى قول الله تعالى ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم ومما علمهم الله تعالى قوله سبحانه ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون وكان هذا الحال من وفد بنى تميم جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوا يامحمد اخرج الينا فان مدحنا زين وذمنا شين قال فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم وهو يقول انما ذلكم

لا في الدنيا ولا في الاخرة ودائمة لا تمل فالطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل والعلم والحكمة قط لا يتصور ان تمل وتستثقل ومن قدر على الشريف الباقي ابد الاباد اذا رضي بالخسيس الفاني في اقرب الاماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وادباره واقل امر فيه ان العلم والعقل لا يحتاج الى اعوان وحفظة بخلاف المال اذ العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص بالانفاق والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لا تمتد اليه ايدي السراق بالاخذ ولا ايدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الامن ابدا وصاحب المال والجاه في كرب الخوف ابدا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال ابدا والمال تارة يجذب الى الهلاك وتارة يجذب الى النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وان سماه خيرا في مواضع واما قصورا كثر الخلق عن ادراك لذة العلم فاما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق اذ الشوق تبع الذوق واما لفساد امزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا واما لقصور فطنتهم اذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ الا اللبن وذلك لا يدل على انها ليست لذيذة ولا استطابته اللبن تدل على انه الذ الاشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة امامن لم يحي باطنه كالطفل وأمامن مات بعد الحياة باتباع الشهوات واما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى في قلوبهم مرض اشارة الى مرض العقول وقوله عزوجل لينذر من كان حيا اشارة الى من لم يحي حياة باطنة وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان عند الجهال من الاحياء ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وان كانوا موتى بالابدان * الثانية لذة يشارك الانسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الاسد والنمر وبعض الحيوانات * الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج وهذه اكثرها وجودا وهي اخسها ولذلك اشترك فيها كل ما دب ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة وهو اشدها التصاقا بالمتغافلين فان جاوز ذلك ارتقى الى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وافعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها الا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة واما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها الا الصديقون فاما قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الاحساس على الدوام وفي اختلاف الاحوال فيشبه ان يكون خارجا عن مقدور البشر نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في احوال لا يقع معها الاحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود اليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا تنقسم القلوب الى اربعة اقسام قلب لا يحب الا الله تعالى ولا يستريح الا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الانس بالله وانما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب احواله الانس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الاحوال الرجوع الى اوصاف البشرية وقلب اغلب احواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الاحوال تلذذ بالعلم والمعرفة اما الاول فان كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد واما الثاني فالدنيا طافحة به واما الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور ولا يتصور ان يكون ذلك الا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وانما تكون كثرته في الاعصار القريبة من اعصار الانبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة الى ان تقرب الساعة ويقضي الله امرا كان مفعولا وانما وجب ان يكون هذا نادرا لانه مبادي ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال الا نادرا واكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة فانها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما ان الصورة

الله الذي ذمه شين ومدحه زين في قصة طويلة وكانوا آتوا بشاعرهم وخطيبهم فغلبهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والانصار بالخطبة وفي هذا تادب للمريد في الدخول على الشيخ والاقدام عليه وتركه الاستعجال وصبره الى ان يخرج الشيخ من موضع خلوته * سمعت ان الشيخ عبد القادر رحمه الله كان اذا جاء اليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع الى خلوته واذا جاء احد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه لخطر لبعض الفقراء نوع

في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة والصورة في المرآة وان كانت هي الثانية في رتبة الوجود فانها اولى في حق رؤيتك فانك لاترى نفسك وترى صورتك في المرآة اولا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فانقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة وانقلب المتاخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك الا ويعبر به الى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد امر الحق به فقال فاعتبروا يا أولي الابصار ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وسينفتح الى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها ان تطلع على الافئدة الا ان بينه وبين ادراك الها حجابا فاذا رفع ذلك الحجاب بالموت ادرك وعن هذا اظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ومرة بادراك آخر يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون الا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فلذلك قال الله تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم اى في الدنيا ثم لترونها عين اليقين اى في الآخرة فاذا قد ظهر ان القلب الصالح لملك الاخرة لا يكون الا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا (قسمة سادسة) حاوية لمجامع النعم اعلم ان النعم تنقسم الى ماهي غاية مطلوبة لذاتها والى ماهي مطلوبة لاجل الغاية اما الغاية فانها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها الى اربعة امور بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عيش الا عيش الآخرة وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس وذلك في وقت [1] حفر الخندق في شدة الضر وقال ذلك مرة في السرور منعا للنفس من الركون الى سرور الدنيا وذلك عند احداق الناس به [2] في حجة الوداع وقال رجل [3] اللهم اني اسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ما تمام النعمة قال لا قال تمام النعمة دخول الجنة واما الوسائل فتنقسم الى الاقرب الاخص كفضائل النفس والى مايليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني والى مايليه في القرب ويجاوز الى غير البدن كالاسباب المطيفة بالبدن من المال والاهل والعشيرة والى ما يجمع بين هذه الاسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي اذا اربعة انواع (النوع الاول وهو الاخص) الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها الى الايمان وحسن الخلق وينقسم الايمان الى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله والى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم الى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والاقدام حتى لا يمتنع اصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون اقدامه واحجامه بالميزان العدل الذي انزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم اذ قال تعالى ان لا تطغوا في الميزان واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان فمن خصى نفسه لنزيل شهوة النكاح اوترك النكاح مع القدرة والامن من الآفات اوترك الاكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان ومن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان وانما العدل ان يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان فاذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة الى الله تعالى اربعة علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الامر الا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية وهي اربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تتهيأ هذه الامور الاربعة الا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهي اربعة المال والاهل والجاه وكرم العشيرة ولا ينتفع بشيء من هذه الاسباب

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لا عيش الا عيش الآخرة متفق عليه من حديث انس (٢) حديث قوله في حجة الوداع لا عيش الا عيش الاخرة الشافعي مرسلا والحاكم متصلا وصححه وتقدم في الحج (٣) حديث قال رجل اللهم اني أسألك تمام النعمة الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن

انكار لتركه الخروج الى الفقير وخروجه لغير الفقير فانتهى ما خطر للفقير الى الشيخ فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده اجنبية فتكتفي معه بموافقة القلوب ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر واما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر فمتى لم يعرف حقه من الظاهر استوحش فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ (قيل) لابي منصور المغربي كم صحبت أبا عثمان قال خدمته لاصحبته فالصحبة مع الاخوان والاقران ومع المشايخ الخدمة

الخارجة والبدنية الا بالنوع الرابع وهى الاسباب التى تجمع بينهما وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى اربعة هداية الله ورشده وتسديده وتاييده فجموع هذه النعم ستة عشر اذ قسمناها الى اربعة وقسمنا كل واحدة من الاربعة الى اربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها الى البعض اما حاجة ضرورية أو نافعة أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة الى الايمان وحسن الخلق اذ لا سبيل الى الوصول الى سعادة الآخرة البتة الا بهما فليس للانسان الا ما سعى وليس لاحد فى الآخرة الا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسب هذه العلوم وتهذيب الاخلاق الى صحة البدن ضرورى واما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية الى النعم الخارجة مثل المال والعز والاهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل الى بعض النعم الداخلة (فان قلت) فما وجه الحاجة لطريق الآخرة الى النعم الخارجة من المال والاهل والجاه والعشيرة فاعلم ان هذه الاسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والالة المسهلة للمقصود اما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساع الى الهيجا بغير سلاح وكبازي يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم (٢) نعم العون على تقوى الله المال وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات فى طلب الاقوات وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع الا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وافاضة الخيرات وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعم فقال الغنى فانى رأيت الفقير لا عيش له قيل زدنا قال الامن فانى رأيت الخائف لا عيش له قيل زدنا قال العافية فانى رأيت المريض لا عيش له قيل زدنا قال الشاب فانى رأيت الهرم لا عيش له وكان ماذكره اشارة الى نعم الدنيا ولكن من حيث انه معين على الاخرة فهو نعمة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) من اصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها واما الاهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة اليهما اذ قال صلى الله عليه وسلم (٤) نعم العون على الدين المرأة الصالحة وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد (٥) اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث ولد صالح يدعو له الحديث وقد ذكرنا فوائد الاهل والولد فى كتاب النكاح * واما الاقارب فمهما كثر اولاد الرجل واقاربه كانوا له مثل الاعين والايدى فيتيسر له بسببهم من الامور الدنيوية المهمة فى دينه مالو انفرد به لطال شغله وكل مايفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو اذا نعمة * واما العز والجاه فبه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضيم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشتغل قلبه وقلبه رأس ماله وانما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان قال تعالى لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولا معنى للجاه الا ملك القلوب كما لا معنى للغنى الا ملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له ارباب القلوب لدفع الاذى عنه فكما يحتاج الانسان الى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج ايضا الى من يدفع الشر به عن نفسه وعلى هذا القصد كان الانبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم والاستئثار والاستكثار فى الدنيا بمتابعتهم ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح احمد وابو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله المال ابو منصور الديلمى فى مسند الفردس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه ابو القاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا ومن طريقه رواه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا (٣) حديث من اصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه الحديث الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله ابن محصن الانصارى وقد تقدم (٤) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم اجد له اسنادا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث

و ينبغى للمريد انه كلما اشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كيف كان الخضر يفعل اشياء ينكرها موسى واذا اخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن انكاره فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فللشيخ فى كل شيء عذر بلسان العلم والحكمة (سال) بعض اصحاب الجنيد مسالة من الجنيد فاجابه الجنيد فعارضه فى ذلك فقال الجنيد فان لم تؤمنوا لى فاعتزلون وقال بعض المشايخ من لم يعظم حرمة من تادب به حرم بركة ذلك الادب وقيل من قال لاستاذه لا لا يفلح

عليه وسلم حيث نصره واكمل دينه واظهره على جميع اعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى انسع به عزه وجاهه كانت اقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى و يضرب حتى افتقر الى الهرب والهجرة (١) (فان قلت) كرم العشيرة وشرف الاهل هو من النعم ام لا (فاقول) نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) الائمة من قريش ولذلك كان صلى الله عليه وسلم (٣) من اكرم الناس ارومة فى نسب آدم عليه السلام وقال صلى الله عليه وسلم (٤) تخيروا لنطفكم الاكفاء وقال صلى الله عليه وسلم (٥) اياكم وخضراء الدمن فقيل وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء فهذا أيضا من النعم ولست اعنى به الانتساب الى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أئمة العلماء والى الصالحين والابرار المتوسمين بالعلم والعمل (فان قلت) فما معنى الفضائل البدنية فاقول لاخفاء بشدة الحاجة الى الصحة والقوة والى طول العمر اذ لا يتم علم وعمل الا بهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٦) افضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى وانما يستحقر من جملته أمر الجمال فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الامراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ولعمرى الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات ايضا اما فى الدنيا فلا يخفى نفعه فيها واما فى الآخرة فمن وجهين احدهما ان القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة اقرب وجاهه فى الصدور اوسع فكانه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه اذ هو نوع قدرة اذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها والثانى ان الجمال فى الاكثر يدل على فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول اصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ولذلك يظهر فيه اثر الغضب والسرور والغم ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافى النفس وقيل مافى الارض قبيح الا ووجهه احسن مافيه واستعرض المامون جيشا فعرض عليه رجل قبيح

مسلم من حديث ابى هريرة وتقدم فى النكاح (١) حديث مانا له صلى الله عليه وسلم من الاذى ونحوه حتى افتقر الى الهرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة انها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل اتى عليك يوم اشد من يوم احد قال لقد لقيت من قومك وكان اشد مالقيت يوم العقبة اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل الحديث وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث انس لقد اخفت فى الله ومايخاف احد ولقد اوذيت فى الله ومايؤذى احد ولقد اتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام ياكله ذو كبد الاشئ يواريه ابط بلال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال وللبخارى عن عروة قال سالت عبد الله بن عمرو عن اشد ماصنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى معيط جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه الحديث وللبزار وابى يعلى من حديث انس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه فقام ابو بكر فجعل ينادى ويلكم اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله واسناده صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الائمة من قريش النسائى والحاكم من حديث انس باسناد صحيح (٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من اكرم ارومة فى نسب آدم الارومة الاصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الاسقع مرفوعا ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسمعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب بن ربيعة وصححه والمطلب بن ابى وداعة وحسنه ان الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس مابال اقوام يتبذلون اصلى فوالله لانا افضلهم اصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم فى النكاح (٥) حديث اياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا (٦) حديث افضل السعادة طول العمر فى عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللترمذى من حديث ابى بكرة ان رجلا قال يارسول الله اى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح

أبدا (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا هناد عن أبى معاوية عن الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتركونى ماتركتكم واذا حدثتكم فخذوا عنى فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم (قال الجنيد) رحمه الله رأيت مع أبى حفص النيسابورى انسانا كثير الصمت لا يتكلم فقلت لاصحابه من هذا فقيل لى هذا انسان يصحب ابا حفص و يخدمنا

فاستنطقه فاذاهو ألكن فاسقط اسمه من الديوان وقال الروح اذا أشرقت على الظاهر فصباحة او على الباطن ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) اطلبوا الخير عند صباح الوجوه وقال عمر رضي الله تعالى عنه اذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم وقال الفقهاء اذا تساوت درجات المصلين فاحسنهم وجها اولاهم بالامامة وقال تعالى ممتنا بذلك وزاده بسطة في العلم والجسم ولسنا نعني بالجمال مايحرك الشهوة فان ذلك انوثة وانما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الاعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لاتنبو الطباع عن النظر اليه (فان قلت) فقد ادخلت المال والجاه والنسب والاهل والولد في حيز النعم وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وكذا العلماء قال تعالى ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عز وجل انما اموالكم واولادكم فتنة وقال علي كرم الله وجهه في ذم النسب الناس ابناء مايحسنون وقيمة كل امرىء مايحسنه وقيل المرء بنفسه لا بابيه فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا * فاعلم ان من ياخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه اغلب مالم يهتد بنور الله تعالى الى ادراك العلوم على ماهي عليه ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها بالتاويل مرة و بالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على امر الاخرة لاسبيل الى جحدها الا ان فيها فتنا ومخاوف فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم نافع فان اصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة وان اصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته اصناف الجواهر واللالىء فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه وان خاضه جاهلا بذلك فقد هلك فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم العون على تقوى الله تعالى المال وكذلك مدح الجاه والعزاذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بان اظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق وهو المعني بالجاه ولكن المنقول في مدحهما قليل والمنقول في ذم المال والجاه كثير وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه اذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ومعنى الجاه ملك القلوب وانما كثر هذا وقل ذاك لان الناس اكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول الى ترياقه و يهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا في اعيانهما مذمومين بالاضافة الى كل أحد لما تصور ان ينضاف الى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا ان ينضاف اليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والاموال حيات والانبياء والعارفون معزمون فقد يضر الصبي مالا يضر المعزم نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم انه لو أخذها الاجل ترياقها لاقتدى به ولده واخذ الحية اذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب عليه ان يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد فاذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ولو أخذها لاخذها الصبي و يعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه ان يهرب عن الحية اذا رآها و يشير على الصبي بالهرب و يقبح صورتها في عينه و يعرفه ان فيها سما قاتلا لا ينجو منه احد ولا يحدثه اصلا بما فيها من نفع الترياق فان ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك الغواص اذا علم انه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك فواجب عليه ان يحذر الصبي ساحل البحر والنهر فان كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه ان يبعد

وقد أنفق عليه مائة الف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه مايسوغ له ابي حفص أن يتكلم بكلمة واحدة وقال ابو زيد البسطامي صحبت ابا علي السندي فكنت القنه ما يقيم به فرضه وكان يعلمني التوحيد والحقائق صرفا (وقال ابو عثمان) صحبت اباحفص وانا غلام حدث فطردني وقال لا تجلس عندي فلم اجعل مكافأتي له على كلامه ان أولي ظهري اليه فانصرفت أمشي الى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت عنه واعتقدت ان أحفر لنفسي بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه الا باذنه فلما رأى ذلك

(١) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه ابو يعلى من رواية اسمعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد ابن ثابت بن سباع عن امها عائشة وخيرة وامها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٢) حديث ذم المال والجاه الترمذي من حديث كعب بن مالك ماذئبان جائعان ارسلا في غنم بافسد لها من حب المال والشرف لدينه وقد تقدم في ذم المال والبخل

من

من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الامة فى حجر الانبياء عليهم السلام كالصبيان الاغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) انما أنا لكم مثل الوالد لولده وقال صلى الله عليه وسلم (٢) انكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم وحظهم الاوفر فى حفظ أولادهم عن المهالك فانهم لم يبعثوا الا لذلك وليس لهم فى المال حظ الا بقدر القوت فلاجرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه فان الانفاق فيه الترياق وفى الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا الى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الانفاق فلذلك قبحت الاموال والمعنى به تقبيح امساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون الى الدنيا ولذاتها فاما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل الى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر ان لا يحمل الا بقدر زاده فى السفر اذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله فاما اذا سمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا باس بالاستكثار وقوله عليه السلام (٣) ليكن بلاغ احدكم من الدنيا كزاد الراكب معناه لانفسكم خاصة والا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث و يعمل به من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع واحد و يفرقها فى موضعه ولا يمسك منها حبة ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاغنياء يدخلون الجنة بشدة (٤) استاذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فى ان يخرج عن جميع مايملكه فاذن له فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بان يطعم المسكين و يكسو العارى و يقرى الضيف الحديث فاذا النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله ان يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الاخطار فلا تعدل بالسلامة شيأ فى حق هؤلاء وهم الخلق كلهم الا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه * فان قلت فما معنى النعم التوفيقية الراجعة الى الهداية والرشد والتاييد والتسديد فاعلم ان التوفيق لا يستغنى عنه احد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين ارادة العبد و بين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما ان الالحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال الى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة الى التوفيق ولذلك قيل

اذا لم يكن عون من الله للفتى * فاكثر مايجنى عليه اجتهاده

فاما الهداية فلا سبيل لاحد الى طلب السعادة الا بها لان داعية الانسان قد تكون مائلة الى مافيه صلاح آخرته ولكن اذا لم يعلم مافيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الارادة فلا فائدة فى الارادة والقدرة والاسباب الا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء وقال صلى الله عليه وسلم (٥) مامن احد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى

---

(١) حديث انما أنا لكم مثل الوالد لولده مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله لولده وقد تقدم (٢) حديث انكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس وقال مسلم ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فانا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلغة وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد قلت هو من رواية أبى سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد الى ان يكفى أحدكم مثل زاد الراكب (٤) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف ان يخرج عن جميع مايملكه لما ذكر ان الاغنياء يدخلون الجنة بشدة فاذن له فنزل جبريل فقال مره ان يطعم المسكين الحديث الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد قلت كلا فيه خالد بن أبى مالك ضعيف جدا (٥) حديث مامن أحد يدخل الجنة الا برحمة الله متفق عليه من حديث أبى هريرة من يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا انت يارسول الله قال ولا أنا

منى قربنى وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه الى ان مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة ان المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ الا لوقت الصلاة فان المريد من شانه التبتل للخدمة وفى السجادة ايماء الى الاستراحة والتعزز ولا يتحرك فى السماع مع وجود الشيخ الا ان يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال فى السماع وتقييده واستغراقه فى الشيخ بالنظر اليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الاصغاء الى السماع ومن الادب ان لا يكتم عن الشيخ شيأ من حاله ومواهب

أى بهدايته فقيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا * وللهداية ثلاث منازل الاولى معرفة طريق الخير والشر المشار اليه بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل و بعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فاسباب الهدى هى الكتب والرسل و بصائر العقول وهى مبذولة ولا يمنع منها الا الحسد والكبر وحب الدنيا والاسباب التى تعمى القلوب وان كانت لا تعمى الابصار قال تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ومن جملة المعميات الالف والعادة وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى انا وجدنا آباءنا على أمة الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقوله تعالى أبشرا منا واحدا نتبعه فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهى التى يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهى ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وهو المراد بقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها الى ما لا يهتدى اليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وامكان تعلم العلوم وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذى شرفه الله تعالى بتخصيص الاضافة اليه وان كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى قل ان هدى الله هو الهدى وهو المسمى حياة فى قوله تعالى أومن كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس والمعنى بقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه * واما الرشد فنعنى به العناية الالهية التى تعين الانسان عند توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده و يكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فالرشد عبارة عن هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها فالصبي اذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم انه يضره فقد اعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذى لا يدرى انه يضره ولكن ما اعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية الى وجوه الاعمال وهى نعمة عظيمة * وأما التسديد فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد فى صوب الصواب فى أسرع وقت فان الهداية بمجردها لا تكفى بل لا بد من هداية محركة للداعية وهى الرشد والرشد لا يكفى بل لا بد من تيسر الحركات بمساعدة الاعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية اليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الاعضاء فى صوب السداد وأما التاييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الاسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل اذ أيدتك بروح القدس وتقرب منه العصمة وهى عبارة عن وجود الهى يسبح فى الباطن يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس واياه عنى بقوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه فهذه هى مجامع النعم ولن تثبت الا بما يخوله الله من الفهم الصافى الثاقب والسمع الواعى والقلب البصير المتواضع المراعى والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الاعداء و يستدعى كل واحد من هذه الاسباب الستة عشر أسبابا وتستدعى تلك الاسباب أسبابا الى ان تنتهى بالآخرة الى دليل المتحيرين وملجا المضطرين وذلك رب الارباب ومسبب الاسباب واذا كانت تلك الاسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وبالله التوفيق

﴿بيان وجه الانموذج فى كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء﴾

الحق عنده وما يظهر له من كرامة واجابة و يكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه وما يستحى من كشفه يذكره ايماء وتعريضا فان المريد متى انطوى ضميره على شئ لا يكشفه للشيخ تصريحا أو تعريضا يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق و بالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول ومن الادب أن لا يدخل فى صحبة الشيخ الا بعد علمه بان الشيخ قيم بتاديبه وتهذيبه وانه اقوم بالتاديب من غيره ومتى كان عند المريد تطلع الى شيخ آخر لا تصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ

الا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة وفى رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم

اعلم انا جمعنا النعم فى ستة عشر ضربا وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة فى الرتبة المتاخرة فهذه النعمة الواحدة لو اردنا ان نستقصى الاسباب التى بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الاكل احد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الاسباب التى بها تتم نعمة الاكل فلا يخفى ان الاكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ولابد لها من قدرة على الحركة ولابد من ارادة للحركة ولابد من علم بالمراد وادراك له ولابد للاكل من مأكول ولابد للمأكول من اصل منه يحصل ولابد له من صانع يصلحه فلنذكر اسباب الادراك ثم اسباب الارادات ثم اسباب القدرة ثم اسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء.

﴿ الطرف الاول فى نعم الله تعالى فى خلق اسباب الادراك ﴾

اعلم ان الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التى لا تنمى ولا تغتذى فان النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء الى نفسه من جهة اصله وعروقه التى فى الارض وهى له آلات فيها يجتذب الغذاء وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كل ورقة ثم تغلظ اصولها ثم تتشعب ولا تزال تستدق وتتشعب الى عروق شعرية تنبسط فى اجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر الا ان النبات مع هذا الكمال ناقص فانه اذا اعوزه غذاء يساق اليه ويماس اصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع اخر فان الطلب انما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال اليه والنبات عاجز عن ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك ان خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة فى طلب الغذاء فانظر الى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواس الخمس التى هى آلة الادراك فاولها حاسة اللمس وانما خلقت لك حتى اذا مستك نار محرقة اوسيف جارح تحس به فتهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا يتصور حيوان الا ويكون له هذا الحس لانه ان لم يحس أصلا فليس بحيوان وانقص درجات الحس ان يحس بما يلاصقه ويماسه فان الاحساس بما يبعد منه احساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التى فى الطين فانها اذا غرز فيها ابرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقبض اذ لا يحس بالقطع الا انك لو لم يخلق لك الا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه الى نفسك فقط فافتقرت الى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم الا انك تدرك به الرائحة ولا تدرى انها جاءت من اى ناحية فتحتاج الى ان تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لو لم يخلق لك الا هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها الا انه لو لم يخلق لك الا هذا لكنت ناقصا اذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه واما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره وقد لا ينكشف الحجاب الا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الاصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لانك لا تدرى بالبصر الا شيأ حاضرا واما الغائب فلا يمكنك معرفته الا بكلام ينتظم من حروف واصوات تدرك بحس السمع فاشتدت اليه حاجتك فخلق لك ذلك وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق اذ يصل الغذاء اليك فلا تدرك انه موافق لك او مخالف فتأكله فتهلك كالشجرة يصب فى اصلها كل مائع ولا ذوق لها فيجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق فى مقدمة دماغك ادراك آخر يسمى حسا مشتركا تتادى اليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولاه لطال الامر عليك فانك اذا أكلت شيأ اصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فاذا رأيته مرة اخرى فلا تعرف انه مر مضر ما لم تذقه ثانيا لولا الحس المشترك اذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا حتى اذا ادرك الصفرة حكم بانه مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات اذ للشاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك الا هذا لكنت ناقصا فان البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص

اليه فان المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمحبة والتالف هو الواسطة بين المريد والشيخ وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال لان المحبة علامة التعارف والتعارف علامة الجنسية والجنسية جالبة للمريد حال الشيخ او بعض حاله (أخبرنا) الشيخ الثقة ابو الفتح محمد بن سليمان قال انا ابو الفضل حميد قال انا الحافظ ابو نعيم قال حدثنا سليمان ابن احمد قال حدثنا أنس بن اسلم قال حدثنا عتبة ابن رزين عن ابى امامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغى له ان لا يخذله

اذا قيدت وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قدتأ كل البهيمة ماتستلذه فى الحال و يضرها فى ثانى الحال فتمرض وتموت اذليس لها الا الاحساس بالحاضر فاما ادراك العواقب فلا فميزك الله تعالى وأ كرمك بصفة أخرى هى اشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل و به تدرك كيفية طبخ الاطعمة وتاليفها واعداد اسبابها فتنتفع بعقلك فى الا كل الذى هو سبب صحتك وهو احسن فوائد العقل واقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفه افعاله ومعرفة الحكمة فى عالمه وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس فى حقك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الاخبار الموكلين بنواحى المملكة وقد وكات كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها باخبار الالوان والاخرى باخبار الاصوات والاخرى باخبار الروائح والاخرى باخبار الطعوم والاخرى باخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الاخبار من اقطار المملكة و يسلمونها الى الحس المشترك والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحى العالم فياخذها وهى مختومة و يسلمها اذليس له الا اخذها وجمعها وحفظها فاما معرفة حقائق مافيها فلا ولكن اذا صادف القلب العاقل الذى هو الامير والملك سلم الانهاآت اليه مختومة فيفتشها الملك و يطلع منها على اسرار المملكة و يحكم فيها باحكام عجيبة لايمكن استقصاؤها فى هذا المقام و بحسب مايلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود وهى الاعضاء مرة فى الطلب ومرة فى الهرب ومرة فى اتمام التدبيرات التى تعن له فهذه سياقة نعمة الله عليك فى الادراكات ولا تظنن أنا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هى بعض الادراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات و بعضها اغشية و بعض الاغشية كانها نسج العنكبوت و بعضها كالمشيمة و بعض تلك الرطوبات كانه بياض البيض و بعضها كانه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر او صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الاطباء والكحالون كلهم فهذا فى حس واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن ان تستوفى حكم الله تعالى وانواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة مع ان جملته لاتزيد على جوزة صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر اعضائه وعجائبه فهذه مرامز الى نعم الله تعالى بخلق الادراكات

﴿الطرف الثانى فى اصناف النعم فى خلق الارادات﴾

اعلم انه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق اليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو انفع الاشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناول فيبقى البصر والادراك معطلا فى حقه فاضطررت الى ان يكون لك ميل الى مايوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضى الذى يضطرك الى التناول حتى تتناول وتغتذى فتبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تكن اذا اخذت مقدار الحاجة اسرفت واهلكت نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الا كل بها لا كالزرع فانه لايزال يجتذب الماء اذا انصب فى اسفله حتى يفسد فيحتاج الى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة و يقطع عنه الماء اخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأ كل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم وخلق دم الحيض وتاليف الجنين من المنى ودم الحيض وكيفية خلق الانثيين والعروق السالكة اليهما من الفقار الذى هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم الى قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع فى بعضها فتتشكل بشكل الاناث وكيفية ادارتها

ولا يستاثر عليه فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرا الاسلام ومن الادب ان يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الامور وكلياتها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته (قال ابراهيم ابن شيبان) كنا نصحب اباعبدالله المغربى ونحن شبان ويسافر بنا فى البرارى والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة فكان اذا جرى من احدنا خطا وتغير عليه حال الشيخ نتشفع اليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا الى ما كان ومن ادب المريد مع الشيخ ان لا يستقل بوقائعه وكشفه

فى اطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها الى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الاعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك فى مبدأ خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكنا لسنا نريد أن نتعرض الا لنعم الله تعالى فى الاكل وحده كى لا يطول الكلام فاذا شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأتيك المهلكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل مايضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولاخذ منك كل ما حصلته من الغذاء فان كل واحد يشتهى مافى يدك فتحتاج الى داعية فى دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل مايضادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك اذ الشهوة والغضب لا يدعوان الا الى مايضر وينفع فى الحال وأما فى المآل فلا تكفى فيه هذه الارادة فخلق الله تعالى لك ارادة أخرى مسخرة تحت اشارة العقل المعرف للعواقب كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت ادراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل اذ كان مجرد المعرفة بان هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك فى الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل الى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم اكراما لبنى آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد سميناهذه الارادة باعثا دينيا وفصلناه فى كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا ﴿الطرف الثالث فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة وآلات الحركة﴾ اعلم أن الحس لا يفيد الا الادراك والارادة لا معنى لها الا الميل الى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والهرب فكم من مريض مشتاق الى شىء بعيد عنه عند مدرك له ولكنه لا يمكنه ان يمشى اليه لفقد رجله أولا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفالج وخدر فيهما فلا بد من آلات للحركة وقدرة فى تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فلذلك خلق الله تعالى لك الاعضاء التى تنظر الى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للانسان والجناح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالاسلحة للانسان والقرون للحيوان وفى هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها مايكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج الى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ماخلق له أربع قوائم ومنها ما له رجلان ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الاعضاء التى بها يتم الاكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول رؤيتك الطعام من بعد وحركتك اليه لا تكفى مالم تتمكن من ان تأخذه فافتقرت الى آلة باطشة فانعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان الى الاشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات فتمتد وتنثنى اليك فلا تكون كخشبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة اقسام هى الاصابع وجعلها فى صفين بحيث يكون الابهام فى جانب ويدور على الاربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أومتراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا ان بسطتها كانت لك مجرفة وان ضممتها كانت لك مغرفة وان جمعتها كانت لك آلة للضرب وان نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض ثم خلق لها أظفارا واسند اليها رؤوس الاصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الاشياء الدقيقة التى لا تحويها الاصابع فتأخذها برؤوس اظفارك ثم هب انك اخذت الطعام باليدين فمن اين يكفيك هذا مالم يصل الى المعدة وهى فى الباطن فلا بد وان يكون من الظاهر دهليز اليها حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذا الى المعدة مع مافيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام الى المعدة ثم ان وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج الى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الاسنان وطبق الاضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج الى الكسر وتارة الى القطع ثم يحتاج الى طحن بعد ذلك فقسم الاسنان الى عريضة طواحين كالاضراس والى حادة قواطع كالرباعيات والى مايصلح للكسر كالانياب ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر الا ضرب احدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحى الاسفل متحركة حركة دورية واللحى الاعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب

دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه اوسع وبابه المفتوح الى الله اكبر فان كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له وما كان من عند الله لا يختلف وان كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ويكتسب المريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالمريد لعله فى واقعته يخامره كون ارادة فى النفس فيتشبك كون الارادة بالواقعة مناما كان ذلك او يقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم المريد باستئصال شافة الكامن فى النفس واذا ذكره الشيخ فباقى المريد من كون ارادة النفس مفقود فى حق

صنعه الله تعالى فان كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الاسفل و يدور الاعلى الى هذا الرحى الذى صنعه الله تعالى اذ يدور منه الاسفل على الاعلى فسبحانه ما اعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه واوسع امتنانه ثم هب انك وضعت الطعام فى فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام الى ماتحت الاسنان او كيف تستجره الاسنان الى نفسها او كيف يتصرف باليد فى داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف فى جوانب الفم و يرد الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام الى الرحى هذا مع مافيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق والحكم التى لسنا نطنب بذكرها ثم هب انك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع الا بان يتزلق الى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها و ينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الامر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة و ينصب اللعاب حتى تتحلب اشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام المطحون المنعجن من يوصله الى المعدة وهو فى الفم ولا تقدر على ان تدفعه باليد ولا يد فى المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوى الى المعدة فى دهليز المرىء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لان يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لا بد وان يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه اجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الابواب فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التى تحيط بالمعدة من الاعضاء الباطنة اذ من جانبها الايمن الكبد ومن الايسر الطحال ومن قدام الترائب ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة اليها من تسخين هذه الاعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام و يصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير فى تشابه اجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينهما و بين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى الى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كانه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة فى اجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها و ينتشر فى اجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر و يحصل له هيئة الدم الصافى الصالح لغذاء الاعضاء الا ان حرارة الكبد هى التى تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد فى جميع ما يطبخ احداهما شبيهة بالدردى والعكر وهو الخلط السوداوى والاخرى شبيهة بالرغوة وهى الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الاعضاء فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا الى الكبد داخلا فى تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية و يجذب الطحال العكر السوداوى فيبقى الدم صافيا ليس فيه الا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ولولا هالما انتشر فى تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا الى الاعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين واخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا الى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى ان عنقهما ليس داخلا فى تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب مايليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد اذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق فاذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل مايفسد الغذاء ثم ان الله تعالى اطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع اقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك فى البدن كله من الفرق الى القدم ظاهرا و باطنا فيجرى الدم الصافى فيها و يصل الى سائر الاعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث لا تدرك بالابصار فيصل منها الغذاء بالرشح الى سائر الاعضاء ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وان حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى حدثت الامراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها وان لم تندفع المائية نحو

الشيخ فان كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ وان كان ينزع واقعته الى شؤون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد و يتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة ايوائه الى جناب الحق وكمال معرفته ومن الادب مع الشيخ ان المريد اذا كان له كلام مع الشيخ فى شىء من امر دينه اوامر دنياه لا يستعجل بالاقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ انه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ فكما ان للدعاء أوقاتا وآدابا وشروطا لانه مخاطبة الله تعالى فللقول مع الشيخ ايضا آداب وشروط لانه من معاملة الله

السكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ثم انظر الى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة أما المرارة فانها تجذب باحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر الى الامعاء ليحصل له فى ثفل الطعام رطوبة مزلقة و يحدث فى الامعاء لذع يحركها للدفع فتنضغط حتى يندفع الثفل و ينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة احالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها فى كل يوم شيء الى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته و ينبهها و يثيرها و يخرج الباقى مع الثفل واما الكلية فانها تغتذى بما فى تلك المائية من دم وترسل الباقى الى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى فى الاسباب التى اعدت للاكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد الى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الاعضاء الرئيسة الى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب الى سائر البدن و بواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد الى سائر البدن و بواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركب الاعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها واوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج اليه للاكل ولامور أخر سواه بل فى الادمى آلاف من العضلات والعروق والاعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها الا وفيه حكمة او اثنتان او ثلاث او اربع الى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك او تحرك عرق ساكن لهلكت يامسكين فانظر الى نعمة الله تعالى عليك اولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله سبحانه الا الاكل وهو اخسها ثم لا تعرف منها الا انك تجوع فتاكل والحمار ايضا يعلم انه يجوع فياكل و يتعب فينام و يشتهى فيجامع و يستنهض فينهض و يرمح فاذا لم تعرف انت من نفسك الا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذى رمزنا اليه على الايجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط فقس على الاجمال ما اهملناه من جملة ماعرفناه حذرا من التطويل وجملة ماعرفناه وعرفه الخلق كلهم بالاضافة الى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى اقل من قطرة من بحر الا ان من علم شيا من هذا ادرك شمة من معانى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الاعضاء وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعة ومستقرة القلب و يسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى الى جزء من اجزاء البدن الا و يحدث عند وصوله فى تلك الاجزاء ما يحتاج اليه من قوة حس وادراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذى يدار فى اطراف البيت فلا يصل الى جزء الا و يحصل بسبب وصوله ضوء على اجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الاطباء الروح ومحله القلب ومثله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة والدم الاسود الذى فى باطن القلب له كالفتيلة والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة فى سائر اعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت وكما ان السراج اذا انقطع زيته انطفا فسراج الروح ايضا ينطفيء مهما انقطع غذاؤه وكما ان الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت فينطفيء السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذى تشبث به هذا البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفي مع وجود الغذاء فانه لا يقبل الغذاء الذى يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به وكما ان السراج تارة ينطفيء بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما ان انطفاء السراج بفناء الزيت او بفساد الفتيلة او بريح عاصف او باطفاء انسان لا يكون الا باسباب مقدرة فى علم الله مرتبة و يكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما ان انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك اجله الذى اجل له فى ام الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما ان السراج اذا انطفا اظلم البيت كله فالروح اذا انطفا اظلم البدن وفارقته انواره التى كان يستفيدها من الروح وهى انوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا ايضا رمز وجيز الى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى

تعالى و يسال الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الادب وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مخاطبته فقال ياأيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة يعنى امام مناجاتكم قال عبد الله بن عباس سال الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسئلة فادبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك وأمرهم ان لا يناجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الاغنياء ياتون النبي عليه السلام و يغلبون

وعجائب صنعته وحكمته ليعلم انه لو كان البحر مداد لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي عزوجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم (١) سئل عن الروح فلم يزد عن ان قال قل الروح من أمر ربي فلم يصفه لهم على هذا الوجه فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها ونحن انما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الاطباء روحا وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الاعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى في الاعضاء به حتى اذا خدر بعض الاعضاء علموا ان ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الاعصاب ومواقع السدة فيها و يعالجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب و بواسطته يتأدى من القلب الى سائر الاعضاء وما يرتقي اليه معرفة الاطباء فامره سهل نازل وأما الروح التي هي الاصل وهي التي اذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه الا بان يقال هو أمر رباني كما قال تعالى قل الروح من أمر ربي والامور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق وأما الاوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن ادراك الاصوات وتتزلزل في ذكر مبادي وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة في مضيقها فلا يدرك بالعقل شئ من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية نسبته الى العقل نسبة العقل الى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لان ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها لان ذلك طور لم يبلغه بعد وانه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الايمان واليقين وذلك المشرب اعز من أن يكون شريعة لكل وارد بل لا يطلع عليه الا واحد بعد واحد ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الامر الرباني فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال ان يصل الى الميدان فكيف بالانتهاء الى ماوراءه من المشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه وأنى يصادف هذا في خزانة الاطباء ومن أين للطبيب ان يلاحظه بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالاضافة الى هذا الامر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالاضافة الى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن انه ادرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان الملك فظن انه رأى الملك ولا يشك في ان خطاه فاحش وهذا الخطا الخش منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف و بها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الامر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ان يتحدث عنه بل أمره ان يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الامر شيا لكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته أما نسبته ففي قوله تعالى من أمر ربي وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ولنرجع الآن الى الغرض فان المقصود ذكر نعم الله تعالى في الاكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الاكل

﴿الطرف الرابع في نعم الله تعالى في الاصول التي يحصل منها الاطعمة وتصير صالحة لان يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته﴾

اعلم ان الاطعمة كثيرة ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تتناهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فان الاطعمة اما ادوية واما فواكه وأما اغذية فلناخذ الاغذية فانها الاصل ولناخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الاغذية فنقول اذا وجدت حبة أوحبات فلو أكلتها فنيت و بقيت جائعا فما احوجك الى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يغتذي به كما خلق فيك

(١) حديث انه سئل عن الروح فلم يزد على ان قال الروح من أمر ربي متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم في شرح عجائب القلب

فان

الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فامر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلانهم لم يجدوا شيأ وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله صلى الله عليه وسلم الا علي بن أبي طالب فقدم دينارا فتصدق به وقال علي في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي وروى أن

فان النبات انما يفارقك فى الحس والحركة ولا يخالفك فى الاغتذاء لانه يتغذى بالماء ويجتذب الى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء الى نفسه ولكن نشير الى غذائه فنقول كما ان الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج الى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذى بكل شىء بل تحتاج الى شىء مخصوص بدليل انك لو تركتها فى البيت لم تزد لانه ليس يحيط بها الا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها فى الماء لم تزد ولو تركتها فى ارض لا ماء فيها لم تزد بل لا بد من ارض فيها ماء يمتزج ماؤها بالارض فيصير طينا واليه الاشارة بقوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ثم لا يكفى الماء والتراب اذ لو تركت الارض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج الى تركها فى ارض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء اليها ثم الهواء يتحرك اليها بنفسه فيحتاج الى ريح تحرك الهواء وتضرب به بقهر وعنف على الارض حتى ينفذ فيها واليه الاشارة بقوله تعالى وارسلنا الرياح لواقح وانما القاحها فى ايقاع الازدواج بين الهواء والماء والارض ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان فى برد مفرط وشتاء شات فتحتاج الى حرارة الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائه الى هذه الاربعة فانظر الى ماذا يحتاج كل واحد اذ يحتاج الماء لينساق الى ارض الزراعة من البحار والعيون والانهار والسواقى فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون واجرى منها الانهار ثم الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع اليها فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه الى أقطار الارض وهى سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الاراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشى ونعم الله فى الجبال والسحاب والبحار والامطار لا يمكن احصاؤها واما الحرارة فانها لا تحصل بين الماء والارض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض فى وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الى البرد والحر عند الحاجة الى الحر فهذه احدى حكم الشمس والحكم فيها اكثر من ان تحصى ثم النبات اذا ارتفع عن الارض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الاشجار فى ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها فكانت فاسدة ناقصة حتى ان الشجرة الصغيرة تفسد اذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بان تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التى يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة ايضا ولا نطول فيما لا مطمع فى استقصائه بل نقول كل كوكب فى السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفى قوة البشر باحصائها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا وقوله عز وجل وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وكما انه ليس فى اعضاء بدنك عضو الا لفائدة فليس فى اعضاء بدن العالم عضو الا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد اجسامه كالاعضاء له وهى متعاونة تعاون اعضاء بدنك فى جملة بدنك وشرح ذلك يطول وينبغى ان تظن ان الايمان بان النجوم والشمس والقمر مسخرات بامر الله سبحانه فى أمور جعلت اسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من (١) النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم بل النهى عنه فى النجوم أمران

(١) حديث النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم ابوداود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد وللطبرانى من حديث ابن مسعود وثوبان اذا ذكر النجوم فامسكوا واسنادهما ضعيف وقد تقدم فى العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال قلت يا رسول الله امورا كنا نصنعها فى الجاهلية كنا نأتى الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ماترى فى الصدقة كم تكون دينارا قال على لا يطيقونه قال كم قال على تكون حبة او شعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك لزهيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ومانبه الحق عليه بالامر بالصدقة ومافيه من حسن الادب وتقييد اللفظ والاحترام مانسخ والفائدة باقية (اخبرنا) الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سلمان قال انا أبو الفضل احمد قال انا الحافظ ابو نعيم قال ثنا سليمان بن احمد قال ثنا مطلب بن شعيب قال ثنا عبدالله ابن صالح قال ثنا ابن لهيعة

أحدهما ان تصدق بانها فاعلة لآثارها مستقلة بها وانها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر * والثانى تصديق المنجمين فى تفصيل مايخبرون عنه من الآثار التى لا يشترك كافة الخلق فى دركها لانهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الانبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق الا ماهو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطا فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى فى الارض وفى النبات وفى الحيوان ليس قادحا فى الدين بل هو حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح فى الدين ولذلك اذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الانكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس واذا سألت عن تغير وجه الانسان فقال قرعتنى الشمس فى الطريق فاسود وجهى لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار الا ان الآثار بعضها معلوم و بعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس و بعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فاذا الكواكب ماخلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء (١) وقرأ قوله تعالى ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الاية ثم مسح بها سبلته ومعناه ان يقرأ ويترك التأمل و يقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذى مسح بها سبلته فلله تعالى فى ملكوت السموات والآفاق والانفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فان من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباله فكذلك الأمر فى عجائب صنع الله تعالى فان العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده فان تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه كما اذا رايت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فانها خرق محركة لا متحركة ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الابصار فاذا المقصود ان غذاء النبات لا يتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك الا بالافلاك التى هى مركوزة فيها ولا تتم الافلاك الا بحركاتها ولا تتم حركاتها الا بملائكة سماويه يحركونها وكذلك يتمادى ذلك الى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما اهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر اسباب غذاء النبات

﴿ الطرف الخامس فى نعم الله تعالى فى الاسباب الموصلة للاطعمة اليك ﴾ اعلم ان هذه الاطعمة كلها لا توجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد فى بعض الاماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم و بينها البحار والبرارى فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع انهم لا يغنيهم فى غالب الامر شئ بل يجمعون فاما ان تغرق بها السفن اوتنهبها قطاع الطريق او يموتوا فى بعض البلاد فياخذها السلاطين واحسن احوالهم ان ياخذها ورثتهم وهم اشد اعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح و يركبوا الاخطار و يغرروا بالارواح فى ركوب البحر فيحملون الاطعمة وانواع الحوائج من اقصى الشرق والغرب اليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل فى البرارى وانظر الى الابل كيف خلقت والى الفرس كيف امدت بسرعة الحركة والى الحمار كيف جعل صبورا على التعب والى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت

(١) حديث قرأ قوله تعالى ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال ويل لمن قرأ هذه الاية ثم مسح بها سبلته اى ترك تأملها الثعلبى من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه ابو جناب يحيى بن أبى حية ضعيف

عن ابى قبيل عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه فاحترام العلماء توفيق وهداية واهمال ذلك خذلان وعقوق

﴿ الباب الثانى والخمسون فى آداب الشيخ وما يعتمده مع الاصحاب والتلامذة ﴾ اهم الاداب ان لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع فاذا رأى أن الله تعالى يبعث اليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن

الاعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا اليك الاطعمة وسائر الحوائج وتامل مايحتاج اليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وماتحتاج اليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك الى حد الحاجة وفوق الحاجة واحصاء ذلك غير ممكن و يتمادى ذلك الى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للايجاز ﴿ الطرف السادس فى اصلاح الاطعمة ﴾ اعلم ان الذى ينبت فى الارض من النبات ومايخلق من الحيوانات لايمكن أن يقضم و يؤكل وهو كذلك بل لابد فى كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بالقاء البعض وابقاء البعض الى أمور أخر لاتحصى واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول فلنعين رغيفا واحدا ولننظر الى مايحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير و يصلح للاكل من بعد القاء البذر فى الارض فاول مايحتاج اليه الحراث ليزرع و يصلح الارض ثم الثور الذى يثير الارض والفدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسقى المـاء مدة ثم تنقية الارض من الحشيش ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتامل عدد هذه الافعال التى ذكرناها ومالم نذكره وعدد الاشخاص القائمين بها وعدد الالات التى يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر الى أعمـال الصناع فى اصلاح الات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر الى حاجة الحداد الى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والاحجار والمعادن وكيف جعل الارض قطعا متجاورات مختلفة فان فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لاكلك يامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدئ من الملك الذى يزجى السحاب لينزل المـاء الى آخر الاعمـال من جهة الملائكة حتى تنتهى النوبة الى عمل الانسان فاذا استدار طلبه قريب من سبعة الاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التى بها تتم مصلحة الخلق ثم تامل كثرة اعمال الانسان فى تلك الالات حتى ان الابرة التى هى الة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذى يمنع البرد عنك لاتستكمل صورتها من حديدة تصلح للابرة الا بعد أن تمر على يد الابرى خمسا وعشرين مرة و يتعاطى فى كل مرة منها عملا فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت الى عمل المنجل الذى تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذى خلقه من نطفة قذرة لان يعمل هذه الاعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر الى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق احدهما على الاخر فيتناولان الشىء معا و يقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا الى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم الى استخراج الحديد من الحجر والى تحصيل الآلات التى بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتى أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق فى اصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها فسبحان من ألحق ذوى الابصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان فانظر الان لو خلا بلدك عن الطحان مثلا أو عن الحداد أو عن الحجام الذى هو أخس العمال أو عن الحائك او عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الاذى وكيف تضطرب عليك امورك كلها فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول فى هذه الطبقة أيضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء ﴿ الطرف السابع فى اصلاح المصلحين ﴾ اعلم ان هؤلاء الصناع المصلحين للاطعمة وغـيرها لو تفرقت اراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لايحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الانس والمحبة عليهم ولو انفقت مافى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولـكن الله الف بينهم فلاجل الالف وتعارف الارواح اجتمعوا وائتلفوا و بنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول احصاؤه ثم هذه المحبة تزول باغراض يتزاحمون عليها و يتنافسون فيها ففى جبلة الانسان الغيظ والحسد والمنافسة وذلك مما يؤدى الى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدة والاسباب والقى رعبهم

وصدق الارادة يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحانا من الله تعالى والنفوس مجبولة على محبة اقبال الخلق والشهرة وفى الخمول السلامة فاذا بلغ الكتاب أجله وتمكن العبد من حاله وعلم بتعريف الله اياه انه مراد بالارشاد والتعليم للمريدين فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه فى دينه ودنياه وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى اليه يراجع الله تعالى فى معناه و يكثر اللجأ اليه أن يتولاه فيه وفى القول معه ولا يتكلم مع المريد بالكلمة الاوقلبه ناظر الى الله مستعين به فى الهداية للصواب

فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين الى طريق اصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كانها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الاسواق واضطروا الخلق الى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الانبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع فى حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة فى ضبطهم وكشفوا من أحكام الامامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به الى اصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم اليه من اصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الانبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض الى ان ينتهى الى الملك المقرب الذى لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الاطعمة والسلطان يصلح الصناع والانبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين والملائكة يصلحون الانبياء الى أن ينتهى الى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتاليف وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الاسباب ولولا فضله وكرمه اذ قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا لما اهتدينا الى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله ايانا عن أن نطمح بعين الطمع الى الاحاطة بكنه نعمه لتشوفنا الى طلب الاحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فان تكلمنا فباذنه انبسطنا وان سكتنا فبقهره انقبضنا اذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى لانا فى كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار واسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار

(الطرف الثامن فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام) ليس يخفى عليك ماسبق من نعمة الله فى خلق الملائكة باصلاح الانبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحى اليهم ولا تظنن أنهم مقتصرون فى أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة فى ثلاث طبقات الملائكة الارضية والسماوية وحملة العرش فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع الى الاكل والغذاء الذى ذكرناه دون مايجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يتغذى الا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله الى عشرة الى مائة الى ماوراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف وذلك الغذاء يصير دما فى آخر الامر ثم يصير لحما وعظما واذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهى لا تتحرك بانفسها ولا تتغير بانفسها ومجرد الطبع لا يكفى فى ترددها فى أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا مخبوزا الا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما وعظما وعروقا وعصبا الا بصناع والصناع فى الباطن هم الملائكة كما ان الصناع فى الظاهر هم اهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغى أن تغفل عن نعمه الباطنة فاقول لا بد من ملك يجذب الغذاء الى جوار اللحم والعظم فان الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع يرعى المقادير فى الالصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبى ما يجمع على فخذه

من القول سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردى رحمه الله يوصى بعض أصحابه ويقول لا تكلم احدا من الفقراء الا فى أصفى أوقاتك وهذه وصية نافعة لان الكلمة تقع فى سمع المريد الصادق كالحبة تقع فى الارض وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فعند الكلام مع اهل الصدق والارادة ينبغى أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما ان اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان

لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته بل ينبغي أن يسوق الى الاجفان مع رقتها والى الحدقة مع صفائها والى الافخاذ مع غلظها والى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل والا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق الى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به الا احدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كانها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة الى ملك من الملائكة ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الامور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الارضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الاجزاء كالعين والقلب الى أكثر من مائة ملك تركنا تفصيل ذلك للايجاز والملائكة الارضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه الا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والارض مالك الملك ذو الجلال والاكرام(1) والاخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والارض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب أكثر من ان تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد بها فان قلت فهلا فوضت هذه الافعال الى ملك واحد ولم افتقر الى سبعة أملاك والحنطة أيضا تحتاج الى من يطحن أولا ثم الى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ثم الى من يصب الماء عليه ثالثا ثم الى من يعجن رابعا ثم الى من يقطعه كرات مدورة خامسا ثم الى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ثم الى من يلصقها بالتنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كاعمال الانس ظاهرا فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم الا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد واليه الاشارة بقوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في ادراك الاصوات ولا الشم يزاحمهما ولا هما ينازعان الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ولذلك ترى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه اخرى لاختلاف

(1) حديث الاخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والارضين واجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب انتهى ففي الصحيحين من حديث ابي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى اتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح الحديث ولهما من حديث ابي هريرة ان لله ملائكة سياحين يبلغوني عن امتي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فناداني ملك الجبال ان شئت ان اطبق عليهم الاخشبين الحديث ولهما من حديث انس ان الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى ابو المنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الاسلمي ما من نبت ينبت الا وتحته ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبري وابو بحر البكراوي واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف وللطبراني من ابي الدرداء بسند ضعيف ان لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة الا دابة في عنقها جرس وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهود يا ابا القاسم اخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث ابي هريرة بينا رجل بفلاة من الارض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فافرغ ماءه في حرة الحديث

الحق عند العبد فيكون ناظرا الى الله مصغيا اليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للامانة فيه ثم ينبغي للشيخ أن يعتبر حال المريد ويتفرس فيه بنور الايمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض واعمال القوالب وطريق الابرار ومن المريدين من يكون مستعدا صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ولكل من الابرار والمقربين مباد ونهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص وما

دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن فى طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية فى حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون و يسبحون الليل والنهار لا يفترون والرا كع منهم را كع أبدا والساجد منهم ساجد ابدا والقائم قائم أبدا لا احتلاف فى افعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن ان تشبه بطاعة اطرافك لك فانك مهما جزمت الارادة بفتح الاجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف فى طاعتك مرة ومعصيتك اخرى بل كانه منتظر لامرك ونهيك ينفتح و ينطبق متصلا باشارتك فهذا يشبهه من وجه لكن يخالفه من وجه اذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا واطباقا والملائكة احياء عالمون بما يعملون فاذا هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الارضية والسماوية وحاجتك اليهما فى غرض الاكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها فهذه طبقة اخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن احصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات فاذا قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة و باطنة ثم قال وذروا ظاهر الاثم و باطنه فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة واضمار شر الناس الى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الاثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بان فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والارض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والارض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وان انتفع غيره أيضا فان لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن اذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة باعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الاعلى وارتفاع الجفن الاسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى فى سوادها انها تجمع ضوء العين اذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله فى ترتيبها صفا واحدا ان يكون مانعا للهوام من الدبيب الى باطن العين ومتشبثا للاقذاء التى تتناثر فى الهواء وله فى كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها وله فى اشتباك الاهداب نعمة أعظم من الكل وهو ان غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر فيجمع الاجفان مقدار ما تتشابك الاهداب فينظر من وراء شباك الشعر فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم ان أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الاجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء الى زوايا العين والاجفان والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار واذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره الى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ولعلنا نستانف له كتابا مقصودا فيه ان امهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى فلنرجع الى غرضنا فنقول من نظر الى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الاجفان ولا تقوم الاجفان الا بعين ولا العين الا برأس ولا الرأس الا بجميع البدن ولا البدن الا بالغذاء ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ولا يقوم شئ من ذلك الا بالسموات ولا السموات الا بالملائكة فان الكل كالشئ الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها ببعض فاذا قد كفر كل نعمة فى الوجود من منتهى الثريا الى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد الا و يلعنه ذلك وورد فى الاخبار (١) ان البقعة التى يجتمع فيها الناس اما ان تلعنهم اذا تفرقوا او تستغفر لهم وكذلك ورد (٢) ان العالم يستغفر له كل شئ حتى الحوت فى البحر (٣) وان الملائكة يلعنون العصاة فى ألفاظ كثيرة لا يمكن احصاؤها

(١) حديث ان البقعة التى اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم لم أجد له أصلا (٢) حديث ان العالم ليستغفر له كل شئ حتى الحوت فى البحر تقدم فى العلم (٣) حديث ان الملائكة يلعنون العصاة مسلم من حديث أبى هريرة الملائكة تلعن احدكم اذا اشار الى اخيه بحديدة وان كان اخاه لابيه وامه

يصلح له والعجب أن الصحراوى يعلم الاراضى والغروس ويعلم كل غرس وارضه وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها حتى المرأة تعلم قطنها وما يأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس على قدر عقولهم و يامر كل شخص بما يصلح له فمنهم من كان يامره بالانفاق ومنهم من امره بالامساك ومنهم من امره بالكسب ومنهم من قرره على ترك الكسب كاصحاب الصفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف اوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فاما فى رتبه

وكل ذلك اشارة الى ان العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع مافى الملك والملكوت وقد أهلك نفسه الا ان يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيتبدل اللعن بالاستغفار فعسى الله ان يتوب عليه و يتجاوز عنه وأوحى الله تعالى الى أيوب عليه السلام يا أيوب مامن عبدلى من الآدميين الا ومعه ملكان فاذا شكرنى على نعمائى قال الملكان اللهم زده نعما على نعم فانك اهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريبا فكفى بالشاكرين علو رتبة عندى انى اشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم وكما عرفت ان فى كل طرفة عين نعما كثيرة فاعلم ان فى كل نفس ينبسط و ينقبض نعمتين اذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك وبانقباضه يجمع روح الهواء الى القلب ولوسد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم والليلة اربع وعشرون ساعة وفى كل ساعة قريب من الف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من اجزاء بدنك بل فى كل جزء من اجزاء العالم فانظر هل يتصور احصاء ذلك ام لا ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها قال الهى كيف اشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان ان لينت اصلها وان طمست رأسها وكذا ورد فى الاثر من لم يعرف نعم الله الا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وجميع ماذكرناه يرجع الى المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه فى العالم على شىء ولا يلم خاطره بموجود الا و يتحقق ان لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع فى غير مطمع

﴿ بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر ﴾

اعلم انه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة الا الجهل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة الا بعد معرفتها ثم انهم ان عرفوا نعمة ظنوا ان الشكر عليها ان يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا ان معنى الشكر ان يستعمل النعمة فى اتمام الحكمة التى اريدت بها وهى طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين الا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان أما الغفلة عن النعم فلها اسباب وأحد اسبابها ان الناس بجهلهم لا يعدون مايعم الخلق و يسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ماذكرناه من النعم لانها عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع احوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعده نعمة ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما فان ابتلى واحد منهم بشىء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها وهذا غاية الجهل اذ صار شكرهم موقوفا على ان تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الاحوال والنعمة فى جميع الاحوال أولى بان تشكر فى بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره الا ان تعمى عينه فعند ذلك لو اعيد عليه بصره احس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة عم الخلق و بذل لهم فى جميع الاحوال فلم يعده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه ان يضرب دائما حتى اذا ترك ضربه ساعة تقلد به منه فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون الا المال الذى يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة و ينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكا بعضهم فقره الى بعض ارباب البصائر واظهر شدة اغتمامه به فقال له ايسرك انك اعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال ايسرك انك اخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال ايسرك انك اقطع اليدين والرجلين ولك عشرون الفا فقال لا فقال ايسرك انك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال اما تستحى ان تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين الفا وحكى ان بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فراى فى المنام كان قائلا يقول له تودانا انسيناك من القرآن سورة الانعام وان لك الف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فعدد عليه سورا ثم قال فمعك قيمة مائة الف دينار وانت تشكو فاصبح وقد سرى عنه

الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لانه مبعوث لاثبات الحجة وايضاح المحجة يدعو على الاطلاق. ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره. ومن ادب الشيخ ان يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها ان استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وانه غير محتاج الى الخلوة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصليها ويدوم عليها واوقات يخلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء و بيده كوز ماء يشر به فقال له عظني فقال لولم تعط هذه الشربة الا يبذل جميع اموالك والا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لولم تعط الا بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء فبهذا تبين ان نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش اعظم من ملك الارض كلها واذا كانت الطباع مائلة الى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر اشارة وجيزة الى النعم الخاصة فنقول مامن عبد الا ولو امعن النظر فى احواله راى من الله نعمة او نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس و بما لا يشاركه فيها احد وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة امور فى العقل والخلق والعلم اما العقل فما من عبد لله تعالى الا وهو راض عن الله فى عقله يعتقد انه اعقل الناس وقل من يسال الله العقل وان من شرف العقل ان يفرح به الخالى عنه كما يفرح به المتصف به فاذا كان اعتقاده انه اعقل الناس فواجب عليه ان يشكره لانه ان كان كذلك فالشكر واجب عليه وان لم يكن ولكنه يعتقد انه كذلك فهو نعمة فى حقه فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به و يشكر عليه فان اخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده و يبقى شكره لانه فى حقه كالباقى واما الخلق فما من عبد الا و يرى من غيره عيوبا يكرهها واخلاقا يذمها وانما يذمها من حيث لا يرى نفسه بريا عنها فاذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي ان يشتغل بشكر الله تعالى اذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء واما العلم فما من احد الا و يعرف من بواطن امور نفسه وخفايا افكاره ماهو منفرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه احد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذن لكل عبد علم بامر خاص لا يشاركه فيه احد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذى ارسله على وجه مساويه فاظهر الجميل وستر القبيح واخفى ذلك عن اعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه احد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبده اما مطلقا واما فى بعض الامور فلتنزل عن هذه الطبقة الى طبقة اخرى اعم منها قليلا فنقول مامن عبد الا وقد رزقه الله تعالى فى صورته اوشخصه او اخلاقه اوصفاته اواهله او ولده اومسكنه أو بلده او رفيقه او اقار به اوعزه اوجاهه اوفى سائر محابه امورا لوسلب ذلك منه واعطى ماخصص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل ان جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وانسانا لا بهيمة وذكرا لا انثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا فان كل هذه خصائص وان كان فيها عموم ايضا فان هذه الاحوال لو بدلت باضدادها لم يرض بها بل له امور لا يبدلها باحوال الآدميين ايضا وذلك اما ان يكون بحيث لا يبدله بما خص به احد من الخلق اولا يبدله بما خص به الا كثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله احسن من حال غيره واذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه اما على الجملة وأما فى امر خاص فاذا لله تعالى عليه نعم ليست له على احد من عباده سواه وان كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر الى عدد المغبوطين عنده فانه لا محالة يراهم اقل بالاضافة الى غيرهم فيكون من دونه فى الحال اكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر الى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر الى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى دنياه بدينه اليس اذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر اليها بان فى الفساق كثرة فينظر ابدا فى الدين الى من دونه لا الى من فوقه فلم لا يكون نظره فى الدنيا كذلك فاذا كان حال اكثر الخلق فى الدين خيرا منه وحاله فى الدنيا خير من حال اكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (١) من نظر فى الدنيا الى من هو دونه ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر فى الدنيا الى من هو فوقه وفى الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لاسيما من خص بالسنة والايمان والعلم او القرآن ثم الفراغ والصحة والامن وغير ذلك ولذلك قيل

---

(١) حديث من نظر فى الدنيا الى من هو دونه ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا الحديث الترمذى من حديث عبدالله بن عمرو وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف

السياسة قل ذلك اوكثر لطف ذلك اوكثف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك راس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترسل فى الممازجة والمخالطة وجعل نفسه مناخا للبطالين بلقمة تؤكل عنده و برفق يوجد منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا بغيته سلوك طريق المتقين فافتتن وافتتن وبقى فى خطة القصور ووقع فى دائرة الفتور فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدى الله بقلبه ان لم يكن بقالبه وقلبه فيكون له فى كل كلمة الى الله رجوع وفى كل حركة بين يدى الله خضوع وانما دخلت الفتنة

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به * فى دينه ثم فى دنياه اقبالا

فلينظرن الى من فوقه ورعا * ولينظرن الى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم (١) من لم يستغن بآيات الله فلا اغناه الله وهذا اشارة الى نعمة العلم وقال عليه السلام (٢) ان القرآن هو الغنى الذى لا غنى بعده ولا فقر معه وقال عليه السلام (٣) من آتاه الله القرآن فظن ان أحدا اغنى منه فقد استهزأ بآيات الله وقال صلى الله عليه وسلم (٤) ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال عليه السلام (٥) كفى باليقين غنى وقال بعض السلف يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة ان عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتى عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما فى يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال

اذا ما القوت يأتيك * كذا الصحة والامن واصبحت اخا حزن * فلا فارقك الحزن

بل ارشق العبارات وافصح الكلمات كلام افصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال (٦) من اصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومهما تاملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتالمون من امور وراء هذه الثلاث مع انها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى الايمان الذى به وصولهم الى النعيم المقيم والملك العظيم بل البصير ينبغى ان لا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الارض من المشرق الى المغرب من اموال واتباع وانصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم ياخذه وذلك لرجائه ان نعمة العلم تفضى به الى قرب الله تعالى فى الآخرة بل لو قيل له لك فى الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللذات فى الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به لكان لا ياخذه لعلمه بان لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وانها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفى مرجوها بمخوفها ولا لذتها بالمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت الى الآن وهكذا تكون ما بقى الزمان اذ ما خلقت لذات الدنيا الا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع حتى اذا انخدعت وتقيدت بها ابت عليها واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغنى حتى اذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها فى تعب قائم وعناء دائم وكل ذلك باغتراره بلذة النظر اليها فى لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقعت أرباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغى ان نقول ان المعرض عن الدنيا متالم بالصبر عنها فان المقبل عليها ايضا متالم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتالم المعرض يفضى الى لذة فى الآخرة وتالم المقبل يفضى الى الالم فى الآخرة فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون فاذا انما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر فاقول اما القلوب البصيرة فعلاجها التامل فيما رمزنا اليه من اصناف

(١) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا اغناه الله لم اجده بهذا اللفظ (٢) حديث ان القرآن هو الغناء الذى لا غناء بعده ولا فقر معه ابو يعلى والطبرانى من حديث انس بسند ضعيف بلفظ ان القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطنى رواه ابو معاوية عن الاعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسلا وهو اشبه بالصواب (٣) حديث من آتاه الله القرآن فظن ان احدا اغنى منه فقد استهزأ بآيات الله البخارى فى التاريخ من حديث رجاء الغنوى بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه وظن ان احدا اوتى افضل مما اوتى فقد صغر اعظم النعم وقد تقدم فى فضل القرآن ورجاء مختلف فى صحبته وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٤) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن تقدم فى آداب التلاوة (٥) حديث كفى باليقين غنى الطبرانى من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن ابى الدنيا فى القناعة موقوفا عليه وقد تقدم (٦) حديث من اصبح آمنا فى سربه الحديث تقدم غير مرة

على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس واغترارهم بيسير من الموهبة وقلة تادبهم بالشيوخ كان الجنيد رحمه الله يقول لاصحابه لو علمت ان صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم فاذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو واذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الاصحاب فتكون جلوته فى حماية خلوته وجلوته مزيدا لخلوته وفى هذا سر وذلك ان الآدمى ذو تركيب مختلف فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه مترددا بين السفلى والعلوى ولما فيه من التغاير له حظ من الفتور عن الصبر

نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة الا اذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر ابدا الى من دونه و يفعل ما كان يفعله بعض الصوفية اذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الامراض و يشكر الله تعالى. ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع اطرافهم و يعذبون بانواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات و يشكر الله تعالى على نعمة الامن و يحضر المقابر فيعلم ان احب الاشياء الى الموتى ان يردوا الى الدنيا ولو يوما واحدا اما من عصى الله فليتدارك وأما من اطاع فليزد في طاعته فان يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون اذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت اقدر على أكثر من هذه الطاعات فما اعظم غبني اذ ضيعت بعض الاوقات في المباحات وأما العاصي فغبنه ظاهر فاذا شاهد المقابر وعلم ان احب الاشياء اليهم ان يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر الى ما يشتهي أهل القبور العود لاجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل في الامهال في كل نفس من الانفاس واذا عرف تلك النعمة شكر بان يصرف العمر الى ما خلق العمر لاجله وهو التزود من الدنيا للآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر وقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلا في عنقه و ينام في لحده ثم يقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا ثم يقول و يقول يا ربيع قد أعطيت ما سالت فاعمل قبل ان تسال الرجوع فلا ترد ومما ينبغي ان تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف ان النعمة اذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل ابن عياض رحمه الله يقول عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وفي الخبر(1) ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم فهذا تمام هذا الركن

(الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر و يرتبط أحدهما بالآخر)

(بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد)

لعلك تقول ماذكرته في النعم اشارة الى ان الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير الى ان البلاء لا وجود له أصلا فما معنى الصبر اذا وان كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون انا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي الما والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان وما معنى ماذكرتموه من ان الله تعالى في كل ما اوجده نعمة على عباده فاعلم ان البلاء موجود كما ان النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لانهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق ان النعمة تنقسم الى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يعين عليهما والى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه و يفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم الى مطلق ومقيد اما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى اما مدة واما ابدا وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي الى البلاء المطلق واما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر انواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة اما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لان

(1) حديث ما عظمت نعمة الله على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه الحديث ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ ابن جبل بلفظ الا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث و رواه بن حبان في الضعفاء من حديث بن عباس وقال انه موضوع على حجاج الاعور

على صرف الحق ولهذا كان لكل عاقل فترة والفترة قد تكون تارة في صورة العمل وتارة في عدم الروح في العمل وان لم تكن في صورة العمل ففي وقت الفترة للمريدين والسالكين تضييع واسترواح للنفس وركون الى البطالة فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته الى الخلق فافلح الخلق بقسم فترته وما ضاع قسم فترته كضياعه في حق المريدين فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب الى الاقبال على الله والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته و يعود الى اوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة

الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف انه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية بل كل بلاء يقدر الانسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الانسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بازالة الالم وانما الصبر على ألم ليس الى العبد ازالته فاذاً يرجع الصبر في الدنيا الى ما ليس ببلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور ان يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغنى مثلا يجوز ان يكون سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية الا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالاضافة اليه فكذلك ما من بلاء الا ويجوز ان يصير نعمة ولكن بالاضافة الى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض وقال تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وقال صلى الله عليه وسلم (١) ان الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه وكذلك الزوجة والوالد والقريب وكل ما ذكرناه في الاقسام الستة عشر من النعم سوى الايمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون اضدادها اذا نعما في حقهم اذ قد سبق ان المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الامور بلاء ويكون فقدها نعمة مثاله جهل الانسان بأجله فانه نعمة عليه اذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه اذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه اذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر الى ايذائه واهانته ولو عرف ذلك وآذى كان اثمه لا محالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف ومنها ابهام الله تعالى أمر القيامة وابهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وابهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لان هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا ان الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن الا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها فان لم تكن نعمة في حقه كالالم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم لان مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة انما يتضاعف اذا تفكروا في آلام اهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم اليها من حيث انها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر الى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الارض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ما ذكرناه من ان الله تعالى لم يخلق شيئا الا وفيه حكمة ولا خلق شيئا الا وفيه نعمة اما على جميع عباده أو على بعضهم فاذا في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا اما على المبتلى أو على غير المبتلى فاذا كل حالة لا توصف بانها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان اذ لا صبر الا على غم ولا شكر الا على فرح فاعلم ان الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها * أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها اذ مقدورات الله تعالى

(١) حديث ان الله ليحمي عبده الدنيا الحديث الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم

أكثر من عود الفقير بجدة ارادته من فترته فيعود من الخلق الى الخلوة منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور وروح متخلصة عن مضيق مطالبة الاغيار قادمة بجدة شغفها الى دار القرار * ومن وظيفة الشيخ حسن خلقه مع أهل الارادة والطلب والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ واستعماله التواضع (حكى) الرقي قال كنت بمصر وكنا في المسجد جماعة من الفقراء جلوسا فدخل الزقاق فقام عند اسطوانة يركع فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه فلما فرغ جاء الينا وسلم علينا فقلنا نحن كنا أولى

لاتتناهى فلوضعفها الله تعالى وزادهاماذا كان يرده ويحجزه فليشكر اذلم تكن اعظم منها فى الدنيا * الثانى انه كان يمكن ان تكون مصيبته فى دينه قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتى واخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فافسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه اذ قال اللهم لاتجعل مصيبتى فى دينى وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ماابتليت ببلاء الا كان لله تعالى على فيه اربع نعم اذلم يكن فى دينى واذلم يكن اعظم منه واذلم احرم الرضابه واذ أرجو الثواب عليه وكان لبعض ارباب القلوب صديق فحبسه السلطان فارسل اليه يعلمه و يشكو اليه فقال له اشكر الله فضربه فارسل اليه يعلمه و يشكو اليه فقال اشكر الله فجيء بمجوسى فحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى فارسل اليه فقال اشكر الله فكان المجوسى يحتاج الى ان يقوم مرات وهو يحتاج ان يقوم معه و يقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب اليه بذلك فقال اشكر الله فقال الى متى هذا وأى بلاء اعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذا مامن انسان قد اصيب ببلاء الا ولو تامل حق التامل فى سوء ادبه ظاهرا و باطنا فى حق مولاه لكان يرى انه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك ان يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك ان يقطع يديك فترك احدهما فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فقيل له ماهذه السجدة فقال كنت انتظر ان نصب على النار فالاقتصار على الرماد نعمة وقيل لبعضهم الا تخرج الى الاستسقاء فقد احتبست الامطار فقال أنتم تستبطؤن المطر وانا أستبطىء الحجر فان قلت كيف افرح وارى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار فاعلم ان الكافر قد خبئ له ماهو اكثر وانما امهل حتى يستكثر من الاثم و يطول عليه العقاب كما قال تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما واما العاصى فمن اين تعلم ان فى العالم من هو أعصى منه ورب خاطر بسوء ادب فى حق الله تعالى وفى صفاته اعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ولذلك قال تعالى فى مثله وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم فمن اين تعلم ان غيرك اعصى منك ثم لعله قد اخرت عقوبته الى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر وهو انه مامن عقوبة الا وكان يتصور ان تؤخر الى الاخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها باسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلى اذ اسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الاخرة عن المعذبين ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان العبد اذا اذنب ذنبا فاصابته شدة اوبلاء فى الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه ثانيا * الرابع ان هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى ام الكتاب وكان لا بد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها او من جميعها فهذه نعمة * الخامس ان ثوابها اكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة من وجهين احدهما الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض و يكون المنع من اسباب اللعب نعمة فى حق الصبي فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والادب فكان يخسر جميع عمره فكذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء حتى العين التى هى أعز الاشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان فى بعض الاحوال بل العقل الذى هو أعز الامور قد يكون سببا لهلاكه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين اوصبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله

(١) حديث ان العبد اذا أذنب ذنبا فاصابه شدة و بلاء فى الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه ثانيا الترمذى وابن ماجه من حديث على من اصاب فى الدين ذنبا عوقب به فالله اعدل من ان يثنى عقوبته على عبده الحديث لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من اصاب حدا فعجل عقوبته فى الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيأ فعوقب به فهو كفارة له الحديث

بهذا من الشيخ فقال ماعذب الله قلبي بهذا قط يعنى ماتقيدت بان أحترم وأقصد * ومن آداب الشيوخ النزول الى حال المريدين من الرفق بهم و بسطهم (قال بعضهم) اذا رأيت الفقير الفه بالرفق ولا تلقه بالعلم فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه فاذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك الى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم * ومن آداب الشيوخ التعطف على الاصحاب وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض ولا يترك حقوقهم اعتمادا على اراتهم وصدقهم قال بعضهم لا تضيع حق أخيك بما بينك و بينه

تعالى فما من شيء من هذه الاسباب يوجد من العبد الا و يتصور ان يكون له فيه خيرة دينية فعليه ان يحسن الظن بالله تعالى و يقدر فيه الخيرة و يشكره عليه فان حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا اذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ استاذه واباه على ضربه وتأديبه اذ يدرك ثمرة ما استفاده من التاديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده اتم واوفر من عناية الآباء بالاولاد فقد روى (١) ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تتهم الله فى شيء قضاه عليك(٢) ونظر صلى الله عليه وسلم الى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن ان قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وان قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له * الوجه الثانى ان رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب الى الدنيا واسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن اليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والكافر كل من اعرض عن الله تعالى ولم يرد الا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن اليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين الى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر و بعضه خفى و بقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب الا الواحد الحق فاذا فى البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضرورى وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة الى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا او يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا فانك تتألم وتفرح فتصبر على الالم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء فى الامور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال و ينفع فى المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم انه يخرج منها لا محالة فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك و بالا و بلاء عليه لانه يورثه الانس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه فى المقام خطر من ان يطلع عليه الملك فيعذبه فاصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها و يقطع انسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه ان يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بان ثواب المصيبة اكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة وحكى ان اعرابيا عزى ابن عباس على ابيه فقال

اصبر نكن بك صابرين فانما * صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعده * والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس ما عزانى احد أحسن من تعزيته والاخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) من يرد الله به خيرا يصب منه وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله او ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة ان انصب له ميزانا أو انشر له

(١) حديث قال له رجل اوصنى قال لا تتهم الله فى شيء قضاه عليك احمد و الطبرانى من حديث عبادة بزيادة فى اوله وفى اسناده ابن لهيعة (٢) حديث نظر الى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره الى السماء وضحكه عجبا لامر المؤمن ان امره كله خير وليس ذلك لاحد الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث سعد ابن ابى وقاص عجبت من رضاء الله للمؤمن ان اصابه خير حمد ربه وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث ابى هريرة وقد تقدم (٤) حديث من يرد الله به خيرا يصب منه البخارى من حديث ابى هريرة

من المودة (وحكى) عن الجريرى قال وافيت من الحج فابتدأت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لا يتعنى ثم اتيت منزلى فلما صليت الغداة التفت واذا بالجنيد خلفى فقلت ياسيدى انما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى الى ههنا فقال لى يا ابا محمد هذا حقك وذاك فضلك * ومن آداب الشيوخ انهم اذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا فى مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة ان يرفقوا به و يوقعوه على حد الرخصة ففى ذلك خير كثير ومادام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حر ثم اذا ثبت وخالط

ديوانا وقال عليه السلام مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها ألا فعل الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من سلبت كريمتيه فجزاؤه الخلود في داري والنظر الى وجهي وروى (١) أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال صلى الله عليه وسلم لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ان الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك وعن (٣) خباب بن الارت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا اليه فقلنا يارسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا فجلس محمرا لونه ثم قال ان من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الارض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه وعن علي كرم الله وجهه قال أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وان ضربه فمات فهو شهيد وقال عليه السلام من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على مايفنى وتذرون مايبقى ألا حبذا المكروهات الثلاث الفقر والمرض والموت وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) اذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا فاذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وان دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى لبيك عبدي وسعديك لا تسألني شيأ الا أعطيتك او دفعت عنك ماهو خير وادخرت لك عندي ماهو أفضل منه فاذا كان يوم القيامة جيء بأهل الاعمال فوفوا اعمالهم بالميزان اهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى باهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود اهل العافية في الدنيا لو انهم كانت تقرض اجسادهم بالمقاريض لما يرون مايذهب به اهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال شكا نبي من الانبياء عليهم السلام الى ربه فقال يارب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترئ عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فاوحى الله تعالى اليه ان العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فازوي عنه الدنيا واعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فاجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فابسط له في الرزق وازوي عنه البلاء فاجزيه بحسناته في الدنيا

---

(١) حديث ان رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده ان الله اذا احب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره ابن ابي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث ابي سعيد الخدري باسناد فيه لين (٢) حديث ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك ابوداود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن ابيه عن جده وليس في رواية اللؤلؤي ورواه احمد وابو يعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يروعنه الا ابو المليح الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يروعن خالد الا ابنه محمد وذكر ابونعيم ان ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فالله اعلم وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج هو غير خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وابونعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن ابي اياس بن ابي فاطمة عن ابيه عن جده ورواه البيهقي من رواية ابراهيم السلمي عن ابيه عن جده فالله اعلم (٣) حديث خباب بن الارت اتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا اليه الحديث تقدم (٤) حديث انس اذا اراد الله بعبد خيرا واراد ان يصافيه صب عليه البلاء صبا الحديث ابن ابي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن انس اخصر منه دون قوله فاذا كان يوم القيامة الى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الاصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وادخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو ايضا ضعيف

الفقراء وتدرب في لزوم الرخصة يدرج بالرفق الى اوطان العزيمة (قال ابو سعيد ابن الاعرابي) كان شاب يعرف بابراهيم الصائغ وكان لابيه نعمة فانقطع الى الصوفية وصحب اباأحمد القلانسي فربما كان يقع بيد ابي احمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة فيجب ان نرفق به ونؤثره على غيره * ومن آداب الشيوخ التنزه عن مال المريد وخدمته والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه لانه جاء لله تعالى فيجعل نفعه وارشاده خالصا لوجه الله

حتى يلقاني فاجزيه به سيآته وروى أنه (١) لما نزل قوله تعالى من يعمل سوأ يجز به قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست يصيبك الأذى ألست تحزن فهذا مما تجزون به يعني ان جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وعن (٢) عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا ان ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى اذا فرحوا بما أوتوا أي بما اعطوا من الخير اخذناهم بغتة وعن (٣) الحسن البصري رحمه الله ان رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأي امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت اليها وهو يمشي فصدمه حائط فاثر في وجهه فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا وقال علي كرم الله وجهه الا اخبركم بارجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم و يعفو عن كثير فالمصائب في الدنيا بكسب الاوزار فاذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من ان يعذبه ثانيا وان عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من ان يعذبه يوم القيامة وعن (٤) انس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما تجرع عبد قط جرعتين احب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة احب الى الله من قطرة دم اهريقت في سبيل الله او قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله وما خطا عبد خطوتين احب الى الله تعالى من خطوة الى صلاة الفريضة وخطوة الى صلة الرحم وعن أبي الدرداء قال توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فاتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم فقال احدهما بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فافسده فقال للاخر ما تقول فقال اخذت الجادة فاتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق اما علمت ان لابد للناس من الطريق قال فلم تحزن على ولدك اما علمت ان الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان الى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال يابني لان تكون في ميزاني احب الي من أن أكون في ميزانك فقال يا ابت لان يكون ما تحب احب الي من ان يكون ما احب وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه نعي اليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله واجر قد ساقه

(١) حديث لما نزل قوله تعالى من يعمل سوأ يجز به قال ابو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الاية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر الست تمرض الحديث من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر بلفظ اخر وضعفه قال وليس له اسناد صحيح وقال الدارقطني وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير قال وليس فيها شئ يثبت (٢) حديث عقبة بن عامر اذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن (٣) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت اليها وهو يمشي فصدمه حائط الحديث وفيه اذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا احمد والطبراني باسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه ايضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث انس وحسنه الترمذي (٤) حديث انس ما تجرع عبد قط جرعتين احب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث ابو بكر بن لال في مكارم الاخلاق من حديث علي بن ابي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث وروى ابن ماجة من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الارض قطرة أحب الى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث

تعالى فما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات (وقد ورد) ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه في الناس وقد قال الله تعالى تنبيها على خلوص ماله وحراسته من الشوائب انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فلا ينبغي للشيخ ان يطلب على صدقته جزاء الا أن يظهر له في شئ من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه أو صلاح يتراءى للشيخ في حق المريد بذلك فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد مأمونة الغائلة من جانب الشيخ قال الله تعالى يؤتكم أجوركم

الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وعن ابن المبارك انه مات له ابن فعزاه مجوسى يعرفه فقال له ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم مايفعله الجاهل بعد خمسة ايام فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذه وقال بعض العلماء ان الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الارض وماله ذنب وقال الفضيل ان الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير وقال حاتم الاصم ان الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق باربعة أنفس على أربعة أجناس على الاغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد بيوسف وعلى المرضى بايوب صلوات الله عليهم وروى ان زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى اسرائيل واختفى فى الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار الى رأس زكريا فان منه أنة فاوحى الله تعالى اليه يا زكريا لئن صعدت منك انة ثانية لامحونك من ديوان النبوة فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين وقال أبومسعود البلخى من اصيب بمصيبة فمزق ثوبا اوضرب صدرا فكانما اخذ رمحا يريد ان يقاتل به ربه عز وجل وقال لقمان رحمه الله لابنه يابنى ان الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط وقال الاحنف بن قيس اصبحت يوما اشتكى ضرسى فقلت لعمى مانمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا فقال لقد اكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ماعلم بها أحد وأوحى الله تعالى الى عزيز عليه السلام اذا نزلت بك بلية فلاتشكنى الى خلقى واشك الىّ كما لااشكوك الى ملائكتى اذا صعدت مساويك وفضائحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة

﴿ بيان فضل النعمة على البلاء ﴾

لعلك تقول هذه الاخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم فهل لنا ان نسال الله البلاء فاقول لاوجه لذلك لما روى عن رسول الله (١) صلى الله عليه وسلم انه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (٢) وكان يقول هو والانبياء عليهم السلام ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة (٣) وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وغيرها (٤) وقال على كرم الله وجهه اللهم انى اسالك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سالت الله البلاء فاساله العافية وروى (٥) الصديق رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سلوا الله العافية فما اعطى احد افضل من العافية الا اليقين واشار باليقين الى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن وقال الحسن رحمه الله الخير الذى لاشر فيه العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر وقال

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا والآخرة احمد من حديث بشر بن ابى ارطاة بلفظ اجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة واسناده جيد ولابى داود من حديث عائشة اللهم انى اعوذبك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالعنعنة (٢) حديث كان يقول هو والانبياء عليهم السلام ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البخارى ومسلم من حديث انس كان اكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا فى الدنيا الحديث ولابى داود والنسائى من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مابين الركنين ربنا آتنا الحديث (٣) حديث كان يستعيذ من شماتة الاعداء تقدم فى الدعوات (٤) حديث قال على رضى الله عنه اللهم انى اسالك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سالت الله البلاء فسله العافية الترمذى من حديث معاذ فى اثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وانما قال سمع رجلا وله وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث على كنت شاكيا فمر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اقول الحديث وفيه فان كان بلاء فصبرنى فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح (٥) حديث ابى بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة باسناد جيد وقد تقدم

ولا يسألكم اموالكم ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج اضغانكم معنى يحفكم اى يجهدكم ويلح عليكم قال قتادة علم الله تعالى ان فى خروج المال اخراج الاضغان وهذا تاديب من الله الكريم والادب ادب الله * قال جعفر الخلدى جاء رجل الى الجنيد واراد ان يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر فقال له الجنيد لاتخرج من مالك كله احبس منه مقدار مايكفيك واخرج الفضل وتقوت بما حبست واجتهد فى طلب الحلال لاتخرج كل ماعندك فلست آمن عليك ان تطالبك نفسك * وكان النبي عليه السلام اذا

مطرف بن عبدالله لان اعافى فاشكر احب الى من ان ابتلى فاصبر وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه (١) وعافيتك احب الى وهذا اظهر من ان يحتاج فيه الى دليل واستشهاد وهذا لان البلاء صار نعمة باعتبارين احدهما بالاضافة الى ماهو اكثر منه اما فى الدنيا او فى الدين والآخر بالاضافة الى مايرجى من الثواب فينبغى ان يسال الله تمام النعمة فى الدنيا ودفع مافوقه من البلاء ويساله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمته فانه قادر على ان يعطى على الشكر مالا يعطيه على الصبر فان قلت فقد قال بعضهم اود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون انا فى النار وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لى فى سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرنى

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم انه حكى عن سمنون المحب رحمه الله انه بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر فكان بعد ذلك يدور على ابواب المكاتب و يقول للصبيان ادعوا لعمكم الكذاب واما محبة الانسان لكون هو فى النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك فمن شرب كاس المحبة سكر ومن سكر توسع فى الكلام ولو زايله سكره علم ان ماغلب عليه كان حالة لا حقيقة لها فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين افرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه كما حكى ان فاختة كان يراودها زوجها فمنعته فقال ما الذى يمنعك عنى ولو اردت ان اقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهر البطن لفعلته لاجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال يانبي الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال الشاعر

اريد وصاله ويريد هجرى * فاترك ما اريد لما يريد

وهو ايضا محال ومعناه انى اريد ما لا يريد لأن من اراد الوصال ما اراد الهجر فكيف اراد الهجر الذى لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام الا بتاويلين احدهما ان يكون ذلك فى بعض الاحوال حتى يكتسب به رضاه الذى يتوصل به الى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة الى الرضا والرضا وسيلة الى وصال المحبوب والوسيلة الى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال اذا اسلم درهما فى درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال * الثانى ان يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث انه رضاه فقط ويكون له لذة فى استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين الى ان صارت لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم اكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا فهؤلاء اذا قدروا رضاه فى البلاء صار البلاء احب اليهم من العافية وهذه حالة لا يبعد وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت وان ثبتت مثلا فهل هى حالة صحيحة ام حالة اقتضتها حالة اخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق ان العافية خير من البلاء فنسال الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين

﴿ بيان الافضل من الصبر والشكر ﴾

اعلم ان الناس اختلفوا فى ذلك فقال قائلون الصبر افضل من الشكر وقال آخرون الشكر افضل وقال آخرون هما سيان وقال اخرون يختلف ذلك باختلاف الاحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة الى اظهار الحق اولى فنقول فى بيان ذلك مقامان ﴿ المقام الاول ﴾ البيان على سبيل التساهل وهو ان ينظر الى ظاهر الامر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى ان يخاطب به عوام الخلق لقصور افهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى ان يعتمده

(١) حديث وعافيتك احب الى ذكره اسحق فى السيرة فى دعائه يوم خرج الى الطائف بلفظ وعافيتك اوسع لى وكذا رواه ابن ابى الدنيا فى الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ورواه ابو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل

اراد ان يعمل عملا تثبت وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد انه اذا خرج من الشيء يكسبه من الحال مالا يتطلع به الى المال فحينئذ يجوزله ان يفسح للمريد فى الخروج من المال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر وقبل منه جميع ماله (ومن آداب الشيخ) اذا رأى من بعض المريدين مكروها أوعلم من حاله اعوجاجا اوأحس منه بدعوى أو رأى انه داخله عجب ان لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الاصحاب و يشير الى المكروه الذى يعلم و يكشف عن وجه المذمة مجملا فتحصل بذلك الفائدة للكل فهذا اقرب الى

الوعاظ اذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام اصلاحهم والظئر المشفقة لاينبغى ان تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات بل باللبن اللطيف وعليها ان تؤخر عنه أطايب الاطعمة الى ان يصير محتملا لها بقوته و يفارق الضعف الذى هوعليه فى بنيته فنقول هذا المقام فى البيان يابى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر الى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر فان الشكر وان وردت أخبار كثيرة فى فضله فاذا أضيف اليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه الفاظ صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم (١) من أفضل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر وفى الخبر (٢) يؤتى باشكر أهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين و يؤتى باصبر أهل الارض فيقال له اما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كلا انعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لاضعفن لك الاجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين وقد قال الله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب واما قوله (٣) الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر فهو دليل على ان الفضيلة فى الصبر اذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فالحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا انه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان الحاق الشكر به مبالغة فى الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم (٤) الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل وكقوله صلى الله عليه وسلم (٥) شارب الخمر كعابد الوثن وابدا المشبه به ينبغى ان يكون اعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان لايدل على ان الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر فان كل ماينقسم قسمين يسمى احدهما نصفا وان كان بينهما تفاوت كما يقال الايمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الايمان فلايدل ذلك على ان العمل يساوى العلم وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر اصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه وفى خبر آخر (٧) يدخل سليمان بعد الانبياء باربعين خريفا وفى الخبر (٨) أبواب الجنة كلها مصراعان الاباب الصبر فانه مصراع واحد واول من

(١) حديث من افضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى باشكر أهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين و يؤتى باصبر أهل الارض الحديث لم أجد له أصلا (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٤) حديث الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل الحرث بن أبى أسامة فى مسنده بالشطر الاول من حديث ابن عباس بسند ضعيف والطبرانى بالشطر الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضا ان امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة ازواجهن وفى رواية ماجزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن فياض وثقه ابو داود وضعفه ابن معين وباقى رجاله ثقات (٥) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجة من حديث ابى هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه بلفظ شارب الحرث بن أبى أسامة من حديث عبد الله بن عمرو وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى ان حديث ابى هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان ابن الاصبهانى (٦) حديث آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر اصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه الطبرانى فى الاوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الانبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة باربعين عاما وقال لم يروه الاشعيب بن خالد وهو كوفى ثقة وروى البزار من حديث انس أول من يدخل الجنة من أغنياء امتى عبد الرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف (٧) حديث يدخل سليمان بعد الانبياء باربعين خريفا تقدم حديث معاذ قبله ورواه ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية دينار عن انس بن مالك ودينار الحبشى أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٨) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان الاباب الصبر فانه باب واحد الحديث لم اجد له اصلا ولا فى الاحاديث الواردة فى مصاريع أبواب الجنة تفرقة فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والذى نفس محمد بيده ان مابين المصراعين من مصاريع

المدارة واكثر اثر التالف القلوب واذا رأى من المريد تقصيرا فى خدمة ندبه اليها محمل تقصيره ويعفو عنه ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين والى ذلك ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انا ابو الفتح الكروخى قراءة عليه قال انا ابو نصر التريافى قال انا ابو محمد الجراحى قال انا ابو العباس المحبوبى انا ابو عيسى الترمذى قال ثنا قتيبة قال ثنا رشدين بن سعد عن ابى هلال الخولانى عن ابن عباس ابن جليد الحجرى عن عبد الله بن عمر قال جاء رجل الى النبي عليه السلام فقال

يدخله

يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام وكل ماورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لان الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم

﴿ المقام الثانى ﴾ هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الامور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الابهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما فى الرجحان والنقصان مع الاجمال فنقول قد ذكرنا ان هذه المقامات تنتظم من امور ثلاثة علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر المقامات هى كذلك وهذه الثلاثة اذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين فى الظواهر ان العلوم تراد للاحوال والاحوال تراد للاعمال والاعمال هى الافضل وأما أرباب البصائر فالامر عندهم بالعكس من ذلك فان الاعمال تراد للاحوال والاحوال تراد للعلوم فالافضل العلوم ثم الاحوال ثم الاعمال لان كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه وأما آحاد هذه الثلاثة فالاعمال قد تتساوى وقد تتفاوت اذا أضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد الاحوال اذا اضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهى أرفع من علوم المعاملة بل علوم المعاملة دون المعاملة لانها تراد للمعاملة ففائدتها اصلاح العمل وانما فضل العالم بالمعاملة على العابد اذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالاضافة الى عمل خاص افضل والا فالعلم القاصر بالعمل ليس بافضل من العمل القاصر فنقول فائدة اصلاح العمل اصلاح حال القلب وفائدة اصلاح حال القلب ان ينكشف له جلال الله تعالى فى ذاته وصفاته وافعاله فارفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهى الغاية التى تطلب لذاتها فان السعادة تنال بها بل هى عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب فى الدنيا بانها عين السعادة وانما يشعر بها فى الآخرة فهى المعرفة الحرة التى لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ماعداها من المعارف عبيد وخدم بالاضافة اليها فانها انما تراد لاجلها ولما كانت مرادة لاجلها كان تفاوتها بحسب نفعها فى الافضاء الى معرفة الله تعالى فان بعض المعارف يفضى الى بعض اما بواسطة او بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى اقل فهى افضل واما الاحوال فنعنى بها احوال القلب فى تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى اذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق فاذا فضائل الاحوال بقدر تاثيرها فى اصلاح القلب وتطهيره واعداده لان تحصل له علوم المكاشفة وكما ان تصقيل المرآة يحتاج الى ان يتقدم على تمامه احوال للمرآة بعضها اقرب الى الصقالة من بعض فكذلك احوال القلب فالحالة القريبة او المقربة من صفاء القلب هى افضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الاعمال فان تاثيرها فى تأكيد صفاء القلب وجلب الاحوال اليه وكل عمل اما ان يجلب اليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة الى زخارف الدنيا واما ان يجلب اليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الاول المعصية واسم الثانى الطاعة والمعاصى من حيث التاثير فى ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات فى تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تاثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال وذلك انا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة افضل من كل عبادة نافلة وان الحج افضل من الصدقة وان القيام بالليل افضل من غيره ولكن التحقيق فيه ان الغنى الذى معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على امساكه فاخراج الدرهم له افضل من قيام ليال وصيام ايام لان الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فاراد كسرها او منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فاراد تصفية القلب بالجوع فاما هذا المدبر اذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج الجنة لكما بين مكة وهجر أوكما بين مكة وبصرى وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكرنا ان مابين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة اربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام

يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال كل يوم سبعين مرة * وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس باحياء سنته فى كل ماأمر وندب وأنكر واوجب (ومن جملة مهام الآداب) حفظ اسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ فى نفس المريد ما يجده فى خلوته من كشف أوسماع خطاب أوشىء من خوارق العادات ويعرفه أن الوقوف مع شىء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد بل يعرفه ان هذه نعمة تشكر ومن ورائها نعم

منه عن حاله الى حال غيره وهو كالمريض الذى يشكو وجع البطن اذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه ان ينظر فى المهلك الذى استولى عليه والشح المطاع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام الف ليلة منه ذرة بل لا يزيل الا اخراج المال فعليه ان يتصدق بما معه وتفصيل هذا مما ذكرناه فى ربع المهلكات فليرجع اليه فاذا باعتبار هذه الاحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير ان الجواب المطلق فيه خطأ اذ لو قيل لنا قائل الخبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق الا ان الخبز للجائع افضل والماء للعطشان افضل فان اجتمعا فلينظر الى الاغلب فان كان العطش هو الاغلب فالماء افضل وان كان الجوع اغلب فالخبز افضل فان تساويا فهما متساويان وكذا اذا قيل السكنجبين افضل ام شراب اللينوفر لم يصح الجواب عنه مطلقا اصلا نعم لو قيل لنا السكنجبين افضل ام عدم الصفراء فنقول عدم الصفراء لان السكنجبين مراد له ومايراد لغيره فذلك الغير افضل منه لا محالة فاذا فى بذل المال عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه فالافضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل فان قلت فقد حث الشرع على الاعمال وبالغ فى ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا وقال تعالى ويأخذ الصدقات فكيف لا يكون الفعل والانفاق هو الافضل فاعلم ان الطبيب اذا أثنى على الدواء لم يدل على ان الدواء مراد لعينه اوعلى انه افضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الاعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به والسبيل معه المبالغة فى الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ان كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له ان المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم ان وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا اقرب من هذا فنقول من له ولد علمه العلم والقرآن واراد ان يثبت ذلك فى حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم انه لو امره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال انه محفوظ ولا حاجة بى الى تكرار ودراسه لانه يظن ان ما يحفظه فى الحال يبقى كذلك ابدا وكان له عبيد فامر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي المسكين ان المقصود تعليم العبيد القرآن وانه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الامر فيقول مابالى قد استخدمت لاجل العبيد وانا اجل منهم واعز عند الوالد واعلم ان ابى لو اراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفى به واعلم انه لا نقصان لأبى بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء ابيه وعلى كرمه فى العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدرى وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الاباحة وقالوا ان الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن ان يستقرض منافاى معنى لقوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ولو شاء الله اطعام المساكين لاطعمهم فلا حاجة بنا الى صرف اموالنا اليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو شاء الله اطعمه وقالوا أيضا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا فانظر كيف كانوا صادقين فى كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من اذا شاء أهلك بالصدق، اذا شاء اسعد بالجهل يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا انهم استخدموا لاجل المساكين والفقراء أو لاجل الله تعالى ثم قالوا لا حظ لنا فى المساكين ولا حظ لله فينا وفى اموالنا سواء انفقنا او أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن ان مقصود الوالد استخدامه لاجل العبيد ولم يشعر بانه كان المقصود ثبات صفة العلم فى نفسه وتأكده فى قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته فى الدنيا وانما كان ذلك من الوالد تلطفا فى استجراره الى ما فيه سعادته فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذا المسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بان يكون له غرض

لا تحصى ويعرفه ان شان المريد طلب المنعم لا النعمة حتى يبقى سره محفوظا عند نفسه وعند شيخه ولا يذيع سره فاذاعة الاسرار من ضيق الصدر وضيق الصدر الموجب لاذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال وسبب اذاعة السر ان للانسان قوتين آخذة ومعطية وكلتاهما تتشوف الى الفعل المختص بها ولولا ان الله تعالى وكل المعطية باظهار ماعندها ماظهرت الاسرار فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها فى مواضعها فيجل حال الشيوخ عن اذاعة الاسرار لرزانة

فى أن يصنع شيابالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لهاعن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانهى عنها (١) كما نهى عن كسب الحجام (٢) وسماها أوساخ أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها والمقصود ان الاعمال مؤثرات فى القلب كما سبق فى ربع المهلكات والقلب بحسب تاثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلى والقانون الاصلى الذى ينبغى أن يرجع اليه فى معرفة فضائل الاعمال والاحوال والمعارف ولنرجع الآن الى خصوص مانحن فيه من الصبر والشكر فنقول فى كل واحد منها معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة فى أحدهما بالحال او العمل فى الاخر بل يقابل كل واحد منها بنظيره حتى يظهر التناسب و بعد التناسب يظهر الفضل ومهما قو بلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا الى معرفة واحدة اذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر ان يرى العمي من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا ان اعتبرنا فى البلاء والمصائب وقد بينا ان الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر لان الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لان الشكر يرجع الى صرف نعمة الله تعالى الى ماهو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع الى ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبار ين مختلفين فثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالاضافة الى باعث الهوى و يسمى شكرا بالاضافة الى باعث الدين اذ باعث الدين انما خلق لهذه الحكمة وهو ان يصرع به باعث الشهوة فقد صرفه الى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فيكيف يفضل الشيء على نفسه فاذا مجارى الصبر ثلاثة الطاعة والمعصية والبلاء وقد ظهر حكمهما فى الطاعة والمعصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة اما ان تقع ضرورية كالعينين مثلا وأما ان تقع فى محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال اما العينان فصبر الاعمى عنهما بان لا يظهر الشكوى و يظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمي فى بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بامرين أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية والآخر أن يستعملهما فى الطاعة وكل احد من الامرين لا يخلو عن الصبر فان الاعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لانه لا يراها والبصير اذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين وان أتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر فى شكره وكذا اذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد ايضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر الى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به الى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر افضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الانبياء فوق رتبة موسى عليهما السلام وغيره من الانبياء لانه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال فى ان يسلب الانسان الاطراف كلها و يترك كلحم على وضم وذلك محال جدا لان كل واحد من هذه الاعضاء آلة فى الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيما هى آلة فيه من الدين وذلك لا يكون الا بصبر وأما مايقع فى محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فانه اذا لم يؤت الا قدر الضرورة وهو محتاج الى ماوراءه ففى الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ووجود الزيادة نعمة وشكرها ان تصرف الى الخيرات او ان لا تستعمل فى المعصية فان اضيف الصبر الى الشكر الذى هو صرف الى الطاعة فالشكر افضل لانه تضمن الصبر ايضا وفيه فرح بنعمة الله تعالى وفيه احتمال الم فى صرفه الى الفقراء وترك صرفه الى التنعم المباح وكان الحاصل يرجع الى ان شيئين افضل من شيء واحد وان الجملة اعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل اذ لا تصح الموازنة بين الجملة و بين ابعاضها واما اذا كان شكره بان لا يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا افضل من الشكر

عقولهم وينبغى للمريد ان يحفظ سره من بثه ففى ذلك صحته وسلامته وتاييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين فى موردهم ومصدرهم

(الباب الثالث والخمسون فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر)

المقتضى للصحبة وجود الجنسية وقد يدعو اليها أعم الاوصاف وقد يدعو اليها أخص الاوصاف فالدعاء باعم الاوصاف كميل جنس البشر بعضهم الى بعض والدعاء باخص الاوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم الى بعض ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم الى بعض وكميل أهل

(١) حديث النهى عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها اوساخ القوم وشرف اهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة ان هذه الصدقة لا تحل لنا انما هى اوساخ القوم وانها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وفى رواية له اوساخ الناس

والفقير الصابر افضل من الغني الممسك ماله الصارف اياه الى المباحات لا من الغني الصارف ماله الى الخيرات لان الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها واحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوه والغني اتبع نهمته واطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام ايضا الا ان القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى واتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها فان الاعمال لا تراد الا لاحوال القلوب وتلك القوة حالة القلب تختلف بحسب قوة اليقين والايمان فادل على زيادة قوة في الايمان فهو افضل لا محالة وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على اجر الشكر في الايات والاخبار انما اريد به هذه الرتبة على الخصوص لان السابق الى افهام الناس من النعمة الاموال والغنى بها والسابق الى الافهام من الشكر ان يقول الانسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا ان يصرفها الى الطاعة فاذا الصبر افضل من الشكر اى الصبر الذي تفهمه العامة افضل من الشكر الذي تفهمه العامة والى هذا المعنى على الخصوص اشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر ايهما افضل فقال ليس مدح الغني بالوجود ومدح الفقير بالعدم وانما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه اشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها فاذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وازعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها والامر على ماقاله وهو صحيح من جملة اقسام الصبر والشكر في القسم الاخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواه ويقال كان ابو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغني الشاكر افضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فاصابه ما اصابه من البلاء من قتل اولاده واتلاف امواله وزوال عقله اربعة عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابتني ورجع الى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت ان لكل واحد من القولين وجها في بعض الاحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر افضل من فقير صابر وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير اذ لا يمسك لنفسه من المال الا قدر الضرورة والباقي يصرفه الى الخيرات او يمسكه على اعتقاد انه خازن للمحتاجين والمساكين وانما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف اليها ثم اذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة بل لأداء الحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا افضل من الفقير الصابر فان قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لان هذا يشتشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر فان كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الانفاق فاعلم ان الذي نراه ان من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس اكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وانما يقتطعه عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فايلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المتأدب اكمل من الكلب المحتاج الى الضرب وان كان صابرا على الضرب ولذلك يحتاج الى الايلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج اليهما في النهاية بل النهاية ان يصير ما كان مؤلما في حقه لذيذا عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا وقد كان مؤلما له اولا ولكن لما كان الناس كلهم الا الاقلين في البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان اطلق الجنيد القول بان الذي يؤلم صفته افضل وهو كما قال صحيح فيما اراده من عموم الخلق فاذا اذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لارادة الاكثر فاطلق القول بان الصبر افضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق الى الافهام فاذا اردت التحقيق ففصل فان للصبر درجات اقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا اذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن الا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا اقصاها ويدخل في جملتها امور دونها فان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر والاعتراف بان النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بان الشكر أيضا نعمة من نعم الله

المعصية بعضهم الى بعض فاذا علم هذا الاصل وان الجاذب الى الصحبة وجود الجنسية بالاعم تارة وبالاخص اخرى فليتفقد الانسان نفسه عند الميل الى صحبة شخص وينظر ما الذي يميل به الى صحبته ويزن احوال من يميل اليه بميزان الشرع فان رأى احواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له في مرآة اخيه جمال حسن الحال وان رأى افعاله غير مسددة فيرجع الى نفسه بالملائمة والاتهام فقد لاح له في مرآة اخيه سوء حاله فبالجدير ان يفر منه كفراره من الاسد فانهما اذا اصطحبا ازدادا

وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر اذ قال عليه السلام (١) من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذكرنا حقيقة ذلك فى كتاب اسرار الزكاة وقلة الاعتراض وحسن الادب بين يدى المنعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر ومايندرج من الاعمال والاحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهى درجات مختلفة فكيف يمكن اجمال القول بتفضيل احدهما على الآخر الا على سبيل ارادة الخصوص باللفظ العام كما ورد فى الاخبار والآثار وقد روى عن بعضهم انه قال رأيت فى بعض الاسفار شيخا كبيرا قد طعن فى السن فسألته عن حاله فقال انى كنت فى ابتداء عمرى اهوى ابنة عم لى وهى كذلك كانت تهوانى فاتفق انها زوجت منى فليلة زفافها قلت تعالى حتى نحيى هذه الليلة شكر الله تعالى على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ احدنا الى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فمنذ سبعين او ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة اليس كذلك يا فلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر اليهما لو صبرا على بلاء الفرقة ان لم يجمع الله بينهما وانسب صبر الفرقة الى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك ان هذا الشكر افضل فاذا لا وقوف على حقائق المفضلات لا بتفصيل كما سبق والله اعلم

﴿ كتاب الخوف والرجاء وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه المخوف مكره وعقابه الذى عمر قلوب اوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه الى النزول بفنائه والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر اعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته الى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لنقمته والتهدف لسخطه ونقمته قودا لاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وازمة الرفق واللطف الى جنته والصلاة على محمد سيد أنبياء وخير خليقته وعلى آله واصحابه وعترته (اما بعد) فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤد فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجاء ثقيل الاعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والاعضاء الا ازمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الاليم مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات الا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد اذا من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل الى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ونحن نجمع ذكرهما فى كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الاول فى الرجاء والشطر الثانى فى الخوف (اما الشطر الاول) فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذى يجتلب به الرجاء

﴿ بيان حقيقة الرجاء ﴾

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين واحوال الطالبين وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت واقام وانما يسمى حالا اذا كان عارضا سريع الزوال وكما ان الصفرة تنقسم الى ثابتة كصفرة الذهب والى سريعة الزوال كصفرة الوجل والى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الاقسام فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لانه يحول على القرب وهذا جار فى كل وصف من اوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء ايضا يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضى العمل وكان الرجاء اسما للحال من جملة الثلاثة وبيانه ان كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم الى موجود فى الحال والى موجود فيما مضى والى منتظر فى الاستقبال فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمى ذكرا وتذكرا وان كان ما خطر بقلبك موجودا فى الحال سمى وجدا وذوقا وادراكا وانما سمى وجدا لانها حالة تجدها من نفسك وان كان قد خطر ببالك وجود شئ فى الاستقبال وغلب

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم فى الزكاة

ظلمة واعوجاجا ثم اذا علم من صاحبه الذى مال اليه حسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك فى مرآة اخيه فليعلم ان الميل بالوصف الاعم مركوز فى جبلته والميل بطريقه واقع وله بحسبه أحكام وللنفس بسببه سكون وركون فيسلب الميل بالوصف الاعم جدوى الميل بالوصف الاخص ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله الا العلماء الزاهدون وقد ينفسد المريد الصادق باهل الصلاح أكثر مما ينفسد باهل الفساد ووجه ذلك ان أهل الفساد علم

ذلك على قلبك سمي انتظارا وتوقعا فان كان المنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمي خوفا واشفاقا وان كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وان يكون له سبب فان كان انتظاره لاجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق وان كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء وان لم تكن الاسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لانه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف الا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا اذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لان ذلك مقطوع به نعم يقال أرجو نزول المطر واخاف انقطاعه وقد علم ارباب القلوب ان الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها ومجرى حفر الانهار وسياقة الماء اليها والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالارض السبخة التي لا ينمو فيها البذر و يوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد احد الا ما زرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء اخلاقه كما لا ينمو بذر في ارض سبخة فينبغي ان يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب ارضا طيبة والقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم امده بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه في اوقاته ثم نقى الشوك عن الارض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر او يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى ان يتم الزرع ويبلغ غايته سمي انتظاره رجاء وان بث البذر في ارض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر اصلا ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء وان بث البذر في ارض طيبة لكن لا ماء لها واخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار ولا تمتنع ايضا سمي انتظاره تمنيا لا رجاء فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع اسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الاخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى اسباب الايمان في اتمام اسباب المغفرة الى الموت وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات او ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور قال صلى الله عليه وسلم (١) الاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى و يقولون سيغفر لنا * وذم الله تعالى صاحب البستان اذ دخل جنته وقال ما اظن ان تبيد هذه ابدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا فاذا العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة واما العاصي فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة واما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه و يلومها ويشتهي التوبة و يشتاق اليها فحقيق بان يرجو من الله التوفيق للتوبة لان كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي الى التوبة وانما الرجاء بعد تأكد الاسباب ولذلك قال تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله معناه اولئك يستحقون ان يرجوا رحمة الله وما اراد به تخصيص وجود الرجاء لان غيرهم ايضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فاما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في ارض سبخة

فساد طريقهم فاخذ حذره واهل الصلاح غره صلاحهم فالفهم بجنسية الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله فاكتسب من طريقهم الفتور في الطلب والتخلف عن بلوغ الارب فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة و ياخذ من الصحبة اصفى الاقسام ويذر منها ما يسد في وجه المرام قال بعضهم هل رايت شرا قط الا ممن تعرف ولهذا المعنى انكر طائفة من السلف الصحبة ورأوا الفضيلة في العزلة والوحدة كابراهيم ابن ادهم وداود الطائي وفضيل ابن عياض وسليمان الخواص وحكى

(١) حديث الاحمق من اتبع نفسه هواها الحديث تقدم غيره مرة

وعزم

وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية * قال يحيى بن معاذ من اعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمني على الله عز وجل مع الافراط

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجري على اليبس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت انها حالة أثمرها العلم بجريان اكثر الاسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الاسباب على حسب الامكان فان من حسن بذره وطابت ارضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الارض وتعهدها وتنقية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها اصلا الى وقت الحصاد وهذا لان الرجاء يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف ان الارض سبخة وأن الماء معوز وان البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الارض والتعب في تعهدها والرجاء محمود لانه باعث واليأس مذموم وهو ضده لانه صارف عن العمل والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سياتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما ان الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالاعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الاحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له فان هذه الاحوال لا بد وان تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك اوشخصا من الاشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما اثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل و يدل على اثماره لهذه الاعمال حديث (١) زيد الخيل اذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم جئت لاسالك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف اصبحت قال اصبحت احب الخير واهله واذا قدرت على شيء منه سارعت اليه وايقنت بثوابه واذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت اليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو ارادك للاخرى هيأك لها ثم لا يبالي في اي اوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من اريد به الخير فمن ارتجى ان يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم ان العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف لان اقرب العباد الى الله تعالى احبهم له والحب يغلب بالرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم احدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت قال تعالى لا تقنطوا من رحمة الله فحرم اصل اليأس وفي اخبار يعقوب عليه السلام ان الله تعالى اوحى اليه اتدري لم فرقت بينك و بين يوسف لانك قلت اخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم (٢) لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل (٣) انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء (٤) ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك فقال اجدني اخاف ذنوبي وارجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا اعطاه الله ما رجاوامنه مما يخاف وقال علي رضي الله عنه

---

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لاسالك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه انه قال له انت زيد الخير وكذا قال ابن ابي حاتم سماه النبي صلى الله عليه وسلم الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى فقام زيد الخير فقال يارسول الله الحديث سمعت ابي يقول ذلك (٢) حديث لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ابن حبان من حديث واثلة بن الاسقع وهو في الصحيحين من حديث ابي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك الحديث الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي اسناده جيد

عنه أنه قيل له جاء ابراهيم بن أدهم أما تلقاه قال لان ألقى سبعا ضاريا احب الي من أن ألقى ابراهيم بن أدهم قال لاني اذا رأيته أحسن له كلامي وأظهر نفسي باظهار أحسن أحوالها في ذلك الفتنة وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها وهذا واقع بين المتصاحبين الا من عصمه الله تعالى أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد ابن عبد الباقي اجازة قال انا الحافظ ابو بكر محمد بن أحمد قال انا أبو القاسم اسمعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد ابن عبد الله بن أحمد قال انا ابو سليمان أحمد بن محمد الخطابي قال انا محمد بن بكر بن

لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه ياهذا يأسك من رحمة الله اعظم من ذنوبك وقال سفيان من أذنب ذنبا فعلم ان الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه وقال لان الله عزوجل عير قوما فقال وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم ارادكم وقال تعالى وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا قال صلى الله عليه وسلم (١) ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة مامنعك اذا رأيت المنكر ان تنكره فان لقنه الله حجته قال رب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرته لك وفى الخبر الصحيح (٢) ان رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى و يتجاوز عن المعسر فلقى الله ولم يعمل خيرا قط فقال الله عزوجل من احق بذلك منا فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه ان يعفو عنه مع افلاسه عن الطاعات وقال تعالى ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ولما قال صلى الله عليه وسلم (٣) لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون الى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال ان ربك يقول لك لم تقنط عبادى فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم وفى الخبر (٤) ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام احبنى واحب من يحبنى وحببنى الى خلقى فقال يارب كيف احببك الى خلقك قال اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى واحسانى وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون منى الا الجميل ورؤى ابان بن ابى عياش فى النوم وكان يكثر ذكر ابواب الرجاء فقال اوقفنى الله تعالى بين يديه فقال ما الذى حملك على ذلك فقلت اردت ان احببك الى خلقك فقال قد غفرت لك ورؤى يحيى بن اكثم بعد موته فى النوم فقيل له ما فعل الله بك فقال اوقفنى الله بين يديه وقال ياشيخ السوء فعلت وفعلت قال فاخذنى من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ماهكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عنى فقلت حدثنى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن انس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام انك قلت انا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء وكنت اظن بك ان لا تعذبنى فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبيى وصدق انس وصدق الزهرى وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فالبست ومشى بين يدى الولدان الى الجنة فقلت يالها من فرحة * وفى الخبر (٥) ان رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس و يشدد عليهم قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم او يسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها وقال صلى الله عليه وسلم (٦) ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها الف سنة ينادى ياحنان يامنان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فائتنى بعبدى قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك فيقول شر مكان قال فيقول ردوه الى مكانه قال فيمشى و يلتفت الى ورائه فيقول الله عزوجل الى اى شئ تلتفت فيقول لقد رجوت ان لا تعيدنى اليها بعد اذ أخرجتنى منها فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة فدل هذا على ان رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

(١) حديث ان الله يقول للعبد يوم القيامة مامنعك اذ رأيت المنكر ان تنكره الحديث ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد جيد وقد تقدم فى الامر بالمعروف (٢) حديث ان رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى و يتجاوز عن المعسر الحديث مسلم من حديث ابى مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شئ الا انه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يامر غلمانه ان يتجاوزوا عن المعسر قال الله عزوجل نحن احق بذلك تجاوزوا عنه واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبى هريرة بنحوه (٣) حديث لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا الحديث وفيه فهبط جبريل الحديث ابن حبان فى صحيحه من حديث ابى هريرة فاوله متفق عليه من حديث انس ورواه بزيادة ولخرجتم الى الصعدات احمد والحاكم وقد تقدم (٤) حديث ان الله تعالى اوحى الى عبده داود عليه السلام احبنى واحب من يحبنى الحديث لم اجد له اصلا وكانه من الاسرائليات كالذى قبله (٥) حديث ان رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس و يشدد عليهم الحديث رواه البيهقى فى الشعب عن زيد ابن اسلم فذكره مقطوعا (٦) حديث ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها الف سنة ينادى ياحنان يامنان الحديث ابن ابى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث انس

عبد الرزاق قال ثنا سليمان بن الاشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن ابن ابى صعصعة عن ابيه عن ابى سعيد الخدرى قال قال صلى الله عليه وسلم يوشك ان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن قال الله تعالى اخبارا عن خليله ابراهيم وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربى استظهر بالعزلة على قومه (قيل) العزلة نوعان فريضة وفضيلة فالفريضة العزلة عن الشر واهله والفضيلة عزلة الفضول واهله ويجوز ان يقال الخلوة غير العزلة فالخلوة

﴿ بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء و يغلب ﴾

اعلم انهذا الدواء يحتاج اليه احدرجلين امارجل غلب عليه الياس فترك العبادة وامارجل غلب عليه الخوف فاسرف فى المواظبة على العبادة حتى اضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال الى طرفى الافراط والتفريط فيحتاجان الى علاج يردهما الى الاعتدال فاما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فادوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة فى حقه وتنزل منزلة العسل الذى هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل المغرور لا يستعمل فى حقه الا ادوية الخوف والاسباب المهيجة له فلهذا يجب ان يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا الى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل والقصد فى الصفات والاخلاق كلها وخير الامور أوساطها فاذا جاوز الوسط الى أحد الطرفين عولج بما يرده الى الوسط لا بما يزيد فى ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغى ان يستعمل فيه مع الخلق اسباب الرجاء بل المبالغة فى التخويف ايضا تكاد ان لا تردهم الى جادة الحق وسنن الصواب فاما ذكر اسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ولكنها لما كانت اخف على القلوب والذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاظ الا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا الى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون فى طغيانهم تماديا قال على كرم الله وجهه انما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله ونحن نذكر اسباب الرجاء لتستعمل فى حق الآيس اوفيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لانهما جامعان لاسباب الشفاء فى حق اصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الانبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الاخرق الذى يظن ان كل شئ من الادوية صالح لكل مريض كيفما كان * وحال الرجاء يغلب بشيئين احدهما الاعتبار والاخر استقراء الايات والاخبار والاثار * اما الاعتبار فهوان يتامل جميع ماذ كرناه فى اصناف النعم من كتاب الشكر حتى اذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا وعجائب حكمه التى راعاها فى فطرة الانسان حتى اعدله فى الدنيا كل ماهو ضرورى له فى دوام الوجود كآلات الغذاء وماهو محتاج اليه كالاصابع والاظفار وماهو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف الوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود وانما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الالهية اذا لم تقصر عن عباده فى امثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده ان تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم الى الهلاك المؤبد بل اذا نظر الانسان نظرا شافيا علم ان اكثر الخلق هيئ له اسباب السعادة فى الدنيا حتى انه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وان اخبر بانه لا يعذب بعد الموت ابدا مثلا أولا يحشر اصلا فليست كراهتهم للعدم الا لان اسباب النعم اغلب لا محالة وانما الذى يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه الا فى حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فاذا كان حال اكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلا فالغالب ان امر الآخرة هكذا يكون لان مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا اذا تؤمل حق التامل قوى به اسباب الرجاء ومن الاعتبار ايضا النظر فى حكمة الشريعة وسننها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من اقوى اسباب الرجاء فقيل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل من رزقه فانظر كيف انزل الله تعالى فيه اطول اية ليهدى عبده الى طريق الاحتياط فى حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه

﴿ الفن الثانى استقراء الآيات والاخبار ﴾ فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر اما الآيات فقد قال تعالى قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ولا يبالى انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى والملائكة يسبحون بحمد ربهم

(١) حديث قرأ قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى

من الاغيار والعزلة من النفس وتدعو اليه وما يشغل عن الله فالخلوة كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود قال ابو بكر الوراق ماظهرت الفتنة الا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام الى يومنا هذا وما سلم الا من جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة فى الصمت وواحد فى العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليلزم الاصل ولا يخالط الا بقدر الحاجة واذا خالط لا يخالط الا بحجة واذا خالط يلازم الصمت فانه أصل والكلام عارض ولا يتكلم الا بحجة فخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه الى مزيد علم والاخبار والآثار

و يستغفرون لمن فى الارض وأخبر تعالى ان النار أعدها لاعدائه وانما خوف بها أولياءه فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده وقال تعالى واتقوا النار التى أعدت للكافرين وقال تعالى فانذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى وقال عز وجل وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم و يقال (١) أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفى تفسير قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد وواحد من أمته فى النار وكان أبو جعفر محمد بن على يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى * وأما الاخبار فقد روى (٢) أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أمتى أمة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة عجل الله عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من أمتى رجل من أهل الكتاب فقيل هذا فداؤك من النار وفى لفظ آخر (٣) يأتى كل رجل من هذه الامة بيهودى أو نصرانى الى جهنم فيقول هذا فدائى من النار فيلقى فيها وقال صلى الله عليه وسلم (٤) الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار وروى فى تفسير قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه (٥) ان الله تعالى أوحى الى نبيه عليه الصلاة والسلام انى أجعل حساب أمتك اليك قال لا يارب أنت أرحم بهم منى فقال اذا لا نخزيك فيهم وروى عن (٦) انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب امته فقال يارب اجعل حسابهم الى لئلا يطلع على مساويهم غيرى فاوحى الله تعالى اليه هم امتك وهم عبادى وانا ارحم بهم منك لا اجعل حسابهم الى غيرى لئلا تنظر الى مساويهم أنت ولا غيرك وقال صلى الله عليه وسلم (٧) حياتى خير لكم وموتى خير لكم اما حياتى فاسن لكم السنن واشرع لكم الشرائع واما موتى فان اعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رايت منها سيأ استغفرت الله تعالى لكم (٨) وقال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال

الترمذى من حديث اسماء بنت يزيد وقال حسن غريب (١) حديث ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسال فى امته حتى قيل له اما ترضى وقد انزل عليك وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم لم اجده بهذا اللفظ وروى ابن ابى حاتم والثعلبي فى تفسيرهما من رواية على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا احدا العيش الحديث (٢) حديث ابى موسى امتى امة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن الحديث ابو داود دون قوله فاذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث انس بسند ضعيف وفى صحيحه من حديث ابى موسى كما سيأتى ذكره فى الحديث الذى يليه (٣) حديث يأتى كل رجل من هذه الامة بيهودى او نصرانى الى جهنم الحديث مسلم من حديث ابى موسى اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا او نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفى رواية له لا يموت رجل مسلم الا ادخل الله مكانه فى النار يهوديا او نصرانيا (٤) حديث الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار احمد من رواية ابى صالح الاشعري عن ابى امامة وابو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث ان الله اوحى الى نبيه صلى الله عليه وسلم انى اجعل حساب امتك اليك فقال لا يارب انت خير لهم منى الحديث فى تفسير قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبي ابن ابى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث انس انه صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب امته فقال يارب اجعل حسابهم الى الحديث لم اقف له على اصل (٧) حديث حياتى خير لكم وموتى خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح الا ان عبد المجيد بن عبد العزيز بن ابى داود وان اخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائى فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن ابى اسامة فى مسنده من حديث انس بنحوه باسناد ضعيف (٨) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل تدرى ما تفسير

فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة والكتب بها مشحونة واجمع الاخبار فى ذلك ما اخبرنا الشيخ الثقة ابو الفتح باسنده السابق الى ابى سلمان قال حدثنا احمد بن سلمان النجاد قال ثنا محمد بن يونس الكريمي قال ثنا محمد بن منصور الجشمي قال ثنا مسلم بن سالم قال ثنا السرى ابن يحيى عن الحسن عن ابى الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه الا من فر بدينه من قرية الى قرية ومن شاهق الى شاهق ومن جحر الى جحر كالثعلب الذى يروغ قالوا

جبريل عليه السلام أتدرى ماتفسير يا كريم العفو هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه (١) وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول اللهم انى اسالك تمام النعمة فقال هل تدرى ماتمام النعمة قال لا قال دخول الجنة قال العلماء قد اتم الله علينا نعمته برضاه الاسلام لنا اذ قال تعالى وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا وفى الخبر (٢) اذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عزوجل لملائكته انظروا الى عبدى أذنب ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنوب و ياخذ بالذنب أشهدكم انى قد غفرت له وفى الخبر (٣) لوأذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له مااستغفرنى ورجانى وفى الخبر (٤) لولقينى عبدى بقراب الارض ذنوبا لقيته بقراب الارض مغفرة وفى الحديث (٥) ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها سيئة وفى لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو امير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فتلقى عنه السيئة وروى (٦) أنس فى حديث انه عليه الصلاة والسلام قال اذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال اعرابى وان تاب عنه قال محى عنه قال فان عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الاعرابى فان تاب قال محى من صحيفته قال الى متى قال الى ان يستغفر و يتوب الى الله عز وجل ان الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فاذا هم العبد بحسنه كتبها

يا كريم العفو الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم والموجود ان هذا كان بين ابراهيم الخليل و بين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثنى بعض الزهاد فذكره (١) حديث سمع رجلا يقول اللهم انى اسالك تمام النعمة الحديث تقدم (٢) حديث اذا اذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكته انظروا الى عبدى أذنب ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنب الحديث متفق عليه من حديث ابى هريرة بلفظ ان عبدا أصاب ذنبا فقال اى رب اذنبت ذنبا فاغفرلى الحديث وفى رواية اذنب عبد ذنبا فقال الحديث (٣) حديث لوأذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء الحديث الترمذى من حديث انس يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك وقال حسن (٤) حديث لولقينى عبدى بقراب الارض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبى ذر ومن لقينى بقراب الارض خطيئة لايشرك بى شيأ لقيته بمثلها مغفرة وللترمذى من حديث أنس الذى قبله يا ابن آدم لولقيتنى الحديث (٥) حديث ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا اذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه الحديث قال وفى لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة بسند فيه لين باللفظ الاول ورواه أيضا أطول منه وفيه أن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يامر صاحب الشمال بالقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ولم أجد لذلك أصلا (٦) حديث أنس اذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال اعرابى فان تاب عنه قال محى عنه قال فان عاد الحديث وفيه ان الله لايمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار الحديث البيهقى فى الشعب بلفظ جاء رجل فقال يارسول الله انى أذنبت ذنبا قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود قال فاذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أوأربعا قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور وفيه ابو بدر بشار بن الحكم المصرى منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر احدنا يذنب قال يكتب عليه قال ثم يستغفر و يتوب قال يغفر له و يتاب عليه قال فيعود الحديث وفيه ولا يمل الله حتى تملوا وليس فى الحديثين قوله فى آخره فاذا هم العبد بحسنة الخ وهو فى الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم فى رواية أومحاها الله ولا يهلك على الله الا هالك ولهما نحوه من حديث أبى هريرة

ومتى ذلك يارسول الله قال اذا لم تنل المعيشة الا بمعاصى الله فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرتنا بالتزوج قال انه اذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فان لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده فان لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته قالوا وكيف ذلك يارسول الله قال يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة * وقد رغب جمع من السلف فى الصحبة والاخوة فى الله ورأوا ان الله تعالى من على أهل الايمان حيث جعلهم اخوانا فقال

صاحب اليمين حسنة قبل ان يعملها فان عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى الى سبعمائة ضعف واذاهم بخطيئة لم تكتب عليه فاذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عزوجل (١) وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اني لا اصوم الا الشهر لا ازيد عليه ولا اصلي الا الخمس لا ازيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع أين انا اذا مت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معي اذا حفظت قلبك من اثنتين الغل والحسد ولسانك من اثنتين الغيبة والكذب وعينيك من اثنتين النظر الى ماحرم الله وان تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين وفي الحديث (٢) الطويل لانس ان الاعرابي قال يارسول الله من يلي حساب الخلق فقال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابي فقال صلى الله عليه وسلم مم ضحكت يا اعرابي فقال ان الكريم اذا قدر عفا واذا حاسب سامح فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الاعرابي الالا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الاكرمين ثم قال فقه الاعرابي وفيه ايضا ان الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو ان عبدا هدمها حجرا حجرا ثم احرقها مابلغ جرم من استخف بولي من اولياء الله تعالى قال الاعرابي ومن اولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم اولياء الله تعالى اماسمعت قول الله عزوجل الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وفي بعض الاخبار (٣) المؤمن افضل من الكعبة (٤) والمؤمن طيب طاهر (٥) والمؤمن اكرم على الله تعالى من الملائكة وفي الخبر (٦) خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده الى الجنة وفي خبر آخر يقول الله عز وجل (٧) انما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم اخلقهم لاربح عليهم وفي حديث (٨) ابي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخلق الله تعالى شيأ الا جعل له مايغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه وفي الخبر المشهور (٩) ان الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل ان يخلق الخلق ان رحمتي تغلب غضبي وعن (١٠) معاذ بن جبل وانس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال لا اله الا الله دخل

سبحانه وتعالى واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخوانا وقال تعالى هو الذي ايدك بنصره و بالمؤمنين والف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم * وقد اختار الصحبة والاخوة في الله تعالى سعيد ابن المسيب وعبد الله بن المبارك وغيرهما وفائدة الصحبة أنها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض (قيل) اعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ويتصلب الباطن برز بن المسلم ويتمكن الصدق

(١) حديث جاء رجل فقال يارسول الله اني لا اصوم الا الشهر لا ازيد عليه ولا اصلي الا الخمس لا ازيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع الحديث تقدم (٢) حديث انس الطويل قال اعرابي يارسول الله من يلي حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابي الحديث لم اجد له اصلا (٣) حديث المؤمن افضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما اعظمك واعظم حرمتك والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن اعظم حرمة منك ماله ودمه وان يظن به الاخيرا وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه ابو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم (٤) حديث المؤمن طيب طاهر لم اجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث ابو حذيفة المؤمن لا ينجس (٥) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة ابن ماجه من رواية أبي المهزم يزيد بن سفيان عن ابي هريرة بلفظ المؤمن اكرم على الله من بعض الملائكة وابو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف (٦) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده الى الجنة لم اجده هكذا ويغني عنه ما رواه البخاري من حديث ابي هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم الى الجنة في السلاسل (٧) حديث قال الله انما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم اخلقهم لاربح عليهم لم اقف له على اصل (٨) حديث ابي سعيد ماخلق الله شيا الا جعل له مايغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه ابو الشيخ ابن حبان في الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الميزان ليس بواه ولا بمجهول (٩) حديث ان الله كتب على نفسه بنفسه قبل ان يخلق الخلق ان رحمتي تغلب غضبي متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (١٠) حديث معاذ وأنس من قال لا اله الا الله دخل الجنة الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو في اليوم والليلة للنسائي بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ ومن حديث أنس وتقدم في الاذكار

الجنة (١) ومن كان آخر كلامه لا اله الا الله لم تمسه النار (٢) ومن لقى الله لا يشرك به شيا حرمت عليه النار (٣) ولا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان وفى خبر آخر (٤) لو علم الكافر سعة رحمة الله ما ايس من جنته احد (٥) ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ان زلزلة الساعة شىء عظيم قال اتدرون اى يوم هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل الف تسعمائة وتسعه وتسعون الى النار وواحد الى الجنة قال فابلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مالكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال كم انتم فى الامم اين تاويل وثاريس ومنسك ويأجوج ومأجوج امم لا يحصيها الا الله تعالى انما انتم فى سائر الامم كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الاسود وكالرقمة فى ذراع الدابة فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بازمة الرجاء الى الله تعالى اذساقهم بسياط الخوف اولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال الى افراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم الى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للاول ولكن ذكر فى الاول ما رآه سببا للشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا الى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الامر فعلى الواعظ ان يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف فى استعمال اخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وان لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه اكثر مما يصلحه وفى الخبر (٦) لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم وفى لفظ آخر لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم انه هو الغفور الرحيم وفى الخبر (٧) لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل وما هو قال العجب وقال صلى الله عليه وسلم (٨) والذى نفسى بيده لله ارحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وفى الخبر (٩) ليغفر الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب احد حتى ان ابليس ليتطاول

بطروق هبوب الافات ثم التخلص منها بالايمان ويقع بطريق الصحبة والاخوة التعاضد والتعاون وتتقوى جنود القلب وتستروح الارواح بالتشام وتتفق فى التوجه الى الرفيق الاعلى ويصير مثالها فى الشاهد كالاصوات اذا اجتمعت خرقت الاجرام واذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام * ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن كثير باخيه وقال الله تعالى مخبرا عمن لا صديق له فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والحميم فى الاصل الهميم الا انه ابدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجهما اذهما من حروف الحلق والهميم

---

(١) حديث من كان آخر كلامه لا اله الا الله لم تمسه النار ابو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٢) حديث من لقى الله لا يشرك به شيا حرمت عليه النار الشيخان من حديث أنس انه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ما من عبد يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله الا حرمه الله على النار وزاد البخارى صادقا من قلبه وفى رواية له من لقى الله لا يشرك به شيأ دخل الجنة ورواه احمد من حديث معاذ بلفظ جعله الله فى الجنة وللنسائى من حديث ابى عمرة الانصارى فى اثناء حديث فقال اشهد ان لا اله الا الله واشهد انى رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن بهما الا حجب عن النار يوم القيامة (٣) حديث لا يدخلها من فى قلبه وزن ذرة من ايمان احمد من حديث سهل ابن بيضاء من شهد ان لا اله الا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان انى لاعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه الا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هى كلمة الاخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت فى الاحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار واخراجهم بالشفاعة نعم لا يبقى فى النار من فى قلبه وزن ذرة من ايمان كما هو متفق عليه من حديث ابى سعيد وفيه فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من ايمان فاخرجوه وقال مسلم من خير بدل من ايمان (٤) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته احد متفق عليه من حديث ابى هريرة (٥) حديث لما تلا ان زلزلة الساعة شىء عظيم قال تدرون اى يوم هذا الحديث الترمذى من حديث عمران بن حصين وقال حسن صحيح قلت هو من رواية الحسن البصرى عن عمران ولم يسمع منه وفى الصحيحين نحوه من حديث ابى سعيد (٦) حديث لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم وفى لفظ لذهب بكم الحديث مسلم من حديث ابى ايوب واللفظ الثانى من حديث ابى هريرة قريبا منه (٧) حديث لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث انس وتقدم فى ذم الكبر والعجب (٨) حديث والذى نفسى بيده لله ارحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بنحوه (٩) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب احد الحديث ابن ابى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف

لهارجاء ان تصيبه وفى الخبر (١) ان لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعا وتسعين رحمة واظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فاذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة الى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والارض قال فلا يهلك على الله يومئذ الاهالك وفى الخبر (٢) مامنكم من احد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا انت يارسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدنى الله برحمته وقال عليه افضل الصلاة والسلام (٣) اعملوا وابشروا واعلموا أن احدا لم ينجه عمله وقال صلى الله عليه وسلم (٤) انى اختبات شفاعتي لاهل الكبائر من امتي اترونها للمطيعين المتقين بل هى للمتلوثين المخلطين وقال عليه الصلاة والسلام (٥) بعثت بالحنيفية السمحة السهلة وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى (٦) احب ان يعلم اهل الكتابين ان فى ديننا سماحة ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين فى قولهم ولا تحمل علينا اصرا وقال تعالى ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم وروى (٧) محمد بن الحنيفة عن على رضى الله تعالى عنهما إنه قال لما نزل قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال ياجبريل وما الصفح الجميل قال عليه السلام اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه فقال ياجبريل فالله تعالى أكرم من ان يعاتب من عفا عنه فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الله تعالى اليهما ميكائيل عليه السلام وقال ان ربكما يقرئكما السلام ويقول كيف اعاتب من عفوت عنه هذا مالا يشبه كرمى * والاخبار الواردة فى اسباب الرجاء اكثر من ان تحصى (واما الآثار) فقد قال على كرم الله وجهه من اذنب ذنبا فستره الله عليه فى الدنيا فالله اكرم من ان يكشف ستره فى الآخرة ومن اذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى اعدل من ان يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة وقال الثورى ما احب ان يجعل حسابى الى أبوى لانى اعلم ان الله تعالى ارحم بى منهما وقال بعض السلف المؤمن اذا عصى الله تعالى ستره عن ابصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه وكتب محمد بن مصعب الى اسود بن سالم بخطه ان العبد اذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو يقول ياربى حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى اذا قال الرابعة ياربى قال الله تعالى حتى متى تحجبون عنى صوت عبدى قد علم عبدى انه ليس له رب يغفر الذنوب غيرى اشهدكم انى قد غفرت له وقال ابراهيم بن ادهم رحمة الله عليه خلالى الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت فى الملتزم عند الباب فقلت ياربى اعصمنى حتى لا اعصيك أبدا فهتف بى هاتف من البيت يا ابراهيم انت تسالنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون ذلك فاذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر وكان الحسن يقول لولم يذنب المؤمن لكان يطير فى ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب وقال الجنيد رحمه الله تعالى

---

(١) حديث ان لله تعالى مائة رحمة الحديث المتفق عليه من حديث ابى هريرة (٢) حديث مامنكم من احد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث ابى هريرة وقد تقدم (٣) حديث اعملوا وابشروا واعلموا ان احدا لن ينجيه عمله تقدم ايضا (٤) حديث انى اختبأت شفاعتى لاهل الكبائر من امتى الحديث الشيخان من حديث ابى هريرة لكل نبي دعوة وانى خبات دعوتى شفاعة لامتى ورواه مسلم من حديث أنس وللترمذى من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتى لاهل الكبائر من أمتى ولابن ماجه من حديث ابى موسى ولاحمد من حديث ابن عمر خيرت بين الشفاعة وبين ان يدخل نصف امتى الجنة فاخترت الشفاعة لانها أعم واكفى اترونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم (٥) حديث بعثت بالحنيفية السمحة السهلة أحمد من حديث ابى امامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله وللطبرانى من حديث ابن عباس احب الدين الى الله الحنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحق رواه بالعنعنة (٦) حديث احب ان يعلم اهل الكتاب ان فى ديننا سماحة ابو عبيد فى غريب الحديث وأحمد (٧) حديث محمد بن الحنفية عن على لما نزل قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال ياجبريل وما الصفح الجميل قال اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه الحديث ابن مردويه فى تفسيره موقوفا على على مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفى اسناده نظر

ماخوذ من الاهتمام اى يهتم بامر اخيه فالاهتمام بهم الصديق حقيقة الصداقة وقال عمر اذا راى احدكم ودا من اخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك وقد قال القائل
واذا صفا لك من زمانك واحد * فهو المراد واين ذاك الواحد *
واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قال ياداود مالى اراك منتبذ وحدك قال الهى قليت الخلق من اجلك فاوحى الله اليه ياداود كن يقظانا مرتادا لنفسك اخوانا وكل خدن لا يوافق على مسرتى فلا تصحبه فانه عدو يقسى قلبك ويباعدك منى وقد ورد فى الخبر ان احبكم الى الله الذين

ان بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين ولقي مالك بن دينار ابانا فقال له الى كم تحدث الناس بالرخص فقال يا ابا يحيى اني لارجوان ترى من عفو الله يوم القيامة ماتخرق له كساءك هـذا من الفرح وفى حديث ربعى ابن حراش عن اخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت قال لما مات اخى سجى بثوبه والقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال انى لقيت ربى عز وجل فحيانى بروح وريحان وربى غير غضبان وانى رأيت الامر أيسر مما تظنون فلا تغتروا وان محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى واصحابه حتى ارجع اليهم قال ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت فى طشت فحملناه ودفناه وفى الحديث (١) ان رجلين من بنى اسرائيل تواخيا فى الله تعالى فكان احدهما يسرف على نفسه وكان الاخر عابدا وكان يعظه ويزجره فكان يقول دعنى وربى أبعثت على رقيبا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة ايستطيع احد ان يحظر رحمتى على عبادى اذهب انت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وانت فقد اوجبت لك النار قال فو الذى نفسى بيده لقد تكلم بكلمة اهلكت دنياه وآخرته وروى ايضا ان لصا كان يقطع الطريق فى بنى اسرائيل اربعين سنة فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بنى اسرائيل من الحواريين فقال اللص فى نفسه هذا نبي الله يمر والى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا قال فنزل فجعل يريد ان يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيما للحوارى ويقول فى نفسه مثلى لا يمشى الى جنب هذا العابد قال واحس الحوارى به فقال فى نفسه هذا يمشى الى جانبى فضم نفسه ومشى الى عيسى عليه الصلاة والسلام فمشى بجنبه فبقى اللص خلفه فاوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستانفا العمل فقد احبطت ماسلف من اعمالهما اما الحوارى فقد احبطت حسناته لعجبه بنفسه واما الآخر فقد احبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه فاخبرهما بذلك وضم اللص اليه فى سياحته وجعله من حوارييه وروى عن مسروق ان نبيا من الانبياء كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى الزق الحصى بجبهته قال فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال اذهب فلن يغفر الله لك فاوحى الله تعالى اليه تتالى على فى عبادى انى قد غفرت له ويقرب من هذا ماروى عن (٢) ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين يلعنهم فى صلاته فنزل عليه قوله تعالى ليس لك من الامر شئ الاية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة اولئك للاسلام وروى فى الاثر ان رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة قال فاذا ادخلا الجنة رفع احدهما فى الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ماكان هذا فى الدنيا باكثر منى عبادة فرفعته على فى عليين فيقول الله سبحانه انه كان يسالنى فى الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسالنى النجاة من النار فاعطيت كل عبد سؤله وهـذا يدل على ان العبادة على الرجاء افضل لان المحبة اغلب على الراجى منها على الخائف فكم من فرق فى الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لانعامه واكرامه ولذلك امر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) سلوا الله الدرجات العلى فانما تسالون كريما وقال (٤) اذا سالتم

(١) حديث ان رجلين من بنى اسرائيل تواخيا فى الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا الحديث ابوداود من حديث ابى هريرة باسناد جيد (٢) حديث ابن عباس كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته فنزل قوله تعالى ليس لك من الامر شئ فترك الدعاء عليهم الحديث البخارى من حديث ابن عمر انه كان اذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الاخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد مايقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فانزل الله عز وجل ليس لك من الامر شئ الى قوله فانهم ظالمون ورواه الترمذى وسماهم ابا سفيان والحرث بن هشام وصفوان بن امية وزاد فتاب عليهم فاسلموا فحسن اسلامهم وقال حسن غريب وفى رواية له اربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للاسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فانما تسالون كريما لم اجده بهذا اللفظ وللترمذى من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فان الله يحب ان يسال وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ (٤) حديث اذا سالتم الله فاعظموا الرغبة واسالوا الفردوس

يالفون ويؤلفون فالمؤمن آلف مالوف وفى هـذا دقيقـة وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحـدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون آلفا مالوفا فان هذه الاشارة من رسـول الله صـلى الله عليه وسلم الى الخلق الجبلى وهـذا الخلق يكمل فى كل من كان أتم معرفـة ويقينا وأرزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفـر الناس حظا من هـذا الوصف الانبياء ثم الاولياء وأتم الجميع فى هذا نبينا صلوات الله عليـه وكل من كان من الانبياء أتم ألفة كان أكثر تبعا ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفـة واكثرهم تبعا وقال تنـا كحوا

الله فاعظموا الرغبة واسالوا الفردوس الاعلى فان الله تعالى لا يتعاظمه شيء وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها فقلنا يا أباعبدالله كيف تجدك قال لا أدري ما أقول لكم الا انكم ستعاينون من عفو الله مالم يكن لكم فى حساب ثم مابرحنا حتى أغمضناه وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائي اياك مع الاعمال لانى أعتمد فى الاعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدنى فى الذنوب اعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وانت بالجود موصوف وقيل ان مجوسيا استضاف ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال ان أسلمت أضفتك فمر المجوسى فاوحى الله تعالى اليه يا ابراهيم لم تطعمه الا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك فمر ابراهيم يسعى خلف المجوسى فرده وأضافه فقال له المجوسى ما السبب فيما بدالك فذكر له فقال له المجوسى أهكذا يعاملنى ثم قال اعرض على الاسلام فاسلم ورأى الاستاذ ابوسهل الصعلوكى أباسهل الزجاجى فى المنام وكان يقول بوعيد الابد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الامر أهون مما توهمنا ورأى بعضهم أباسهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال له يا أستاذ بم نلت هذا فقال بحسن ظنى بربى وحكى ان ابا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قدقامت واذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال فجاؤا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال فقلنا يارب قصرنا وأسانا قال فاعاد السؤال كانه لم يرض بالجواب واراد جوابا غيره فقلت اما انا فليس فى صحيفتى الشرك وقدوعدت ان تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع الى غلامه اربعة دراهم وامره ان يشترى شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور ابن عمار وهو يسال لفقير شيئا ويقول من دفع اليه اربعة دراهم دعوت له اربع دعوات قال فدفع الغلام اليه الدراهم فقال منصور ما الذى تريد ان أدعو لك فقال لى سيد أريد ان أتخلص منه فدعا منصور وقال الاخرى فقال ان يخلف الله على دراهمى فدعا ثم قال الاخرى قال ان يتوب الله على سيدى فدعا ثم قال الاخرى فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم أبطأت فقص عليه القصة قال وبم دعا فقال سالت لنفسى العتق فقال له اذهب فانت حر قال وايش الثانى قال ان يخلف الله على الدراهم قال لك اربعة آلاف درهم وايش الثالث قال ان يتوب الله عليك قال تبت الى الله تعالى قال وايش الرابع قال ان يغفر الله لى ولك وللقوم وللمذكر قال هذا الواحد ليس الى فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له انت فعلت ما كان اليك أفترى انى لا افعل ما الى قدغفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين اجمعين وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فاخذت مكان المرأة وذهبنا الى المقبرة وصلينا عليها ودفناها الميت فقلت للمراة من كان هذا الميت منك قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا امره قلت وايش كان هذا قالت مخنثا قال فرحمتها وذهبت بها الى منزلى واعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كانه اتانى آت كانه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى فقلت من انت فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس اياى وقال ابراهيم الاطروش كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخى على دجلة اذمر احداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا لمعروف أماتراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال الهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة فقال القوم انما سالناك ان تدعو عليهم فقال اذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم وكان بعض السلف يقول فى دعائه يارب واى اهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما احلمك وعزتك انك

الاعلى فان الله لا يتعاظمه شيء مسلم من حديث ابى هريرة اذا دعا احدكم فلا يقل اللهم اغفر لى ان شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فان الله عز وجل لا يتعاظمه شيء واعطاه البخارى من حديث ابى هريرة فى اثناء حديث فاذا سالتم الله فاسالوه الفردوس فانه اوسط الجنة واعلى الجنة ورواه الترمذى من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

تكثروا فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وانما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ومن كان هذا الوصف فيه اقوى واتم كان طلب العزلة فيه اكثر فى الابتداء ولهذا المعنى حبب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة فى اول امره وكان يخلو فى غار حراء ويتحنث الليالى ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفا مالوفا وقد غلط فى هذا قوم ظنوا ان العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلبا لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب

لتعصى

لتعصى ثم تسبغ النسمة وتدر الرزق حتى كانك يار بنا لا تغضب فهذه هى الاسباب التى بها يجلب روح الرجاء الى قلوب الخائفين والآيسين فاما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا شيئا من ذلك بل يسمعون ماسنورده فى أسباب الخوف فان أكثر الناس لا يصلح الا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم الا بالسوط والعصا واظهار الخشونة فى الكلام وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا (الشطر الثانى من الكتاب فى الخوف) وفيه بيان حقيقة الخوف و بيان درجاته و بيان أقسام المخاوف و بيان فضيلة الخوف و بيان الافضل من الخوف والرجاء و بيان دواء الخوف و بيان معنى سوء الخاتمة و بيان أحوال الخائفين من الانبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ونسال الله حسن التوفيق

(بيان حقيقة الخوف)

اعلم ان الخوف عبارة عن تالم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال وقد ظهر هذا فى بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات الى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج الى رعوناتها والى هذا أشار الواسطى حيث قال الخوف حجاب بين الله و بين العبد وقال أيضا اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف و بالجملة فالمحب اذا شغل قلبه فى مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا فى الشهود وانما دوام الشهود غاية المقامات ولكنا الآن انما نتكلم فى أوائل المقامات فنقول حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل أما العلم فهو العلم بالسبب المفضى الى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع فى يده فيخاف القتل مثلا و يجوز العفو والافلات ولكن يكون تالم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالاسباب المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك فى نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع اليه فى حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الاسباب سبب لقوة الخوف وشدة تالم القلب و بحسب ضعف هذه الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذى وقع فى مخالب سبع فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وان كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع فى مجرى سيل أو جوار حريق فان الماء يخاف لانه بطبعه مجبول على السيلان والاغراق وكذا النار على الاحراق فالعلم باسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتالمه وذلك الاحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وانه لو اهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى وتارة يكون بهما جميعا و بحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فاخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه و بربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) أنا أخوفكم لله وكذلك قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ثم اذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات اما فى البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفضى الى الموت او يصعد الى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط والياس وما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ولذلك قيل ليس الخائف من يبكى و يمسح عينيه بل من يترك ما يخاف ان يعاقب عليه وقال ابو القاسم الحكيم من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب اليه وقيل لذى النون متى يكون العبد خائفا قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول

(١) حديث أنا أخوفكم البخارى من حديث أنس والله انى لاخشاكم لله واتقاكم له وللشيخين من حديث عائشة والله انى لاعلمهم بالله وأشدهم له خشية

العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الانبياء ثم الامثل فالامثل ما أسلفنا فى أول الباب ان فى الانسان ميلا الى الجنس بالوصف الاعم فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الاعم لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع الى تالف الارواح فاذا وفوا التصفية حقها اشرأبت الارواح الى جنسها بالتالف الاصلى الاولى وأعادها الله تعالى الى الخلق ومجالستهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بانوار الارواح وظهرت صفة الجبلة من الالفة المكملة آلفة مالوفة فصارت العزلة من أهم الامور عند من

السقام وامافى الصفات فبأن يقمع الشهوات و يكدر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عندمن يشتهيه اذاعرف ان فيه سما فتحرق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح و يحصل فى القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة و يفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر فى خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالانفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات و يكون حاله حال من وقع فى مخالب سبع ضار لا يدرى انه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره و باطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذى هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وافعاله و بعيوب النفس وما بين يديها من الاخطار والاهوال واقل درجات الخوف مما يظهر اثره فى الاعمال ان يمنع عن المحظورات و يسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فان زادت قوته كف عما يتطرق اليه امكان التحريم فيكف ايضا عما لا يتيقن تحريمه و يسمى ذلك تقوى اذ التقوى ان يترك ما يريبه الى ما لا يريبه وقد يحمله على أن يترك ما لا باس به مخافة ما به باس وهو الصدق فى التقوى فاذا انضم اليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت الى دنيا يعلم انها تفارقه ولا يصرف الى غير الله تعالى نفسا من انفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بان يسمى صديقا و يدخل فى الصدق التقوى و يدخل فى التقوى الورع و يدخل فى الورع العفة فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة فاذا الخوف يؤثر فى الجوارح بالكف والاقدام و يتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة واعلى منه الورع فانه اعم لانه كف عن كل محظور واعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا ووراءه اسم الصديق والمقرب وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الاخص من الاعم فاذا ذكرت الاخص فقد ذكرت الكل كما انك تقول الانسان اما عربى واما عجمي والعربى اما قرشى اوغيره والقرشى اما هاشمى او غيره والهاشمى اما علوى اوغيره والعلوى اما حسنى اوحسينى فاذا ذكرت انه حسنى مثلا فقد وصفته بالجميع وان وصفته بانه علوى وصفته بما هو فوقه مما هواعم منه فكذلك اذا قلت صديق فقد قلت انه تقى وورع وعفيف فلا ينبغى أن تظن ان كثرة هذه الاسامى تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعانى من الالفاظ ولم يتبع الالفاظ المعانى فهذه اشارة الى مجامع معانى الخوف ومايكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالاعمال الصادرة منه كفا واقداما

﴿بيان درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف﴾

اعلم ان الخوف محمود و ربما يظن ان كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده الى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والاصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على ان المبالغة فى الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله افراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فاما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية لا يؤلمها الما مبرحا فلا يسوقها الى المقصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم الا العارفين والعلماء ولست اعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين باسمائهم فانهم أبعد الناس عن الخوف بل اعنى العلماء بالله و بايامه وافعاله وذلك مما قد عز وجوده الآن ولذلك قال الفضيل بن عياض اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت واشار به الى ان الخوف هو الذى

يألف فيؤلف ومن ادل الدليل على ان الذى اعتزل آلف مالوف حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذم العزلة على الاطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها فى وقتها والصحبة مرغوبا فيها فى وقتها قال قال محمد بن الحنيفة رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا وكان بشر ابن الحرث يقول اذا اقصر العبد فى طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالانيس يهيئه الله للصادقين رفقا من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا والانيس

يكف الجوارح عن المعاصي و يقيدها بالطاعات ومالم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا وأما المفرط فانه الذي يقوى و يجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضا لانه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل فالمراد من الخوف ماهو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشأه الجهل والعجز اما الجهل فانه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفا لان المخوف هو الذي يتردد فيه وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه فاذا هو محمود بالاضافة الى نقص الآدمي وانما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل مايجوز أن يوصف الله تعالى به ومالا يجوز وصف الله به فليس بكمال في ذاته وانما يصير محمودا بالاضافة الى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لانه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج الى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج الى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها وانما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي الى القنوط أو أحد هذه الامور فكل ما يراد لامر فالمحمود منه مايفضي الى المراد المقصود منه ومايقصر عنه او يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الاسباب الموصلة الى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل مايقدح في هذه الاسباب فهو مذموم فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموما فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة اليه فضيلة فاما بالاضافة الى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة بل للسالك الى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما أبطل العمر او العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالاضافة الى أمور وان كان بعض اقسامها فضيلة بالاضافة الى امور أخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة الى مادونها لا بالاضافة الى درجة المتقين والصديقين فاذن الخوف ان لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وان أثر فله درجات بحسب ظهور اثره فان لم يحمل الا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا أثمر الورع فهو اعلى واقصى درجاته ان يثمر درجات الصديقين وهو ان يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذ أقصى مايحمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا الى ازالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه ان قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه باسباب الرجاء و بغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع اياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل

﴿ بيان أقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه ﴾

اعلم أن الخوف لا يتحقق الا بانتظار مكروه والمكروه اما ان يكون مكروها في ذاته كالنار واما أن يكون مكروها لانه يفضي الى المكروه كما تكره المعاصي لادائها الى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه المضرة لادائها الى الموت فلابد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من احد القسمين و يقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها

قد يكون مفيدا كالمشايخ وقد يكون مستفيدا كالمريدين فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس فان كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به وان كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من المريدين وهذا الانس ليس فيه ميل بالوصف الاعم بل هو بالله ومن الله وفي الله (روى) عبد الله ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لاهل الجنة كما تضيء الشمس لاهل الدنيا فيقول أهل الجنة

بالقساوة أوخوف الميل عن الاستقامة أوخوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة أوخوف أن يكله الله تعالى الى حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله أوخوف البطر بكثرة نعم الله عليه أوخوف الاشتغال عن الله بغير الله أوخوف الاستدراج بتواتر النعم أوخوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدوله من الله مالم يكن يحتسب أوخوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء أوخوف مالايدرى انه يحدث فى بقية عمره أوخوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت اوخوف الاغترار بزخارف الدنيا أوخوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه أوخوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أوخوف السابقة التى سبقت له فى الازل فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهوسلوك سبيل الحذر عما يفضى الى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس وهكذا الى بقية الاقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فان الامر فيه مخطر وأعلى الاقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة لان الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء فى أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة الى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك فى حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حزالرقبة و يحتمل ان يكون فيه تسليم الوزارة اليه ولم يصل التوقيع اليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وانه عماذا يظهر و يرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وانه ماالذى خطرله فى حال التوقيع من رحمة أوغضب وهذا التفات الى السبب فهو أعلى من الالتفات الى ماهو فرع فكذلك الالتفات الى القضاء الازلى الذى جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات الى مايظهر فى الابد واليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال(١) هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة باسمائهم وأسماء آبائهم لا يزادفيهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى وقال هذا كتاب الله كتب فيه اهل النار باسمائهم وأسماء آبائهم لا يزادفيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كانهم منهم بل هم هم ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملن اهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كانهم منهم بل هم هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله والاعمال بالخواتيم وهذا كانقسام الخائفين الى من يخاف معصيته وجنايته والى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله واوصافه التى تقتضى الهيبة لامحالة فهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وان كان فى طاعة الصديقين وأما الآخر فهو فى عرصة الغرور والامن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهوثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بان يخاف من غير جناية بل العاصى لوعرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف فى نفسه لماسخره للمعصية و يسرله سبيلها ومهدله أسبابها فان تيسير اسباب المعصية ابعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها ان يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهدله سبيل القربات فالعاصى قدقضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا المطيع فالذى يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم الى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده و يضع أباجهل فى اسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بان يخاف منه لصفة جلاله فان من أطاع الله أطاع بان سلط عليه ارادة الطاعة وآتاه القدرة و بعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذى عصى عصى لانه سلط عليه ارادة قوية جازمة وآتاه الاسباب والقدرة فكان الفعل بعد الارادة والقدرة ضروريا فليت شعرى ماالذى أوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارارة الطاعات عليه وماالذى أوجب اهانة الآخر وابعاده بتسليط دواعى المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد واذا كانت الحوالة ترجع الى القضاء

انطلقوا بنا ننظر الى المتحابين فى الله عزوجل فاذا أشرفوا عليهم اضاء حسنهم لاهل الجنة كما تضىء الشمس لاهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون فى الله عزوجل وقال أبو ادريس الخولانى لمعاذ انى احبك فى الله فقال له ابشر ثم ابشر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولايخافون وهم اولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون فقيل من هؤلاء

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه اهل الجنة باسمائهم واسماء آبائهم الحديث الترمذى من حديث عبدالله

الازلى من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذى لا يجوز افشاؤه ولا يمكن تفهم الخوف منه فى صفاته جل جلاله الا بمثال لولا اذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة فقد جاء فى الخبر(١) ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام يا داود خفنى كما تخاف السبع الضاري فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وان كان لا يقفك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك الا لاهله والحاصل ان السبع يخاف لا لجناية سبقت اليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولانه يفعل ما يفعل ولا يبالى فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وان خلاك لم يخلك شفقة عليك وابقاء على روحك بل انت عنده أخس من ان يلتفت اليك حيا كنت او ميتا بل اهلاك ألف مثلك واهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة اذ لا يقدح ذلك فى عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ولله المثل الاعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التى هى اقوى وأوثق واجلى من المشاهدة الظاهرة انه صادق فى قوله هؤلاء الى الجنة ولا ابالى وهؤلاء الى النار ولا ابالى ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة (الطبقة الثانية من الخائفين) ان يتمثل فى انفسهم ماهو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدته او سؤال منكر ونكير او عذاب القبر او هول المطلع اوهيبة الموقف بين يدى الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير او الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه او الخوف من النار واغلالها واهوالها او الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات او الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الاسباب مكروهة فى نفسها فهى لا محالة مخوفة وتختلف احوال الخائفين فيها واعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بالم البعد والفراق واذا ذكر له ان العارف لا يخاف النار وانما يخاف الحجاب وجد ذلك فى باطنه منكرا وتعجب فى منه نفسه وربما انكر لذة النظر الى وجه الله الكريم لولا منع الشرع اياه من انكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد والا فباطنه لا يصدق به لانه لا يعرف الا لذة البطن والفرج والعين بالنظر الى الالوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فاما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس اهلا له ومن كان اهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن ان يشرحه له غيره فالى هذه الاقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

(بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه)

اعلم ان فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والاخبار * اما الاعتبار فسبيله ان فضيلة الشيء بقدر غنائه فى الافضاء الى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة اذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد الا فى لقاء مولاه والقرب منه فكل ما اعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر انه لا وصول الى سعادة لقاء الله فى الآخرة الا بتحصيل محبته والانس به فى الدنيا ولا تحصل المحبة الا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة الا بدوام الفكر ولا يحصل الانس الا بالمحبة ودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر الا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك الا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشىء كما تنقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصى ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهى الاعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب الى الله زلفى * واما بطريق الاقتباس من الآيات والاخبار فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى

يا رسول الله قال المتحابون فى الله عز وجل (وروى) عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل حقت محبتى للمتحابين فى والمتزاورين فى والمتباذلين فى والمتصادقين فى (أخبرنا) الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقى اجازة قال انا احمد بن الحسين بن خيرون قال انا أبو عبد الله أحمد ابن عبد الله المحاملى قال انا ابو القاسم عمر بن جعفر بن محمد بن سلام قال انا ابو اسحق ابراهيم ابن اسحق الحربى قال حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم بخير من كثير من

ابن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (١) حديث ان الله تعالى اوحى الى داود يا داود خفنى كما يخاف السبع الضارى لم اجد له اصلا ولعل المصنف قصد بايراده انه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء فى الخبر وكثيرا

للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وصفهم بالعلم لخشيتهم وقال عز وجل رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه وكل مادل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لان الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق الاعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف افردهم بمرافقة الرفيق الاعلى وذلك لانهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الانبياء لانهم ورثة الانبياء ومرافقة الرفيق الاعلى للانبياء ومن يلحق بهم ولذلك (١) لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول أسألك الرفيق الاعلى فاذن ان نظر الى مثمره فهو العلم وان نظر الى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد في فضائلها حتى ان العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة الى نفسه فقال تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وانما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى ان أكرمكم عند الله اتقاكم ولذلك أوصى الله تعالى الاولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله وقال عز وجل وخافون ان كنتم مؤمنين فامر بالخوف واوجبه وشرطه في الايمان فلذلك لا يتصور ان ينفك مؤمن عن خوف وان ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وايمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى (٢) اذا جمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم فاداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول يا أيها الناس اني قد أنصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فانصتوا الى اليوم انما هي اعمالكم ترد عليكم أيها الناس اني قد جعلت نسبا وجعلتم نسبا فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم قلت ان أكرمكم عند الله اتقاكم وابيتم الا ان تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم الى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب وقال عليه الصلاة والسلام (٣) رأس الحكمة مخافة الله وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود (٤) ان أردت ان تلقاني فأكثر من الخوف بعدي وقال الفضيل من خاف الله دله الخوف على كل خير وقال الشبلي رحمه الله ماخفت الله يوما الا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط وقال يحيى بن معاذ مامن مؤمن يعمل سيئة الا ويلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فانه لا يبقى احد الا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه الا الورعين فاني استحيي منهم وأجلهم ان اوقفهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فان خلت عن الخوف لم تسم بهذه الاسامي وكذلك ماورد

ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التي هي غير مرفوعة (١) حديث لما خير في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الاعلى متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح انه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما نزل به ورأسه في حجري غشي عليه ثم أفاق فاشخص بصره الى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الاعلى فعلمت انه لا يختارنا وعرفت انه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح الحديث (٢) حديث اذا جمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه اقصاهم كما يسمعه ادناهم فيقول يا ايها الناس اني قد انصت اليكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فانصتوا الى اليوم انما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس اني جعلت نسبا الحديث الطبراني في الاوسط والحاكم في المستدرك بسند ضعيف والثعلبي في التفسير مقتصرا على آخره اني جعلت نسبا الحديث من حديث أبي هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله ابو بكر بن لال الفقيه في مكارم الاخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضا (٤) حديث ان أردت ان تلقاني فأكثر من الخوف بعدي قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل

الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال اصلاح ذات البين واياكم والبغضة فانها هي الحالقة وباسناد ابراهيم الحربي عن عبيد الله ابن عمر عن أبي اسامة عن عبد الله بن الوليد عن عمران بن رباح قال سمعت ابا مسلم يقول سمعت اباهريرة يقول الخبر وفي الخبر تحذير عن البغضة وهوان يجفوا المختلي الناس مقتالهم وسوء ظن بهم وهذا خطأ وانما يريد ان يخلوا مقتا لنفسه وعلما بما في نفسه من الآفات وحذرا على نفسه من نفسه وعلى الخلق ان يعود عليهم من شره فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد والاشارة بالحالقة يعني ان

فى فضائل الذكر لايخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال سيذكر من يخشى وقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقال صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل وعزتى (١) لااجمع على عبدى خوفين ولا اجمع له امنين فان امننى فى الدنيا اخفته يوم القيامة وان خافنى فى الدنيا امنته يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من خاف الله تعالى خافه كل شئ ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شئ وقال صلى الله عليه وسلم (٣) اتمكم عقلا اشدكم خوفا لله تعالى واحسنكم فيما امر الله تعالى به ونهى عنه نظرا وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه مسكين ابن ادم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة وقال ذوالنون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه وقال ذوالنون ايضا ينبغى ان يكون الخوف ابلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان ابوالحسين الضرير يقول علامة السعادة خوف الشقاوة لان الخوف زمام بين الله تعالى و بين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا فقال اشدهم خوفا اليوم وقال سهل رحمه الله لاتجد الخوف حتى تاكل الحلال وقيل للحسن ياابا سعيد كيف نصنع بمجالس اقوام يخافوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال والله انك ان تخالط اقواما يخوفونك حتى يدركك امن خير لك من ان تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف وقال ابو سليمان الدارانى رحمه الله مافارق الخوف قلبا الا خرب وقالت (٤) عائشة رضى الله عنها قلت يارسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الرجل يسرق و يزنى قال لا بل الرجل يصوم و يصلى و يتصدق و يخاف ان لا يقبل منه والتشديدات الواردة فى الامن من مكر الله وعذابه لاتنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لان مذمة الشئ ثناء على ضده الذى ينفيه وضد الخوف الامن كما ان ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك مذمة الامن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كل ماورد فى فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لانهما متلازمان فان كل من رجا محبوبا فلا بد وان يخاف فوته فان كان لا يخاف فوته فهو اذا لايحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك احدهما عن الآخر نعم يجوز ان يغلب احدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز ان يشتغل القلب باحدهما ولا يلتفت الى الآخر فى الحال لغفلته عنه وهذا لان من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه اذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لامحالة اذا كان ذلك الامر المنتظر مشكوكا فيه نعم احد طرفى الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الاسباب و يسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة احدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا وقال عز وجل يدعون ربهم خوفا وطمعا ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى مالكم لاترجون لله وقارا اى لا تخافون وكثيرا ماورد فى القران الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما اذ عادة العرب التعبير عن الشئ بما يلازمه بل اقول كل ماورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو اظهار لفضيلة الخشية فان البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا وقال تعالى يبكون و يزيدهم خشوعا وقال عز وجل

---

(١) حديث لااجمع على عبدى خوفين ولا اجمع له امنين ابن حبان فى صحيحه والبيهقى فى الشعب من حديث ابى هريرة ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن ابى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا (٢) حديث من خاف الله خافه كل شئ الحديث ابو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث ابى امامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن ابى الدنيا فى كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم (٣) حديث اتمكم عقلا اشدكم لله خوفا الحديث لم اقف له على اصل ولم يصح فى فضل الشئ (٤) حديث عائشة قلت يارسول الله الذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة هو الرجل يسرق و يزنى قال الحديث الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد قلت بل منقطع بين عائشة و بين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذى وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبى حازم عن أبى هريرة

البغضة حالقة للدين لانه نظر الى المؤمنين والمسلمين بعين المقت (وأخبرنا) الشيخ ابو الفتح اسناده الى ابراهيم الحربى قال حدثنا يعقوب بن أبراهيم قال حدثنا ابو عاصم عن ثور عن خالد ابن معدان قال ان لله تعالى ملكا نصفه من نار و نصفه من ثلج وان من دعائه اللهم فكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ألف بين قلوب عبادك الصالحين وكيف لاتتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقته العزيز بقاب قوسين فى وقت لا يسعه فيه شئ للطف حال الصالحين وجدهم فى ذلك

أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون وقال صلى الله عليه وسلم (١) مامن عبد مؤمن يخرج من عينيه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيامن حر وجهه الا حرمه الله على النار وقال صلى الله عليه وسلم (٢) اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لا يلج النار احد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع (٤) وقال عقبة بن عامر ماالنجاسة يارسول الله قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقالت (٥) عائشة رضى الله عنها قلت يارسول الله أيدخل احد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى وقال صلى الله عليه وسلم (٦) مامن قطرة احب الى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم اهريقت فى سبيل الله سبحانه وقال صلى الله عليه وسلم (٧) اللهم ارزقنى عينين هطالتين ٢ تشفيان بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والاضراس جمرا وقال صلى الله عليه وسلم (٨) سبعة يظلهم الله يوم لاظل الا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه من استطاع ان يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتباك وكان محمد بن المنكدر رحمه الله اذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه و يقول بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع وقال عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم احدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال ابو سليمان الدارانى رحمه الله ما تغرغرت عين بمائها الالم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة فان سالت دموعه اطفأ الله باول قطرة منها بحارا من النيران ولو أن رجلا بكى فى أمة ماعذبت تلك الامة وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الاحبار رضى الله عنه والذى نفسى بيده لان ابكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب الى من ان أتصدق بجبل من ذهب وقال عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما لان أدمع دمعة من خشية الله احب الى من ان اتصدق بالف دينار وروى عن (٩) حنظلة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت الى اهلى فدنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه

المقام العزيز وقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فهم مجتمعون وان كانوا متفرقين وصحبتهم لازمة وعزيمتهم فى التواصل فى الدنيا والآخرة جازمة * وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو ان رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب فى الله ولم يبغض فيه مانفعه ذلك (اخبرنا) رضى الدين احمد بن اسمعيل بن يوسف اجازة ان لم يكن سماعا قال انا ابو المظفر عن والده ابى القاسم القشيرى قال

---

(١) حديث مامن مؤمن يخرج من عينه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب الحديث الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث اذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه الحديث الطبرانى والبيهقى فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يلج النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه من حديث ابى هريرة (٤) حديث قال عقبة بن عامر ماالنجاة يارسول الله قال امسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة احد من امتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى لم اقف له على أصل (٦) حديث مامن قطرة احب الى الله من قطرة دمعة من خشية الله الحديث الترمذى من حديث ابى امامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقنى عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبرانى فى الكبير وفى الدعاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن ورواه الحسين المروزى فى زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر الله وذكر الدار قطنى فى العلل ان من قال فيه عن ابيه وهم وانما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا قال وسالم هذا يشبه ان يكون سالم بن عبد الله المحاربى وليس بابن عمر انتهى وماذكره من انه سالم المحاربى هو الذى يدل عليه كلام البخارى فى التاريخ فى الكنى وابن أبى حاتم عن أبيه وأبى احمد الحاكم فان الراوى له عن سالم عبد الله ابو سلمة وانما ذكروا له رواية عن سالم المحاربى والله اعلم نعم حكى ابن عساكر فى تاريخه الخلاف فى ان الذى يروى عن سالم المحاربى او سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله الحديث متفق عليه من حديث ابى هريرة وقد تقدم (٩) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافق حنظلة الحديث وفيه ولكن ياحنظلة ساعة وساعة مسلم مختصرا

٢ قوله تشفيان بذروف الدمع الذى فى الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اه

وسلم

وسلم وأخذنا فى الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت فى نفسى قد نافقت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت أنادى نافق حنظلة فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال كلا لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اقول نافق حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا لم ينافق حنظلة فقلت يارسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا انفسنا فرجعت الى أهلى فاخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم ياحنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة فاذا كل ماورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الامن فهو دلالة على فضل الخوف لان جملة ذلك متعلقة به اما تعلق السبب او تعلق المسبب

﴿ بيان ان الافضل هو غلبة الخوف اوغلبة الرجاء اواعتدالهما ﴾

اعلم ان الاخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت ور بما ينظر الناظر اليهما فيعتريه شك فى ان الافضل ايهما وقول القائل الخوف افضل ام الرجاء سؤال فاسد يضاهى قول القائل الخبز افضل ام الماء وجوابه ان يقال الخبز افضل للجائع والماء افضل للعطشان فان اجتمعا نظر الى الاغلب فان كان الجوع اغلب فالخبز افضل وان كان العطش اغلب فالماء افضل وان استويا فهما متساويان وهذا لان كل مايراد لمقصود ففضله يظهر بالاضافة الى مقصوده لا الى نفسه والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب على القلب داء الامن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف افضل وان كان الاغلب هو الياس والقنوط من رحمة الله فالرجاء افضل وكذلك ان كان الغالب على العبد المعصية فالخوف افضل ويجوز ان يقال مطلقا الخوف افضل على التاويل الذى يقال فيه الخبز افضل من السكنجبين اذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين مرض الصفراء ومرض الجوع اغلب واكثر فالحاجة الى الخبز اكثر فهو افضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف افضل لان المعاصى والاغترار على الخلق اغلب وان نظر الى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء افضل لانه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه اغلب وليس وراء المحبة مقام واما الخوف فمستنده الالتفات الى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء وعلى الجملة فما يرادلغيره ينبغى ان يستعمل فيه لفظ الاصلح لا لفظ الافضل فنقول اكثر الخلق الخوف لهم اصلح من الرجاء وذلك لاجل غلبة المعاصى فاما التقى الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالاصلح ان يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى ان عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يابنى خف الله خوفا ترى انك لواتيته بحسنات اهل الارض لم يتقبلها منك وارج الله رجاء ترى انك لواتيته بسيئات اهل الارض غفرها لك ولذلك قال عمر رضى الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس الا رجلا واحدا لرجوت ان اكون انا ذلك الرجل ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس الا رجلا واحدا لخشيت ان اكون انا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى ان يستوى خوفه ورجاؤه فاما العاصى اذا ظن انه الرجل الذي استثنى من الذين امروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره فان قلت مثل عمر رضى الله عنه لا ينبغى ان يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغى ان يغلب رجاؤه كما سبق فى اول كتاب الرجاء وان قوته ينبغى ان تكون بحسب قوة اسبابه كما مثل بالزرع والبذر ومعلوم ان من بث البذر الصحيح فى ارض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغى ان تكون احوال المتقين فاعلم ان من ياخذ المعارف من الالفاظ والامثلة يكثر زلله وذلك وان اوردناه مثالا فليس يضاهى مانحن فيه من كل وجه لان سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة اذ علم بالتجربة صحة الارض ونقاءها وصحة البذر وصحة

سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول سمعت عبدالله بن المعلم يقول سمعت ابا بكر التلمساني يقول اصحبوا مع الله فان لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم الى صحبة الله (وأخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب اجازة قال أنا عمر ابن أحمد الصفار النيسابوري اجازة قال أنا أبو بكر احمد بن خلف قال انا ابو عبد الرحمن السلمي قال سمعت ابا نصر الاصفهاني يقول سمعت ابا جعفر الحداد يقول سمعت على بن سهل يقول الانس بالله تعالى ان تستوحش من الخلق الامن أهل ولاية الله فان الانس باهل ولاية الله هو الانس

الهواء وقلة الصواعق المهلكة فى تلك البقاع وغيرها وانما مثال مسالتنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث فى ارض غريبة لم يبدها الزراع ولم يختبرها وهى فى بلاد ليس يدري اتكثر الصواعق فيها ام لا فمثل هذا الزارع وان ادى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه والبذر فى مسالتنا هو الايمان وشروط صحته دقيقة والارض القلب وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفى والنفاق والرياء وخفايا الاخلاق فيه غامضة والآفات هى الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب اليها فى مستقبل الزمان وان سلم فى الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة اذ قد يعرض من الاسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله والصواعق هى اهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والادراك عند المنصرف من القيامة الى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق هذه الامور فان كان ضعيف القلب جبانا فى نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكى فى احوال الخائفين من الصحابة والتابعين وان كان قوى القلب ثابت الجاش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فاما ان يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر رضى الله عنه يبالغ فى تفتيش قلبه حتى كان يسال حذيفة رضى الله عنه انه هل يعرف به من آثار النفاق شيأ اذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) بعلم المنافقين فمن ذا الذى يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفى وان اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن اين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه واخفاء عيبه عنه وان وثق به فمن اين يثق ببقائه على ذلك الى تمام حسن الخاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) ان الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه و بين الجنة الا شبر وفى رواية الا قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم بعمل اهل النار وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح انما هو بمقدار خاطر يختلج فى القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذن اقصى غايات المؤمن ان يعتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء فى غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ولذلك جمع الله تعالى بينهما فى وصف من اثنى عليهم فقال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال عز وجل و يدعوننا رغبا ورهبا واين مثل عمر رضى الله عنه فالخلق الموجودون فى هذا الزمان كلهم الاصلح لهم غلبة الخوف بشرط ان لا يخرجهم الى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا الى الانهماك فى المعاصى فان ذلك قنوط وليس بخوف انما الخوف هو الذى يحث على العمل و يكدر جميع الشهوات و يزعج القلب عن الركون الى الدنيا و يدعوه الى التجافى عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذى لا يؤثر فى الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق فى بحار الافكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه فى مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام فى محجة الاذكار وقال مكحول الدمشقى من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذا لا بد من الجمع بين هذه الامور وغلبة الخوف هو الاصلح ولكن قبل الاشراف على الموت اما عند الموت فالاصح غلبة الرجاء وحسن الظن لان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق اسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه و يعين على تعجيل موته واما روح الرجاء فانه يقوى قلبه و يحبب اليه ربه الذى

---

(١) حديث ان حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين مسلم من حديث حذيفة فى اصحابى اثنا عشر منافقا ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط الحديث (٢) حديث ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه و بين الجنة الا شبر وفى رواية الا قدر فواق ناقة الحديث مسلم من حديث أبى هريرة ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار وللبزار والطبرانى فى الاوسط سبعين سنة واسناده حسن وللشيخين فى اثناء حديث لابن مسعود ان احدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها الا ذراع الحديث ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة

بالله وقد نبه (القائل) نظما على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله
وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من قعود المرء وحده

(الباب الرابع والخمسون فى أدب حقوق الصحبة والاخوة فى الله تعالى)

قال الله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى وقال تعالى وتواصوا بالحق وتواصوا بالمرحمة وقال فى وصف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق

اليه رجاؤه ولا ينبغي ان يفارق احد الدنيا الا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله تعالى فان من احب لقاء الله احب الله لقاءه والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والاعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة فان المصير اليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوب به عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الاهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والاصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته اذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه و بين مايشتهيه ولا يخفى حال من يحال بينه و بين مايشتهيه فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا اذا سجنه لان السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح الى محابه فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من افلت من السجن وخلى بينه و بين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا اول مايلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما اعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمانوا اليها من الانكال والسلاسل والاغلال وضروب الخزى والنكال فنسال الله تعالى ان يتوفانا مسلمين و يلحقنا بالصالحين ولا مطمع في اجابة هذا الدعاء الا باكتساب حب الله تعالى ولا سبيل اليه الا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالاولى ان ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم اذ قال(1) اللهم ارزقني حبك وحب من احبك وحب مايقربني الى حبك واجعل حبك احب الي من الماء البارد والغرض ان غلبة الرجاء عند الموت أصلح لانه اجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت اصلح لانه احرق لنار الشهوات واقمع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (2) لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بربه وقال تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه يابني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى القى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال احمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لي الاخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى الى نفسه ولذلك اوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام ان حببني الى عبادي فقال بماذا قال بان تذكرهم آلائي ونعمائي فاذا غاية السعادة ان يموت محبا لله تعالى وانما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين ابا سليمان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أفلت فلما اصبح سال عن حاله فقيل له انه مات البارحة

﴿ بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف ﴾

اعلم ان ماذكرناه في دواء الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض لان الصبر لا يمكن الا بعد حصول الخوف والرجاء لان أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى و باليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها الا بقوة الخوف ولذلك قال علي كرم الله وجهه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن اشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء الى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام و يؤدي دوام الذكر الى الانس ودوام الفكر الى كمال المعرفة ويؤدي كمال المعرفة والانس الى المحبة و يتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين وليس بعد أصل

(1) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من احبك الحديث الترمذي من حديث معاذ وتقدم في الاذكار والدعوات
(2) حديث لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بربه مسلم من حديث جابر وقد تقدم

الصحبة فمن اختار صحبة او اخوة فادبه في اول ذلك ان يسلم نفسه وصاحبه الى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع و يسال البركة في الصحبة فانه يفتح على نفسه بذلك اما بابا من ابواب الجنة واما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من ابواب الجنة قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقيل ان احد الاخوين في الله تعالى يقال له ادخل الجنة فيسال عن منزل فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى اخوه مثل منزله فان قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول اني كنت اعمل لي وله فيعطي جميع

اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر و به المجاهدة والتجرد لله ظاهرا و باطنا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق الا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة الا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذا فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول الخوف يحصل بطريقين مختلفين احدهما اعلى من الآخر ومثاله ان الصبي اذا كان في بيت فدخل عليه سبع او حية ربما لا يخاف وربما مد اليد الى الحية ليأخذها و يلعب بها ولكن اذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبي الى ابيه وهو ترتعد فرائصه و يحتال في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب فخوف الاب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع و بطشه وقلة مبالاته واما خوف الابن فايمان بمجرد التقليد لانه يحسن الظن بابيه و يعلم انه لا يخاف الا من سبب مخوف في نفسه فيعلم ان السبع مخوف ولا يعرف وجهه واذا عرفت هذا المثال فاعلم ان الخوف من الله تعالى على مقامين احدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فاما الخوف منه فهو خوف العلماء وارباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى و يحذركم الله نفسه وقوله عز وجل اتقوا الله حق تقاته واما الاول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل باصل الايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الايمان وانما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في اهوال يوم القيامة واصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة احوالهم فان فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تاثير واما الثاني وهو الاعلى فان يكون الله هو المخوف أعني ان يخاف البعد والحجاب عنه و يرجو القرب منه * قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ولعموم المؤمنين ايضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لابيه وذلك لا يستند الى بصيرة فلاجرم يضعف و يزول على قرب حتى ان الصبي ربما يرى المعزم يقدم على اخذ الحية فينظر اليه و يغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من اخذها تقليدا لابيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب الا اذا قويت بمشاهدة اسبابها المؤكدة لها على الدوام و بالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذا من ارتقى الى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج الى علاج لجلب الخوف كما ان من عرف السبع ورأى نفسه واقعا في مخالبه لا يحتاج الى علاج لجلب الخوف الى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء ام ابى ولذلك اوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام خفني كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري الا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالبه فلا يحتاج الى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف انه يفعل ما يشاء ولا يبالي و يحكم ما يريد ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وابعد ابليس من غير جريمة سالفة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي وان خطر ببالك انه لا يعاقب الا على معصية ولا يثيب الا على طاعة فتامل انه لم يمد المطيع باسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم ابى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة فان كان أبعده لانه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل الى غير نهاية او يقف لا محالة على اول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الازل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم اذ قال (١) احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى انت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته واسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم انت موسى الذي اصطفاك الله برسالته و بكلامه واعطاك الالواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجيا فبكم

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث ابي هريرة وهو متفق عليه.

ما يسأل لاخيه و يرفع اخوه الى درجته وان فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شرا فهو باب من ابواب النار قال الله تعالى و يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا وان كانت الآية وردت في قصة مشهورة ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصحبة والاخوة اتفاقا من غير نية في ذلك وتثبت في اول الامر شان ارباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كلام له وهل يفسد

وجدت

وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى باربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى
قال نعم قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتبه الله على قبل أن أعمله وقبل ان يخلقنى باربعين سنة قال صلى الله
عليه وسلم فحج آدم موسى فمن عرف السبب فى هذا الامر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص
العارفين المطلعين على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين و يحصل
لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع فى قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف فى مخالب السبع
والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة
بقدر معلوم لكن اذا اضيف الى من لا يعرفه سمى اتفاقا وان اضيف الى علم الله لم يجز ان يسمى اتفاقا والواقع فى
مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لان السبع مسخر ان سلط عليه الجوع افترس وان سلط عليه
الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست اقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع
بل اذا كشف الغطاء علم ان الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لان المهلك بواسطة السبع هو الله
فاعلم ان سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وان الله تعالى خلق اسباب العذاب واسباب الثواب وخلق لكل واحد اهلا
يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الازلى الى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها اهلا سخروا الاسبابها شاؤا ام ابو
وخلق النار وخلق لها اهلا سخروا الاسبابها شاؤا ام ابو فلا يرى احد نفسه فى ملتطم امواج القدر الا غلبه الخوف
بالضرورة فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتفاع الى مقام الاستبصار فسبيله ان يعالج
نفسه بسماع الاخبار والآثار فيطالع احوال الخائفين العارفين واقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب
الراجين المغرورين فلا يتمارى فى ان الاقتداء بهم اولى لانهم الانبياء والاولياء والعلماء واما الآمنون فهم
الفراعنة والجهال والاغبياء اما رسولنا صلى الله عليه وسلم (١) فهو سيد الاولين والآخرين (٢) وكان اشد
الناس خوفا حتى روي (٣) انه كان يصلى على طفل ففى رواية انه سمع فى دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب
النار وفى رواية ثانية (٤) انه سمع قائلا يقول هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك انه كذلك
والله انى رسول الله وما ادرى ما يصنع بى ان الله خلق الجنة وخلق لها اهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم وروى انه صلى
الله عليه وسلم قال ذلك ايضا على جنازة (٥) عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الاولين لما قالت ام سلمة هنيا
لك الجنة فكانت تقول ام سلمة بعد ذلك والله لا ازكى احدا بعد عثمان وقال محمد بن خولة الحنفية والله لا ازكى احدا
غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ابى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فاخذ يذكر من فضائل على ومناقبه
وروى فى حديث آخر عن (٦) رجل من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيا لك عصفور من عصافير الجنة

بالفاظ أخر (١) حديث كان سيد الاولين والآخرين مسلم من حديث ابى هريرة انا سيد ولد آدم ولا فخر الحديث
(٢) حديث كان اشد الناس خوفا تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله انى لاخشاكم لله وقوله والله انى
لاعلمهم بالله واشدهم له خشية (٣) حديث انه كان يصلى على طفل فسمع فى دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر
وعذاب النار الطبرانى فى الاوسط من حديث انس ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي اوصبية وقال لو كان احد
نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف فى اسناده فرواه فى الكبير من حديث ابى ايوب ان صبيا دفن فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لو افلت احد من ضمة القبر لافلت هذا الصبي (٤) حديث انه سمع قائلة تقول لطفل
مات هنيا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفى صبي فقلت
طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فغضب وقد تقدم (٥) حديث لما توفى عثمان بن مظعون قالت
ام سلمة هنيا لك الجنة الحديث البخارى من حديث ام العلاء الانصارية وهي القائلة رحمة الله عليك ابا السائب
فشهادتى عليك لقد اكرمك الله قال وما يدريك الحديث ووزدان التي قالت ذلك ام خارجة بن زيد ولم اجد فيه
ذكر ام سلمة (٦) حديث ان رجلا من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيأ له عصفور من عصافير الجنة

الناس الا الناس
فالفساد بالصحبة
متوقع والصلاح
متوقع وما هذا
سبيله كيف
لا يحذر فى أوله
ويحكم الامر
فيه بكثرة اللجا
الى الله تعالى
وصدق الاختيار
وسؤال البركة
والخيرة فى ذلك
وتقديم صلاة
الاستخارة ثم
ان اختيار
الصحبة والاخوة
عمل وكل عمل
يحتاج الى النية
والى حسن الخاتمة
وقد قال عليه
الصلاة والسلام
فى الخبر الطويل
سبعة يظلهم الله
تعالى فمنهم اثنان
تحابا فى الله فماشا
على ذلك وماتا
عليه اشارة الى
ان الاخوة
والصحبة من
شرطها حسن
الخاتمة حتى يكتب
لهما ثواب المؤاخاة
ومتى أفسد
المؤاخاة بتضييع

الحقوق فيها فسد العمل من الاول (قيل) ماحسد الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين فى الله متحابين فيه فانه يجهد نفسه ويحث قبيله على افساد مابينهما (وكان) الفضيل يقول اذا وقعت الغيبة ارتفعت الاخوة والاخوة فى الله تعالى مواجهة قال الله تعالى اخوانا على سرر متقابلين ومتى اضمر احدهما للآخر سوأ أو كره منه شيأ ولم ينهه عليه حتى يزيله او يتسبب الى ازالته منه فما واجهه بل استدبره (قال الجنيد) رحمه الله ماتواخى اثنان فى الله واستوحش احدهما من صاحبه الالعلة فى احدهما فالمؤاخاة

هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم ومايدريك لعله كان يتكلم بمالا ينفعه ويمنع مالا يضره وفى حديث آخر انه (١) دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيأ لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه التالية على الله تعالى فقال المريض هى أمى يارسول الله فقال ومايدريك لعل فلانا كان يتكلم بمالا يعنيه ويبخل بمالا يغنيه وكيف لايخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول (٢) شيبتنى هود واخواتها سورة الواقعة واذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الا بعاد كقوله تعالى ألا بعدا لعاد قوم هود ألا بعدا لثمود ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود مع علمه صلى الله عليه وسلم بانه لوشاء الله ما اشركوا اذ لوشاء لآتى كل نفس هداها وفى سورة الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة اما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا واما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى واذا الجحيم سعرت واذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت وفى عم يتساءلون يوم ينظر المرء ماقدمت يداه الآية وقوله تعالى لايتكلمون الامن اذن له الرحمن وقال صوابا والقرآن من اوله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولولم يكن فيه الاقوله تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى لكان كافيا اذ علق المغفرة على اربعة شروط يعجز العبد عن آحادها واشد منه قوله تعالى فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ان يكون من المفلحين وقوله تعالى ليسال الصادقين عن صدقهم وقوله تعالى سنفرغ لكم أيه الثقلان وقوله عز وجل افامنوا مكر الله الآية وقوله وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا الآيتين وقوله تعالى وان منكم الا واردها الآية وقوله اعملوا ماشئتم الآية وقوله من كان يريد حرث الاخرة نزدله فى حرثه الآية وقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره الآيتين وقوله تعالى وقدمنا الى ماعملوا من عمل الآية وكذلك قوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر الى آخر السورة فهذه اربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الانبياء مع ما فاض عليهم من النعم لانهم لم يامنوا مكر الله تعالى ولا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون حتى روى (٣) ان النبى وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فاوحى الله اليهما لم تبكيان وقد امنتكما فقالا ومن يامن مكرك وكانهما اذ علما ان الله هو علام الغيوب وانه لا وقوف لهما على غاية الامور لم يامنا ان يكون قوله قد امنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى ان سكن خوفهما ظهر انهما قد امنا من المكر وما وفيا بقولهما كما ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع فى المنجنيق قال حسبى الله وكانت هذه من الدعاوى العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء حتى قال ألك حاجة فقال اما اليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبى الله فاخبر الله تعالى عنه فقال وابراهيم الذى وفى اى بموجب قوله حسبى الله وبمثل هذا اخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال اننا نخاف أن يفرط علينا او يطغى قال لاتخافا اننى معكما اسمع وارى ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم اوجس موسى فى نفسه خيفة اذ لم يامن مكر الله والتبس الامر عليه حتى جدد عليه الامن وقيل له لاتخف انك انت الاعلى ولما ضعفت شوكة المسلمين (٤) يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

الحديث ابو يعلى من حديث انس بسند ضعيف بلفظ ان امه قالت هنيأ لك يابنى الجنة ورواه البيهقى فى الشعب الا انه قال فقالت امه هنيأ لك الشهادة وهو عند الترمذى الا انه قال ان رجلا قال له ابشر بالجنة وقد تقدم فى ذم المال والبخل مع اختلاف (١) حديث دخل على بعض اصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيأ له الجنة الحديث تقدم ايضا (٢) حديث شيبتنى هود واخواتها الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو فى الشمائل من حديث ابى جحيفة وقد تقدم فى كتاب السماع (٣) حديث انه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فاوحى الله اليهما لم تبكيان الحديث ابن شاهين فى شرح السنة من حديث عمر ورويناه فى مجلس من امالى ابى سعيد النقاش بسند ضعيف (٤) حديث قال يوم بدر اللهم ان تهلك هذه

اللهم

اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الارض أحد يعبدك فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لانه لا يصدر الا عن كمال المعرفة باسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعانى صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لاحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الامور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلت فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك وقال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم الآية فوض الامر الى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين لعلمه بانه ليس له من الامر شىء وان الامور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمالوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين اذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالى بك ان اهلكك فقد اهلك امثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بانواع الآلام والامراض ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ثم يخبر عنه ويقول ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين وقال تعالى وتمت كلمة ربك لاملان جهنم الآية فكيف لا يخاف ما حق من القول فى الازل ولا يطمع فى تداركه ولو كان الامر أنفا لكانت الاطماع تمتد الى حيلة فيه ولكن ليس الا التسليم فيه واستقراء خفى السابقة من جلى الاسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكانت كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة اذ كل ميسر لما خلق له وان كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف اشعالا ولا يمكنها من الانطفاء وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وان القلب اشد تقلبا من القدر فى غليانها وقد قال مقلب القلوب عز وجل ان عذاب ربهم غير مامون فاجهل الناس من امنه وهو ينادى بالتحذير من الامن ولولا ان الله لطف بعباده العارفين اذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف فاسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه اذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب قال بعض العارفين لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم اقطع له بالتوحيد لانى لا ادرى ما ظهر له من التقلب وقال بعضهم لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الاسلام لانى لا ادرى ما يعرض لقلبى بين باب الحجرة وباب الدار وكان ابو الدرداء يحلف بالله ما احد أمن على ايمانه ان يسلبه عند الموت الا سلبه وكان سهل يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى اذ قال وقلوبهم وجلة ولما احتضر سفيان جعل يبكى ويجزع فقيل له يا ابا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله اعظم من ذنوبك فقال او على ذنوبى ابكى لو علمت انى اموت على التوحيد لم ابال بان القى الله بامثال الجبال من الخطايا وحكى عن بعض الخائفين انه اوصى بعض اخوانه فقال اذا حضرتنى الوفاة فاقعد عند رأسى فان رأيتنى مت على التوحيد فخذ جميع ما املكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد وقل هذا عرس المنفلت وان مت على غير التوحيد فاعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من احب على بصيرة لئلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة قال وبم اعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه وكان سهل يقول المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى والعارف يخاف ان يبتلى

العصابة لم يبق على وجه الارض أحد يعبدك البخارى من حديث بن عباس بلفظ اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم

فى الله أصفى من الماء الزلال وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه وكل ما صفا دام والاصل فى دوام صفائه عدم المخالفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه (قال أبو سعيد الخراز) صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف فقيل له وكيف ذلك قال لانى كنت معهم على نفسى (أخبرنا) شيخنا أبو النجيب السهروردى اجازة قال أنا عمر ابن احمد الصفار قال انا ابو بكر أحمد بن خلف قال انا أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت عبد الله الدارانى قال سمعت أبا عمرو الدمشقى الرازى

بالـكفر وكان ابو يزيد يقول اذا توجهت الى المسجد كان فى وسطى زنارا اخاف ان يذهب بى الى البيعة وبيت النار حتى ادخل المسجد فينقطع عنى الزنار فهذا لى فى كل يوم خمس مرات وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام انه قال يامعشر الحواريين انتم تخافون المعاصى ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر وروى فى اخبار الانبياء ان نبيا شكا الى الله تعالى الجوع والقمل والعرى سنين وكان لباسه الصوف فاوحى الله تعالى اليه عبدى أما رضيت ان عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسالنى الدنيا فاخذ التراب فوضعه على رأسه وقال بلى قد رضيت يارب فاعصمنى من الـكفر فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ اقدامهم وقوة ايمانهم من سوء الخاتمة فـكيف لا يخافه الضعفاء ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والـكبر وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن لو اعلم انى برىء من النفاق كان احب الى مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذى هو ضد اصل الايمان بل المراد به ما يجتمع مع اصل الايمان فيكون مسلما منافقا وله علامات كثيرة قال صلى الله عليه وسلم (١) اربع من كن فيه فهو منافق خالص وان صلى وصام وزعم انه مسلم وان كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن خان واذا خاصم فجر وفى لفظ آخر واذا عاهد غدر وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شىء منه الا صديق اذ قال الحسن ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ومن الذى يخلوا عن هذه المعانى بل صارت هذه الامور مألوفة بين الناس معتادة ونسى كونها منكرا بالـكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة فـكيف الظن بزماننا حتى قال (٢) حذيفة رضى الله تعالى عنه ان كان الرجل ليتكلم بالـكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا انى لاسمعها من احدكم فى اليوم عشر مرات وكان (٣) اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون انكم لتعملون اعمالا هى ادق فى اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الـكبائر وقال بعضهم علامة النفاق ان تكره من الناس ماتاتى مثله وان تحب على شىء من الجور وان تبغض على شىء من الحق وقيل من النفاق انه اذا مدح بشىء ليس فيه اعجبه ذلك وقال (٤) رجل لابن عمر رحمه الله انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم فيما يقولون فاذا خرجنا تـكلمنا فيهم فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى انه (٥) سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال ارأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واشد من ذلك ماروى (٦) ان نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فـكانوا يتكلمون فى شىء من شانه فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه فقال تـكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين واسباب النفاق وكان يقول انه ياتى على القلب ساعة يمتلىء بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة ويأتى عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للايمان فيه مغرز ابرة فقد عرفت بهذا ان خوف العارفين من سوء الخاتمة وان سببه امور تتقدمه

الحديث (١) حديث اربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم فى قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة ان الرجل ليتكلم بالـكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا الحديث احمد من حديث حذيفة وقد تقدم فى قواعد العقائد (٣) حديث اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم لتعملون اعمالا هى ادق فى اعينكم من الشعر الحديث البخارى من حديث انس واحمد والبزار من حديث ابى سعيد واحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح اسناده وتقدم فى التوبة (٤) حديث قال رجل لابن عمر انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه احمد والطبرانى وقد تقدم فى قواعد العقائد (٥) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال ارأيت لو كان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم اجد فيه ذكر الحجاج (٦) حديث ان نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فـكانوا

يقول سمعت ابا عبد الله بن الجلاء يقول وقد ساله رجل على اى شرط اصحب الخلق فقال ان لم تبرهم فلا تؤذهم وان لم تسرهم فلا تسؤهم (وبهذا الاسناد) قال ابو عبد الله لا تضيع حق اخيك بما بينك وبينه من المودة والصداقة فان الله تعالى فرض لـكل مؤمن حقوقا لم يضيعها الا من لم يراع حقوق الله عليه ومن حقوق الصحبة انه اذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر اخاه الا بخير (قيل) كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها ما يكرهه فـكان يقال له استخبارا عن حالها فيقول لا ينبغى للرجل ان يقول فى اهله الاخيرا ففارقها وطلقها فاستخبر

منها

منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شئ من جملة ذلك وان ظن انه قد خلا عنه فهو النفاق اذ قيل من امن النفاق فهو منافق وقال بعضهم لبعض العارفين انى أخاف على نفسى النفاق فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات الى السابقة والخاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) العبد المؤمن بين مخافتين بين اجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه و بين اجل قد بقى لايدرى ما الله قاض فيه فو الذى نفسى بيده مابعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة او النار والله المستعان

﴿ بيان معنى سوء الخاتمة ﴾

فان قلت ان أكثر هؤلاء يرجع خوفهم الى سوء الخاتمة فما معنى سوء الخاتمة فاعلم ان سوء الخاتمة على رتبتين احداهما اعظم من الاخرى فاما الرتبة العظيمة الهائلة فان يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله اما الشك واما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود او الشك فيكون ماغلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه و بين الله تعالى أبدا وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد والثانية وهى دونها ان يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من امور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك فى قلبه و يستغرقه حتى لايبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا راسه الى الدنيا وصارفا وجهه اليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب اذ نار الله الموقدة لا تاخذ الا المحجوبين عنه فاما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه الى الله تعالى فتقول له النار جز يامؤمن فان نورك قد اطفا لهبي فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالامر مخطر لان المرء يموت على ماعاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة اخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه اذ لا تصرف فى القلوب الا باعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الاعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع الى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة الا ان اصل الايمان وحب الله تعالى اذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكد بالاعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان ايمانه فى القوة الى حد مثقال اخرجه من النار فى زمان أقرب وان كان اقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن الا مثقال حبة فلابد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين فان قلت فما ذكرته يقتضى ان تسرع النار اليه عقيب موته فما باله يؤخر الى يوم القيامة و يمهل طول هذه المدة فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القران ونور الايمان بل الصحيح عند ذوى الابصار ماصحت به الاخبار وهو أن (٢) القبر اماحفرة من حفر النار او روضة من رياض الجنة (٣) وانه قد يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم كما وردت به الاخبار فلا تفارقه روحه الا وقد نزل به البلاء ان كان قد شقى بسوء الخاتمة وانما تختلف أصناف العذاب باختلاف الاوقات فيكون (٤) سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر (٥) والتعذيب بعده ثم (٦) المناقشة فى الحساب (٧) والافتضاح

يتكلمون فى شئ من شانه فلما خرج سكتوا الحديث لم أجد له اصلا (١) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من اجل قد مضى الحديث البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم فى ذم الدنيا ذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس (٢) حديث القبر اماحفرة من حفر النار او روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الاذكار (٣) حديث انه يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم لم أجد له اصلا (٤) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٥) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٦) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٧) حديث الافتضاح على ملا الاشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من انتفى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رؤس الاشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر واما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤس الخلائق هؤلاء الذين

عن ذلك فقال امرأة بعدت عنى وليست منى فى شئ كيف أذكرها وهذا من التخلق باخلاق الله تعالى انه سبحانه يظهر الجميل و يستر القبيح واذا وجد من احدهما مايوجب التقاطع فهل يبغضه أولا اختلف القول فى ذلك كان ابو ذر يقول اذا انقلب عما كان عليه ابغضه من حيث أحببته وقال غيره لا يبغض الاخ بعد الصحبة ولكن يبغض عمله قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون ولم يقل انى برىء منكم (وقيل) كان شاب يلازم مجالس أبى الدرداء وكان ابو الدرداء يميزه على غيره فابتلى

على ملا من الاشهاد فى القيامة ثم بعد ذلك (١) خطر الصراط (٢) وهو ان الزبانية الى آخر ماوردت به الاخبار فلا يزال الشقى مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الاحوال معذب الا ان يتغمده الله برحمته ولا تظنن أن محل الايمان يا كله التراب بل التراب يا كل جميع الجوارح و يبددها الى أن يبلغ الكتاب اجله فتجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد اليها الروح التى هى محل الايمان وقد كانت من وقت الموت الى الاعادة اما فى حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش ان كانت سعيدة واما على حالة تضاد هذه الحال ان كانت والعياذ بالله شقية فان قلت فما السبب الذى يفضى الى سوء الخاتمة فاعلم ان اسباب هذه الامور لا يمكن احصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الاشارة الى مجامعها اما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح فى الاعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وان كانت أعماله صالحة ولست أعنى مذهبا فاقول انه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل أعنى بالبدعة ان يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ماهو عليه اما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يعول و به يغتر واما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا اذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادى سكراته منه فقد ينكشف به بعض الامور فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه انه اخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه الى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن ان كل ما اعتقده لا اصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل ان يثبت و يعود الى أصل الايمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى و بدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون و بقوله عز وجل قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وكما أنه قد ينكشف فى النوم ما سيكون فى المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف فى سكرات الموت بعض الامور اذ شواغل الدنيا وشهوات البطن هى المانعة للقلب من ان ينظر الى الملكوت فيطالع ما فى اللوح المحفوظ لتنكشف له الامور على ماهى عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك فى بقية الاعتقادات وكل من اعتقد فى الله تعالى وفى صفاته وأفعاله شيا على خلاف ماهو به اما تقليدا واما نظرا بالرأى والمعقول فهو فى هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفى لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه الا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر اعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايمانا مجملا راسخا كالاعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ولا صغوا الى اصناف المتكلمين فى تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) أكثر أهل الجنة البله ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض فى الكلام والتفتيش عن هذه الامور وأمروا الخلق ان يقتصروا على ان يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا و بكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفى التشبيه ومنعوهم عن الخوض فى التاويل لان الخطر فى البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤدة ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة

الشاب بكبيرة من الكبائر وانتهى الى ابى الدرداء ما كان منه فقيل له لو ابعدته وهجرته فقال سبحان الله لايترك الصاحب بشئ كان منه (قيل) الصداقة لحمة كلحمة النسب (وقيل) لحكيم مرة أيما احب اليك اخوك او صديقك فقال انما احب أخى اذا كان صديق وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهرا وباطنا وأما الملازمة باطنا اذا وقعت المباينة ظاهرا فتختلف باختلاف الاشخاص ولا يطلق القول فيه اطلاقا من غير تفصيل فمن الناس من كان تغيره رجوعا عن الله وظهور حكم سوء السابقة فيجب بغضه وموافقة

كذبوا على ربهم والطبرانى والعقيلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا اهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر (١) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٢) حديث هو ان الزبانية الطبرانى من حديث انس الزبانية يوم القيامة اسرع الى فسقة حملة القرآن منها الى عبدة الاوثان والنيران قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلا فى خزنة جهنم ما بين منكبي احدهم كما بين المشرق والمغرب (٣) حديث اكثر اهل الجنة البله البزار من حديث أنس وقد تقدم

وما

وماذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقى اليها فى مبدأ النشاة آلفة و به متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين فى اول الامر ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول مع تفاوت الناس فى قرائحهم واختلافهم فى طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على ان يدعى الكمال اوالاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين اليهم وتأكد ذلك بطول الالف فيهم فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق فى ان يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وانه صفو الايمان و يظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ولتعلمن نبأه بعد حين و ينبغي أن ينشد فى هؤلاء عند كشف الغطاء

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها * وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا ان كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض فى البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو فى ملتطم الامواج يرميه موج الى موج فربما يتفق أن يلقيه الى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغلب وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم امامع الادلة التى حرروها فى تعصباتهم أودون الادلة فانه ان كان شاكا فيه فاسد الدين وان كان واثقا به فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض فى البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين الا اذا جاوز حدود المعقول الى نور المكاشفة الذى هو مشرق فى عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الاحمر وانى يتيسر وانما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا فى هذا الفضول فهذا أحد الاسباب المخطرة فى سوء الخاتمة * وأما السبب الثانى فهو ضعف الايمان فى الاصل استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى الامن حيث حديث النفس ولا يظهر له اثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب و يقسو و يسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطفىء ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهى المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا و يرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث انه من فتح الله فيخشى ان يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما ان الذى يحب ولده حبا ضعيفا اذا أخذ ولده أمواله التى هى أحب اليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذى يفضى الى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون اليها والفرح باسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وان كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم اصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى اذ لا يحبه الامن عرفه ولهذا قال تعالى قل أن كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره فاذا كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله بقلبه بينه و بين اهله وماله وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا

الحق فيه ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت يرجى عوده فلا ينبغى ان يبغض ولكن يبغض عمله فى الحالة الحاضرة و يلحظ بعين الود منتظرا له الفرج والعود الى أوطان الصلح فقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذى أتى بفاحشة قال مه وزجرهم بقوله ولا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم (وقال) ابراهيم النخعى لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فانه يركبه اليوم و يتركه غدا (وفى الخبر) اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته (وروى) أن عمر رضى الله عنه

لما احبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق اذا قدم به على مولاه قهرا فلايخفى مايستحق من الخزى والنكال ومالذى يتوفى على الحب فانه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه الذى تحمل مشتاق الاعمال ووعثاء الاسفار طمعافى لقائه فلايخفى مايلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الاكرام و بدائع الانعام (واماالخاتمة الثانية) التى هى دون الاولى وليست مقتضية للخلود فى النار فلهاأيضاسببان احدهما كثرة المعاصى وان قوى الايمان والآخر ضعف الايمان وان قلت المعاصى وذلك لان مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخهافى القلب بكثرة الالف والعادة وجميع ماالفه الانسان فى عمره يعود ذكره الى قلبه عند موته فان كان ميله الاكثر الى الطاعة كان اكثر مايحضره ذكر طاعة الله وان كان ميله الاكثر الى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى فيتقيد بهاقلبه و يصير محجوبا عن الله تعالى فالذى لايقارف الذنب الا الفئة بعد الفئة فهو أبعد عن هذا الخطر والذى لم يقارف ذنبا اصلافهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذى غلبت عليه المعاصى وكانت اكثر من طاعاته وقلبه بها افرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهوانه لايخفى عليك ان الانسان يرى فى منامه جملة من الاحوال التى عاهدها طول عمره حتى انه لا يرى الامايماثل مشاهداته فى اليقظة وحتى ان المراهق الذى يحتلم لا يرى صورة الوقاع اذا لم يكن قدواقع فى اليقظة ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لايخفى ان الذى قضى عمره فى الفقه يرى من الاحوال المتعلقة بالعلم والعلماء اكثر ممايراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة والتاجر يرى من الاحوال المتعلقة بالتجارة واسبابها اكثر ممايراه الطبيب والفقيه لانه انمايظهر فى حالة النوم ماحصل له مناسبة مع القلب بطول الالف او بسبب آخر من الاسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت ومايتقدمه من الغشية قريب من النوم فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعودة الى القلب واحد الاسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب طول الالف فطول الالف بالمعاصى والطاعات ايضا مرجح وكذلك تخالف ايضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الالف سببا لان تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل اليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وان كان اصل الايمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما ان مايخطر فى اليقظة انمايخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها اسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها كما انا نعلم ان الخاطر ينتقل من الشىء الى ماينا سبه امابالمشابهة وامابالمضادة وامابالمقارنة بان يكون قدورد على الحس منه امابالمشابهة فبان ينظر الى جميل فيتذكر جميلا آخر وامابالمضادة فبان ينظر الى جميل فيتذكر قبيحا و يتألم فى شدة التفاوت بينهما وامابالمقارنة فبان ينظر الى فرس قدرآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان وقد ينتقل الخاطر من شىء الى شىء ولا يدرى وجه مناسبته له وانمايكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل ان ينتقل من شىء الى شىء ثان ومنه الى شىء ثالث ثم ينسى الثانى ولا يكون بين الثالث والاول مناسبة ولكن يكون بينه و بين الثانى مناسبة و بين الثانى والاول مناسبة فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات اسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الخياطة اكثر اشغاله فانك تراه يومىء الى رأسه كانه ياخذ ابرته ليخيط بها و يبل اصبعه التى لها عادة بالكستبان و ياخذ الازار من فوقه و يقدره و يصبره كانه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده الى المقراض ومن اراد ان يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصى والشهوات فلا طريق له الا المجاهدة طول العمر فى فطامه نفسه عنها وفى قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذى يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت المرء على ماعاش عليه و يحشر على مامات عليه ولذلك نقل عن بقال انه كان يلقن عند الموت كلمتى الشهادة فيقول خمسة ستة اربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذى طال الفه له قبل الموت وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهرة تتلألا نورا فلايكون العبد على حال الا انطبع

سأل عن اخ له كان اخاه فخرج الى الشام فسال عند بعض من قدم عليه فقال مافعل أخى فقال له ذاك اخوه الشيطان قال له مه قال له انه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر فقال اذا اردت الخروج فآذنى قال فكتب اليه حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر فتاب ورجع وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم راى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فساله فقال يارسول الله آخيت رجلافانا أطلبه ولا اراه فقال ياعبد الله اذا آخيت أحدا

مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فاذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيا خذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف وماذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك مايكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فاذا رجع سوء الخاتمة الى احوال القلب واختلاط الخواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وان كان لطول الالف فيه تاثير فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لانه لو اراد الانسان أن لا يرى في المنام الا أحوال الصالحين واحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وان كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وان كان الغالب مناسبة مايظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا على الفارمذى رحمه الله عليه يصف لي وجوب حسن ادب المريد لشيخه وان لا يكون في قلبه انكار لكل مايقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخى أبي القاسم الكرماني مناما لي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك الاعلى ماغلب عليه في يقظته ولا يستيقظ الاعلى ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء الاعلى ماعاش عليه ولا يحشر الاعلى مامات عليه وتحقق قطعا ويقينا ان الموت والبعث حالتان من احوالك كما ان النوم واليقظة حالتان من احوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ان لم تكن اهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك واياك ان تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف اذا لم تفعل والناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم واعلم ان ذلك لا يتيسر لك مالم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من المطعم مايقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي ان يكون تناولك تناول مضطر كاره ولا تكون رغبتك فيه اكثر من رغبتك في قضاء حاجتك اذ لا فرق بين ادخال الطعام في البطن واخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي بروح العبد المؤمن وقدمات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوما يبكي فقيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زمانا فالآن نبكي على الاسلام وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الامواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن اشد اضطرابا من السفينة وامواج الخواطر اعظم التطاما من امواج البحر وانما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب ولا يتسع فواق الناقة لاعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كاني ادخلت الجنة فرأيت ثلثمائة نبي فسالتهم ما اخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجاءة مكروها اما الموت فجاة فلانه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن امثاله الا ان يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة واما الشهادة فلانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والاهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب اذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت الاحبا لله وطلبا لمرضاته وبائعا دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به اذ قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الاحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا

فساله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان كان مريضا عدته وان كان مشغولا أعنته وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما ما اختلف رجل الى مجلسي ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلمت مامكافاته في الدنيا وكان يقول سعيد بن العاص لجليسي على ثلاث اذا دنا رحبت به واذا حدث أقبلت عليه واذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى ان لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق او احسان فان ما كان معلولا يزول بزوال علته ومن لا يستند في خلته الى علة محكم بدوام خلته ومن شرط الحب في الله ايثار الاخ بكل ما يقدر عليه

(١) حديث ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة خمسين سنة الحديث تقدم

(١) فيمن يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فان من هذا حاله وان قتل فى المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الاخبار واذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى واخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصى ومشاهدة اهلها جهدك فان ذلك أيضا يؤثر فى قلبك ويصرف اليه فكرك وخواطرك واياك ان تسوف وتقول ساستعد لها اذا جاءت الخاتمة فان كل نفس من انفاسك خاتمتك اذ يمكن ان تختطف فيه روحك فراقب قلبك فى كل تطريفة واياك ان تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك اذ يمكن ان تختطف فيها روحك هذا مادمت فى يقظتك واما اذا نمت فاياك ان تنام الا على طهارة الظاهر والباطن وان يغلبك النوم الا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست اقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الاثر واعلم قطعا انه لا يغلب عند النوم على قلبك الا ما كان قبل النوم غالبا عليه وانه لا يغلب فى النوم الا ما كان غالبا قبل النوم ولا ينبعث عن نومك الا ما غلب على قلبك فى نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد الا على ما غاب عليه فى يقظته ولا يستيقظ الا على ما كان عليه فى نومه فكذلك لا يموت المرء الا على ماعاش عليه ولا يحشر الا على مامات عليه وتحقق قطعا و يقينا ان الموت والبعث حالتان من احوالك كما ان النوم واليقظة حالتان من احوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ان لم تكن اهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب انفاسك ولحظاتك واياك ان تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك فى خطر عظيم فكيف اذا لم تفعل والناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم واعلم ان ذلك لا يتيسر لك مالم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقى كله فضول والضرورة من المطعم مايقيم صلبك و يسد رمقامك فينبغى ان يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه اكثر من رغبتك فى قضاء حاجتك اذ لا فرق بين ادخال الطعام فى البطن واخراجه فهما ضرورتان فى الجبلة وكما لا يكون اقضاء الحاجة من همتك التى يشتغل بها قلبك فلا ينبغى ان يكون تناول الطعام من همتك واعلم انه ان كان همتك مايدخل بطنك فقيمتك مايخرج من بطنك واذا لم يكن قصدك من الطعام الا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر فى ثلاثة أمور من ما كولك فى وقته وقدره وجنسه اما الوقت فاقله ان يكتفى فى اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم واما قدره فبان لا يزيد على ثلث البطن واما جنسه فان لا يطلب لذائذ الاطعمة بل يقتنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤنة الشهوات اللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وامكنك ان لا تاكل الا من حله فان الحلال يعزولا يفى بجميع الشهوات واما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل مادفع البرد عن راسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك و يلزمك الشغل الدائم والعناء القائم فى تحصيله بالكسب مرة والطمع اخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ماتدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ماحصل مقصود اللباس ان لم تكتف به فى خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يملأ بطنه الا التراب وكذلك المسكن ان اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والارض مستقرا فان غلبك حرأو برد فعليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف اليه اكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم ان تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك و بين الابصار ومن السقف سوى كونه دافعا

من امر الدين والدنيا قال الله تعالى يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة فقوله تعالى لا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا اى لا يحسدون اخوانهم على مالهم وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة احدهما انتزاع الحسد على شىء من امر الدين والدنيا والثانى الايثار بالمقدور وفى (الخبر) عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام المرء على دين خليله ولا خير لك فى صحبة من لا يرى لك مثل مايرى لنفسه (وكان) يقول ابو معاوية الاسود اخوانى كلهم

(١) حديث المقتول فى الحرب اذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث ابى موسى الاشعرى ان رجلا قال يارسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وفى رواية الرجل يقاتل شجاعة و يقاتل حمية و يقاتل رياء وفى رواية يقاتل غضبا

للامطار فاخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت فى مهواة يبعد رقيك منها وهكذا جميع ضرورات أمورك ان اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك وان جاوزت حد الضرورة الى اودية الامانى تشعبت همومك ولم يبال الله فى اى واد اهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو احوج الى النصيحة منك واعلم ان متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فاذا ادفعته يوما بيوم فى تسويفك اوغفلتك اختطفت فجأة فى غير وقت ارادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لاتقدر على ملازمة ماأرشدت اليه بضعف خوفك اذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية فى تخويفك فانا سنورد عليك من احوال الخائفين مانرجو ان يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق ان عقل الانبياء والاولياء والعلماء وعلمهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتامل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك واحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يادهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخر ميتا على الارض ولاغرو ان كان ذلك لايؤثر فى قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة اواشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون

(بيان احوال الانبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فى الخوف)

روت (١) عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا تغير الهواء وهبت ريح عاصف يتغير وجهه فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله (٢) وقرأ صلى الله عليه وسلم آية فى سورة الواقعة فصعق وقال تعالى وخر موسى صعقا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) صورة جبريل عليه السلام بالابطح فصعق وروى انه عليه السلام (٤) كان اذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره ازيز كازيز المرجل وقال صلى الله عليه وسلم (٥) ماجاءنى جبريل قط الا وهو يرعد فرقا من الجبار وقيل لما ظهر على ابليس ماظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فاوحى الله اليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء فقالا يارب ماناٰمن مكرك فقال الله تعالى هكذا كونا لاتامنا مكرى وعن محمد بن المنكدر قال لما خلقت النار طارت افئدة الملائكة من اماكنها فلما خلق بنو آدم عادت وعن (٦) أنس انه عليه السلام سأل جبريل مالى لاارى ميكائيل يضحك فقال جبريل ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار ويقال ان لله تعالى ملائكة لم يضحك احدهم منذ خلقت النار مخافة ان يغضب الله عليهم

---

(١) حديث عائشة كان اذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث فى سورة الحاقة فصعق المعروف فيما يروى من هذه القصة انه قرىء عنده ان الدنيا انكالا وجحيما وطعاما ذاغصة وعذابا اليما فصعق كما رواه ابن عدى والبيهقى فى الشعب مرسلا وهكذا ذكره المصنف على الصواب فى كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث انه رأى صورة جبريل بالابطح فصعق البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل ان يراه فى صورته فقال ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ فغشى عليه وفى الصحيحين عن عائشة رأى جبريل فى صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له ستمائة جناح (٤) حديث كان اذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كازيز المرجل ابو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث عبد الله ابن الشخير تقدم فى كتاب السماع (٥) حديث ماجاءنى جبريل قط الا وهو ترعد فرائصه من الجبار لم اجد هذا اللفظ وروى ابو الشيخ فى كتاب العظمة عن ابن عباس قال ان جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن سماك الحنفى يحتاج الى معرفته (٦) حديث أنس انه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لاارى ميكائيل يضحك فقال ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين فى السنة من حديث ثابت مرسلا وورد ذلك فى حق اسرافيل رواه البيهقى فى الشعب وفى حق جبريل رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين

خيرمنى قيل وكيف ذاك قال كلهم يرى لى الفضل عليه ومن فضلنى على نفسه فهو خيرمنى ولبعضهم نظما

تذلل لمن ان تذللت له يرى ذاك للفضل لا للبله وجانب صداقة من لم يزل على الاصدقاء يرى الفضل له

(الباب الخامس والثلاثون فى آداب الصحبة والاخوة)

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة فقال حفظ حرمات المشايخ وحسن العشرة مع الاخوان والنصيحة للاصاغر وترك صحبة من ليس فى طبقتهم وملازمة الايثار ومجانبة الادخار والمعاونة فى امر الدين والدنيا فمن أدبهم التغافل عن زلل الاخوان

فيعذبهم بها وقال (١) ابن عمر رضي الله عنهما خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الانصار فجعل يلتقط من التمر ويا كل فقال يا ابن عمر مالك لاتا كل فقلت يارسول الله لا اشتهيه فقال لكني اشتهيه وهذا صبح رابعة لم اذق طعاما ولم اجده ولو سالت ربي لاعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبؤن رزق سنتهم و يضعف اليقين في قلوبهم قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت وكاين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يامركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله الا واني لا اكنز دينارا ولا درهما ولا اخبا رزقا لغد * وقال ابو الدرداء كان يسمع ازيز قلب ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم اذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه وقال مجاهد بكى داود عليه السلام اربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فنودي ياداود اجائع انت امظمآن فتسقى امعار فتكسى فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ثم انزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره الا رآها فابكته قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فاذا تناوله ابصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه و يروى عنه عليه السلام انه ما رفع رأسه الى السماء حتى مات حياء من الله عزوجل وكان يقول في مناجاته الهي اذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الارض برحبها واذا ذكرت رحمتك ارتدت الي روحي سبحانك الهي اتيت اطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني فبؤسا للقانطين من رحمتك * وقال الفضيل بلغني ان داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت اليه السباع فقال ارجعوا لا اريدكم انما اريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني الا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء وكان يعاقب في كثرة البكاء فيقول دعوني ابكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتعال الحشا وقبل ان يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم و يفعلون ما يؤمرون وقال عبد العزيز بن عمر لما اصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال الهي بح صوتي في صفاء اصوات الصديقين وروى انه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب اما ترحم بكائي فاوحى الله تعالى اليه ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال الهي وسيدي كيف انسى ذنبي وكنت اذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح واظلني الطير على رأسي وأنست الوحوش الى محرابي الهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني و بينك فاوحى الله تعالى اليه ياداود ذلك انس الطاعة وهذه وحشة المعصية ياداود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي و نفخت فيه من روحي واسجدت له ملائكتي والبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري وشكالي الوحدة فزوجته حواء امتي واسكنته جنتي عصاني فطردته عن جواري عريانا ذليلا ياداود اسمع مني والحق اقول اطعتنا فاطعناك وسألتنا فاعطيناك وعصيتنا فامهلناك وان عدت الينا على ما كان منك قبلناك * وقال يحيى بن ابي كثير بلغنا ان داود عليه السلام كان اذا اراد ان ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا ياكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فاذا كان قبل ذلك بيوم اخرج له المنبر الى البرية فامر سليمان ان ينادي بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي فيها الا من اراد ان يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتاتي السباع من الغياض وتاتي الهوام من الجبال وتاتي الطير من الاوكار وتاتي العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم و ياتي داود حتى يرقى المنبر و يحيط به بنو اسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم

والنصح فيما يجب فيه النصيحة وكم عيب صاحبه واطلاعه على عيبي يعلم منه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه رحمه الله امرأ اهدى الي عيوبي وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه قال جعفر بن برقان قال لي ميمون بن مهران قل لي في وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى لا يقول له في وجهه ما يكرهه فان الصادق يحب من يصدقه والكاذب لا يحب الناصح قال الله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين والنصيحة ما كانت في السر * ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الاخوان واحتمال الاذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير

(١) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الانصار فجعل يلتقط من التمر و يا كل الحديث. ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا اسناد مجهول والجراح بن منهال ضعيف

على رأسه فياخذ فى الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم ياخذ فى ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ فى أهوال القيامة وفى النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فاذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بنى اسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ فى الدعاء فبيناهو كذلك اذناداه بعض عباد بنى اسرائيل ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مغشيا عليه فاذا نظر سليمان الى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليات بسرير فليحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تاتى بالسرير وتحمل قريبها وتقول يامن قتله ذكر النار يامن قتله خوف الله ثم اذا أفاق داود وقام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه و يقول ياالٰه داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجى ربه فيأتى سليمان و يقعد على الباب و يستاذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول ياأبتاه تقو بهذا على ماتريد فيا كل من ذلك القرص ماشاء الله ثم يخرج الى بنى اسرائيل فيكون بينهم * وقال يزيد الرقاشى خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم و يخوفهم فخرج فى أربعين الفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع الا فى عشرة آلاف قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى اذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة ان تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت * وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت وهو ابن ثمان حجج فنظر الى عبادهم قدلبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر الى مجتهديهم قدخرقوا التراقى وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم الى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع الى أبويه فمر بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا نلعب فقال انى لم أخلق للعب قال فاتى ابويه فسالهما ان يدرعاه الشعر ففعلا فرجع الى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا و يصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمسة عشر سنة فخرج ولزم اطواد الارض وغيران الشعاب فخرج ابواه فى طلبه فادركاه على بحيرة الاردن وقد أنقع رجليه فى الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى اعلم أين مكانى منك فساله أبواه ان يفطر على قرص كان معهما من شعير و يشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح فى بالبر فرده ابواه الى بيت المقدس فكان اذاقام يصلى بكى حتى يبكى معه الشجر والمدر و يبكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يبكى حتى خرقت دموعه لحم خديه و بدت اضراسه للناظرين فقالت له امه يابنى لو أذنت لى ان اتخذ لك شيا توارى به أضراسك عن الناظرين فاذن لها فعمدت الى قطعتى لبود فالصقتهما على خديه فكان اذاقام يصلى بكى فاذا استنقعت دموعه فى القطعتين اتت اليه امه فعصرتهما فاذا رأى دموعه تسيل على ذراعى امه قال اللهم هذه دموعى وهذه امى وانا عبدك وأنت ارحم الراحمين فقال له زكريا يوما يابنى انما سالت ربى ان يهبك لى لتقر عيناى بك فقال يحيى ياابت ان جبريل عليه السلام اخبرنى ان بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها الا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يابنى فابك * وقال المسيح عليه السلام معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة و يباعدان من الدنيا بحق اقول لكم ان أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل * وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه اذاذكر خطيئة يغشى عليه و يسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل فياتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام و يقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول ياجبريل انى اذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى فهذه احوال الانبياء عليهم السلام فدونك والتامل فيها فانهم اعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم اجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل

(بيان احوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين فى شدة الخوف)

روى ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه قال لطائر ليتنى مثلك ياطائر ولم اخلق بشرا وقال ابوذر رضى الله عنه وددت لو انى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة وقال عثمان رضى الله عنه وددت انى اذا مت لم ابعث وقالت عائشة رضى الله عنها وددت انى كنت نسيا منسيا وروى ان عمر رضى الله عنه كان يسقط من الخوف اذا سمع آية من القران مغشيا

روى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه امر بقلع ميزاب كان فى دار العباس بن عبد المطلب الى الطريق بين الصفا والمروة فقال له العباس قلعت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بيده فقال اذا لا يرده الى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر فاقامه على عاتقه ورده الى موضعه ومن أدبهم ان لا يرون لنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم ابن شيبان كنا لا نصحب من يقول نعلى (أخبرنا) بذلك رضى الدين عن ابى المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال سمعت أبا حاتم الصوفى قال سمعت أبا نصر السراج

عليه فكان يعادايام واخذيوما تبنة من الارض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم اك شيا مذكورا ياليتني كنت نسيا منسيا ياليتني لم تلدني امي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان اسودان من الدموع وقال رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع مايريد ولولا يوم القيامة لكان غيرماترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه اذا الشمس كورت وانتهى الى قوله تعالى واذا الصحف نشرت خر مغشيا عليه ومر يوما بدار انسان وهو يصلي ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع نزل عن حماره واستند الى حائط ومكث زمانا ورجع الى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون مامرضه وقال علي كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كابة وهو يقلب يده لقد رايت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم ار اليوم شيا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا بين اعينهم امثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم واقدامهم فاذا اصبحوا ذكروا الله تمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت اعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فكاني بالقوم باتوا غافلين ثم قام فمارؤي بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وقال عمران بن حصين وددت اني اكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف وقال ابو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وددت اني كبش فيذبحني اهلي فيا كلون لحمي ويحسنون مرقي وكان علي بن الحسين رضي الله عنه اذا توضا اصفر لونه فيقول له اهله ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول اتدرون بين يدي من اريد ان اقوم وقال موسي ابن مسعود كنا اذا جلسنا الى الثوري كان النار قد احاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القارئ يوما هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه فلما افاق قال وعزتك لا عصيتك جهدا ابدا فاعني بتوفيقك على طاعتك وكان المسور بن مخرمة لايقوى ان يسمع شيا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والاية فيصيح الصيحة فما يعقل اياما حتى اتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقال انا من المجرمين ولست من المتقين اعد على القول ايها القارئ فاعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة وقرئ عند يحيى البكاء ولوترى اذ وقفوا على ربهم فصاح صيحة مكث منها مريضا اربعة اشهر يعاد من اطراف البصرة وقال مالك بن دينار بينما انا اطوف بالبيت اذا انا بجويرية متعبدة متعلقة باستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها يارب اما كان لك ادب وعقوبة الا النار وتبكي فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا اقول ثكلت مالكا امه وروى ان الفضيل روي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى اذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه الى السماء وقال واسوأتاه منك وان غفرت ثم انقلب مع الناس وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف قرحة واعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر امامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا موقفنا ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يافتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري الى الجنة تصير ام الى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فمارؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكا وكان حماد بن عبد ربه اذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمانت فيقول تلك جلسة الآمن أنا غير آمن اذ اعصيت الله تعالى وقال عمر بن عبد العزيز انما اجمل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى وقال مالك بن دينار لقد هممت اذا انا مت آمرهم ان يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي الى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق الى سيده وقال حاتم الاصم لا تغتر بموضع صالح فلامكان اصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها مالقي ولا تغتر بكثرة العبادة فان ابليس بعد طول تعبده لقي مالقي ولا تغتر بكثرة العرفان بلعام كان يحسن اسم الله الاعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه اقاربه واعداؤه وقال السري اني لانظر الى انفي كل يوم مرات مخافة ان يكون قد اسود وجهي

يقول ذلك وقال احمد بن القلانسي دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فاكرموني وبجلوني فقلت يوما لبعضهم اين ازاري فسقطت من اعينهم (وكان) ابراهيم ابن أدهم اذا صحبه انسان شارطه على ثلاثة اشياء ان تكون الخدمة والاذان له وان تكون يده في جميع مايفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من اصحابه انا لا اقدر على هذا فقال اعجبني صدقك (وكان) ابراهيم ابن ادهم ينظر البساتين ويعمل في الحصاد وينفق على اصحابه (وكان) من اخلاق السلف ان كل من احتاج الى شيء من مال اخيه استعمله

وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي ان الله ينظر الى نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال اني اجترأت على الله البارحة سألته الجنة وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها يابني اني أعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع في ليلك ونهارك فقال ياأماه مايؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع علي وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال وعزتي وجلالي لا غفرت لك وقال الفضيل اني لا أغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة انما أغبط من لم يخلق وروى (١) ان فتى من الانصار دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا فقال صلى الله عليه وسلم جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده وروى عن ابن ميسرة أنه كان اذا أوى الى فراشه يقول ياليت أمي لم تلدني فقالت له أمه ياميسرة ان الله تعالى قد أحسن اليك هداك الى الاسلام قال اجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شئ بلغك عن بني اسرائيل فقال بلغني انه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا انما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيا فقال ان خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة و يقال انه مارفع رأسه الى السماء ولا ضحك أربعين سنة وانه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ وكان اذا أصابتهم ريح او برق او غلاء طعام قال هذا من اجلي يصيبهم لو مات عطاء لاستراح الناس وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت اقدامهم من طول القيام وغارت اعينهم في رؤوسهم ولصقت جلودهم على عظامهم و بقيت العروق كأنها الاوتار يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف اهان العاصين فبيناهم يمشون اذ مر احدهم بمكان فخر مغشيا عليه فجلس اصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاؤا بماء فمسحوا وجهه فافاق وسألوه عن امره فقال اني ذكرت اني كنت عصيت الله في ذلك المكان وقال صالح المري قرأت على رجل من المتعبدين يوم تقلب وجوههم في النار فيقولون ياليتنا أطعنا الله واطعنا الرسولا فصعق ثم أفاق فقال زدني ياصالح فاني أجد غما فقرأت كلما ارادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها فخر ميتا وروى ان زرارة بن ابى اوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ فاذا نقر في الناقور خر مغشيا عليه فحمل ميتا * ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظني يايزيد فقال ياأمير المؤمنين اعلم انك لست أول خليفة يموت فبكى ثم قال زدني قال ياأمير المؤمنين ليس بينك و بين آدم أب الا ميت فبكى ثم قال زدني يايزيد فقال ياأمير المؤمنين ليس بينك و بين الجنة والنار منزل فخر مغشيا عليه وقال ميمون بن مهران (٢) لما نزلت هذه الآية وان جهنم لموعدهم اجمعين صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة ايام لايقدرون عليه ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول ياابناه ليت شعري اي خديك بدأ به الدود اولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ماعلمت ان في الملة الحنيفية مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل ان يفتح علي بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلي فقلت يارب على قدر ماأطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم احدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه اشار الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ان فتى من الانصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت الحديث ابن ابي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر (٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وان جهنم لموعدهم اجمعين صاح سلمان الفارسي لم اقف له على اصل

من غير مؤامرة قال الله تعالى وأمرهم شورى بينهم أي مشاع هم فيه سواء ومن أدبهم أنهم اذا استثقلوا صاحبا يتهمون أنفسهم ويتسببون في ازالة ذلك من بواطنهم لان انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصحبة * قال أبو بكر الكتاني صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلا فوهبت له شيأ بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزل فخلوت به يوما وقلت له ضع رجلك على خدي فأبى فقلت له لابد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني قال الرقي قصدت من الشام الى الحجاز حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية * ومن أدبهم تقديم من

(١) لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وقال العنبرى اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هذا الزمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق انما هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ورؤى الفضيل يوما وهو يمشى فقيل له الى اين قال لا أدرى وكان يمشى والها من الخوف وقال ذر بن عمر لابيه عمر بن ذر ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى أحد فاذا تكلمت انت سمعت البكاء من كل جانب فقال يابنى ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة وحكى ان قوما وقفوا بعابد وهو يبكى فقالوا ما الذى يبكيك رحمك الله قال قرحة يجدها الخائفون فى قلوبهم قالوا وماهى قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل وكان الخواص يبكى ويقول فى مناجاته قد كبرت وضعف جسمى عن خدمتك فاعتقنى وقال صالح المرى قدم علينا ابن السماك مرة فقال ارنى شيئا من بعض عجائب عبادكم فذهبت به الى رجل فى بعض الاحياء فى خص له فاستأذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه اذ الاغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا الى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا ان لم تشغلونا عن ربنا فقرأت ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط فى دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فادرته على ستة انفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ثم اتيت به الى السابع فاستأذنا فاذا امرأة من داخل الخص تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس فى مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال الا ان للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدى من ويحك ثم بقى مبهوتا فاتحا فاه شاخصا بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه اوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفعوا به الساعة فلما كان بعد ذلك سالت عن القوم فاذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة ايام على حالته مبهوتا متحيرا لا يؤدى فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الاسود يرى انه من الابدال وكان قد حلف انه لا يضحك ابدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمنا ابدا فما رؤى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغنى انك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجهنم قد سعرت والاغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أباسعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألنى عن حالى ماظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل انسان منهم بخشبة على أى حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالى أشد من حالهم * ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت الى مسجد فى بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها فرقدت فاستبكت فى منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين انى والله رأيت عجبا قال وماذاك قال رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على متنها فقال هيه قالت فجىء بعبد الملك ابن مروان فحمل عليه فما مضى عليه الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى الى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى الى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جىء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خر مغشيا عليه فقامت اليه فجعلت تنادى فى اذنه يا أمير المؤمنين انى رأيتك والله قد نجوت انى رأيتك والله قد نجوت قال وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه ويحكى ان اويسا القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكى من كلامه فاذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه ان المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا تقدم فى قواعد العقائد

يعرفون فضله والتوسعة له فى المجلس والايثار بالموضع روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فى صفة ضيقة فجاءه قوم من البدريين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من اهل بدر فجلسوا مكانهم فاشتد ذلك عليهم فانزل الله تعالى واذا قيل انشزوا فانشزوا الآية (وحكى) ان على بن بندار الصوفى ورد على ابى عبد الله ابن خفيف زائرا فتماشيا فقال له ابو عبد الله تقدم فقال باى عذر فقال بانك لقيت الجنيد وما لقيته ومن ادبهم ترك صحبة من همه شىء من فضول الدنيا قال الله تعالى

جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفراش فيضطجع و يتقلى كما تتقلى الحبة فى المقلى ثم يثب فيدرجه و يستقبل القبلة حتى الصباح و يقول طيرذ كرجهنم نوم الخائفين * وقال الحسن البصرى رحمه الله يخرج من النار رجل بعد ألف عام ياليتنى كنت ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة وروى انه ماضحك أربعين سنة قال وكنت اذا رأيته قاعدا كانه اسير قدقدم لتضرب عنقه واذا تكلم كانه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فاذاسكت كان النار تسعر بين عينيه وعوتب فى شدة حزنه وخوفه فقال مايؤمننى ان يكون الله تعالى قداطلع فى على بعض مايكره فمقتنى فقال اذهب فلا غفرت لك فانا أعمل فى غير معتمل * وعن ابن السماك قال وعظت يوما فى مجلس فقام شاب من القوم فقال ياأباالعباس لقدوعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالى ان لانسمع غيرها قلت وماهى رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين اما فى الجنة أو فى النار ثم غاب عنى ففقدته فى المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فاخبرت انه مريض يعاد فاتيته اعوده فقلت ياأخى ماالذى أرى بك فقال ياأباالعباس ذلك من قولك لقدقطع قلوب الخائفين طول الخلودين امافى الجنة أوفى النار قال ثم مات رحمه الله فرأيته فى المنام فقلت ياأخى مافعل الله بك فقال غفرلى ورحمنى وأدخلنى الجنة قلت بماذا قال بالكلمة فهذه مخاوف الانبياء والاولياء والعلماء والصالحين ونحن اجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة والافليس أمننا لقلة ذنوبنا و كثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة احوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة احوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا فنسأل الله تعالى ان يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا ان كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا ومن العجائب انا اذا اردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا وان اردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وسهرنا ونجتهد فى طلب ارزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس فى بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم اذا طمحت اعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بان نقول بالسنتنا اللهم اغفرلنا وارحمنا والذى اليه رجاؤنا و به اعتزازنا ينادينا و يقول وان ليس للانسان الا ماسعى ولا يغرنكم بالله الغرور و ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وامانينا فماهذه الامحنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتدار كنا بها و يجبرنا فنسأل الله تعالى ان يتوب علينا بل نسأله ان يشوق الى التوبة سرائر قلوبنا وان لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل و يسمع ولا يقبل اذا سمعنا الوعظ بكينا واذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان اعظم من هذا فنسأل الله تعالى ان يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله ولنقتصر من حكاية احوال الخائفين على ما اوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفى والكثير منه وان افيض على القلب الغافل فلا يغنى * ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الخولانى وكان من خيار العباد انه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله مايكاد يرقا دمعه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالنى منظره فقلت أيها الراهب اوصنى بوصية أحفظها عنك فقال ياأخى بماذا أوصيك ان استطعت ان تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف ان يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو فى المخافة ليله وان أمن المغترون وفى الحزن نهاره وان فرح البطالون ثم ولى وتركنى فقلت لو زدتنى شيا عسى ينفعنى فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره وقد صدق فان القلب الصافى يحركه أدنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ وماذكره من تقديره انه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغى ان يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحونا باصناف السباع وانواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهى التى لا تزال تفترسك وتنهشك ان غفلت عنها لحظة الا انك محجوب العين عن مشاهدتها فاذا انكشف الغطاء ووضعت فى قبرك عاينتها وقد تمثلت لك

فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ومن أدبهم بذل الانصاف للاخوان وترك مطالبة الانصاف قال أبو عثمان الحيرى حق الصحبة ان توسع على اخيك من مالك ولا تطمع فى ماله وتنصفه من نفسك ولا تطلب منه الانصاف وتكون تبعا له ولا تطمع أن يكون تبعا لك وتستكثر مايصل اليك منه وتستقل مايصل اليه منك *ومن أدبهم فى الصحبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة قال أبو على الروذبارى الصولة على من فوقك قحة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز *ومن أدبهم ان

بصورها واشكالها الموافقة لمانيها فترى بعينك العقارب والحيات وقد احدقت بك فى قبرك وانما هى صفاتك الحاضرة الآن قد انكشف لك صورها فان اردت تقتلها وتقهرها وانت قادر عليها قبل الموت فافعل والا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام

﴿ كتاب الفقر والزهد وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله الذى تسبح له الرمال وتسجد له الظلال وتتدكدك من هيبته الجبال خلق الانسان من الطين اللازب والصلصال وزين صورته باحسن تقويم واتم اعتدال وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال واذن له فى قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ثم كحل بصيرة المخلص فى خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادى اشراقه كل حسن وجمال واستثقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال وتمثل له ظاهر الدنيا فى صورة امرأة جميلة تميس وتختال وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزى وضربت فى قالب النكال وهى متلففة بجلبابها لتخفى قبائح اسرارها بلطائف السحر والاحتيال وقد نصبت حبائلها فى مدارج الرجال فهى تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ثم لاتجتزىء معهم بالخلف فى مواعيد الوصال بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والاغلال وتبليهم بانواع البلايا والانكال فلما انكشف للعارفين منها قبائح الاسرار والافعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالاموال واقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ومشاهدة ابدية لايعتريها فناء ولازوال والصلاة على سيدنا محمد سيد الانبياء وعلى آله خير آل (اما بعد) فان الدنيا عدوة لله عزوجل بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل فحبها رأس الخطايا والسيئات وبغضها ام الطاعات وأس القربات وقد استقصينا مايتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات فلا مطمع فى النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها اما ان تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات وحظ فى الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما واقسامهما وشروطهما واحكامهما ونذكر الفقر فى شطر من الكتاب والزهد فى شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر

(الشطر الاول من الكتاب فى الفقر) وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغنى وبيان آداب الفقير فى فقره وبيان أدبه فى قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان احوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه

﴿ بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقير وأساميه ﴾

اعلم ان الفقر عبارة عن فقد ماهو محتاج اليه اما فقد مالاحاجة اليه فلا يسمى فقرا وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا واذا فهمت هذا لم تشك فى ان كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود فى ثانى الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فان كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ولا يتصور ان يكون مثل هذا الموجود الا واحدا فليس فى الوجود الا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمد وجودهم بالدوام والى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى والله الغنى وانتم الفقراء هذا معنى الفقر مطلقا ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والا فقر العبد بالاضافة الى أصناف حاجاته لاينحصر لان حاجاته لاحصر لها ومن جملة حاجاته مايتوصل اليه بالمال وهو الذى نريد الآن بيانه فقط فنقول كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة الى المال الذى فقده اذا كان ذلك

لايجرى فى كلامهم لوكان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى أن يكون كذا فانهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضا * ومن أدبهم فى الصحبة حذر المفارقة والحرص على الملازمة (قيل) صحب رجل رجلا ثم اراد المفارقة فاستاذن صاحبه فقال بشرط ان لاتصحب احدا الا اذا كان فوقنا وان كان فوقنا ايضا فلا تصحبه لانك صحبتنا اولا فقال الرجل زال عن قلبي نية المفارقة * ومن ادبهم التعطف على الاصاغر (قيل) كان ابراهيم بن أدهم يعمل فى الحصاد ويطعم الاصحاب وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتاخر فى

المفقود

المفقود محتاجا اليه فى حقه ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز الى ذكر احكامها (الحالة الاولى) وهى العليا ان يكون بحيث لو اتاه المال لكرهه وتاذى به وهرب من اخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد (الثانية) ان يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتاذى بها ويزهد فيه لو اتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا (الثالثة) ان يكون وجود المال احب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته ان ينهض لطلبه بل ان اتاه صفوا عفوا اخذه وفرح به وان افتقر الى تعب فى طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا اذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة (الرابعة) ان يكون تركه الطلب لعجزه والا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا الى طلبه ولو بالتعب لطلبه اوهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص (الخامسة) ان يكون ما فقده من المال مضطرا اليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته فى الطلب اما ضعيفة واما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمسة احوال اعلاها الزهد والاضطرار ان انضم اليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سياتى بيانه ووراء هذه الاحوال الخمسة حالة هى اعلى من الزهد وهى ان يستوى عنده وجود المال وفقده فان وجده لم يفرح به ولم يتاذ وان فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضى الله تعالى عنها اذ اتاها مائة الف درهم من العطاء فاخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها ما استطعت فيما فرقت اليوم ان نشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو ذكرتينى لفعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره اذ هو يرى الاموال فى خزانة الله تعالى لا فى يد نفسه فلا يفرق بين ان تكون فى يده او فى يد غيره وينبغى ان يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى لانه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير الى بقاء المال فى يده وانما هو غنى عن دخول المال فى يده لا عن بقائه فهو اذا فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال فى يده وعن بقائه فى يده وعن خروجه من يده ايضا فانه ليس يتاذى به ليحتاج الى اخراجه وليس يفرح به ليحتاج الى بقائه وليس فاقدا له ليحتاج الى الدخول فى يده فغناه الى العموم اميل فهو الى الغنى الذى هو وصف الله تعالى اقرب وانما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنا لا نسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شئ واما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا اوعدما فلم يستغن عن اشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى اعتقه من هذا الرق فهو محتاج الى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية فى اوقات متقاربة لانها بين اصبعين من اصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال الا مجازا واعلم ان الزهد درجة هى كمال الابرار وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد فى حقه نقصانا اذ حسنات الابرار سيئات المقربين وهذا لان الكاره للدنيا مشغول بالدنيا كما ان الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى اذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه اقرب اليك من حبل الوريد وليس هو فى مكان حتى تكون السموات والارض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه الا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وانت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول ببغض نفسه ايضا مشغول عن الله تعالى بل كل ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر فى مجلس يجمع العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق الى الرقيب والى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت اليه فكما ان النظر الى غير المعشوق

بعض الايام فى العمل فقالوا ليلة تعالوا نأكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع فافطروا وناموا فرجع ابراهيم فوجدهم نياما فقال مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام فعمد الى شئ من الدقيق فعجنه فانتبهوا وهو ينفخ فى النار واضعا محاسنه على التراب فقالوا له فى ذلك فقال قلت لعلكم لم تجدوا فطورا فنمتم فقالوا انظروا بأى شئ عاملناه وبأى شئ يعاملنا * ومن أدبهم ان لا يقولوا عند الدعاء الى أين ولم وباى سبب قال بعض العلماء اذا قال الرجل للصاحب قم بنا فقال الى أين فلا يصحبه * وقال آخر من قال لاخيه أعطنى من مالك فقال

لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ونقص فيه فكذا النظر الى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن احدهما اخف من الآخر بل الكمال فى ان لا يلتفت القلب الى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع فى القلب حبان فى حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب فى حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها الا ان المشغول بحبها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد والمشغول ببغضها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب اذ يرجى له ان ينتهى حاله الى ان تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود فالكمال له مرتقب لان بغض الدنيا مطية توصل الى الله فالمحب والمبغض كرجلين فى طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن احدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما سيان بالاضافة الى الحال فى ان كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة الى المستدبر اذ يرجى له الوصول اليها وليس محمودا بالاضافة الى المعتكف فى الكعبة الملازم لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر الى الاشتغال بالدابة فى الوصول اليها فلا ينبغى ان نظن ان بغض الدنيا مقصود فى عينه بل الدنيا عائق عن الله تعالى ولا وصول اليه الا بدفع العائق ولذلك قال ابو سليمان الدارانى رحمه الله من زهد فى الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغى ان يشتغل بالآخرة فبين ان سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما ان سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج فاذا قد ظهر ان الزهد فى الدنيا ان أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وان اريد به الرغبة فى عدمها فهو كمال بالاضافة الى درجة الراضى والقانع والحريص ونقصان بالاضافة الى درجة المستغنى بل الكمال فى حق المال ان يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بان تكون على شاطىء البحر ولا قلته تؤذيك الا فى قدر الضرورة مع ان المال محتاج اليه كما ان الماء محتاج اليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فهكذا ينبغى ان يكون المال لان الخبز والماء واحد فى الحاجة وانما الفرق بينهما فى قلة أحدهما وكثرة الآخر واذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذى دبر به العالم علمت ان قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادامت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتى بيانه فى كتاب التوكل ان شاء الله تعالى قال احمد ابن ابى الحوارى قلت لابى سليمان الدارانى قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب الى البيت فخذ الركوة التى اهديتها لى فان العدو يوسوس لى ان اللص قد أخذها قال ابو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زاده فى الدنيا ماغلبه من أخذها فبين ان كراهية كون الركوة فى بيته التفات اليها سببه الضعف والنقصان فان قلت فما بال الانبياء والاولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار فاقول كما هربوا من الماء على معنى انهم ماشربوا أكثر من حاجتهم ففروا عما وراءه ولم يجمعوه فى القرب والروايا يديرونه مع انفسهم بل تركوه فى الانهار والآبار والبرارى للمحتاجين اليه لا انهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه او بغضه وقد حملت[1] خزائن الارض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ابى بكر وعمر رضى الله عنهما فاخذوها ووضعوها فى مواضعها وما هربوا منها اذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر ومانقل عنهم من امتناع فاما ان ينقل عمن

(١) حديث ان خزائن الارض حملت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ابى بكر وعمر فاخذوها ووضعوها فى مواضعها هذا معروف وقد تقدم فى آداب المعيشة من عند البخارى تعليقا مجزوما به من حديث انس اتى النبى صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال اتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصلاة ولم يلتفت اليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس اليه فقلما كان يرى أحدا الا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحيرى فى صحيحه من هذا الوجه وفى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم ابوعبيدة بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدومه الحديث ولهما من حديث جابر لو جاء نا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فامر أبو بكر مناديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا

كم تريد ماقام بحق الاخاء وقد قال الشاعر
لا يسألون اخاهم حين يندبهم
للنائبات على ماقال برهانا
ومن ادبهم ان لا يتكلفوا للاخوان قيل لماورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد انواعا من الاطعمة فانكر ذلك ابو حفص وقال صير اصحابى مثل المخانيث يقدم لهم الالوان والفتوة عندنا ترك التكلف واحضار ماحضر فان بالتكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف وبترك التكلف يستوى مقامه وذهابه ومن ادبهم فى الصحبة المداراة وترك المداهنة وتشتبه المداراة بالمداهنة والفرق بينهما ان المداراة ماأردت به صلاح

خاف

خاف ان لوأخذه أن يخدعه المال و يقيد قلبه فيدعوه الى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلاجرم البغض للمال والهرب منه فى حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لان كلهم ضعفاء الا الانبياء والاولياء واما ان ينقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا الى درجة الضعفاء ليقتدوا به فى الترك اذلو اقتدوا به فى الاخذ لهلكوا كما يفر الرجل المعزم بين يدى أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه انه لو اخذها اخذها اولاده اذا رأوها فيهلكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الانبياء والاولياء والعلماء فقد عرفت اذا أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص وأما المضطر فيتصور فى حقه ايضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الاحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة اما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل ان سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا الى الله تعالى فى جميع اموره عامة وفى بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية واقر بها فانه احق باسم العبد من الغافلين وان كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر الى الله تعالى فهو احق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين واذا عرفت هذا الاشتراك فهمت ان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) اعوذ بك من الفقر وقوله عليه السلام (٢) كاد الفقر ان يكون كفرا لا يناقض قوله (٣) احينى مسكينا وامتنى مسكينا اذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار الى الله تعالى هو الذى سأله فى دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من اهل الارض والسماء

﴿ بيان فضيلة الفقر مطلقا ﴾

اما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم الآية وقال تعالى للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض ساق الكلام فى معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر (واما الاخبار) فى مدح الفقر فاكثر من ان تحصى روى عبد الله (٤) بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه اى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يارسول الله قال فقير يعطى جهده وقال صلى الله عليه وسلم (٥) لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٦) ان الله يحب الفقير المتعفف ابا العيال وفى الخبر المشهور (٧) يدخل فقراء امتى الجنة قبل اغنيائها بخمسمائة عام وفى حديث آخر (٨) باربعين خريفا اى اربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات

فقلت ان النبى صلى الله عليه وسلم وعدنى فحثالى ثلاثا (١) حديث اعوذ بك من الفقر تقدم فى الاذكار والدعوات (٢) حديث كاد الفقر ان يكون كفرا تقدم فى ذم الحسد (٣) حديث اللهم احينى مسكينا وامتنى مسكينا الترمذى من حديث انس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث ابى سعيد وقد تقدم (٤) حديث ابن عمر انه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه اى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لاصحابه وسؤالهم له (٥) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا الحاكم فى كتاب علامات اهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث ابى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف (٦) حديث ان الله يحب الفقير المتعفف ابا العيال ابن ماجه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٧) حديث يدخل فقراء امتى الجنة قبل اغنيائهم بخمسمائة عام الترمذى من حديث ابى هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٨) حديث دخولهم قبلهم باربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو الا انه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وانس

أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ماتكره والمداهنة ماقصدت به شيأ من الهوى من طلب حظ أو اقامة جاه * ومن أدبهم فى الصحبة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط نقل عن الشافعى رحمه الله انه قال الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط * ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لاصحابه كيف تصنعون اذا رأيتم أخاكم نائما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونغطيه فقال بل تكشفون عورته قالوا

الفقير يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء فى درجاتهم وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد اذ هذه نسبة الار بعين الى خمسمائة ولا تظنن ان تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا و بالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم الا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم [1] الرؤيا الصالحة جزء من ستة وار بعين جزأ من النبوة فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس فى قوة غيره ان يعرف علة تلك النسبة الا بتخمين فاما بالتحقيق فلا اذ يعلم ان النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بانواع من الخواص احدها ان يعرف حقائق الامور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الاخرة لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات و بزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثانى ان له فى نفسه صفة بها تتم له الافعال الخارقة للعادات كما ان لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بارادتنا و باختيارنا وهى القدرة وان كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى والثالث ان له صفة بها يبصر الملائكة و يشاهدهم كما ان للبصير صفة بها يفارق الاعمى حتى يدرك بها المبصرات والرابع ان له صفة بها يدرك ماسيكون فى الغيب اما فى اليقظة او فى المنام اذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للانبياء و يعلم انقسام كل واحد منها الى اقسام ور بما يمكننا ان نقسمها الى ار بعين والى خمسين والى ستين و يمكننا ايضا ان نتكلف بتقسيمها الى ستة وار بعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزأ واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن الا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقا انه الذى اراده رسول الله صلى الله عليه وسلم ام لا وانما المعلوم جامع الصفات التى بها تتم النبوة واصل انقسامها وذلك لا يرشدنا الى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم ان الفقراء لهم درجات كما سبق فاما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم با كثر من ار بعين سنة الى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس فى قوة البشر غير الانبياء الوقوف على ذلك الا بنوع من التخمين ولا وثوق به والغرض التنبيه على منهاج التقدير فى امثال هذه الامور فان الضعيف الايمان قد يظن ان ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك * ولنرجع الى نقل الاخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم ايضا [2] خير هذه الامة فقراؤها واسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها وقال صلى الله عليه وسلم [3] ان لى حرفتين اثنتين فمن احبهما فقد احبنى ومن ابغضهما فقد ابغضنى الفقر والجهاد وروى [4] ان جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ان الله عزوجل يقرا عليك السلام و يقول اتحب ان اجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك اينما كنت فاطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال جبريل ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت وروى ان المسيح صلى الله عليه وسلم مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة فايقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال ما تريد منى انى قد تركت الدنيا لاهلها فقال فنم اذا يا حبيبي ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بعباءة فقال يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع

سبحان الله من يفعل هذا قال احدكم يسمع فى اخيه بالكلمة فيزيد عليها و يشيعها باعظم منها * ومن ادبهم الاستغفار للاخوان بظهر الغيب والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع المكاره عنهم (حكى) ان أخوين ابتلى احدهما بهوى فاظهر عليه اخاه فقال انى ابتليت بهوى فان شئت ان لاتعقد على محبتى لله فافعل فقال ما كنت لاحل عقد اخائك لاجل خطيئتك وعقد بينه و بين الله عقدا ان لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه وطوى ار بعين يوما كلما يسأله عن هواه يقول مازال فبعد الار بعين أخبره

---

(١) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وار بعين جزأ من النبوة البخارى من حديث ابى سعيد ورواه هو ومسلم من حديث ابى هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم (٢) حديث خير الامة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها لم أجد له اصلا (٣) حديث ان لى حرفتين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم اجد له اصلا (٤) حديث ان جبريل نزل فقال ان الله يقرأ عليك السلام و يقول اتحب ان اجعل هذه الجبال ذهبا الحديث وفيه ان الدنيا دار من لا دار له الحديث هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث ابى امامة عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما واجوع يوما الحديث وقال حسن ولاحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له الحديث وقد تقدم فى ذم الدنيا

فاوحى الله تعالى اليه ياموسى أما علمت انى اذا نظرت الى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها وعن (١) ابى رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه فارسلنى الى رجل من يهود خيبر وقال قل له يقول لك محمد أسلفنى او بعنى دقيقا الى هلال رجب قال فاتيته فقال لا والله الا برهن فاخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال اما والله انى لامين فى اهل السماء امين فى أهل الارض ولو باعنى اواسلفنى لاديت اليه اذهب بدرعى هذا اليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الاية ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٢) الفقر ازين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس وقال صلى الله عليه وسلم (٣) من اصبح منكم معافى فى جسمه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها وقال كعب الاحبار قال الله تعالى لموسى عليه السلام ياموسى اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وقال عطاء الخراسانى مر نبى من الانبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله والقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر باخر فقال بسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم يارب ماهذا وقد علمت ان كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما فلما رأى ما اعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر اهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت اكثر اهلها الاغنياء والنساء وفى لفظ آخر فقلت اين الاغنياء فقيل حبسهم الجد وفى حديث آخر (٤) فرأيت اكثر اهل النار النساء فقلت ماشانهن فقيل شغلهن الاحمران الذهب والزعفران وقال صلى الله عليه وسلم (٥) تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر وفى الخبر (٦) آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر اصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه وفى حديث آخر (٧) رأيته دخل الجنة زحفا وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة وفى خبر آخر عن اهل البيت رضى الله عنهم انه صلى الله عليه وسلم (٨) قال اذا احب الله عبدا ابتلاه فاذا احبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له اهلا ولا مالا وفى الخبر (٩) اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته وقال موسى عليه السلام يارب من احباؤك من خلقك حتى احبهم لاجلك فقال كل فقير فقير فيمكن ان يكون الثانى للتوكيد ويمكن ان يراد به الشديد الضر وقال المسيح صلوات الله

(١) حديث ابى رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه فارسلنى الى رجل من يهود خيبر الحديث فى نزول قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجا منهم الطبرانى بسند ضعيف (٢) حديث الفقر ازين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس الطبرانى من حديث شداد بن اوس بسند ضعيف والمعروف انه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن انعم رواه ابن عدى فى الكامل هكذا (٣) حديث من اصبح منكم معافى فى جسمه الحديث الترمذى وقد تقدم (٤) حديث اطلعت فى النار فرأيت اكثر اهلها النساء الحديث تقدم فى آداب النكاح مع الزيادة التى فى آخره (٥) حديث تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازى فى شرف الفقر وابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا باس به ورواه ابو منصور أيضا فيه من حديث بن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو فى الاوسط للطبرانى باسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رايته يعنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث اذا احب الله عبد ابتلاه الحديث الطبرانى من حديث ابى عتبة الخولانى (٩) حديث اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن ابى الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى فذكره بزيادة فى اوله ورواه ابو نعيم فى الحلية من قول كعب

ان الهوى قد زال فاكل وشرب * ومن ادبهم ان لا يحوجوا صاحبهم الى المدارة ولا يلجؤه الى الاعتذار ولا يتكلفوا للصاحب مايشق عليه بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد انفسهم * قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه شر الاصدقاء من أحوجك الى مدارة اوالجاك الى اعتذار وتكلف له (وقال) جعفر الصادق اثقل اخوانى على من يتكلف لى واتحفظ منه واخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدى فاداب الصحبة وحقوق الاخوة كثيرة والحكايات فى ذلك يطول نقلها وقد رايت فى

عليه وسلا نه انى لاحب المسكنة وابغض النعماء وكان احب الاسامى اليه صلوات الله عليه ان يقال له يامسكين ولما[1] قالت سادات العرب واغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوم يجيؤن اليك ولانجيء ونجئ اليك ولايجيؤن يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وابى ذر وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وابى هريرة واصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم اجمعين أجابهم النبى صلى الله عليه وسلم الى ذلك وذلك لانهم شكوا اليه التاذى بروائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الاغنياء منهم الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزازى وعباس بن مرادس السلمى وغيرهم فاجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لايجمعهم واياهم مجلس واحد فنزل عليه قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم يعنى الفقراء تريد زينة الحياة الدنيا يعنى الاغنياء ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا يعنى الاغنياء وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر الاية (٢) واستاذن ابن ام مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من اشراف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى عبس وتولى ان جاءه الاعمى ومايدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى يعنى ابن ام مكتوم اما من استغنى فانت له تصدى يعنى هذا الشريف وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال[3] يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى اليه كما يعتذر الرجل للرجل فى الدنيا فيقول وعزتى وجلالى مازويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة أخرج ياعبدى الى هذه الصفوف فمن أطعمك فى أو كساك فى يريد بذلك وجهى فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فياخذ بيده ويدخله الجنة وقال عليه السلام (٤) أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادى فان لهم دولة قالوا يارسول الله وما دولتهم قال اذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من اطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به الى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم (٥) دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت فى أعلاها فاذا فقراء امتى وأولادهم ونظرت فى أسفلها فاذا فيه من الاغنياء والنساء قليل

كتاب الشيخ أبى طالب المكى رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيا كثيرا فقد أودع كتابه كل شى حسن من ذلك وحاصل الجميع ان العبد ينبغى له ان يكون لمولاه ويريد كل مايريد لمولاه لا لنفسه واذا صاحب شخصا تكون صحبته اياه لله تعالى واذا صحبه لله تعالى يجتهد له فى كل شي يزيده عند الله زلفى وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويعرفه محاسن الاخلاق ومحاسن الاداب ويوقفه من اداء الحقوق على بصيرة ويوفقه فى ذلك كله ولا يفوته شى مما يحتاج اليه فيما يرجع الى حقوق الحق

الاحبار غير مرفوع باسناد ضعيف (١) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث فى نزول قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الاية تقدم من حديث خباب وليس فيه انه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم اذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان (٢) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى عبس وتولى الترمذى من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله اليه كما يعتذر الرجل الى الرجل فى الدنيا فيقول وعزتى وجلالى مازويت الدنيا عنك لهوانك على الحديث أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا منى أحبائى فتقول الملائكة ومن أحباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول اما انى لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن اردت بذلك ان اضعف لكم كرامتى اليوم فتمنوا على ماشئتم اليوم الحديث دون آخر الحديث واما أول الحديث فرواه ابو نعيم فى الحلية وسياتى فى الحديث الذى بعده (٤) حديث اكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادى فان لهم دولة الحديث ابو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادى فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا الى الفقراء فيعتذر اليهم كما يعتذر أحدكم الى اخيه فى الدنيا ٧ (٥) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت الى اعلاها فاذا فقراء امتى واولادهم الحديث الطبرانى من حديث ابى امامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر

٧ قال البرهان الحلبي رأيت عن ابن تيمية أبى العباس بخط بعض الفضلاء حديث اتخذوا مع الفقراء أيادى وكذا حديث الفقر فخرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت فى كلام له آخر

فقلت يارب ماشأنهم قال أما النساء فاضر بهن الاحمران الذهب والحرير وأما الاغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابى فلم أرعبد الرحمن بن عوف ثم جاءنى بعد ذلك وهو يبكى فقلت ماخلفك عنى قال يارسول الله والله ماوصلت اليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنى لا أراك فقلت ولم قال كنت أحاسب بمالى فانظر الى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة (١) المخصوصين بانهم من أهل الجنة وهو من الاغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) الامن قال بالمال هكذا وهكذا ومع هذا فقد استضر بالغنى الى هذا الحد (٣) ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم يرله شيا فقال لوقسم نور هذا على اهل الارض لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم (٤) ألا أخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يارسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لوأقسم على الله لأبره وقال (٥) عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال ياعمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت نعم بابى انت وامى يارسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يارسول الله قال انا ومن معى قالت ومن معك يارسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذى بعثك بالحق نبيا ماعلى الا عباءة قال اصنعى بها هكذا وهكذا واشار بيده فقالت هذا جسدى قدواريته فكيف برأسى فالقى اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدى بها على رأسك ثم اذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابنتاه كيف أصبحت قالت اصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على مابى انى لست اقدر على طعام آكله فقداضر بى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لاتجزعى يا ابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث وانى لأكرم على الله منك ولوسالت ربى لاطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها ابشرى فوالله انك لسيدة نساء اهل الجنة قالت فاين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وانت سيدة نساء عالمك انكن فى بيوت من قصب لا اذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقنعى بابن عمك فوالله لقدزوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة وروى عن على كرم الله وجهه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (٦) اذا ابغض الناس فقراءهم واظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله باربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاة الاحكام والشوكة من الاعداء (واما الآثار) فقد قال ابو الدرداء رضى الله عنه ذو الدرهمين اشد حبسا اوقال اشد حسابا من ذى الدرهم وارسل عمر رضى الله عنه الى سعيد بن عامر بالف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته احدث امر قال اشد من ذلك ثم قال ارينى درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلى ويبكى الى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٧) يدخل فقراء امتى الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام حتى ان الرجل من الاغنياء يدخل فى غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج وقال ابوهريرة ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد ان يغسل ثوبه

---

(١) حديث ان عبد الرحمن بن عوف احد العشرة المخصوصين بانهم من اهل الجنة اصحاب السنن الاربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذى حسن صحيح (٢) حديث الا من قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث ابى ذر فى اثناء حديث تقدم (٣) حديث دخل على رجل فقير ولم يرله شيا فقال لوقسم نور هذا على اهل الارض لوسعهم لم اجده (٤) حديث الا اخبركم عن ملوك الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولا ملوك وقد تقدم ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ الا اخبركم عن ملوك الجنة الحديث دون قوله اغبرا شعث (٥) حديث عمران ابن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال ياعمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة الحديث تقدم (٦) حديث اذا ابغض الناس فقراءهم واظهروا عمارة الدنيا الحديث ابو منصور الديلمى باسناد فيه جهالة وهو منكر (٧) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام الحديث وفى اوله قصة ان عمر بعث الى سعيد بالف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها وقد روى احمد فى الزهد القصة الا انه قال تسعين عاما وفى اسناده يزيد بن ابى زياد تكلم فيه وفى رواية له باربعين سنة واما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو

وفيما يرجع الى حقوق الخلق لكل تقصير وجد من خبث النفس وعدم تزكيتها وبقاء صفاتها عليه فان صحبت ظلمت بالافراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيما يرجع الى الحق والخلق والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل فى النفس زيادة تاثير ويكون كبئر يقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه ولا ينتفع به واذا أخذت بالتقوى والزهد فى الدنيا نبع منها ماء الحياء وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى

(الباب السادس والخمسون فى معرفة الانسان نفسه ومكاشفات

فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرابه فلا يقال له ايها تريد وقيل جاء فقير الى مجلس الثور رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربتك وكان الاغنياء من اصحابه يودون انهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء واعراضه عن الاغنياء وقال المؤمل مارأيت الغنى اذل منه فى مجلس الثورى ولا رأيت الفقير اعزمنه فى مجلس الثورى رحمه الله وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا وقال ابن عباس ملعون من أكرم بالغنى واهان بالفقر وقال لقمان عليه السلام لابنه لا تحقرن احدا لخلقان ثيابه فان ربك ورب واحد وقال يحيى بن معاذ حبك الفقراء من اخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وفى الاخبار عن الكتب السالفة ان الله تعالى اوحى الى بعض انبيائه عليهم السلام احذران أمقتك فتسقط من عينى فاصب عليك الدنيا صبا ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائه ألف درهم فى يوم واحد يوجهها اليها معاوية وابن عامر وغيرهما وان درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتينى لفعلت وكان قد اوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (١) ان اردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه وجاء رجل الى ابراهيم بن درهم بعشرة الآف درهم فابى عليه ان يقبلها فالح عليه الرجل فقال له ابراهيم اتريد ان تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة الآف درهم لا افعل ذلك ابدا رضى الله عنه

﴿ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) طوبى لمن هدى الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال صلى الله عليه وسلم (٣) يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والافلا فالاول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هذا بمفهومه ان الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة فى فضل الفقر تدل على ان له ثوابا كما سياتى تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله فى حبس الدنيا عنه ورب راغب فى المال لا يخطر بقلبه انكار على الله تعالى ولا كراهة فى فعله فتلك الكراهة هى التى تحبط ثواب الفقر وروى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (٤) ان لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة وروى عن على كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (٥) احب العباد الى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم (٦) اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال (٧) مامن احد غنى ولا فقير الاود يوم القيامة انه كان أوتى قوتا فى الدنيا واوحى الله تعالى الى اسمعيل عليه السلام اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال صلى الله عليه

عند الترمذى من حديث ابى هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورقتين (١) حديث قال لعائشة ان اردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء الحديث الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم (٢) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم (٣) حديث يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابى هريرة وهو ضعيف جدا فيه احمد بن الحسن بن ابان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث (٤) حديث ان لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدار قطنى فى غرائب مالك وابو بكر بن لال فى مكارم الاخلاق وابن عدى فى الكامل وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر (٥) حديث احب العباد الى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند ابن ماجه حديث ان الله يحب الفقير المتعفف (٦) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٧) حديث مامن احد غنى ولا فقير الاود يوم القيامة انه كان اوتى قوتا فى الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم

الصوفية من ذلك) حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال انا الشريف نور الهدى ابو طالب الزينى قال انا كريمة المروزية قالت اخبرنا ابو الهيثم الكشميهنى قال أخبرنا ابو عبد الله الفربرى قال انا ابو عبد الله البخارى قال ثنا عمر بن حفص قال ثنا ابى قال ثنا الاعمش قال ثنا زيد بن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال أن احدكم يجمع خلقه فى بطن أمه اربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله تعالى اليه ملكا بأربع كلمات فيكتب

وسلم (١) لأحد افضل من الفقير اذا كان راضيا وقال صلى الله عليه وسلم (٢) يقول الله تعالى يوم القيامة أين صفوتى من خلقى فتقول الملائكة ومن هم يارب فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائى الراضون بقدرى ادخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس فى الحساب يترددون فهذا فى القانع والراضى واما الزاهد فسنذكر فضله فى الشطر الثانى من الكتاب ان شاء الله تعالى (واما الآثار) فى الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى ان القناعة يضادها الطمع وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه ان الطمع فقر واليأس غنى وانه من يئس عما فى ايدى الناس وقنع استغنى عنهم وقال ابو مسعود رضى الله تعالى عنه مامن يوم الا وملك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال ابو الدرداء رضى الله تعالى عنه مامن احد الا وفى عقله نقص وذلك انه اذا اتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ماينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان ابراهيم بن ادهم من اهل النعم بخراسان فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم اذ نظر الى رجل فى فناء القصر وفى يده رغيف يأكله فلما أكل نام فقال لبعض غلمانه اذا قام فجئنى به فلما قام جاء به اليه فقال ابراهيم ايها الرجل أكلت الرغيف وانت جائع قال نعم قال فشبعت قال نعم قال ثم نمت طيبا قال نعم فقال ابراهيم فى نفسه فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له ياعبد الله ارضيت من الدنيا بهذا فقال الا ادلك على من رضى بشر من هذا قال بلى قال من رضى بالدنيا عوضا عن الآخرة وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج الى احد وقال الحسن رحمه الله لعن الله اقواما اقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ثم قرأ وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والارض انه لحق الآية وكان ابوذر رضى الله عنه يوما جالسا فى الناس فاتته امرأته فقالت له أتجلس بين هؤلاء والله ما فى البيت هفة ولا سفة فقال ياهذه ان بين ايدينا عقبة كؤدا لا ينجو منها الا كل مخف فرجعت وهى راضية وقال ذو النون رحمه الله اقرب الناس الى الكفر ذو فاقة لا صبر له وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى ايدى الناس وروى ان الله عزوجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت فاذا انا اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فانا محسن اليك وقد قيل فى القناعة

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس * واقنع بيأس فان العز فى الياس
واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم * ان الغنى من استغنى عن الناس

وقد قيل فى هذا المعنى أيضا

ياجامعا مانعا والدهر يرمقه * مقدرا اى باب منه يغلقه * مفكرا كيف تاتيه منيته
أغاديا أم بها يسرى فتطرقه * جمعت مالا فقل لى هل جمعت له * ياجامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه * ما المال مالك الا يوم تنفقه * أرفه ببال فتى يغدو على ثقة
ان الذى قسم الارزاق يرزقه * فالعرض منه مصون مايدنسه * والوجه منه جديد ليس يخلقه
ان القناعة من يحلل بساحتها * لم يبق فى ظلها هم يؤرقه

﴿ بيان فضيلة الفقر على الغنى ﴾

اعلم ان الناس قد اختلفوا فى هذا فذهب الجنيد والخواص والاكثرون الى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء الغنى الشاكر القائم بحقه افضل من الفقير الصابر ويقال ان الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته اياه فى هذا فاصابته محنة وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الاعمال

(١) حديث لا أحد افضل من الفقير اذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٢) حديث يقول الله يوم القيامة اين صفوتى من خلقى فتقول الملائكة ومن هم يارب فيقول فقراء المسلمين الحديث ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس

عمله وجله ورزقه وشقى أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة وان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخل النار وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين اى حريز لاستقرارها فيه الى بلوغ امدها ثم قال بعد ذكر تقلباته ثم انشاناه خلقنا آخر قبل هذا الانشاء نفخ الروح فيه واعلم ان الكلام فى الروح صعب

والاحوال وان ذلك لايمكن الا بتفصيل فاما الفقر والغنى اذا أخذا مطلقا لم يسترب من قرأ الاخبار والا ثار فى تفصيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول انما يتصور الشك فى مقامين احدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع اوراض بالاضافة الى غنى منفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على امساك المال والثانى فقير حريص مع غنى حريص اذ لا يخفى ان الفقير القانع افضل من الغنى الحريص الممسك وان الغنى المنفق ماله فى الخيرات افضل من الفقير الحريص اما الاول فربما يظن ان الغنى افضل من الفقير لانهما تساويا فى ضعف الحرص على المال والغنى متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه فاما الغنى المتمتع بالمال وان كان فى مباح فلا يتصور ان يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ماروى فى الخبر ان الفقراء (١) شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فعلمهم كلمات فى التسبيح وذكر لهم انهم ينالون بها فوق مانال الاغنياء فتعلم الاغنياء ذلك فكانوا يقولونه فعاد الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقد استشهد ابن عطاء ايضا لما سئل عن ذلك فقال الغنى افضل لانه وصف الحق اما دليله الاول ففيه نظر لان الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو ان ثواب الفقير فى والتسبيح يزيد على ثواب الغنى وان فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى (٢) زيد بن اسلم عن انس بن مالك رضى الله عنه قال بعث الفقراء رسولا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى رسول الفقراء اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم احبهم قالوا يارسول الله ان الاغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه واذا مرضوا بعثوا بفضل اموالهم ذخيرة لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء ان لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنياء اما خصلة واحدة فان فى الجنة غرف ينظر اليها اهل الجنة كما ينظر اهل الارض الى نجوم السماء لا يدخلها الا نبى فقير اوشهيد فقير اومؤمن فقير والثانيه يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام والثالثة اذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا آله الا الله والله اكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو انفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك اعمال البر كلها فرجع اليهم فاخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله ان الغنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى ان الله تعالى غنى بالاسباب والاعراض فانقطع ولم ينطق واجاب آخرون فقالوا ان التكبر من صفات الحق فينبغى ان يكون افضل من التواضع ثم قال بل هذا يدل على ان الفقر افضل لان صفات العبودية افضل للعبد كالخوف والرجاء وصفاة الربوبية لا ينبغى ان ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم (٣) الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته وقال سهل حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ومنازعة فيها لانهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التاويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد منا قضتها اذ كما يناقض قول من فضل الغنى بانه صفة الحق بالتكبر فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لانه وصف للعبد بالعلم والمعرفة

(١) حديث شكى الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفى آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث ابى هريرة نحوه (٢) حديث زيد بن اسلم عن أنس بعث الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ان الاغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه الحديث وفيه بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنياء الحديث لم اجده هكذا بهذا السياق والمعروف فى هذا المعنى مارواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم اغنياءهم فقال يامعشر الفقراء ألا ابشركم ان فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل اغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام واسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى تقدم فى العلم وغيره

المرام والامساك عن ذلك سبيل ذوى الاحلام وقد عظم الله تعالى شان الروح واسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال وما اوتيتم من العلم الا قليلا وقد اخبرنا الله تعالى فى كلامه عن اكرامه بنى آدم فقال ولقد كرمنا بنى آدم وروى انه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم ياكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال وعزتى وجلالى لا اجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان فمع هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى اياهم على الملائكة لما اخبر عن الروح اخبر عنهم بقلة العلم

فانه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لاحد ان يفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ماذكرناه فى كتاب الصبر وهوان مالا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي ان يضاف الى مقصوده اذبه يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى ولا الفقر مطلوبا لعينه لكن لان فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد وغاية المقصد فى الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ولا يكون ذلك الا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل وانما الشاغل على التحقيق حب الدنيا اذ لا يجتمع معه حب الله فى القلب والمحب للشيء مشغول به سواء كان فى فراقه أو فى وصاله وربما يكون شغله فى الفراق أكثر وربما يكون شغله فى الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا ان فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال فى حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة افضل من فقده اذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وان اخذت الامر باعتبار الاكبر فالفقير عن الخطر ابعد اذ فتنة السراء اشد من فتنة الضراء ومن العصمة ان لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضى الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم الا الشاذ الفذ الذى لا يوجد فى الاعصار الكثيرة الا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر والضراء اصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم وقال بعض العلماء تقليب الاموال يمص حلاوة الايمان وفى الخبر ان (1) لكل امة عجلا وعجل هذه الامة الدينار والدرهم وكان اصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة ايضا واستواء المال والماء والذهب والحجر انما يتصور للانبياء عليهم السلام والاولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة اذ كان النبي صلى الله عليه وسلم (2) يقول للدنيا اليك عنى اذ كانت تتمثل له بزينتها وكان على كرم الله وجهه يقول يا صفراء غرى غيرى ويا بيضاء غرى غيرى وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادى الاغترار بها لولا ان رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق اذ قال عليه الصلاة والسلام (3) ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس واذا كان ذلك بعيدا فاذا الاصلح لكافة الخلق فقد المال وان تصدقوا به وصرفوه الى الخيرات لانهم لا ينفكون فى القدرة على المال عن انس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة فى بذلها وكل ذلك يورث الانس بهذا العالم وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ومهما انقطعت اسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب اذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لا محالة الى الله اذ لا يتصور قلب فارغ وليس فى الوجود الا الله تعالى وغيره فمن اقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن اقبل عليه تجافى عن غيره ويكون اقباله على احدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من احدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فانهما جهتان فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من احدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من احدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي ان يكون مطمح نظر العارفين قلبه فى عزوبه عن الدنيا وانسه بها فاذا افضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما الا ان هذا مزلة قدم وموضع غرور فان الغنى ربما يظن انه منقطع القلب عن المال

(1) حديث لكل امة عجل وعجل هذه الامة الدينار والدرهم ابو منصور الديلمي من طريق ابي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة باسناد فيه جهالة (2) حديث كان يقول للدنيا اليك عنى الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (3) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث ابي هريرة وقد تقدم

وقال ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي الخ قال ابن عباس قالت اليهود للنبي عليه السلام أخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التى فى الجسد وانما الروح من أمر الله ولم يكن نزل اليه فيه شيء فلم يجبهم فأتاه جبرائيل بهذه الآية وحيث امسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاخبار عن الروح وماهيته باذن الله تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والاشارة اليه لا جرم لما تقاضت الانفس الانسانية المتطالعة الى الفضول المتشوفة الى المعقول المتحركة بوضعها بالسكون فيه

ويكون حبه دفينا فى باطنه وهو لا يشعر به وانما يشعر به اذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه أو اذا سرق منه فان وجد لقلبه اليه التفاتا فليعلم انه كان مغرورا فكم من رجل باع سرية له لظنه انه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التى كانت مستكنة فيه فتحقق اذا انه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا فى الفؤاد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الاغنياء الا الانبياء والاولياء واذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بان الفقر اصلح لكافة الخلق وأفضل لان علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فان حركات اللسان ليست مرادة لاعيانها بل ليتأكد بها الانس بالمذكور ولا يكون تاثيرها فى اثارة الانس فى قلب فارغ من غير المذكور كتاثيرها فى قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفئ النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله ادع الله لى فقد أضر بى العيال فقال اذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لى فى ذلك الوقت فان دعاءك أفضل من دعائى وكان يقول مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه اللهم انى اسألك الذل عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف واذا كان مثل الصديق رضى الله عنه فى كماله حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك فى ان فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن احسن احوال الغنى ان ياخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تاخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة اذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال ابو الدرداء رضى الله عنه ما أحب ان لى حانوتا على باب المسجد ولا تخطئنى فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الاغنياء ثلاثة اشياء اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب واختار الاغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من ان الغنى وصف الحق فهو بذلك افضل فهو صحيح ولكن اذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بان يستوى عنده كلاهما فاما اذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا الى بقائه فلا يضاهى غناه غنى الله تعالى لان الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بان يسرق وما ذكر من الرد عليه بان الله ليس غنيا بالاعراض والاسباب صحيح فى ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من ان صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شئ للعبد بل منتهى العبد ان يتخلق باخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول ان سالك الطريق الى الله تعالى قبل ان يقطع الطريق تصير الاسماء التسعة والتسعون أوصافا له أى يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصى فيليق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والايذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وانما وصف الله تعالى انه أكبر من كل شئ وانه يعلم انه كذلك والعبد مامور بانه يطلب أعلى المراتب ان قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس فعلى العبد ان يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والمطيع أكبر من العاصى والعالم أكبر من الجاهل والانسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات واقرب الى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة فى حقه الا انه لا سبيل له الى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة وليس يدرى الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق فلجهله بذلك وجب ان لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر اذ ربما يختم للكافر

والمتسورة بحرصها الى كل تحقيق وكل تمويه واطلقت عنان النظر فى مسارح الفكر وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت فى التيه وتنوعت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين ارباب النقل والعقل فى شئ كالاختلاف فى ماهية الروح ولو لازمت النفوس حدها معترفة بعجزها كان ذلك اجدر بها وأولى فاما أقاويل من ليس متمسكا بالشرائع فننزه الكتاب عن ذكرها لانها أقوال ابرزتها العقول التى ضلت عن الرشاد وطبعت على الفساد ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الانبياء فهم كما قال الله تعالى كانت أعينهم

بالايمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لا ثقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ماهو به كان العلم كمالا فى حقه لا نه فى صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الاشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا فى حقه اذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الامور التى لا ضرر فيها هى التى تتصور فى العبد من صفات الله تعالى فلاجرم هو منتهى الفضيلة و به فضل الانبياء والاولياء والعلماء فاذاً لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهى بوجه من الوجوه الغنى الذى يوصف به الله سبحانه فهو فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع الى حال الغنى الشاكر

(المقام الثانى فى نسبة حال الفقير الحريص الى حال الغنى الحريص) ولنفرض هذا فى شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فاى حالتيه أفضل فنقول ننظر فان كان مطلوبه مالا بد منه فى المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين و يستعين به عليه فحال الوجود أفضل لان الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر الا قدرة مدخولة بشغل والمكفى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال كاد الفقر أن يكون كفراً أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وان كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح لانهما استويا فى الحرص وحب المال واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ولكن افترقا فى أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه فى قلبه و يطمئن الى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذى يبغى الخلاص منه ومهما استوت الامور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا الى الدنيا فحاله أشد لا محالة اذ يلتفت قلبه الى الدنيا و يستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) أن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغى أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك اذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه فى فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وان كان حريصا عليها فاذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الاشرف والافضل والاصلح لكافة الخلق الا فى موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضى الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيداً له اذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم والثانى الفقر عن مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفراً ولا خير فيه بوجه من الوجوه الا اذا كان وجوده يبقى حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصى ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل فالاصلح له ان يموت جوعا ولا يجد ما يضطر اليه ايضا فهذا تفصيل القول فى الغنى والفقر و يبقى النظر فى فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه وفى غنى دونه فى الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره فهذا فى محل النظر والا ظهر ان بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده والعلم عند الله تعالى فيه

(بيان آداب الفقير فى فقره)

اعلم ان للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وافعاله ينبغى ان يراعيها فاما أدب باطنه فان لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر اعنى انه لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث انه فعله وان كان كارها للفقر كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتالمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام بل ربما يتقلد منه منة فهذا اقل درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا

فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فلما حجبوا عن الانبياء لم يسمعوا وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا فأصروا على الجهالات وحجبوا بالمعقول عن المامول والعقل حجة الله تعالى يهدى به قوما ويضل به قوما آخرين فلم تنقل أقوالهم فى الروح واختلافهم فيه وأما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا فى الروح فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم فى ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الاولى الامساك عن

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى احبب من أحببت فانك مفارقه تقدم

من قلو بكم تظفروا بثواب فقركم والافلا وأرفع من هذا ان لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وأرفع منه ان يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى و يكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى واثقا به فى قدر ضرورته انه ياتيه لا محالة و يكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه ان لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر اذا كان مثوبة ان يحسن عليه خلقه و يطيع به ربه ولا يشكو حاله و يشكر الله تعالى على فقره ومن علاماته اذا كان عقوبة ان يسوء عليه خلقه و يعصى ربه بترك طاعته و يكثر الشكاية و يتسخط القضاء وهذا يدل على ان كل فقير فليس بمحمود بل الذى لا يتسخط و يرضى او يفرح بالفقر و يرضى لعلمه بثمرته اذقيل ما أعطى عبد شيا من الدنيا الا قيل له خذه على ثلاثة اثلاث شغل وهم وطول حساب وأما أدب ظاهره فان يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره و يستر انه يستره ففى الحديث ان الله تعالى يحب الفقير المتعفف ابا العيال وقال تعالى يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف وقال سفيان افضل الاعمال التجمل عند المحنة وقال بعضهم ستر الفقير من كنوز البر وأما فى اعماله فادبه ان لا يتواضع لغنى لاجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما احسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى واحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها ان لا يخالط الاغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لان ذلك من مبادى الطمع قال الثورى رحمه الله اذا خالط الفقير الاغنياء فاعلم انه مراء واذا خالط السلطان فاعلم انه لص وقال بعض العارفين اذا خالط الفقير الاغنياء انحلت عروته فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته فاذا سكن اليهم ضل و ينبغى ان لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للاغنياء وطمعا فى العطاء واما ادبه فى افعاله فان لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل مايفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله اكثر من اموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى (١) روى زيد بن اسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم درهم من الصدقة افضل عند الله من مائة ألف درهم قيل و كيف ذلك يارسول الله قال اخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم افضل من صاحب المائة الف و ينبغى ان لا يدخر مالا بل ياخذ قدر الحاجة و يخرج الباقى وفى الادخار ثلاث درجات احداها ان لا يدخر الا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين والثانية ان يدخر لاربعين يوما فان مازاد عليه داخل فى طول الامل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة فى امل الحياة اربعين يوما وهذه درجة المتقين والثالثة ان يدخر لسنته وهى اقصى المراتب وهى رتبة الصالحين ومن زاد فى الادخار على هذا فهو واقع فى غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف فى طمانينة قلبه فى قوت سنته وغنى الخصوص فى أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الاقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول مايحصل و بعضهن قوت اربعين يوما و بعضهن يوم وليلة وهو قسم عائشة وحفصة

﴿ بيان آداب الفقير فى قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال ﴾

ينبغى ان يلاحظ الفقير فيماجاءه ثلاثة امور نفس المال وغرض المعطى وغرضه فى الاخذ اما نفس المال فينبغى ان يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من اخذه وقد ذكرنا فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ومايجب اجتنابه ومايستحب وأما غرض المعطى فلا يخلو اما ان يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهداية اوالثواب وهو الصدقة والزكاة اوالذكر والرياء والسمعة اما على التجرد واما ممزوجا ببقية الاغراض اما الاول وهو (٢) الهدية فلاباس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن ينبغى

(١) حديث زيد بن اسلم درهم من الصدقة افضل عند الله من مائة الف قيل وكيف يارسول الله قال اخرج رجل من عرض ماله مائة الف الحديث النسائى من حديث ابى هريرة متصلا وقد تقدم فى الزكاة ولا اصل له من رواية زيد بن اسلم مرسلا (٢) حديث ان قبول الهدية سنة تقدم انه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية

ذلك والتادب بادب النبي عليه السلام * وقد قال الجنيد الروح شئ استاثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه باكثر من موجود ولكن نجعل للصادقين محملا لاقوالهم وأفعالهم ويجوز ان يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التاويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة حيث حرم تفسيره وجوز تاويله اذ لا يسع القول فى التفسير الا النقل واما التاويل فتمتد العقول اليه بالباع الطويل وهو ذكر ماتحتمل الآية من المعنى من غير القطع بذلك واذا كان الامر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل قال ابو عبد الله النباجي الروح جسم يلطف عن

أن لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فالاولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض فقد(١) أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش(٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس و يرد على بعض وقال(٣) لقد هممت ان لا أتهب الا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت الى فتح الموصلى صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا(٤) عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أتاه رزق من غير مسألة فرده فانما يرده على الله ثم فتح الصرة فاخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروى هذا الحديث ايضا ولكن حمل اليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن امر العالم والواعظ اشد فى قبول العطاء وقد كان الحسن يقبل من أصحابه وكان ابراهيم التيمى يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه و يعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها وكان بعضهم اذا اعطاه صديقه شيئا يقول اتركه عندك وانظر ان كنت بعد قبوله فى قلبك أفضل منى قبل القبول فاخبرنى حتى آخذه والافلا وأمارة هذا ان يشق عليه الرد لو رده و يفرح بالقبول و يرى المنة على نفسه فى قبول صديقه هديته فان علم انه يمازجه منة فاخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين وقال بشر ما سالت احدا قط شيئا الا سريا السقطى لانه قد صح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشىء من يده و يتبرم ببقائه عنده فاكون عونا له على ما يحب وجاء خراسانى الى الجنيد رحمه الله بمال وساله ان يأكله فقال أفرقه على الفقراء فقال ما أريد هذا قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد ان تنفقه فى الخل والبقل بل فى الحلاوات والطيبات فقبل ذلك منه فقال الخراسانى ما اجد فى بغداد أمن على منك فقال الجنيد ولا ينبغى ان يقبل الا من مثلك * الثانى ان يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة فعليه ان ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى كتاب اسرار الزكاة وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا المعصية فى السر يعلم ان المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب الى الله بالتصدق عليه فهذا حرام اخذه كما لو اعطاه لظنه انه عالم او علوى ولم يكن فان اخذه حرام محض لا شبهة فيه الثالث ان يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغى ان يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله اذ يكون معينا له على غرضه الفاسد وكان سفيان الثورى يرد ما يعطى و يقول لو علمت انهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة فقال انما أرد صلتهم اشفاقا عليهم ونصحا لهم لانهم يذكرون ذلك و يحبون ان يعلم به فتذهب اموالهم وتحبط أجورهم * واما غرضه فى الاخذ فينبغى ان ينظر أهو محتاج اليه فيما لا بد له منه أوهو مستغن عنه فان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة

(١) حديث أهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم سمن واقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش احمد فى اثناء حديث ليعلى بن مرة واهدت اليه كبشين وشيئا من سمن واقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الاقط والسمن واحد الكبشين ورد عليها الآخر واسناده جيد وقال وكيع مرة عن يعلى بن مرة عن ابيه (٢) حديث كان يقبل من بعض الناس و يرد على بعض ابو داود والترمذي من حديث ابى هريرة وايم الله لا اقبل بعد يومى هذا من احد هدية الا ان يكون مهاجريا الحديث فيه محمد بن اسحق ورواه بالعنعنة (٣) حديث لقد هممت ان لا اتهب الامن قرشى او ثقفى او انصارى او دوسى الترمذى من حديث ابى هريرة وقال روى من غير وجه عن ابى هريرة قلت ورجاله ثقات (٤) حديث عطاء مرسلا من اتاه رزق من غير وسيلة فرده فانما يرد على الله عز وجل لم اجده مرسلا هكذا ولاحمد وابى يعلى والطبرانى باسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهنى من بلغه معروف من اخيه من غير مسالة ولا اشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله عز وجل اليه ولاحمد وابى داود الطيالسى من حديث ابى هريرة من اتاه الله من هذا المال شيئا من غير ان يساله فليقبله وفى الصحيحين من حديث عمر ما اتاك من هذا المال وانت غير مشرف ولا سائل فخذه الحديث

الحس و يكبر عن اللمس ولا يعبر عنه باكثر من موجود وهو وان منع عن العبارة فقد حكم بانه جسم فكانه عبر عنه وقال ابن عطاء خلق الله الارواح قبل الاجساد لقوله تعالى ولقد خلقناكم يعنى الارواح ثم صورناكم يعنى الاجساد وقال بعضهم الروح لطيف قائم فى كثيف كالبصر جوهر لطيف قائم فى كثيف وفى هذا القول نظر وقال بعضهم الروح عبارة والقائم بالاشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا الا أن يحمل على معنى الاحياء فقد قال بعضهم الاحياء صفة المحيى كالتخليق صفة الخالق وقال قل الروح من أمر ربى وأمره

والآفات التي ذكرناها في المعطى فالافضل له الاخذ قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) ما المعطى من سعة باعظم أجرا من الآخذ اذا كان محتاجا وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من اتاه شيء من هذا المال من غير مسالة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله اليه وفي لفظ آخر فلا يرده وقال بعض العلماء من أعطى ولم ياخذ سال ولم يعط وقد كان سرى السقطي يوصل الى احمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا فرده مرة فقال له السري يا احمد احذر آفة الرد فانها أشد من آفة الاخذ فقال له احمد أعد علي ماقلت فاعاده فقال احمد مارددت عليك الا لان عندي قوت شهر فاحبسه لي عندك فاذا كان بعد شهر فانفذه الى وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره فاما اذا كان ماأتاه زائدا على حاجته فلا يخلو اما ان يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بامور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لاخذه وامساكه ان كان طالبا طريق الآخرة فان ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان أو داع اليه ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه ثم له مقامان احدهما ان يأخذ في العلانية ويرد في السر او ياخذ في العلانية ويفرق في السر وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه الا من اطمأنت نفسه بالرياضة والثاني ان يترك ولا ياخذ ليصرفه صاحبه الى من هو احوج منه او ياخذ ويوصل الى من هو احوج منه فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية وقد ذكرنا هل الافضل اظهار الاخذ او اخفاؤه في كتاب اسرار الزكاة مع جملة من احكام الفقر فليطلب من موضعه واما امتناع احمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله فانما كان لاستغنائه عنه اذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه ان يشتغل باخذه وصرفه الى غيره فان في ذلك آفات واخطار والورع يكون حذرا من مظان الآفات اذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم اعددتها للانفاق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى يا من يرى ولا يرى فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه فقلت في نفسي لا اجد لدراهمي موضعا احسن من هذا فحملتها اليه فنظر اليها ثم اخذ منها خمسة دراهم وقال اربعة ثمن مئزرين ودرهم انفقه ثلاثا فلا حاجة بي الى الباقي فرده قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت الي فاخذ بيدي فاطافني معه اسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الارض يتخشخش تحت اقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد اعطانيه فزهدت فيه وآخذ من ايدي الخلق لان هذه اثقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة والمقصود من هذا ان الزيادة على قدر الحاجة انما تاتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة ياتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) لاحق لابن ادم الا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فاذا انت في اخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه ان لم تعص الله متعرض للحساب وان عصيت الله فانت متعرض للعقاب ومن الاختيار ايضا ان تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا الى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتاتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك فالاولى الامتناع عنها فان النفس اذا رخص لها في نقض العزم الفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد فان اخذته وصرفته الى محتاج فهو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون واما اذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق

---

(١) حديث ما المعطى من سعة باعظم اجرا من الآخذ اذا كان محتاجا الطبراني من حديث ابن عمر وقد تقدم في الزكاة (٢) حديث من اتاه شيء من هذا المال من غير مسالة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله اليه وفي لفظ آخر فلا ترده تقدم ما قبل هذا الحديث (٣) حديث لاحق لابن آدم الا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام

كلامه وكلامه ليس بمخلوق اي صار الحي حيا بقوله كن حيا وعلى هذا لا يكون الروح معنى في الجسد فمن الاقوال مايدل على ان قائله يعتقد قدم الروح ومن الاقوال ما يدل على انه يعتقد حدوثه ثم ان الناس مختلفون في الروح الذي سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال قوم هو جبرائيل ونقل عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال هو ملك من الملائكة له سبعون الف وجه ولكل وجه منه سبعون الف لسان ولكل لسان منه سبعون الف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات

الفقراء وتمهد جماعة من الصلحاء فخذ مازاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء و بادر به الى الصرف اليهم ولا تدخره فان امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو من قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك *وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة الى التوسع فى المال والتنعم فى المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله من حلال قضاه وان مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وارضى غرماءه وذلك بشرط ان يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على اقراضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب ان يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله قيل معناه ليبع احد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله وقال بعضهم ان لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى ومات بعضهم فاوصى بماله لثلاث طوائف الاقوياء والاسخياء والاغنياء فقيل من هؤلاء فقال اما الاقوياء فهم اهل التوكل على الله تعالى واما الاسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى واما الاغنياء فهم اهل الانقطاع الى الله تعالى فاذا مهما وجدت هذه الشروط فيه وفى المال وفى المعطى فليأخذه و ينبغى ان يرى ما ياخذ من الله لا من المعطى لان المعطى واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر اليه بما سلط عليه من الدواعى والارادات والاعتقادات * وقد حكى ان بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من اصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لاصحابه ان هذا الرجل يقول من لم ير انى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامى عليه حرام فقاموا كلهم وخرجوا الا شابا منهم كان دونهم فى الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا قال اردت ان اختبر توحيد اصحابى كلهم وقال موسى عليه السلام يارب جعلت رزقى هكذا على ايدى بنى اسرائيل يغدينى هذا يوما و يعشينى هذا ليلة فاوحى الله تعالى اليه هكذا اصنع باوليائى أجرى ارزاقهم على ايدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم فلا ينبغى ان يرى المعطى الا من حيث انه مسخر ماجور من الله تعالى نسال الله حسن التوفيق لما يرضاه

﴿بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه﴾

اعلم انه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة اذ قال صلى الله عليه وسلم (١) للسائل حق ولو جاء على فرس وفى الحديث (٢) ردوا السائل ولو بظلف محرق ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز اعانة المتعدى على عدوانه والاعطاء اعانة فالكاشف للغطاء فيه ان السؤال حرام فى الاصل وانما يباح بضرورة اوحاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وانما قلنا ان الاصل فيه التحريم لانه لا ينفك عن ثلاثة امور محرمة * الاول اظهار الشكوى من الله تعالى اذ السؤال اظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى وكما ان العبد المملوك لو سال لكان سؤاله تشنيعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى وهذا ينبغى ان يحرم ولا يحل الا لضرورة كما تحل الميتة * الثانى ان فيه اذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن ان يذل نفسه لغير الله بل عليه ان يذل نفسه لمولاه فان فيه عزه فاما سائر الخلق فانهم عباد امثاله فلا ينبغى ان يذل لهم الا لضرورة وفى السؤال ذل للسائل بالاضافة الى المسؤل * الثالث انه لا ينفك عن ايذاء المسؤل غالبا لانه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه فان بذل حياء من السائل أو رياء فهو

يقيم صلبه وقال صحيح (١) حديث للسائل حق وان جاء على فرس أبو داود من حديث الحسين بن على ومن حديث على وفى الاول يعلى بن ابى يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفى الثانى شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وماذكر بن الصلاح فى علوم الحديث انه بلغه عن احمد بن حنبل قال اربعة احاديث تدور فى الاسواق ليس لها أصل منها للسائل حق الحديث فانه لا يصح عن احمد فقد اخرج حديث الحسين بن على فى مسنده

(٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف محرق أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح و النسائى واللفظ له من حديث

كلها ويخلق من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة الى يوم القيامة وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ان الروح خلق من خلق الله صورهم على صورة بنى آدم ومانزل من السماء ملك الا ومعه واحد من الروح وقال ابو صالح الروح كهيئة الانسان وليسوا بناس وقال مجاهد الروح على صورة بنى آدم لهم ايد وأرجل ورؤس ياكلون الطعام وليسوا بملائكة وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا اعظم من الروح غير العرش ولو شاء ان يبلغ السموات والارضين السبع فى لقمة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة

حرام على الآخذ وان منع ربما استحيا وتاذى في نفسه بالمنع اذ يرى نفسه في صورة البخلاء ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الايذاء والايذاء حرام الا بضرورة ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم (١) مسالة الناس من الفواحش ما احل من الفواحش غيرها فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى ان الفاحشة انما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من سال عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم (٣) ومن سال وله مايغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم وفي لفظ آخر كانت مسالته خدوشا وكدوحا في وجهه وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد (٤) وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة ولا تسالوا الناس شيئا وكان صلى الله عليه وسلم يامر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول (٥) من سالنا اعطيناه ومن استغنى اغناه الله ومن لم يسالنا فهو احب الينا وقال صلى الله عليه وسلم (٦) استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يارسول الله قال ومني وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسال بعد المغرب فقال الواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسال فقال الم اقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم اخذ المخلاة ونثرها بين يدى ابل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولا ان سؤاله كان حراما لما ضربه ولا اخذ مخلاته ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول اما ضربه فهو تاديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة باخذ المال فكيف استجازه وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه فاين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على اسرار دين الله ومصالح عباده افترى انه لم يعلم ان المصادرة بالمال غير جائزة اوعلم ذلك ولكن اقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه او اراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله وهيهات فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذي لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من اعطاه شيئا فانما اعطاه على اعتقاده انه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه باخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى اصحابه اذ لا يعرف اصحابه باعيانهم فبقي مالا لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح ويتنزل اخذ السائل مع اظهار الحاجة كاذبا كاخذ العلوي بقوله اني علوي وهو كاذب فانه لا يملك ما ياخذه وكاخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه وقد ذكرنا في مواضع ان ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد الى مالكه فاستدل

أم بجيد وقال ابن عبد البر حديث مضطرب (١) حديث مسئلة الناس من الفواحش وما احل الله من الفواحش غيرها لم اجد له أصلا (٢) حديث من سال عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم الحديث ابو داود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية مقتصرا على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة ولمسلم من حديث ابي هريرة من يسال الناس اموالهم تكثرا فانما يسال جمرا الحديث وللبزار والطبراني من حديث ابن مسعود بن عمر ولا يزال العبد يسال وهو غني حتى يخلق وجهه وفي اسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسال الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم واسناده جيد (٣) حديث من سال وله مايغنيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه اصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم في الزكاة (٤) حديث بايع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسالوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الاشجعي (٥) حديث من سالنا اعطيناه ومن استغنى اغناه الله ومن لم يسألنا فهو احب الينا ابن ابي الدنيا في القناعة والحارث بن ابي اسامة في مسنده من حديث ابي سعيد الخدري وفيه حصين بن هلال لم ار من تكلم فيه وباقيهم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير الحديث البزار والطبراني من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك واسناده صحيح وله في حديث بعدي الجذام فتعففوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه

وصورة وجهه على صورة الآدميين يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه في صف واحد وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا ان بينه وبين الملائكة سترا من نور احرق اهل السموات من نوره فهذه الاقاويل لا تكون الا نقلا وسماعا بلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك واذا كان الروح المسؤل عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح الذي في الجسد فعلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله الى اماكن معروفة لا يعبر عنه

فصل

بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه فى مواضع ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم ان الشئ اما أن يكون مضطرا اليه أو محتاجا اليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه فهذه أربعة أحوال أما المضطر اليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى و بدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسؤل بكونه مباحا والمسؤل منه بكونه راضيا فى الباطن وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيأ وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذان طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج الى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء وهو يتاذى بالبرد تاذيا لا ينتهى الى حد الضرورة وكذلك من يسال لاجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة فهذا أيضا ينبغى ان تسترسل عليه الاباحة لانها أيضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه اولى وهو بالسؤال تارك للاولى ولا يسمي سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال وقال ليس تحت جبتى قميص والبرد يؤذين أذى اطيقه ولكن يشق على فاذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله ان شاء الله تعالى وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن اعين الناس وكمن يسال لاجل الادم وهو واجد للخبز وكمن يسال الكراء لفرس فى الطريق وهو واجد كراء الحمار او يسال كراء المحمل وهو قادر على الراحلة فهذا ونحوه ان كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وان لم يكن وكان فيه شئ من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وايذاء المسؤل فهو حرام لان هذه الحاجة لا تصلح لان تباح بها هذه المحذورات وان لم يكن فيها شئ من ذلك فهو مباح مع الكراهة فان قلت فكيف يمكن اخلاء السؤال عن هذه المحذورات فاعلم ان الشكوى تندفع بان يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسال سؤال محتاج ولكن يقول انا مستغن بما أملكه ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى وأما الذل فبان يسال اباه او قريبه او صديقه الذى يعلم انه لا ينقصه ذلك فى عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله و يتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك فان الذل لازم للمنة لا محالة وأما الايذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل الا متبرع بصدق الرغبة وان كان فى القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا ايذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة و يكون الاحب اليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة واما اذا كان يسال شخصا معينا فينبغى ان لا يصرح بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا الى التغافل ان اراد فاذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وانه غير متاذ به و ينبغى ان يسال من لا يستحيي منه لو رده او تغافل عنه فان الحياء من السائل يؤذى كما ان الرياء مع غير السائل يؤذى فان قلت فاذا اخذ مع العلم بان باعث المعطى هو الحياء منه او من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة فاقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الامة وحكمه حكم اخذ مال الغير بالضرب والمصادرة اذ لا فرق بين ان يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب و يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام وضرب الباطن اشد نكاية فى قلوب العقلاء ولا يجوز ان يقال هو فى الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) انما احكم بالظاهر والله يتولى السرائر فان هذه ضرورة القضاة فى فصل الخصومات اذ لا يمكن ردهم الى البواطن وقرائن الاحوال فاضطروا الى الحكم بظاهر القول باللسان مع انه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت اليه وهذا سؤال عما بين العبد و بين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالالسنة عند سائر الحكام فلا تنظر فى مثل هذا الا الى قلبك وان افتوك

وما قل من السؤال الخ (١) حديث انما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم اجد له اصلا وكذا قال المزى لما سئل عنه

بأكثر من موجود بايجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كن لانه لو خرج من كن كان عليه الذل قيل فمن أى شئ خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الاشارة خصها بسلامه وحياها بكلامه فهى معتقة من ذل كن (وسئل) ابو سعيد الخراز عن الروح أمخلوقة هى قال نعم ولولا ذلك ما أقرت بالربوبية حيث قالت بلى والروح هى التى قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة وبالروح ثبت العقل وبالروح قامت الحجة ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لا حجة عليه ولا له وقيل انها جوهر مخلوق ولكنها

وأفتوك فان المفتى معلم للقاضى والسلطان ليحكموا فى عالم الشهادة ومفتى القلوب هم علماء الآخرة وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما ان بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فاذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه و بين الله تعالى و يجب عليه رده الى صاحبه فان كان يستحى من ان يسترده ولم يسترده فعليه ان يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته فى معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته فان لم يقبل هديته فعليه ان يرد ذلك الى ورثته فان تلف فى يده فهو مضمون عليه بينه و بين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه و بالسؤال الذى حصل به الاذى فان قلت فهذا امر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل الى الخلاص منه فربما يظن السائل انه راض ولا يكون هو فى الباطن راضيا فاقول لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فكانوا ياخذون من احد شيا أصلا فكان بشر لا ياخذ من احد اصلا الا من السرى رحمة الله عليهما وقال لانى علمت انه يفرح بخروج المال من يده فانا أعينه على ما يحب وانما اعظم النكير فى السؤال وتاكد الامر بالتعفف لهذا لان الاذى انما يحل بضرورة وهوان يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل الى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة واذى فيباح له ذلك كما يباح له اكل لحم الخنزير واكل لحم الميتة فكان الامتناع طريق الورعين وعن ارباب القلوب من كان واثقا ببصيرته فى الاطلاع على قرائن الاحوال فكانوا ياخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا ياخذ الا من اصدقائه ومنهم من كان ياخذ مما يعطى بعضا و يرد بعضا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكبش والسمن والاقط وكان هذا فيما ياتيهم من غير سؤال فان ذلك لا يكون الا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا فى جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فاما السؤال فقد امتنعوا عنه راسا الا فى موضعين احدهما الضرورة فقد سال ثلاثة من الانبياء فى موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهما السلام ولا شك فى انهم ما سالوا الا من علموا انه يرغب فى اعطائهم والثانى السؤال من الاصدقاء والاخوان فقد كانوا ياخذون مالهم بغير سؤال واستئذان لان ارباب القلوب علموا ان المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانو قد وثقوا باخوانهم انهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فاذا كانو يسالون الاخوان عن شكهم فى اقتدار اخوانهم على ما يردونه والا فكانوا يستغنون عن السؤال وحد اباحة السؤال ان تعلم أن المسؤل بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تاثيرا الا فى تعريف حاجتك فاما فى تحريكه بالحياء واثارة داعيته بالحيل فلا و يتصدى للسائل حالة لا يشك فيها فى الرضا بالباطن وحالة لا يشك فى الكراهة و يعلم ذلك بقرينة الاحوال فالاخذ فى الحالة الاولى حلال طلق وفى الثانية حرام سحت و يتردد بين الحالتين احوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه الى ما لا يريبه وادراك ذلك بقرائن الاحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فان قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة و بهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم (١) ان أطيب ما اكل الرجل من كسبه وقد اوتى جوامع الكلم لان من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه او احد قرابته فيا كل من ايدى الناس وان اعطى بغير سؤال فانما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما ياخذه حراما وان اعطى بسؤال فاين من يطيب قلبه بالعطاء اذا سئل واين من يقتصر فى السؤال على حد الضرورة فاذا فتشت احوال من يا كل من ايدى الناس علمت ان جميع ما يا كله او اكثره سحت وان الطيب هو الكسب الذى اكتسبته بحلالك انت او مورثك فاذا بعيد ان يجتمع الورع مع الاكل من ايدى الناس فنسال الله تعالى ان يقطع طمعنا عن غيره وان يغنينا بحلاله عن حرامه و بفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير

﴿ بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ﴾

اعلم ان قوله صلى الله عليه وسلم من سال عن ظهر غنى فانما يسال جمرا فليستقل منه أو ليستكثر صريح فى التحريم

ألطف المخلوقات واصفى الجواهر وانورها و بها تتراءى المغيبات و بها يكون الكشف لاهل الحقائق واذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الادب ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار وقابض ونازع وقيل الدنيا والآخرة عند الارواح سواء وقيل الارواح اقسام ارواح تجول فى البرزخ وتبصر احوال الدنيا والملائكة وتسمع ما تتحدث به فى السماء عن احوال الآدميين وارواح تحت العرش وارواح طيارة الى الجنان والى حيث شاءت على اقدرها من السعى الى الله ايام الحياة وروى سعيد بن المسيب

(١) حديث ان أطيب ما اكل الرجل من كسبه تقدم

ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير وليس الينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف وقد ورد فى الحديث (١) استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة وفى حديث آخر (٢) من سال وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سال الحافا وورد فى لفظ آخر أربعون درهما ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغى أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة فان الحق فى نفسه لا يكون الا واحدا والتقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك الا بتقسيم محيط باحوال المحتاجين فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحق لابن آدم الا فى ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فلنجعل هذه الثلاث أصلا فى الحاجات لبيان اجناسها والنظر فى الاجناس والمقادير والاوقات فاما الاجناس فهى هذه الثلاث ويلحق بها ما فى معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر اذا كان لا يقدر على المشى وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابه أيضا وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعا ولا ينبغى ان يطلب رقة الثياب وكون الاوانى من النحاس والصفر فيما يكفى فيه الخزف فان ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن فى غاية البعد عن العادة وأما الطعام فقدره فى اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والادم على الدوام فضلة وقطعه بالكلية اضرارا ففى طلبه فى بعض الاحوال رخصة وأما المسكن فاقله ما يجزىء من حيث المقدار وذلك من غير زينة فاما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة الى الاوقات فما يحتاج اليه فى الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه فاما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات احدها ما يحتاج اليه فى غد والثانية ما يحتاج اليه فى اربعين يوما اوخمسين يوما والثالثة ما يحتاج اليه فى السنة ولنقطع بان من معه ما يكفيه له ولعياله ان كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فان ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث فان خمسة دنانير تكفى المنفرد فى السنة اذا اقتصد أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وان كان يحتاج اليه قبل السنة فان كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصة فلا يحل له السؤال لانه مستغن فى الحال وربما لا يعيش الى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذى ورد فى التقدير بهذا القدر وان كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال لان أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف ان يبقى مضطرا عاجزا عما يعنيه فان كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا وكان ما لاجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخى المدة التى فيها يحتاج الى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتى فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجىء الرزق فى المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك الا من ضعف اليقين والاصغاء الى تخويف الشيطان وقد قال تعالى فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والسؤال من الفحشاء التى ابيحت بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وان كان مما يحتاج اليه فى السنة اشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان

(١) حديث استغنوا بغنى الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة تقدم فى الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية قالوا ما يغنيه قال ما يغديه أو يعشيه ولاحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث ابى هريرة (٢) حديث من سأل وله خمسون درهما او عدلها من الذهب فقد سأل الحافا وفى لفظ آخر أربعون درهما تقدما فى الزكاة

عن سلمان قال أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الارض حيث شاءت بين السماء والارض حتى يردها الى جسدها وقيل اذا ورد على الارواح ميت من الاحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الاحياء حتى اذا عرض على الاموات ما يعاقب به الاحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر الى الله ظاهرا عنه فانه لا أحد احب اليه العذر من الله تعالى وقد ورد فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم تعرض الاعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الانبياء والآباء والامهات يوم الجمعة فيفرحون

فى الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الامل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الخصلة من أمهات المهلكات نسال الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

﴿ بيان احوال السائلين ﴾

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة فقير لا يسأل وان اعطى لا ياخذ فهذا مع الرحانيين فى عليين وفقير لا يسال وان اعطى اخذ فهذا مع المقربين فى جنات الفردوس وفقير يسال عند الحاجة فهذا مع الصادقين من اصحاب اليمين فاذا قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى انه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة قال شقيق البلخى لابراهيم بن ادهم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من اصحابك قال تركتهم ان اعطوا شكروا وان منعوا صبروا وظن انه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء فقال شفيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له ابراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحاق فقال الفقراء عندنا ان منعوا شكروا وان اعطوا آثروا فقبل رأسه وقال صدقت يا استاذ فاذا درجات ارباب الاحوال فى الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلابد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه اذا لم يعلم لم يقدر على الرقى من حضيضها الى قلاعها ومن اسفل سافلين الى اعلى عليين وقد خلق الانسان فى احسن تقويم ثم رد الى اسفل سافلين ثم امر ان يترقى الى اعلى عليين ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقى قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وارباب الاحوال قد تغلبهم حالة تقتضى ان يكون السؤال مزيدا لهم فى درجاتهم ولكن بالاضافة الى حالهم فان مثل هذه الاعمال بالنيات وذلك كما روى ان بعضهم رأى اباسحق النورى رحمه الله يمد يده و يسال الناس فى بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له فأتيت الجنيد رحمه الله فاخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النورى لم يسال الناس الا ليعطيهم وانما سالهم ليثيبهم فى الاخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكانه اشار به الى قوله صلى الله عليه وسلم (١) يد المعطى هى العليا فقال بعضهم يد المعطى هى يد الآخذ للمال لانه يعطى الثواب والقدر له لا لما ياخذه ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فالقاها على المائة ثم قال احملها اليه فقلت فى نفسى انما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم واستحييت ان اساله فذهبت بالصرة الى النورى فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردها عليه وقل له انا لا اقبل منك انت شيا واخذ ما زاد عن المائة قال فزاد تعجبي فسالته فقال الجنيد رجل حكيم يريد ان ياخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا للثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل فاخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها الى الجنيد فبكى وقال اخذ ماله ورد مالنا الله المستعان فانظر الان كيف صفت قلوبهم واحوالهم وكيف خلصت لله اعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الاسرار وذلك نتيجة اكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه الهمة فمن انكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن انكره بعد ان طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فانكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعلة فى بطنه فاخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وان كان فى الجهل دون الاول ولكنه ليس خاليا عن حظ وأف من الجهل بل البصير احد رجلين امارجل سلك الطريق فظهر له مثل ماظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل الى عين اليقين وامارجل لم يسلك الطريق اوسلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وان لم يكن واصلا الى عين اليقين ولعلم اليقين ايضا رتبة وان كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة واتباع الشياطين فنسال الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين فى العلم

بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضا واشراقا فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفى خبر اخران اعمالكم تعرض على عشائركم واقاربكم من الموتى فان كان حسنا استبشروا وان كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا وهذه الاخبار والاقوال تدل على انها أعيان فى الجسد وليست بمعان واعراض (سئل) الواسطى لأى علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق قال لانه خلق روحه أولا فوقع له صحبة التمكن والاستقرار ألا تراه يقول كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد أى لم يكن روحا ولا جسدا وقال

(١) حديث يد المعطى هى العليا مسلم من حديث أبى هريرة

القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب

(الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد) وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد فى المطعم والملبس والمسكن والاثاث وضروب المعيشة وبيان علامة الزهد

﴿ بيان حقيقة الزهد ﴾

اعلم ان الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لان أبواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع الى عقد وقول وعمل وكان القول لظهوره أقيم مقام الحال اذ به يظهر الحال الباطن والا فليس القول مراد لعينه وان لم يكن صادراً عن حال سمى اسلاما ولم يسم ايمانا والعلم السبب فى الحال يجرى مجرى المثمر والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل * أما الحال فنعنى بها مايسمى زاهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشىء الى ماهو خير منه فكل من عدل عن شىء الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وانما عدل الى غيره لرغبته فى غيره فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهداً وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحبا فاذا يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط الرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمى زاهداً اذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً وانما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير لان التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبائع لا يقدم على البيع الا والمشترى عنده خير من المبيع فيكون حاله بالاضافة الى المبيع زاهداً فيه وبالاضافة الى العوض عنه رغبة فيه وحبا ولذلك قال الله تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف اخوة يوسف بالزهد فيه اذ طمعوا أن يخلو لهم وجه ابيهم وكان ذلك عندهم أحب اليهم من يوسف فباعوه طمعا فى العوض فاذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا وكل من باع الاخرة بالدنيا فهو ايضا زاهد ولكن فى الاخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا كما خصص اسم الالحاد بمن يميل الى الباطل خاصة وان كان هو للميل فى وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور الا بالعدول الى شىء هو احب منه والا فترك المحبوب بغير الاحب محال والذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب الا الله تعالى فهو الزاهد المطلق والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الاخرة بل طمع فى الحور والقصور والانهار والفواكه فهو ايضا زاهد ولكنه دون الاول والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه او يترك التوسع فى الاكل ولا يترك التجمل فى الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته فى الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك فى المحظورات والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وان كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فاذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا الى الاخرة أو عن غير الله تعالى عدولا الى الله تعالى وهى الدرجة العليا وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده فيشترط فى الرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه فان ترك مالا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ولذلك قيل لابن المبارك يازاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففيماذا زهدت * وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالاضافة الى الماخوذ كعلم التاجر بان العوض خير من المبيع فيرغب فيه وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف أن ماعند الله باق وان الاخرة خير وأبقى أى لذاتها خير فى أنفسهم وأبقى

بعضهم الروح خلق من نور العزة وابليس من نار العزة ولهذا قال خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يدر أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهى للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا فى علم الله لان علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والمختار عند أكثر متكلمى الاسلام أن الانسانية والحيوانية عرضان خلقا فى الانسان والموت بعدمهما وأن الروح هى الحياة بعينها صار البدن بوجودها حيا وبالاعادة اليه فى القيامة يصير حيا وذهب بعض متكلمى الاسلام الى أنه جسم لطيف مشتبك بالاجسام

كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلئ فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لا يزال فى الذوبان الى الانقراض والآخرة كالجوهر الذى لا فناء له فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة حتى ان من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به فليس يحتاج من العلم فى الزهد الا الى هذا القدر وهو ان الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمه و يقينه واما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه وكونه مقهورا فى يد الشيطان واما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم الى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه الا الحسرة بعد الفوت والى تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل والى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير فنبه على ان العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد الا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب فى أحب منه (١) قال رجل فى دعائه اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك وهذا لان الله تعالى يراها حقيرة كما هى وكل مخلوق فهو بالاضافة الى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة فى حق نفسه بالاضافة الى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وان رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الارض مثلا لانه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ما سواه فيرى الكل فى درجة واحدة بالاضافة الى جلاله و يراه متفاوتا بالاضافة الى غيره والزاهد هو الذى يرى تفاوته بالاضافة الى نفسه لا الى غيره * واما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لانه بيع ومعاملة واستبدال للذى هو خير بالذى هو أدنى فكما ان العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع واخراجه من اليد واخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهى الدنيا باسرها مع اسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها و يدخل حب الطاعات و يخرج من العين واليد ما اخرجه من القلب و يوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات والا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين فى الاخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به فان الذى بايعه بهذا البيع وفى بالعهد فمن سلم حاضرا فى غائب وسلم الحاضر واخذ يسعى فى طلب الغائب سلم اليه الغائب حين فراغه من سعيه ان كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد ومادام ممسكا للدنيا لا يصلح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى أخوة يوسف بالزهد فى بنيامين وان كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه احب الى ابينا منا وعزموا على ابعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه احدهم فترك ولا وصفهم ايضا بالزهد فى يوسف عند العزم على اخراجه بل عند التسليم والبيع فعلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان اخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فانت زاهد فيما اخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا وان لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لان مالا يقدر عليه لا يقدر على تركه ور بما يستهويك الشيطان بغروره و يخيل اليك ان الدنيا وان لم تاتك فانت زاهد فيها فلا ينبغى ان تتدلى بحبل غروره دون ان تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك اذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصى عند تعذرها فلما تيسرت له اسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها واذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات فاياك ان تثق بوعدها فى المباحات والموثق الغليظ الذى تاخذه عليها ان تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة فاذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والاعذار ظاهرا او باطنا فلا بأس ان تثق بها وثوقا ما ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فانها سريعة النقض للعهد قريبة الرجوع الى مقتضى الطبع

(١) حديث قال رجل اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصرا اللهم ارنى الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث ابى القصير ولم يخرجه

الكثيفة لاشتباك الماء بالعود الاخضر وهو اختيار ابى المعالى الجوينى وكثير منهم مال الى انه عرض الا انه ردهم عن ذلك الاخبار الدالة على انه جسم لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد فى البرزخ فحيث وصف باوصاف دل على انه جسم لان العرض لا يوصف باوصاف اذ الوصف معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى واختار بعضهم انه عرض (سئل) ابن عباس رضى الله عنهما قيل اين تذهب الارواح عند مفارقة الابدان فقال اين يذهب ضوء المصباح عند فناء الادهان قيل له فاين تذهب الجسوم اذا بليت قال فاين يذهب لحمها اذا مرضت وقال بعض من

وبالجملة

و بالجملة فلاأمان منها الاعندالترك بالاضافة الى ماترك فقط وذلك عندالقدرة قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة الاترى الى ابن الحائك هذا لانفتى فى مسالة الاردعلينا يعنى أباحنيفة فقال ابن شبرمة لاأدرى ابن هو الحائك ام ماهو ولكن اعلم ان الدنيا غدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها و كذلك (١) قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انانحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولوأنا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم اواخرجوا من دياركم مافعلوه الاقليل منهم قال ابن مسعود رحمه الله قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعنى من القليل قال (٢) وماعرفت ان فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الاخرة واعلم انه ليس من الزهد ترك المال و بذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لامدخل لشىء منه فى العبادات وانما الزهد ان تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالاضافة الى نفاسة الاخرة فاما كل نوع من الترك فانه يتصور ممن لايؤمن بالاخرة فذلك قديكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لايكون زهدا اذحسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهى ألذ وأهنا من المال وكماان ترك المال على سبيل السلم طمعا فى العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا فى الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لمافى حفظ المال من المشقة والعناء والحاجة الى التذلل للسلاطين والاغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزاهد من اتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهوقادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولافوات حظ للنفس فتركها خوفامن ان يانس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبا لماسوى الله و يكون مشركا فى حب الله تعالى غيره اوتركها طمعافى ثواب الله فى الاخرة فترك التمتع باشربة الدنيا طمعا فى اشربة الجنة وترك التمتع بالسرارى والنسوان طمعافى الحور العين وترك التفرج فى البساتين طمعافى بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا فى زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا فى فواكه الجنة وخوفا من ان يقال له اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا فآثر فى جميع ذلك ماوعد به فى الجنة على ماتيسر له فى الدنيا صفوا عفوا لعلمه بان مافى الاخرة خير وأبقى وان ماسوى هذا فمعاملات دنيوية لاجدوى لها فى الاخرة اصلا

﴿ بيان فضيلة الزهد ﴾

قال الله تعالى فخرج على قومه فى زينته الى قوله تعالى وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن امن فنسب الزهد الى العلماء ووصف اهله بالعلم وهوغاية الثناء وقال تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا وجاء فى التفسير على الزهد فى الدنيا وقال عز وجل اناجعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا قيل معناه ايهم ازهد فيها فوصف الزهد بانه من احسن الاعمال وقال تعالى من كان يريد حرث الاخرة نزدله فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وقال تعالى ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجامنهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى وقال تعالى الذين يستحبون الحياة الدنيا على الاخرة فوصف الكفار بذلك فمفهومه ان المؤمن هوالذى يتصف بنقيضه وهوان يستحب الاخرة على الحياة الدنيا (وأما الاخبار) فماورد فى ذم الدنيا كثير وقد اوردنا بعضها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات اذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيافانه من المنجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه امره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه

ولذه (١) حديث قال المسلمون انانحب ربنا ولوعلمنا فى اى شىء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم الاية لم أقف له على اصل (٢) حديث ابن مسعود ماعرفت ان فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى منكم من يريد الدنيا الاية البيهقى فى دلائل النبوة باسناد حسن (٣) حديث من اصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه امره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذى من حديث انس بسند

يتهم بالعلوم المردودة المذمومة و ينسب الى الاسلام الروح تنفصل من البدن فى جسم لطيف وقال بعضهم انها اذا فارقت البدن تحل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات لان تجردها من هيآت البدن عند المفارقة غير ممكن وهى عند الموت شاعرة بالموت و بعد الموت متخيلة بنفسها مقهورة وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة وتحس بالثواب والعقاب فى القبر وقال بعضهم اسلم المقالات ان يقال الروح شىء مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن مادام متصلا به وانه

ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن اصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة وقال صلى الله عليه وسلم (١) اذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة وقال تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ولذلك قيل من زهد فى الدنيا أربعين يوما اجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه وانطق بها لسانه وعن بعض الصحابة انه قال (٢) قلنا يارسول الله اى الناس خير قال كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان قلنا يارسول الله وما محموم القلب قال التقى النقى الذى لاغل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد قلنا يارسول الله فمن على اثره قال الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة ومفهوم هذا ان شر الناس الذى يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ان اردت ان يحبك الله فازهد فى الدنيا فجعل الزهد سببا للمحبة فمن احبه الله تعالى فهو فى أعلى الدرجات فينبغى ان يكون الزهد فى الدنيا من افضل المقامات ومفهومه أيضا ان محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفى خبر من طريق اهل البيت (٤) الزهد والورع يجولان فى القلوب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء اقاما فيه والا ارتحلا (٥) ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا مؤمن حقا قال وما حقيقة ايمانك قال غزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها وكأنى بالجنة والنار وكأنى بعرش ربى بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالايمان فانظر كيف بدأ فى اظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان ولما (٦) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام قيل له وما هذا الشرح قال ان النور اذا دخل فى القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يارسول الله وهل لذلك من علامة قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله فانظر كيف جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافى عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم (٧) استحيوا من الله حق الحياء قالوا انا لنستحيى منه تعالى فقال ليس كذلك تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون فبين ان ذلك يناقض الحياء من الله تعالى (٨) ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا انا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة اذا نزلت بالاعداء فقال عليه الصلاة والسلام ان كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبنوا مالا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون فجعل الزهد تكملة لايمانهم وقال (٩) جابر رضى الله عنه خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من جاء بلا اله الا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام اليه على كرم الله وجهه فقال بأبى انت وامى

ضعيف نحوه (١) حديث اذا رأيتم العبد قد اوتى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة ابن ماجه من حديث ابى خلاد بسند فيه ضعف (٢) حديث قلنا يارسول الله وما محموم القلب قال التقى النقى الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يارسول الله فمن على اثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد المذكور الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٣) حديث ان اردت ان يحبك الله فازهد فى الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء اقاما فيه والا ارتحلا لم اجد له اصلا (٥) حديث لما قال له حارثة انا مؤمن حقا فقال وما حقيقة ايمانك الحديث البزار من حديث انس والطبرانى من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه الحديث الحاكم وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبرانى من حديث ام الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا انا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر فى تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر (٩) حديث جابر من جاء بلا اله الا الله لا يخلط معها شيء وجبت له الجنة لم اره من حديث جابر وقد رواه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث زيد بن ارقم باسناد ضعيف نحوه

اشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد كان الجسد بمفارقته يذوق الموت فان الكيفية والماهية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر فى شعاع الشمس ولما رأى المتكلمون انه يقال لهم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أى هؤلاء فاختار قوم منهم انه عرض وقوم منهم انه جسم لطيف كما ذكرنا واختار قوم انه قديم لانه أمر والامر كلام والكلام قديم فأحسن الامساك عن القول فيما هذا سبيله وكلام الشيخ أبى طالب المكى فى كتابه يدل على انه يميل الى ان الارواح أعيان فى الجسد

يارسول الله ما لايخلطها غيرها صفة لنا فسره لنا فقال حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها وقوم يقولون قول الانبياء ويعملون عمل الجبابرة فمن جاء بلا اله الا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة وفي الخبر (١) السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك وقال ايضا (٢) السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة وروى عن ابن المسيب عن (٣) أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فانطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها واخرجه منها سالما الى دار السلام وروى انه صلى الله عليه وسلم (٤) مر في اصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من احب اموالهم اليهم وانفسها عندهم لانها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى واذا العشار عطلت قال فاعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يارسول الله هذه انفس اموالنا لم لا تنظر اليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به الآية وروى (٥) مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يارسول الله الا تستطعم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع فقال ياعائشة والذي نفسي بيده لو سالت ربي ان يجري معي جبال الدنيا ذهبا لاجراها حيث شئت من الارض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ياعائشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ياعائشة ان الله لم يرض لاولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض لي الا ان يكلفني ما كلفهم فقال فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل والله مالي بد من طاعته واني والله لاصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة الا بالله وروى (٦) عن عمر رضي الله عنه انه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها البس الين الثياب اذا وفدت عليك الوفود من الافاق

---

(١) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث ابي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده (٢) حديث السخي قريب من الله الحديث الترمذي من حديث ابي هريرة وقد تقدم (٣) حديث ابو ذر من زهد في الدنيا ادخل الله الحكمة قلبه الحديث لم اره من حديث ابي ذر ورواه ابن ابي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا ولابن عدي في الكامل من حديث ابي موسى الاشعري من زهد في الدنيا اربعين يوما واخلص فيها العبادة اجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه ابو الشيخ في كتاب الثواب وابو نعيم في الحلية مختصرا من حديث ابي ايوب من اخلص لله وكلها ضعيفة (٤) حديث مر في اصحابه بعشار من النوق حفل الحديث وفيه ثم تلا قوله تعالى ولا تمدن عينيك الآية لم اجد له اصلا (٥) حديث مسروق عن عائشة قلت يارسول الله الا تستطعم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رايت به من الجوع الحديث وفيه ياعائشة ان الله لم يرض لاولى العزم من الرسل الا الصبر الحديث ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق ابي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا ياعائشة ان الله لم يرض من أولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض الا ان كلفني ما كلفهم فقال تعالى فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ومجالد مختلف في الاحتجاج به (٦) حديث ان عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس لين الثياب اذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى ابكاها وبكى الخ لم اجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة احاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم واهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو بن عبيد الله القدري متروك الحديث وللترمذي من حديث عائشة قالت ما اشبع من طعام فاشاء ان ابكي الا بكيت قلت لم قالت اذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهكذا النفوس لانه يذكران الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك وتتحرك للشر ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالاغواء وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير الى الروح (اقوال) ما عندي في ذلك على معنى ما ذكرت من التاويل دون ان اقطع به اذ ميلي في ذلك الى السكوت والامساك فاقول والله اعلم الروح الانساني العلوي السماوي من عالم الامر والروح الحيواني البشري من عالم الخلق والروح الحيواني البشري محل الروح العلوي

ومن بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر فقال عمر ياحفصة ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة الاجاعوا عشية ولا شبعوا عشية الاجاعوا غدوة وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم اليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الارض وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها وناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فياتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به الى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها الى الصلاة وناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساءين ازارا ورداء وبعثت اليه باحدهما قبل ان يبلغ الآخر فخرج الى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه الى عنقه فصلى كذلك فما زال يقول حتى ابكاها وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا ان نفسه ستخرج وفى بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو انه قال كان لى صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك بى طريق غير طريقهما وانى والله ساصبر على عيشهما الشديد لعلى ادرك معهما عيشهما الرغيد وعن (١) ابى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لقد كان الانبياء قبلى يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس الا العباءة وان كان احدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك احب اليهم من العطاء اليكم وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى فى بطنه من الهزال فهذا ما كان قد اختاره انبياء الله ورسله وهم اعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز فى الآخرة وفى حديث (٢) عمر رضى الله عنه انه قال لما انزل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله قال صلى الله عليه وسلم تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم فقلنا يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فاى شئ

ومورده والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ينبعث من القلب اعنى بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل المودعة فى الجانب الايسر من الجسد وينتشر فى تجاويف العروق الضوارب وهذه الروح لسائر الحيوانات ومنه تفيض قوى الحواس وهو الذى قوامه باجراء سنة الله بالغذاء غالبا ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الاخلاط ولورود الروح الانسانى العلوى على هذا الروح تجنس الروح الحيوانى وباين ارواح الحيوانات واكتسب صفة اخرى فصار نفسا محلا للنطق والالهام قال الله

الدنيا عليها والله ماشبع من خبز ولحم مرتين فى يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم فى آداب الاكل وللترمذى فى الشمائل من حديث حفصة انها سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم مسح نثنيه ثنتين فينام عليه الحديث ولابن سعد فى الطبقات من حديث عائشة انها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين الحديث وتقدم فى آداب المعيشة وللبزار من حديث ابى الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينخل له الدقيق ولم يكن له الا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ الا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى باحاديث لم يتابع عليها واحتملت على مافيها قلت فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحيي القطان وضعفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى فى شملة قد عقد عليها زاد الغطريفى فى جزئه المشهور فعقدها فى عنقه ماعليه غيرها واسناده ضعيف وتقدم فى آداب المعيشة (١) حديث ابى سعيد الخدرى كان الانبياء يبتلى احدهم بالفقر فلا يجد الا العباءة الحديث باسناد صحيح فى اثناء حديث اوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وان كان احدهم ليبتلى بالقمل (٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة الآية قال تبا للدينار والدرهم الحديث وفيه فاى شئ ندخر الترمذى وابن ماجه وتقدم فى النكاح دون قوله تبا للدينار والدرهم والزيادة رواها الطبرانى فى الاوسط وهو من حديث ثوبان وانما قال المصنف انه حديث عمر لان عمر هو الذى سال النبي صلى الله عليه وسلم اى المال يتخذ كما فى رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس

ندخر فقال صلى الله عليه وسلم ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته وفى حديث (١) حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث هما لا يفارق قلبه أبداً وفقراً لا يستغنى أبداً وحرصا لا يشبع أبداً وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم أن ربى عز وجل عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فاما اليوم الذى أجوع فيه فاتضرع اليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فاحمدك وأثنى عليك وعن (٣) ابن عباس رضى الله عنهما قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ياجبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه باسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله القيامة ان تقوم قال لا ولكن هذا اسرافيل عليه السلام قد نزل اليك حين سمع كلامك فاتاه اسرافيل فقال ان الله عز وجل سمع ماذكرت فبعثنى بمفاتيح الارض وامرنى ان اعرض عليك ان احببت أن اسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتا وذهبا وفضة فعلت وان شئت نبيا ملكا وان شئت نبيا عبدا فاومأ اليه جبريل ان تواضع لله فقال نبيا عبداً ثلاثا وقال صلى الله عليه وسلم (٤) اذا اراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه وقال صلى الله عليه وسلم لرجل (٥) ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى ايدى الناس يحبك الناس وقال صلوات الله عليه (٦) من اراد ان يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٧) من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ويرى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام (٨) اربع لا يدركن الا بتعب الصمت هو اول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء وايراد جميع الاخبار الواردة فى بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن فان الانبياء ما بعثوا الا لصرف الناس عن الدنيا الى الآخرة واليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما اوردناه كفاية والله المستعان (واما الآثار) فقد جاء فى الاثر لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل

---

(١) حديث حذيفة من آثار الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث الحديث لم اجده من حديث حذيفة والطبرانى من حديث ابن مسعود بسند حسن من اشرب قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث شقاء لا ينفذ عناه وحرص لا يبلغ غناه وامل لا يبلغ منتهاه وفى آخره زيادة (٢) حديث لا يستكمل عبد الايمان حتى يكون ان لا يعرف احب اليه من ان يعرف وحتى يكون قله احب اليه من كثرته لم اجد له اسنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية على ابن طلحة مرسلا لا يستكمل عبد الايمان حتى يكون الشيء احب اليه من كثرته وحتى يكون ان يعرف فى ذات الله احب اليه من ان يعرف فى غير ذات الله ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس وعلى ابن ابى طلحة اخرج له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسلة فالحديث اذا معضل (٣) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث فى نزول اسرافيل وقوله ان احببت ان اسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتا وذهبا وفضة الحديث تقدم مختصراً (٤) حديث اذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس دون قوله ورغبه فى الآخرة وزاد فقهه فى الدين واسناده ضعيف (٥) حديث ازهد فى الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٦) حديث من اراد ان يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا لم اجد له اصلا (٧) حديث من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات الحديث ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بن طالب (٨) حديث اربع لا يدركن

تعالى ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها فتسويتها بورود الروح الانسانى عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى وصار تكون النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الامر كتكون حواء من آدم فى عالم الخلق وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه قال الله تعالى وجعل منها زوجها ليسكن اليها فسكن آدم الى حواء وسكن الروح الانسانى العلوى الى الروح الحيوانى وصيره

مالم يسالوا مانقص من دنياهم وفى لفظ آخر مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم انه قال تابعنا الاعمال كلها فلم نر فى امر الآخرة ابلغ من زهد فى الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال كانوا ازهد فى الدنيا منكم وقال عمر رضى الله عنه الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا ان الله تعالى يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان اشتهى ان ارى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه ان للجنة ثمانية ابواب فاذا صار اهل الجنة اليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها احد قبل الزاهدين فى الدنيا العاشقين للجنة وقال يوسف بن أسباط رحمه الله انى لاشتهى من الله ثلاث خصال ان اموت حين اموت وليس فى ملكى درهم ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فاعطي ذلك كله وروى ان بعض الخلفاء ارسل الى الفقهاء بجوائز فقبلوها وارسل الى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وانت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال اتدرون ما مثلى ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لاجل ان ينتفعوا بجلدها وكذلك انتم أردتم ذبحى على كبرسنى موتوا يا أهلى جوعا خير لكم من ان تذبحوا فضيلا * وقال عبيد بن عمير كان المسيح بن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد اينما ادركه المساء نام وقالت امرأة أبى حازم لابى حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدى الله تعالى ثم الجنة او النار وقيل للحسن لم لا تغسل ثيابك قال الامر اعجل من ذلك وقال ابراهيم ابن ادهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالمدح فاذا فرحت بالموجود فانت حريص واذا حزنت على المفقود فانت ساخط والساخط معذب واذا سررت بالمدح فانت معجب والعجب يحبط العمل وقال ابن مسعود رضى الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له واحب الى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخر الدهر ابدا سرمدا وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا اكثر من نعمته فيما صرف الينا وكانه التفت الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم (١) ان الله يحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه فاذا فهم هذا علم ان النعمة فى المنع المؤدى الى الصحة اكثر منها فى الاعطاء المؤدى الى السقم وقال الثورى يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء وقال سهل لا يخلص العمل لمتعبد حتى لا يفزع من اربعة أشياء الجوع والعرى والفقر والذل وقال الحسن البصرى ادركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا اقبل ولا يأسفون على شئ منها ادبر ولهى كانت فى أعينهم اهون من التراب كان احدهم يعيش خمسين سنة اوستين سنة لم يطو له ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الارض شيأ ولا امر من فى بيته بصنعة طعام قط فاذا كان الليل فقيام على اقدامهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم كانوا اذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها وسألوا الله ان يقبلها واذا عملوا السيئة احزنتهم وسألوا الله ان يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه

﴿ بيان درجات الزهد واقسامه بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه ﴾

أعلم أن الزهد فى نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث * الدرجة الاولى وهى السفلى منها ان يزهد فى الدنيا وهو لها مشته وقلبه اليها مائل ونفسه اليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى المتزهد وهو مبدأ الزهد فى حق من يصل الى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب اولا نفسه ثم كيسه والزاهد

---

(١) حديث ان الله يحمى الحديث الطبرانى والحاكم من حديث أنس وقد تقدم

الا يتعب الصمت هو اول العبادة

نفسا وتكون من سكون الروح الى نفس القلب واعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية فالمضغة اللحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الامر وكان تكون القلب من الروح والنفس فى عالم الامر كتكون الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب فمن القلوب قلب متطلع الى الاب الذى هو الروح العلوى ميال اليه وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال القلوب اربعة قلب اجرد فيه سراج يزهر فذلك

أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه فى الطاعات لا فى الصبر على مافارقه والمتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود الى الدنيا والى الاستراحة بها فى قليل أو كثير * الدرجة الثانية الذى يترك الدنيا طوعا لاستحقاره اياها بالاضافة الى ماطمع فيه كالذى يترك درهما لاجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وان كان يحتاج الى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لامحالة زهده و يلتفت اليه كما يرى البائع المبيع و يلتفت اليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده و يظن فى نفسه انه ترك شيأ له قدر لما هو اعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان * الدرجة الثالثة وهى العليا أن يزهد طوعا و يزهد فى زهده فلا يرى زهده اذ لا يرى انه ترك شيأ اذ عرف أن الدنيا لاشئ فيكون كمن ترك خزفة واخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيأ والدنيا بالاضافة الى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالاضافة الى جوهرة فهذا هو الكمال فى الزهد وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات الى الدنيا كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة فى البيع قال ابو زيد رحمه الله تعالى لابى موسى عبد الرحيم فى أى شئ تتكلم قال فى الزهد قال فى أى شئ قال فى الدنيا فنفض يده وقال ظننت انه يتكلم فى شئ الدنيا لاشئ ايش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند اهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فالقى اليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره فى جميع مملكته أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها الى كلبه فى مقابلة ماقد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ان أكلت فلذتها فى حال المضغ وتنقضى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثفلها فى المعدة ثم تنتهى الى النتن والقذر ثم يحتاج بعد ذلك الى اخراج ذلك الثفل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت اليها ونسبة الدنيا كلها أعنى مايسلم لكل شخص منها وان عمر مائة سنة بالاضافة الى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالاضافة الى ملك الدنيا اذ لانسبة للمتناهى الى مالانهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها الى نعيم الابد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية فاى نسبة لها الى نعيم الابد فاذا لا يلتفت الزاهد الى زهده الا اذا التفت الى ما زهد فيه ولا يلتفت الى ما زهد فيه الا لانه يراه شيا معتدا به ولا يراه شيأ معتدا به الا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات اذ تصبر المتزهد يختلف و يتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة فى الصبر وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته الى زهده * واما انقسام الزهد بالاضافة الى المرغوب فيه فهو ايضا على ثلاث درجات * الدرجة السفلى ان يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر مابين يدى العبد من الاهوال كما وردت به الاخبار اذ فيها (١) ان الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء فهذا هو زهد الخائفين وكانهم رضوا بالعدم لو اعدموا فان الخلاص من الالم يحصل بمجرد العدم * الدرجة الثانية ان يزهد رغبة فى ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة فى جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فان هؤلاء ماتركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الالم بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له * الدرجة الثالثة وهى العليا أن لا يكون له رغبة الا فى الله وفى لقائه فلا يلتفت قلبه الى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا الى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها هل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذى اصبح وهمومه هم واحد وهو الموحد الحقيقى الذى لا يطلب غير الله تعالى

عنده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم (١) حديث ان الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء احمد من حديث ابن عباس التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير الحديث وفيه انى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ماوصلت اليك حتى سال منى العرق مالو ورده الف بعير اكلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه دويد غير منسوب يحتاج الى معرفته قال احمد حديثه مثله

قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فاى المادتين غلبت عليه حكم له بها والقلب المنكوس ميال الى الالام التى هى النفس الامارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد فى ميله اليهما و بحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة والعقل جوهر الروح العلوى ولسانه والدال عليه وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد

لان من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة الى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفي وهذا زهد المحبين وهم العارفون لانه لا يحب الله تعالى خاصة الا من عرفه وكما ان من عرف الدينار والدرهم وعلم انه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب الا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر الى وجهه الكريم وعرف ان الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر الى نقش القصور وخضرة الاشجار غير ممكن فلا يحب الا لذة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظنن ان أهل الجنة عند النظر الى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع فى قلوبهم بل تلك اللذة بالاضافة الى لذة نعيم اهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على اطراف الارض ورقاب الخلق بالاضافة الى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وارباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك لذة الملك وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك لا لان اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى والذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق * واما انقسامه بالاضافة الى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الاقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الاقاويل ولكن نشير الى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح ان اكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل فنقول المرغوب عنه بالزهد له اجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الاقسام وبعضها أجمل للجمل * اما الاجمال فى الدرجة الاولى فهو كل ما سوى الله فينبغي ان يزهد فيه حتى يزهد فى نفسه ايضا والاجمال فى الدرجة الثانية ان يزهد فى كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها وفى الدرجة الثالثة ان يزهد فى المال والجاه واسبابهما اذ اليهما ترجع جميع حظوظ النفس وفى الدرجة الرابعة ان يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه اذ الاموال وان كثرت اصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وان كثرت اسبابه فيرجع الى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب اذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما ان معنى المال ملك الاعيان والقدرة عليها فان جاوزت هذا التفصيل الى شرح وتفصيل ابلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ثم رده فى آية اخرى الى خمسة فقال عزوجل اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد ثم رده تعالى فى موضع آخر الى اثنين فقال تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو ثم رد الكل الى واحد فى موضع آخر فقال ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا فينبغي ان يكون الزهد فيه واذا فهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت ان البعض من هذه لا يخالف البعض وانما يفارقه فى الشرح مرة والاجمال أخرى فالحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا فقصر أمله لا محالة لانه انما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بارادة البقاء فان من اراد شيأ أراد دوامه ولا معنى لحب الحياة الا حب دوام ما هو موجود أو ممكن فى هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى اجل قريب فقال تعالى قل متاع الدنيا قليل أى لستم تريدون البقاء الا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين اما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا احدى الحسنيين وكانوا اذا دعوا الى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون اليه مبادرة الظمآن الى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله اونيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى ان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة وانا الآن اموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين فى الايمان رضى الله عنهم اجمعين وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من

البار والزوج للزجة الصالحة وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الامارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزجة السيئة فمنكوس من وجه ومنجذب الى تدبيرهما من وجه اذ لا بد له منهما وقول القائلين واختلافهم فى محل العقل فمن قائل ان محله الدماغ ومن قائل ان محله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم فى ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه الى البار تارة والى العاق أخرى وللقلب والدماغ نسبة الى البار والعاق فاذا رؤى فى تدبير العاقل قبل مسكنه الدماغ واذا رؤى فى تدبير البار قيل مسكنه القلب

الموت فقيل لهم ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم فايثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير فاولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم انفسهم واموالهم بان لهم الجنة فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أوثلاثين سنة بتمتع الابد استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه واذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون فى حد الزهد لم يشيروا به الا الى بعض اقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بشر رحمه الله تعالى الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس وهذا اشارة الى الزهد فى الجاه خاصة وقال قاسم الجوعى الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوف فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد وهذا اشارة الى الزهد فى شهوة واحدة ولعمرى هى اغلب الشهوات على الاكثر وهى المهيجة لاكثر الشهوات وقال الفضيل الزهد فى الدنيا هو القناعة وهذا اشارة الى المال خاصة وقال الثورى الزهد هو قصر الامل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها وقال أويس اذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطا فى الزهد وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للمضمون وهو اشارة الى الرزق وقال اهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول والزهد انما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا ان أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه فى الدنيا فهو صحيح ولكنه اشارة الى بعض اسباب الجاه خاصة أو الى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم مالا فائدة فيه فى الآخرة وقد طولوها حتى ينقضى عمر الانسان فى الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد ان يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده وقال الحسن الزاهد الذى اذا رأى احدا قال هذا افضل منى فذهب الى ان الزهد هو التواضع وهذا اشارة الى نفى الجاه والعجب وهو بعض اقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ولا شك فى انه اراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن اسباط يقول من صبر على الاذى وترك الشهوات واكل الخبز من الحلال فقد اخذ باصل الزهد وفى الزهد اقاويل وراء مانقلناه فلم نر فى نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الامور من اقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد الا الحيرة واما من انكشف له الحق فى نفسه وادركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة فلاجرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلاجرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التى هى مقام العبد فى نفسه والاحوال تختلف فلاجرم الاقوال المخبرة عنها تختلف واما الحق فى نفسه فلا يكون الا واحدا ولا يتصور ان يختلف وانما الجامع من هذه الاقاويل الكامل فى نفسه وان لم يكن فيه تفصيل ماقاله ابو سليمان الدارانى اذ قال سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شىء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج اوسافر فى طلب المعيشة اوكتب الحديث فقد ركن الى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدا للزهد وقد قرأ ابو سليمان قوله تعالى الا من أتى الله بقلب سليم فقال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى وقال انما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة فهذا بيان انقسام الزهد بالاضافة الى اصناف المزهود فيه فاما بالاضافة الى احكامه فينقسم الى فرض ونفل وسلامة كما قاله ابراهيم بن ادهم فالفرض هو الزهد فى الحرام والنفل هو الزهد فى الحلال والسلامة هو الزهد فى الشبهات وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد اذ قيل لمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى واما بالاضافة الى خفايا مايتركه فلا نهاية للزهد فيه اذ لا نهاية لما تتمتع به النفس فى الخطرات واللحظات وسائر الحالات لاسيما خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه الا الاسماسرة العلماء بل الاموال الظاهرة ايضا درجات الزهد فيها لا تتناهى فمن اقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام اذ توسد حجرا فى نومه فقال له الشيطان اما كنت تركت الدنيا

فالروح العلوى يهم بالارتفاع الى مولاه شوقا وحنوا وتنزها عن الاكوان ومن الاكوان القلب والنفس فاذا ارتقى الروح يحنو القلب اليه حنو الولد الحنين البار الى الوالد وتحن النفس الى القلب الذى هو الولد حنين الوالدة الحنينة الى ولدها واذا حنت النفس ارتقت من الارض وانزوت عروقها الضاربة فى العالم السفلى وانطوى هواها وانحسمت مادته وزهدت فى الدنيا وتجافت عن دار الغرور وأنابت الى دار الخلود وقد تخلد النفس التى هى الام الى الارض بوضعها الجبلى لتكونها من الروح الحيوانى الجنس ومستندها فى ركونها الى الطبائع التى هى

فما الذى بدا لك قال وما الذى تجدد قال توسدك الحجر اى تنعمت برفع رأسك عن الارض فى النوم فرمى الحجر وقال خذه مع ما تركته لك وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس فسألته أمه ان يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل فاوحى الله تعالى اليه يا يحيى آثرت على الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد الى ما كان عليه وقال احمد رحمه الله الزهد زهد أويس بلغ من العرى ان جلس فى قوصرة وجلس عيسى عليه السلام فى ظل حائط انسان فاقامه صاحب الحائط فقال ما اقمتنى انت انما اقامنى الذى لم يرض لى ان اتنعم بظل الحائط فاذا درجات الزهد ظاهرا و باطنا لا حصر لها واقل درجاته الزهد فى كل شبهة ومحظور وقال قوم الزهد هو الزهد فى الحلال لا فى الشبهة والمحظور فليس ذلك من درجاته فى شىء ثم رأوا انه لم يبق حلال فى اموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن فان قلت مهما كان الصحيح هو ان الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى فاعلم ان معنى الانصراف عن الدنيا الى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ولا يتصور ذلك الا مع البقاء ولا بقاء الا بضروريات النفس فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل الى الشىء الا به فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة وسقيها فى طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغى ان يكون بدنك فى طريق الله مثل ناقتك فى طريق الحج ولا غرض لك فى تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك الى مقصدك فكذلك ينبغى ان تكون فى صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالاكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد وان قلت فلا بد وان اتلذذ بالاكل عند الجوع فاعلم ان ذلك لا يضرك اذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله الى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصوداً عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا اليه فالانسان قد يستريح فى قيام الليل بتنسم الاسحار وصوت الاطيار ولكن اذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان فى الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الاسحار خيفة من الاستراحة به وانس القلب معه فيكون فيه انس بالدنيا ونقصان فى الانس بالله بقدر وقوع الانس بغير الله ولذلك كان داود الطائى له حب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف المحتاطين والحزم فى جميع ذلك الاحتياط فانه وان كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على اهل المعرفة القاهرين لانفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين فى معرفة المضادة التى بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم اجمعين

﴿ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة ﴾

اعلم ان ما الناس منهمكون فيه ينقسم الى فضول والى مهم فالفضول كالخيل المسومة مثلا اذ غالب الناس انما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشى والمهم كالاكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل اصناف الفضول فان ذلك لا ينحصر وانما ينحصر المهم الضرورى والمهم ايضا يتطرق اليه فضول فى مقداره وجنسه واوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة امور المطعم والملبس والمسكن واثاثه والمنكح والمال والجاه يطلب لاغراض وهذه الستة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه فى كتاب الرياء من ربع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة (الاول المطعم) ولا بد للانسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فاما طوله فبالاضافة الى جملة العمر فان من يملك طعام يومه فلا يقنع به واما عرضه ففى مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله اما طوله فلا يقصر الا بقصر الامل

اركان العالم السفلى قال الله تعالى ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه فاذا سكنت النفس التى هى الام الى الارض انجذب اليها الآب المنكوس انجذاب الولد الميال الى الوالدة المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم وتنجذب الروح الى الولد الذى هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد الى ولده فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة ذلك تقدير العزيز العليم (وقد ورد) فى اخبار داود عليه السلام انه سأل ابنه سليمان اين موضع العقل منك قال القلب لانه قلب الروح

وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فاذا استقل بما تناوله لم يدخر من غذائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا ﴿الدرجة الثانية﴾ ان يدخر لشهر او اربعين يوما ﴿الدرجة الثالثة﴾ ان يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر لا كثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لان من امل بقاءا كثر من سنة فهو طويل الامل جدا فلا يتم منه الزهد الا اذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الاخذ من ايدى الناس كداود الطائى فانه ورث عشرين دينارا فامسكها وانفقها فى عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد الا عند من جعل التوكل شرط الزهد واما عرضه فبالاضافة الى المقدار واقل درجاته فى اليوم والليلة نصف رطل واوسطه رطل واعلاه مد واحد وهو ماقدره الله تعالى فى اطعام المسكين فى الكفارة وماوراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد فى البطن نصيب واما بالاضافة الى الجنس فاقله كل مايقوت ولو الخبز من النخالة واوسطه خبز الشعير والذرة واعلاه خبز البر غير منخول فاذا ميز من النخالة وصار حوارى فقد دخل فى التنعم وخرج عن آخر ابواب الزهد فضلا عن اوائله واما الادم فاقله الملح او البقل والخل واوسطه الزيت او يسير من الادهان اى دهن كان واعلاه اللحم اى لحم كان وذلك فى الاسبوع مرة او مرتين فان صار دائما او اكثر من مرتين فى الاسبوع خرج عن آخر ابواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا فى البطن اصلا واما بالاضافة الى الوقت فاقله فى اليوم والليلة مرة وهو ان يكون صائما واوسطه ان يصوم و يشرب ليلة ولا يأكل و يأكل ليلة ولا يشرب واعلاه ان ينتهى الى ان يطوى ثلاثة ايام او اسبوعا ومازاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه فى ربع المهلكات ولينظر الى احوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم فى كيفية زهدهم فى المطاعم وتركهم الادم قالت [1] عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تاتى علينا اربعون ليلة ومايوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فيم كنتم تعيشون قالت بالاسودين التمر والماء وهذا ترك اللحم والمرقة والادم وقال [2] الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار و يلبس الصوف و ينتعل المخصوف و يلعق اصابعه و ياكل على الارض و يقول انما انا عبد آكل كما تاكل العبيد واجلس كما تجلس العبيد وقال المسيح عليه السلام بحق اقول لكم انه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير وقال الفضيل [3] ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة ايام من الخبز البر وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول يابنى اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الانبياء والسلف فى المطعم والمشرب فى ربع المهلكات فلا نعيده [4] ولما اتى النبى صلى الله عليه وسلم اهل قباء اتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال اما انى لست احرمه ولكن اتركه تواضعا لله تعالى واتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال اعزلوا عنى حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازى الزاهد الصادق قوته ماوجد ولباسه ماستر ومسكنه حيث ادرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب انيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شانه والحياء شعاره والجوع ادامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة

(١) حديث عائشة كانت تاتى اربعون ليلة ومايوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان ياتى على آل محمد الشهر مايرى فى بيت من بيوته دخان الحديث وفى رواية لهما مايوقد فيه بنار ولاحمد كان يمر بنا هلال وهلال مايوقد فى بيت من بيوته نار وفى رواية له ثلاثة اهله (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار الحديث تقدم دون قوله انما انا عبد فانه ليس من حديث الحسن انما هو من حديث عائشة وقد تقدم (٣) حديث ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة ايام من خبز البر تقدم (٤) حديث لما اتى اهل قبا اتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده الحديث تقدم

والروح قالب الحياة (وقال) أبو سعيد القرشى الروح روحان روح الحياة وروح الممات فاذا اجتمعا عقل الجسم وروح الممات هى التى اذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتا وروح الحياة مابه مجارى الانفاس وقوة الاكل والشرب وغيرهما (وقال) بعضهم الروح نسيم طيب يكون به الحياة والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات ويقال فلان حار الرأس وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس واشارة المشايخ بماهية النفس الى مايظهر من آثارها من الافعال المذمومة والاخلاق المذمومة وهى

حرفته والجنة مبلغه ان شاء الله تعالى ﴿المهم الثاني الملبس﴾ واقل درجته مايدفع الحر والبرد و يستر العورة وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه ان يكون معه منديل وسراويل وماجاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد ان لا يكون له ثوب يلبسه اذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت فاذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع ابواب الزهد من حيث المقدار أما الجنس فاقله المسوح الخشونة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ وأما من حيث الوقوف فاقصاه مايستر سنة وأقله مايبقى يوما حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وان كان يتسارع الجفاف اليه وأوسطه مايتماسك عليه شهرا ومايقارب به فطلب مايبقى اكثر من سنة خروج الى طول الامل وهو مضاد للزهد الا اذا كان المطلوب خشونته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي ان يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ولينظر فيه الى احوال الانبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة (١) أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ان الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي مالبس وقال عمرو بن الاسود العنسي لا ألبس مشهورا أبدا ولا انام بليل على دثار أبدا ولا اركب على مأثور أبدا ولا أملأ جوفي من طعام أبدا فقال (٣) عمر من سره أن ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى عمرو بن الاسود وفي الخبر (٤) مامن عبد لبس ثوب شهرة الا أعرض الله عنه حتى ينزعه وان كان عنده حبيبا (٥) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا باربعة دراهم (٦) وكانت قيمة ثوبيه عشرة (٧) وكان ازاره أربعة أذرع ونصفا (٨) واشترى سراويل بثلاثة دراهم (٩) وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لانهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين

(١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة (٢) حديث ان الله يحب المتبذل الذي لا يبالي مالبس لم أجد له أصلا (٣) حديث عمر من سره ان ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى هدى عمرو بن الاسود رواه احمد باسناد جيد (٤) حديث مامن عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث ابي ذر باسناد جيد دون قوله وان كان عنده حبيبا (٥) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا باربعة دراهم ابو يعلى من حديث أبي هريرة قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس الى البزازين فاشترى سراويل باربعة دراهم الحديث واسناده ضعيف (٦) حديث كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم لم اجده (٧) حديث كان ازاره اربعة اذرع ونصفا ابو الشيخ في كتاب اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسلا كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم اربعة اذرع وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له ازار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر وفيه محمد بن عمر الواقدي (٨) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم المعروف انه اشتراه باربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس الا انه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٩) حديث كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لانهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أوسحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب واخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيته في حلة حمراء ولابي داود من حديث ابن عباس حين خرج الى الحرورية وعليه أحسن مايكون من حلل اليمن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم احسن مايكون من الحلل وفي الصحيحين من حديث عائشة انه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين احدهما ازار غليظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب المعيشة ولابي داود والترمذي والنسائي من حديث ابي رمثة وعليه بردان اخضران سكت عليه ابو داود واستغربه الترمذي وللبزار من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن ابراهيم لا يعرف قاله الذهبي

التي تعالج بحسن الرياضة ازالتها وتبديلها والافعال الرديئة تزال والاخلاق الرديئة تبدل (أخبرنا) الشيخ العالم رضي الدين احمد ابن اسمعيل القزويني قال انا اجازة ابو سعيد محمد بن ابي العباس الخليلي قال انا القاضي محمد بن سعيد الفرخزادي قال انا ابو اسحق احمد بن محمد بن ابراهيم قال أنا الحسين بن محمد ابن عبد الله السفياني قال حدثنا محمد بن الحسن اليقطيني قال حدثنا احمد ابن عبد الله بن يزيد العقيلي قال حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد بن زيد عن سعيد بن ابي هلال ان رسول الله صلى الله عليه

يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر (١) كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (٢) ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحداً ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يارسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا وكان قد أهداه اليه المقوقس ملك الاسكندرية فاراد أن يكرمه بلبسه ثم نزعه وأرسل به الى رجل من المشركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباج وكأنه انما لبسه أولا تأكيداً للتحريم كما (٣) لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال وكما (٤) قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لاهلها الولاء فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه وكما (٥) أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح وقد (٦) صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم فلما سلم قال شغلني النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبي جهم وائتوني بانبجانيته يعني كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شراك نعله قد أخلق فابدل بسير جديد فصلى فيه فلما سلم قال أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فاني نظرت اليه في الصلاة (٧) ولبس خاتما من ذهب ونظر اليه على المنبر نظرة فرمى به فقال شغلني هذا عنكم نظرة اليه ونظرة اليكم وكان صلى الله عليه وسلم قد (٨) احتذى مرة نعلين جديدين فاعجبه حسنهما فخر ساجداً وقال أعجبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يمقتني ثم خرج بهما فدفعهما الى أول مسكين رآه وعن (٩) سنان بن سعد قال حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال انظروا ما أحسنها ما ألينها قال فقام اليه اعرابي فقال يارسول الله هبها لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سئل شيئا لم يبخل به قال فدفعها اليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكة وعن (١٠) جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحا وعليها كساء من وبر الابل فلما نظر اليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الابد فانزل عليه ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال صلى الله عليه وسلم (١١) ان من خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الاعلى قوما يضحكون جهراً من سعة رحمة الله تعالى ويبكون سراً من خوف عذابه مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى انفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان اجسامهم في الارض وافئدتهم عند العرش فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد أوصى امته عامة باتباعه اذ قال (١٢) من احبني فليستن بسنتي وقال (١٣) عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وقال تعالى قل ان كنتم

---

(١) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات الترمذي من حديث انس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٢) حديث لبس يوما واحداً ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم اهداه له المقوقس ثم نزعه الحديث ٧ (٣) حديث لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه متفق عليه وقد تقدم (٤) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لاهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٥) حديث اباح المتعة ثلاثا ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الاكوع (٦) حديث صلى في خميصة لها علم الحديث متفق عليه وتقدم في الصلاة (٧) حديث لبس خاتما فنظر اليه على المنبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم الحديث تقدم (٨) حديث احتذى نعلين جديدين فاعجبه حسنهما الحديث تقدم (٩) حديث سنان بن سعد حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف انمار الحديث ابوداود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله وامر ان يحاك له اخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الاحياء سيار بن سعد وهو غلط (١٠) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحا الحديث ابو بكر بن لال في مكارم الاخلاق باسناد ضعيف (١١) حديث ان من خيار امتي فيما آتاني العلي الأعلى قوما يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم ويبكون سراً من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه (١٢) حديث من احبني فليستن بسنتي تقدم في النكاح (١٣) حديث عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين الحديث ابوداود والترمذي وصححه ابن ماجه من حديث العرباض بن سارية

---

٧ قول العراقي ثم نزعه الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يتكلم عليه الشارح فلينظر اه مصححه

وسلم كان اذا قرأ هذه الاية قد افلح من زكاها وقف ثم قال اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وزكها أنت خير من زكاها (وقيل) النفس لطيفة مودعة في القالب منها الاخلاق والصفات المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الاخلاق والصفات المحمودة كما أن العين محل الرؤية والاذن محل السمع والانف محل الشم والفم محل الذوق وهكذا النفس محل الاوصاف المذمومة والروح محل الاوصاف المحمودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيش والثاني الشره وطيشها من جهلها وشرهها

تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) عائشة رضى الله عنها خاصة وقال ان اردت اللحوق بى فاياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه وعد على قيص عمر رضى الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من ادم واشترى على بن ابى طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو فى الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله الذى كسانى هذا من رياشه وقال الثورى وغيره البس من الثياب مالا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول ان الفقير ليمر بى وانا اصلى فادعه يجوز ويمر بى واحد من ابناء الدنيا وعليه هذه البزة فامقته ولا أدعه يجوز وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق وقال ابن شبرمة خير ثيابى ماخدمنى وشرها ماخدمته وقال بعض السلف البس من الثياب مايخلطك بالسوقة ولا تلبس منها مايشهرك فينظر اليك وقال ابو سليمان الدارانى ثلاثة ثوب لله وهو مايستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه وقال بعضهم من رق ثوبه رق دينه وكان جهوز العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين الى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس اكثر من قطعتين قيص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه وقال بعض السلف او النسك الزى وفى الخبر البذاذة من الايمان وفى الخبر من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله ان يدخره من عبقرى الجنة فى تخات الياقوت وأوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه قل لاوليائى لا يلبسوا ملابس اعدائى ولا يدخلوا مداخل اعدائى فيكونوا اعدائى كماهم اعدائى ونظر رافع بن خديج الى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا الى اميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة الى ابى ذر فى بزته فجعل يتكلم فى الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب ابن عامر فشكاه الى عمر فقال انت صنعت بنفسك تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه ان الله تعالى اخذ على أئمة الهدى ان يكونوا فى مثل ادنى احوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب فى خشونة لباسه قال هو اقرب الى التواضع وأجدر ان يقتدى به المسلم (٢) ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال ان لله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين ورؤى (٣) فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا فقيل له انت الامير وتفعل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا أن نحتفى أحيانا وقال على لعمر رضى الله عنهما ان اردت ان تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا واياكم وزى العجم كسرى وقيصر وقال على كرم الله وجهه من تزيا بزى قوم فهو منهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ان من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام وقال صلى الله عليه وسلم (٥) أزرة المؤمن الى انصاف ساقيه ولاجناح عليه فما بينه وبين الكعبين وما أسفل من ذلك ففى النار ولا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا وقال (٦) أبو سليمان الدارانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث قال لعائشة ان اردت اللحوق بى فاياك ومجالسة الاغنياء الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث نهى عن التنعم وقال ان عباد الله ليسوا بالمتنعمين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٣) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه ١ وأمرنا ان نحتفى أحيانا ابو داود باسناد جيد (٤) حديث ان من شرار امتى الذين غذوا بالنعيم الحديث الطبرانى من حديث ابى امامة باسناد ضعيف سيكون رجال من امتى يأكلون الوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار امتى وقد تقدم (٥) حديث ازرة المؤمن الى انصاف ساقيه الحديث مالك وابو داود والنسائى وابن حبان من حديث أبى سعيد ورواه ايضا النسائى من حديث ابى هريرة قال محمد بن يحيى الذهلى كلا الحديثين محفوظ (٦) حديث ابى سليمان

(١) الارفاه بكسر الهمزة ثم راء ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليس بتاء التدهن الترجيل كل يوم وقيل التوسع فى المطعم والمشرب يرفهان اهـ من هامش الاصل

من حرصها وشبهت النفس فى طيشها بكرة مستديرة على مكان املس مصوب لا تزال متحركة بجبلتها ووضعها وشبهت فى حرصها بالفراش الذى يلقى نفسه على ضوء المصباح ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذى فيه هلاكه فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر والصبر جوهر العقل والطيش صفة النفس وهواها وروحها لا يغلبه الا الصبر اذ العقل يقمع الهوى ومن الشره يظهر الطمع والحرص وهما اللذان ظهرا فى آدم حيث طمع فى الخلود فحرص على اكل الشجرة وصفات النفس لها اصول من اصل تكونها

لا يلبس الشعر من أمتى الا مراء أو أحمق وقال الاوزاعى لباس الصوف فى السفر سنة وفى الحضر بدعة ودخل محمد ابن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة مادعاك الى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلمك ولا تجيبنى فقال أكره أن اقول زهدا فازكى نفسى أوفقرا فاشكو ربى وقال أبو سليمان لما اتخذ الله ابراهيم خليلا أوحى اليه ان وار عورتك من الارض وكان لا يتخذ من كل شئ الا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتى عليه حال الا وعورته مستورة وقيل لسلمان الفارسى رضى الله عنه مالك لا تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فاذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله انه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل اذا قام يصلى وقال الحسن لفرقد السبخى تحسب ان لك فضلا على الناس بكسائك بلغنى ان أكثر اصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا وقال يحيى ابن معين رأيت ابا معاوية الاسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها فقلت انك تكسى خيرا من هذا فقال ماضرهم ما اصابهم فى الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويبكى ﴿ المهم الثالث المسكن ﴾ وللزهد فيه ايضا ثلاث درجات * اعلاها ان لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كاصحاب الصفة واوسطها ان يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف اوخص اوما يشبهه وادناها ان يطلب حجرة مبنية اما بشراء او اجارة فان كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد فان طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف اكثر من ستة اذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن فاختلاف جنس البناء بان يكون من الجص او القصب او بالطين او بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالاضافة الى الاوقات بان يكون مملوكا او مستاجرا او مستعارا وللزهد مدخل فى جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغى ان يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الاعين والاذى واقل الدرجات فيه معلوم ومازاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا وقد قيل اول شئ ظهر من طول الامل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد يعنى بالتدريز كف دروز الثياب فانها [1] كانت تشل شلا والتشييد هو البنيان بالجص والآجر وانما كانوا يبنون بالسعف والجريد وقد جاء فى الخبر يأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] العباس ان يهدم علية كان قد على بها [3] ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل اعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسال الرجل اصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فاخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فاخبر بانه هدمها فدعا له بخير وقال [4] الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة

لا يلبس الشعر من امتى الا مراء او احمق لم اجد له اسنادا (١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد اما شل الثياب من غير كف فروى الطبرانى والحاكم ان عمر قطع ما فضل عن الاصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واما البناء ففى الصحيحين من حديث انس فى قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة الحديث ولهما من حديث ابى سعيد كان المسجد على عريش فوكف المسجد (٢) حديث امر العباس ان يهدم علية له كان قد علاها الطبرانى من رواية ابى العالية ان العباس بنى غرفة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم اهدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بجنبذة معلاة فقال لمن هذه فقالوا لفلان فلما جاءه الرجل اعرض عنه الحديث ابو داود من حديث انس باسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة الحديث والجنبذة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة الحديث ابن حبان فى الثقات وابو نعيم فى الحلية هكذا مرسلا وللطبرانى فى الاوسط من حديث عائشة من سال

لانها مخلوقة من تراب ولها بحسبه وصف وقيل وصف الضعف فى الآدمى من التراب ووصف البخل فيه من الطين ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون ووصف الجهل فيه من الصلصال وقيل قوله كالفخار فهذا الوصف فيه شئ من الشيطنة لدخول النار فى الفخار فمن ذلك الخداع والحيل والحسد فمن عرف اصول النفس وجبلاتها عرف أن لاقدرة له عليها الا بالاستعانة ببارئها وفاطرها فلا يتحقق العبد بالانسانية الا بعد أن يدبر دواعى الحيوانية فيه بالعلم والعدل وهو رعاية طرفى الافراط والتفريط ثم بذلك تتقوى انسانيته ومعناه

على قصبة وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) اذا أراد بعبد شرا أهلك ماله فى الماء والطين (٢) وقال عبد الله ابن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ماهذا قلنا خص لنا قد وهى فقال أرى الامر أعجل من ذلك واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب فقيل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محيريز وهو فى بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) من بنى فوق مايكفيه كلف ان يحمله يوم القيامة وفى الخبر (٤) كل نفقة للعبد يؤجر عليها الا ماأنفقه فى الماء والطين وفى قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا انه الرياسة والتطاول فى البنيان وقال صلى الله عليه وسلم (٥) كل بناء و بال على صاحبه يوم القيامة الا ماأكن من حر و برد وقال صلى الله عليه وسلم (٦) للرجل الذى شكا اليه ضيق منزله اتسع فى السماء أى فى الجنة ونظر عمر رضى الله عنه فى طريق الشام الى صرح قد بنى بجص وآجر فكبر وقال ما كنت أظن ان يكون فى هذه الامة من يبنى بنيان هامان لفرعون يعنى قول فرعون فاوقد لى ياهامان على الطين يعنى به الآجر و يقال ان فرعون هو أول من بنى له بالجص والآجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا فى بعض الامصار فقال ادركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيته مبنيا من رهص ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده فى احكام البنيان وكان منهم من اذا حج أوغزا نزع بيته أووهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهى عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة و بسطة قال الحسن كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى الى السقف وقال عمرو بن دينار اذا على العبد البناء فوق ستة اذرع ناداه ملك الى اين ياأفسق الفاسقين وقد نهى سفيان عن النظر الى بناء مشيد وقال لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر اليه معين عليه وقال الفضيل انى لا اعجب ممن بنى وترك ولكنى أعجب ممن نظر اليه ولم يعتبر وقال ابن مسعود رضى الله عنه يأتى قوم يرفعون الطين و يضعون الدين و يستعملون البراذين يصلون الى قبلتكم و يموتون على غير دينكم ﴿المهم الرابع أثاث البيت﴾ وللزهد فيه أيضا درجات أعلاها حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى اذ كان لا يصحبه الا مشط وكوز فرأى انسانا يمشط لحيته باصابعه فرمى بالمشط ورأى الآخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه انما يراد لمقصود فاذا استغنى عنه فهو و بال فى الدنيا والآخرة ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف فى كل مايكفى فيه الخزف ولا يبالى بان يكون مكسور الطرف اذا كان المقصود يحصل به وأوسطها ان يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح فى نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد كالذى معه قصعة يأكل فيها و يشرب فيها و يحفظ المتاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى اشياء

عنى اوسره ان ينظر الى فلينظر الى اشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة الحديث واسناده ضعيف
(١) حديث اذا اراد الله بعبد شرا أهلك ماله فى الماء والطين ابو داود من حديث عائشة باسناد جيد خضر له فى الطين واللبن حتى يبنى (٢) حديث عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا قد وهى الحديث ابوداود والترمذى وصححه وابن ماجه (٣) حديث من بنى فوق مايكفيه كلف يوم القيامة ان يحمله الطبرانى من حديث ابن مسعود باسناد فيه لين وانقطاع (٤) حديث كل نفقة العبد يؤجر عليها الا ماأنفقه فى الماء والطين ابن ماجه من حديث خباب بن الارت باسناد جيد بلفظ الا فى التراب اوقال فى البناء (٥) حديث كل بناء و بال على صاحبه الا ماأكن من حر او برد ابوداود من حديث انس باسناد جيد بلفظ الا مالا يعنى مالا بد منه (٦) حديث قال للرجل الذى شكى اليه ضيق منزله اتسع فى السماء قال المصنف اى فى الجنة ابوداود فى المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال شكى خالد بن الوليد فذكره وقد وصله الطبرانى فقال عن اليسع بن المغيرة عن ابيه عن

و يدرك صفات الشيطنة فيه والاخلاق المذمومة وكمال انسانيته و يتقاضاه ان لا يرضى لنفسه بذلك ثم تنكشف له الاخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك فيرى ان صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة اوصاف بالطمانينة قال ياايتها النفس المطمئنة وسماها لوامة قال لااقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة وسماها امارة فقال ان النفس لامارة بالسوء وهى نفس واحدة ولها صفات متغايرة فاذا امتلا القلب سكينة

للتخفيف واعلاها ان يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس فان زاد فى العدد او فى نفاسة الجنس خرج عن جميع ابواب الزهد وركن الى طلب الفضول ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقد قالت (١) عائشة رضى الله عنها كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف وقال الفضيل (٢) ماكان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من ادم حشوها ليف وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٣) دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى اثر الشريط فى جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ماالذى ابكاك ياابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقيصر وماهما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم اماترضى ياعمر ان تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يارسول الله قال فذلك كذلك ودخل رجل على ابى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال ياابا ذر ما ارى فى بيتك متاعا ولا غير ذلك من الاثاث فقال ان لنا بيتا نوجه اليه صالح متاعنا فقال انه لابد لك من متاع مادمت ههنا فقال ان صاحب المنزل لايدعنا فيه ولما قدم عمر بن سعيد امير حمص على عمر رضى الله عنهما قال له مامعك من الدنيا قال معى عصاى اتوكا عليها واقتل بها حية ان لقيتها ومعى جرابى احمل فيه طعامى ومعى قصعتى آكل فيها واغسل فيها راسى وثوبى ومعى مطهرتى احمل فيها شرابى وطهورى للصلاة فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى فقال عمر صدقت رحمك الله (٤) وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها ابو رافع وهى تبكى فاخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فساله ابو رافع فقال من اجل الستر والسوارين فارسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه الى اهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال بابى انت قد احسنت (٥) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا افهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا ارسلى به الى آل فلان (٦) وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية

خالد بن الوليد الا انه قال ارفع الى السماء واسال الله السعة وفى اسناده لين (١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف ابو داود والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من ادم حشوها ليف الترمذى فى الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى اثر الشريط فى جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع الحديث لم اره مجموعا ولابى داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد انه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتى الباب فرأى القرام قد ضرب فى ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعلى انظر فارجعه الحديث والنسائى من حديث ثوبان باسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم وفى يدها فتخ من ذهب الحديث وفيه انه وجد فى يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد فى يدها سلسلة من نار وانه خرج ولم يقعد فامرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبدا فاعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار (٥) حديث راى على باب عائشة سترا فهتكه الحديث الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديثها (٦) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية الحديث ابن حبان فى كتاب اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الانصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت الى بفراش حشوه صوف فدخل على

خلع على النفس خلع الطمانينة لان السكينة مزيد الايمان وفيها ارتقاء القلب الى مقام الروح لما منح من حظ اليقين وعند توجه القلب الى محل الروح تتوجه النفس الى محل القلب وفى ذلك طمانينتها واذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعى طبيعتها متطلعة الى مقار الطمانينة فهى لوامة لانها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها الى محلها التى كانت فيه امارة بالسوء واذا أقامت فى محلها لا يغشاها نور العلم والمعرفة فهى على ظلمتها امارة بالسوء فالنفس والروح يتطاردان فتارة يملك القلب دواعى

فـازال يتقلب ليلته فلما اصبح قال لها أعيدى العباءة الخلقه ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة وكذلك (١) أتته دنانير خمسة أوستة ليلا فبيتها فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال ماظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده وقال الحسن أدركت سبعين من الاخيار مالاحدهم الاثوب به وماوضع احدهم بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا اراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه (المهم الخامس المنكح) وقدقال قائلون لامعنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته واليه ذهب سهل بن عبدالله وقال قدحبب الى سيدالزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال كان أزهد الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة و بضع عشرة سرية والصحيح ماقاله أبو سليمان الدارانى رحمه الله اذقال كل ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد فهوعليك مشؤم والمرأة قدتكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه انه قدتكون العزوبة أفضل فى بعض الاحوال كماسبق فى كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح افضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وان لم يكن عليه آفة فى تركه ولافعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب اليهن والانس بهن بحيث يشتغل عن ذكرالله فترك ذلك من الزهد فان علم ان المرأة لاتشغله عن ذكرالله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فان الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات واللذة التى تلحق الانسان فيماهو من ضرورة الوجود لاتضره اذ لم تكن هى المقصد والمطلب وهذا كمن ترك اكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الاكل والشرب وليس ذلك من الزهد فى شىء لان فى ترك ذلك فوات بدنه فكذلك فى ترك النكاح انقطاع نسله فلايجوز أن يترك النكاح زهدا فى لذته من غيرخوف آفة أخرى وهذا ماعناه سهل لامحالة ولاجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فى انه لايشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن فلامعنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ولكن أنى يتصور ذلك لغير الانبياء والاولياء فاكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان فينبغى أن يترك الاصل ان كان يشغله وان لم يشغله وكان يخاف من ان تشغله الكثرة منهن أوجمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه فى ذلك قال أبوسليمان الزهد فى النساء ان يختار المرأة الدون أواليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة وقال الجنيد رحمه الله أحب للمريد المبتدى ان لايشتغل قلبه بثلاث والاتغيرحاله التكسب وطلب الحديث والتزوج وقال احب للصوفى ان لا يكتب ولا يقرأ لانه أجمع لهمه فاذا ظهر ان لذة النكاح كلذة الاكل فماشغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا (المهم السادس مايكون وسيلة الى هذه الخمسة وهوالمال والجاه) اما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به الى الاستعانة فى الاغراض والاعمال وكل من لايقدر على القيام بنفسه فى جميع حاجاته وافتقر الى من يخدمه افتقر الى جاه لامحالة فى قلب خادمه لانه ان لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته وقيام

الروح وتارة يتملكه دواعى النفس واما السر فقد اشار القوم اليه ووجدت فى كلام القوم ان منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح ومنهم من جعله بعد الروح واعلى منها والطف وقالوا السر محل المشاهدة والروح محل المحبة والقلب محل المعرفة والسر الذى وقعت اشارة القوم اليه غير مذكور فى كتاب الله وانما المذكور فى كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها والقلب والفؤاد والعقل وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار اليه ورأينا الاختلاف فى القول فيه واشار قوم الى انه دون الروح وقوم الى انه الطف من الروح فنقول

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذا الحديث وفيه انه امرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل (١) حديث اتته دنانير خمسة اوستة عشاء فبيتها فسهر ليله الحديث وفيه ماظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده احمد من حديث عائشة باسناد حسن انه قال فى مرضه الذى مات فيه ياعائشة مافعلت بالذهب فجاء مابين الخمسة الى الثمانية الى التسعة فجعل يقلبها بيده و يقول ماظن محمد الحديث وزاد انفقها وفى رواية سبعة أوتسعة دنانير وله من حديث أم سلمة باسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ١ شاهم الوجه قالت فحسبت ذلك من وجع فقلت يانبى الله مالك شاهم الوجه فقال من اجل الدنانير السبعة التى اتتنا امس امسينا وهى فى خصم الفراش وفى رواية امسينا ولم ننفقها (٢) حديث كان لايشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن تقدم فى النكاح

(١) شاهم بالمعجمة متغير يقال شهم تغير عن حاله لعارض اه

القدر

القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به الى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه وانما يحتاج الى المحل في القلوب اما لجلب نفع اولدفع ضر اوللخلاص من ظلم فاما النفع فيغني عنه المال فان من يخدم باجرة يخدم وان لم يكن عنده للمستاجر قدر وانما يحتاج الى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة واما دفع الضر فيحتاج لاجله الى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم الا بمحل له في قلوبهم او محل له عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما اذا انضم اليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حق الزهد ان لا يسعى لطلب المحل في القلوب اصلا فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الاذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين فاما التوهمات والتقديرات التي تحوج الى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي اوهام كاذبة اذ من طلب الجاه ايضا لم يخل عن اذى في بعض الاحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر اولى من علاجه بطلب الجاه فاذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه اصلا واليسير منه داع الى الكثير وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره

*واما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه فان كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغي ان يترك الكسب كان بعضهم اذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك الى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد واقويائهم جميعا وان كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فامسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط ان يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه اويس القرني رحمه الله فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا انه خرج من حد الزهاد نعني به ان ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله والا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالاضافة الى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وامر المنفرد في جميع ذلك اخف من أمر المعيل وقد قال ابو سليمان لا ينبغي ان يرهق الرجل اهله الى الزهد بل يدعوهم اليه فان اجابوا والا تركهم وفعل بنفسه ما شاء معناه ان التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله نعم لا ينبغي ان يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لان ذلك من الزينة لا من الحاجة فاذا ما يضطر الانسان اليه من جاه ومال ليس بمحذور بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة فما يقرب من الزيادة وان لم يكن سما قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وان لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه والدواء فرض تناوله وما بينهما مشتبه امره فمن احتاط فانما يحتاط لنفسه ومن تساهل فانما يتساهل على نفسه ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه الى ما لا يريبه ورد نفسه الى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز ان ينسب الى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لانه شرط الدين والشرط من جملة المشروط ويدل عليه ما روى أن ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرضه شيا فلم يقرضه فرجع مهموما فاوحى الله تعالى اليه لو سالت خليلك لاعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن اسالك منها شيا فاوحى الله تعالى اليه ليس الحاجة من الدنيا فاذا قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر احوال الاغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه وغاية سعادته به ان يسلم لورثته فيأكلونه وربما يكونون اعداء له وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فانما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والاهل والولد وشماتة الاعداء ومراآة الاصدقاء وسائر حظوظ الدنيا فلو خطر له انه قد اخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه

والله اعلم الذي سموه سرا ليس هو بشيء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس وانما لما صفت النفس وتزكت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس فاخذ في العروج الى أوطان القرب وانتزع القلب عند ذلك عن مستقره متطلعا الى الروح فاكتسب وصفا زائدا على وصفه فانعجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه اصفى من القلب فسموه سرا ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه الى الروح اكتسب الروح وصفا زائدا في عروجه وانعجم على الواجدين فسموه سرا والذي زعموا أنه الطف من الروح روح متصفة بوصف اخص مما عهدوه والذي

ورأى قلبه مقيدا بسلاسل واغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد ان يكون قاتلا لنفسه وساعيا فى هلاكه الى ان يفرق ملك الموت بينه و بين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل فى قلبه معلقة بالدنيا التى فاتته وخلفها فهى تجاذبه الى الدنيا ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه الى الآخرة فيكون اهون احواله عند الموت ان يكون كشخص ينشر بالمنشار و يفصل احد جانبيه عن الاخر بالمجاذبة من الجانبين والذى ينشر بالمنشار انما ينزل المؤلم ببدنه و يألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث اثره فما ظنك بالم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق السراية اليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول فى أعلى عليين وجوار رب العالمين فبالنزول الى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم اذ النار غير مسلطة الا على محجوب قال الله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف اذا اضيفت العلاوة اليه فنسال الله تعالى ان يقرر فى أسماعنا(١) مانفث فى روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له احبب من احببت فانك مفارقه وفى معنى ماذكرناه من المثال قول الشاعر

كدود كدود القز ينسج دائما * ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لاولياء الله تعالى ان العبد مهلك نفسه باعماله واتباعه هوى نفسه اهلاك دود القز نفسه رفضوا بالكلية حتى قال الحسن رأيت سبعين بدريا كانوا فيما احل الله لهم ازهد منكم فيما حرم الله عليكم وفى لفظ آخر كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء ولو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ولو رأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان احدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه و يقول اخاف ان يفسد على قلبي فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده والذين امات حب الدنيا قلوبهم فقد اخبر الله عنهم اذ قال تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وقال عز وجل ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا وقال تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فاحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احملنى معك فى سياحتك فقال اخرج مالك والحقنى فقال لا استطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغنى الجنة اوقال بشدة وقال بعضهم ما من يوم ذر شارقه الا وار بعة املاك ينادون فى الآفاق بار بعة اصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول احدهم بالمشرق ياباغى الخير هلم و ياباغى الشر اقصر و يقول الآخر اللهم اعط منفقا خلفا واعط ممسكا تلفا و يقول اللذان بالمغرب احدهما لدوا للموت وابنوا للخراب و يقول الاخر كلوا وتمتعوا لطول الحساب

﴿ بيان علامات الزهد ﴾

اعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من احب المدح بالزهد فكم من الرهابين من ردوا انفسهم كل يوم الى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وانما مسرة احدهم معرفة الناس حاله ونظرهم اليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد فى المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الاصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قاله الخواص فى وصف المدعين اذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخرة من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى اليهم مثل لباسهم لئلا ينظر اليه بالعين التى ينظر بها الى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وانهم على السنة وان الاشياء داخلة اليهم وهم خارجون منها وانما يأخذون بعلة غيرهم هذا اذا طولبوا بالحقائق وألجؤا الى المضايق و كل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية اسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم فهم مائلون الى

سموه قبل الروح سرا هو قلب ، اتصف بوصف زائد غير ماعهدوه وفى مثل هذا الترقى من الروح والقلب ترقى النفس الى محل القلب وتنخلع من وصفها فتصير نفسا مطمئنة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل اذ صار القلب يريد مايريده مولاه متبرئا عن الحول والقوة والارادة والاختيار وعندها ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حرا عن ارادته واختياراته وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة والبصيرة للروح بمثابة القلب والعقل بمثابة اللسان وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ماخلق

(١) حديث نفث فى روعه أحبب من أحببت فانك مفارقه تقدم

الدنيا متبوع للهوى فهذا كله كلام الخواص رحمه الله فاذا معرفة الزهد امر مشكل بل حال الزهد على الزاهد مشكل و ينبغى ان يعول فى باطنه على ثلاث علامات (العلامة الاولى) ان لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم بل ينبغى ان يكون بالضد من ذلك وهو ان يحزن بوجود المال و يفرح بفقده (العلامة الثانية) ان يستوى عنده ذامه ومادحه فالاول علامة الزهد فى المال والثانى علامة الزهد فى الجاه (العلامة الثالثة) ان يكون انسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة اذ لا يخلوا القلب عن حلاوة المحبة اما محبة الدنيا واما محبة الله وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح فالماء اذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان وكل من انس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ولذلك قيل لبعضهم الى ماذا افضى بهم الزهد فقال الى الانس بالله فاما الانس بالدنيا و بالله فلا يجتمعان وقد قال اهل المعرفة اذا تعلق الايمان بظاهر القلب احب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما واذا بطن الايمان فى سويداء القلب و باشره أبغض الدنيا فلم ينظر اليها ولم يعمل لها ولهذا ورد فى دعاء آدم عليه السلام اللهم انى اسألك ايمانا يباشر قلبي وقال ابو سليمان من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وان يكون فى احد هذين المقامين ومقامه الاول ان يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ولا يستدل بامساكه قليلا من المال على فقد زهده اصلا قال ابن ابى الحوارى قلت لابى سليمان أكان داود الطائى زاهدا قال نعم قلت قد بلغنى انه ورث عن ابيه عشرين دينارا فانفقها فى عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير فقال اردت منه ان يبلغ حقيقة الزهد واراد بالحقيقة الغاية فان الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس ولا يتم الزهد الا بالزهد فى جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل فى الزهد بقدر ما تركه وآخره ان يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح عليه السلام فنسأل الله تعالى ان يرزقنا من مباديه نصيبا وان قل فان امثالنا لا يستجرىء على الطمع فى غاياته وان كان قطع الرجاء عن فضل الله غير ماذون فيه واذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا ان الله تعالى لا يتعاظمه شىء فلا بعد فى ان نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال فاذا علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم وذلك لغلبة الانس بالله و يتفرع عن هذه العلامات علامات اخر لا محالة مثل ان يترك الدنيا ولا يبالى من اخذها وقيل علامته ان يترك الدنيا كما هى فلا يقول ابنى رباطا او اعمر مسجدا وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد السخاء بالموجود وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك وقال ايضا الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف وقال ابو سليمان الصوف علم من اعلام الزهد فلا ينبغى ان يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفى قلبه رغبة خمسة دراهم وقال احمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله علامة الزهد قصر الامل وقال سرى لا يطيب عيش الزاهد اذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف اذا اشتغل بنفسه وقال النصراباذى الزاهد غريب فى الدنيا والعارف غريب فى الآخرة وقال يحيى ابن معاذ علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة وقال ايضا الزاهد لله يسعطك الخل والخردل والعارف يشمك المسك والعنبر وقال له رجل متى ادخل حانوت التوكل والبس رداء الزهد واقعد مع الزاهدين فقال اذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر الى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة ايام لم تضعف فى نفسك فاما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك ان تفتضح وقال ايضا الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها و ينتف شعرها و يخرق ثوبها والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت اليها وقال السرى مارست كل شىء من أمر الزهد فنلت منه ما اريد الا الزهد فى الناس فانى لم ابلغه ولم أطقه وقال الفضيل رحمه الله جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا فهذا ما اردنا ان نذكره من حقيقة الزهد واحكامه واذا كان الزهد لا يتم الا بالتوكل فلنشرع فى بيانه ان شاء الله تعالى

الله العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر ثم قال له اقعد فقعد ثم قال له انطق فنطق ثم قال له اصمت فصمت فقال وعزتى وجلالى وعظمتى وكبريائى وسلطانى وجبروتى ما خلقت خلقا أحب الى منك ولا اكرم على منك بك اعرف وبك احمد وبك اطاع وبك آخذ وبك أعطى واياك أعاتب ولك الثواب وعليك العقاب وما اكرمتك بشىء أفضل من الصبر * وقال عليه السلام لا يعجبكم اسلام رجل حتى تعلموا ما عقده عقله وسألت عائشة رضى الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت قلت يارسول الله باى شىء

﴿ كتاب التوحيد والتوكل وهو الخامس من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله مدبر الملك والملكوت المنفرد بالعزة والجبروت الرافع للسماء بغير عماد المقدر فيها ارزاق العباد الذى صرف أعين ذوى القلوب والالباب عن ملاحظة الوسائط والاسباب الى مسبب الاسباب ورفع هممهم عن الالتفات الى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه فلم يعبدوا الا اياه علما بانه الواحد الفرد الصمد الاله وتحقيقا بان جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق وانه ما من ذرة الا الى الله خلقها وما من دابة الا على الله رزقها فلما تحققوا انه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قامع الاباطيل الهادى الى سواء السبيل وعلى آله وسلم تسليما كثيرا (اما بعد) فان التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين بل هو من معالى درجات المقربين وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث الفهم ان ملاحظة الاسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع والاعتماد على الاسباب من غير ان ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل وانغماس فى غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء الا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بانوار الحقائق فابصروا وتحققوا ثم نطقوا بالاعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الاول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى

﴿ بيان فضيلة التوكل ﴾

(اما من الآيات) فقد قال تعالى وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وقال عز وجل وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال سبحانه وتعالى ان الله يحب المتوكلين وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فان المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى اليس الله بكاف عبده فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو المكذب لهذه الآية فانه سؤال فى معرض استنطاق بالحق كقوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا وقال عز وجل ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم اى عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ الى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم بين ان كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وقال عز وجل ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون وقال عز وجل يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه وكل ما ذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الاغيار والتوكل على الواحد القهار (واما الاخبار) فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه (١) ابن مسعود رايت الامم فى الموسم فرأيت امتى قد ملؤا السهل والجبل فاعجبتنى كثرتهم وهيآتهم فقيل لى ارضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يارسول الله قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال يارسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال يارسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم فقال صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة وقال صلى الله

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

(١) حديث بن مسعود رأيت الامم فى الموسم فرايت امتى قد ملؤا السهل والجبل الحديث رواه بن منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس

يتفاضلون الناس قال بالعقل فى الدنيا والآخرة قالت قلت اليس يجزى الناس باعمالهم قال ياعائشة وهل يعمل بطاعة الله الامن قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر ما يعملون يجزون وقال عليه السلام ان الرجل لينطلق الى المسجد فيصلى وصلاته لاتعدل جناح بعوضة وان الرجل لياتى المسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل احد اذا كان احسنهما عقلا قيل وكيف يكون احسنهما عقلا قال اورعهما عن محارم الله واحرصهما على اسباب الخير وان كان دونه فى العمل والتطوع (وقال) عليه

عليه

عليه وسلم (١) لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من انقطع الى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها وقال صلى الله عليه وسلم (٣) من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه (٤) كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي عز وجل قال عز وجل وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها الآية وقال صلى الله عليه وسلم (٥) لم يتوكل من استرقى واكتوى وروى أنه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام وقد رمى الى النار بالمنجنيق ألك حاجة أما اليك فلا وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل اذ قال ذلك حين اخذ ليرمى فانزل الله تعالى وابراهيم الذي وفى واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود مامن عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والارض الا جعلت له مخرجا (واما الآثار) فقد قال سعيد بن جبير لدغتني عقرب فاقسمت على امي لتسترقين فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى وتوكل على الحي الذي لا يموت الى آخرها فقال ماينبغي للعبد بعد هذه الآية ان يلجأ الى احد غير الله تعالى وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع امر آخرتك ولا تنال من الدنيا الا ما قد كتب الله لك وقال يحيى بن معاذ في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على ان الرزق مامور بطلب العبد وقال ابراهيم بن ادهم سالت بعض الرهبان من اين تاكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من اين يطعمني وقال هرم بن حيان لاويس القرني اين تامرني ان اكون فاوما الى الشام قال هرم كيف المعيشة قال اويس اف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما ينفعها الموعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيلا وجدت الى كل خير سبيلا نسال الله تعالى حسن الادب

﴿ بيان حقيقة التوحيد الذي هو اصل التوكل ﴾

اعلم ان التوكل من ابواب الايمان وجميع ابواب الايمان لا تنتظم الا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الاصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل * فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الاصل وهو المسمى ايمانا في اصل اللسان اذ الايمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم واذا قوى سمي يقينا ولكن ابواب اليقين كثيرة ونحن انما نحتاج الى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له والايمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك له الملك والايمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك وله الحمد فمن قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير تم له الايمان الذي هو اصل التوكل اعني ان يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فاما التوحيد فهو الاصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة

---

(١) حديث لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبراني في الصغير وابن ابي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران ابن حصين ولم يسمع منه وفيه ابراهيم بن الاشعث تكلم فيه ابو حاتم (٣) حديث من سره ان يكون اغنى الناس فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يديه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٤) حديث كان اذا اصاب اهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا امرني ربي قال تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها الطبراني في الاوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله ابن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا نزل باهله الضيق امرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف ابن عبد الله بن سلام انما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد ابيه (٥) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى والطبراني واللفظ له الا انه قال او من حديث المغيرة بن شعبة وقال الترمذي من اكتوى او استرقى فقد برىء من التوكل وقال النسائي ما توكل من اكتوى او استرقى

الصلاة والسلام ان الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتا فان الرجلين يستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد (وروى) عن وهب بن منبه أنه قال انى أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا الى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك يكثر ولا نؤثر نقل الاقاويل وليس ذلك من غرضنا فقال قوم العقل من العلوم فان الخالى

ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالاعمال بواسطة الاحوال ولا يتم علم المعاملة الا بها فاذا لا نتعرض الا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة والا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له فنقول للتوحيد اربع مراتب وهو ينقسم الى لب والى لب اللب والى قشر والى قشر القشر ولنمثل ذلك تقريبا الى الافهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الاولى من التوحيد هى ان يقول الانسان بلسانه لا اله الا الله وقلبه غافل عنه او منكر له كتوحيد المنافقين والثانية ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بان يرى اشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة ان لا يرى فى الوجود الا واحدا وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد لانه من حيث لا يرى الا واحدا فلا يرى نفسه أيضا واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان والثانى موحد بمعنى انه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة ان توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا احكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلما وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث انه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته والثالث موحد بمعنى انه لم يشاهد الا فاعلا واحدا اذا انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة الا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هى عليه لا انه كلف قلبه ان يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فان تلك رتبة العوام والمتكلمين اذ لم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى انه لم يحضر فى شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد فالاول كالقشرة العليا من الجوز والثانى كالقشرة السفلى والثالث كاللب والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما ان القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل ان أكل فهو مر المذاق وان نظر الى باطنه فهو كريه المنظر وان اتخذ حطبا أطفأ النار وأكثر الدخان وان ترك فى البيت ضيق المكان فلا يصلح الا ان يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى الى وقت الموت والقشرة السفلى هى القلب والبدن وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف انما يصيب جسم البدن وهو القشرة وانما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما ان القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا فانها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار واذا فصلت أمكن ان ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة الى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة الى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة الى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه واشراق نور الحق فيه اذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام وبقوله عز وجل أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وكما ان اللب نفيس فى نفسه بالاضافة الى القشر وكله المقصود ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق فان قلت كيف يتصور ان لا يشاهد الا واحدا وهو يشاهد السماء والارض وسائر الاجسام المحسوسة وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا فاعلم

من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فان الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فان من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل فهو اذا من العلوم الضرورية وليس هو جميعها فان صاحب الحواس المختلطة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية وقال بعضهم العقل ليس من اقسام العلوم لانه لو كان منها لوجب الحكم بان الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلا ونحن نرى العاقل فى كثير من اوقاته ذاهلا وقالوا هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم

ان

ان هذه غاية علوم المكاشفات واسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب فقد قال العارفون افشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو ان الشئ قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما ان الانسان كثيرا ان التفت الى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه واحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة اخرى واحد اذ نقول انه انسان واحد فهو بالاضافة الى الانسانية واحد وكم من شخص يشاهد نا انسانا ولا يخطر بباله كثرة امعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده واعضائه والفرق بينهما انه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكانه فى عين الجمع والملتفت الى الكثرة فى تفرقة فكذلك كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد و باعتبارات اخر سواه كثير و بعضها اشد كثرة من بعض ومثاله الانسان و ان كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا و يستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به ايمان تصديق فيكون لك من حيث انك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وان لم يكن ما آمنت به صفتك كما انك اذا آمنت بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة ايمانك وهذه المشاهدة التى لا يظهر فيها الا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الاكثر والدوام نادر عزيز والى هذا اشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور فى الاسفار فقال فيماذا انت فقال ادور فى الاسفار لاصحح حالتى فى التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد افنيت عمرك فى عمران باطنك فاين الفناء فى التوحيد فكان الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الاجمال فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فاقول اما الرابع فلا يجوز الخوض فى بيانه وليس التوكل أيضا مبنيا عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث واما الاول وهو النفاق فواضح واما الثانى وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين وطريق تاكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور فى علم الكلام وقد ذكرنا فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر المهم منه واما الثالث فهو الذى ينبنى عليه التوكل اذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذى يرتبط التوكل به دون تفصيله الذى لا يحتمله امثال هذا الكتاب وحاصله ان ينكشف لك ان لا فاعل الا الله تعالى وان كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر الى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه واذا انكشف لك هذا لم تنظر الى غيره بل كان منه خوفك واليه رجاؤك و به ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض واذا انفتحت لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا اتم من المشاهدة بالبصر وانما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به ان يطرق الى قلبك شائبة الشرك بسببين احدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات والثانى الالتفات الى الجمادات اما الالتفات الى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الغيم فى نزول المطر وعلى البرد فى اجتماع الغيم وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك فى التوحيد وجهل بحقائق الأمور ولذلك قال تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون قيل معناه انهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ومن انكشف له امر العالم كما هو عليه علم ان الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا الى ان ينتهى الى المحرك الاول الذى لا محرك له ولا هو متحرك فى نفسه عز وجل فالتفات العبد فى النجاة الى الريح يضاهى التفات من اخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فاخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم ان القلم لا حكم له فى نفسه وانما

(ونقل عن الحرث) بن أسد المحاسبي وهو من اجل المشائخ أنه قال العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى اول ذكر العقل انه لسان الروح لان الروح من امر الله وهى المتحملة للامانة التى أبت السموات والارضون ان يحملنها ومنها يفيض نور العقل وفى نور العقل تتشكل العلوم فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب وهو بصفته منكوس متطلع الى النفس تارة ومنتصب مستقيم تارة فمن كان العقل فيه منكوسا الى النفس فرقه فى اجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك واخطأ طريق

هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت اليه ولم يشكر الا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والارض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك ان الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق ان الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فاذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والارض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فاتاك في المهلكة الثانية وهي الالتفات الى اختيار الحيوانات في الافعال الاختيارية و يقول كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وان شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك ان شاء حز رقبتك وان شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وانت تشاهد ذلك ولا تشك فيه و يقول له أيضا نعم ان كنت لا ترى القلم لانه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له وعند هذا زل أقدام الاكثرين الا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها الى اليد والاصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت ان القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للاسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والارض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض بل ارباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والارض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الاصوات فان الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وانما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي فان قلت فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وانها كيف نطقت و بماذا نطقت وكيف سبحت وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز فاعلم أن لكل ذرة في السموات والارض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر الآية ثم انها تتناجى باسرار الملك والملكوت وافشاء السر لؤم بل صدور الاحرار قبور الاسرار وهل رأيت قط أمينا على اسرار الملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسره على ملا من الخلق ولو جاز افشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم (١) لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون ولما (٢) نهى عن افشاء سر القدر ولما قال (٣) اذا ذكر النجوم فامسكوا واذا ذكر القدر فامسكوا واذا ذكر اصحابي فامسكوا ولما (٤) خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الاسرار فاذا عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب ارباب المشاهدات مانعان احدهما استحالة افشاء السر والثاني خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ولكنا في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها الى الحروف والاصوات وان لم تكن هي حروفا

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النهي عن افشاء سر القدر ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره لفظ أبي نعيم وقال ابن عدي لا تكلموا في القدر فانه سر الله الحديث وهو ضعيف وقد تقدم (٣) حديث اذا ذكر النجوم فامسكوا واذا ذكر القدر فامسكوا الحديث الطبراني وابن حبان في الضعفاء وقد تقدم في العلم (٤) حديث انه خص حذيفة ببعض الاسرار تقدم

الاهتداء ومن انتصب العقل فيه واستقام تايد العقل بالبصيرة التي هي الروح بمثابة القلب واهتدى الى المكون ثم عرف الكون بالمكون مستوفيا اقسام المعرفة بالمكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكما أحب الله اقباله في أمر دله على اقباله عليه وما كرهه الله في امر دله على الادبار عنه فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه وكلما استقام العقل وتايد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغي ﴿ قال ﴾ بعضهم العقل على ضربين ضرب يبصر به أمر دنياه وضرب يبصر به أمر

واصواتا

وأصواتا ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما أنصفتني في هذه المقالة فاني ما سودت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فانه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا فقال صدقت فسأل الحبر عن ذلك فقال ما أنصفتني فاني كنت في المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي و بددني كما ترى على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا على فقال صدقت ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه واخراج الحبر من أوطانه فقال سل اليد والاصابع فاني كنت قصبا نابتا على شط الأنهار متنزها بين خضرة الاشجار فجاءتني اليد بسكين فنحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنابيبي ثم برتني وشقت رأسي ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك فتنح عني وسل من قهرني فقال صدقت ثم سال اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا الا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه وانما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له القدرة والعزة فهي التي ترددني وتجول بي في نواحي الارض أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه اذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها و بين القلم فانا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني و بين القلم فسل القدرة عن شاني فاني مركب أزعجني من ركبني فقال صدقت ثم سال القدرة عن شانها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمري وكيف ظننت اني ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا استسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي اني ميتة او معدومة لاني ما كنت اتحرك ولا احرك حتى جاءني موكل ازعجني وارهقني الى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الارادة ولا اعرفه الا باسمه وهجومه وصياله اذ ازعجني من غمرة النوم وارهقني الى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي فقال صدقت ثم سال الارادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها الى التحريك وارهقتها اليه ارهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الارادة لا تعجل علي فلعل لنا عذرا وانت تلوم فاني ما انتهضت بنفسي ولكن انهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وامر جازم وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالاشخاص للقدرة فاشخصتها باضطرار فاني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا ادرى باي جرم وقفت عليه وسخرت له والزمت طاعته لكني ادرى اني في دعة وسكون مالم يرد علي هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل او الظالم وقد وقفت عليه وقفا والزمت طاعته الزاما بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمري مادام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه فانا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته واشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شاني ودع عني عتابك فاني كما قال القائل

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا * ان لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت واقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا اياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة فقال العقل اما انا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن اشعلت وقال القلب اما انا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت وقال العلم اما انا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما اشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني فسل القلم عني لان الخط لا يكون الا بالقلم فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الامر منه على غيره

آخرته (وذكر) أن العقل الاول من نور الروح والعقل الثاني من نور الهداية فالعقل الاول موجود في عامة ولد آدم والعقل الثاني موجود في الموحدين مفقود من المشركين (وقيل) انما سمي العقل عقلا لان الجهل ظلمة فاذا غلب النور بصره في تلك الظلمة زالت الظلمة فابصر فصار عقالا للجهل (وقيل) عقل الايمان مسكنه في القلب ومتمله في الصدر بين عيني الفؤاد والذي ذكرناه من كون العقل لسان الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه اذا انتصب واستقام تايد بالبصيرة واعتدل

ولكني كنت أطيب نفسا بكثرة التردادلما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال فاماقولك انى خط ونقش وانما خطنى قلم فلست أفهمه فانى لا اعلم قلما الا من القصب ولا لوحا الا من الحديد أو الخشب ولا خطا الا بالحبر ولا سراجا الا من النار وانى لاسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا اشاهد من ذلك شيا اسمع جعجعة ولا أرى طحنا فقال له العلم ان صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك فى الطريق التى توجهت اليها كثيرة فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما أنت فيه فما هذا بعشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وان كنت راغبا فى استتمام الطريق الى المقصد فالق سمعك وانت شهيد واعلم ان العوالم فى طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة والثانى عالم الملكوت وهو ورائى فاذا جاوزتنى انتهيت الى منازله وفيه المهامة والفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا أدرى كيف تسلم فيها والثالث عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل فى أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لان عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت اوعر منه منهجا وانما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التى هى فى الحركة بين الارض والماء فلا هى فى حد اضطراب الماء ولا هى فى حد سكون الارض وثباتها وكل من يمشى على الارض يمشى فى عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته الى ان يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى فى عالم الجبروت فان انتهى الى ان يمشى على الماء من غير سفينة مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع فان كنت لا تقدر على المشى على الماء فانصرف فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك الا الماء الصافى وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء اما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى على الهواء لما (١) قيل له انه كان يمشى على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدرى اطيق قطع هذه المهامه التى وصفتها ام لا فهل لذلك من علامة قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فان ظهر لك القلم الذى به اكتب فى لوح القلب فيشبه ان تكون اهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من ابواب الملكوت كوشف بالقلم اما ترى ان النبى صلى الله عليه وسلم فى اول امره كوشف بالقلم اذ أنزل عليه اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فقال السالك لقد فتحت بصرى وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ولا اعلم قلما الا كذلك فقال العلم لقد ابعدت النجعة اما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت اما علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الايدى ولا قلمه الاقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه امور الهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الايدى ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وعفص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما اراك الا مخنثا بين فحولة التنزيه وانوثة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معانى الحروف والاصوات واخذت تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة وان فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالابصار فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى انى انا ربك فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وانه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه

(١) حديث قيل له ان عيسى يمشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء تقدم

ووضع الاشياء فى مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضىء بنور الشرع لان انتصابه واعتداله هداه الى الاستضاءة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل وذلك اقرب روحه من الحضرة الالهية ومكاشفة بصيرته التى هى للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتاييد البصيرة فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل والتى يضيق عنها نطاق العقل لانها تستمد من كلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها والعقل ترجمان تؤدى البصيرة اليه من ذلك شطرا كما يؤدى القلب الى

لما رآها بين النقص واقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فاصبح نوراً على نور فقال له العلم اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الالهي فاذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ماهو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأساً ولا رأس له فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عني خيراً اذ الآن ظهر لي صدق انبائه عن اوصاف القلم فاني اراه قلما لا كالاقلام فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامي عندك ومرادي لك وانا عازم على ان اسافر الى حضرة القلم واساله عن شانه فسافر اليه وقال له مابالك ايها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ماتبعث به الارادات الى أشخاص القدر وصرفها الى المقدورات فقال او قد نسيت مارأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم اذ سالته فاحالك على اليد قال لم انس ذلك قال فجوابي مثل جوابه قال كيف وانت لا تشبهه قال القلم أما سمعت ان الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شاني الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يرددني وانا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الالهي وقلم الآدمي في معنى التسخير وانما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن يمين الملك فقال القلم اما سمعت قوله تعالى والسموات مطويات بيمينه قال نعم قال والاقلام ايضا في قبضة يمينه هو الذي يرددها فسافر السالك من عنده الى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه والجملة فيه انه يمين لا كالايمان و يد لا كالايدي واصبع لا كالاصابع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسال اليمين عن شانه وتحريكه للقلم فقال جوابي مثل ماسمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة اذ اليد لا حكم لها في نفسها وانما محركها القدرة لا محالة فسافر السالك الى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ماقبله وسالها عن تحريك اليمين فقالت انما أنا صفة فاسال القادر اذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد ان يزيغ و يطلق بالجراءة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب في غشيته فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شانك تبت اليك وتوكلت عليك وآمنت بانك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك و برضاك من سخطك ومالي الا أن أسالك وأتضرع اليك وابتهل بين يديك فاقول اشرح لي صدري لاعرفك واحلل عقدة من لساني لاثني عليك فنودي من وراء الحجاب اياك ان تطمع في الثناء وتزيد على سيد الانبياء بل ارجع اليه فما اتاك فخذه ومانهاك عنه فانته عنه وماقاله لك فقله فانه مازاد في هذه الحضرة على ان قال (١) سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فقال الهي ان لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودي اياك ان تتخطى رقاب الصديقين فارجع الى الصديق الاكبر فاقتد به فان اصحاب سيد الانبياء كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الادراك ادراك فيكفيك نصيبا من حضرتنا ان تعرف انك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة ومابعدها اقبلوا عذري فاني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة فما كان انكاري عليكم الا عن قصور وجهل والان قد صح عندي عذركم وانكشف لي أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما انتم الا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته وهو الاول والاخر والظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الاول والاخر وهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالاول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن فقال هو الاول بالاضافة الى الموجودات اذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد وهو الاخر

(١) حديث سبحانك لا احصي ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك تقدم

اللسان بعض ما فيه و يستاثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من جمد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظي بعلوم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تايد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر والعقول دون الجامدين على مجرد العقول دون البصائر وقد قال بعضهم أن العقل عقلان عقل للهداية مسكنه في القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتمله في الصدر بين عيني الفؤاد والعقل الاخر مسكنه في الدماغ ومتمله في الصدر

بالاضافة الى سير السائرين اليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل الى منزل الى ان يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر فى المشاهدة اول فى الوجود وهو باطن بالاضافة الى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ظاهر بالاضافة الى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل اعنى من انكشف له ان الفاعل واحد فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد الى انه يبتنى على الايمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك او يجحده فما طريقه فاقول اما الجاحد فلا علاج له الا ان يقال له انكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس فانكروا القدرة والارادة والعلم لانها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس فان قال وانا منهم فانى لا اهتدى الا الى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيأ سواه فيقال انكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق به فلعلنا نراه فى المنام فان قال وانا من جملتهم فانى شاك ايضا فى المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك اياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الاطباء هذا حكم الجاحد واما الذى لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه ان ينظروا الى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة فى الاصل وقد نزل فيها ماء اسود يقبل الازالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالابصار الظاهرة فاذا استوى بصره ارشد الى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص اصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه ان يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ولم يمكنه ان يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد الى حضيض فهمه فان فى عالم الشهادة أيضا توحيدا اذ يعلم كل أحد ان المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد باميرين فيقال له على حد عقله اله العالم واحد والمدبر واحد اذ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق ما رآه فى عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الانبياء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عادتهم فى المحاورة فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح ان يكون عمادا للتوكل واصلا فيه فاقول نعم فان الاعتقاد اذا قوى عمل عمل الكشف فى اثارة الاحوال الا انه فى الغالب يضعف و يتسارع اليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه الى متكلم يحرسه بكلامه أو الى ان يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من استاذه اومن أبويه اومن اهل بلده واما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وان كان يزداد وضوحا كما ان الذى يرى انسانا فى وقت الاسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بانه انسان ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين الا كسحرة فرعون مع اصحاب السامرى فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تاثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الامر فلم يكترثوا بقول فرعون لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف بل قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا فان البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامرى لما كان ايمانهم عن النظر الى ظاهر الثعبان فلما نظروا الى عجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله هذا الهكم واله موسى ونسوا انه لا يرجع قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر الى ثعبان يكفر لا محالة اذا نظر الى عجل لان كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير واما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا فان قلت ماذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت ان الوسائط والاسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر الا فى حركات الانسان فانه يتحرك ان شاء و يسكن ان شاء فكيف يكون مسخرا فاعلم انه لو كان مع هذا يشاء ان اراد ان يشاء ولو يشاء ان لم يرد ان يشاء لكان هذا

بين عينى الفؤاد فبالاول يدبر أمر الآخرة وبالثانى يدبر امر الدنيا والذى ذكرناه انه عقل واحد اذا تايد بالبصيرة دبر الامرين واذا انفرد دبر أمرا واحدا وهو اوضح وابين وقد ذكرنا فى اول الباب من تدبيره للنفس المطمئنة والامارة ما يتنبه الانسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة ومنفردا بوصفه تارة والله الملهم للصواب

(الباب السابع والخمسون فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها)

(اخبرنا) شيخنا ابو النجيب السهروردى قال اخبرنا ابو الفتح الهروى قال انا ابو نصر الترياقى قال انا ابو محمد الجراحى قال انا ابو العباس المحبوبى قال انا ابو عيسى

منزلة القدم وموقع الغلط ولكن علم انه يفعل مايشاء اذا شاء ان يشأ ام لم يشا فليست المشيئة اليه اذ لو كانت اليه لافتقرت الى مشيئة اخرى وتسلسل الى غير نهاية واذا لم تكن المشيئة اليه فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة الى مقدورها انصرفت القدرة لامحالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب فهذه ضروريات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد ان يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة الى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر فى الجميع فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لاتنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا فاقول لو انكشف الغطاء لعرفت انه فى عين الاختيار مجبور فهو اذا مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لايفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متطفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم نقصد به الاعلم المعاملة ولكني اقول لفظ الفعل فى الانسان يطلق على ثلاثة اوجه اذ يقال الانسان يكتب بالاصابع و يتنفس بالرئة والحنجرة و يخرق الماء اذا وقف عليه بجسمه فينسب اليه الخرق فى الماء والتنفس والكتابة وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحد ولكنها تختلف وراء ذلك فى امور فاعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمى خرقه الماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمي تنفسه فعلا اراديا ونسمي كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعي لانه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لامحالة فيكون الخرق بعد التخطى ضروريا والتنفس فى معناه فان نسبة حركة الحنجرة الى ارادة التنفس كنسبة انخراق الماء الى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل اليه وكذلك الارادة ليست اليه ولذلك لوقصد عين الانسان بابرة طبق الاجفان اضطرارا ولو أراد ان يتركها مفتوحة لم يقدر مع ان تغميض الاجفان اضطرارا فعل ارادى ولكنه اذا تمثل صورة الابرة فى مشاهدته بالادراك حدثت الارادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو اراد ان يترك ذلك لم يقدر عليه مع انه فعل بالقدرة والارادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي فى كونه ضروريا وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لايشاء فيظن من هذا ان الامر اليه وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه و بيانه ان الارادة تبع للعلم الذى يحكم بان الشئ موافق لك والاشياء تنقسم الى ماتحكم مشاهدتك الظاهرة او الباطنة بانه يوافقك من غير تحير وتردد والى ماقد يتردد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد ان يقصد عينك مثلا بابرة او بدنك بسيف فلايكون فى علمك تردد فى ان دفع ذلك خير لك وموافق فلاجرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة الاجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير رؤية وفكرة و يكون ذلك بالارادة ومن الاشياء مايتوقف التمييز والعقل فيه فلايدرى انه موافق ام لافيحتاج الى رؤية وفكر حتى يتميز ان الخير فى الفعل او الترك فاذا حصل بالفكر والرؤية العلم بان احدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير رؤية وفكر فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان فاذا انبعثت لفعل ماظهر للعقل انه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا من الخير اى هو انبعاث الى ماظهر للعقل انه خير وهو عين تلك الارادة ولم ينتظر فى انبعاثها الى ماانتظرت تلك الارادة وهو ظهور خيرية الفعل فى حقه الا ان الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير رؤية بل على البديهة وهذا افتقر الى الروية فالاختيار عبارة عن ارادة خاصة وهى التى انبعثت باشارة العقل فيماله فى ادراكه توقف وعن هذا قيل ان العقل يحتاج اليه للتمييز بين الخيرين وشر الشرين ولا يتصور ان لاتنبعث الارادة الابحكم الحس والتخييل او بحكم جزم من العقل ولذلك لواراد الانسان ان يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لالعدم القدرة فى اليد ولالعدم السكين ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة وانما فقدت الارادة لانها تنبعث بحكم العقل او الحس بكون الفعل موافقا وقتله نفسه ليس موافقا له فلايمكنه مع قوة الاعضاء ان يقتل نفسه الا اذا كان فى عقوبة مؤلمة لاتطاق فان العقل هنا يتوقف فى الحكم

الترمذى قال .. هناد قال أنا ابو الاحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فاما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق واما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء وانما يتطلع الى معرفة اللمتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف الى ذلك تشوف العطشان الى الماء لما يعلم من وقع ذلك وخطره

و يتردد لانه تردد بين شر الشرين قال فان ترجح له بعد الرؤية ان ترك القتل اقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وان حكم بان القتل اقل شرا وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الارادة والقدرة واهلك نفسه كالذى يتبع بالسيف للقتل فانه يرمى بنفسه من السطح مثلا وان كان مهلكا ولا يبالى ولا يمكنه ان لا يرمى نفسه فان كان يتبع بضرب خفيف فان انتهى الى طرف السطح حكم العقل بان الضرب اهون من الرمى فوقفت اعضائه فلا يمكنه ان يرمى نفسه ولا تنبعث له داعية البتة لان داعية الارادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدرى فانما هو محل ومجرى لهذه الامور فاما ان يكون منه فكلا ولا فاذا معنى كونه مجبورا ان جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم ايضا جبرا فاذا هو مجبور على الاختيار ففعل النار فى الاحراق مثلا جبر محض وفعل الله اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار فطلب اهل الحق لهذا عبارة ثالثة لانه لما كان فنا ثالثا وائتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط ان لا يفهم من الاختيار ارادة بعد تحير وتردد فان ذلك فى حقه محال وجميع الالفاظ المذكورة فى اللغات لا يمكن ان تستعمل فى حق الله تعالى الا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه فان قلت فهل تقول ان العلم ولد الارادة والارادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وان كل متاخر حدث من المتقدم فان قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شىء لا من قدرة الله تعالى وان أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم ان القول بان بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد او بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة الازلية وهو الاصل الذى لم يقف كافة الخلق عليه الا الراسخون فى العلم فانهم وقفوا على كنه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ولا علم الا بعد حياة ولا حياة الا بعد محل الحياة وكما لا يجوز ان يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك فى سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق والا فلا يتقدم متقدم ولا يتاخر متاخر الا بحق اللزوم وكذلك جميع افعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتاخير عبثا يضاهى فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا والى هذا أشار قوله تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى وماخلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين ماخلقناهما الا بالحق فكل مابين السماء والارض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور ان يكون الا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذى وجد فما تاخر متاخر الا لانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتاخر العلم عن النطفة الا لفقد شرط الحياة ولا تتاخر عنها الارادة بعد العلم الا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس فى شىء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتدبير وتفهيم ذلك عسير ولكنا نضرب الموقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادي الحق من الافهام الضعيفة وذلك بان تقدر انسانا محدثا قد أنغمس فى الماء الى رقبته فالحدث لا يرتفع عن اعضائه وان كان الماء هو الرافع وهو ملاق له فقدر القدرة الازلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظار للشرط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء عمل الماء فى سائر اعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل ان الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لانه حدث عقيبه اذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه مالم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه فاذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل

وفلاحه وصلاحه وفساده و يكون ذلك عبدا امرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين واكثر التشوف الى ذلك للمقربين ومن أخذ به فى طريقهم ومن اخذ فى طريق الابرار قد يتشوف الى ذلك بعض التشوف لان التشوف اليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ من الله الكريم ومن هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع الى معرفة اللمتين ولا يهتم بتمييز الخواطر (ومن الخواطر) ماهي رسل الله تعالى الى العبد كما قال بعضهم لى قلب ان عصيته عصيت الله وهذا حال عبد استقام قلبه واستقامة القلب لطمانينة النفس وفى طمانينة

يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفاع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الازلية مع ان القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد الا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا اله الا الله وما أخف مؤنته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد ان لا فاعل الا الله تعالى ومعنى الشرع اثبات الافعال للعباد فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وان كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم فاقول نعم ولك غير مفهوم اذا كان للفاعل معنى واحد وان كان له معنيان ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الامير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الامير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله تعالى فاعلا انه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا انه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد ان خلق فيه الارادة بعد ان خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والامير قاتلا لان القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمي فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولاجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الافعال في القرآن مرة الى الملائكة ومرة الى العباد ونسبها بعينها مرة اخرى الى نفسه فقال تعالى قل يتوفاكم ملك الموت ثم قال عز وجل الله يتوفى الانفس حين موتها وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون اضاف الينا ثم قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقال عز وجل فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ثم قال تعالى فنفخنا فيها من روحنا وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى فاذا قرأناه فاتبع قرآنه قيل في التفسير معناه اذ قرأه عليك جبريل وقال تعالى قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم فاضاف القتل اليهم والتعذيب الى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وقال تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وهو جمع بين النفي والاثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا اذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا اذ هما معنيان مختلفان وقال الله تعالى الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ثم قال الرحمن علم القرآن وقال علمه البيان وقال ان علينا بيانه وقال أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في (١) وصف ملك الارحام انه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوي أم معوج فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق الملك وفي لفظ آخر ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة وقد قال بعض السلف ان الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الارواح في الاجساد وانه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فاما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم الا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الادلة والآيات في الارض

(١) حديث وصف ملك الارحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا الحديث البزار وابن عدي من حديث عائشة ان الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره فما من شيء الا وهو يخلق معه في الرحم وفي سنده جهالة وقال ابن عدي انه منكر وأصله متفق عليه من

النفس يأس الشيطان لان النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب واذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه لان صفاء القلب محفوف بالتذكر والرعاية والذكر نور يتقيه الشيطان كما يتقي أحدنا النار (وقد ورد) في الخبر ان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فاذا ذكر الله تعالى تولى وخنس واذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه وقال الله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فبالتقوى وجود خالص الذكر وبها ينفتح بابه

والسموات ثم قال أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد وقال شهد الله أنه لا اله الا هو فبين انه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر الى الموجودات وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد وقد وصف الله تعالى نفسه بانه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة الى ملكين ففي الخبر(١) ان ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الاحياء وقال ملك الحياة أنا احيي الموتى فاوحى الله تعالى اليهما كونا على عملكما وكما سخرتكماله من الصنع وانا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواى فاذا الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني اذا فهمت ولذلك (٢) قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة خذها لو لم تأتها لاتتك اضاف الاتيان اليه والى التمرة ومعلوم ان التمرة لا تاتي على الوجه الذي يأتي الانسان اليها وكذلك لما قال التائب(٣) أتوب الى الله تعالى ولا أتوب الى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لاهله فكل من اضاف الكل الى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن اضافه الى غيره فهو المتجوز والمستعير في كلامه وللتجوز وجه كما ان للحقيقة وجها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن ان الانسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن انه تحقيق وتوهم ان نسبته الى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل الى الامير فانه مجاز بالاضافة الى نسبته الى الجلاد فلما انكشف الحق لاهله عرفوا ان الامر بالعكس وقالوا ان الفاعل قد وضعته أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل الا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تجوز به عما وضعه اللغوي له ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الاعراب قصدا او اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٤) أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد * الا كل شيء ما خلا الله باطل * اى كل ما لا قوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذا لا حق بالحقيقة الا الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول انا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان فان قلت فقد ظهر الآن ان الكل جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه فاعلم ان معنى ذلك قد اشرنا اليه في كتاب الشكر فلا نطول باعادته فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز اليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا الا بالايمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر الى مسبب الاسباب والايمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الاسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتي الا بالثقة بالوكيل وطمانينة القلب الى حسن نظر الكفيل وهذا الايمان ايضا باب عظيم من ابواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه وهو ان يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب ان الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الامور واطلعهم على اسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا بها على الخير والشر والنفع والضر ثم امرهم ان يدبروا الملك والملكوت بما اعطوا من العلوم والحكم

ولا يزال العبد يتقي حتى يحمي الجوارح من المكاره ثم يحميها من الفضول ومالا يعنيه فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ثم تنتقل تقواه الى باطنه ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره ثم من الفضول حتى يتقي حديث النفس (قال سهل بن عبد الله) أسوأ المعاصي حديث النفس ويروى الاصفياء الى ما تحدث به النفس ذنبا فيتقيه وبتقة القلب عند هذا الاتقاء بالذكر اتقاد الكواكب في كبد السماء ويصير القلب سماء محفوظا بزينة كواكب الذكر فاذا صار كذلك بعد الشيطان ومثل هذا العبد يندر في حقه الخواطر الشيطانية ولما

حديث ابن مسعود بنحوه (١) حديث ان ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا اميت الاحياء وقال ملك الحياة انا احيي الاموات فاوحى الله اليهما أن كونا على عملكما الحديث لم اجد له اصلا (٢) حديث قال للذي ناوله التمرة خذها لو لم تاتها لاتتك ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هزيل بن شرحبيل ووصله الطبراني عن هزيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث انه قال للذي قال اتوب الى الله ولا اتوب الى محمد عرف الحق لاهله تقدم في الزكاة (٤) حديث اصدق بيت قالته العرب بيت لبيد * الا كل شيء ما خلا الله باطل * متفق عليه من حديث ابي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب

لما اقتضى تدبيرجميعهم مع التعاون والتظاهر عليه ان يزادفيمادبر الله سبحانه الخلق به فى الدنياوالآخرة جناح بعوضة ولا ان ينقص منهاجناح بعوضة ولا ان يرفع منها ذرة ولاان يخفض منهاذرة ولاان يدفع مرض اوعيب او نقص او فقر اوضرعمن بلى به ولاان يزال صحة اوكمال اوغنى اونفع عمن انعم الله به عليه بل كل ماخلقه الله تعالى من السموات والارض ان رجعوا فيها البصر وطولوافيها النظر مارأوافيهامن تفاوت ولافطور وكل ماقسم الله تعالى بين عباده من رزق واجل وسرور وحزن وعجزوقدرة وايمان وكفروطاعة ومعصية فكله عدل محض لاجور فيه وحق صرف لاظلم فيه بل هوعلى الترتيب الواجب الحق على ماينبغى وكما ينبغى و بالقدر الذى ينبغى وليس فى الامكان اصلا احسن منه ولا اتم ولا اكمل ولوكان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلايناقض الجود وظلما يناقض العدل ولولم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الالهية بل كل فقر وضرفى الدنيافهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالاضافة الى شخص فهونعيم بالاضافة الى غيره اذلولا الليل لماعرف قدر النهار ولولا المرض لماتنعم الاصحاء بالصحة ولولا النارلماعرف اهل الجنة قدر النعمة وكما ان فداء ارواح الانس بارواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على اهل النيران وفداء اهل الايمان باهل الكفران عين العدل ومالم يخلق الناقص لايعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهرشرف الانس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاوكما ان قطع اليد اذا كانت ابقاء على الروح عدل لانه فداء كامل بناقص فكذلك الامرفى التفاوت الذى بين الخلق فى القسمة فى الدنياوالآخرة فكل ذلك عدل لاجور فيه وحق لالعب فيه وهذاالآن بحرآخرعظيم العمق واسع الاطراف مضطرب الامواج قريب فى السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا ان ذلك غامض لايعقله الاالعالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الاكثرون ومنع من افشاء سره المكاشفون والحاصل ان الخير والشر مقضى به وقد كان ماقضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلاراد لحكمه ولامعقب لقضائه وامره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما اصابك لم يكن ليخطئك وما اخطأك لم يكن ليصيبك ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هى اصول مقام التوكل ولنرجع الى علم المعاملة ان شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل

(الشطر الثانى من الكتاب) فى احوال التوكل واعماله وفيه بيان حال التوكل و بيان ماقاله الشيوخ فى حد التوكل وبيان التوكل فى الكسب للمنفرد المعين والمعيل وبيان التوكل بترك الادخار و بيان التوكل فى دفع المضار و بيان التوكل فى ازالة الضرر بالتداوى وغيره والله الموفق برحمته

﴿ بيان حال التوكل ﴾

قد ذكرنا ان مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم * فاما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وانما العلم اصله والعمل ثمرته وقد اكثر الخائضون فى بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه واخبر عن حده كما جرت عادة اهل التصوف به ولا فائدة فى النقل والاكثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل امره الى فلان اى فوضه اليه واعتمد عليه فيه و يسمى الموكول اليه وكيلا و يسمى المفوض اليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمانت اليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل فى الخصومة مثالا فنقول من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولامطمئن النفس بتوكيله الا اذا اعتقد فيه اربعة امور منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة اما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لايخفى عليه من غوامض الحيل شىء اصلا واما القدرة والقوة فليستجرىء على التصريح بالحق فلايداهن ولايخاف ولايستحى ولايجبن فانه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه

و يكون له خواطر النفس و يحتاج الى ان يتقيها و يميزها بالعلم لان منها خواطر لا يضر امضاؤها كمطالبات النفس بحاجاتها وحاجاتها تنقسم الى الحقوق والحظوظ و يتعين التمييز عند ذلك وابهام النفس بمطالبات الحظوظ قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أى فتثبتوا (وسبب) نزول الآية الوليد ابن عقبة حيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بنى المصطلق فكذب عليهم ونسبهم الى الكفر والعصيان حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم ثم بعث خالدا اليهم فسمع أذان المغرب والعشاء ورأى مايدل على كذب

فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهى أيضا من القدرة الا انها قدرة فى اللسان على الافصاح عن كل مااستجرأ القلب عليه وأشار اليه فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس وأما منتهى الشفقة فيكون باعثاله على بذل كل مايقدر عليه فى حقه من المجهود فان قدرته لا تغنى دون العناية به اذا كان لا يهمه أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أولم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا فى هذه الاربعة أو فى واحدة منها أو جوزان يكون خصمه فى هذه الاربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه الى وكيله بل بقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع مايحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمانينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمانينة والثقة تفاوتا لا ينحصر الى أن ينتهى الى اليقين الذى لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لاجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الاربعة قطعية وكذلك سائر الخصال يتصور ان يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الاخبار بانه أفصح الناس لسانا وأقواهم بيانا واقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فاذا عرفت التوكل فى هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فان ثبت فى نفسك بكشف او باعتقاد جازم انه لا فاعل الا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه ولا الى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة الا بالله كما سبق فى التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فان الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فان كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه احد امرين اما ضعف اليقين باحدى هذه الخصال الاربعة واما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له عن غير نقصان فى اليقين فان من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ولو كلف العاقل انه يبيت مع الميت فى قبر اوفراش او بيت نفر طبعه عن ذلك وان كان متيقنا بكونه ميتا وانه جماد فى الحال وان سنة الله تعالى مطردة بانه لا يحشره الآن ولا يحييه وان كان قادرا عليه كما انها مطردة بان لا يقلب القلم الذى فى يده حية ولا يقلب السنور اسدا وان كان قادرا عليه ومع انه لا يشك فى هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت فى فراش او الميت معه فى البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن فى القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الانسان عن شئ منه وان قل وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف ان يبيت فى البيت وحده مع اغلاق الباب واحكامه فاذا لا يتم التوكل الا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا اذ بهما يحصل سكون القلب وطمانينته فالسكون فى القلب شئ واليقين شئ آخر فكم من يقين لا طمانينة معه كما قال تعالى لابراهيم عليه السلام اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي فالتمس ان يكون مشاهدا احياء الميت بعينه ليثبت فى خياله فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين فى ابتداء امرها الى ان تبلغ بالآخرة الى درجة النفس المطمئنة وذلك لا يكون فى البداية اصلا وكم من مطمئن لا يقين له كسائر ارباب الملل والمذاهب فان اليهودى مطمئن القلب الى تهوده وكذا النصرانى ولا يقين لهم اصلا وانما يتبعون الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين الا انهم معرضون عنه فاذا الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها فهى احد الاسباب التى تضاد حال التوكل كما ان ضعف اليقين بالخصال الاربعة احد الاسباب واذا اجتمعت هذه الاسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب فى التوراة ملعون من ثقته انسان مثله وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) من استعز بالعبيد اذله الله تعالى واذا انكشف

(١) حديث من اعتز بالعبيد اذله الله العقيلى فى الضعفاء وابو نعيم فى الحلية من حديث عمر اورده العقيلى فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الاموى وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال يخالف فى روايته

الوليد بن عقبة فانزل الله تعالى الآية فى ذلك فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر وصار ذلك تنبيها من الله عباده على التثبت فى الامور (قال سهل) فى هذه الآية الفاسق الكذاب والكذب صفة النفس لانها تملى اشياء وتسول اشياء على غير حقائقها فتعين التثبت عند خاطرها والقائها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت ولا يستفزه الطبع ولا يستعجله الهوى. فقد قال بعضهم ادنى الادب ان تقف عند الجهل وآخر الادب ان تقف عند الشبهة ومن الادب عند الاشتباه انزال الخاطر بحرك النفس وخالقها و بارئها وفاطرها

لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلا فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات (الدرجة الاولى) ماذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل (الثانية) وهي أقوى ان يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى أحد سواها ولا يعتمد الا اياها فاذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها وان نابه أمر في غيبتها كان أول سابق لسانه ياأماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فانها مفزعه فانه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع ادراك بالتمييز الذي له ويظن انه طبع من حيث ان الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على احضاره مفصلا في ذهنه ولكن كل ذلك وراء الادراك فمن كان باله الى الله عز وجل ونظره اليه واعتماده عليه كاف به كما يكلف الصبي بامه فيكون متوكلا حقا فان الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الاول ان هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله اذ ليس يلتفت قلبه الى التوكل وحقيقته بل الى المتوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه وأما الاول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله لان له التفاتا الى توكله وشعوره به وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده والى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الاماني قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو اشارة الى الدرجة الثانية وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه الا من بلغ أوسطه (الثالثة) وهي أعلاها ان يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه الا في انه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذي قوي يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وان كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ويفارق الصبي فان الصبي يفزع الى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وان لم يزعق بامه فالام تطلبه وانه وان لم يتعلق بذيل أمه فالام تحمله وان لم يسألها اللبن فالام تفاتحه وتسقيه وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وانه يعطي ابتداء أفضل مما يسال فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وانما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط فان قلت فهذه الاحوال هل يتصور وجودها فاعلم ان ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثاني والثالث اعزها والاول اقرب الى الامكان ثم اذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه الا كصفرة الوجل فان انبساط القلب الى ملاحظة الحول والقوة والاسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم الى جميع الاطراف طبع وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة الى الباطن حتى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الاسباب الظاهرة لا يدوم واما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين والاول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد ان يزول فان قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالاسباب في هذه الاحوال فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأسا مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت والمقام الثاني ينفي كل تدبير الا من حيث الفزع الى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط والمقام الاول لا ينفي اصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي اشار اليه وكيله به او التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح اشارته فاما الذي يعرفه باشارته بان يقول له لست أتكلم الا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضا توكله عليه اذ ليس هو فزعا منه الى حول نفسه وقوته في اظهار الحجة ولا الى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسمه له اذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له في قوله لما حضر بقوله واما المعلوم من عاداته واطراد سنته فهو ان يعلم من عادته انه لا يحاج الخصم الا من السجل فتمام توكله ان كان متوكلا عليه أن يكون معه ولا على

واظهار الفقر والفاقة اليه والاعتراف بالجهل وطلب المعرفة والمونة منه فانه اذا أتى بهذا الادب يغاث ويعان ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق فان كان للحق أمضاه وان كان للحظ نفاه وهذا التوقف اذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لان الافتقار الى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسعه في صحته الا الوقوف على الحق دون الحظ وان أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل في تناول الحظ ويمضي خاطره بمزيد علم لديه من الله وهو علم

سنته وعادته ووافيا بمقتضاها وهو ان يحمل السجل مع نفسه اليه عند مخاصمته فاذا لا يستغني عن التدبير في الحضور وعند التدبير في احضار السجل ولو ترك شيا من ذلك كان نقصا في توكله فكيف يكون فعله نقصا فيه نعم بعد ان حضر وفاء باشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظرا الى محاجته فقد ينتهي الى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع الى حوله وقوته اذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه الى حوله وقوته في الحضور واحضار السجل باشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق الا الطمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري واذا تاملت هذا اندفع عنك كل اشكال في التوكل وفهمت انه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وان كل تدبير وعمل لا يجوز ايضا مع التوكل بل هو على الانقسام وسياتي تفصيله في الاعمال فاذا فزع المتوكل الى حول وقوته في الحضور والاحضار لا يناقض التوكل لانه يعلم انه لولا الوكيل لكان حضوره واحضاره باطلا وتعبا محضا بلا جدوى فاذا لا يصير مفيدا من حيث انه حوله وقوته بل من حيث ان الوكيل جعله متمما لمحاجته وعرفه ذلك باشارته وسنته فاذا لا حول ولا قوة الا بالوكيل الا ان هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لانه ليس خالقا حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيدين في انفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وانما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى اذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين اذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذا لا حول ولا قوة الا بالله حقا وصدقا فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الاخبار(١) فيمن يقول لا حول ولا قوة الا بالله وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها وهيهات فانما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها الى كلمة لا اله الا الله وثوابها كنسبة معنى احداهما الى الاخرى اذ في هذه الكلمة اضافة شيئين الى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة وأما كلمة لا اله الا الله فهو نسبة الكل اليه فانظر الى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا اله الا الله بالاضافة الى هذا وكما ذكرنا من قبل ان للتوحيد قشرين ولبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا الى اللبين والى اللبين الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم(٢) من قال لا اله الا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والاخلاص اراد بالمطلق هذا المقيد كما اضاف المغفرة الى الايمان والعمل الصالح في بعض المواضع واضافها الى مجرد الايمان في بعض المواضع والمراد به المقيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب ايضا حديث ولكنه حديث نفس وانما الصدق والاخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك الا للمقربين وهم المخلصون نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من اصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وان كانت لا تنتهي الى الملك اما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ولما انتهى الى اصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء والظل والفواكه والاشجار والحور العين وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والماكول والمنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى ان احوال البهائم وهي مسيبة في الرياض متنعمة بالماء والاشجار واصناف الماكولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى وألذ واشرف واجدر بان تكون عند ذوي الكمال مغبوطة من احوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من اذا خير بين ان يكون حمارا أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى ان شبه كل شيء منجذب اليه

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة الا بالله تقدمت في الدعوات (٢) حديث من قال لا اله الا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة الطبراني من حديث زيد بن ارقم وابو يعلى من حديث ابي هريرة وقد تقدم

السمة لعبد ماذون له في السمة عالم بالاذن فيمضي خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك و يليق به عالم بزيادته ونقصانه عالم بحاله محكم لعلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لانه امر خاص لعبد خاص واذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس في مقام تخلصه من لمات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الاربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان الا نادرا لضيق مكانه من النفس لان الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والاخلاد الى الارض ومن

وان النفس التي نزوعها الى صنعة الاساكفة أكثر من نزوعها الى صنعة الكتابة فهو بالاساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه الى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها الى نيل لذات الملائكة فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم أولئك كالانعام بل هم أضل وانما كانوا أضل لان الانعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة فتركها الطلب للعجز وأما الانسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة الى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال واذ كان هذا كلاما معترضا فلنرجع الى المقصود فقد بينا معنى قول لا اله الا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة الا بالله وان من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل فان قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة الا بالله الا نسبة شيئين الى الله فلو قال قائل السماء والارض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه فاقول لا لأن الثواب على قدر درجة الثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر الى عظم السماء والارض وصغر الحول والقوة ان جاز وصفهما بالصغر تجوزا فلست الامور بعظام الاشخاص بل كل عامي يفهم ان الارض والسماء ليستا من جهة الادميين بل هما من خلق الله تعالى فاما الحول والقوة فقد أشكل امرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى انه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره فهي مهلكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون اذ اثبتوا لانفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد واثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى اياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذي يصدق قوله لا حول ولا قوة الا بالله وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد الا عقبتان احداهما النظر الى السماء والارض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات والثانية النظر الى اختيار الحيوانات وهي اعظم العقبتين واخطرهما و بقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعني ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فاذا رجع حال التوكل الى التبري من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل ان شاء الله تعالى

﴿ بيان ماقاله الشيوخ في أحوال التوكل ﴾

ليتبين أن شيأ منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير الى بعض الاحوال فقد قال ابو موسى الدبيلي قلت لابي يزيد ما التوكل فقال ماتقول انت قلت ان اصحابنا يقولون لو أن السباع والافاعي عن يمينك و يسارك ماتحرك لذلك سرك فقال ابو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو ان اهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فما ذكره ابو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره ابو يزيد عبارة عن اعز انواع العلم الذي هو من اصول التوكل وهو العلم بالحكمة وان مافعله الله تعالى فعله الواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالاضافة الى اصل العدل والحكمة وهذا أغمض انواع العلم ووراءه سر القدر وابو يزيد قلما يتكلم الا عن اعلى المقامات واقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطا في المقام الاول من التوكل فقد احترز (١) ابو بكر رضي الله عنه في الغار اذ سد منافذ الحيات الا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال انما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه وانما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لامر يرجع الى نفسه والنظر في هذا مجال ولكن سياق بيان ان امثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فان حركة السر من الحيات هو الخوف وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات اذ لا حول للحيات ولا قوة لها الا بالله فان احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال خلع الارباب وقطع الاسباب فخلع الارباب اشارة الى علم التوحيد وقطع الاسباب اشارة الى الاعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وان كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال القاء النفس في العبودية واخراجها من الربوبية وهذا اشارة الى التبري من

(١) حديث ابا بكر سد منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم

ضايق النفس على التميز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان الا نادرا لدخول الابتلاء عليه ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من اذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر يصير قلبه سماويا يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات وكلما ترقى تتضاءل النفس المطمئنة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات بعروج باطنه كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهره وقالبه فاذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بانوار القرب و بعد النفس

الحول والقوة فقط وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال ان كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تامن أن تموت و يبقى دينك فى عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لاتيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا اشارة الى مجرد الايمان بسعة القدرة وأن فى المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الاسباب الظاهرة وسئل ابوعبد الله القرشى عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى فى كل حال فقال السائل زدنى فقال ترك كل سبب يوصل الى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك فالاول عام للمقامات الثلاث والثانى اشارة الى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل ابراهيم صلى الله عليه وسلم اذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما اليك فلا اذ كان سؤاله سببا يفضى الى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بان الله تعالى ان اراد سخر جبريل لذلك فيكون هو المتولى لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز فى نفسه ودوامه ان وجد أبعد منه وأعز وقال ابوسعيد الخراز التوكل اضطراب بلاسكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير الى المقام الثانى فسكونه بلا اضطراب اشارة الى سكون القلب الى الوكيل وثقته به واضطراب بلاسكون اشارة الى فزعه اليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه الى امه وسكون قلبه الى تمام شفقتها وقال ابو على الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن الى وعده والمسلم يكتفى بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا اشارة الى تفاوت درجات نظره بالاضافة الى المنظور اليه فان العلم هو الاصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد ان يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شىء من ذلك وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ماذكرناه فلا نطول بها فان الكشف أنفع من الرواية والنقل فهذا مايتعلق بحال التوكل والله الموفق برحمته ولطفه

﴿ بيان اعمال المتوكلين ﴾

اعلم ان العلم يورث الحال والحال يثمر الاعمال وقد يظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام فى الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل نكشف الغطاء عنه ونقول انما يظهر تاثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعلمه الى مقاصده وسعى العبد باختياره اما أن يكون لاجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أولحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أولدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أولازالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الاربعة وهو جلب النافع أوحفظه اودفع الضار اوقطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع (الفن الاول) فى جلب النافع فنقول فيه الاسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لاتثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن اليه * الدرجة الاولى المقطوع به وذلك مثل الاسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن الطعام اذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد اليه وتقول انا متوكل وشرط التوكل ترك السعى ومد اليد اليه سعى وحركة وكذلك مضغه بالاسنان وابتلاعه باطباق أعالى الحنك على اسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل فى شىء فانك ان انتظرت ان يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز أو يخلق فى الخبز حركة اليك أو يسخر ملكا ليمضغه لك و يوصله الى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الارض وطمعت ان يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن احصاؤه فليس التوكل فى هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم أما العلم فهو أن تعلم ان الله تعالى خلق الطعام واليد والاسنان وقوة الحركة وانه هو الذى يطعمك و يسقيك واما الحال فهو ان يكون سكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال وتفلج

عنه وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لان الخاطر رسول والرسالة الى من بعد وهذا قريب وهذا الذى وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم بل يعود فى هبوطه الى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود اليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك ان الخواطر تستدعى وجودا وما اشرنا اليه حال الفناء ولا خاطر فيه وخاطر الحق انتفى لمكان القرب وخاطر النفس بعد عنه لبعد النفس وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل فى ليلة المعراج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال لو دنوت انملة لاحترقت * قال

وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال مايزيل عقلك ويبطل قوة حركتك وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه او يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك واذا احتمل امثال ذلك ولم يكن لها علاج الا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول فاذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فانه متوكل * الدرجة الثانية الاسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب ان المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الامصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس الا نادرا او يكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الاولين ولا يزول التوكل به بعد ان يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز وهو من اعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فان قلت فهذا سعي في الهلاك والقاء النفس في التهلكة فاعلم ان ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين أحدهما ان يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام اسبوعا ومايقارب به بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى والثاني ان يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الاشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الامر في البوادي في كل اسبوع عن ان يلقاه آدمي او ينتهي الى حلة اوقرية او الى حشيش يجتزي به فيحيا به مجاهدا نفسه والمجاهد عماد التوكل وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين والدليل عليه ان الخواص كان لا تفارقه الابرة والمقراض والحبل والركوة ويقول هذا لا يقدح في التوكل وسببه انه علم ان البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الارض وماجرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش والماء يحتاج اليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وان صبر عن الطعام وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الاربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية لانه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لانه يحتمل ان لا يتخرق الثوب او يعطيه انسان ثوبا او يجد على رأس البئر من يسقيه ولا يحتمل ان يتحرك الطعام ممضوغا الى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الاول ولهذا نقول لو انحاز الى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كما روي ان زاهدا من الزهاد فارق الامصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لا أسأل احدا شيئا حتى يأتيني ربي برزق فقعد سبعا فكاد يموت ولم يأته رزق فقال يارب ان احييتني فائتني برزقي الذي قسمت لي والا فاقبضني اليك فاوحى الله جل ذكره اليه وعزتي لا رزقتك حتى تدخل الامصار وتقعد بين الناس فدخل المصر وقعد فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فاكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك فاوحى الله تعالى اليه اردت ان تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا اما علمت اني ان ارزق عبدي بايدي عبادي احب الي من ان ارزقه بيد قدرتي فاذا التباعد عن الاسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الاسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ولكن الاسباب تنقسم الى ظاهرة والى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالاسباب الخفية عن الاسباب الظاهرة مع سكون النفس الى مسبب السبب لا الى السبب فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغير كسب اهو حرام او مباح او مندوب فاعلم ان ذلك ليس بحرام لان صاحب السياحة في البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد ان يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن الى ان يتفق ولكن لو اغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لاحد اليه ففعله ذلك حرام وان فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج اولى له ولكن ليس فعله حراما الا ان يشرف على الموت فعند

محمد بن علي الترمذي المحدث والمكلم اذا تحققا في درجتهما لم يخافا من حديث النفس (فكما) ان النبوة محفوظة من القاء الشيطان كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من القاء النفس وفتنتها ومحروس بالحق والسكينة لان السكينة حجاب المكلم والمحدث مع نفسه (وسمعت) الشيخ أبا محمد ابن عبد الله البصري بالبصرة يقول الخواطر أربعة خاطر من النفس وخاطر من الحق وخاطر من الشيطان وخاطر من الملك فاما الذي من النفس فيحس به من أرض القلب والذي من الحق من فوق القلب والذي من الملك عن يمين القلب

ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وان كان مشغول القلب بالله غير مستشرف الى الناس ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو ان يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لا محالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو ان العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لادركه وانه لو سال الله تعالى ان لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ولقال له يا جاهل كيف اخلقك ولا ارزقك ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء الا في الرزق والاجل فانهم اجمعوا على ان لا رازق ولا مميت الا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم (١) لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال وقال عيسى عليه السلام انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم فان قلتم نحن اكبر بطونا فانظروا الى الانعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق وقال ابو يعقوب السوسي المتوكلون تجري ارزاقهم على ايدى العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم يا كل بذل كالسؤال و بعضهم بتعب وانتظار كالتجار و بعضهم بامتهان كالصناع و بعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة * الدرجة الثالثة ملابسة الاسباب التي يتوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم اعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فاما اخذ الشبهة او اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الاسباب فلا يخفى ان ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الاسباب التي نسبتها الى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالاضافة الى ازالة الضار فان النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بانهم لا يكتسبون ولا يسكنون الامصار ولا يأخذون من احد شيئا بل وصفهم بانهم يتعاطون هذه الاسباب وامثال هذه الاسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن احصاؤها وقال سهل في التوكل انه ترك التدبير وقال ان الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وانما حجابهم بتدبيرهم ولعله اراد به استنباط الاسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج الى التدبير دون الاسباب الجلية فاذا قد ظهر ان الاسباب منقسمة الى ما يخرج التعلق بها عن التوكل والى ما لا يخرج وان الذي يخرج ينقسم الى مقطوع به والى مظنون وان المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الاسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل واما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملابسة هذه الاسباب على ثلاثة مقامات (الاول) مقام الخواص ونظرائه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر اسبوعا وما فوقه او تيسير حشيش له او قوت او تثبيته على الرضا بالموت ان لم يتيسر شيء من ذلك فان الذي يحمل الزاد قد يفقد زاده او يضل بعيره و يموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما انه يمكن مع فقده (المقام الثاني) ان يقعد في بيته او في مسجد ولكنه في القرى والامصار وهذا اضعف من الاول ولكنه ايضا متوكل لانه تارك للكسب والاسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى في تدبير امره من جهة الاسباب الخفية ولكنه بالقعود في الامصار متعرض لاسباب الرزق فان ذلك من الاسباب الجالبة الا ان ذلك لا يبطل توكله اذا كان نظره الى الذي يسخر له سكان البلد لايصال رزقه اليه لا الى سكان البلد اذ يتصور ان يغفل جميعهم عنه و يضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم ﴿ المقام الثالث ﴾

والذى من الشيطان عن يسار القلب والذى ذكره انما يصح لعبد اذاب نفسه بالتقوى والزهد وتصفى وجوده واستقام ظاهره وباطنه فيكون قلبه كالمرآة المجلوة لا ياتيه الشيطان من ناحية الا ويبصره فاذا اسود القلب وعلاه الرين لا يبصر الشيطان (روى) عن ابى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فان هو نزع واستغفر وتاب صقل وان عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقا

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدما قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل باسناد فيه لين لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلا دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع

ان

أن يخرج و يكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعى لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل اذا لم يكن طمأنينة نفسه الى كفايته وقوته وجاهه و بضاعته فان ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة بل يكون نظره الى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له بل يرى كسبه و بضاعته وكفايته بالاضافة الى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع فلا يكون نظره الى القلم بل الى قلب الملك انه بماذا يتحرك والى ماذا يميل وبم يحكم ثم ان كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب و بقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته والدليل على ان الكسب لا ينافى حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف اليه الحال والمعرفة كما سبق ان الصديق رضى الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذا الاثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة فقال لا تشغلونى عن عيالى فانى ان أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين اولى و يستحيل ان يقال لم يكن الصديق فى مقام التوكل فمن اولى بهذا المقام منه فدل على انه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات الى قوته وكفايته والعلم بان الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الاسباب و بشروط كان يراعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب اليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه احب اليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل الا مع الزهد فى الدنيا نعم يصح الزهد دون التوكل فان التوكل مقام وراء الزهد وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين اخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت اكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ولا استريح منه الى قيراط ادخل به الحمام بل اخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكل بحضرته وكان يقول استحى ان اتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى واعلم ان الجلوس فى رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فان لم يكن معلوم ووقف وامروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل الا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وان لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل اليهم فهذا اقوى فى توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا الا بشروط كثيرة كما سبق فان قلت فما الافضل ان يقعد فى بيته او يخرج و يكتسب فاعلم انه ان كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر واخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه الى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل اليه شيا بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له أولى وان كان يضطرب قلبه فى البيت و يستشرف الى الناس فالكسب أولى لان استشراف القلب الى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان المتوكلون ياخذون ما تستشرف اليه نفوسهم كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزى أن يعطى بعض الفقراء شيا فضلا عما كان استأجره عليه فرده فلما ولى قال له أحمد الحقه وأعطه فانه يقبل فلحقه واعطاه فاخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأيس فاخذ وكان الخواص رحمه الله اذا نظر الى عبد فى العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيا وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه فى أسفاره رأيت الخضر ورضى بصحبتى ولكنى فارقته خيفة أن تسكن نفسى اليه فيكون نقصانا فى توكلى فاذا المكتسب اذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق فى كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا فان قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية فاقول علامته أنه ان سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه فى السكون قبله و بعده واحدا فان من لم يسكن الى شيء

كوشف به فقال الحديث فى باطن الانسان والخيال الذى ترا آى لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر هو من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تقرر فسالته عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس منازعات ومحادثات وتالفا وتوددا وكلما انطلقت النفس فى شيء بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر فاذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعاتبة للنفس وذكر النفس شيأ شيا من فعلها وقولها كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك فاذا كان

لم يضطرب لفقده ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن اليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لان البغادى كاتبه
قال بلغني انك استعنت على رزقك بالمغازل ارأيت ان اخذ الله سمعك و بصرك الرزق على من فوقع ذلك في قلبه
فاخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لاجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان
لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها فان قلت فكيف يتصور ان يكون له بضاعة ولا يسكن
اليها وهو يعلم ان الكسب بغير بضاعة لا يمكن فاقول بان يعلم ان الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة
وان الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة وان يوطن نفسه على ان الله لا يفعل به الا ما فيه صلاحه
فان اهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وغايته ان يموت جوعا فينبغي
ان يعتقد ان الموت جوعا خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد
جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر(1) ان العبد ليهم من الليل بامر من امور التجارة
مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى اليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجاره
وابن عمه من سبقني من دهاني وما هي الا رحمة رحمه الله بها ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا أبالي اصبحت غنيا اوفقيرا
فاني لا أدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الامور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال ابو سليمان الداراني
لاحمد بن ابي الحوارى لي من كل مقام نصيب الا من هذا التوكل المبارك فاني ما شممت منه رائحة هذا كلامه
مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما ادركته ولعله اراد ادراك اقصاه ومالم يكمل الايمان
بان لا فاعل الا الله ولا رازق سواه وان كل ما يقدر على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد
لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الايمان بهذه الامور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الاقوال
والاعمال تنبنى على أصولها من الايمان وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين
ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على
التوحيد فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون الى الاسباب الظاهرة وحسن الظن بالله
تعالى في تيسير الاسباب الخفية فاقول نعم هو ان تعرف ان سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله
تعالى قال تعالى الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا فان الانسان بطبعه
مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع واذا انضم اليه الجبن وضعف القلب
ومشاهدة المتكلين على الاسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية
الرزق من الاسباب الخفية ايضا تبطل التوكل فقد حكي عن عابد انه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام
لو اكتسبت لكان افضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال في الرابعة يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل
يوم رغيفين فقال ان كان صادقا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك فقال ياهذا لو لم تكن اماما تقف بين يدي
الله و بين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك اذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق
وقال امام المسجد لبعض المصلين من اين تاكل فقال ياشيخ اصبر حتى اعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم اجيبك
و ينفع في حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الاسباب الخفية ان تسمع الحكايات التي فيها
عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق الى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في اهلاك اموال التجار والاغنياء
وقتلهم جوعا كما روي عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم ابراهيم بن ادهم فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال
بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فاوينا الى مسجد خراب فنظر الى ابراهيم وقال ياحذيفة

(1) حديث ان العبد ليهم من الليل بامر من امور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله اليه من فوق
عرشه فيصرفه عنه الحديث ابو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف جدا نحوه الا انه قال ان العبد
ليشرف على حاجاته من حاجات الدنيا الحديث بنحوه

الخاطر اول الفعل ومفتتحه فمعرفته من اهم شأن العبد لان الافعال من الخواطر تنشأ حتى ذهب بعض العلماء الى ان العلم المفترض طلبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم هو علم الخواطر قال لانها أول الفعل و بفسادها فساد الفعل وهذا لعمري لا يتوجه لان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب ذلك على كل مسلم وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك ولكن يعلم الطالب ان الخواطر بمثابة البذر فمنها ماهو بذر السعادة ومنها ماهو بذر الشقاوة (وسبب) اشتباه الخواطر أحد اربعة اشياء لا خامس لها

أرى بك الجوع فقلت هو مارأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس فجئت به اليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود اليه بكل حال والمشار اليه بكل معنى وكتب شعرا

أنا حامد انا شاكر أنا ذاكر * أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يابارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها * فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع الى الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة الى اول من يلقاك فخرجت فاول من لقيني كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فاخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو فى المسجد الفلانى فدفع الى صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا نصرانى فجئت الى ابراهيم واخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يجىء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس ابراهيم يقبله واسلم * وقال أبو يعقوب الاقطع البصرى جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثتنى نفسى بالخروج فخرجت الى الوادى لعلى أجد شيأ يسكن ضعفى فرأيت سلجمة مطروحة فاخذتها فوجدت فى قلبى منها وحشة وكان قائلا يقول لى جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت فاذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جلس بين يدى ووضع قمطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتنى بها قال اعلم انا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فنذرت ان خلصنى الله تعالى ان اتصدق بهذه على اول من يقع عليه بصرى من المجاورين وانت أول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فاذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كعاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى الى أصحابك هدية منى اليكم وقد قبلتها ثم قلت فى نفسى رزقك يسير اليك من عشرة أيام وانت تطلبه من الوادى * وقال ممشاد الدينورى كان على دين فاشتغل قلبي بسببه فرأيت فى النوم كان قائلا يقول يابخيل أخذت علينا هذا المقدار من الدين خذ عليك الاخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما وحكى عن بنان الحمال قال كنت فى طريق مكة أجىء من مصر ومعى زاد فجاءتنى امرأة وقالت لى يابنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم انه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل فوجدت خلخالا فى الطريق فقلت فى نفسى احمله حتى يجىء صاحبه فربما يعطينى شيأ فارده عليه فاذا انا بتلك المرأة فقالت لى انت تاجر تقول عسى يجىء صاحبه فآخذ منه شيأ ثم رمت لى شيأ من الدراهم وقالت انفقها فاكتفيت بها الى قريب من مكة وحكى ان بنانا احتاج الى جارية تخدمه فانبسط الى اخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا هوذا يجىء النفير فنشترى ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا انها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال انها ليست للبيع فالحوا عليه فقال انها لبنان الحمال أهدتها اليه امرأة من سمرقند فحملت الى بنان وذكرت له القصة وقيل كان فى الزمان الاول رجل فى سفر ومعه قرص فقال ان أكلته مت فوكل الله عز وجل به ملكا وقال ان أكله فارزقه وان لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه الى ان مات ولم يأكله وبقى القرص عنده وقال أبو سعيد الخراز دخلت البادية بغير زاد فاصابتنى فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بان وصلت ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة الا أن احمل اليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدى فيها الى صدرى فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا ياأهل المرحلة ان لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فاخرجونى وحملونى الى القرية وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فاذا هو بقائل يقول ياهذا هاجرت الى عمر أو الى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له انى قد اشتقت اليك فما الذى شغلك عنى فقال انى قرأت القرآن فاغنانى عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله فما الذى وجدت فيه فقال وجدت فيه وفى السماء رزقكم وما توعدون فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه

اما ضعف اليقين أوقلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس فمن عصم عن هذه الاربعة يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ومن ابتلى بها لا يعلمها ولا يطلبها وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الاربعة دون البعض وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس ومعرفتها صعبة المنال لا تكاد تتيسر الا بعد الاستقصاء فى الزهد والتقوى (واتفق) المشايخ على ان من كان أكله من الحرام

في الارض فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه و يجلس اليه وقال ابو حمزة الخراساني حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق اذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال احدهما للآخر تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه احد فأتوا بقصب و بارية وطموا رأس البئر فهممت أن اصيح فقلت في نفسي الى من اصيح هو اقرب منهما وسكنت فبينا انا بعد ساعة اذا أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وادلى رجله وكانه يقول تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فاخرجني فاذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا احسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وانا اقول

نهاني حيائي منك ان اكشف الهوى * وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فابديت شاهدي * الى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما * تبشرني بالغيب انك في الكف
اراك و بي من هيبتي لك وحشة * فتؤنسني باللطف منك و بالعطف
وتحيي محبا انت في الحب حتفه * وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر واذا قوى الايمان به وانضم اليه القدرة على الجوع قدر اسبوع من غير ضيق صدر وقوى الايمان بانه ان لم يسق اليه رزقه في اسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه تم التوكل بهذه الاحوال والمشاهدات والا فلا يتم اصلا

﴿بيان توكل المعيل﴾

اعلم ان من له عيال فحكمه يفارق المنفرد لان المنفرد لا يصح توكله الا بامرين أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس والآخر ابواب من الايمان ذكرناها من جملتها ان يطيب نفسا بالموت ان لم ياته رزقه علما بان رزقه الموت والجوع وهو وان كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى انه سيق اليه خير الرازقين له وهو رزق الآخرة وان هذا هو المرض الذي به يموت و يكون راضيا بذلك وانه كذا قضى وقدر له فبهذا يتم التوكل المنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن ان يقرر عندهم الايمان بالتوحيد وان الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه ان اتفق ذلك نادرا وكذا سائر ابواب الايمان فاذا لا يمكنه في حقهم الا توكل المكتسب وهو المقام الثالث كتوكل ابي بكر الصديق رضي الله عنه اذ خرج للكسب فاما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم او القعود عن الاهتمام بامرهم توكلا في حقهم فهذا حرام ويفضي الى هلاكهم و يكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق انه لا فرق بينه و بين عياله فانه ان ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله ان يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له ان يضيعها الا ان تساعده على الصبر على الجوع مدة فان كان لا يطيقه و يضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل ولذلك روى ان ابا تراب النخشبي نظر الى صوفي مد يده الى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة ايام فقال له لا يصلح لك التصوف الزم السوق اي لا تصوف الا مع التوكل ولا يصح التوكل الا لمن يصبر عن الطعام اكثر من ثلاثة ايام وقال ابو علي الروذباري اذا قال الفقير بعد خمسة ايام أنا جائع فالزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذا بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله وانما يفارقهم في شيء واحد وهو ان له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا ان التوكل ليس انقطاعا عن الاسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت ان تأخر الرزق نادر أو ملازمة البلاد والامصار أو ملازمة البوادي التي لا يخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها اسباب البقاء ولكن مع نوع من الاذى اذ لا يمكن الاستمرار عليه الا بالصبر والتوكل في الامصار اقرب الى الاسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الاسباب الا ان الناس

عدلوا

لا يفرق بين الالهام والوسوسة * وقال ابو علي الدقاق من كان قوته معلوما لا يفرق بين الالهام والوسوسة وهذا لا يصح على الاطلاق الا بتقييد وذلك ان من العلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد باذن يسبق اليه في الاخذ منه والتقوت به ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر انما ذلك يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وايثار لانه ينحجب لموضع اختياره والذي أشرنا اليه منسلخ من ارادته فلا يحجبه المعلوم . وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا ان النفس تطالب

عدلوا الى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف ايمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الاذى فى الدنيا لاجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم باساءة الظن وطول الامل ومن نظر فى ملكوت السموات والارض انكشف له تحقيقا ان الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وان ترك الاضطراب فان العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه أماترى الجنين فى بطن امه لما ان كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالام حتى تنتهى اليه فضلات غذاء الام بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الام لتتكفل به شاءت أم ابت اضطرارا من الله تعالى اليه بما اشعل فى قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذى لا يحتاج الى المضغ ولانه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فادر له اللبن اللطيف فى ثدى الام عند انفصاله على حسب حاجته افكان هذا بحيلة الطفل او بحيلة الام فاذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف انبت له اسنانا قواطع وطواحين لاجل المضغ فاذا كبر واستقل يسر له التعلم وسلوك سبيل الآخرة فجبنه بعد البلوغ جهل محض لانه مانقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت فانه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهى الام والاب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه و يسقيه فى اليوم مرة اومرتين وكان اطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرقة والرحمة على قلوب المسلمين بل اهل البلد كافة حتى ان كل واحد منهم اذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية الى ازالة حاجته فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لانهم رأوه فى كفالة الام والاب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا ولو رآه يتيما لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين او على جماعة حتى ياخذونه و يكفلونه فما رؤى الى الآن فى سنى الخصب يتيم قد مات جوعا مع انه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التى خلقها فى قلوب عباده فلماذا ينبغى ان يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل فى الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف نعم كانت شفقة الام اقوى واحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وان ضعفت فيخرج من مجموعها مايفيد الغرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو احسن من حال من له اب وام فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين و بترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد احسن الشاعر حيث يقول

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق * و يرزق فى غشاوته الجنين

فان قلت الناس يكفلون اليتيم لانهم يرونه عاجزا بصباه واما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون اليه و يقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه فاقول ان كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل فى حقه فان التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطال والتوكل وان كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه فى ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه فى قلوب الناس حتى يحملون اليه فوق كفايته وانما عليه ان لا يغلق الباب ولا يهرب الى جبل من بين الناس وما رؤى الى الآن عالم او عابد استغرق الاوقات بالله تعالى وهو فى الامصار فمات جوعا ولا يرى قط بل لو اراد ان يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل القى الله حبه فى قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الام لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لاهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر الى مدبر الاسباب لا الى الاسباب نعم مادبره تدبيرا يصل الى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك ايضا فى بعض الاحوال لكن دبره تدبيرا يصل الى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل اسبوع قرص شعير او حشيش يتناوله لا محالة والغالب

وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل الى مرادها والشيطان اذا دعا الى زلة ولم يجب يوسوس باخرى اذلا غرض له فى تخصيص بل مراده الاغواء كيفما امكنه وتكلم الشيوخ فى الخاطرين اذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيد الخاطر الاول لانه اذا بقى رجع صاحبه الى التامل وهذا شرط العلم وقال ابن عطاء الثانى اقوى لانه ازداد قوة بالاول (وقال) ابوعبد الله بن خفيف هما سواء لانهما من الحق فلا مزية لاحدهما على الآخر قالوا الواردات أعم من الخواطر لان الخواطر تختص بنوع خطاب اومطالبة والواردات تكون

أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل الا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الاغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو فى الغالب ايضا ليس يحصل مع الاضطراب وانما يحصل نادرا وفى النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فاثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فلذلك يطمئن الى اضطرابه بل الى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وان سكن الا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله فى حق المضطرب فاذا انكشفت هذه الامور وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس أثمر ما قاله الحسن البصرى رحمه الله اذ قال وددت ان اهل البصرة فى عيالى وان حبة بدينار وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والارض رصاصا واهتممت برزقى لظننت انى مشرك فاذا فهمت هذه الامور فهمت ان التوكل مقام مفهوم فى نفسه و يمكن الوصول اليه لمن قهر نفسه وعلمت ان من انكر أصل التوكل وامكانه أنكره عن جهل فاياك ان تجمع بين الافلاسين الافلاس عن وجود المقام ذوقا والافلاس عن الايمان به علما فاذا عليك بالقناعة بالنذر القليل والرضا بالقوت فانه يأتيك لا محالة وان فررت منه وعند ذلك على الله ان يبعث اليك رزقك على يدى من لا يحتسب فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب الآية الا انه لم يتكفل له ان يرزقه لحم الطير ولذائذ الاطعمة فما ضمن الا الرزق الذى تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمان الى ضمانه فان الذى احاط به تدبير الله من الاسباب الخفية للرزق اعظم مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى اليها وذلك لان ظهوره على الارض وسببه فى السماء قال الله تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وأسرار السماء لا يطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون قالوا نطلب الرزق فقال ان علمتم اى موضع هو فاطلبوه قالوا نسال الله قال ان علمتم انه ينساكم فذكروه فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة وقال أحمد بن عيسى الخراز كنت فى البادية فنالنى جوع شديد فغلبتنى نفسى ان اسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطالبتنى ان اسال الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بى و يقول

ويزعم انه منا قريب * وأنا لا نضيع من اتانا
و يسالنا على الاقتار جهداً * كانا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت ان من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى ايمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس ابدا واثقا بالله عز وجل فان اسوأ حاله ان يموت ولا بد ان ياتيه الموت كما ياتى من ليس مطمئنا فاذا تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذى ضمن رزق القانعين بهذه الاسباب التى دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الارزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك وحسابك ولا تكن فى توكلك منتظر اللاسباب بل لمسبب الاسباب كما لا تكون منتظر القلم الكاتب بل لقلب الكاتب فانه اصل حركة القلم والمحرك الاول واحد فلا ينبغى ان يكون النظر الا اليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد او يقعد فى الامصار وهو خامل وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وان لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق باهل الدين فهذا ياتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام بل ياتيه اضعافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فان اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق اليه اقوى من دخول الامصار فى حق الخامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء اقبح لان شرطهم القناعة والعالم القانع ياتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وان كانوا معه الا اذا اراد ان لا ياخذ من ايدى الناس و يا كل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم والعامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الاخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه

تارة خواطر وتارة تكون واردسرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط (وقبل) بنور التوحيد يقبل الخاطر من الله تعالى وبنور المعرفة يقبل من الملك و بنور الايمان ينهى النفس و بنور الاسلام يرد على العدو * ومن قصر عن درك حقائق الزهد وتطلع الى تمييز الخواطر يزن الخاطر اولا بميزان الشرع فما كان من ذلك نفلا او فرضا يمضيه وما كان من ذلك محرما او مكروها ينفيه فان استوى الخاطر ان فى نظر العلم ينفذ اقربهما الى مخالفة هوى النفس فان النفس قد يكون لها هوى كامن فى احدهما والغالب

أولى لانه تفرغ لله عز وجل واعانة للمعطى على نيل الثواب ومن نظر الى مجارى سنة الله تعالى علم ان الرزق ليس على قدر الاسباب ولذلك سال بعض الاكاسرة حكيما عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال اراد الصانع ان يدل على نفسه اذ لو رزق كل عاقل وحرم كل احمق لظن ان العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا ان الرازق غيرهم ولا ثقة بالاسباب الظاهرة لهم قال الشاعر

ولو كانت الارزاق تجرى على الحجا * هلكن اذا من جهلهن البهائم

﴿ بيان احوال المتوكلين فى التعلق بالاسباب بضرب مثال ﴾

اعلم ان مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون الى الطعام فاخرج اليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجتهدوا فى ان لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم ان اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى اذا خرجوا اليكم بل ينبغى ان يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فان الغلمان مسخرون وهم مامورون بان يوصلوا اليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان واذاهم واخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلا به الى ان اتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن اخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فانى اختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت فى مكانه ولكنه اخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ومن اخطاه غلمانى فما اوصلوا اليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولا قائلا ليته اوصل الى رغيفا فانى غدا استوزره وافوض ملكى اليه فانقسم السؤال الى اربعة اقسام قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا الى العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم الى غد فرج ونحن الآن جائمون فبادروا الى الغلمان فاذوهم واخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة اليهم فى الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن اخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة وقسم قالوا انا نجلس بمرآى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن ناخذ اذا اعطونا رغيفا واحدا ونقنع به فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة وقسم رابع اختفوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى اعين الغلمان وقالوا ان اتبعونا واعطونا قنعنا برغيف واحد وان اخطؤنا قاسينا شدة الجوع الليلة فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما نفعهم ذلك اذ تبعهم الغلمان فى كل زاوية واعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك اياما حتى اتفق على الندور ان اختفى ثلاثة فى زاوية ولم تقع عليهم ابصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا فى جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للغلمان واخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر وسكت الثالث الى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والميدان هو الحياة فى الدنيا وباب الميدان الموت والميعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل اذا مات جائعا راضيا من غير تاخير ذلك الى ميعاد يوم القيامة لان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والمتعلق بالغلمان هو المعتدى فى الاسباب والغلمان المسخرون هم الاسباب والجالس فى ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون فى الامصار فى الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون فى الزوايا هم السائحون فى البوادى على هيئة التوكل والاسباب تتبعهم والرزق ياتيهم الا على سبيل الندور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق الى هذه الاقسام الاربعة ولعل من كل مائة تعلق بالاسباب تسعون واقام سبعة من العشرة الباقية فى الامصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح فى البوادى ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان كذلك فى الاعصار السالفة واما الان فالتارك للاسباب لا ينتهى الى واحد من عشرة آلاف (الفن الثانى فى التعرض لاسباب الادخار) فمن حصل له مال بارث او كسب او سؤال او سبب من الاسباب فله فى الادخار ثلاثة احوال الاولى ان ياخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكل ان كان جائعا ويلبس ان كان عاريا

من شان النفس الاعوجاج والركون الى الدون وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن انه بنهوض القلب وقد يكون من القلب نفاق بسكونه الى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ماسكن قلبي الى نفسى ساعة فيظهر من سكون القلب الى النفس خواطر الحق على من يكون ضعيف العلم فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه الا العلماء الراسخون واكثر ما تدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل وذلك لقلة العلم

و يشتري مسكنا مختصراً ان كان محتاجا و يفرق الباقي في الحال ولا ياخذه ولا يدخره الا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج اليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا * الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل ان يدخر لسنة فمافوقها فهذا ليس من المتوكلين اصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات الا ثلاثة الفارة والنملة وابن آدم * الحالة الثالثة ان يدخر لاربعين يوما فمادونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الاخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل الى انه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص الى انه لا يخرج باربعين يوما ويخرج بما يزيد على الاربعين وقال ابوطالب المكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الاربعين ايضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار نعم يجوز ان يظن ظان ان اصل الادخار يناقض التوكل فاما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى اصحاب النهايات السابقين واصحاب البدايات اصحاب اليمين ثم اصحاب اليمين ايضا على درجات وكذلك السابقون واعالي درجات اصحاب اليمين تلاصق اسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق ان التوكل بترك الادخار لا يتم الا بقصر الامل واما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالممتنع وجوده اما الناس فتفاوتون في طول الامل وقصره وأقل درجات الامل يوم وليلة فمادونه من الساعات واقصاه ما يتصور ان يكون عمر الانسان وبينهما درجات لاحصر لها فمن لم يؤمل اكثر من شهر اقرب الى المقصود ممن يؤمل سنة وتقييده باربعين لاجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فان تلك الواقعة ماقصد بها بيان مقدار مارخص الامل فيه ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم الا بعد اربعين يوما لسر جرت به وبامثاله سنة الله تعالى في تدريج الامور كما قال عليه السلام ان الله(١) خمر طينة آدم بيده اربعين صباحا لان استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ماذكر فاذا ماوراء السنة لا يدخر له الا بحكم ضعف القلب والركون الى ظاهر الاسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الاسباب فان اسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن ادخر لاقل من سنة فله درجة بحسب قصر امله ومن كان امله شهرين لم تكن درجته كدرجة من امل شهرا ولا درجة من امل ثلاثة اشهر بل هو بينهما في الرتبة ولا يمنع من الادخار الا قصر الامل فالافضل ان لا يدخر اصلا وان ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله اكثر وقد روى في(٢) الفقير الذي امر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه واسامة ان يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته فلما دفنه قال لاصحابه انه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية قلنا وماهي يارسول الله قال كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى غير انه كان اذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه واذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ثم قال صلى الله عليه وسلم بل اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث وليس الكوز والشفرة ومايحتاج اليه على الدوام في معنى ذلك فان ادخاره لا ينقص الدرجة واما ثوب الشتاء فلا يحتاج اليه في الصيف وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه الى ايدي الخلق بل لا يلتفت قلبه الا الى الوكيل الحق فان كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له اولى بل لو امسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه الا به فذلك له اولى لان المقصود أصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمحذور مايشغل عن الله عز وجل والا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون واهل الحرف

(١) حديث خمر طينة آدم بيده اربعين صباحا ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي باسناد ضعيف جداً وهو باطل (٢) حديث انه قال في حق الفقير الذي امر عليا واسامة نغسله وكفنه ببردته انه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر الحديث وفي آخره من أقل ما أتيتم اليقين وعزيمة الصبر

والصناعات

بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم وينبغي ان يعلم العبد قطعا انه مهما بقي عليه اثر من الهوى وان دق وقل يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر ثم قد يغلط في تمييز الخواطر من هو قليل العلم ولا يؤاخذ بذلك مالم يكن عليه من الشرع مطالبة وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء في التمييز ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت (وذكر) بعض العلماء ان لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح وان النفس اذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة

والصناعات فلم يامر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا امر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل الى الله تعالى وارشدهم الى ان فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا الى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عزوجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما ان صواب القوى ترك الادخار وهذا كله حكم المنفرد فاما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم وادخار اكثر من ذلك مبطل للتوكل لان الاسباب تتكرر عند تكرر السنين فادخاره مايزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس الى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الاسباب الظاهرة وقد (١) ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة (٢) ونهى ام ايمن وغيرها ان تدخرله شيأ لغد (٣) ونهى بلالا عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال صلى الله عليه وسلم انفق بلالا ولا تخش من ذى العرش اقلالا وقال صلى الله عليه وسلم (٤) اذا سئلت فلا تمنع واذا اعطيت فلا تخبأ اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم (٥) وقد كان قصر امله بحيث كان اذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول مايدرينى لعلى لا ابلغه وقد كان صلى الله عليه وسلم لوادخر لم ينقص ذلك من توكله اذ كان لا يثق بما ادخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليما للاقوياء من امته فان اقوياء امته ضعفاء بالاضافة الى قوته وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفى عياله ولكن ليسن ذلك للضعفاء من امته بل اخبر (٦) ان الله تعالى يحب ان تؤتى رخصه كما يحب ان تؤتى عزائمه تطييبا لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف الى الياس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات فما ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف اصنافهم ودرجاتهم واذا فهمت هذا علمت ان الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ويدل عليه ماروى (٧) ابو امامة الباهلى ان بعض اصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن فقال صلى الله عليه وسلم فتشوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين فى داخل ازاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف اموالا ولا يقول ذلك فى حقه وهذا يحتمل وجهين لان حاله يحتمل حالين احدهما انه اراد كيتين من النار كما قال تعالى تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم وذلك اذا كان حاله اظهار الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلبيس والثانى ان لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه اثر كيتين فى الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فان كل مايخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة اذ لا يؤتى احد من الدنيا شيأ الا نقص بقدره من الآخرة واما بيان ان الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروى عن بشر قال الحسين المغازلى من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين فقام اليه بشر قال ومارأيته قام لاحد غيره قال ودفع الى كفا من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ماتقدر عليه من الطعام

لم أجد له أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا (١) حديث ادخر لعياله قوت سنة متفق عليه وتقدم فى الزكاة (٢) حديث نهى أم ايمن وغيرها ان تدخر شيا لغد تقدم نهيه لام أيمن وغيرها (٣) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش اقلالا البزار من حديث ابن مسعود وأبى هريرة وبلال دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك وروى أبو يعلى والطبرانى فى الاوسط حديث ابى هريرة وكلها ضعيفة وأما ماذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره (٤) حديث قال لبلال اذا سئلت فلا تمنع واذا اعطيت فلا تخبأ الطبرانى والحاكم من حديث ابى سعيد وهوثقة (٧) حديث الق الله فقيرا قد تقدم (٥) حديث انه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول مايدرينى لعلى لا أبلغه ابن ابى الدنيا فى قصر الامل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٦) حديث ان الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث احمد والطبرانى والبيهقى من حديث ام عمرو قد تقدم (٧) حديث ابى امامة توفى بعض اصحاب الصفة فوجدوا دينارين فى داخلة ازاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان احمد من رواية شهر بن حوشب عنه

(٧) قول القرافى حديث الق الله فقيرا الخ لم يكن هذا الحديث موجودا بالاصل فلعله بنسخته تامل

تنكت فى القلب همة سوء فينظر الشيطان الى القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون اما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهى عن الجهل الغريزى أودعوى حركة أو سكون وهى آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة الا باحد ثلاثة بجهل أوغفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة مايجب نفيه فانها ترد بخلاف مامور أو على وفق منهى ومنها مايكون نفيها فضيلة اذا وردت بمباحات (وذكر) أن الروح اذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع يظهر من ذلك النور فى القلب همة عالية باحد معان ثلاثة

الطيب وماقال لى قط مثل ذلك قال فجئت بالطعام فوضعته فاكل معه ومارأيته أكل مع غيره قال فاكلنا حاجتنا و بقى من الطعام شىء كثير فاخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله معه وانصرف فعجبت من ذلك وكرهته له فقال لى بشر لعلك انكرت فعله قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير اذن فقال ذاك أخونا فتح الموصلى زارنا اليوم من الموصل فانما اراد ان يعلمنا ان التوكل اذا صح لم يضر معه الادخار ﴿الفن الثالث فى مباشرة الاسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف﴾ اعلم ان الضرر قد يعرض للخوف فى نفس اومال وليس من شروط التوكل ترك الاسباب الدافعة رأسا اما فى النفس فكالنوم فى الارض المسبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة نعم تنقسم هذه الاسباب الى مقطوع بها ومظنونة والى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهى التى نسبتها الى دفع الضرر نسبة الكى والرقية فان الكى والرقية قد يقدم بها على المحذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور للازالة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين الا بترك الكى والرقية والطيرة ولم يصفهم بانهم اذا خرجوا الى موضع بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل مافى معناها من الاسباب نعم الاستظهار باكل الثوم مثلا عند الخروج الى السفر فى الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق فى الاسباب والتعويل عليها فكاد يقرب من الكى بخلاف الجبة ولترك الاسباب الدافعة وان كانت مقطوعة وجه اذا ناله الضرر من انسان فانه اذا امكنه الصبر وامكنه الدفع والتشفى فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على مايقولون وقال تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال عزوجل ودع اذاهم وتوكل على الله وقال سبحانه وتعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال تعالى نعم اجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وهذا فى اذى الناس واما الصبر على اذى الحيات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل فى شىء اذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لاعانته على الدين وترتب الاسباب ههنا كترتبها فى الكسب وجلب النافع فلا نطول بالاعادة وكذلك فى الاسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بان يعقل البعير لان هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى اما قطعا واما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للاعرابى لما ان اهمل البعير وقال توكلت على الله (1) اعقلها وتوكل وقال تعالى خذوا حذركم وقال فى كيفية صلاة الخوف وليأخذوا اسلحتهم وقال سبحانه واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وقال تعالى لموسى عليه السلام فاسر بعبادى ليلا والتحصن بالليل اختفاء عن اعين الاعداء ونوع تسبب (2) واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار اختفاء عن اعين الاعداء دفعا للضرر واخذ السلاح فى الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فانه دافع قطعا ولكن اخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا ان المظنون كالمقطوع وانما الموهوم هو الذى يقتضى التوكل تركه فان قلت فقد حكى عن جماعة ان منهم من وضع الاسد يده على كتفه ولم يتحرك فاقول وقد حكى عن جماعة انهم ركبوا الاسد وسخروه فلا ينبغى ان يغرك ذلك المقام فانه وان كان صحيحا فى نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير بل ذلك مقام رفيع فى الكرامات وليس ذلك شرطا فى التوكل وفيه اسرار لا يقف عليها من لم ينته اليها فان قلت وهل من علامة اعلم بها أنى قد وصلت اليها فاقول الواصل لا يحتاج الى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه ان يسخر لك كلب هو معك فى اهابك يسمى الغضب فلا يزال يعضك ويعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث اذا هيج واشلى لم يستشل الا باشارتك وكان مسخرا لك فربما ترتفع درجتك الى ان يسخر لك الاسد الذى هو ملك السباع وكلب دارك اولى بان يكون

اما بفرض امر به او بفضل ندب اليه واما بمباح يعود صلاحه اليه (وهذا) الكلام يدل على ان حركتى الروح والنفس هما الموجبتان اللمتين وعندى والله (اعلم) ان اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس فحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهى من شؤم لمة الشيطان فاذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم وقد تكون هاتان اللمتان

(1) حديث اعقلها وتوكل الترمذى من حديث انس قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة فى التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمرى باسناد جيد قيدها (2) حديث اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اعين الاعداء دفعا للضرر تقدم فى قصة اختفائه فى الغار عند ارادة الهجرة

مسخرا لك من كلب البوادي وكلب اهابك أولى بان يتسخر من كلب دارك فاذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر فان قلت فاذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من ان ينطلق فبأي اعتبار يكون متوكلا فاقول يكون متوكلا بالعلم والحال * فاما العلم فهو ان يعلم ان اللص ان اندفع لم يندفع بكفايته في اغلاق الباب بل لم يندفع الا بدفع الله تعالى اياه فكم من باب يغلق ولا ينفع وكم من بعير يعقل ويموت او يفلت وكم من آخذ سلاحه يقتل او يغلب فلا تتكل على هذه الاسباب أصلا بل على مسبب الاسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فانه ان حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته * واما الحال فهو ان يكون راضيا بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم ان سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وانا راض بحكمك فاني لا ادري ان ما اعطيتني هبة فلا تسترجعها او عارية ووديعة فتستردها ولا ادري انه رزقي او سبقت مشيئتك في الازل بانه رزق غيري وكيفما قضيت فانا راض به وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الاسباب فلا ثقة الا بك يا مسبب الاسباب فاذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح واغلاق الباب ثم اذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي ان يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وان لم يجده بل وجده مسروقا نظر الى قلبه فان وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما انه ما أخذ الله تعالى ذلك منه الا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه وان تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له انه ما كان صادقا في دعوى التوكل لان التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد الا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل نعم قد يصح له مقام الصبر ان اخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وان لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث انه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي ان يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها فانها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ فاقول المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه واناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من اثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وانما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة لان سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والامتعة في كل يوم ولا في كل اسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والابرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الامرين فان قلت فكيف يتصور ان لا يحزن اذا أخذ متاعه الذي هو محتاج اليه ولا يتأسف عليه فان كان لا يشتهيه فلم امسكه وأغلق الباب عليه وان كان امسكه لانه يشتهيه لحاجته اليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه فاقول انما كان يحفظه ليستعين به على دينه اذ كان يظن ان الخيرة له في ان يكون له ذلك المتاع ولولا ان الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه اياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه ان ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به اذ يحتمل ان تكون خيرته في ان يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لانه في جميع الاحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا ان الله عز وجل علم ان الخيرة كانت لي في وجوده الى الآن والخيرة الى الآن في عدمه لما أخذه مني فبمثل هذا الظن يتصور ان يندفع عنه الحزن اذ به يخرج عن ان يكون فرحه بالاسباب من حيث انها أسباب بل من حيث انه يسرها مسبب

متداركتين وينمحي اثر احدهما بالاخرى والتفطن المتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار في ذاته باب أنس ويبقى أبدا متفقدا حاله مطالعا آثار اللمتين (وذكر) خاطر خامس وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الاربعة يكون مع النفس والعدو لوجود التمييز واثبات الحجة على العبد ليدخل العبد في الشيء بوجود عقل اذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب (وذكر) خاطر سادس وهو خاطر اليقين وهو روح الايمان ومزيد العلم ولا يبعد ان

الاسباب عناية وتلطفا وهو كالمريض بين يدى الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فان قدم اليه الغذاء فرح وقال لولا انه يعرف ان الغذاء ينفعني وقدقويت على احتماله لما قربه الى وان أخرعنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا ان الغذاء يضرني و يسوقني الى الموت لما حال بيني و بينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى مايعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا ومن عرف الله تعالى وعرف افعاله وعرف سنته في اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لا يدري أي الاسباب خيرله كما قال عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنيا أوفقيرا فاني لا أدري أيهما خيرلي فكذلك ينبغي ان لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أولا يسرق فانه لا يدرى أيهما خيرله في الدنيا أوفي الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غني يبتلى بواقعة لاجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا

﴿بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم﴾

للمتوكل آداب في متاع بيته اذا خرج عنه (الاول) ان يغلق الباب ولا يستقصي في اسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق وكجمعه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بشريط و يقول لولا الكلاب ماشددته أيضا (الثاني) ان لا يترك في البيت متاعا يحرص عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم اوامساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما اهدى المغيرة الى مالك بن دينار ركوة قال خذها لا حاجة لي اليها قال لم قال يوسوس الى العدو ان اللص أخذها فكانه احترز من ان يعصى السارق ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ولذلك قال ابو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) انما يضطر الى تركه في البيت ينبغي ان ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه و يقول ماياخذه السارق فهو منه في حل أوهو في سبيل الله تعالى وان كان فقيرا فهو عليه صدقة وان لم يشترط الفقر فهو اولى فيكون له نيتان لوأخذه غني اوفقير احداهما ان يكون ماله مانعا له من المعصية فانه ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه باكل الحرام لما ان جعله في حل والثانية ان لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ومهما ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه اوينوي دفع المعصية عن السارق أوتخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم [1] انصر أخاك ظالما أو مظلوما ونصر الظالم ان تمنعه من الظلم وعفوه عنه اعدام للظلم ومنع له وليتحقق ان هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه اذليس فيها مايسلط السارق و يغير القضاء الازلي ولكن يتحقق بالزهد نيته فان اخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لانه نواه وقصده وان لم يؤخذ حصل له الاجر ايضا كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] فيمن ترك العزل فاقر النطفة قرارها ان له اجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وان لم يولد له لانه ليس أمر الولد الا الوقاع فاما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس اليه فلوخلق لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينعدم فكذلك أمر السرقة *(الرابع)* انه اذا وجد المال مسروقا فينبغي ان لا يحزن بل يفرح ان امكنه و يقول لولا ان الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم ان لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي اساءة الظن بالمسلمين وان كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه الى الآخرة فان أعيد عليه فالاولى ان لا يقبله بعد ان كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وان قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لان الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند المتوكلين وقد روي ان ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى اعيا ثم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال ياأبا عبد الرحمن ان ناقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام ثم قال استغفر الله وجلس فقيل له الا تذهب فتاخذها فقال اني كنت قلت في سبيل الله وقال بعض الشيوخ رأيت بعض اخواني في النوم بعد موته فقلت مافعل الله بك قال غفرلي وادخلني الجنة وعرض علي منازلي فيها فرأيتها قال وهو مع ذلك كئيب حزين فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وانت حزين فتنفس الصعداء ثم قال نعم اني لا أزال

يقال الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع الى مايرد من خاطر الحق وخاطر العقل اصله تارة من خاطر الملك وتارة من خاطر النفس وليس من العقل خاطر على الاستقلال لان العقل كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم ويتهيأ بها الانجذاب الى دواعي النفس تارة والى دواعي الملك تارة والى دواعي الروح تارة والى دواعي الشيطان تارة فعلى هذا لا تزيد الخواطر على اربعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر غير اللمتين وهاتان اللمتان هما الاصل والخاطران الآخران فرع عليهما لان لمة الملك اذا حركت

(١) حديث انصر اخاك ظالما اومظلوما متفق عليه من حديث انس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل واقر

حزينا الى يوم القيامة قلت ولم قال انى لما رأيت منازلى فى الجنة رفعت الى مقامات فى عليين ما رأيت مثلها فما رأيت ففرحت فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له انما هى لمن أمضى السبيل فقلت وأما امضاء السبيل فقيل لى كنت تقول للشئ انه فى سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت امضيت السبيل لامضينا لك وحكى عن بعض العباد بمكة انه كان نائما الى جنب رجل معه هميانه فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان هميانك فذكر له فحمله الى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك اعلمه أصحابه انهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فابى وقال خذه حلالا طيبا فما كنت لاعود فى مال أخرجته فى سبيل الله عز وجل فلم يقبل فالحوا عليه فدعا ابناله وجعل يصره صررا و يبعث بها الى الفقراء حتى لم يبق منه شئ فهكذا كانت اخلاق السلف وكذلك من اخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده الى البيت بعد اخراجه فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل فى الدراهم والدنانير وسائر الصدقات *(الخامس)* وهو أقل الدرجات ان لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالاخذ فان فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتاسفه على مافات و بطل زهده ولو بالغ فيه بطل اجره ايضا فيما اصيب به ففى الخبر (١) من دعا على ظالمه فقد انتصر وحكى ان الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين الفا وكان قائما يصلى فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه فجاءه قوم يعزونه فقال اما انى قد كنت رايته وهو يحله قيل وما منعك ان تزجره قال كنت فيما هو احب الى من ذلك يعنى الصلاة فجعلوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فانى قد جعلتها صدقة عليه وقيل لبعضهم فى شئ قد كان سرق له الا تدعو على ظالمك قال ما احب ان اكون عونا للشيطان عليه قيل ارايت لو رد عليك قال لا آخذه ولا انظر اليه لانى كنت قد احللته له وقيل لآخر ادع الله على ظالمك فقال ما ظلمنى احد ثم قال انما ظلم نفسه الا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى ازيده شرا واكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه فقال لا تغرق فى شتمه فان الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن اخذ ماله ودمه وفى الخبر (٢) ان العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه و يسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم (السادس) ان يغتم لاجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى و يشكر الله تعالى اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا فى دنياه لا نقصا فى دينه فقد شكا بعض الناس الى عالم انه قطع عليه الطريق واخذ ماله فقال ان لم يكن لك غم انه قد صار فى المسلمين من يستحل من هذا اكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين وسرق من على ابن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه ابوه وهو يبكى و يحزن فقال على الدنانير تبكى فقال لا والله ولكن على المسكين ان يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل لبعضهم ادع على من ظلمك فقال انى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه اخلاق السلف رضى الله عنهم اجمعين *(الفن الرابع فى السعى فى ازالة الضرر كمداواة المرض وامثاله)* اعلم ان الاسباب المزيلة للمرض ايضا تنقسم الى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع والى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر ابواب الطب اعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الاسباب الظاهرة فى الطب الى موهوم كالكى والرقية اما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت واما الموهوم فشرط التوكل تركه اذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين واقواها الكى و يليه الرقية والطيرة آخر درجتها والاعتماد عليها والاتكال اليها غاية التعمق فى ملاحظة الاسباب واما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون افضل من فعله فى بعض الاحوال وفى بعض الاشخاص فهى على درجة بين الدرجتين و يدل على ان التداوى غير مناقض

النطفة قرارها كان له اجر غلام الحديث لم اجد له اصلا (١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر تقدم (٢) حديث ان العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه و يسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم

الروح واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت ان تهتز بالهمة الصالحة الى حظائر القرب فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق واذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما ذكرناه قبل لموضع قربه فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ولمة الشيطان اذا حركت النفس هوت بجبلتها الى مركزها من الغريزة والطبع فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان فاصلها لمتان و ينتجان أخريين وخاطر اليقين والعقل مندرج فيهما

للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله وامره به اما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) ما من داء الا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام يعنى الموت وقال عليه السلام (٢) تداووا عباد الله فان الله خلق الداء والدواء (٣) وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيا قال هى من قدر الله وفى الخبر المشهور (٤) ما مررت بملا من الملائكة الا قالوا امر أمتك بالحجامة وفى الحديث أنه امر بها وقال (٥) احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة واحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم فذكر ان تبيغ الدم سبب الموت وانه قاتل باذن الله تعالى و بين ان اخراج الدم خلاص منه اذ لا فرق بين اخراج الدم المهلك من الاهاب و بين اخراج العقرب من تحت الثياب واخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل هو كصب الماء على النار لاطفائها ودفع ضررها عند وقوعها فى البيت وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل اصلا وفى خبر مقطوع (٦) من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة وأما (٧) امره صلى الله عليه وسلم فقد امر غير واحد من الصحابة بالتداوى و بالحمية (٨) وقطع لسعد بن معاذ اى فصده (٩) وكوى سعد بن زرارة (١٠) وقال لعلى رضى الله عنه وكان رمد العين لا تأكل من هذا يعنى الرطب وكل من هذا فانه اوفق لك يعنى سلقا قد طبخ بدقيق شعير (١١) وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرا وانت ارمد فقال انى آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم واما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى فى حديث (١٢) من طريق اهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة و يحتجم كل شهر

---

(١) حديث ما من داء الا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام احمد والطبرانى من حديث ابن مسعود دون قوله الا السام وهو عند بن ماجه مختصرا دون قوله عرفه الى آخره واسناده حسن وللترمذى وصححه من حديث اسامة بن شريك الا الهرم وللطبرانى فى الاوسط والبزار من حديث أبى سعيد الخدرى والطبرانى فى الكبير من حديث بن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من أبى هريرة ما انزل الله داء الا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تداووا عباد الله الترمذى وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث اسامة ابن شريك (٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذى وابن ماجه من حديث أبى خزامة وقيل عن ابى خزامة عن ابيه قال الترمذى وهذا أصح (٤) حديث ما مررت بملا من الملائكة الا قالوا امر أمتك بالحجامة الترمذى من حديث بن مسعود وقال حسن غريب ورواه بن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة واحدى وعشرين الحديث البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذى بلفظ ان خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبيغ وقال حسن غريب وقال البزار ان طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطرق ولابن ماجه من حديث انس بسند ضعيف من اراد الحجامة فليتحر سبعة عشر الحديث (٦) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبرانى من حديث معقل بن يسار وابن حبان فى الضعفاء من حديث انس واسنادهما واحد اختلف على راويه فى الصحابى وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف (٧) حديث امره بالتداوى لغير واحد من الصحابة الترمذى وابن ماجه من حديث اسامة بن شريك انه قال للاعراب حين سالوه تداووا الحديث وسياتى فى قصة على وصهيب فى الحمية بعده (٨) حديث قطع عرقا لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال رمى سعد فى اكحله فحسمه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص الحديث (٩) حديث انه كوى اسعد بن زرارة الطبرانى من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبى اسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (١٠) حديث قال لعلى كان رمدا لا تأكل من هذا الحديث ابو داود والترمذى وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم المنذر (١١) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرا وانت رمد الحديث تقدم فى آفات اللسان (١٢) حديث من طريق اهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة و يحتجم كل شهر و يشرب الدواء كل سنة ابن عدى من حديث عائشة وقال انه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيي بن معين

والله اعلم

﴿الباب الثامن والخمسون فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما﴾ قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت اشارات الشيوخ فى ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما وتداخلهما فتراءى للبعض الشيء حالا وتراءى للبعض مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على ان اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سمى حالا لتحوله والمقام مقاما لثبوته واستقراره (وقد) يكون الشيء بعينه حالا ثم يصير مقاما مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية

ويشرب الدواء كل سنة قيل السنا المكي (١) وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها وروى انه (٢) كان اذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء وفي خبر انه كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد (٣) جعل على قرحة خرجت به ترابا وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف في ذلك كتاب وسمي طب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات ان موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو اسرائيل فعرفوا علته فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت فقال لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له ان دواء هذه العلة معروف مجرب وانا نتداوى به فنبرأ فقال لا أتداوى واقامت علته فاوحى الله تعالى اليه وعزتي وجلالي لا برأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك فقال لهم داووني بما ذكرتم فداووه فبرأ فاوجس في نفسه من ذلك فاوحى الله تعالى اليه أردت ان تبطل حكمتي بتوكلك على من اودع العقاقير منافع الاشياء غيري وروى في خبر آخر ان نبيا من الانبياء عليهم السلام شكا علة يجدها فاوحى الله تعالى اليه كل البيض وشكا نبي آخر الضعف فاوحى الله تعالى اليه كل اللحم باللبن فان فيهما القوة قيل هو الضعف عن الجماع وقد روى ان قوما شكوا الى نبيهم قبح اولادهم فاوحى الله تعالى اليه مرهم ان يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فانه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع اذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والنفساء الرطب فبهذا تبين ان مسبب الاسباب أجرى سنته بربط المسببات بالاسباب اظهارا للحكمة والادوية اسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الاسباب فكما ان الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الاسهال لا يفارقه الا في احد أمرين أحدهما ان معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص فمن ادرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالاول والثاني ان الدواء يسهل والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن واسباب في المزاج بما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطا كثيرة وقد ينفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الاسباب ابدا ينحصر في هذين الشيئين والا فالسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الاسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر الى مسبب الاسباب دون الطبيب والدواء فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم انه قال يارب ممن الداء والدواء فقال تعالى مني قال فما يصنع الاطباء قال ياكلون ارزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتى ياتي شفائي اوقضائي فاذا معنى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون الاعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فاما ترك التداوي رأسا فليس شرطا فيه فان قلت فالكي ايضا من الاسباب الظاهرة النفع فاقول ليس كذلك اذ الاسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقي المبردات للمحرور واما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه

(١) حديث انه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها الطبراني باسناد حسن من حديث جبلة بن الازرق ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشي عليه فرقاه الناس الحديث وله في الاوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن انس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ولابي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر ان النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم وفيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور (٢) حديث كان اذا نزل عليه الوحي صدعه رأسه فيغلفه بالحناء البزار وابن عدي في الكامل من حديث ابي هريرة وقد اختلف في اسناده على الاخوص بن حكيم كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذي غريب (٣) حديث جعل على قرحة خرجت بيده ترابا البخاري ومسلم من حديث عائشة كان اذا اشتكي الانسان الشيء منه اوكانت قرحة اوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان بن عيينة الراوي سبابته بالارض ثم رفعها وقال باسم الله تربة ارضنا وريقة بعضنا

بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس الى ان تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة وتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة. فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه فيصير في مقام المحاسبة بعد ان كان له حال المحاسبة (ثم) ينازله حال المراقبة فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال (ثم) يحول حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد الى ان ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة

وقلما يعتاد الكي في أكثر البلاد وانما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى الا انه يتميز عنها بأمر وهو انه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فانه ما من وجع يعالج بالكي الا وله دواء يغني عنه ليس فيه احراق فالاحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف الفصد والحجامة فان سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرهما ولذلك (١) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى وكل واحد منهما بعيد عن التوكل وروى ان عمران بن الحصين اعتل فاشاروا عليه بالكي فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الأمير حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا واسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما اكتويت انقطع ذلك عني وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا انجحت ثم تاب من ذلك واناب الى الله تعالى فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من امر الملائكة وقال لمطرف بن عبدالله ألم تر الى الملائكة التي كان اكرمني الله بها قد ردها الله تعالى علي بعد ان كان أخبره بفقدها فاذا الكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل لانه يحتاج في استنباطه الى تدبير ثم هو مذموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها والله اعلم

(بيان ان ترك التداوي قد يحمد في بعض الاحوال ويدل على قوة التوكل وان ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم ان الذين تداووا من السلف لا ينحصرون ولكن قد ترك التداوي أيضا جماعة من الاكابر فربما يظن ان ذلك نقصان لانه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لا يكون حال غيره في التوكل اكمل من حاله وقد روى عن ابي بكر رضي الله عنه انه قيل له لو دعونا لك طبيبا فقال الطبيب قد نظر الي وقال اني فعال لما اريد وقيل لابي الدرداء في مرضه ما تشتكي قال ذنوبي قيل فما تشتهي قال مغفرة ربي قالوا الا ندعو لك طبيبا قال الطبيب امرضني وقيل لابي ذر وقد رمدت عيناه لو داويتهما قال اني عنهما مشغول فقيل له لو سألت الله تعالى ان يعافيك فقال اسأله فيما هو أهم علي منهما وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج فقيل له لو تداويت فقال له قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوى ولم تغن الرقى شيأ وكان أحمد بن حنبل يقول احب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا اذا ساله وقيل متى يصح للعبد التوكل قال اذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت اليه شغلا بحاله وينظر الى قيام الله تعالى عليه فاذا منهم من ترك التداوي ورآه ومنهم من كرهه ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم الا بحصر الصوارف عن التداوي فنقول ان لترك التداوي اسبابا (السبب الاول) ان يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بانه انتهى اجله وان الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه ان يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوي من هذا السبب فانه كان من المكاشفين فانه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث انما هن اختاك وانما كان لها اخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى فعلم انه كان قد كوشف بانها حامل بانثى فلا يبعد ان يكون قد كوشف ايضا بانتهاء اجله والا فلا يظن به انكار التداوي وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به (السبب الثاني) ان يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلا بحاله وعليه يدل كلام أبي ذر قال اني عنهما مشغول وكلام ابي الدرداء اذ قال انما اشتكى ذنوبي فكان تالم قلبه خوفا من ذنوبه اكثر من تالم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته او كالخائف الذي يحمل الى ملك من الملوك ليقتل اذ قيل له الا تاكل وانت جائع فيقول انا مشغول عن الم الجوع فلا يكون ذلك انكار الكون الاكل نافعا من

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى البخاري من حديث ابن عباس وانهى امتي عن الكي وفي الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل ذي حمة

فتصير المراقبة مقاما بعد ان كانت حالا ولا يستقر مقام المحاسبة قراره الا بنازل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره الا بنازل حال المشاهدة فاذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة ايضا يكون حالا يحول بالاستتار ويظهر بالتجلي ثم يصير مقاما وتتخلص شمسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة احوال وزيادات وترقيات من حال الى حال اعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص الى البقاء والترقي من عين اليقين الى حق اليقين وحق اليقين نازل يخرق

الجوع ولا طعنا فيمن اكل و يقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما القوت فقال هو ذكر الحي القيوم فقيل انما سألناك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألناك عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر قيل سألناك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه اولا يتولاه آخرا اذا دخل عليه علة فرده الى صانعه اما رأيت الصنعة اذا عيبت ردوها الى صانعها حتى يصلحها (السبب الثالث) ان تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة الى علته موهوم النفع جار مجرى الكى والرقية فيتركه المتوكل واليه يشير قول الربيع بن خثيم اذ قال ذكرت عادا وثمود وفيهم الاطباء فهلك المداوى والمداوى اى ان الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك فى نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ولا شك فى ان الطبيب المجرب أشد اعتقادا فى الادوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة واكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لانه يبقى الدواء عنده شيأ موهوما لا اصل له وذلك صحيح فى بعض الادوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح فى البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر الى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا فى الاسباب كالكى والرقى فيتركه توكلا (السبب الرابع) ان يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى اوليجرب نفسه فى القدرة على الصبر فقد ورد فى ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) نحن معاشر الانبياء اشد الناس بلاء ثم الامثل فالامثل يبتلى العبد على قدر ايمانه فان كان صلب الايمان شدد عليه البلاء وان كان فى ايمانه ضعف خفف عنه البلاء وفى الخبر (٢) ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب احدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الابريز لا يربدو منهم دون ذلك ومنهم من يخرج اسود محترقا وفى حديث (٣) من طريق اهل البيت ان الله تعالى اذا احب عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه وقال صلى الله عليه وسلم (٤) تحبون ان تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن اصح شئ قلبا وامرضه جسما وتجد المنافق اصح شئ جسما وامرضه قلبا فلما عظم الثناء على المرض والبلاء احب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم ان الحق اغلب على قلبه من ان يشغله المرض عنه وانما يمنع المرض جوارحه وعلموا ان صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى افضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففى الخبر (٥) ان الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمله فانه فى وثاقى ان اطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وان توفيته توفيته الى رحمتى وقال صلى الله عليه وسلم (٦) افضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس فقيل معناه ما دخل عليه من الامراض والمصائب واليه الاشارة بقوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وكان سهل يقول ترك التداوى

(١) حديث نحن معاشر الانبياء اشد الناس بلاء ثم الامثل فالامثل الحديث احمد وابو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم بنحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم ايضا من حديث سعد بن ابى وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث ان الله تعالى ليجرب عبده بالبلاء كما يجرب احدكم ذهبه الحديث الطبرانى من حديث ابى امامة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق اهل البيت ان الله اذا احب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده وللطبرانى من حديث ابى عنبة اذا اراد الله بعبد خيرا ابتلاه واذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تحبون ان تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون ابن ابى عاصم فى الآحاد والمثانى وابو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة والبيهقى فى الشعب من حديث ابى فاطمة وهو صدر حديث ان الرجل ليكون له المنزلة عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث ان الله يقول للملائكة اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمل فانه فى وثاقى الحديث الطبرانى من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث افضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس تقدم ولم اجده مرفوعا

شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة (وقد) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انى أسالك ايمانا يباشر قلبي (قال) سهل بن عبد الله للقلب تجويفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداؤه والتجويف الثانى ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقالة الذى فى سواد العين ومنه تنبعث الاشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التى

وان ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض افضل من التداوى لاجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوي منها وكان يداوي الناس منها وكان اذا رأى العبد يصلى من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الامراض فيتداوى للقيام الى الصلاة والنهوض الى الطاعات يعجب من ذلك و يقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله افضل من التداوى للقوة والصلاة قائما وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل فى شيء من الدواء فانما هو سعة من الله تعالى لاهل الضعف ومن لم يدخل فى شيء منه فهو افضل لانه ان اخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم اخذه ومن لم ياخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بان ذرة من اعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل افضل من امثال الجبال من اعمال الجوارح والمرض لا يمنع من اعمال القلوب الا اذا كان ألمه غالبا مدهشا وقال سهل رحمه الله علل الاجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة

(السبب الخامس) ان يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض اذا طال تكفيرا فيترك التداوي خوفا من ان يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الارض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة وفى الخبر (٢) حمى يوم كفارة سنة فقيل لانها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى فى جميعها و يجد من كل واحد ألما فيكون كل الم كفارة يوم (٣) ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل ان لا يزال محموما فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الانصار فكانت الحمى لا تزايلهم ولما قال صلى الله عليه وسلم (٤) من اذهب الله كريمتيه لم يرض الله له ثوابا دون الجنة قال فلقد كان من الانصار من يتمنى العمى وقال عيسى عليه السلام لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه وروى ان موسى عليه السلام نظر الى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف ارحمه فيما به أرحمه اى به اكفر ذنوبه وازيد فى درجاته

(السبب السادس) ان يستشعر العبد فى نفسه مبادى البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوي خوفا من ان يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان أو طول الامل والتسويف فى تدارك الفائت وتاخير الخيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات و بها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو الى المعاصي واقلها ان تدعو الى التنعم فى المباحات وهو تضييع للاوقات واهمال للربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات واذا اراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالامراض والمصائب ولذلك قيل لا يخلو المؤمن من علة او قلة او زلة وقد روى ان الله تعالى يقول الفقر سجني والمرض قيدي احبس به من احب من خلقي فاذا كان فى المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فاى خير يزيد عليه ولم ينبغ ان يشتغل بعلاجه من يخاف

---

(١) حديث لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الارض كالبردة ما عليه خطيئة ابو يعلى وابن عدي من حديث ابى هريرة والطبراني من حديث ابى الدرداء نحوه وفى الصداع بدل الحمى وللطبراني فى الاوسط من حديث انس مثل المريض اذا صح و برأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع فى صفائها ولونها واسانيده ضعيفة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاعي فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ان لا يزال محموما الحديث وسأل ذلك طائفة من الانصار احمد وابو يعلى من حديث ابى سعيد الخدري باسناد جيد ان رجلا من المسلمين قال يارسول الله ارايت هذه الامراض تصيبنا ما لنا فيها قال كفارات قال ابى وان قلت قال فان شوكة فما فوقها قال فدعا ابى ان لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث وللطبراني فى الاوسط من حديث ابى بن كعب انه قال يارسول الله ما جزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم او ضرب عليه عرق فقال اللهم انى اسالك حمى لا تمنعني خروجا فى سبيلك ولا خروجا الى بيتك ولا لمسجد نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله علي بن المديني (٤) حديث من اذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة تقدم المرفوع منه دون قوله فلقد كان فى الانصار من يتمنى العمى

خرقت شغاف القلب ووصلت الى سويدائه وهى حق اليقين هى اسنى العطايا واعز الاحوال واشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الاجر من الثواب اذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا فالمشاهدة هى الاول والاصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهى آخر الفروع ولما كان الاصل فى الاحوال هذه الحالة وهى اشرف الاحوال وهى محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعبد احوالا لانها غير مقدورة للعبد بكسبه فاطلقوا القول وتداولت السنة الشيوخ ان المقامات مكاسب والاحوال

ذلك

ذلك على نفسه فالعافية فى ترك المعاصي فقد قال بعض العارفين لانسان كيف كنت بعدي قال فى عافية قال ان كنت لم تعص الله عزوجل فانت فى عافية وان كنت قد عصيته فاى داء أدوأ من المعصية ماعوفى من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد ماهذا الذى اظهروه قالوا ياامير المؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لا يعصى الله عزوجل فيه فهو لنا عيد وقال تعالى من بعد ما أراكم ما تحبون قيل العوافى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وكذلك اذا استغنى بالعافية وقال بعضهم انما قال فرعون انا ربكم الاعلى لطول العافية لانه لبث اربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لعنه الله ولو اخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية وقال صلى الله عليه وسلم (١) اكثروا من ذكر هاذم اللذات وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف وقال تعالى اولا يرون انهم يفتنون فى كل عام مرة اومرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون قيل يفتنون بامراض يختبرون بها ويقال ان العبد اذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت ياغافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجب وقدكان السلف لذلك يستوحشون اذا خرج عام لم يصابوا فيه بنقص فى نفس اومال وقالوا لا يخلو المؤمن فى كل اربعين يوما ان يروع روعة او يصاب ببلية حتى روى ان عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها وان النبي صلى الله عليه وسلم (٢) عرض عليه امرأة فحكى من وصفها حتى هم ان يتزوجها فقيل وانها مامرضت قط فقال لا حاجة لى فيها (٣) وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ما اعرفه فقال صلى الله عليه وسلم اليك عنى من اراد ان ينظر الى رجل من اهل النار فلينظر الى هذا وهذا لانه ورد فى الخبر (٤) الحمى حظ كل مؤمن من النار وفى حديث (٥) انس وعائشة رضى الله عنهما قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة وفى لفظ آخر الذى يذكر ذنوبه فتحزنه ولا شك فى ان ذكر الموت على المريض اغلب فلما ان كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها اذ رأوا لانفسهم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التداوي نقصانا وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

﴿ بيان الرد على من قال ترك التداوى افضل بكل حال ﴾

فلو قال قائل انما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره والا فهو حال الضعفاء ودرجة الاقوياء توجب التوكل بترك الدواء فيقال ينبغي ان يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم فان قيل ان ذلك ايضا شرط فليكن من شرطه ان تلدغه العقرب اوالحية فلا ينحيها عن نفسه اذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فاى فرق بينهما فان قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغي أن لايزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لاقائل به ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك اسباب رتبها مسبب الاسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ويدل على ان ذلك ليس من شرط التوكل ماروى عن عمر رضى الله عنه وعن

(١) حديث أكثروا ذكر هاذم اللذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرضت قط فقال لا حاجة لى فيها أحمد من حديث أنس بنحوه باسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال اليك عنى الحديث أبو داود من حديث عامر الرام أخى الخضر (١) بنحوه وفى اسناده لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الاوسط من حديث أنس وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث انس ضعيف وباقيها حسان (٥) حديث أنس وعائشة قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم اقف له على اسناد

(١) الخضر بطن من محارب بن خصفة

السموات ومتنزل البركات وهذه الاحوال لا يتحقق بها الا ذو قلب سماوى (قال بعضهم) الحال هو الذكر الخفى وهذا اشارة الى شئ مما ذكرناه (وسمعت المشايخ بالعراق) يقولون الحال مامن الله فكل ماكان من طريق الاكتساب والاعمال يقولون هذا مامن العبد فاذا لاح للمريد شئ من المواهب والمواجيد قالوا هذا مامن الله وسموه حالا اشارة منهم الى أن الحال موهبة (وقال) بعض مشايخ خراسان الاحوال مواريث الاعمال (وقال بعضهم) الاحوال كالبروق فان بقى فحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الاطلاق وانما

الصحابة فى قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا الى الجابية بلغهم الخبر ان به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلقى بايدينا الى التهلكة وقالت طائفة اخرى بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فرجعوا الى عمر فسالوه عن رأيه فقال نرجع ولا ندخل على الوباء فقال له المخالفون فى رأيه انفر من قدر الله تعالى قال عمر نعم نفر من قدر الله الى قدر الله ثم ضرب لهم مثلا فقال أرأيتم لو كان لاحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان احداهما مخصبة والاخرى مجدبة اليس ان رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وان رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما اصبحوا جاء عبد الرحمن فساله عمر عن ذلك فقال عندى فيه يا أمير المؤمنين شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال (١) عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بالوباء فى ارض فلا تقدموا عليه واذا وقع فى ارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى اذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس فاذا كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات ان كان امثال هذا من شروط التوكل فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء وسبب الوباء فى الطب الهواء واظهر طرق التداوى الفرار من المضر والهواء هو المضر فلم يرخص فيه فاعلم انه لا خلاف فى ان الفرار عن المضر غير منهى عنه اذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل فى امثال هذا مباح وهذا لا يدل على المقصود ولكن الذى ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى ان الهواء لا يضر من حيث انه يلاقى ظاهر البدن من حيث دوام الاستنشاق له فانه اذا كان فيه عفونة ووصل الى الرئة والقلب وباطن الاحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر الا بعد طول التاثير فى الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الاثر الذى استحكم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيا عنه ولكن صار منهيا عنه لانه انضاف اليه امر آخر وهو انه لو رخص للاصحاء فى الخروج لما بقى فى البلد الا المرضى الذين اقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ولم يبق فى البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بانفسهم فيكون ذلك سعيا فى اهلاكهم تحقيقا وخلاصهم منتظر كما ان خلاص الاصحاء منتظر فلو اقاموا لم تكن الاقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع فى اهلاك الباقين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى اليه سائر اعضائه فهذا هو الذى ينقدح عندنا فى تعليل النهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فانه لم يؤثر الهواء فى باطنهم ولا باهل البلد حاجة اليهم نعم لو لم يبق بالبلد الا مطعونون وافتقروا الى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لاجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لانه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين وبهذا (٢) شبه الفرار من الطاعون فى بعض الاخبار بالفرار من الزحف لان فيه كسر القلوب بقية المسلمين وسعيا فى اهلاكهم فهذه امور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر الى ظواهر الاخبار والآثار يتناقض عنده اكثر ما سمعه وغلط العباد والزهاد فى مثل هذا كثير وانما شرف العلم وفضيلته لاجل ذلك فان قلت ففى ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل فنقول فيه فضل بالاضافة الى من كثرت ذنوبه ليكفرها او خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات او احتاج الى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة او احتاج الى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين

مواهب وعلى الترتيب الذى درجنا عليه كلها مواهب اذ المكاسب محفوفة بالمواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب فالاحوال مواجيد والمقامات طرق المواجيد ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب وفى الاحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالاحوال مواهب علوية سماوية والمقامات طرقها وقول امير المؤمنين على ابن ابى طالب رضى الله عنه سلونى عن طرق السموات فانى اعرف بها من طرق الارض اشارة الى المقامات والاحوال فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات فان السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف اذا سمعتم بالوباء فى ارض فلا تقدموا عليه الحديث وفى اوله قصة خروج عمر بالناس الى الجابية وانه بلغهم ان بالشام وباء الحديث رواه البخارى (٢) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف رواه احمد من حديث عائشة باسناد جيد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم

أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى فى الادوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرقى أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع فالى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى وكل ذلك كمالات بالاضافة الى بعض الخلق ونقصان بالاضافة الى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها اذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الاسباب وفقدها فانه لم يكن له نظر فى الاحوال الا الى مسبب الاسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الاسباب كما أن الرغبة فى المال نقص والرغبة عن المال كراهية له وان كانت كمالا فهى أيضا نقص بالاضافة الى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده وكان لا يمسكه لتعلم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من امساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا (١) وقد عرضت عليه خزائن الارض فابى ان يقبلها فكذلك يستوى عنده مباشرة الاسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وانما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لامته فيما تمس اليه حاجتهم مع انه لا ضرر فيه بخلاف ادخال الاموال فان ذلك يعظم ضرره نعم التداوى لا يضر الا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث انه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى وذلك منهى عنه والمؤمن فى غالب الامر لا يقصد ذلك واحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث انه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا فحكم التداوى فى مقصوده كحكم الكسب فانه ان اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وان اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعانى التى أوردناها ان ترك التداوى قد يكون افضل فى بعض الاحوال وان التداوى قد يكون أفضل فى بعض وان ذلك يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص والنيات وان واحدا من الفعل والترك ليس شرطا فى التوكل الا ترك الموهومات كالكى والرقى فان ذلك تعمق فى التدبيرات لا يليق بالمتوكلين

﴿ بيان احوال المتوكلين فى اظهار المرض وكتمانه ﴾

اعلم أن كتمان المرض واخفاء الفقر وانواع البلاء من كنوز البر وهو من اعلى المقامات لان الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه و بين الله عز وجل فكتمانه اسلم عن الآفات ومع هذا فالاظهار لا بأس به اذا صحت فيه النية والمقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة (الاول) ان يكون غرضه التداوى فيحتاج الى ذكره للطبيب فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المتطبب أوجاعه وكان احمد بن حنبل يخبر بامراض يجدها ويقول انما أصف قدرة الله تعالى فى (الثانى) ان يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا فى المعرفة فاراد من ذكره ان يتعلم منه حسن الصبر فى المرض بل حسن الشكر بان يظهر انه يرى ان المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم قال الحسن البصرى اذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى (الثالث) أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة و يستبعد منه العجز كما روى انه قيل لعلى فى مرضه رضى الله عنه كيف انت قال بشر فنظر بعضهم الى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا انه شكاية فقال اتجلد على الله فاحب ان يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتادب فيه بادب النبى صلى الله عليه وسلم اياه حيث (٢) مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول اللهم صبرنى على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض وانما يشترط ذلك لان ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كما ذكرته فى تحريم السؤال على الفقراء الا بضرورة و يصير الاظهار

(١) حديث أنه عرضت عليه خزائن الارض فابى ان يقبلها تقدم ولفظه عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الارض فردها (٢) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرنى

يكون ذلك فى بعض الاحوال فانها تطرق ثم تستلبها النفس فاما على الاطلاق فلا والاحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء (وذهب) بعضهم الى أن الاحوال لا تكون الا اذا دامت فاما اذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوارد وهى مقدمات الاحوال وليست باحوال (واختلف المشايخ) فى ان العبد هل يجوز له أن ينتقل الى مقام غير مقامه الذى هو فيه قبل احكام حكم مقامه (قال بعضهم) لا ينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه دون ان يحكم حكم مقامه وقال بعضهم لا يكمل المقام الذى هو فيه الا بعد ترقيه الى مقام فوقه فينظر من مقامه العالى الى مادونه من

شكاية بقرينة السخط واظها الـكراهة لفعل الله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بان الاولى تركه لانه ربما يوهم الشكاية ولانه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوي توكلا فلا وجه في حقه للاظهار لان الاستراحة الى الدواء افضل من الاستراحة الى الافشاء وقد قال بعضهم من بثك لم يصبر وقيل في معنى قوله فصبر جميل لا شكوى فيه وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذي أذهب بصرك قال مر الزمان وطول الاحزان فاوحى الله تعالى اليه تفرغت لشكواى الى عبادى فقال يارب اتوب اليك وروى عن طاوس ومجاهد انهما قال يكتب على المريض انينه في مرضه وكانوا يكرهون انين المرض لانه اظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل ما اصاب ابليس لعنه الله من ايوب عليه السلام الا انينه في مرضه فجعل الانين حظه منه وفي الخبر (١) اذا مرض العبد اوحى الله تعالى الى الملكين انظرا مايقول لعواده فان حمد الله واثنى بخير دعوا له وان شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون وانما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم اذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج اليهم منهم فضيل ووهيب و بشر وكان فضيل يقول اشتهي ان امرض بلا عواد وقال لا اكره العلة الا لاجل العواد رضي الله عنه وعنهم اجمعين كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والانس والرضا والله سبحانه وتعالى الموفق

﴿ كتاب المحبة والشوق والانس والرضا وهو الكتاب السادس

من ربع المنجيات من كتب احيا علوم الدين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات الى زخرف الدنيا ونضرته وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ثم تجلى لهم باسمائه وصفاته حتى اشرقت بانوار معرفته ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما اغبر في وجه العقل و بصيرته وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحترقة بنار محبته والصلا على محمد خاتم الانبياء بكمال نبوته وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا (امابعد) فان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والانس والرضا واخواتها ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات ان عز وجودها فلم تخل القلوب عن الايمان بامكانها واما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها حتى أنكر بعض العلماء امكانها وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى واما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها واسبابها ثم بيان ان لا مستحق للمحبة الا الله تعالى ثم بيان ان اعظم اللذات لذة النظر الى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الافهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الانس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط

على البلاء فقال لقد سالت الله البلاء فسل الله العافية تقدم مع اختلاف (١) حديث اذا مرض العبد اوحى الله الى الملكين انظرا مايقول لعواده الحديث تقدم

المقام فيحكم امر مقامه والاولى ان يقال والله اعلم الشخص في مقامه يعطى حالا من مقامه الاعلى الذي سوف يرتقى اليه فوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشئ الى العبد انه يرتقى أولا يرتقى فان العبد بالاحوال يرتقى الى المقامات والاحوال مواهب ترقى الى المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام اعلى مما هو فيه الا وقد قرب ترقيه اليه فلا يزال العبد يرقى الى المقامات بزائد الاحوال فعلى ماذكرناه يتضح تداخل المقامات والاحوال حتى التوبة ولا تعرف فضيلة الا فيها حال ومقام

في الانس ثم القول في معنى الرضا و بيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لاتناقضه كذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

﴿ بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى ﴾

اعلم ان الامة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب و يدل على اثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل يحبهم و يحبونه وقوله تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله وهو دليل على اثبات الحب واثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الايمان في أخبار كثيرة اذ قال (١) ابو رزين العقيلي يارسول الله ما الايمان قال ان يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواهما وفي حديث آخر (٢) لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وفي حديث آخر (٣) لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه كيف وقد قال تعالى قل ان كان اباؤكم وأبناؤكم واخوانكم الآية وانما اجرى ذلك في معرض التهديد والانكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال (٤) أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله اياي و يروى (٥) أن رجلا قال يارسول الله اني أحبك فقال صلى الله عليه وسلم استعد للفقر فقال اني احب الله تعالى فقال استعد للبلاء وعن (٦) عمر رضي الله عنه قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الرجل الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين ابويه يغذوانه باطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله الى ماترون وفي الخبر المشهور (٧) أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت اذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خليلا يميت خليله فاوحى الله تعالى اليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال ياملك الموت الآن فاقبض وهذا لايجده الاعبد يحب الله بكل قلبه فاذا علم ان الموت سبب اللقاء انزعج قلبه اليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت اليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه (٨) اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني الى حبك واجعل حبك أحب الي من الماء البارد (٩) وجاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها فقال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام الا اني احب الله ورسوله فقال له رسول الله

(١) حديث ابي رزين العقيلي انه قال يارسول الله ما الايمان قال ان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة في اوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد احد حلاوة الايمان حتى أكون احب اليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون اليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لانت احب الي من كل شيء الا نفسي فقال لا والذي نفسي بيده حتى أكون احب اليك من نفسك فقال عمر فانت الآن والله احب الي من نفسي فقال الآن ياعمر (٤) حديث احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه الحديث الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث ان رجلا قال يارسول الله اني احبك فقال استعد للفقر الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فاعد للفقر تجفافا دون اخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به الحديث ابو نعيم في الحلية باسناد حسن (٧) حديث ان ابراهيم قال لملك الموت اذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله الحديث لم اجد له اصلا (٨) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال اعرابي يارسول الله متى الساعة قال ما اعددت لها الحديث متفق عليه من حديث انس ومن حديث ابي موسى وابن مسعود بنحوه

وفي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام قال ابو عثمان الحيري منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته أشار الى الرضا و يكون منه حالا ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يتوب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا (قال) بعضهم الزجر هيجان في القلب لا يسكنه الا الانتباه من الغفلة فيرده الى اليقظة فاذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ وقال بعضهم الزجر ضياء في القلب يبصر به خطأ قصده والزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق

صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب قال انس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الاسلام فرحهم بذلك وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله عن طلب الدنيا واوحشه عن جميع البشر وقال الحسن من عرف ربه احبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن وقال ابو سليمان الداراني ان من خلق الله خلقا ما شغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا و يروى ان عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت ابدانهم وتغيرت الوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما ارى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله ان يؤمن الخائف ثم جاوز الى ثلاثة آخرين فاذا هم اشد نحولا وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما ارى قالوا الشوق الى الجنة فقال حق على الله ان يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم اشد نحولا وتغيرا كان على وجوههم المرائي من النور فقال نحو ما الذي بلغ بكم ما ارى قالوا نحب الله عز وجل فقال انتم المقربون انتم المقربون انتم المقربون وقال عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم في الثلج فقلت أما تجد البرد فقال من شغله حب الله لم يجد البرد وعن سري السقطي قال تدعى الامم يوم القيامة بانبيائها عليهم السلام فيقال يا أمة موسى و يا أمة عيسى و يا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادون اولياء الله هلموا الى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عز وجل احبه واذا احبه أقبل اليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه وفي بعض الكتب عبدي انا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محبا وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب احب الي من عبادة سبعين سنة بلا حب وقال يحيى بن معاذ الهي اني مقيم بفنائك مشغول بثنائك صغيرا اخذتني اليك وسربلتني بمعرفتك وامكنتني من لطفك ونقلتني في الاحوال وقلبتني في الاعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا تسقيني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لامرك ومشغوفا بقولك ولما طر شاربي ولاح طائري فكيف انصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة اليك همهمة لاني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد في حب الله تعالى من الاخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وانما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به

﴿ بيان حقيقة المحبة واسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى ﴾

اعلم ان المطلب من هذا الفصل لا ينكشف الا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها واسبابها ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى * فاول ما ينبغي ان يتحقق انه لا يتصور محبة الا بعد معرفة وادراك اذ لا يحب الانسان الا ما يعرفه ولذلك لم يتصور ان يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم الى ما توافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه والى ما ينافيه وينافره ويؤلمه والى ما يؤثر فيه بايلام والذاذ فكل ما في ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما في ادراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذا كل لذيذ محبوب عند المتلذذ به ومعنى كونه محبوبا ان في الطبع ميلا اليه ومعنى كونه مبغوضا ان في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشيء الملذ فان تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوي سمي مقتا فهذا اصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته ﴿ الاصل الثاني ﴾ ان الحب لما كان تابعا للادراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذة العين في الابصار وادراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الاذن في النغمات الطيبة الموزونة ولذة الشم في الروائح

العلم وزجر من طريق العقل وزجر من طريق الايمان فينازل التائب حال الزجر وهي موهبة من الله تعالى تقوده الى التوبة فلا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تريه لذة ترك الاشغال بالدنيا وتقبح له الاقبال عليها فتمحوه أثر حالة بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم فيزهد و يستقر زهده و يصير الزهد مقامه ولا تزال نازلة حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على

الطيبة ولذة الذوق فى الطعوم ولذة اللمس فى اللين والنعومة ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة اى كان للطبع السليم ميل اليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرة عينى فى الصلاة فسمى الطيب محبوبا ومعلوم انه لا حظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولا حظ فيهن الا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه الا من كان له قلب ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الانسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال ان الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل فى الخيال فلا يحب فاذا قد بطلت خاصية الانسان وما تميز به من الحس السادس الذى يعبر عنه اما بالعقل او بالنور أو بالقلب او بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيهات فالبصيرة الباطنة اقوى من البصر الظاهر والقلب اشد ادراكا من العين وجمال المعانى المدركة بالعقل اعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الامور الشريفة الالهية التى تجل عن ان تدركها الحواس أتم وابلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه اقوى ولا معنى للحب الا الميل الى ما فى ادراكه لذة كما سيأتى تفصيله فلا ينكر اذا حب الله تعالى الا من قعد به القصور فى درجة البهائم فلم يجاوز ادراك الحواس أصلا (الاصل الثالث) ان الانسان لا يخفى انه يحب نفسه ولا يخفى انه قد يحب غيره لاجل نفسه وهل يتصور ان يحب غيره لذاته لا لاجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون انه لا يتصور ان يحب الانسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته والحق ان ذلك متصور وموجود فلنبين اسباب المحبة واقسامها وبيانه ان المحبوب الاول عند كل حى نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه ان فى طبعه ميلا الى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لان المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب وأى شىء أتم ملائمة من نفسه ودوام وجوده واى شىء اعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الانسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض الا لمقاساة ألم فى الحياة ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء فان احب العدم لم يحبه لانه عدم بل لان فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب وكما ان دوام الوجود محبوب فكمال الوجود ايضا محبوب لان الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة اليه والهلاك والعدم ممقوت فى الصفات وكمال الوجود كما انه ممقوت فى أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما ان دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة فى الطباع بحكم سنة الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا فاذا المحبوب الاول للانسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته واصدقاؤه فالاعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لان كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لانه أيضا آلة فى دوام الوجود وكماله وكذا سائر الاسباب * فالانسان يحب هذه الاشياء لا لاعيانها بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها حتى انه ليحب ولده وان كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لاجله لانه يخلفه فى الوجود بعد عدمه فيكون فى بقاء نسله نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكانه جزء منه لما عجز عن الطمع فى بقاء نفسه ابدا نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده لان بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاء المحقق وكذلك حبه لاقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم فان العشيرة والمال والاسباب الخارجة كالجناح المكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة فاذا المحبوب الاول عند كل حى ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو اول الاسباب * السبب الثانى الاحسان فان الانسان عبد الاحسان

(١) حديث حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائى من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم

الرضا ويصير ذلك مقامه وههنا لطيفة وذلك ان مقام الرضا والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ولا يحكم ببقاء حال الرضا مع وجود داعية الطبع وذلك مثل كراهة يجدها الراضى بحكم الطبع ولكن علمه بمقام الرضا يعمر حكم الطبع وظهور حكم الطبع فى وجود الكراهية المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضا ولكن يفقد حال الرضا لان الحال لما تجردت موهبة احرقت داعية الطبع فيقال كيف يكون صاحب مقام فى الرضا ولا يكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام

وقدجبلت القلوب على حب من احسن اليها و بغض من اساء اليها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) اللهم لاتجعل لفاجر على يدافيحبه قلبي اشارة الى ان حب القلب للمحسن اضطرار لايستطاع دفعه وهو جبلة وفطرة لاسبيل الى تغييرها و بهذا السبب قديحب الانسان الاجنبي الذي لاقرابة بينه و بينه ولاعلاقة وهذا اذا حقق رجع الى السبب الاول فان المحسن من امد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود الا ان الفرق ان اعضاء الانسان محبو بة لان بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب فاما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة الاعضاء ففرق بين حب الصحة و بين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة اذ الصحة مطلوبة لذاته والطبيب محبوب لا لذاته بل لانه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والاستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لانها وسيلة الى الطعام فاذا يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة والا فكل واحد يرجع الى محبة الانسان نفسه فكل من احب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقا بل احب احسانه وهو فعل من افعاله لوزال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو انقص نقص الحب ولوزاد ازداد و يتطرق اليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه * السبب الثالث ان يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن بان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لان ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تظنن ان حب الصور الجميلة لا يتصور الا لاجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة اخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها وادراك نفس الجمال ايضا لذيذ فيجوز ان يكون محبو با لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبو با لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد (٢) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى ان الانسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر اليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الاسباب ملذة وكل لذيذ محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو ادراكه عن لذة ولا احد ينكر كون الجمال محبو با بالطبع فان ثبت ان الله جميل كان لا محالة محبو با عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ان الله جميل يحب الجمال

﴿الاصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال﴾ اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن انه لامعنى للحسن والجمال الا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشر با بالحمرة وامتداد القامة الى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الانسان فان الحسن الاغلب على الخلق حسن الابصار واكثر التفاتهم الى صور الاشخاص فيظن ان ماليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدرا فلا يتصور حسنه واذا لم يتصور حسنه لم يكن في ادراكه لذة فلم يكن محبو با وهذا خطأ ظاهر فان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا اناء حسن فاي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الاشياء ان لم يكن الحسن الا في الصورة ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر الى الخط الحسن والاذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ومامن

(١) حديث اللهم لاتجعل لكافر على يدافيحبه قلبي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري ابو نعيم في الطب النبوي من حديث بن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب ان ينظر الى الخضرة والى الماء الجاري واسناده ضعيف (٣) حديث ان الله جميل يحب الجمال مسلم في اثناء حديث لابن مسعود

اثبت تقول لان المقام لما كان مشو با بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع فحال الرضا اصلف ومقام الرضا امكن ولابد للمقامات من زائد الاحوال فلا مقام الا بعد سابقة حال ولا تفرد المقامات دون سابقة الاحوال فمنها مايصير مقاما ومنها ما لا يصير مقاما والسر فيه ماذكرناه ان الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنت وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن فلما كان في الاحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصارت الاحوال الى ما لانهاية لها ولطف سني الاحوال ان

شيء من المدركات الا وهو منقسم الى حسن وقبيح فما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الاشياء فلابد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء فجماله وحسنه فى أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فاذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو فى غاية الجمال وان كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كر وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء فى كماله الذى يليق به فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الاوانى بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الاشياء فان قلت فهذه الاشياء وان لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الاصوات والطعوم فانها لا تنفك عن ادراك الحواس لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بادراك حسنها وانما ينكر ذلك فى غير المدرك بالحواس فاعلم ان الحسن والجمال موجود فى غير المحسوسات اذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه اخلاق جميلة وانما الاخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وان الامر كذلك ان الطباع مجبولة على حب الانبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبى حنيفة ومالك وغيرهم حتى ان الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على ان ينفق جميع ماله فى نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى امامه ومتبوعه فكم من دم اريق فى نصرة ارباب المذاهب وليت شعرى من يحب الشافعي مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذى حمله على افراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وانما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لافادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات فى العالم وهذه امور جميلة لا يدرك جمالها الا بنور البصيرة فاما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب ابابكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له فلا يحبهم الا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم ان من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده واطرافه وشكله اذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهي الصفات المحمودة التى هى مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور وتلك الصفات ترجع جملتها الى العلم والقدرة اذا علم حقائق الامور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذى لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لاجله فاذا الجمال موجود فى السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السير الجميلة وهى الاخلاق الحميدة والفضائل الشريفة وترجع جملتها الى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى ان الصبي المخلى وطبعه اذا اردنا ان نحببه اليه غائبا او حاضرا حيا او ميتا لم يكن لنا سبيل الا بالاطناب فى وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك فى نفسه ولم يقدر ان لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض ابى جهل وبغض ابليس لعنه الله الا بالاطناب فى وصف المحاسن والمقابح التى لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة احبتهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر الى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم بل اذا حكى من سيرة بعض الملوك فى بعض اقطار الارض

يصير مقاما ومقدورات الحق غير متناهية ومواهبه غير متناهية ولهذا قال بعضهم لو أعطيت روحانية عيسى ومكالمة موسى وخلة ابراهيم عليه السلام لطلبت ماوراء ذلك لان مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الانبياء ولا تعطى الاولياء ولكن هذه اشارة من القائل الى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لان سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام كل يوم لم أزدد فيه علما فلا بورك لى فى صبيحة

العدل والاحسان وافاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار احسانه الى المحبين لبعد المزار ونأى الديار فاذا ليس حب الانسان مقصورا على من احسن اليه بل المحسن فى نفسه محبوب وان كان لا ينتهى قط احسانه الى المحب لان كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة و باطنة والحسن والجمال يشملها وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل اليها ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة اكثر من حبه للمعانى الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة و بين من يحب نبيا من الانبياء لجمال صورته الباطنة (السبب الخامس) المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب اذرب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال اوحظ ولكن بمجرد تناسب الارواح كما قال صلى الله عليه وسلم (1) فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقد حققنا ذلك فى كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب فى الله فليطلب منه لانه أيضا من عجائب اسباب الحب فاذا ترجع اقسام الحب الى خمسة أسباب وهو حب الانسان وجود نفسه وكماله و بقائه وحبه من أحسن اليه فيما يرجع الى دوام وجوده و يعين على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من كان محسنا فى نفسه الى الناس وان لم يكن محسنا اليه وحبه لكل ما هو جميل فى ذاته سواء كان من الصور الظاهرة اوالباطنة وحبه لمن بينه و بينه مناسبة خفية فى الباطن فلو اجتمعت هذه الاسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لا محالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن الى الخلق ومحسن الى الوالد كان محبوبا لا محالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها فان كانت هذه الصفات فى اقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة فى اعلى الدرجات فلنبين الآن ان هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى

﴿بيان ان المستحق للمحبة هو الله وحده﴾

وان من احب غير الله لا من حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لانه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والاتقياء لان محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع الى حب الاصل فلا يتجاوزه الى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر الا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه وايضاحه بان نرجع الى الاسباب الخمسة التى ذكرناها ونبين انها مجتمعة فى حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره الا آحادها وانها حقيقة فى حق الله تعالى ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقا وبان التحقيق يقتضى ان لا نحب احدا غير الله تعالى * فاما السبب الاول وهو حب الانسان نفسه و بقاءه وكماله ودوام وجوده و بغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حى ولا يتصور ان ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا انه لا وجود له من ذاته وانما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله والى الله و بالله فهو المخترع الموجد له وهو المبقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الاسباب الموصلة اليه وخلق الهداية الى استعمال الاسباب والا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالايجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالابقاء وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته و بالجملة فليس فى الوجود شئ له بنفسه قوام الا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به فان احب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له ان عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوما لغيره فان كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه و بربه والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم

(1) حديث فما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبي هريرة وقدم فى آداب الصحبة

بانعدامها

ذلك اليوم وفى دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته احدا من عبادك اوخير أنت معطيه احدا من خلقك فانا ارغب اليك واسالك اياه فاعلم ان مواهب الحق لا تنحصر والاحوال مواهب وهى متصلة بكلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها وتنفد اعداد الرمال دون اعدادها والله المنعم المعطى

(الباب التاسع والخمسون فى الاشارات الى المقامات على الاختصار والايجاز)

اخبرنا شيخنا شيخ الاسلام ابو النجيب السهروردى رحمه الله قال انا ابو منصور بن خيرون اجازة

بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور ان يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ومعلوم ان المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الاشجار التى بها قوام الظل وكل ما فى الوجود بالاضافة الى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة الى الشجر والنور بالاضافة الى الشمس فان الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما ان وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالاضافة الى اوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض اذ انكشف لارباب القلوب انكشافا اظهر من مشاهدة الابصار ان النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والاجسام الكثيفة كما ان نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها ايضا حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الامثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق فاذا كان حب الانسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه اولا ودوامه ثانيا فى اصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره واعراضه ايضا ضرورى ان عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلانه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطا ارضه الا من يقرب الى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه الى حضيض عالم البهائم واما السبب الثانى وهو حبه من احسن اليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وامده بمعونته وانتدب لنصرته وقمع اعدائه وقام بدفع شر الاشرار عنه وانتهض وسيلة الى جميع حظوظه واغراضه فى نفسه واولاده واقاربه فانه محبوب لا محالة عنده وهذا بعينه يقتضى ان لا يحب الا الله تعالى فانه لو عرف حق المعرفة لعلم ان المحسن اليه هو الله تعالى فقط فاما انواع احسانه الى كل عبيده فلست اعدها اذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد اشرنا الى طرف منه فى كتاب الشكر ولكنا نقتصر الآن على بيان ان الاحسان من الناس غير متصور الا بالمجاز وانما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن انعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن ان هذا الاحسان منه وهو غلط فانه انما تم احسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال اليك فمن الذى انعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق ارادته وداعيته ومن الذى حببك اليه وصرف وجهه اليك والقى فى نفسه ان صلاح دينه اودنياه فى الاحسان اليك ولو لا كل ذلك لما اعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله عليه الدواعى وقرر فى نفسه ان صلاح دينه اودنياه فى ان يسلم اليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة الى الفعل واما يده فواسطة يصل بها احسان الله اليك وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه فان اعتقدته محسنا اوشكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث واسطة كنت جاهلا بحقيقة الامر فانه لا يتصور الاحسان من الانسان الا الى نفسه اما الاحسان الى غيره فمحال من المخلوقين لانه لا يبذل ماله الا لغرض فى البذل اما آجل وهو الثواب واما عاجل وهو المنة والاستسخار او الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم اوجذب قلوب الخلق الى الطاعة والمحبة وكما ان الانسان لا يلقى ماله فى البحر اذ لا غرض له فيه فلا يلقيه فى يد انسان الا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده واما انت فلست مقصودا بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء اوالشكر اوالثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرك فى القبض للتوصل الى غرض نفسه فهو اذا محسن الى نفسه ومعتاض عما بذل له من ماله عوضا هو ارجح عنده من ماله ولو لا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لاجلك اصلا البتة فاذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين احدهما انه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الامير فانه لا يرى محسنا بتسليم خلعة الامير الى من خلع عليه لانه من جهة الامير مضطر الى الطاعة

قال انا أبو محمد الحسن بن على ابن محمد الجوهرى اجازة قال انا ابو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال انا ابو محمد يحيى بن صاعد قال انا الحسين ابن الحسن المروزى قال انا عبد الله بن المبارك قال انا الهيثم بن جميل قال انا كثير ابن سليم المدائنى قال سمعت أنس ابن مالك رضى الله عنه قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يارسول الله انى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فانى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة (وروى) أبو هريرة رضى

والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الامير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه والقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك والثانى انه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما لا يعد البائع محسنا لانه بذل بعوض هو احب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب او الحمد والثناء اوعوضا آخر وليس من شرط العوض ان يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الاموال والاعيان بالاضافة اليها فالاحسان فى الجود والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع الى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى انعم على العالمين احسانا اليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع اليه فانه يتعالى عن الاغراض فلفظ الجود والاحسان فى حق غيره كذب أو مجاز ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان فى الطبع حب المحسن فينبغى ان لا يحب العارف الا الله تعالى اذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده واما غيره فيستحق المحبة على الاحسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته * وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن فى نفسه وان لم يصل اليك احسانه وهذا ايضا موجود فى الطباع فانه اذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الارض بعيد عنك و بلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو ايضا بعيد عنك فانك تجد فى قلبك تفرقة بينهما اذ تجد فى القلب ميلا الى الاول وهو الحب ونفرة عن الثانى وهو البغض مع انك آيس من خير الاول وآمن من شر الثانى لانقطاع طمعك عن التوغل الى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث انه محسن فقط لا من حيث انه محسن اليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى ان لا يحب غيره أصلا الا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن الى الكافة والمتفضل على جميع اصناف الخلائق اولا بايجادهم وثانيا بتكميلهم بالاعضاء والاسباب التى هى من ضروراتهم وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الاسباب التى هى فى مظان حاجاتهم وان لم تكن فى مظان الضرورة ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هى فى مظنة زينتهم وهى خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضرورى من الاعضاء الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج اليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين الى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضرورى من النعم الخارجة عن بدن الانسان الماء والغذاء ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد خضرة الاشجار وحسن أشكال الانوار والازهار ولذائذ الفواكه والاطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الاقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من اصناف الخلق من ذروة العرش الى منتهى الفرش فاذا هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق اسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره ايضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة الا الله تعالى * واما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء ادراك الجمال فقد بينا ان ذلك مجبول فى الطباع وان الجمال ينقسم الى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الراس والى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والاول يدركه الصبيان والبهائم والثانى يختص بدركه ارباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم الا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا فى المشاهدة حب الانبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والاخلاق المرضية فان كان ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الاعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه نعم يدرك بحسن اثاره الصادرة منه الدالة عليه حتى اذا دل القلب عليه مال القلب اليه فاحبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم او الصديق رضى الله تعالى عنه او الشافعى رحمة الله عليه فلا يحبهم الا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن افعالهم بل دل حسن افعالهم على حسن

الله عنه فى حديث آخر فانى لا ستغفر الله واتوب اليه فى كل يوم مائة مرة (وروى) ابو بردة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي فاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وقال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون وقال الله عزوجل ان الله يحب التوابين وقال الله تعالى يا ايها الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا * التوبة اصل كل مقام وقوام كل مقام ومفتاح كل حال وهى اول المقامات وهى بمثابة الارض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وانى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى

الصفات

الصفات التي هي مصدر الافعال اذ الافعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش و بناء البناء انكشف له من هذه الافعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث الى العلم والقدرة ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم اشرف وأجل وكذا المقدور كلما كان اعظم قدرة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا واجل المعلومات هو الله تعالى فلا جرم احسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى وكذلك مايقار به و يختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذا جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع الى ثلاثة امور أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع انبيائه والثاني قدرتهم على اصلاح انفسهم واصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة والثالث تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة الى طريق الشر و بمثل هذا يحب الانبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم اهل العدل والكرم فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى (اما العلم) فأين علم الاولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل احاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل وما أوتيتم من العلم الا قليلا بل لو اجتمع أهل الارض والسماء على ان يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة او بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى خلق الانسان علمه البيان فان كان جمال العلم وشرفه امرا محبوبا وكان هو في نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغي ان يحب بهذا السبب الا الله تعالى فعلوم العلماء جهل بالاضافة الى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل اهل زمانه استحال ان يحب بسبب العلم الاجهل و يترك الاعلم وان كان الاجهل لا يخلو عن علم ما تقتضاه معيشته والتفاوت بين علم الله و بين علم الخلائق اكثر من التفاوت بين علم اعلم الخلائق وأجلهم لان الاعلم لا يفضل الاجهل الا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان ان ينالها الاجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية اذ معلوماته لانهاية لها ومعلومات الخلق متناهية (واما صفة القدرة) فهي أيضا كمال والعجز نقص فكل كمال و بهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وادراكه لذيذ حتى ان الانسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله تعالى عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الاقران فيصادف في قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة و يورث ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف به فانه نوع كمال فانسب الآن قدرة الخلق كلهم الى قدرة الله تعالى فاعظم الاشخاص قوة وأوسعهم ملكا واقواهم بطشا وأقهرهم للشهوات واقمعهم لخبائث النفس واجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته وانما غايته ان يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض اشخاص الانس في بعض الامور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس واذنه من الصمم و بدنه من المرض ولا يحتاج الى عد ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وافلاكها وكواكبها والارض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسها و بنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق اسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضا على اعظم ملك واقوى شخص من الحيوانات لاهلكه فليس للعبد قدرة الا بتمكين مولاه كما قال في اعظم ملوك الارض ذي القرنين اذ قال انا مكناله في الارض فلم يكن جميع ملكه وسلطنته الا بتمكين الله تعالى اياه في جزء من الارض والارض كلها مدرة بالاضافة الى اجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الارض غبرة من تلك المدرة ثم تلك الغبرة ايضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل ان يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فهو الجبار

اعتبرت المقامات والاحوال وغيرها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الايمان وعقوده وشروطه فصارت مع الايمان أربعة ثم رأيتها في افادة الولادة المعنوية الحقيقة بمثابة الطبائع الاربع التي جعلها الله تعالى باجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الاربع يلج ملكوت السموات و يكاشف بالقدر والآيات و بصيرله ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات ويحظى بجميع الاحوال والمقامات فكلها من هذه الاربع ظهرت وبها تهيأت وتأكدت فاحد الثلاث بعد الايمان التوبة النصوح والثاني

القاهر والعليم القادر السموات مطويات بيمينه والارض وملكها وماعليها فى قبضته وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته ان اهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وان خلق أمثالهم الف مرة لم يعى بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور فى اختراعها فلاقدرة ولا قادر الا وهو اثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فان كان يتصور ان يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا (وأما) صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو احد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة والانبياء والصديقون وان كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه الا للواحد الحق الملك القدوس ذى الجلال والاكرام واما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال الا بقدر ما أعطاه الله وليس فى المقدور ان ينعم بمنتهى الكمال على غيره فان منتهى الكمال اقل درجاته ان لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال فى حق غيره فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب وشرح وجوده التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول وهو من اسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره فهذا الوصف أيضا ان كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته الا له وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة الى ماهو أشد منه نقصانا كما ان للفرس كمالا بالاضافة الى الحمار وللانسان كمالا بالاضافة الى الفرس واصل النقص شامل للكل وانما يتفاوتون فى درجات النقصان فاذا الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ند له الفرد الذى لا ضد له الصمد الذى لا منازع له الغنى الذى لا حاجة له القادر الذى يفعل مايشاء و يحكم مايريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والارض القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته اعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته و بطشه رقاب القياصرة الازلى الذى لا اول لوجوده الابدي الذى لا آخر لبقائه الضرورى الوجود الذى لا يحوم امكان العدم حول حضرته القيوم الذى يقوم بنفسه و يقوم كل موجود به جبار السموات والارض خالق الجماد والحيوان والنبات المنفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول وتخرس فى وصفه الالسنة الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الانبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الانبياء صلوات الله عليه وعليهم اجمعين (١) لا احصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه العجز عن درك الادراك ادراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته فليت شعرى من ينكر امكان حب الله تعالى تحقيقا و يجعله مجازا اينكر ان هذه الاوصاف من اوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن او ينكر كون الله تعالى موصوفا بها او ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من ادركه فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله ان يطلع عليه الا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون فالحب بهذا السبب اقوى من الحب بالاحسان لان الاحسان يزيد و ينقص ولذلك اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ان اود الاوداء الى من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها وفى الزبور من اظلم ممن عبدنى لجنة اونار لولم اخلق جنة ولا نارا ألم أكن اهلا ان اطاع ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حباله وتعظيما لجلاله فقال انتم اولياء الله حقا معكم امرت أن اقيم وقال ابو حازم انى لاستحيى أن اعبده للثواب والعقاب فاكون كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل وكالاجير

(١) حديث لا احصى ثناء عليك كما انت اثنيت على نفسك تقدم

الزهد فى الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الاعمال القلبية والقالبيه من غير فتور وقصور ثم يستمان على اتمام هذه الاربعة باربعة اخرى بها تمامها وقوامها وهى قلة الكلام وقلة الطعام وقلة المنام والاعتزال عن الناس واتفق العلماء الزهدون والمشايخ على ان هذه الاربع بها تستقر المقامات وتستقيم الاحوال وبها صار الابدال ابدالا بتاييد الله تعالى وحسن توفيقه ونبين بالبيان الواضح ان سائر المقامات تندرج فى صحة هذه ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها واولها بعد الايمان

السوء ان لم يعط لم يعمل وفى الخبر(١) لا يكونن أحدكم كالاجير السوء ان لم يعط أجرا لم يعمل ولا كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل (واما) السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لان شبه الشيء منجذب اليه والشكل الى الشكل اميل ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه وانس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من انسه بالفلاح وهذا امر تشهد به التجربة وتشهد له الاخبار والآثار كما استقصيناه في باب الاخوة في الله من كتاب اداب الصحبة فليطلب منه واذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال او طمع في مال او غيره كما اشار اليه النبي صلى الله عليه وسلم اذ قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف فالتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب ايضا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع الى المشابهة في الصور والاشكال بل الى معان باطنة يجوز ان يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق اذا استكملوا شرط السلوك فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي امر فيها بالاقتداء والتخلق باخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا باخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الالهية من العلم والبر والاحسان واللطف وافاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وارشادهم الى الحق ومنعهم من الباطل الى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب الى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات واما ما لا يجوز ان يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومىء اليها قوله تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربي اذ بين انه امر رباني خارج عن حد عقول الخلق واوضح من ذلك قوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحي ولذلك اسجد له ملائكته ويشير اليه قوله تعالى انا جعلناك خليفة في الارض اذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى الا بتلك المناسبة واليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم (٢) ان الله خلق ادم على صورته حتى ظن القاصرون ان لا صورة الا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا واليه الاشارة (٣) بقوله تعالى لموسى عليه السلام مرضت فلم تعدني فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده وهذه المناسبة لا تظهر الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض كما قال الله تعالى (٤) لا يزال يتقرب العبد الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه الى قاصرين مالوا الى التشبيه الظاهر والى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة الى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الاله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الاقلون ولعل ابا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر اذ غلبه الوجد في قول القائل

لازلت أنزل من ودادك منزلا * تتحير الالباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على اجمة قد قطع قصبها وبقي اصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك وهذا هو اعظم اسباب الحب واقواها وهو اعزها وابعدها واقلها وجودا فهذه هي المعلومة من اسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وهو اعلى الدرجات لا في ادناها فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر

---

(١) حديث لا يكونن احدكم كالاجير السوء ان لم يعط اجرا لم يعمل لم اجد له اصلا (٢) حديث ان الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدني فقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد الي بالنوافل حتى احبه الحديث البخاري من حديث ابي هريرة وقد تقدم

التوبة وهي في مبدأ صحتها تفتقر الى أحوال واذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ولابد في ابتدائها من وجود زاجر ووجدان الزاجر حال لانه موهبة من الله تعالى على ما تقرر ان الاحوال مواهب حال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها قال رجل لبشر الحافي مالي أراك مهموما قال لاني ضال ومطلوب ضللت الطريق والمقصد وأنا مطلوب به ولو تبينت كيف الطريق الى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص الا أن أزجر فانزجر وقال الاسمعي رأيت اعرابيا بالبصرة يشتكي عينيه وهما يسيل منهما

حب الله تعالى فقط كما ان المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصور ان يحب غيره لمشاركته اياه فى السبب والشركة نقصان فى الحب وغض من كماله ولا ينفرد احد بوصف محبوب الا وقد يوجد له شريك فيه فان لم يوجد فيمكن ان يوجد الا الله تعالى فانه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ولا شريك له فى ذلك وجودا ولا يتصور ان يكون ذلك امكانا فلا جرم لا يكون فى حبه شركة فلا يتطرق النقصان الى حبه كما لا تتطرق الشركة الى صفاته فهو المستحق اذا لاصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا

﴿ بيان ان أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم وانه لا يتصور أن يوثر عليها لذة أخرى الا من حرم هذه اللذة ﴾

اعلم ان اللذات تابعة للادراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها المقتضى طبعها الذى خلقت له فان هذه الغرائز ما ركبت فى الانسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لامر من الامور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الابصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالاضافة الى مدركاتها فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الالهى لقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالاسامى فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن ان الاختلاف واقع فى المعانى لان الضعيف يطلب المعانى من الالفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر اجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة كادراكه خلق العالم او افتقاره الى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات الهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط ان لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية والا فالصفة التى فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغى ان تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الامور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها كما ان مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى ان فى العلم والمعرفة لذة حتى ان الذى ينسب الى العلم والمعرفة ولو فى شىء خسيس يفرح به والذى ينسب الى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم به وحتى ان الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الاشياء الحقيرة فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا تطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع اذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير امر الخلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى ان الذى يعلم بواطن احوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وان جهله تقاضاه طبعه ان يفحص عنه فان علم بواطن احوال رئيس البلد واسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك ألذ عنده واطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فان اطلع على اسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه فى امور الوزارة فهو اشهى عنده والذ من علمه باسرار الرئيس فان كان خبيرا بباطن احوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن اسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد واحبه له أكثر لان لذته فيه اعظم فبهذا استبان ان ألذ المعارف اشرفها وشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان فى المعلومات ما هو الاجل والاكمل والاشرف والاعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة واشرفها واطيبها وليت شعرى هل فى الوجود شىء أجل وأعلى واشرف

السماء فقلت له ألا تمسح عينيك فقال لا لان لطبيب زجرنى ولا خير فيمن لا ينزجر فالزاجر فى الباطن حال يهبها الله تعالى ولا بد من وجودها للتائب ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه قال بعضهم من لزم مطالعة الطوارق انتبه (وقال) أبو يزيد علامة الانتباه خمس اذا ذكر نفسه افتقر واذا ذكر ذنبه استغفر واذا ذكر الدنيا اعتبر واذا ذكر الآخرة استبشر واذا ذكر المولى اقشعر (وقال) بعضهم الانتباه أوائل دلالات الخير اذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه الى التيقظ فاذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد

وأكمل واعظم من خالق الاشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط ببدى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الامور الالهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين ان العلم لذيذ وان ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وافعاله وتدبيره فى مملكته من منتهى عرشه الى تخوم الارضين فينبغى أن يعلم ان لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع أولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهى مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر الى مادونه فى الجمال وانما تعرف اقوى اللذات بان تكون مؤثرة على غيرها فان المخير بين النظر الى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة اذا اختار النظر الى الصورة الجميلة علم انها ألذ عنده من الروائح الطيبة وكذلك اذا حضر الطعام وقت الاكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الاكل فيعلم به ان لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الاكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول اللذات تنقسم الى ظاهرة كلذة الحواس الخمس والى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها اذليست هذه اللذة للعين ولا للانف ولا للاذن ولا للمس ولا للذوق والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الاعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة وان كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر الى أسرار الامور الالهية ألذ من الرياسة التى هى اعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وانه أعد لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه الا من ذاق اللذتين جميعا فانه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس فى بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا بالموت الذى لا بد من اتيانه مهما أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالاضافة اليها لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين الى أسفل السافلين فانها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وانما عرضها من حيث التقدير السموات والارض واذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والارض يرتع فى رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها اذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هى أبدية سرمدية لا يقطعها الموت اذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذى هو أمر ربانى سماوى وانما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فاما أن يعدمها فلا ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الآية ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة فان للعارف بكل نفس درجة ألف

فيطلب واذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع الى باب توبته ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ (قال) فارس أوفى الاحوال التيقظ والاعتبار (وقيل) التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة (وقيل) اذا صحت اليقظة كان صاحبها فى أوائل طريق التوبة (وقيل) اليقظة خردة من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلهم على طلب التوبة فاذا تمت يقظته نقل بذلك الى مقام التوبة فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة ثم التوبة فى استقامتها تحتاج الى المحاسبة ولا تستقيم التوبة الا بالمحاسبة (نقل) عن أمير

شهيد وفى الخبر(١) ان الشهيد يتمنى فى الاخرة ان يرد الى الدنيا فيقتل مرة اخرى لعظم مايراه من ثواب الشهادة وان الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء فاذا جميع اقطار ملكوت السموات والارض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة الى أن يتحرك اليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والارض وكل عارف فله مثلها من غير ان يضيق بعضهم على بعض اصلا الا انهم يتفاوتون فى سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر ان لذة الرياسة وهى باطنة أقوى فى ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وان هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه وان لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فاما معنى كون معرفة الله وصفاته وافعاله وملكوت سمواته واسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن اثبات ذلك عند من لا قلب له لان القلب معدن هذه القوة كما انه لا يمكن اثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لانه فقد الصفة التى بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى الا ان يقال من ذاق عرف ولعمرى طلاب العلوم وان لم يشتغلوا بطلب معرفة الامور الالهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التى قوى حرصهم على طلبها فانها أيضا معارف وعلوم وان كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الالهية فاما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشىء اليسير فانه يصادف فى قلبه عند حصول الكشف من الفرح مايكاد يطير به و يتعجب من نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك الا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا القدر ينبهك على ان معرفة الله سبحانه ألذ الاشياء وانه لا لذة فوقها ولهذا قال ابو سليمان الدارانى ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض اخوان معروف الكرخى له اخبرنى يا أبا محفوظ أى شىء هاجك الى العبادة والانقطاع عن الخلق فسكت فقال ذكر الموت فقال واى شىء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأى شىء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال واى شىء هذا ان ملكا هذا كله بيده ان احببته انساك جميع ذلك وان كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا وفى اخبار عيسى عليه السلام اذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث فى النوم فقال ما فعل ابو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدى الله تعالى يا كلان و يشربان قلت فانت قال علم الله قلة رغبتى فى الاكل والشرب فاعطانى النظر اليه وعن على بن الموفق قال رأيت فى النوم كانى ادخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا و يرد بعضا قال ثم جاوزتهما الى حظيرة القدس فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر الى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخى عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته بل حبا له فاباحه النظر اليه الى يوم القيامة وذكر ان الآخرين بشر بن الحرث واحمد بن حنبل ولذلك قال ابو سليمان من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه وقال الثورى لرابعة ماحقيقة ايمانك قالت ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فاكون كالاجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا اليه وقالت فى معنى المحبة نظما

احبك حبين حب الهوى * وحبا لانك اهل لذاكا * فاما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا * وأما الذى أنت اهل له * فكشفك لى الحجب حتى اراكا

(١) حديث ان الشهيد يتمنى ان يرد فى الاخرة الى الدنيا ليقتل مرة اخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس

المؤمنين على رضى الله عنه انه قال حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الاكبر على الله يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فالمحاسبة بحفظ الانفاس وضبط الحواس ورعاية الاوقات وايثار المهمات ويعلم العبد ان الله تعالى اوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه كى لا يستعبده الهوى وتسترقه الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس الى مواطن العبودية لاداء حق الربوبية ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى * ولكن اك الحمد فى ذا وذا كا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة و بحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ولذلك قال بعضهم انى أقول يارب يا الله فاجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لان النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادى جليسه قال اذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أى يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون مايقوله جنونا أو كفرا فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهى قرة العين التى لاتعلم نفس ماأخفى لهم منها واذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه و بلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية وليت شعرى من لم يفهم الاحب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأى معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره انه أعظم النعم بل من عرف الله عرف ان اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قاله بعضهم

كانت لقلبي اهواء مفرقة * فاستجمعت مذراتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده * وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم * شغلا بذكرك يادينى ودنيائى

ولذلك قال بعضهم

وهجره اعظم من ناره * ووصله اطيب من جنته

وماارادوا بهذا الا ايثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذة الاكل والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس فاما القلب فلذته فى لقاء الله فقط ومثال اطوار الخلق فى لذاته ماتذكره وهو ان الصبى فى اول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده الذ من سائر الاشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ماقبلها فى الوصول اليها ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ماقبلها فكل متاخر فهو أقوى وهذا هو الاخير اذ يظهر حب اللعب فى سن التمييز وحب النساء والزينة فى سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الاربعين وهى الغاية العليا وكما أن الصبى يضحك على من يترك اللعب و يشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة و يشتغل بمعرفة الله تعالى والعارفون يقولون ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

﴿بيان السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا﴾

اعلم أن المدركات تنقسم الى مايدخل فى الخيال كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات والى مالا يدخل فى الخيال كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ومن رأى انسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كانه ينظر اليها ولكن اذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لان الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وانما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا وهو كشخص يرى فى وقت الاسفار وقبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لاتفارق احدى الحالتين الاخرى الا فى مزيد

وقد تقدم وليس فيه وان الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء الحديث (١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا

صلاة الى صلاة أخرى ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ولا يدخل فى الصلاة الا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لان كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكت فى القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة والمتفقد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح ويحقق مقام المحاسبة فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته الى الصلاة الاخرى فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته ووقته منور معمورا بنور صلاته وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات فى قرطاس ويدع بين كل صلاتين

الانكشاف فاذا الخيال اول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمي ذلك رؤية لانه غاية الكشف لا لانه في العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المكشوف في الجبهة او الصدر مثلا استحق ان يسمى رؤية واذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم ان المعلومات التي لا تتشكل أيضا في الخيال لمعرفتها وادراكها درجتان احداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الاولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي فيسمى الثاني أيضا بالاضافة الى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق لان الرؤية سميت رؤية لانها غاية الكشف وكما ان سنة الله تعالى جارية بان تطبيق الاجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئي ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ومالم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى ان النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتهي الى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الاجفان عن رؤية الابصار والقول في سبب كونها حجابا يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام لن تراني وقال تعالى لا تدركه الابصار اي في الدنيا والصحيح (١) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وان كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الاصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد نعوذ بالله من ذلك ومنها مالم ينته الى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة الى التزكية واقلها لحظة خفيفة (٢) واقصاها في حق المؤمنين كما ورد به الاخبار سبعة الآف سنة ولن ترحل نفس عن هذا العالم الا ويصحبها غبرة وكدورة وان قلت ولذلك قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا اكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه احدا من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لان فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى علمه كانكشاف تجلي المرآة بالاضافة الى ما تخيله وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية فاذا الرؤية حق بشرط ان لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الارباب علوا كبيرا بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا

عن ربه تعالى اعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة (١) حديث انه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة في الصحيحين انها قالت ومن حدثك ان محمدا رأى ربه فقد كذب ولمسلم من حديث ابي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور اني اراه وذهب ابن عباس واكثر العلماء الى اثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وحديث ابي ذر قال فيه أحمد مازلت له منكرا وقال ابن خزيمة في القلب من صحة اسناده شيء مع ان في رواية لاحمد في حديث ابي ذر رأيته نورا اني اراه ورجال اسناده رجال الصحيح (٢) حديث ان اقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة الآف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من حديث ابي هريرة انما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من امتي الحديث وفيه واطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم

ياضا او كلاما رتكب خطيئة من كلمة غيبة او امر آخر خط خطا وكلما تكلم او تحرك فيما لا يعنيه نقط نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه لتضييق المحاسبة مجاري الشيطان والنفس الامارة بالسوء لموضع صدقه في حسن الافتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة (قال) الجنيد من حسنت رعايته دامت ولايته * وسئل الواسطي اى الاعمال افضل قال مراعاة السر والمحاسبة في الظاهر والمراقبة في الباطن ويكمل احدهما بالاخرة وبهما تستقيم التوبة والمراقبـــــة

اختلاف الامر من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية فاذا لم يكن فى معرفة الله تعالى اثبات صورة وجهة فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح الى غاية الكشف ايضا جهة وصورة لانها هى بعينها لا تفترق منها الا فى زيادة الكشف كما ان الصورة المرئية هى المتخيلة بعينها الا فى زيادة الكشف واليه الاشارة بقوله تعالى يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا اذ تمام النور لا يؤثر الا فى زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية الا العارفون فى الدنيا لان المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعا ومن لا نواة فى أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى ايضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلى بالاضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة الى اختلاف البذر اذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام (٢) ان الله يتجلى للناس عامة ولابى بكر خاصة فلا ينبغى أن يظن ان غير أبى بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده ابو بكر بل لا يجد الا عشر عشيره ان كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره ولما فضل الناس بسر وقر فى صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به وكما انك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والارض وسائر الامور الالهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا فكذلك يكون فى الاخرة قوم يؤثرون لذة النظر الى وجه الله تعالى على نعيم الجنة اذ يرجع نعيمها الى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ما وصفناه من ايثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على اسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين فى الجنة فقالت الجار ثم الدار فبينت انه ليس فى قلبها التفات الى الجنة بل الى رب الجنة وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الاخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الاخرة اذ ليس يستأنف لاحد فى الاخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد احد الا ما زرع ولا يحشر المرء الا على ما مات عليه ولا يموت الا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط الا انه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فان ذلك منتهى لذته وانما طيبة الجنة ان لكل احد فيها ما يشتهى فمن لا يشتهى الا لقاء الله تعالى فلا لذة له فى غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالايمان فان قلت فلذة الرؤية ان كان لها نسبة الى لذة المعرفة فهى قليلة وان كان اضعافها لان لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة فتضاعفها الى حد قريب لا ينتهى فى القوة الى ان يستحقر سائر لذات الجنة فيها فاعلم ان هذا الاستحقار للذة المعرفة صادر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وان انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليها الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها اصلا الى لذة اللقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة الشهية الى ذوقها ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع واظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن الا بضرب مثال فنقول لذة النظر الى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت باسباب احدها كمال جمال المعشوق ونقصانه فان اللذة فى النظر الى الاجمل أكمل لا محالة والثانى كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت

خلقت الى يوم القيامة وذلك سبعة الاف سنة واسناده ضعيف (١) حديث ان الله يتجلى للناس عامة ولابى بكر خاصة ابن عدى من حديث جابر وقال باطل بهذا الاسناد وفى الميزان للذهبى ان الدارقطنى رواه عن المحاملى عن على ابن عبدة وقال الدارقطنى ان على بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن الجوزى

والرعاية حالان شريفان ويصيران مقامين شريفين يصحان بصحة مقام التوبة وتستقيم التوبة على الكمال بهما فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة (اخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابن خلف أبى بكر الشيرازى قال سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت الحسن الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول أمرنا هذا مبنى على فصلين وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ويكون العلم على ظاهرك قائما (وقال) المرتعش المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق فى كل لحظة ولفظة قال الله تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما

شهوته وحبه والثالث كمال الادراك فليس التذاذه برؤية المعشوق فى ظلمة أومن وراءستر رقيق اومن بعد كالتذاذه بادراكه على قرب من غيرستر وعندكمال الضوء ولا ادراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كادراكها مع التجرد والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور اوالمريض المتالم او المشغول قلبه بمهم من المهمات فقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر الى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه فهو فى هذه الحالة لايخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه فلوطرأت على الفجاة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات و بقى سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ اقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للاولى اليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر الى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الانسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس فى الدنيا ونقصانها عن الشوق الى الملأ الاعلى والتفاتها الى اسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته الى اللعب بالعصفور والعارف وان قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور ان يخلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الاحوال ولا تدوم فلاجرم يلوح من جمال المعرفة مايبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم بل يعرض من الشواغل والافكار والخواطر مايشوشه وينغصه وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية فلاتزال هذه اللذة منغصة الى الموت وانما الحياة الطيبة بعد الموت وانما العيش عيش الآخرة وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون وكل من انتهى الى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ولا يكرهه الا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة فان المعرفة كالبذر و بحر المعرفة لاساحل له فالاحاطة بكنه جلال الله محال فكلما كثرت المعرفة بالله و بصفاته وأفعاله و باسرار مملكته وقويت كثر النعيم فى الآخرة وعظم كما انه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر الا فى الدنيا ولا يزرع الا فى صعيد القلب ولا حصاد الا فى الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) افضل السعادات طول العمر فى طاعة الله لان المعرفة انما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب و يستدعى ذلك زمانا لامحالة فمن احب الموت احبه لانه راى نفسه واقفا فى المعرفة بالغا الى منتهى مايسر له ومن كره الموت كرهه لانه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لوعمر فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند اهل المعرفة وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ان اتسعت أحبوا البقاء وان ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فان المحبة المفرطة القوية ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ومعنى كونها الذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وان لم تكن كذلك عند ذوى النقصان كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب اوالعين فى الآخرة فاعلم ان الناس قد اختلفوا فى ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون

في الموضوعات من حديث جابر وابن بردة وعائشة (١) حديث افضل السعادات طول العمر فى طاعة الله ابراهيم الحربى فى كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن ابيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر فى طاعة الله والد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف فى صحبته ولاحمد من حديث جابر ان من سعادة المرء ان يطول عمره و يرزقه الله الانابة والترمذي من حديث ابى بكرة ان رجلا قال يارسول الله اى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم

كسبت وهذا هو علم القيام و بذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والنقصان وهو ان يعلم معيار حاله فيما بينه و بين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لان الخواطر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الاعمال لان الخواطر تحقق ارادة القلب والقلب امير الجوارح ولا تتحرك الا بتحرك القلب بالارادة و بالمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التوبة لان من حصر الخواطر كفى مؤنة الجوارح لان بالمراقبة اصطلام عروق ارادة المكاره من القلب و بالمحاسبة استدراك

الى هذا الخلاف ولاينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المقبلة ومن يشتهى رؤية معشوقة يشغله عشقه عن ان يلتفت الى ان رؤيته تخلق فى عينه أوفى جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أوغيرها فان العين محل وظرف لانظر اليه ولا حكم له والحق فيه ان القدرة الازلية واسعة فلا يجوز ان نحكم عليها بالقصور عن احد الامرين هذا فى حكم الجواز فاما الواقع فى الآخرة من الجائزين فلا يدرك الا بالسمع والحق ماظهر لاهل السنة والجماعة من شواهد الشرع ان ذلك يخلق فى العين (١) ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الالفاظ الواردة فى الشرع مجرى على ظاهره اذ لايجوز ازالة الظواهر الالضرورة والله تعالى اعلم

﴿ بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى ﴾

اعلم ان أسعد الخلق حالا فى الآخرة اقواهم حبا لله تعالى فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما اعظم نعيم المحب اذا قدم فى محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع الا ان هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وانما يكتسب العبد حب الله تعالى فى الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لانه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى الى الاستهتار الذى يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الاكثرون وانما يحصل ذلك بسببين أحدهما قطع علائق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الاناء الذى لايتسع للخل مثلا مالم يخرج منه الماء وماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وكمال الحب فى ان يحب الله عز وجل بكل قلبه ومادام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر مايشغل بغير الله ينتقص منه حب الله وبقدر مايبقى من الماء فى الاناء ينقص من الخل المصبوب فيه والى هذا التفريد والتجريد الاشارة بقوله تعالى قل الله ثم ذرهم فى خوضهم و بقوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا بل هو معنى قولك لا اله الا الله أى لامعبود ولامحبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به وكل محب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه وقال صلى الله عليه وسلم ابغض اله عبد فى الارض الهوى ولذلك قال عليه السلام (٢) من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة ومعنى الاخلاص ان يخلص قلبه لله فلايبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لانها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له الا محبوب واحد وقد طال اليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالامن ابد الآباد فاحد اسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الاهل والمال والولد والاقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى ان المتفرج بطيب اصوات الطيور وروح نسيم الاسحار ملتفت الى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص انسه بالله ولا يؤتى احد من الدنيا شيأ الا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما انه لايقرب الانسان من المشرق الا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امرأته الا ويضيق به قلب ضرتها فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا اوضح من الابصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد اليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هى مقدمات ليكتسب بها احد ركنى المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله واوله الايمان بالله واليوم الآخرة والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء و يتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك الى الزهد فى الدنيا وفى المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله

(١) حديث رؤية الله فى الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث ابى هريرة ان الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة تقدم

ما انفلت من المراقبة (اخبرنا) أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمى قال سمعت أبا عثمان المغربى يقول أفضل مايلزم الانسان فى هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم واذا صحت التوبة صحت الانابة قال ابراهيم بن أدهم اذا صدق العبد فى توبته صار منيبا لان الانابة ثانى درجة التوبة (وقال) أبوسعيد القرشى المنيب الراجع عن كل شىء يشغله عن الله الى الله وقال بعضهم الانابة الرجوع منه اليه لامن شىء غيره فمن رجع من غيره اليه ضيع احد طرفى الانابة والمنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع اليه

وجبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو احد ركني المحبة واليه الاشارة بقوله عليه السلام (١) الطهور شطر الايمان كما ذكرناه في اول كتاب الطهارة * السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى وضع البذر في الارض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء واليها الاشارة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب اى المعرفة والعمل الصالح يرفعه فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم وانما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولا من الدنيا ثم ادامة طهارته فلا يراد العمل الا لهذه المعرفة واما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الاول وهو الاخر وانما الاول علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة كما ان من كان معتدل المزاج اذا ابصر الجميل وادركه بالعين الظاهرة احبه ومال اليه ومهما احبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل الى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب الا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون الى هذه الرتبة ينقسمون الى الاقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره والى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل والى الاول الاشارة بقوله تعالى اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد وبقوله تعالى شهد الله انه لا اله الا هو ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي والى الثاني الاشارة بقوله تعالى سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق الاية وبقوله عزوجل اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وبقوله تعالى قل انظروا ماذا في السموات والارض وبقوله تعالى الذي خلق سبع سموات طباقا ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير وهذا الطريق هو الاسهل عن الاكثرين وهو الاوسع على السالكين واليه أكثر دعوة القرآن عند الامر بالتدبير والتفكر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر فان قلت كلا الطريقين مشكل فاوضح لنا منهما مايستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به الى المحبة فاعلم ان الطريق الاعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في ايراده في الكتب واما الطريق الاسهل الادنى فاكثره غير خارج عن حد الافهام وانما قصرت الافهام عنه لاعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية اذ ما من ذرة من اعلى السموات الى تخوم الارضين الا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى بل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة ولا يمكن ان يتطفل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرمز الى مثال واحد على الايجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول اسهل الطريقين النظر الى الافعال فلنتكلم فيها ولنترك الاعلى ثم الافعال الالهية كثيرة فلنطلب اقلها واحقرها واصغرها ولننظر في عجائبها فاقل المخلوقات هو الارض وماعليها أعني بالاضافة الى الملائكة وملكوت السموات فانك ان نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ماترى من صغر حجمها هي مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة فانظر الى صغر الارض بالاضافة اليها ثم انظر الى صغر الشمس بالاضافة الى فلكها الذي هي مركوزة فيه فانه لا نسبة لها اليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالاضافة الى ما فوقها من السموات السبع

(١) حديث الطهور شطر الايمان مسلم من حديث أبي مالك الاشعري وقد تقدم

من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شبحا لا وصف له قائما بين يدى الحق مستغرقا فى عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الافعال والمجاهدة تتحقق بتحقيق الرعاية والمراقبة *قال أبو سليمان ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبه (وقال) ابو عبد الله السجزي من استحسن شيا من احواله فى حال ارادته فسدت عليه ارادته الا ان يرجع الى ابتدائه فيروض نفسه ثانيا ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فما له وعليه لايبلغ مبلغ الرجال ورؤية عيوب الافعال من ضرورة صحة الانابة وهو فى تحقيق مقام

ثم السموات السبع فى الكرسي كحلقة فى فلاة والكرسى فى العرش كذلك فهذا نظر الى ظاهر الاشخاص من حيث المقادير وما احقر الارض كلها بالاضافة اليها بل ما اصغر الارض بالاضافة الى البحار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم ان المكشوف من الارض عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة الى كل الارض ثم انظر الى الآدمى المخلوق من التراب الذى هو جزء من الارض والى سائر الحيوانات والى صغره بالاضافة الى الارض ودع عنك جميع ذلك فاصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجرى مجراه فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره وتامله بعقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو اعظم الحيوانات اذ خلق له خرطوما مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الاعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم اعضاءه الظاهرة فانبت جناحه واخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر فى باطنه من اعضاء الغذاء وآلاته ما دبره فى سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب فى سائر الحيوانات هذا فى شكله وصفاته ثم انظر الى هدايته كيف هداه الله تعالى الى غذائه وعرفه ان غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف انبت له آلة الطيران الى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس وكيف هداه الى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه فى واحد منها ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم وكيف علمه المص والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهى الى باطنه وينتشر فى سائر اجزائه ويغذيه ثم كيف عرفه ان الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلاته وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف حركة اليد وهى بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ثم اذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر الى ان حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الاجفان لصغره وكانت الاجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر الى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه وأما الانسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الاجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميه الى أطراف الاهداب وخلق الاهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الابصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الاهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الابصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ولاجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لان بصرها ضعيف فهى تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن انه فى بيت مظلم وان السراج كوة من البيت المظلم الى الموضع المضىء فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه اليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن انه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود اليه مرة اخرى الى ان يحترق ولعلك تظن ان هذا لنقصانها وجهلها فاعلم ان جهل الانسان اعظم من جهلها بل صورة الآدمى فى الاكباب على شهوات الدنيا صورة الفراش فى التهافت على النار اذ تلوح للآدمى انوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدرى ان تحتها السم الناقع القاتل فلا يزال يرمى نفسه عليها الى ان ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الآدمى كجهل الفراش فانها باغترارها بظاهر الضوء ان احترقت تخلصت فى الحال والآدمى يبقى فى النار ابد الآباد او مدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول (٢) انى ممسك بحجزكم عن النار وانتم تتهافتون فيها تهافت الفراش فهذه

(١) حديث الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض لم أجد له أصلا (٢) حديث انى ممسك بحجزكم عن النار وانتم تهافتون فيها تهافت الفراش متفق عليه من حديث ابى هريرة مثلى ومثل امتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فانا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقتصر البخارى على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم وانتم تفلتون من يدى

التوبة ولا تستقيم التوبة الا بصدق المجاهدة ولا يصدق العبد فى المجاهدة الا بوجود الصبر (وروى) فضالة ابن عبيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المجاهد من جاهد نفسه ولا يتم ذلك الا بالصبر وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه وصدق المراقبة له بالقلب وحسم مواد الخواطر والصبر ينقسم الى فرض وفضل فالفضل كالصبر على أداء المفترضات والصبر عن المحرمات ومن الصبر الذى هو فضل الصبر على الفقر والصبر عند الصدمة الاولى وكتمان المصائب والاوجاع وترك الشكوى والصبر على اخفاء الفقر والصبر على كتم المنح

لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى فى أصغر الحيوانات وفيها من العجائب مالواجتمع الاولون والآخرون على الاحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على امور جلية من ظاهر صورته فاما خفايا معانى ذلك فلا يطلع عليها الا الله تعالى ثم فى كل حيوان ونبات أعجوبة واعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر الى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل احدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تاملت عجائب امرها فى تناولها الازهار والانوار واحترازها عن النجاسات والاقذار وطاعتها لواحد من جملتها هو اكبرها شخصا وهو أميرها ثم سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب ان كنت بصيرا فى نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك وموالاة اخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر الى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال الشكل المسدس فلا تبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا لخاصية فى الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو ان اوسع الاشكال واحواها المستديرة وما يقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل فى الاشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة الا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف الهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج اليه ليتهنا بعيشه فسبحانه ما أعظم شانه واوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الارض والسموات فان القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الاعمار دون ايضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا الى ما احاط به العلماء والانبياء ولا نسبة لما احاط به علم الخلائق كلهم الى ما استأثر الله تعالى بعلمه بل كل ما عرفه الله لا يستحق ان يسمى علما فى جنب علم الله تعالى فبالنظر فى هذا وامثاله تزداد المعرفة الحاصلة باسهل الطريقين وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فان كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له

﴿ بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب ﴾

اعلم ان المؤمنين مشتركون فى اصل الحب لاشتراكهم فى اصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا اذ الاشياء انما تتفاوت بتفاوت اسبابها واكثر الناس ليس لهم من الله تعالى الا الصفات والاسماء التى قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الارباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها ايمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من اصحاب اليمين والمتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقربون وقد ذكر الله حال الاصناف الثلاثة فى قوله تعالى فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم الآية فان كنت لا تفهم الامور الا بالامثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول اصحاب الشافعى مثلا يشتركون فى حب الشافعى رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لانهم مشتركون فى معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامى يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقيه به أتم واعجابه به وحبه له أشد فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال اليه قلبه فان رأى تصنيفا آخر احسن منه واعجب تضاعف لا محالة حبه لانه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر انه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامى قد يسمع ان فلانا مصنف وانه حسن التصنيف ولكن لا يدرى ما فى التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير اذا فتش عن التصانيف

واطلع

والكرامات ورؤية العبر والآيات ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة وكثير من الناس من يقوم بهذه الاقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر فاذا حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة والصبر من اعز مقامات الموقنين وهو داخل فى حقيقة التوبة (قال بعض العلماء) أى شىء افضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعا وما ذكر شيأ بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه ومن الصبر الصبر على النعمة وهو أن لا يصرفها فى

واطلع على مافيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة لان عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامي يعلم ذلك و يعتقده وأما البصير فانه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه مايبهر به عقله و يتحير فيه لبه و يزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حبا و بحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لا حصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الاسباب الخمسة التى ذكرناها للحب فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا اليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته اذ تتغير بتغير الاحسان فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء وأما من يحبه لذاته ولانه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

﴿ بيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه ﴾

*اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها الى الافهام وأسهلها على العقول وترى الامر بالضد من ذلك فلابد من بيان السبب فيه وانما قلنا انه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه الا بمثال وهو انا اذا رأينا انسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته وارادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة اذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها و بعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أما حياته وقدرته وارادته وعلمه وكونه حيوانا فانه أجلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وارادته فان هذه الصفات لا تحس بشىء من الحواس الخمس ثم لا يمكن ان نعرف حياته وقدرته وارادته الا بخياطته وحركته فلو نظرنا الى كل مافى العالم سواه لم نعرف به صفته فما عليه الا دليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وارض وكوكب و بر و بحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه انفسنا واجسامنا واوصافنا وتقلب احوالنا وتغير قلوبنا وجميع اطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا وأظهر الاشياء فى علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع مافى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها فان كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها الا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا مالا يتصور فى الوجود شىء داخل نفوسنا وخارجها الا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله اذ كل ذرة فانها تنادى بلسان حالها انه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وانها تحتاج الى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل اطرافنا وسائر اجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم انها لم تأتلف بانفسها كما نعلم ان يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق فى الوجود شىء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب الا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن ادراكه فان ماتقصر عن فهمه عقولنا فله سببان * احدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله * والآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما ان الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا اشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع ابصاره فلا يرى شيئا الا اذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية فى نهاية الاشراق

معصية الله تعالى وهذا أيضا داخل فى صحة التوبة *وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء (وروى) عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصبرنا و بلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد فى الرضا والغضب والصبر عن محمدة الناس والصبر على الخمول والتواضع والذل داخل فى الزهد وان لم يكن داخلا فى التوبة وكل مافات من مقام التوبة من المقامات السنية والاحوال وجد فى الزهد وهو ثالث الاربعة التى ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمانينة النفس وطمانينتها من تزكيتها وتزكيتها

والاستنارة وفى غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والارض فصار ظهوره سبب خفائه سبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والابصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الاشياء تستبان باضدادها وما عم وجوده حتى انه لا ضد له عسر ادراكه فلو اختلفت الاشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس المشرق على الارض فانا نعلم أنه عرض من الاعراض يحدث فى الارض و يزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة فى الاجسام الا ألوانها وهى السواد والبياض وغيرهما فانا لا نشاهد فى الاسود الا السواد وفى الابيض الا البياض فاما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا أن الاجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه الا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور هذا مع أن النور اظهر المحسوسات اذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر فى نفسه وهو يظهر لغيره انظر كيف تصور استبهام امره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فالله تعالى هو اظهر الامور و به ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم او غيبة او تغير لانهدت السموات والارض و بطل الملك والملكوت ولادرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الاشياء موجوداً به و بعضها موجودا بغيره لادركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ولكن دلالته عامة فى الاشياء على نسق واحد ووجوده فى الاحوال يستحيل خلافه فلا جرم اورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب فى قصور الافهام واما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فانه فى حال اعتدال امره لا يرى الا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم انه ليس فى الوجود الا الله وافعاله أثر من آثار قدرته فهى تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وانما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الافعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر فى شىء من الافعال الا و يرى فيه الفاعل و يذهل عن الفعل من حيث انه سماء وارض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث انه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزاً له الى غيره كمن نظر فى شعر انسان او خطه او تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث اثره لا من حيث انه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر الى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر اليه من حيث انه فعل الله وعرفه من حيث انه فعل الله واحبه من حيث انه فعل الله لم يكن ناظراً الا فى الله ولا عارفا الا بالله ولا محبا الا له وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى الا الله بل لا ينظر الى نفسه من حيث نفسه بل من حيث انه عبد الله فهذا الذى يقال فيه انه فنى فى التوحيد وانه فنى عن نفسه واليه الاشارة بقول من قال كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن فهذه امور معلومة عند ذوى البصائر اشكلت لضعف الافهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن ايضاحها و بيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض الى الافهام او باشتغالهم بانفسهم واعتقادهم ان بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم فهذا هو السبب فى قصور الافهام عن معرفة الله تعالى وانضم اليه ان المدركات كلها التى هى شاهدة على الله انما يدركها الانسان فى الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد انس بمدركاته ومحسوساته والفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ولذلك اذا رأى على سبيل الفجاءة حيوانا غريبا او نباتا غريبا اوفعلا من افعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه واعضاءه وسائر الحيوانات المالوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الانس بها ولو فرض اكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره الى السماء والارض والاشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجاءة لخيف على عقله ان ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها فهذا وامثاله من الاسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بانوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل اذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره والجليات اذا صارت مطلوبة صارت معتاصة فهذا سر هذا الامر فليحقق ولذلك قيل

بالتوبة فالنفس اذا تزكت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية وقلة الصبر من وجود الشراسة للنفس وابائها واستعصائها والتوبة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها الى اللين لأن النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفىء نيرانها المتاججة بمتابعة الهوى وتبلغ بطمانينتها محل الرضا ومقامه وتطمئن فى مجارى الاقدار (قال ابو عبد الله) النباجى لله عباد يستحيون من الصبر و يتلقفون مواضع اقداره بالرضا تلقفا (وكان) عمر بن عبد العزيز يقول اصبحت ومالى سرور الا مواقع القضاء قال رسول الله

لقد ظهرت فما تخفى على أحد * الا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا * فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

﴿ بيان معنى الشوق الى الله تعالى ﴾

اعلم ان من انكر حقيقة المحبة لله تعالى فلابد وان ينكر حقيقة الشوق اذ لا يتصور الشوق الا الى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق الى الله تعالى وكون العارف مضطرا اليه بطريق الاعتبار والنظر بانوار البصائر وبطريق الاخبار والآثار أما الاعتبار فيكفي في اثباته ماسبق في اثبات الحب فكل محبوب يشتاق اليه في غيبته لا محالة فاما الحاصل الحاضر فلا يشتاق اليه فان الشوق طلب وتشوف الى أمر والموجود لا يطلب ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور الا الى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فامامالا يدرك أصلا فلا يشتاق اليه فان من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور ان يشتاق اليه وماادرك بكماله لا يشتاق اليه وكمال الادراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوما للنظر اليه لا يتصور ان يكون له شوق ولكن الشوق انما يتعلق بما ادرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين لا ينكشف الا بمثال من المشاهدات فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق الى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور ان يشتاق اليه ولو رآه لم يتصور ان يشتاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه الى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق الى استكمال رؤيته وتمام الانكشاف في صورته باشراق الضوء عليه (والثاني) ان يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وان لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم ان له عضوا واعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق الى ان ينكشف له مالم يره قط والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل للعارفين فان ما اتضح للعارفين من الامور الالهية وان كان في غاية الوضوح فكانه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات فان الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك ينضاف اليها شواغل الدنيا فانما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام اشراق التجلي ولا يكون ذلك الا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فانه منتهى محبوب العارفين فهذا احد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما الثاني ان الامور الالهية لا نهاية لها وانما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى امور لا نهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم ان ماغاب عن علمه من المعلومات اكثر مما حضر فلا يزال متشوقا الى ان يحصل له اصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها اصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الاول ينتهي في الدار الاخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور ان يسكن في الدنيا وقد كان ابراهيم بن ادهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان اعطيت احدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فاعطني ذلك فقد اضر بي القلق قال فرايت في النوم انه اوقفني بين يديه وقال يا ابراهيم اما استحييت مني ان تسالني ان اعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت في حبك فلم ادر ما اقول فاغفر لي وعلمني ما اقول فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك واوزعني شكر نعمائك فان هذا الشوق يسكن في الاخرة * واما الشوق الثاني فيشبه ان لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الاخرة اذ نهايته ان ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وافعاله ماهو معلوم لله تعالى وهو محال لان ذلك لا نهاية له ولا يزال العبد عالما بانه بقي من الجمال والجلال مالم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة الا انه تشوق الى استكمال الوصال مع حصول اصل الوصال فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه الم ولا يبعد ان تكون الطاف الكشف والنظر متوالية الى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا ابد الآباد وتكون لذة مايتجدد

صلى الله عليه وسلم لابن عباس حين وصاه اعمل لله باليقين في الرضا فان لم يكن فان في الصبر خيرا كثيرا (وفي الخبر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير ما اعطى الرجل الرضا بما قسم الله تعالى له فالاخبار والآثار والحكايات في فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى والرضا ثمرة التوبة النصوح وما تخلف عبد عن الرضا الا بتخلفه عن التوبة النصوح فاذن تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر وحال الرضا ومقام الرضا والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات اهل اليقين وهما كائنان في صلب التوبة النصوح

من لطائف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق الى مالم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا أصلا فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى نورهم يسعى بين ايديهم و بايمانهم يقولون ربنا اتمم لنا نورنا محتمل لهذا المعنى وهو ان ينعم عليه باتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور و يحتمل ان يكون المراد به اتمام النور فى غير ما استنار فى الدنيا استنارة محتاجة الى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بتمامه وقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا يدل على ان الانوار لابد وان يتزود اصلها فى الدنيا ثم يزداد فى الآخرة اشراقا فاما ان يتجدد نور فلا والحكم فى هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به فنسأل الله تعالى ان يزيدنا علما ورشدا و يرينا الحق حقا فهذا القدر من انوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه * وأما شواهد الاخبار والآثار فاكثر من ان تحصى فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) انه كان يقول اللهم انى اسالك الرضا بعد القضاء و برد العيش بعد الموت ولذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك وقال ابو الدرداء لكعب اخبرنى عن اخص آية يعنى فى التوراة فقال يقول الله تعالى طال شوق الابرار الى لقائى وانى الى لقائهم لاشد شوقا ومكتوب الى جانبها من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فقال ابو الدرداء اشهد انى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا وفى اخبار داود عليه السلام ان الله تعالى قال ياداود ابلغ أهل ارضى انى حبيب لمن احبنى وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن انس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن اطاعنى ما احبنى عبد اعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته لنفسى واحببته حبا لا يتقدمه احد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا اهل الارض ما انتم عليه من غرورها وهلموا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى وائنسوا بى أؤانسكم واسارع الى محبتكم فانى خلقت طينة احبائى من طينة ابراهيم خليلى وموسى نجيى ومحمد صفيى وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى وروى عن بعض السلف ان الله تعالى اوحى الى بعض الصديقين ان لى عبادا من عبادى يحبونى واحبهم و يشتاقون الى واشتاق اليهم و يذكرونى واذكرهم و ينظرون الى وانظر اليهم فان حذوت طريقهم احببتك وان عدلت عنهم مقتك قال يارب وما علاماتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه و يحنون الى غروب الشمس كما يحن الطائر الى وكره عند الغروب فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الاسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا الى اقدامهم وافترشوا الى وجوههم ونادونى بكلامى وتملقوا الى بانعامى فبين صارخ وباك و بين متاوه وشاك و بين قائم وقاعد و بين راكع وساجد بعينى ما يتحملون من اجلى و بسمعى ما يشتكون من حبى اول ما اعطيهم ثلاث اقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما اخبر عنهم والثانية لو كانت السموات والارض وما فيهما من موازينهم لاستقللتها لهم والثالثة اقبل بوجهى عليهم فترى من اقبلت بوجهى عليه يعلم احد ما اريد ان اعطيه وفى اخبار داود عليه السلام ان الله تعالى اوحى اليه ياداود الى لم تذكر الجنة ولا تسالنى الشوق الى قال يارب من المشتاقون اليك قال ان المشتاقين الى الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الى خرقا ينظرون الى وانى لاحمل قلوبهم بيدى فاضعها على سمائى ثم ادعو نجباء ملائكتى فاذا اجتمعوا سجدوا لى فاقول انى لم ادعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لاعرض عليكم قلوب المشتاقين الى واباهى بكم اهل الشوق الى فان قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لاهل الارض ياداود انى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محدثى وجعلت ابدانهم موضع نظرى الى الارض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به الى يزدادون فى كل يوم شوقا قال داود يارب ارنى اهل محبتك فقال ياداود

(١) حديث انه كان يقول فى دعائه اللهم انى اسالك رد القضاء و برد العيش بعد الموت الحديث احمد والحاكم وتقدم فى الدعوات

لان خوفه حمله على التوبة ولولا خوفه ماتاب ولولا رجاؤه ماخاف فالرجاء والخوف يتلازمان فى قلب المؤمن و يعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى سياق الموت فقال كيف تجدك قال اجدنى اخاف ذنوبى وارجو رحمة ربى فقال ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا اعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف وجاء فى تفسير قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول قد هلكت لا ينفعنى عمل فالتائب خاف فتاب ورجا المغفرة ولا يكون التائب تائبا الا وهو راج

ائت جبل لبنان فان فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول له فاذا أتيتهم فاقرئهم منى السلام وقل لهم ان ربكم يقرئكم السلام و يقول لكم ألا تسالون حاجة فانكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم فاتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عز وجل فلما نظروا الى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه فقال داود انى رسول الله اليكم جئتكم لابلغكم رسالة ربكم فاقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم الى الارض فقال داود انى رسول الله اليكم يقرئكم السلام و يقول لكم الا تسالون حاجة الا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم وانظر اليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة قال فجرت الدموع على خدودهم فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك و بنو عبيدك فاغفرلنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا وقال الآخر سبحانك سبحانك نحن عبيدك و بنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا و بينك وقال الآخر سبحانك سبحانك نحن عبيدك و بنو عبيدك أفنجترئ على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا فى شيء من أمورنا فادم لنا لزوم الطريق اليك وأتمم بذلك المنة علينا وقال الآخر نحن مقصرون فى طلب رضاك فاعنا عليه بجودك وقال الآخر من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفيجترئ على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك وطلبتنا الدنو من نورك وقال الآخر كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شانك وقربك من أوليائك وكثرة منتك على أهل محبتك وقال الآخر أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك وقال الآخر قد عرفت حاجتنا انما هى النظر الى وجهك وقال الآخر كيف يجترىء العبد على سيده اذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات وقال الآخر ندعوك ان تقبل علينا وتديمه عندنا وقال الآخر نسالك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا وقال الآخر لا حاجة لنا فى شيء من خلقك فامنن علينا بالنظر الى جمال وجهك وقال الآخر أسالك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر الى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك فاوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم الى ما احببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فانى كاشف الحجاب فيما بينى و بينكم حتى تنظروا الى نورى وجلالى فقال داود يارب بم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكف عن الدنيا واهلها والخلوات بى ومناجاتهم لى وان هذا منزل لا يناله الا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى فعند ذلك أعطف عليه وافرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى و بينه حتى ينظر الى نظر الناظر بعينه الى الشيء وأريه كرامتى فى كل ساعة واقربه من نور وجهى ان مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها وان عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى فاذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم احببها اليه لا يفتر عن الاشتغال بى يستعجلنى القدوم وأنا أكره ان اميته لانه موضع نظرى من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت اعضاؤه وانخلع قلبه اذا سمع بذكرى اباهى به ملائكتى واهل سمواتى يزداد خوفا وعبادة وعزتى وجلالى يا داود لاقعدنه فى الفردوس ولاشفين صدره من النظر الى حتى يرضى وفوق الرضا وفى اخبار داود ايضا قل لعبادى المتوجهين الى محبتى ماضركم اذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بينى و بينكم حتى تنظروا الى بعيون قلوبكم وما ضركم مازويت عنكم من الدنيا اذا بسطت دينى لكم وماضركم مسخطة الخلق اذا التمستم رضائى وفى اخبار داود ايضا ان الله تعالى اوحى اليه تزعم انك تحبنى فان كنت تحبنى فاخرج حب الدنيا من قلبك فان حبي وحبها لا يجتمعان فى قلب يا داود خالص حبيبي مخالصة وخالط اهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال اما ما استبان لك مما وافق محبتى فتمسك به واما ما اشكل عليك فقلدنيه حقا على أنى اسارع الى سياستك وتقويمك وأكون قائدك

خائف ثم أن التائب حيث قيد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله فقد شكر النعم لان كل جارحة من الجوارح نعمة وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها فى الطاعة وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم فاذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها فقد جمع مقام التوبة حال الزجر وحال الانتباه وحال التيقظ ومخالفة النفس والتقوى والمجاهدة ورؤية عيوب الافعال والانابة والصبر والرضا والمحاسبة والمراقبة والرعاية والشكر والخوف والرجا واذا صحت التوبة النصوح وتزكت النفس انجلت مرآة

ودليلك اعطيك من غيران تسالني وأعينك على الشدائد وانى قد حلفت على نفسى انى لااثيب الاعبداقد عرفت من طلبته وارادته القاء كنفه بين يدى وانه لاغنى به عنى فاذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك واسكن الغنى قلبك فانى قدحلفت على نفسي انه لايطمئن عبدلى الى نفسه ينظرالى فعالها الاوكلته اليها أضعف الاشياء الى لاتضادعملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتى حدافليس لهاغاية ومتى طلبت منى الزيادة اعطاك ولاتجد للزيادة منى حدا ثم اعلم بنى اسرائيل انه ليس بينى وبين احد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وارادتهم عندى ابح لهم مالاعين رأت ولا اذن سمعت ولاخطر على قلب بشرضعنى بين عينيك وانظرالى ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك الى الذين حجبت عقولهم عنى فاسرجوها وسخط بانقطاع ثوابى عنها فانى حلفت بعزتى وجلالى لاافتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويف تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين فلوعلم اهل محبتى منزلة المريدين عندى لكانوا لهم ارضا يمشون عليها ياداود لان تخرج مريدا من سكرة هوفيها تستنقذه فاكتبك عندى جهيدا ومن كتبته عندى جهيدا لاتكون عليه وحشة ولافاقه الى المخلوقين ياداود تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لاتؤتين منها فاحجب عنك محبتى لاتؤيس عبادى من رحمتى اقطع شهوتك لى فانما أبحت الشهوات لضعفة خلقى مابال الاقوياء ان ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتى وانما عقوبة الاقوياء عندى فى موضع التناول ادنى مايصل اليهم ان احجب عقولهم عنى فانى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهته عنها ياداود لاتجعل بينى وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتى اولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين استعن على ترك الشهوات بادمان الصوم واياك والتجربة فى الافطار فان محبتى للصوم ادمانه ياداود تحبب الى بمعادات نفسك امنعها الشهوات انظراليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة انمااداريك مداراة التقوى على ثوابى اذامننت عليك به وانى احبسه عنك وانت متمسك بطاعتي واوحى الله تعالى الى داود ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى وتقطعت اوصالهم من محبتى ياداود هذه ارادتى فى المدبرين عنى فكيف ارادتى فى المقبلين على ياداود أحوج مايكون العبدالى اذا استغنى عنى وارحم ماأكون بعبدى اذاأدبرعنى واجل مايكون عندى اذارجع الى فهذه الاخبار ونظائرها ممالا يحصى تدل على اثبات المحبة والشوق والانس وانما تحقيق معناها ينكشف بماسبق

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم ان شواهد القرآن متظاهرة على ان الله تعالى يحب عبده فلابدمن معرفة معنى ذلك ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى يحبهم ويحبونه وقال تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وقال تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ولذلك رد سبحانه على من ادعى انه حبيب الله فقال قل فلم يعذبكم بذنوبكم وقد روى (١) انس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذاأحب الله تعالى عبدالم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لاذنب له ثم تلاان الله يحب التوابين. ومعناه انه من احبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وان كثرت كمالا يضر الكفر الماضى بعد الاسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطى الايمان الا من يحب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر

(١) حديث أنس اذا احب الله عبدالم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لاذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثانى من حديث ابى مسعود وتقدم فى التوبة (٢) حديث ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب الحاكم وصحح اسناده والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله احبه الله ابن ماجه من حديث أبى سعيد باسناد حسن دون قوله ومن أكثر الى اخره ورواه ابو يعلى واحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة

القلب وبان قبح الدنيا فيها فيحصل الزهد والزاهد يتحقق فيه التوكل لانه لايزهد فى الموجود الا لاعتماده على الموعود والسكون الى وعد الله تعالى هوعين التوكل وكلما بقى على العبد بقية فى تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهده فى الدنيا وهو ثالث الاربعة (اخبرنا) شيخنا قال انا ابو منصور محمد بن عبد الملك ابن خيرون قال انا ابو محمد الحسن بن على الجوهرى اجازة قال انا ابو عمرو محمد بن العباس قال انا ابو محمد يحيى ابن ساعدة قال حدثنا الحسين ابن الحسن المروزى قال حدثنا عبدالله ابن المبارك قال

وضمه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وقل عليه السلام (١) قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به الحديث وقال زيد بن اسلم ان الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له ان يقول اعمل ماشئت فقد غفرت لك وماورد من الفاظ المحبة خارج عن الحصر وقد ذكرنا ان محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز اذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى الشىء الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط وقد بينا ان الاحسان موافق للنفس والجمال موافق ايضا وان الجمال والاحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر فاما حب الله للعبد فلا يمكن ان يكون بهذا المعنى اصلا بل الأسامى كلها اذا اطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد اصلا حتى ان اسم الوجود الذى هو اعم الاسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع وانما الاستواء فى اطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم اذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق احدهما لان يكون فيه اصلا فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه وهذا التباعد فى سائر الاسامى اظهر كالعلم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضع اللغة انما وضع هذه الاسامى اولا للخلق فان الخلق اسبق الى العقول والافهام من الخالق فكان استعمالها فى حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى موافق ملائم وهذا انما يتصور فى نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال و بهاء وجلال ممكن فى حق الالهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول ابدا وازلا ولا يتصور تجدده ولا زواله فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غيره بل نظره الى ذاته وافعاله فقط وليس فى الوجود الا ذاته وافعاله ولذلك قال الشيخ ابو سعيد الميهنى رحمه الله تعالى لما قرىء عليه قوله تعالى يحبهم ويحبونه فقال بحق يحبهم فانه ليس يحب الا نفسه على معنى انه الكل وان ليس فى الوجود غيره فمن لا يحب الا نفسه وافعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هى متعلقة بذاته فهو اذا لا يحب الا نفسه وماورد من الالفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه والى تمكينه اياه من القرب منه والى ارادته ذلك فى الازل فحبه لمن احبه ازلى مهما أضيف الى الارادة الازلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب واذا اضيف الى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله فى درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ولا يفهم هذا الا بمثال وهو ان الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له فى كل وقت فى حضور بساطه لميل الملك اليه اما لينصره بقوته او ليستريح بمشاهدته او ليستشيره فى رأيه او ليهيىء اسباب طعامه وشرابه فيقال ان الملك يحبه ويكون معناه ميله اليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد ولكن لكون العبد فى نفسه موصوفا من الاخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به ان يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع ان الملك لا غرض له فيه اصلا فاذا رفع الملك الحجاب بينه و بينه يقال قد احبه واذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبب نفسه الى الملك فحب الله للعبد انما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الاول وانما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط ان لا يسبق الى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله فى البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الاخلاق التى هى

حدثنا الهيثم بن جميل قال انا محمد ابن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ بفاطمة رضى الله عنها فرآها قد أحدثت فى البيت سترا وزوائد فى يديها فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ثم جلس فجعل ينكت فى الارض ويقول مالى وللدنيا مالى وللدنيا فرأت فاطمة أنه انما رجع من أجل ذلك الستر فاخذت الستر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له اذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم فقل له قد تصدقت به فضعه حيث شئت فأتى بلال الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال قالت فاطمة قد

(١) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى احبه الحديث البخارى من حديث ابى هريرة وقد

الاخلاق الالهية فهوقرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا ان القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذصار قريبا بعد ان لم يكن وهو محال فى حق الله تعالى اذ التغير عليه محال بل لا يزال فى نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه فى ازل الآزال ولا ينكشف هذا الا بمثال فى القرب بين الاشخاص فان الشخصين قد يتقربان بتحركهما جميعا وقد يكون احدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير فى احدهما من غير تغير فى الآخر بل القرب فى الصفات ايضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة استاذه فى كمال العلم وجماله والاستاذ واقف فى كمال علمه غير متحرك بالنزول الى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى ارتفاع العلم فلا يزال دائبا فى التغير والترقى الى ان يقرب من استاذه والاستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغى ان يفهم ترقى العبد فى درجات القرب فكلما صار اكمل صفة واتم علما واحاطة بحقائق الامور واثبت قوة فى قهر الشيطان وقمع الشهوات واظهر نزاهة عن الرذائل صار اقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الاستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك فى حق الله محال فانه لا نهاية لكماله وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ولا ينتهى الا الى حد محدود فلا مطمع له فى المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لا نهاية له ايضا لاجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذا محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كانه يراه بقلبه واما محبة العبد لله فهو ميله الى ادراك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق الى ما فاته واذا ادرك منه شيئا يلتذ به والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى فان قلت محبة الله للعبد امر ملتبس فبم يعرف العبد انه حبيب الله فاقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) اذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا احبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا فعلامة محبة الله للعبد ان يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشترى حمارا فتركبه فقال انا أعز على الله تعالى من ان يشغلنى عن نفسه بحمار وفى الخبر (٢) اذا احب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه وقال بعض العلماء اذا رايتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم انه يريد يصافيك وقال بعض المريدين لاستاذه قد طولعت بشيء من المحبة فقال يابنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه اياه قال لا قال فلا تطمع فى المحبة فانه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) اذا احب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه وقد قال (٤) اذا اراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فاخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله واما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو ان يتولى الله تعالى امره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لامره والمزين لاخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا فى قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وامثاله هو علامة حب الله للعبد فلنذكر الان علامات محبة العبد لله فانها ايضا علامات حب الله للعبد

﴿القول فى علامات محبة العبد لله تعالى﴾

اعلم ان المحبة يدعيها كل أحد وما اسهل الدعوى وما اعز المعنى فلا ينبغى ان يغتر الانسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والادلة والمحبة شجرة طيبة أصلها

تقدم (١) حديث اذا احب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى وقد تقدم (٢) حديث اذا احب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن ابى طالب ولم يخرجه ولده فى مسنده (٣) حديث اذا احب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه الحديث ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ام سلمة باسناد حسن بلفظ اذا اراد الله بعبد خيرا (٤) حديث اذا اراد الله بعبد خيرا

تصدقت به فضعه حيث شئت فقال النبى صلى الله عليه وسلم بابى وامى قد فعلت بابى وأمى قد فعلت اذهب فبعه (وقيل) فى قوله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا قيل الزهد فى الدنيا * سئل أمير المؤمنين على ابن ابى طالب رضى الله عنه عن الزهد فقال هو ان لا تبالى بمن اكل الدنيا مؤمن او كافر (وسئل) الشبلى عن الزهد فقال ويلكم اى مقدار لجناح بعوضة ان يزهد فيها * وقال ابو بكر الواسطى الى متى تصول بترك كنيف والى متى تصول باعراضك عما لا تزن عند الله جناح بعوضة فاذا صح زهد

ثابت وفرعها فى السماء وثمارها تظهر فى القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الاشجار وهى كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام فلا يتصور ان يحب القلب محبوبا الا ويحب مشاهدته ولقاءه واذا علم أنه لا وصول الا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغى ان يكون محبا للموت غير فار منه فان المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه الى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول الى المشاهدة قال صلى الله عليه وسلم (١) من احب لقاء الله أحب الله لقاءه وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا افلح من ندم وقال بعض السلف مامن خصلة احب الى الله ان تكون فى العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق فى الحب القتل فى سبيل الله حيث قالوا انا نحب الله فجعل القتل فى سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وقال عز وجل يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون و يقتلون وفى وصية ابى بكر لعمر رضى الله تعالى عنهما الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء فان حفظت وصيتى لم يكن غائب احب اليك من الموت وهو مدركك وان ضيعت وصيتى لم يكن غائب ابغض اليك من الموت ولن تعجزه و يروى عن (٢) اسحق بن سعد بن ابى وقاص قال حدثنى أبى ان عبد الله بن جحش قال له يوم أحد الا ندعو الله فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب انى اقسمت عليك اذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك و يقاتلنى ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى و يبقر بطنى فاذا لقيتك غدا قلت ياعبد الله من جدع أنفك وأذنك فاقول فيك يارب وفى رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وان أنفه واذنه لمعلقتان فى خيط قال سعيد بن المسيب أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما ابر أوله وقد كان الثورى وبشر الحافى يقولان لا يكره الموت الا مريب لان الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه وقال البويطى لبعض الزهاد أتحب الموت فكانه توقف فقال لو كنت صادقا لاحببته وتلا قوله تعالى فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فقال الرجل فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (٣) لا يتمنين أحدكم الموت فقال انما قاله لضر نزل به لان الرضا بقضاء الله تعالى افضل من طلب الفرار منه فان قلت فمن لا يحب الموت فهل يتصور ان يكون محبا لله فاقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الاهل والمال والولد وهذا ينافى كمال حب الله تعالى لان الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد ان يكون له مع حب الاهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون فى الحب و يدل على التفاوت ماروى ان (٤) أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد انكحته اياها وانى لاعلم انه خير منها فكان قوله ذلك اشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهى اختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اراد ان ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه

بصره بعيوب نفسه ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث انس بزيادة فيه باسناد ضعيف (١) حديث من احب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث ابى هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن ابى وقاص قال حدثنى ابى ان عبد الله بن جحش قال له يوم احد ألا ندعو الله فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب انى اقسم عليك اذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك و يقاتلنى و يجدع انفى واذنى الحديث الطبرانى ومن طريقه ابو نعيم فى الحلية واسناده جيد (٣) حديث لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث انس وقد تقدم (٤) حديث ابى حذيفة بن عتبة انه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اراد ان ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم لم ارهمن حديث حذيفه وروى ابو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمران سالما يحب الله حقا من قلبه وفى رواية له ان سالما شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ماعصاه وفيه عبد الله

العبد صح توكله أيضا لان صدق توكله مكنه من زهده فى الموجود فمن استقام فى التوبة وزهد فى الدنيا وحقق هذين المقامين استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها وترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط احداهما بالاخرى أن يتوب العبد ثم يستقيم فى التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصى الى تطهير الجوارح عما لا يعنى فلا يسمع بكلمة فضول ولا حركة فضول ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر الى الباطن وتستولى المراقبة على الباطن وهو التحقق بعلم القيام بحقوق

فلينظر الى سالم فهذا يدل على ان من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه و يحب أيضا غيره فلاجرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها (وأما السبب الثانى للكراهة) فهوان يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وانما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فاحب أن يتاخر قدومه ساعة ليهيئ له داره و يعدله أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كمال الحب أصلا وعلامته الدؤب فى العمل واستغراق الهم فى الاستعداد ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل و يجتنب اتباع الهوى و يعرض عن دعة الكسل ولا تزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا اليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالايثار فقال يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أتوا و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل

أريد وصاله و يريد هجرى * فاترك ما أريد لما يريد

بل الحب اذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى ان زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت الى الله تعالى فكان يدعوها الى فراشه نهارا فتدافعه الى الليل فاذا دعاها ليلا سوفت به الى النهار وقالت يا يوسف انما كنت أحبك قبل أن أعرفه فاما اذا عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها ان الله جل ذكره أمرنى بذلك وأخبرنى انه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين فقالت أما اذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقا اليه فطاعة لامر الله تعالى فعندها سكنت اليه فاذا من أحب الله لا يعصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه

تعصى الاله وانت تظهر حبه * هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته * ان المحب لمن يحب مطيع

﴿ وفى هذا المعنى قيل أيضا ﴾

واترك ما اهوى لما قد هويته * فارضى بما ترضى وان سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب ايثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا وانما الحبيب من اجتنب المناهى وهو كما قال لان محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى يحبهم و يحبونه واذا احبه الله تولاه ونصره على اعدائه وانما عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله الى هواه وشهواته ولذلك قال تعالى والله اعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا فان قلت فالعصيان هل يضاد اصل المحبة فاقول انه يضاد كمالها ولا يضاد اصلها فكم من انسان يحب نفسه وهو مريض و يحب الصحة و يأكل ما يضره مع العلم بانه يضره وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى (١) أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتكبها الى ان اتى به يوما فحده فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين اذا كان الايمان فى ظاهر القلب احب الله تعالى حبا متوسطا فاذا دخل سويداء القلب احبه الحب البالغ وترك المعاصى و بالجملة فى دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك اتحب الله تعالى فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت ولقد قال بعض العلماء ليس فى الجنة نعيم اعلى من نعيم اهل المعرفة والمحبة ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشى من ذلك ومنها ان يكون

ابن لهيعة (١) حديث اتى بالنعيمان يوما فحده فلعنه رجل قال ما اكثر ما يؤتى به فقال لا تلعنه فانه يحب الله

خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول فاذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الاركان والجوارح وتستقيم توبته قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاستقم كما أمرت ومن تاب معك امره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمراله ولاتباعه وأمته (وقيل) لا يكون المريد مريدا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيا عشرين سنة ولا يلزم من هذا وجود العصمة ولكن الصادق التائب فى النادر اذا ابتلى بذنب ينمحى أثر الذنب من باطنه فى الطف ساعة لوجود الندم فى باطنه على ذلك والندم

مستهترا بذكر الله تعالى لا يفترعنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن احب شيا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر مايتعلق به فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذى هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب اليه فان من يحب انسانا يحب كلب محلته فالمحبة اذا قويت تعدت من المحبوب الى كل مايكتنف بالمحبوب و يحيط به و يتعلق باسبابه وذلك ليس شركة فى الحب فان من احب رسول المحبوب لانه رسوله وكلامه لانه كلامه فلم يجاوز حبه الى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه احب جميع خلق الله لانهم خلقه فكيف لايحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب الاخوة والصحبة ولذلك قال تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه واحبونى لله تعالى وقال سفيان من احب من يحب الله تعالى فانما احب الله ومن اكرم من يكرم الله تعالى فانما يكرم الله تعالى وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الارادة فادمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول فى المنام ان كنت تزعم انك تحبنى فلم جفوت كتابى اماتدبرت مافيه من لطيف عتابى قال فانتبهت وقد أشرب فى قلبي محبة القرآن فعاودت الى حالى وقال ابن مسعود لاينبغى ان يسال احدكم عن نفسه الا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وان لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا ان لا ياخذ منها الا زادا و بلغة الى الآخرة ومنها ان يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد و يغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق واقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث الذ عنده واطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لابراهيم بن ادهم وقد نزل من الجبل من اين اقبلت فقال من الانس بالله وفى اخبار داود عليه السلام لاتستانس الى احد من خلقى فانى انما اقطع عنى رجلين رجل استبطا ثوابى فانقطع ورجلا نسينى فرضى بحاله وعلامة ذلك ان اكله الى نفسه وان أدعه فى الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر انسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته وفى قصة برخ وهو العبد الاسود الذى استسقى به موسى عليه السلام ان الله تعالى قال لموسى عليه السلام ان برخا نعم العبد هولى الا ان فيه عيبا قال يارب وماعيبه قال يعجبه نسيم الاسحار فيسكن اليه ومن احبنى لم يسكن الى شئ وروى ان عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا فنظر الى طائر وقد عشش فى شجرة ياوى اليها و يصفر عندها فقال لو حولت مسجدى الى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال ففعل فاوحى الله تعالى الى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استانست بمخلوق لاحطنك درجة لاتنالها بشىء من عملك ابدا فاذا علامة المحبة كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الخلوة و يعوق عن لذة المناجاة وعلامة الانس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة كالذى يخاطب معشوقه و يناجيه وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الانس والحب قلبه حتى لايفهم امور الدنيا مالم تتكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الولهان فانه يكلم الناس بلسانه وانسه فى الباطن بذكر حبيبه فالمحب من لا يطمئن الا بمحبوبه وقال قتادة فى قوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب قال هشت اليه واستانست به وقال الصديق رضى الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر وقال مطرف بن أبى

توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيا فاذا تاب توبة نصوحا ثم زهد فى الدنيا حتى لايهتم فى غدائه لعشائه ولا فى عشائه لغدائه ولا يرى الادخار ولا يكون له تعلق هم بغد فقد جمع فى هذا الزهد والفقر والزهد افضل من الفقر وهو فقر وزيادة لان الفقير عادم للشئ اضطرارا والزاهد تارك للشيء اختيارا وزهده يحقق توكله وتوكله يحقق رضاه ورضاه يحقق الصبر وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقق خوفه وخوفه يحقق رجاءه ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات والزهد والتوبة اذا

ورسوله البخارى وقد تقدم (١) حديث احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه الحديث تقدم

بكر المحب لا يسام من حديث حبيبه واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتى اذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها انا ذا موجود لمن طلبنى وقال موسى عليه السلام يارب أين انت فاقصدك فقال اذا قصدت فقد وصلت وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق ومنها ان لا يتاسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل و يعظم تاسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة قال بعض العارفين ان لله عبادا أحبوه واطمانوا اليه فذهب عنهم التاسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم اذ كان ملك مليكهم تاما وماشاء كان فما كان لهم فهو واصل اليهم ومافاتهم فبحسن تدبيره لهم وحق المحب اذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبوبه و يشتغل بالعتاب و يساله و يقول رب باى ذنب قطعت برك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى و بمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب الا المحبوب ولم ير شيا الا منه لم يتاسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم ان المحبوب لم يقدر له الا مافيه خيرته و يذكر قوله وعسى أن تكرهوا شيا وهو خير لكم ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها و يسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة وقال الجنيد علامة المحبة دوام النشاط والدؤب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور وقال بعض العلماء والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود فى المشاهدات فان العاشق لا يستثقل السعى فى هوى معشوقه و يستلذ لخدمته وان كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الاشياء اليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهر لا محالة ماهو دونه فمن كان محبوبه أحب اليه من الكسل ترك الكسل فى خدمته وان كان احب اليه من المال ترك المال فى حبه وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شى ما كان سبب حالك هذه فى المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول انا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عنى بوجهك كله فقال له المحبوب ان كنت تحبنى فايش تنفق علي قال ياسيدى أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقلت هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبد لمعبود فكل هذا بسببه ومنها ان يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيا مما يكرهه كما قال الله تعالى اشداء على الكفار رحماء بينهم ولا تاخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف و به وصف الله أولياءه اذ قال الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشى و ياوون الى ذكرى كما ياوى النسر الى وكره و يغضبون لمحارمى كما يغضب النمر اذا حرد فانه لا يبالى قل الناس او كثروا فانظر الى هذا المثال فان الصبي اذا كلف بالشى لم يفارقه أصلا وان اخذ منه لم يكن له شغل الا البكاء والصياح حتي يرد اليه فان نام أخذه معه فى ثيابه فاذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه ابغضه ومن اعطاه احبه واما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه انه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا فى الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم فى الآخرة بقدر حبه اذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى فى الابرار ان الابرار لفى نعيم ثم قال يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون فانما طاب شراب الابرار لشوب الشراب الصرف الذى هو للمقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما ان الكتاب عبر به عن جميع الاعمال فقال ان كتاب الابرار لفى عليين ثم قال يشهده المقربون فكان امارة علو كتابهم انه ارتفع الى حيث يشهده المقربون وكما ان الابرار يجدون المزيد فى حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون

اجتماعا مع صحة الايمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها وهو دوام العمل لان الاحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين فى التوبة تخلفوا عن كثير من سنى الاحوال لتخلفهم عن هذا الرابع ولا يراد الزهد فى الدنيا الا لكمال الفراغ المستعان به على ادامة العمل لله تعالى والعمل لله أن يكون العبد لا يزال ذاكرا او تاليا اومصليا او مراقبا لا يشغله عن هذه الا واجب شرعي او مهم لا بد منه

حالهم فى الاخرة ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة كما بدأنا أول خلق نعيده وكما قال تعالى جزاء وفاقا أى وافق الجزاء أعمالهم فقو بل الخالص بالصرف من الشراب وقو بل المشوب بالمشوب وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب فى حبه وأعماله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فمن كان حبه فى الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان و يتمتع بالنسوان فهناك تنتهى لذته فى الاخرة لانه انما يعطى كل انسان فى المحبة ماتشتهيه نفسه وتلذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه الا حبه بالاخلاص والصدق أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فالابرار يرتعون فى البساتين و يتنعمون فى الجنان مع الحور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالاضافة الى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقوام آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الالباب ولما قصرت الافهام عن درك معنى عليين عظم امره فقال وما أدراك ماعليون كما قال تعالى القارعة ما القارعة وما أدراك ماالقارعة ومنها ان يكون فى حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن ان الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل ادراك العظمة يوجب الهيبة كما ان ادراك الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم و بعض مخاوفهم اشد من بعض فاولها خوف الاعراض واشد منه خوف الحجاب واشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى من سورة هود هو الذى (٢) شيب سيد المحبين اذ سمع قوله تعالى الا بعدا لثمود الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وانما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من الف القرب وذاقه وتنعم به فحديث البعد فى حق المبعدين يشيب سماعه اهل القرب فى القرب ولا يحن الى القرب من الف البعد ولا يبكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب المزيد فانا قدمنا ان درجات القرب لانهاية لها وحق العبد ان يجتهد فى كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من امسه فهو ملعون وكذلك قال عليه السلام (٤) انه ليغان على قلبى فى اليوم والليلة حتى استغفر الله سبعين مرة وانما كان استغفاره من القدم الاول فانه كان بعدا بالاضافة الى القدم الثانى و يكون ذلك عقوبة لهم على الفتور فى الطريق والالتفات الى غير المحبوب كما روى ان الله تعالى يقول ان ادنى ما اصنع بالعالم اذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى ان اسلبه لذيذ مناجاتى فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم فاما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون الى ماظهر من مبادى اللطف وذلك هو المكر الخفى الذى لا يقدر على الاحتراز منه الا ذوو الاقدام الراسخة ثم خوف فوت مالا يدرك بعد فوته سمع ابراهيم ابن ادهم قائلا يقول وهو فى سياحته وكان على جبل

كل شيء منك مغفو * ر سوى الاعراض عنا
قد وهبنا لك مافا * ت فهب مافات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه احوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا ابراهيم كن عبدا

(١) حديث أكثر اهل الجنة البله وعليون لذوى الالباب البزار من حديث انس بسند ضعيف مقتصرا على الشطر الاول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام احمد بن ابى الحوارى ولعله ادرج فيه (٢) حديث شيبتنى هود اخرجه الترمذى و تقدم غير مرة (٣) حديث من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من امسه فهو ملعون لا اعلم هذا الا فى منام لعبد العزيز بن ابى رواد قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يارسول الله اوصنى فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد (٤) حديث انه ليغان على قلبى متفق عليه من حديث الاغر وقد تقدم.

طبيعى فاذا استولى العمل القلبي عن القلب مع وجود الشغل الذى أداه اليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل فاذا كان مع الزهد والتقوى متمسكا بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهدا فى العبودية (قال أبو بكر الوراق) من خرج من قالب العبودية صنع به مايصنع بالآبق (وسئل) سهل ابن عبد الله التسترى أى منزلة اذا قام العبد بها اقام مقام العبودية قال اذا ترك التدبير والاختيار فاذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى و يصل الى مقام ترك التدبير

فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلوعنه فان المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلايفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى الا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه اوسبب رجعته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كماقد لا يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لهااسباب خفية سماوية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها فاذا اراد الله المكر به واستدراجه اخفى عنه ماوردعليه من السلو فيقف مع الرجاء و يفتر بحسن النظر او بغلبة الغفلة اوالهوى أوالنسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التى تغالب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكروالبيان وكان من اوصاف الله تعالى مايظهر فيقتضي هيجان الحب وهى اوصاف اللطف والرحمة والحكمة فمن اوصافه مايلوح فيورث السلو كاوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه الى حب غيره وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الاوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها وظهورهذه الاسباب دليل على النقل عن مقام الحب الى مقام المقت نعوذ بالله منه وملازمة الخوف لهذه الاموروشدة الحذرمنها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من احب شيا خاف لا محالة فقده فلايخلو المحب عن خوف اذا كان المحبوب مما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبدالله تعالى بمحض المحبة من غيرخوف هلك بالبسط والادلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف احبه الله تعالى فقر به ومكنه وعلمه فالحب لا يخلوعن خوف والخائف لا يخلو عن محبة ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف الا اليسير يقال هو فى مقام المحبة و يعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلامن سكر الحب فلوغلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشرفانما الخوف يعدله و يخفف وقعه على القلب فقد روى فى بعض الاخبار ان بعض الصديقين ساله بعض الابدال ان يسال الله تعالى ان يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك فهام فى الجبال وحار عقله وله قلبه و بقى شاخصا سبعة ايام لا ينتفع بشىء ولا ينتفع به شىء فسال له الصديق ربه تعالى فقال يارب انقصه من الذرة بعضها فاوحى الله تعالى اليه انما أعطيناه جزأمن مائه االف جزء من ذرة من المعرفة وذلك ان مائه الف عبد سالونى شيا من المحبة فى الوقت الذى سالنى هذا فاخرت اجابتهم الى ان شفعت أنت لهذا فلما اجبتك فيما سالت اعطيتهم كما اعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة الف عبد فهذا ما اصابه من ذلك فقال سبحانك يا احكم الحاكمين انقصه مما أعطيته فاذهب الله عنه جملة الجزء و بقى معه عشر معشاره وهوجزء من عشرة آلاف جزء من مائة الف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين وقد قيل فى وصف حال العارف

قريب الوجد ذو مرمى بعيد * عن الاحرارمنهم والعبيد * غريب الوصف ذوعلم غريب
كان فؤاده زبر الحديد * لقد عزت معانيه وجلت * عن الابصار الا للشهيد
يرى الاعياد فى الاوقات تجرى * له فى كل يوم ألف عيد
وللاحباب افراح بعيد * ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد ابياتا يشير بها الى اسرارأحوال العارفين وان كان ذلك لا يجوز اظهاره وهى هذه الابيات

سرت باناس فى الغيوب قلوبهم * فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله فى ظل قدسه * تجول بها ارواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى * ومصدرهم عنها لماهوا كمل
تروح بعز مفرد من صفاته * وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ماتدق صفاته * وما كتمه اولى لديه واعدل
سا كتم من علمى به مايصونه * وابذل منه ماارى الحق يبذل

والاختيارثم يصل الى ان يملك الا ختيارفيكون اختياره من اختار الله تعالى لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه (قال) يحيى بن معاذ الرازى مادام العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفا يقال له ان شئت اختر وان شئت لا تختر لانك ان اخترت فباختيارنا اخترت وان تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار فانك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز الذى هو الغاية والنهاية وهو ان يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من

وأعطي عباد الله منه حقوقهم * وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سراً يصونه * الى أهله فى السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التى اليها الاشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز ان يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو اكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها و بطلت الاسواق والمعايش بل لو اكل العلماء الحلال لاشتغلوا بانفسهم ولوقفت الالسنة والاقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيما هو شر فى الظاهر اسرار وحكم كما ان له فى الخير اسرار او حكما ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته * ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من اظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب واجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره فان الحب سر من اسرار الحبيب ولانه قد يدخل فى الدعوى ما يتجاوز حد المعنى و يزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه فى العقبى وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا نعم قد يكون للمحب سكرة فى حبه حتى يدهش فيه وتضطرب احواله فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تمحل او اكتساب فهو معذور لانه مقهور و ربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا قريب قلت ما انا صانع * بقرب شعاع الشمس لو كان فى حجرى
فمالى منه غير ذكر بخاطر * يهيج نار الحب والشوق فى صدرى

والعاجز عنه يقول يخفى فيبدى الدمع اسراره * و يظهر الوجد عليه النفس
ويقول ايضا ومن قلبه مع غيره كيف حاله * ومن سره فى جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم اشارة به كأنه اراد من يكثر التعريض به فى كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل احد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل ودخل ذو النون المصرى على بعض اخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاء فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل لكنى اقول لا يحبه من لم يتنعم بضره فقال ذو النون ولكنى اقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه فقال الرجل استغفر الله واتوب اليه فان قلت المحبة منتهى المقامات واظهارها اظهاراً للخير فلماذا يستنكر فاعلم ان المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وانما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق المحب ان ينم على حبه الخفى افعاله واحواله دون أقواله وافعاله و ينبغى ان يظهر حبه من غير قصد منه الى اظهار الحب ولا الى اظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى ان يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط فاما ارادته اطلاع غيره فشرك فى الحب وقادح فيه كما ورد فى الانجيل اذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية واذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك فاظهار القول والفعل كله مذموم الا اذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الاعضاء فلا يلام فيه صاحبه * حكى ان رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فاخبر بذلك معروف الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال يا اخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيته من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب ان المحب ان كان عارفا وعرف احوال الملائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما امرهم و يفعلون ما يؤمرون لاستنكف من نفسه ومن اظهار حبه وعلم قطعا انه من اخس المحبين فى مملكته وان حبه انقص من حب كل محب لله قال بعض المكاشفين من المحبين عبدت الله تعالى ثلاثين سنة باعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت ان لى عند الله شيأ فذكر اشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء فقلت من انتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلثمائة الف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من اعمالى فوهبتها لمن حق عليه

الاختيار الا باحكامه هذه الاربعة التى ذكرناها لان ترك التدبير فناء وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده ورده الى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد الى وجود يصير بالحق وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة واستقام ظاهره و باطنه فى العبودية وعمر العلم والعمل ظاهره و باطنه وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدى الله عز وجل متمسكة بالاستكانة والافتقار متحققة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكلنى الى نفسى طرفة عين فاهلك ولا الى أحد من

الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم فاذا من عرف نفسه وعرف ربه واستحيامنه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته واقدامه واحجامه وترددانه كما حكى عن الجنيد انه قال مرض استاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فاخذنا قارورة مائه فنظر اليها الطبيب وجعل ينظر اليه مليا ثم قال لى أراه بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ثم رجعت الى السرى فاخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما أبصره قلت يا أستاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السرى مرة لوشئت أقول ما أيبس جلدى على عظمى ولا اسل جسمى الا حبه ثم غشى عليه وتدل الغشية على انه أفصح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته * ومنها الانس والرضا كما سيأتى وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الاخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الاخلاق نعم قد يحب الله لاحسانه اليه وقد يحبه لجلاله وجماله وان لم يحسن اليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام احسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه الا انهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والاحسان فاما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه اذ استحق عندهم المحبة بذلك لانه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله ابليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن انه محب لله عزوجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كعلماء السوء وقراء السوء اولئك بغضاء الله فى أرضه وكان سهل اذا تكلم مع انسان قال يادوست أى ياحبيب فقيل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال فى اذن القائل سرا لا يخلو اما أن يكون مؤمنا أو منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عزوجل وان كان منافقا فهو حبيب ابليس وقد قال أبو تراب النخشبى فى علامات المحبة أبياتا

لا تخدعن فللحبيب دلائل * ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه * وسروره فى كل ماهو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر اكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه * طوع الحبيب وان الح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما * لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل ان يرى متقشفا * متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشمرا * فى خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه * جوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى * من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا * أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما * كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا * بمليكه فى كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان معنى الانس بالله تعالى

قد ذكرنا ان الانس والخوف والشوق من آثار المحبة الا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما

خلقك فاضيع ا كلانى كلاءة الوليد ولا تخل عنى

(الباب الستون فى ذكر اشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب)

(قولهم فى التوبة) قال رويم معنى التوبة أن يتوب من التوبة قيل معناه قول رابعة أستغفر الله العظيم من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله (وسئل) الحسن المغازلى عن التوبة فقال تسألنى عن توبة الانابة أو عن توبة الاستجابة فقال السائل ماتوبة الانابة فقال أن تخاف من الله عز وجل من اجل قدرته عليك فما توبة الاستجابة قال ان تستحى من الله لقربه منك وهذا الذى ذكره من توبة

يغلب عليه فى وقته فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب الى الطلب وانزعج له وهاج اليه ونسمى هذه الحالة فى الانزعاج شوقا وهو بالاضافة الى أمر غائب واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت الى مالم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وان كان نظره الى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا وهذه الاحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لاسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالانس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى انه اذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا انما الشوق الى غائب فاذا كان الغائب حاضرا فالى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت الى ما بقى فى الامكان من مزايا الالطاف ومن غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا فى الانفراد والخلوة كما حكى ان ابراهيم ابن أدهم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت فقال من الانس بالله وذلك لان الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الاشياء على القلب كما روى ان موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس الا اخذه الغثيان لان الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه ولذلك قال بعض الحكماء فى دعائه يامن آنسنى بذكره وأوحشنى من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لى مشتاقا وبى مستأنسا ومن سواى مستوحشا وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركى ما لا يعنينى وأنسى بمن لم يزل وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد اعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت اليها من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت يا راهب ما اقل ما تجده فى الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الانس بالله تعالى قال اذا صفا الود وخلصت المعاملة قلت ومتى يصفو الود قال اذا اجتمع الهم فصار هما واحدا فى الطاعة وقال بعض الحكماء عجبا للخلائق كيف ارادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك * فان قلت فما علامة الانس فاعلم ان علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة وغريب فى حضر وحاضر فى سفر وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال على كرم الله وجهه فى وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحل الاعلى أولئك خلفاء الله فى ارضه والدعاة الى دينه فهذا معنى الانس بالله وهذه علامته وهذه شواهده وقد ذهب بعض المتكلمين الى انكار الانس والشوق والحب لظنه ان ذلك يدل على التشبيه وجهله بان جمال المدركات بالبصائر اكمل من جمال المبصرات ولذة معرفتها اغلب على ذوى القلوب ومنهم احمد بن غالب يعرف بغلام الخليل انكر على الجنيد وعلى ابى الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى انكر بعضهم مقام الرضا وقال ليس الا الصبر فاما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين الا على القشور فظن انه لا وجود الا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز الا الى قشره يظن ان الجوز خشب كله و يستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل

الانس بالله لا يحويه بطال * وليس يدركه بالحول محتال

والآنسون رجال كلهم نجب * وكلهم صفوة لله عمال

(بيان معنى الانبساط والادلال الذى تثمره غلبة الانس)

الاستجابة اذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى و يستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل
وجودك ذنب لا يقاس به ذنب
(قال) ذو النون توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة وتوبة الانبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم
(سئل) أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشئ و يتركه ثم يخطر ذلك الشئ بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته فقال الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع وليس له حيلة الا ان يرفع قلبه الى مولاه بالشكوى

اعلم ان الانس اذادام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصة خوف التغير والحجاب فانه يثمر نوعا من الانبساط فى الاقوال والافعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن اقيم فى مقام الانس ومن لم يقم فى هذا المقام و يتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به واشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الاسود الذى امر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام ان يسال ليستسقى لبنى اسرائيل بعد ان قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم فى سبعين الفا فاوحى الله عزوجل اليه كيف استجيب لهم وقد اظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعوننى على غير يقين و يامنون مكرى ارجع الى عبد من عبادى يقول له برخ فقل له يخرج حتى استجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق اذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من اثر السجود فى شملة قد عقدها على عنقه فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عزوجل فسلم عليه وقال له ما اسمك فقال اسمى برخ قال فانت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا فخرج فقال فى كلامه ماهذا من فعالك ولا هذا من حلمك وما الذى بدا لك انقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك ام نفد ما عندك أم اشتد غضبك على المذنبين الست كنت غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وامرت بالعطف أماترينا انك ممتنع ام تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة قال فما برح حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر وانبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رايت حين خاصمت ربى كيف انصفنى فهم موسى عليه السلام به فاوحى الله تعالى اليه ان برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات * وعن الحسن قال احترقت اخصاص بالبصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق وابو موسى يومئذ امير البصرة فاخبر بذلك فبعث الى صاحب الخص قال فاتى بشيخ فقال ياشيخ مابال خصك لم يحترق قال انى اقسمت على ربى عز وجل ان لا يحرقه فقال ابو موسى رضى الله عنه انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (١) يكون فى امتى قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو اقسموا على الله لابرهم قال ووقع حريق بالبصرة فجاء ابو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له ياأمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال انى اقسمت على ربى عزوجل ان لا يحرقنى بالنار قال فاعزم على النار ان تطفأ قال فعزم عليها فطفئت وكان ابو حفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاقى مدهوش فقال له ابو حفص ما اصابك فقال ضل حمارى ولا املك غيره قال فوقف ابو حفص وقال وعزتك لا اخطو خطوة مالم ترد عليه حماره قال فظهر حماره فى الوقت ومر ابو حفص رحمه الله * فهذا وامثاله يجرى لذوى الانس وليس لغيرهم ان يتشبه بهم قال الجنيد رحمه الله اهل الانس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم اشياء هى كفر عند العامة وقال مرة لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد فى احوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم و يليق بهم واليه اشار القائل

قوم تخالجهم زهو بسيدهم * والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له * ياحسن رؤيتهم فى عزما تاهوا

ولا تستبعدن رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلفت مقامهما ففى القرآن تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لاولى البصائر والابصار حتى ينظروا اليها بعين الاعتبار فانما هى عند ذوى الاعتبار من الاسمار فاول القصص قصة آدم عليه السلام وابليس أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة اما ابليس فابلس عن رحمته وقيل انه من المبعدين واما آدم عليه السلام فقيل فيه وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاعراض عن عبد والاقبال على عبد وهما فى العبودية سيان ولكن فى الحال مختلفان فقال واما من جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى وقال فى الآخر اما من استغنى فانت له تصدى وكذلك امره بالقعود مع طائفة فقال عزوجل واذا جاءك الذين

ويـنكره بقلبه ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه و يدعو الله ان ينسيه ذلك و يشغله بغيره من ذكره وطاعته قال وان غفل عن الانكار طرفة عين اخاف عليه ان لا يسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار ويحزن فانه لا يضره (وهذا) الذى قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته (والعارف) القوى الحال يتمكن من ازالة الحلاوة عن باطنه ويسهل عليه ذلك واسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين

(١) حديث الحسن عن ابى موسى يكون فى امتى قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو اقسموا على الله لابرهم ابن أبى

يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم وأمره بالاعراض عن غيرهم فقال واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى قال فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي فكذا الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض فمن انبساط الانس قول موسى عليه السلام ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وقوله تعالى في التعلل والاعتذار لما قيل له اذهب الى فرعون فقال ولهم علي ذنب وقوله اني اخاف ان يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني وقوله اننا نخاف ان يفرط علينا أو ان يطغى وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الادب لان الذي اقيم مقام الانس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما اقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ونودي عليه الى يوم القيامة لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * قال الحسن العراء هو القيامة ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم ان يقتدي به وقيل له فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الاحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد وقد قال تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وقال منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولادلاله سلم على نفسه فقال والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الانس واما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه اقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى اثنى عليه خالقه فقال وسلام عليه وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف مافعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء قد عددت من اول قوله تعالى اذ قالوا ليوسف واخوه أحب الى أبينا منا الى رأس العشرين من اخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والاربع فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير في مسألة واحدة سال عنها في القدر حتى قيل محي من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام ابن باعوراء من اكابر العلماء فاكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه فقد روي ان الله تعالى اوحي الى سليمان عليه السلام يارأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين الى كم يعصيني ابن خالتك آصف وأنا احلم عليه مرة بعد مرة فوعزتي وجلالي لئن أخذته عصفة من عصفاتي عليه لاتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما اوحى الله تعالى اليه فخرج حتى علا كثيبا من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال الهي وسيدي أنت أنت وأنا أنا فكيف اتوب ان لم تتب علي وكيف استعصم ان لم تعصمني لاعودن فاوحى الله تعالى اليه صدقت يا آصف انت انت وانا انا استقبل التوبة وقد تبت عليك وانا التواب الرحيم وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه اليه وناظر به اليه وفي الخبر ان الله تعالى اوحى الى عبد تداركه بعد ان كان اشفى على الهلكة كم من ذنب واجهتني به غفرته لك قد اهلكت في دونه امة من الامم فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتاخير على ماسبقت به المشيئة الازلية وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل فما في القرآن شيء الا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى الى خلقه فتارة يتعرف اليهم بالتقديس فيقول قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد وتارة يتعرف اليهم بصفات جلاله فيقول الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وتارة يتعرف اليهم في افعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته في اعدائه وفي أنبيائه فيقول الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ولا يعدو القرآن هذه الاقسام الثلاثة وهي الارشاد الى معرفة ذات الله وتقديسه اومعرفة صفاته واسمائه او معرفة افعاله وسنته مع عباده ولما اشتملت سورة الاخلاص على احد هذه الاقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال (1) من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن لان منتهى التقديس ان يكون واحدا في ثلاثة امور لا يكون

الدنيا في كتاب الاولياء وفيه انقطاع وجهالة (1) حديث من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن احمد

فاي حلاوة تبقى في قلبه وانما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله (وسئل) السوسي عن التوبة فقال التوبة من كل شيء ذمه العلم الى ما مدحه العلم وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم لانه لا بقاء للجهل مع العلم كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن باخص أوصاف التوبة واعم أوصافها (وقال) ابو الحسن النوري التوبة ان تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى (قولهم) في

حاصلا منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله ولم يولد ولا يكون فى درجته وان لم يكن اصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل عليه قوله ولم يكن له كفوا احد ويجمع جميع ذلك قوله تعالى قل هو الله احد وجملته تفصيل قول لا اله الا الله فهذه اسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الاسرار فى القرآن ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه نوروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الاولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه الا من طال فى آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بانه كلام جبار قاهر مليك قادر وانه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن معباة فى طى القصص والاخبار فكن حريصا على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الانس والانبساط الذى هو ثمرته و بيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى اعلم

﴿القول فى معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وماورد فى فضيلته﴾

اعلم ان الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الاكثرين ومايدخل عليه من التشابه والايهام غير منكشف الا لمن علمه الله تعالى التاويل وفهمه وفقهه فى الدين فقد انكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا ان امكن الرضا بكل شىء فعل الله فينبغى ان يرضى بالكفر والمعاصى وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ولو انكشفت هذه الاسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لابن عباس حيث قال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التاويل فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات احوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر مايظن انه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصى

﴿ بيان فضيلة الرضا ﴾

(أما من الآيات) فقوله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه وقد قال تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان ومنتهى الاحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله اكبر فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر فكما ان مشاهدة المذكور فى الصلاة اكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطالب سكان الجنان وفى الحديث (٢) ان الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ولا يجوز ان يكشف عن حقيقته اذ تقصر افهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادراكه من نفسه وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر اليه فانما سألوا الرضا لانه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الامانى لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا الا دوامه وعلموا ان الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى ولدينا مزيد قال بعض المفسرين فيه يأتى اهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين احداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان

من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح ورواه البخارى من حديث أبى سعيد ومسلم من حديث ابى الدرداء نحوه (١) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التاويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وقد تقدم فى العلم (٢) حديث ان الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك البزار والطبرانى فى الاوسط من حديث أنس فى حديث طويل بسند فيه لين وفيه يتجلى لهم يقول انا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل اكرامى فسلونى فيسالونه الرضا الحديث ورواه ابو يعلى بلفظ ثم يقول ماذا تريدون

الورع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملاك دينكم الورع (اخبرنا) ابو زرعة اجازة عن ابى بكر بن خلف عن أبى عبد الرحمن السلمى اجازة قال انا ابو سعيد الخلال قال حدثنى ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن ابى بكر بن ابى مريم عن حبيب ابن عبيد عن ابى الدرداء رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم توضا على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله فى النهر وقال يبلغه الله عزوجل قوما ينفعهم (قال عمر بن الخطاب لا ينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزر بالورع ان يذل لصاحب دنيا قال معروف الكرخى احفظ لسانك

مثلها فذلك قوله تعالى فلاتعلم نفس مااخفي لهم من قرة أعين والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلاوهوقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم والثالثة يقول الله تعالى انى عنكم راض فيكون ذلك افضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ورضوان من الله اكبراى من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهوثمرة رضا العبد * واما من الاخبارفقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم (١) سال طائفة من اصحابه ما انتم فقالوا مؤمنون فقال ماعلامة ايمانكم فقالوا نصبرعلى البلاء ونشكرعند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة وفى خبرآخر (٢) انه قال حكماء علماء كادوا من فقههم ان يكونوا انبياء وفى الخبر (٣) طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافاورضى به وقال صلى الله عليه وسلم (٤) من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل وقال ايضا اذا احب الله تعالى عبدا ابتلاه فان صبراجتباه فان رضى اصطفاه وقال ايضا (٥) اذا كان يوم القيامة انبت الله تعالى لطائفة من امتى اجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤا فتقول لهم الملائكة هل رايتم الحساب فيقولون مارأينا حسابا فتقول لهم هل جزتم الصراط فيقول مارأينا صراطا فتقول لهم هل رايتم جهنم فيقولون مارأينا شيا فتقول الملائكة من امة من انتم فيقولون من امة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول نشدنا كم الله حدثونا ماكانت اعمالكم فى الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله فيقولون وماهما فيقولون كنا اذا خلونا نستحى ان نعصيه ونرضى باليسيرمما قسم لنا فتقول الملائكة يحق لكم هذا وقال صلى الله عليه وسلم يامعشر الفقراء (٦) اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والافلا وفى اخبار موسى عليه السلام ان بنى اسرائيل قالوا له سل لنا ربك امرا اذا نحن فعلناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام الهى قد سمعت ماقالوا فقال ياموسى قل لهم يرضون عنى حتى ارضى عنهم ويشهد لهذا ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال (٧) من احب ان يعلم ماله عند الله عزوجل فلينظر مالله عزوجل عنده فان الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث انزله العبد من نفسه وفى اخبارداود عليه السلام مالاوليائى والهم بالدنيا ان الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم ياداود ان محبتى من اوليائى ان يكونوا روحانيين لايغتمون وروى ان موسى عليه السلام قال يارب دلنى على امرفيه رضاك حتى اعمله فاوحى الله تعالى اليه ان رضاى فى كرهك وانت لاتصبرعلى ماتكرهه قال يارب دلنى عليه قال فان رضاى فى رضاك بقضائى وفى مناجاة موسى عليه السلام اى رب اى خلقك احب اليك قال من اذا اخذت منه المحبوب سالمنى قال فاى خلقك انت عليه ساخط قال من يستخيرنى فى الامر فاذا قضيت له سخط قضائى وقدروى ماهو اشد من ذلك وهو ان الله تعالى (٨) قال انا الله لااله الاانا من لم يصبرعلى بلائى ولم يشكرنعمائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى ومثله

فيقولون رضاك الحديث ورجاله رجال الصحيح (١) حديث سال طائفة من اصحابه ما انتم فقولوا مؤمنون فقال ماعلامة ايمانكم الحديث تقدم (٢) حديث انه قال فى حديث آخرحكماء علماء كادوا من فقههم ان يكونوا انبياء تقدم ايضا (٣) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به الترمذي من حديث فضالة ابن عبيد بلفظ وقنع وقال صحيح وقد تقدم (٤) حديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل رويناه فى امالى المحاملي باسناد ضعيف من حديث على ابن ابى طالب ومن طريق المحاملي رواه ابومنصور الديلمى فى مسند الفردوس (٥) حديث اذا كان يوم القيامة انبت الله لطائفة من امتى اجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان فى الضعفاء وابوعبد الرحمن السلمى من حديث انس مع اختلاف وفيه حميد ابن على القيسى ساقط هالك والحديث منكرمخالف للقران وللاحاديث الصحيحة فى الورود وغيره (٦) حديث اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والافلا تقدم (٧) حديث من احب ان يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده الحديث الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ منزلته ومنزلة الله (٨) حديث قال الله انا الله لااله الاانا من لم يصبرعلى بلائى الحديث الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابى هند الدارى مقتصرا على قوله

من المدح كما تحفظه من الذم (نقل) عن الحرث بن أسد المحاسبي انه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق اذا مديده الى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق (سئل الشبلى) عن الورع فقال الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك من الله طرفة عين (وقال) ابوسليمان الدارانى الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا (وقال) يحيى ابن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تاويل (سئل) الخواص عن الورع فقال أن لايتكلم العبد الا بالحق غضب أورضى وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى (أخبرنا) أبوزرعة اجازة عن ابى بكر ابن خلف اجازة

في الشدة قوله تعالى فيما اخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال (١) قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير واحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى وفى الخبر المشهور (٢) يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير واجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر واجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف وفى الاخبار السالفة ان نبيا من الانبياء شكا الى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب الى ما اراد ثم أوحى الله تعالى اليه كم تشكو هكذا كان بدؤك عندى فى ام الكتاب قبل ان اخلق السموات والارض وهكذا اسبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا افتريد ان أعيد خلق الدنيا من اجلك أم تريد ان ابدل ماقدرته عليك فيكون ماتحب فوق مااحب و يكون ماتريد فوق ماار يد وعزتى وجلالى لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة اخرى لامحونك من ديوان النبوة وروي ان آدم عليه السلام كان بعض اولاده الصغار يصعدون على بدنه و ينزلون يجعل احدهم رجله على اضلاعه كهيئة الدرج فيصعد الى رأسه ثم ينزل على اضلاعه كذلك وهو مطرق الى الارض لاينطق ولا يرفع راسه فقال له بعض ولده ياابت اماترى مايصنع هذا بك لونهيته عن هذا فقال يابنى انى رايت مالم ترو وعلمت مالم تعلموا انى تحركت حركة واحدة فاهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ومن دار النعيم الى دار الشقاء فاخاف ان اتحرك اخرى فيصيبنى مالا اعلم وقال (٣) انس بن مالك رضى الله عنه خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لشىء فعلته لم فعلته ولا لشىء لم افعله لم لا فعلته ولا قال فى شىء كان ليته لم يكن ولا فى شىء لم يكن ليته كان وكان اذا خاصمنى مخاصم من اهله يقول دعوه لوقضى شىء لكان ويروى ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام ياداود انك تريد وار يد وانما يكون ماار يد فان سلمت لما ار يد كفيتك ماتريد وان لم تسلم لماار يد اتعبتك فيماتريد ثم لايكون الا ماار يد (واما الآثار) فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما اول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال وقال عمر بن عبد العزيز مابقى لى سرور الا فى مواقع القدر وقيل له ماتشتهى فقال مايقضى الله تعالى وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء وقال الفضيل ان لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن ابى رواد ليس الشان فى اكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشان فى الرضا عن الله عز وجل وقال عبد الله بن مسعود لأن الحس جمرة أحرقت ما احرقت وابقت ماابقت احب الى من ان اقول لشىء كان ليته لم يكن اولشىء لم يكن ليته كان ونظر رجل الى قرحة فى رجل محمد ابن واسع فقال انى لارحمك من هذه القرحة فقال انى لاشكرها منذ خرجت اذ لم تخرج فى عينى وروى فى الاسرائيليات ان عابدا عبد الله دهرا طويلا فارى فى المنام فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة فسال عنها الى ان وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر الى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة و يظل صائما وتظل مفطرة فقال أمالك عمل غير مارايت فقالت ماهو والله الا مارأيت لا اعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خصيلة واحدة هى ان كنت فى شدة لم أتمن أن اكون فى رخاء وان كنت فى مرض لم اتمن ان اكون فى صحة وان كنت فى الشمس لم اتمن ان اكون فى الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال اهذه خصيلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد وعن بعض السلف ان الله تعالى اذا قضى فى السماء قضاء احب من أهل الارض ان يرضوا بقضائه وقال ابو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر وقال عمر رضى الله عنه ماأبالى على أى حال اصبحت وامسيت

من لم يرض بقضائى و يصبر على بلائى فليلتمس ربا سوى واسناده ضعيف (١) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير واحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم اجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الاوسط من حديث ابى امامة خلق الله الخلق وقضى القضية واخذ ميثاق النبيين الحديث واسناده ضعيف (٢) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير واجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين فى شرح السنة عن ابى امامة باسناد ضعيف (٣) حديث انس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فما قال لى لشىء فعلته لم فعلته الحديث

عن السلمى قال سمعت الحسن ابن احمد بن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينورى يقول سمعت ابن الجلاء يقول اعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم الا من ماء استقاه بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيا (وقال) الخواص الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة (قولهم فى الزهد) قال الجنيد الزهد خلو الايدى من الاملاك والقلوب من التتبع (وسئل) الشبلى عن الزهد فقال لازهد فى الحقيقة لانه اما ان يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد أو يزهد فيما هوله فكيف زهد فيه وهو معه وعنده فليس

من شدة أو رخاء وقال الثورى يوما عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت أما تستحى من الله ان تسأله الرضا وأنت عنه غير راض فقال استغفر الله فقال جعفر بن سليمان الضبعى فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت اذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة وكان الفضيل يقول اذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى وقال احمد ابن ابى الحوارى قال ابوسليمان الدارانى ان الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق ان يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فان محبة الله من عبيده ان يرضوا عنه وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) ان الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط

(بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى)

اعلم ان من قال ليس فيما يخالف الهوى وانواع البلاء الا الصبر فاما الرضا فلا يتصور فانما أتى من ناحية انكار المحبة فاما اذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى ان الحب يورث الرضا بافعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين * أحدهما ان يبطل الاحساس بالالم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فانه فى حال غضبه او فى حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى اذا رأى الدم استدل به على الجراحة بل الذى يغدوا فى شغل قريب قد تصيبه شوكة فى قدمه ولا يحس بالم ذلك لشغل قلبه بل الذى يحجم او يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به فان كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لان القلب اذا صار مستغرقا بامر من الامور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتالم به او يغتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا اذا اصابه من غير حبيبه فكيف اذا اصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من اعظم الشواغل واذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الالم العظيم بالحب العظيم فان الحب ايضا يتصور تضاعفه فى القوة كما يتصور تضاعف الالم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شىء منه فقد يبهره بحيث يدهش و يغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه فقد روى ان امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له فى ذلك فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع * وأما الوجه الثانى فهو ان يحس به و يدرك المه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له اعنى بعقله وان كان كارها بطبعه كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فانه يدرك الم ذلك الا انه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الالم وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ومهما اصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بان ثوابه الذى ادخر له فوق مافاته رضى به ورغب فيه واحبه وشكر الله عليه هذا ان كان يلاحظ الثواب والاحسان الذى يجازى به عليه و يجوز ان يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضا محبوبه اعنده ومطلوبا وكل ذلك موجود فى المشاهدات فى حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون فى نظمهم ونثرهم ولا معنى له الا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فان نظر الى الجمال فما هو الا جلد ولحم ودم مشحون بالاقذار والاخباث بدايته من نطفة مذرة

متفق عليه وقد تقدم (١) حديث ان الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا الحديث الطبرانى من حديث ابن مسعود الا انه قال بقسطه وقد تقدم

الا ظلف النفس و بذل مواسات يشير الى الاقسام التى سبقت بها الاقلام وهذا لو اطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب ولكن مقصود الشبلى أن يقلل الزهد فى عين المعتقد بالزهد لئلا يغتر به (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل قد اوتى زهدا فى الدنيا ومنطقا فاقربوا منه فانه يلقى الحكمة وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء فى قصة قارون فقال تعالى وقال الذين أتوا العلم ويلكم ثواب الله خير قيل هم الزاهدون (وقال) سهل ابن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك

ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وان نظر الى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن اين يستحيل ذلك في حب الجمال الازلي الابدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا امر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ويشهد لذلك الوجود وحكايات احوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها وقال الجنيد سألت سريا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء قال لا قلت وان ضرب بالسيف قال نعم وان ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة وقال بعضهم أحببت كل شيء بحبه حتى لو احب النار احببت دخول النار وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل الى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت فقال لاني عاشق فقلت له ولم سكت قال لان معشوقي كان بحذائي ينظر الي فقلت فلو نظرت الى المعشوق الاكبر قال فزعق زعقة خر ميتا وقال يحيى ابن معاذ الرازي رحمه الله تعالى اذا نظر اهل الجنة الى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر الى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع اليهم فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله اذا لاحظت جلاله هابت واذا لاحظت جماله تاهت وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فاذا برجل اعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعته في حجري وانا اردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني اربا اربا ما ازددت له الا حبا قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فانكرتها وقال ابو عمرو محمد بن الاشعث ان اهل مصر مكثوا اربعة اشهر لم يكن لهم غذاء الا النظر الى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا اذا جاعوا نظروا الى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو ابلغ من ذلك وهو تقطيع النسوة أيديهن لاستغراقهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابا وفي يده مدية وهو ينادي باعلى صوته والناس حوله وهو يقول

يوم الفراق من القيامة اطول * والموت من ألم التفرق اجمل
قالوا الرحيل فقلت لست براحل * لكن مهجتي التي تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن امره فقيل له انه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا ويروى ان يونس عليه السلام قال لجبريل دلني على اعبد اهل الارض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول الهي متعتني بهما ماشئت انت وسلبتني ماشئت انت وابقيت لي فيك الامل يابر ياوصول ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما انه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ ان حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا ابدا منه فقيل له في ذلك فقال ابن عمر انما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به وقال مسروق كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فاخذ الديك فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى ان يكون خيرا ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل عسى ان يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى ان يكون خيرا ثم اصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وبقوا هم قال وانما اخذوا أولئك لما كان عندهم من اصوات الكلاب والحمير والديكة فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذا من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال * ويروى ان عيسى عليه السلام مر برجل أعمى ابرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه فقال له عيسى ياهذا اي شيء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال ياروح الله انا خير ممن يجعل الله في قلبه

الدنيا (وقيل) في قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا قيل عن الدنيا (وفي الخبر) العلماء امناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا فاذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم (وجاء) في الاثر لاتزال لااله الا الله تدفع عن العباد سخط الله مالم يبالوا مانقص من دنياهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لااله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين (وقال) سهل اعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم (وقيل) من سمي باسم الزهد في الدنيا فقد سمي بالف اسم محمود ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بالف اسم

ما جعل فى قلبي من معرفته فقاله له صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو احسن الناس وجها وافضلهم هيئة وقد اذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من اكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى اخذ منى واحدة وايمك لئن كنت اخذت لقد ابقيت ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان بن مسعود يقول الفقر والغنى مطيتان ما ابالى ايتهما ركبت ان كان الفقر فان فيه الصبر وان كان الغنى فان فيه البذل وقال ابو سلمان الدارانى قد نلت من كل مقام حالا الا الرضا فمالى منه الامشام الريح وعلى ذلك لو ادخل الخلائق كلهم الجنة وادخلني النار كنت بذلك راضيا وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال اما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لو جعلنى جسراً على جهنم يعبر الخلائق على الى الجنة ثم ملا بى جهنم تحلة لقسمه و بدلا من خليقته لا حببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا كلام من علم ان الحب قد استغرق همه حتى منعه الاحساس بالم النار فان بقى احساس فيغمره ما يحصل من لذته فى استشعاره حصول رضا محبوبه بالقائه اياه فى النار واستيلاء هذه الحالة غير محال فى نفسه وان كان بعيداً من احوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي ان يستنكر الضعيف المحروم احوال الاقوياء ويظن ان ما هو عاجز عنه يعجز عنه الاولياء وقال الروذبارى قلت لابى عبدالله بن الجلاء الدمشقى قول فلان وددت ان جسدى قرض بالمقاريض وان هذا الخلق أطاعوه ما معناه فقال يا هذا ان كان هذا من طريق التعظيم والاجلال فلا اعرف وان كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فاعرف قال ثم غشى عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له فى سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف واخوه العلاء فجعل يبكى لما يراه من حاله فقال لم تبكى قال لانى اراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فان أحبه الى الله تعالى احبه الى ثم قال احدثك شيا لعل الله ان ينفعك به واكتم على حتى اموت ان الملائكة تزورنى فآنس بها وتسلم على فاسمع تسليمها فاعلم بذلك ان هذا البلاء ليس بعقوبة اذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا فى بلائه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا ان تحته شيا حتى كشف فقالت له امرأته اهلى فداؤك ما نطعمك ما نسقيك فقال طالت الضجعة ودبرت الحراقيف واصبحت نضوا لا اطعم طعاما ولا اسيغ شرابا منذ كذا فذكر اياما وما يسرنى انى نقصت من هذا قلامة ظفر * ولما قدم سعد بن ابى وقاص الى مكة وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون اليه كل واحد يساله ان يدعو له فيدعو لهذا ولهذا وكان مجاب الدعوة قال عبد الله بن السائب فاتيته وانا غلام فتعرفت اليه فعرفنى وقال انت قارىء اهل مكة قلت نعم فذكر قصة قال فى آخرها فقلت له ياعم انت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال يابنى قضاء الله سبحانه عندى احسن من بصرى وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة ايام لم يعرف له خبر فقيل له لو سالت الله تعالى ان يرده عليك فقال اعتراضى عليه فيما قضى اشد على من ذهاب ولدى وعن بعض العباد انه قال انى اذنبت ذنبا عظيما فانا ابكى عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد فى العبادة لاجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو قال قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن وقال بعض السلف لو قرض جسمى بالمقاريض لكان احب الى من ان اقول لشيء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه وقيل لعبد الواحد بن زيد ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال له يا حبيبي اخبرنى عنك هل قنعت به قال لا قال انست به قال لا قال فهل رضيت عنه قال لا قال فانما مزيدك منه الصوم والصلاة قال نعم قال لولا انى استحيي منك لاخبرتك بان معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه انك لم يفتح لك باب القلب فتترقى الى درجات القرب باعمال القلب وانما انت تعد فى طبقات اصحاب اليمين لان مزيدك منه فى اعمال الجوارح التى هى مزيد اهل العموم * ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى فى مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال من أنتم فقالوا محبوك فاقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتم محبتى ان صدقتم فاصبروا على بلائى وللشبلى رحمه الله تعالى

مذموم (قال) السرى الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية وحب المنزلة عند الناس وحب المحمدة والثناء (وسئل) الشبلى عن الزهد فقال الزهد غفلة لان الدنيا لا شئ والزهد فى لا شيء غفلة (وقال) بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم (وعندى) ان الزهد فى الزهد غير هذا وانما الزهد فى الزهد بالخروج من الاختيار فى الزهد لان الزهد اختيار الزهد وارادة وارادته تستند الى علمه وعلمه قاصر فاذا اقيم فى مقام ترك الارادة وانسلخ من اختياره

ان المحبة للرحمن اسكرنى * وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد اهل الشام كلكم يلقى الله عزوجل مصدقا ولعله قد كذبه وذلك ان احدكم لوكان له اصبع من ذهب ظل يشير بها ولوكان بها شلل ظل يوار يها يعنى بذلك ان الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة اهل الآخرة وهم يستنكفون منه * وقيل انه وقع الحريق فى السوق فقيل للسرى احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفاراً من قوله الحمد لله فاذا تاملت هذه الحكايات عرفت قطعا ان الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات اهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا فى حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا فى حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا وامكانه من وجهين احدهما الرضا بالالم لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء والثانى الرضا به لا لحظ ورائه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب فى مراد المحبوب فيكون الذ الاشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ ارادته ولو فى هلاك روحه كما قيل فما لجرح اذا ارضاكم الم * وهذا ممكن مع الاحساس بالالم وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن ادراك الالم فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغى ان ينكره من فقده من نفسه لانه انما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب اعظم مما وصفناه * وقد روى عن عمرو بن الحرث الرافعى قال كنت فى مجلس بالرقة عند صديق لى وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا فى المجلس فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى * على العاشقين البكى * ولا سيما عاشق * اذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى احسنت والله ياسيدتى افتاذنين لى ان اموت فقالت مت راشداً قال فوضع رأسه على الوسادة واطبق فمه وغمض عينيه فحركناه فاذا هو ميت وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع اليه ويظهر له المحبة فالتفت اليه الصبي وقال له الى متى ذا النفاق الذى تظهر لى فقال لى قد علم الله انى صادق فيما اورده حتى لوقلت لى مت لمت فقال ان كنت صادقا فمت قال فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا * وقال سمنون المحب كان فى جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فبينا هو يحرك القدر اذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك ما فى القدر بيده حتى سقطت اصابعه فقالت الجارية ما هذا قال هذا مكان قولك آه * وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادى قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد اشرف على الناس وهو يقول

من مات عشقا فليمت هكذا * لا خير فى عشق بلا موت

ثم رمى نفسه الى الارض فحملوه ميتا فهذا وأمثاله قد يصدق به فى حب المخلوق والتصديق به فى حب الخالق اولى لان البصيرة الباطنة اصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال فى العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الذى فقد البصر ينكر جمال الصور والذى فقد السمع ينكر لذة الالحان والنغمات الموزونة فالذى فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التى لا مظنة لها سوى القلب

﴿ بيان ان الدعاء غير مناقض للرضا ﴾

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها ومقت اسبابها والسعى فى ازالتها بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط فى ذلك بعض البطالين المغترين وزعم ان المعاصى والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتاويل وغفلة عن اسرار الشرع فاما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء عليهم السلام على ما نقلناه فى كتاب الدعوات تدل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعلى المقامات من الرضا وقد اثنى الله تعالى على بعض عباده

كاشفه الله تعالى بمراده فيترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه فيكون زهده بالله تعالى حينئذ او يعلم ان مراد الله منه التلبس بشىء من الدنيا فما يدخل بالله فى شىء من الدنيا لا ينقص عليه زهده فيكون دخوله فى الشىء من الدنيا بالله وباذن منه زهداً فى الزهد والزاهد فى الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ان تركها تركها بالله وان اخذها اخذها بالله وهذا هو الزهد فى الزهد وقد رأينا من العارفين من اقيم فى هذا المقام (وفوق هذا مقام آخر فى الزهد وهو لمن يرد الحق اليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه فى مقام

بقوله و يدعوننا رغبا ورهبا واماانكار المعاصى وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها وقال تعالى رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم وفى الخبر المشهور من شهد منكرا فرضى به فكانه قد فعله وفى الحديث (١) الدال على الشر كفاعله وعن ابن مسعود ان العبد ليغيب عن المنكر و يكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك قال يبلغه فيرضى به وفى الخبر (٢) لوأن عبدا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكا فى قتله وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة فى الخيرات وتوقى الشرور فقال الله تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) لاحسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها فى الناس و يعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق وفى لفظ اخر ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتانى الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل مايفعل وأما بغض الكفار والفجار والانكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والاخبار لا يحصى مثل قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وقال تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى اولياء وقال تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا وفى الخبر (٤) ان الله تعالى اخذ الميثاق على كل مؤمن ان يبغض كل منافق وعلى كل منافق ان يبغض كل مؤمن وقال عليه السلام (٥) المرء مع من احب وقال (٦) من احب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة وقال عليه السلام (٧) اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله وشواهد هذا قد ذكرنا فى بيان الحب والبغض فى الله تعالى من كتاب آداب الصحبة وفى كتاب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا نعيده فان قلت فقد وردت الآيات والاخبار (٨) بالرضا بقضاء الله تعالى فان كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح فى التوحيد وان كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى وكيف السبيل الى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة فى شيء واحد فاعلم ان هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على اسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن خلق وهو جهل محض بل نقول الرضا والكراهة يتضادان اذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد فى شيء واحد ان يكره من وجه و يرضى به من وجه اذ قد يموت عدوك الذى هو ايضا عدو بعض اعدائك وساع فى اهلاكه فتكره موته من حيث انه مات عدو عدوك وترضاه من حيث انه مات عدوك وكذلك المعصية لها وجهان

(١) حديث الدال على الشر كفاعله ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث انس باسناد ضعيف جدا (٢) حديث لوان رجلا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر فى المغرب كان شريكا فى قتله لم اجد له اصلا بهذا اللفظ ولابن عدى من حديث ابى هريرة من حضر معصية فكرهها فكانما غاب عنها ومن غاب عنها فاحبها فكانما حضرها وتقدم فى كتاب الامر بالمعروف (٣) حديث لاحسد الا فى اثنتين الحديث البخارى من حديث ابى هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم (٤) حديث ان الله اخذ الميثاق على كل مؤمن ان يبغض كل منافق الحديث لم اجد له اصلا (٥) حديث المرء مع من احب تقدم (٦) حديث من احب قوما ووالاهم حشر معهم الطبرانى من حديث ابى قرصافة وابن عدى من حديث جابر من احب قوما على اعمالهم حشر فى زمرتهم زاد ابن عدى يوم القيامة وفى طريقه اسماعيل بن يحيى التيمى ضعيف (٧) حديث اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله رواه احمد وتقدم فى آداب الصحبة (٨) الاخبار الواردة فى الرضا بقضاء الله الترمذى من حديث سعد بن ابى وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عزوجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن اغنى الناس وحديث ان الله بقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا وتقدم فى حديث الاستخارة واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه

البقاء فيزهد زهدا ثالثا و يترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة و يكون تركه الدنيا فى هذا المقام باختياره واختياره من اختيار الحق فقد يختار تركها حينا تاسيا بالانبياء والصالحين و يرى أن أخذها فى مقام الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأو الاقوياء من الانبياء والصديقين فيترك الرفق من الحق بالحق للحق وقد يتناوله باختياره رفقا بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم (وهذا) مقام التصرف لأقوياء العارفين زهدوا ثالثا بالله كما رغبوا ثانيا بالله كما زهدوا أولا لله (قولهم فى الصبر)

وجه الله تعالى من حيث أنه فعله واختياره وارادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك الى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ووجه الى العبد من حيث انه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا الا بمثال فانفرض محبوبا من الخلق قال بين يدى محبيه انى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أنى أقصد الى فلان فاوذيه واضر به ضربا يضطره ذلك الى الشتم لى حتى اذا شتمنى ابغضته واتخذته عدوا لى فكل من احبه اعلم ايضا انه عدوى وكل من أبغضه أعلم انه صديقى ومحبى ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض وحصل البغض الذى هو سبب العداوة فحق على كل من هو صادق فى محبته وعالم بشروط المحبة ان يقول أما تدبيرك فى ايذاء هذا الشخص وضربه وابعاده وتعرضه لبغضك اياه للبغض والعداوة فانا محب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وارادتك واما شتمه اياك فانه عدوان من جهته اذ كان حقه ان يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث انه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فانا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تدبيرك وتعويقا فى مرادك وانا كاره لفوات مرادك ولكنه من حيث انه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك اذ كان ذلك يقتضى ان يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فانا كاره له من حيث نسبته اليه ومن حيث انه هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك واما بغضك له بسبب شتمك فانا راض به ومحب له لانه مرادك وانا على موافقتك ايضا مبغض له لان شرط المحب ان يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا واما بغضه لك فانى ارضاه من حيث انك اردت ان يبغضك اذ ابعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعى البغض ولكنى ابغضه من حيث انه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وامقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته اياك وبغضه ومقته لك ايضا عندى مكروه من حيث انه وصفه وكل ذلك من حيث انه مرادك فهو مرضى وانما التناقض ان يقول هو من حيث انه مرادك مرضى ومن حيث انه مرادك مكروه واما اذا كان مكروها لا من حيث انه فعله ومراده بل من حيث أنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى فاذا تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك الى حب المعصية ويجره الحب الى فعل المعصية يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا ليجره الضرب الى الغضب والغضب الى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وان كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وان كان شتمه انما يحصل بتدبيره واختياره لاسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده اعني تسليط دواعى المعصية عليه يدل على انه سبقت مشيئته بابعاده ومقته فواجب على كل عبد محب لله ان يبغض من ابغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادى من ابعده الله عن حضرته وان اضطره بقهره وقدرته الى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وان كان بعيدا بابعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والمبعد عن درجات القرب ينبغي ان يكون مقيتا بغيضا الى جميع المحبين موافقة للمحبوب باظهار الغضب على من اظهر المحبوب الغضب عليه بابعاده وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الاخبار من البغض فى الله والحب فى الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة فى مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث انه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لا رخصة فى افشائه وهو ان الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والارادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال انهما جميعا منه من غير افتراق فى الرضا والكراهة فهو ايضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير ماذون فيه فالاولى السكوت والتادب بادب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) القدر سر الله فلا تفشوه وذلك يتعلق بعلم المكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى

قال سهل الصبر انتظار الفرج من الله وهو افضل الخدمة واعلاها وقال بعضهم الصبر ان تصبر فى الصبر اى لا تطالع فيه الفرج (قال) الله تعالى والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (وقيل) لكل شىء جوهر وجوهر الانسان العقل وجوهر العقل الصبر فالصبر عرك النفس وبالعرك تلين والصبر جار فى الصابر مجرى الانفاس لانه يحتاج الى الصبر عن كل منهى ومكروه ومذموم ظاهرا وباطنا والعلم يدل والصبر يقبل ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر ومن كان العلم سائسه فى الظاهر

بالقليل من العمل وحديث اسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلا تفشوه ابو نعيم

ومقت

ومقت المعاصي مع انهامن قضاء الله تعالى وقدظهر الغرض من غير حاجة الى كشف السر فيه و بهذا يعرف أيضا ان الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الاسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبة مسبب الاسباب فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالى وأمر به وقدذكرنا ان التمسك بالاسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصيناه في كتاب التوكل فهو أيضا لا يناقض الرضا لان الرضا مقام ملاصق للتوكل و يتصل به نعم اظهار البلاء في معرض الشكوى وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا واظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض وقدقال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أي في معرض الشكاية وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الاطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لان مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قادح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها و يقول ما قاله عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي

﴿ بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا ﴾

اعلم أن الضعيف قد يظن (١) أن نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لان كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون انه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الاصحاء و بقي فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزالا وضرا ولذلك (٢) شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الاخبار بالفرار من الزحف ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل واذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو الى المعاصي والاسباب التي تدعو اليها لاجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد واظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد قيل وكيف قال هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيت بها الا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغي ان تظن ان ذلك من الغيبة لانه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وانما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج الى مكة وقد كان مقامه ببغداد يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الاحبار وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فما تصنع به بلغني انه ما من أحد يسكن العراق الا قيض الله له قرينا من البلاء وذكر كعب الاحبار يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء العضال وقد قيل قسم الخير عشرة اجزاء فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل ابن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة فاجلسه الى جانبه واقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال بغداد فاعرض عنه

---

(١) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث أنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف تقدم فيه

والباطن لا يتم ذلك له الا اذا كان الصبر مستقره ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرهما الغريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما و بالصبر يتحامل على النفس و بالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما في مستقره وفي ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال و بانفصال أحدهما عن الآخر أعني العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعني النفس والروح و بيان ذلك يدق وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير

وقال يأتينا أحدهم فى زى الرهبان فاذا سالناه أين تسكن قال فى عش الظلمة وكان بشر بن الحرث يقول مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد فى الحش وكان يقول لاتقتدوابى فى المقام بها من أراد ان يخرج فليخرج وكان احمد ابن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر فى نفسى قيل وأين تختار السكنى قال بالثغور وقال بعضهم وقدسئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير فهذا يدل على ان من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصى ويقل فيها الخير فلاعذر له فى المقام بها بل ينبغى ان يهاجر قال الله تعالى ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فان منعه عن ذلك عيال اوعلاقة فلا ينبغى ان يكون راضيا بحاله مطمئن النفس اليه بل ينبغى ان يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها وذلك لان الظلم اذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فاذا ليس فى شىء من اسباب نقص الدين البتة رضا مطلق الا من حيث اضافتها الى فعل الله تعالى فاماهى فى نفسها فلا وجه للرضا بها بحال وقد اختلف العلماء فى الافضل من اهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا الى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا أختار شيئا بل ارضى بما اختاره الله تعالى ورفعت هذه المسألة الى بعض العارفين فقال صاحب الرضا افضلهم لانه اقلهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى و يوسف ابن اسباط فقال الثورى كنت اكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أنى مت فقال له يوسف لم قال لما أتخوف من الفتنة فقال يوسف لكنى لا اكره طول البقاء فقال سفيان لم قال لعلى اصادف يوما أتوب فيه واعمل صالحا فقيل لوهيب ايش تقول انت فقال انا لا اختار شيئا احب ذلك الى احبه الى الله سبحانه فقبل الثورى بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة

﴿ بيان جملة من حكايات المحبين واقوالهم ومكاشفاتهم ﴾

قيل لبعض العارفين انك محب فقال لست محبا انما انا محبوب والمحب متعوب وقيل له ايضا الناس يقولون انك واحد من السبعة فقال انا كل السبعة وكان يقول اذا رأيتمونى فقد رأيتم اربعين بدلا قيل وكيف وانت شخص واحد قال لانى رأيت اربعين بدلا واخذت من كل بدل خلقا من اخلاقه وقيل له بلغنا انك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال ماحدثت نفسى يوما قط انه لم يبق ولى لله تعالى الا عرفته الا ورأيت فى ذلك اليوم وليا لم أعرفه وقيل لابى يزيد البسطامى مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم ان تعلموا ذلك قيل فحدثنا باشد مجاهدتك لنفسك فى الله تعالى فقال وهذا ايضا لا يجوز ان اطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك فى بدايتك فقال نعم دعوت نفسى الى الله فجمحت على فعزمت عليها ان لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لى بذلك * ويحكى عن يحيى بن معاذ انه رأى أبا يزيد فى بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء الى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الارض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فاطاله ثم قعد فقال اللهم ان قوما طلبوك فاعطيتهم المشى على الماء والمشى فى الهواء فرضوا بذلك وانى اعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم طى الارض فرضوا بذلك وانى اعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم كنوز الارض فرضوا بذلك وانى اعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الاولياء ثم التفت فرآنى فقال يحيى قلت نعم ياسيدى فقال مذمتى انت ههنا قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدى حدثنى بشىء فقال احدثك بما يصلح لك ادخلنى فى الفلك الاسفل فدورنى فى الملكوت السفلى وأرانى الارضين وماتحتها الى الثرى ثم ادخلنى فى الفلك العلوى فطوف بى فى السموات وارانى مافيها من الجنان الى العرش ثم اوقفنى بين يديه فقال سلنى اى شىء رأيت حتى اهبه لك فقلت ياسيدى مارأيت شيئا استحسنته فاسالك اياه فقال انت عبدى حقا تعبدنى لاجلى صدقا لافعلن بك ولافعلن فذكر أشياء قال يحيى

خساب كل اجير اجره بحساب واجر الصابرين بغير حساب (وقال) الله تعالى لنبيه واصبر وما صبرك الا بالله اضاف الصبر الى نفسه لشرف مكانه وتكميل النعمة به * قيل وقف رجل على الشبلى فقال اى صبر اشد على الصابرين فقال الصبر فى الله فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فغضب الشبلى وقال ويحك اى شىء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبلى صرخة كاد ان تتلف روحه (وعندى) فى معنى الصبر عن الله وجه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه وذلك ان الصبر عن الله يكون

فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لاسالته المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ماشئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت و يلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه وحكي ان أباتراب النخشبي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه و يقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته فقال له ابوتراب يوما لو رايت ابايزيد فقال اني عنه مشغول فلما أكثر عليه ابوتراب من قوله لو رايت ابايزيد هاج وجد المريد فقال و يحك ما اصنع بابي يزيد قد رايت الله تعالى فاغناني عن ابي يزيد قال ابوتراب فهاج طبعي ولم املك نفسي فقلت و يلك تغتر بالله عزوجل لو رايت ابايزيد مرة واحدة كان انفع لك من ان ترى الله سبعين مرة قال فبهت الفتى من قوله وانكره فقال وكيف ذلك قال له و يلك اماترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى ابايزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ماقلت فقال احملني اليه فذكر قصة قال في آخرها فوقفنا على تل ننتظره ليخرج الينا من الغيضة وكان ياوي الى غيضة فيها سباع قال فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى هذا ابو يزيد فانظر اليه فنظر اليه الفتى فصعق فحركناه فاذا هو ميت فتعاونا على دفنه فقلت لابي يزيد ياسيدي نظره اليك قتله قال لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لانه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك * ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الانفس ونهبوا الاموال اجتمع الى سهل اخوانه فقالوا لوسالت الله تعالى دفعهم فسكت ثم قال ان لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الارض ظالم الامات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم قال لانهم لا يحبون مالا يحب ثم ذكر من اجابة الله اشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال ولوسالوه ان لا يقيم الساعة لم يقمها وهذه امور ممكنة في انفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي ان يخلو عن التصديق والايمان بامكانها فان القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له ولذلك كان ابو يزيد يقول ان اعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة ابراهيم فاطلب ماوراء ذلك فان عنده فوق ذلك اضعافا مضاعفة فان سكنت الى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لانهم الامثل فالامثل وقد قال بعض العارفين كوشفت بار بعين حوراء رايتهن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش و يتثنى معهن فنظرت اليهن نظرة فعوقبت ار بعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال وقيل لي انظر اليهن قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا انظر اليهن وقلت اعوذ بك مما سواك لا حاجة لي بهذا فلم ازل اتضرع حتى صرفهن الله عني فامثال هذه المكاشفات لا ينبغي ان ينكرها المؤمن لافلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد الا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الايمان عليه بل هذه احوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة ادناها الاخلاص واخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الاعمال ظاهرا و باطنا ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول فهذه اوائل سلوكهم واقل مقاماتهم وهي اعز موجود في الاتقياء من الناس و بعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات الى الخلق يفيض عليه نور اليقين و ينكشف له مبادي الحق وانكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري مجرى انكار من انكر امكان انكشاف الصورة في الحديدة اذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة فنظر المنكر الى مافي يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فانكر امكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها وانكار ذلك غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من انكر كرامات الاولياء اذ لا مستند له الاقصوره عن ذلك وقصور من رآه و بئس المستند ذلك في انكار قدرة الله تعالى بل انما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادي الطريق كما قيل لبشر باي شيء بلغت هذه المنزلة قال كنت أكاتم الله تعالى حالي معناه اساله أن يكتم علي و يخفي أمري وروي انه رأى الخضر عليه السلام فقال له ادع الله تعالى لي فقال له يسر الله عليك طاعته قلت زدني قال وسترها عليك فقيل معناه سترها عن الخلق وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت

في أخص مقدمات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء واجلالا وتنطبق بصيرته خجلا وذو بانا و يتغيب في مفاوز استكانته وتخفيه لاحساسه بعظيم أمر التجلي وهذا من أشد الصبر لانه يود استدامة هذه الحال تادية لحق الجلال والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجمال وكما ان النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك (وقال) أبو الحسن بن سالم هم ثلاثة متصبر وصابر وصبار فالمتصبر من صبر في الله فمرة يصبر ومرة يجزع والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع ولكن

أنت اليها وعن بعضهم أنه قال اقلقنى الشوق الى الخضر عليه السلام فسالت الله تعالى مرة ان يرينى اياه ليعلمنى شيا كان اهم الاشياء على قال فرأيته فما غلب على همى ولا همتى الا ان قلت له يا ابا العباس علمنى شيا اذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لى فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة فقال قل اللهم اسبل على كثيف سترك وحط على سرادقات حجبك واجعلنى فى مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم اره ولم اشتق اليه بعد ذلك فما زلت اقول هذه الكلمات فى كل يوم فحكى انه صار بحيث كان يستذل ويمتهن حتى كان اهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه فى الطرق بحمل الاشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله فى ذله وخموله فهكذا حال اولياء الله تعالى ففى امثال هؤلاء ينبغى ان يطلبوا والمغرورون انما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفى المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيرة الله تعالى على اوليائه تابى الا اخفاءهم كما قال تعالى أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى وقال صلى الله عليه وسلم [1] رب اشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو اقسم على الله لابره وبالجملة فابعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة المعجبة بانفسها المستبشرة بعملها وعلمها واقرب القلوب اليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا اذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه فاذا لم يحس بالذل ولم يشعر ايضا بعدم التفاته الى الذل بل كان عند نفسه أخس منزلة من ان يرى جميع انواع الذل ذلا فى حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات فمثل هذا القلب يرجى له ان يستنشق مبادى هذه الروائح فان فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغى ان يطرح الايمان بامكان ذلك لاهله فمن لا يقدر ان يكون من اولياء الله فليكن محبا لاولياء الله مؤمنا بهم فعسى ان يحشر مع من احب ويشهد لهذا ماروى ان عيسى عليه السلام قال لبنى اسرائيل اين ينبت الزرع قالوا فى التراب فقال بحق اقول لكم لا تنبت الحكمة الا فى قلب مثل التراب ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى فى طلب شروطها باذلال النفس الى منتهى الضعة والخسة حتى روى ان ابن الكريبي وهو استاذ الجنيد دعاه رجل الى طعام ثلاث مرات ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع اليه بعد ذلك حتى ادخله فى المرة الرابعة فساله عن ذلك فقال قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لاجبت وعنه أيضا انه قال نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح فتشتت على قلبي فدخلت الحمام وعدلت الى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت وجعلت امشى قليلا قليلا فلحقونى فنزعوا مرقعتى واخذوا الثياب وصفعونى واوجعونى ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسى فهكذا كانوا يروضون انفسهم حتى يخلصهم الله من النظر الى الخلق ثم من النظر الى النفس فان الملتفت الى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل وانما بعد القلوب شغلها بغيره او بنفسها واعظم الحجب شغل النفس ولذلك حكى ان شاهدا عظيم القدر من اعيان اهل بسطام كان لا يفارق مجلس ابى يزيد فقال له يوما انا منذ ثلاثين سنة اصوم الدهر لا افطر واقوم الليل لا انام ولا اجد فى قلبي من هذا العلم الذى تذكر شيا وانا اصدق به واحبه فقال ابو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة قال ولم قال لانك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء قال نعم قال قل لى حتى اعمله قال لا تقبله قال فاذكره لى حتى اعمل قال اذهب الساعة الى المزين فاحلق راسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق فى عنقك مخلاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعنى صفعة اعطيته جوزة وادخل السوق وطف الاسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وانت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لى مثل هذا فقال ابو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف قال لانك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لا افعله ولكن دلنى على غيره فقال ابتدئ بهذا قبل كل شئ فقال لا أطيقه قال قد قلت

(١) حديث رب اشعث اغبر ذى طمرين مسلم من حديث ابى هريرة وقد تقدم

منه يتوقع الشكوى وقد يمكن منه الجزع واما الصبار فذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة لا من جهة الرسم والخلقة واشارته فى هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة (وكان) الشبلى يتمثل بهذين البيتين

ان صوت المحب من الم الشوق وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب للصبر صبرا

(قال) جعفر الصادق رحمه الله امر الله تعالى انبياءه بالصبر وجعل الحظ الاعلى للرسول

لك انك لاتقبل فهذا الذى ذكره أبو يزيد هودواء من اعتل بنظره الى نفسه ومرض بنظر الناس اليه ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغى أن ينكر امكان الشفاء فى حق من داوى نفسه بعد المرض أولم يمرض بمثل هذا المرض أصلا فاقل درجات الصحة الايمان بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا وهذه أمور جلية فى الشرع واضحة وهى مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) لا يستكمل العبد الايمان حتى تكون قلة الشىء احب اليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف احب من أن يعرف وقد قال عليه السلام (٢) ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من عمله واذا عرض عليه أمران احدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا وقال عليه السلام (٣) لا يكمل ايمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل واذا قدر لم يتناول ماليس له وفى حديث آخر (٤) ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر وخشية الله فى السر والعلانية فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لاولى الايمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله ان يجحد مالا يكون الا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الايمان وفى الاخبار ان الله تعالى أوحى الى بعض انبيائه انما أتخذ لخلتى من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيئا من خلقى وان حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وان قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما فمن لم يبلغ الى أن يغلبه الحب الى هذا الحد فمن أين يعرف ماوراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الايمان ومقامات الايمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان لاحصر له ولذلك قال عليه السلام (٥) للصديق رضى الله عنه ان الله تعالى قد اعطاك مثل ايمان كل من آمن بى من أمتى واعطانى مثل ايمان كل من آمن به من ولد آدم وفى حديث آخر (٦) ان لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يارسول الله هل فى منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر واحبها الى الله السخاء وقال عليه السلام (٧) رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بهم ووضع ابو بكر فى كفة وجىء بامتى فوضعت فى كفة فرجح بهم ومع هذا كله

صلى الله عليه وسلم حيث جعل صبره بالله لا بنفسه فقال وما صبرك الا بالله (وسئل) السرى عن الصبر فتكلم فيه فدب على رجله عقرب فجعل يضربه بابرته فقيل له لم لا تدفعه قال استحى من الله تعالى أن اتكلم فى حال ثم أخالف ما اتكلم فيه (اخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابى بكر ابن خلف اجازة عن ابى عبد الرحمن قال سمعت محمد بن خالد يقول سمعت الفرغانى يقول سمعت الجنيد رحمه الله يقول ان الله تعالى أكرم المؤمنين بالايمان وأكرم الايمان بالعقل وأكرم العقل بالصبر فالايمان زين المؤمن والعقل زين الايمان والصبر

---

(١) حديث لا يستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشىء احب اليه من كثرته وحتى يكون ان لا يعرف احب اليه من ان يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلى بن أبى طلحة انما سمع من التابعين ولم أجد له أصلا (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف فى الله لومة لائم الحديث ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وفيه سالم المرادى ضعفه ابن معين والنسائى ووثقه ابن حبان واسم أبيه عبد الواحد (٣) حديث لا يكمل ايمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق الحديث الطبرانى فى الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الايمان واسناده ضعيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ما أوتى آل داود العدل فى الرضا والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث انه قال للصديق ان الله قد اعطاك مثل ايمان كل من آمن بى من أمتى الحديث ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية الحارث الاعور عن على مع تقديم وتاخير والحارث ضعيف (٦) حديث ان لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبرانى فى الاوسط من حديث أنس مرفوعا عن الله خلقت بضعة عشر وثلثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة ان لا اله الا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الاسلام ثلثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة وفيه وفى الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الايمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان ان لله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبى بكر وجوابه وكلها ضعيفة (٧) حديث رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بهم الحديث احمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف

فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال (١) لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت ابابكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى يعني نفسه

﴿ خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها ﴾

قال سفيان المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الذكر وقال غيره ايثار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله اشارة الى ثمرات المحبة فامانفس المحبة فلم يتعرضوا لها وقال بعضهم المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن ادراكه وتمتنع الالسن عن عبارته وقال الجنيد حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت المحبة وقال ذوالنون قل لمن اظهر حب الله احذر ان تذل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف ان تكلم هلك والمحب ان سكت هلك وقال الشبلي رحمه الله

يا أيها السيد الكريم * حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني * أنت بما مربي عليم

ولغيره

عجبت لمن يقول ذكرت ألفي * وهل أنسى فاذكر مانسيت
أموت اذا ذكرتك ثم أحيا * ولولا حسن ظني ماحييت
فاحيا بالمنى وأموت شوقا * فكم احيا عليك وكم أموت
شربت الحب كاسا بعد كاس * فما نفد الشراب وما رويت
فليت خياله نصب لعيني * فان قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله الى عيسى عليه السلام اني اذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم سمنون يوما في المحبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الارض حتى سال الدم منه فمات وقال ابراهيم بن أدهم الهي انك تعلم ان الجنة لاتزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك وقال السري رحمه الله من احب الله عاش ومن مال الى الدنيا طاش والاحمق يغدو ويروح في لاش والعاقل عن عيوبه فتاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله اني لاحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن افضل الاعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال ابو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة انما يحب من مولاه مولاه وقال الشبلي الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم وقيل المحبة ان تمحو اثرك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك اليك وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن المحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة المحب على أربع منازل على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لان هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عز وجل احبه واذا احبه اقبل عليه واذا وجد حلاوة الاقبال عليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا الى الله تعالى وحبا للقائه قال فقلت لها أفعلى ثقة انت من عملك قالت لا ولكن لحبي اياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا احبه وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى وتقطعت أوصالهم من محبتي ياداود هذه ارادتي في المدبرين عني فكيف ارادتي

(١) حديث لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت ابابكر خليلا الحديث متفق عليه وقد تقدم

زين العقل وأنشد عن ابراهيم الخواص رحمه الله

صبرت على بعض الأذى خوف كله * ودافعت عن نفسي لنفسي فعزت
وجرعتها المكروه حتى تدربت * ولو لم اجرعها اذا لاشمأزت
ألا رب ذل ساق للنفس عزة * ويارب نفس بالتذلل عزت
اذا ما مددت الكف ألتمس الغنى * الى غير من قال اسألوني فشلت
ساصبر جهدي ان في الصبر عزة * وأرضى بدنياي وان هي قلت

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما أنعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منه الصبر الا كان ماعاضه خيرا مما انتزعه منه وأنشد

في المقبلين على ياداود احوج ما يكون العبد الى اذا استغنى عني وارحم ما اكون بعبدي اذا ادبر عني واجل ما يكون عندي اذا رجع الى وقال ابو خالد الصفار لقي نبي من الانبياء عابدا فقال له انكم معاشر العباد تعملون على امر لسنا معشر الانبياء نعمل عليه انتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق وقال الشبلي رحمه الله اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود ذكري للذاكرين وجنتي للمطيعين وزيارتي للمشتاقين وانا خاصة للمحبين واوحى الله تعالى الى آدم عليه السلام يا آدم من احب حبيبا صدق قوله ومن انس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق اليه جد في مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره و يقول واشوقاه لمن يراني ولا اراه وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمي وقام حتى انحنى وصلى حتى اقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني و بينك بحر من نار لخضته اليك شوقا مني اليك وعن (١) علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قال سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل اصل ديني والحب اساسي والشوق مركبي وذكر الله انيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة وقال ذو النون سبحان من جعل الارواح جنوداً مجندة فارواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا الى الله تعالى وارواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا الى الجنة وارواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا الى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت في جبل اللكام رجلا اسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر الى حجر و يقول

الشوق والهوى * صيراني كما ترى

و يقال الشوق نار الله اشعلها في قلوب اوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر كاف في شرح المحبة والانس والشوق والرضا * فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والانس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به ايمان الموقنين ونقر بوحدانيته اقرار الصادقين ونشهد ان لا اله الا الله رب العالمين وخالق السموات والارضين ومكلف الجن والانس والملائكة المقربين ان يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين فما لله الا الدين الخالص المتين * فانه اغنى الاغنياء عن شركة المشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله واصحابه الطيبين الطاهرين (اما بعد) فقد انكشف لارباب القلوب ببصيرة الايمان وانوار القرآن ان لا وصول الى السعادة الا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير اخلاص رياء وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء والاخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بارادة غير الله مشوبا مغموراً وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية او كيف يخلص من صحح النية اذا لم يعرف حقيقة الاخلاص او كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق اذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الاولى على كل عبد اراد طاعة الله تعالى ان يتعلم النية اولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتا العبد الى النجاة والخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والاخلاص في ثلاثة ابواب (الباب الاول)

(١) حديث علي سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل اصل ديني الحديث ذكره القاضي عياض من حديث علي ابن ابي طالب ولم اجد له اسناداً

لسمنون
تجرعت من حاليه نعمى وابؤسا
زمانا اذا اجرى عز اليه احتسى
فكم غمرة قد جرعتني كؤسها
فجرعتها من بحر صبري اكؤسا
تدرعت صبري والتحفت صروفه
وقلت لنفسي الصبر او فاهلكي اسى
خطوب لوان الشم زاحمن خطبها
لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

(قولهم في الفقر) قال ابن الجلاء الفقر ان لا يكون لك فاذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر (وقال) الكتاني اذا صح الافتقار الى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لانهما حالان لا يتم احدهما الا بالاخر (وقال) النوري نعت الفقراء السكون عند

فى حقيقة النية ومعناها(الباب الثانى) فى الاخلاص وحقائقه(الباب الثالث) فى الصدق وحقيقته
(الباب الاول فى النية) وفيه بيان فضيلة النية و بيان حقيقة النية و بيان كون النية خيرا من العمل و بيان تفضيل الاعمال المتعلقة بالنفس و بيان خروج النية عن الاختيار

﴿ بيان فضيلة النية ﴾

قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه والمراد بتلك الارادة هى النية وقال صلى الله عليه وسلم (١) انما الاعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه وقال صلى الله عليه وسلم (١) أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته وقال تعالى ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم (٣) ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم واموالكم وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم وانما نظر الى القلوب لانها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم (٤) ان العبد ليعمل اعمالا حسنة فتصعد الملائكة فى صحف مختمة فتلقى بين يدى الله تعالى فيقول القوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهى ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يار بنا انه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى انه نواه وقال صلى الله عليه وسلم (٥) الناس اربعة رجل اتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الاجر سواء ورجل اتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما اتاه عملت كما يعمل فهما فى الوزر سواء الاترى كيف شركه بالنية فى محاسن عمله ومساويه وكذلك فى حديث انس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك (٦) قال ان بالمدينة اقواما ماقطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا انفقنا نفقة ولا اصابتنا مخمصة الا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركوا بحسن النية وفى حديث (٢) ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا فهوله فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس وكذلك جاء فى الخبر (٨) ان رجلا قتل فى سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار لانه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فاضيف الى نيته وفى حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم (٩) من غزا وهو لا ينوى الا عقالا فله مانوى وقال (١٠) انى استعنت رجلا يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت

---

(١) حديث انما الاعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث اكثر شهداء امتى اصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله اعلم بنيته احمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة (٣) حديث ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم الحديث مسلم من حديث ابى هريرة وقد تقدم (٤) حديث ان العبد ليعمل اعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة الحديث الدار قطنى من حديث انس باسناد حسن (٥) حديث الناس اربعة رجل آتاه الله علما ومالا الحديث ابن ماجه من حديث ابى كبشة الانمارى بسند جيد بلفظ مثل هذه الامة كمثل اربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذى بزيادة وفيه وانما الدنيا لاربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (٦) حديث أنس ان بالمدينة اقواما ماقطعنا واديا الحديث البخارى مختصرا وأبو داود (٧) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا فهوله هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس الطبرانى باسناد جيد (٨) حديث ان رجلا قتل فى سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار لم اجد له اصلا فى الموصولات وانما رواه ابو اسحاق الفراوى فى السنن من وجه مرسل (٩) حديث من غزا وهو لا ينوى الا عقالا فله مانوى النسائى من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة (١٠) حديث انى استعنت رجلا يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ما جعلت له الطبرانى فى مسند الشاميين ولابى داود من حديث يعلى بن أمية انه استاجرا أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبى صلى الله عليه وسلم

العدم والبذل عند الوجود وقال غيره والاضطراب عند الموجود وقال الدراج فتشت كنف استاذى اريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فتحيرت فلما جاء قلت له انى وجدت فى كنفك هذه القطعة قال قد رأيتها ردها ثم قال خذها واشتر بها شيئا فقلت ما كان امر هذه القطعة بحق معبودك فقال مارزقنى الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها فاردت ان اوصى ان تشد فى كفنى فاردها الى الله (وقال) ابراهيم الخواص الفقر رداء الشرف ولباس المرسلين وجلباب الصالحين (وسئل) سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق فقال

وذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ماجعلت له وروى في الاسرائيليات ان رجلا مر بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه لوكان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فاوحى الله تعالى الى نبيهم ان قل له ان الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب مالوكان طعاما فتصدقت به وقد ورد في اخبار كثيرة (١) من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وفي حديث (٢) عبد الله بن عمر ومن كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب مايكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد مايكون فيها وفي حديث (٣) ام سلمة ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يارسول الله يكون فيهم المكره والاجير فقال يحشرون على نياتهم وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٤) انما يقتتل المقتتلون على النيات وقال عليه السلام (٥) اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (٦) يبعث كل عبد على مامات عليه وفي حديث (٧) الاحنف عن أبي بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه أراد قتل صاحبه وفي حديث (٨) أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوي اداءه فهو زان ومن أدان دينا وهو لاينوي قضاءه فهو سارق وقال صلى الله عليه وسلم (٩) من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة (وأما الآثار) فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه افضل الاعمال أداء ماافترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى وكتب سالم بن عبد الله الى عمر ابن عبد العزيز اعلم ان عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره وقال بعض السلف رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما الى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك وقال الثوري كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ومادمت تنوي الخير فانت بخير وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلني على عمل لا ازال فيه عاملا لله تعالى فاني لا أحب

ما أجده في غزوته هذه في الدنيا والآخرة الا دنانيره التي سمى (١) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٢) حديث عبد الله بن عمر ومن كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت باسناد جيد دون قوله وفارقها ارغب مايكون فيها ودون قوله وفارقها ازهد مايكون فيها وفيه زيادة ولم اجده من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث ام سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٤) حديث انما يقتتل المقتتلون على النيات ابن ابي الدنيا في كتاب الاخلاص والنية من حديث عمر باسناد ضعيف بلفظ انما يبعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ انما يبعث المسلمون على النيات ولابن ماجه من حديث ابي هريرة انما يبعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه (٥) حديث اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففي الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٦) حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه رواه مسلم (٧) حديث الاحنف عن ابي بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار متفق عليه (٨) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوي اداءه فهو زان احمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة الدين دون ذكر الصداق (٩) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه اطيب من المسك الحديث ابو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث اسحق بن أبي طلحة مرسلا

لايسأل ولا يرد ولايحبس (وقال) أبو علي الروذباري رحمه الله سالني الزقاق فقال ياأبا علي لم ترك الفقراء اخذ البلغة في وقت الحاجة قال قلت لانهم مستغنون بالمعطي عن العطايا قال نعم ولكن وقع لي شئ آخر فقلت هات أفدني ماوقع لك قال لانهم قوم لاينفعهم الوجود اذ الله فاقتهم ولا تضرهم الفاقة اذ الله وجودهم قال بعضهم الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب وقال المسوحي الفقير الذي لاتغنيه النعم ولا تفقره المحن (وقال) يحيي ابن معاذ حقيقة الفقر ان لايستغني الا بالله ورسمه عدم الاسباب

ان ياتى على ساعة من ليل اونهار الا وانا عامل من عمال الله فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فاذا فترت او تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كعامله وكذلك قال بعض السلف ان نعمة الله عليكم اكثر من ان تحصوها وان ذنوبكم اخفى من ان تعلموها ولكن اصبحوا توابين وامسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت الى غير اثم وقال ابو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض اذا قرأ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم يبكى ويرددها ويقول انك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت استارنا وقال الحسن انما خلد اهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار بالنيات وقال ابو هريرة مكتوب فى التوراة ما اريد به وجهى فقليله كثير وما اريد به غيرى فكثيره قليل وقال بلال بن سعد ان العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عزوجل وقوله حتى ينظر فى عمله فاذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر فى ورعه فان تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فان صلحت نيته فبالحرى ان يصلح ما دون ذلك فاذن عماد الاعمال النيات فالعمل مفتقر الى النية ليصير بها خيرا والنية فى نفسها خير وان تعذر العمل بعائق

﴿ بيان حقيقة النية ﴾

اعلم ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها امران علم وعمل العلم يقدمه لانه اصله وشرطه والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه وذلك لان كل عمل اعنى كل حركة وسكون اختيارى فانه لا يتم الا بثلاثة امور علم وارادة وقدرة لانه لا يريد الانسان ما لا يعلمه فلابد وان يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلابد من ارادة ومعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض اما فى الحال او فى المآل فقد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الامور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الامور فيحتاج الى جلب الملائم الموافق الى نفسه ودفع الضار المنافى عن نفسه فافتقر بالضرورة الى معرفة وادراك للشىء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه ان يتناوله ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها اسبابا وهى الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو ابصر الغذاء وعرف انه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل اليه ورغبة فيه وشهوة لها باعثة عليه اذ المريض يرى الغذاء ويعلم انه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة اليه فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة واعنى به نزوعا فى نفسه اليه وتوجها فى قلبه اليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا فخلقت له القدرة والاعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك الا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة او الظن والاعتقاد وهو ان يقوى فى نفسه كون الشىء موافقا له فاذا جزمت المعرفة بان الشىء موافق ولابد وان يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة وتحقق الميل فاذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الاعضاء فالقدرة خادمة للارادة والارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهى الارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ما هو موافق للغرض اما فى الحال واما فى المآل فالمحرك الاول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد المنوى والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء هو العمل الا ان انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد واذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع وقد يكون احدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا فيخرج من هذا التقسيم اربعة اقسام فنذكر لكل واحد مثالا واسما (اما الاول) فهو ان ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما اذا هجم على الانسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له الا غرض الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه الى الهرب ورغبت فيه فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لا نية له فى القيام لغيره وهذه

كلها وقال ابو بكر الطوسى بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الاشياء فلم يجبنى احد بجواب يقنعنى حتى سالت نصر بن الحمامى فقال لى لانه اول منزل من منازل التوحيد فقنعت بذلك (وسئل) ابن الجلاء عن الفقر فسكت حتى صلى ثم ذهب ورجع ثم قال انى لم أسكت الا لدرهم كان عندى فذهبت فاخرجته واستحييت من الله تعالى ان أتكلم فى الفقر وعندى ذلك ثم جلس وتكلم (قال) ابو بكر ابن طاهر من حكم الفقير ان لا يكون له رغبة فان كان ولابد لا تجاوز رغبته

النية تسمى خالصة و يسمى العمل بموجبها اخلاصا بالاضافة الى الغرض الباعث ومعناه انه خلص عن مشاركة غيره وممازجته (واما الثانى) فهو ان يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالانهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس ان يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا فى الحمل لو انفرد ومثاله فى غرضنا ان يساله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته وعلم انه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وانه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بان يحضره قريب غنى فيرغب فى قضاء حاجاته وفقير أجنبي فيرغب ايضا فيه وكذلك من امره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم انه لولم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يتركه لاجل انه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فاقدم على الفعل وكان الباعث الثانى رفيق الاول فلنسم هذا مرافقة للبواعث (والثالث) ان لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوى مجموعهما على انهاض القدرة ومثاله فى المحسوس ان يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد احدهما به ومثاله فى غرضنا ان يقصده قريبه الغنى فيطلب درهما فلا يعطيه و يقصده الاجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء و يكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب فى التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا اورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة (والرابع) ان يكون احد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثانى لا يستقل ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تاثير بالاعانة والتسهيل ومثاله فى المحسوس ان يعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل و يؤثر فى تخفيفه ومثاله فى غرضنا ان يكون للانسان ورد فى الصلاة وعادة فى الصدقات فاتفق ان حضر فى وقتها جماعة من الناس فصار الفعل اخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه انه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله وعلم ان عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو شوب تطرق الى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثانى اما ان يكون رفيقا او شريكا او معينا وسنذكر حكمها فى باب الاخلاص والغرض الآن بيان اقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل انما الاعمال بالنيات لانها تابعة لا حكم لها فى نفسها وانما الحكم للمتبوع

﴿ بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم (١) نية المؤمن خير من عمله ﴾

اعلم انه قد يظن ان سبب هذا الترجيح ان النية سر لا يطلع عليه الا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لانه لو نوى ان يذكر الله بقلبه او يتفكر فى مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث ان تكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن ان سبب الترجيح ان النية تدوم الى آخر العمل والاعمال لا تدوم وهو ضعيف لان ذلك يرجع معناه الى ان العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية اعمال الصلاة قد لا تدوم الا فى لحظات معدودة والاعمال تدوم والعموم يقتضى ان تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال ان معناه ان النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد اذ العمل بلا نية اوعلى الغفلة لا خير فيه اصلا والنية بمجردها خير وظاهر الترجيح للمشتركين فى اصل الخير بل المعنى به ان كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات كان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل اي لكل واحد منهما اثر فى المقصود واثر النية اكثر من اثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته والغرض ان للعبد اختيارا فى النية وفى العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه واما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه الا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ اثر الطريق فى الايصال الى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الارجح بالاضافة الى المقصود

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبرانى من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما

كفايته (قال) فارس قلت لبعض الفقراء مرة وعليه اثر الجوع والضرلم لا تسال فيطعموك فقال

انى اخاف ان اسالهم فيمنعونى فلا يفلحون وانشد لبعضهم

قالوا غدا العيد ماذا انت لابسه * فقات خلعة ساق عبده الجرعا فقر وصبر هما ثوبان تحتهما قلب يرى ربه الاعياد والجمعا احرى الملابس ان تلقى الحبيب به يوم التزاور فى الثوب الذى خلعه الدهر لى ما تم ان غبت يا أملى والعيد مادمت لى مرأى ومستمعا

قولهم فى الشكر) قال بعضهم الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم (وقال) يحيي بن معاذ الرازى لست بشاكر مادمت

لمن قال الخبز خير من الفاكهة فانما يعنى به انه خير بالاضافة الى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك الامن فهم ان للغذاء مقصد وهو الصحة والبقاء وان الاغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب والمقصود شفاؤها و بقاؤها وسلامتها فى الاخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ولن يتنعم بلقاء الله الا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه الا من عرفه ولن يأنس به الامن طال ذكره له فالانس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر الا اذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها الا اذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا الى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وانما يميل الى الخيرات والطاعات اذا علم أن سعادته فى الاخرة منوطة بها كما يميل العاقل الى الفصد والحجامة لعلمه بان سلامته فيهما واذا حصل أصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان المواظبة على مقتضى صفات القلب وارادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها فالمائل الى طلب العلم او طلب الرياسة لا يكون ميله فى الابتداء الا ضعيفا فان اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والاعمال المطلوبة لذلك تاكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع وان خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق بل الذى ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمجاورة تاكد ميله حتى يخرج امره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل و يكون ذلك زبرا ودفعا فى وجهه يضعف و ينكسر بسببه و ينقمع و ينمحى وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هى التى تراد بها الاخرة والشرور كلها هى التى تراد بها الدنيا لا الاخرة وميل النفس الى الخيرات الاخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفرغها للذكر والفكر ولن يتاكد ذلك الا بالمواظبة على اعمال الطاعة وترك المعاصى بالجوارح لان بين الجوارح و بين القلب علاقة حتى انه يتأثر كل واحد منهما بالاخر فترى العضو اذا اصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب اذا تألم بعلمه بموت عزيز من اعزته او بهجوم امر مخوف تأثرت به الاعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون الا ان القلب هو الاصل المتبوع فكانه الامير والراعى والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع فالجوارح خادمة للقلب بتاكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والاعضاء آلات موصلة الى المقصود ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم[1] ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وقال عليه السلام[2] اللهم اصلح الراعى والرعية واراد بالراعى القلب وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وهى صفة القلب فمن هذا الوجه يجب لا محالة ان تكون اعمال القلب على الجملة افضل من حركات الجوارح ثم يجب ان تكون النية من جملتها افضل لانها عبارة عن ميل القلب الى الخير وارادته له وغرضنا من الاعمال بالجوارح ان يعود القلب ارادة الخير و يؤكد فيه الميل اليه ليفرغ من شهوات الدنيا و يكب على الذكر والفكر فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة الى الغرض لانه متمكن من نفس المقصود وهذا كما ان المعدة اذا تألمت فقد تداوى بان يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل الى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر لان طلاء الصدر ايضا انما اريد به ان يسرى منه الاثر الى المعدة فما يلاقى عين المعدة فهو خير وانفع فهكذا ينبغى ان تفهم تاثير الطاعات كلها اذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح فلا تظنن ان فى وضع الجبهة على الارض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة والارض بل من حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب فان من يجد فى نفسه تواضعا فاذا استكان باعضائه وصورها بصورة التواضع تاكد تواضعه ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم

ضعيف (١) حديث ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم (٢) حديث اللهم اصلح الراعى والرعية تقدم ولم اجده

فاذا

نشكر وغاية الشكر التحير وذلك ان الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها *وفى اخبار داود عليه السلام الهى كيف اشكرك وانا لا استطيع ان اشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك فاوحى الله اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتنى ومعنى الشكر فى اللغة هو الكشف والاظهار يقال شكر وكشر اذا كشف عن ثغره واظهره فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر و باطن الشكر ان تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية فهو شكر النعمة وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم اوليتنى نعما ابوح بشكرها

فاذامسح رأسه وقبله تاكدت الرقة فى قلبه ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا اصلا لان من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه اوظان ان يمسح ثوبا لم ينتشر من اعضائه اثرالى قلبه لتاكيد الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهومشغول الهم باعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الارض اثرالى قلبه يتاكدبه التواضع فكان وجود ذلك كعدمه وماساوى وجوده عدمه بالاضافة الى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه اذافعل عن غفلة فاذاقصد به رياء او تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاد شرا فانه لم يؤكد الصفة المطلوب تاكيدها حتى يتاكد الصفة المطلوب قمعها وهى صفة الرياء التى هى من الميل الى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل و بهذا ايضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات وانما الاتمام بالعمل يزيدها تاكيدا فليس المقصود من اراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا و بذلها ايثارا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قدحصلت عند جزم النية والهمة وان عاق عن العمل فلن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى ههنا اعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ان قوما بالمدينة قدشركونا فى جهادنا كما تقدم ذكره لان قلوبهم فى صدق ارادة الخير و بذل المال والنفس والرغبة فى طلب الشهادة واعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وانما فارقوهم بالابدان لعوائق تخص الاسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب الا لتاكيد هذه الصفات و بهذه المعانى تفهم جميع الاحاديث التى اوردناها فى فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك اسرارها فلانطول بالاعادة

﴿بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية﴾

اعلم ان الاعمال وان انقسمت اقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لايتصور احصاؤه واستقصاؤه فهى ثلاثة اقسام طاعات ومعاص ومباحات (القسم الاول المعاصى) وهى لاتتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغى ان يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام انما الاعمال بالنيات فظن ان المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره او يطعم فقيرا من مال غيره او يبنى مدرسة او مسجدا او رباطا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لاتؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شرآخر فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله اذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن ان يكون الشرخيرا هيهات بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة و باطن الهوى فان القلب اذا كان مائلا الى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به الى التلبيس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ما عصى الله تعالى بمعصية اعظم من الجهل قيل يا ابامحمد هل تعرف شيئا اشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لان الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بالكلية بنفسه انه عالم فكيف يتعلم وكذلك افضل ما اطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما ان رأس الجهل الجهل بالجهل فان من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما اكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التى هى وسائلهم الى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود ان من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور الا اذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم وقد قال الله سبحانه فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون وقال النبى صلى الله عليه وسلم (١) لايعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل ان يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت على علمه ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والاشرار

(١) حديث لايعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل ان يسكت على جهله الحديث الطبرانى فى الاوسط وابن السنى وابونعيم فى رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لايعذر الجاهل على الجهل وقال لاينبغى

وكفيتنى كل الامور باسرها فلاشكرنك ماحييت وان امت فلتشكرنك اعظمى فى قبرها (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابتلى فصبر واعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر قيل فما باله قال اولئك لهم الامن وهم مهتدون (قال) الجنيد فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان (وفى) الحديث افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله (وقال) بعضهم فى قوله تعالى واسبغ عليكم نعمه ظاهرة

المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على ممـاراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا واخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين فان هؤلاء اذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله وانتهض كل واحـد منهم فى بلدته نائبـا عن الدجال يتكالب على الدنيـا و يتبع الهوى و يتباعـد عن التقوى و يستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصى الله ثم قد ينتشر ذلك العلم الى مثله وامثاله و يتخذونه أيضا آلة ووسيلة فى الشر واتباع الهوى و يتسلسل ذلك وو بال جميعه يرجع الى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته انواع المعاصى من اقواله وافعاله وفى مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هـذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة فى العالم الف سنة مثلا والفى سنة وطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول انمـا الاعمـال بالنيات وقـد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو الفساد فالمعصية منه لا منى وماقصدت به الا ان يستعين به على الخير وانمـا حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك فى قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعرى ماجوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق واعدله خيلا واسبابا يستعين بها على مقصوده و يقول انمـا اردت البذل والسخاء والتخلق باخلاق الله الجميلة وقصدت به ان يغزو بهذا السيف والفرس فى سبيل الله فان اعـداد الخيـل والرباط والقوة للغزاة من افضل القربات فان هو صرفه الى قطع الطريق فهو العـاصى وقد اجمع الفقهاء على ان ذلك حرام مع ان السخاء هو احب الاخلاق الى الله تعـالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان لله تعـالى ثلثمائة خلق من تقرب اليـه بواحد منها دخل الجنة واحبها اليـه السخاء فليت شعرى لم حرم هـذا السخاء ولم وجب عليـه ان ينظر الى قرينـة الحال من هـذا الظالم فاذا لاح له من عادته انه يستعين بالسـلاح على الشر فينبغى ان يسعى فى سلب سـلاحه لا ان يمـد بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان واعـداء الله وقد يعـاون به اعـداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثر الدنياه على دينـه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز امـداده بنوع علم يتمـكن به من الوصول الى شهواته بل لم يزل علمـاء السلف رحمهم الله يتفقـدون احوال من يتردد اليهم فلو رأوا منـه تقصيرا فى نفـل من النوافـل انـكروه وتركوا اكرامه واذا رأوا منـه فجورا واستحلالا لحرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم بان من تعلم مسئلة ولم يعمل بها وجاوزها الى غيرها فليس يطلب الا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وماتعوذوا من الفاجر الجاهل حكى عن بعض اصحـاب احمـد بن حنبـل رحمه الله انه كان يتردد اليـه سنين ثم اتفق ان اعرض عنه احمـد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يساله عن تغيره عليـه وهو لا يذكره حتى قال بلغنى انك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد اخذت قدر سمك الطين وهو انملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فهكذا كانت مراقبة السلف لاحوال طلاب العلم وهـذا وأمثاله ممـا يلتبس على الاغبياء واتباع الشيطان وان كانوا ارباب الطيالسة والاكمام الواسعة وأصحـاب الالسنة الطويلة والفضل الـكثير اعنى الفضل من العلوم التى لا تشمـل على التحـذير من الدنيا والزجر عنها وترغيب فى الاخرة والدعاء اليهـا بل هى العلوم التى تتعلق بالخلق و يتوصل بها الى جميع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الاقران فاذا قوله عليه السـلام انمـا الاعمـال بالنيات يختص من الاقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعـاصى اذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمبـاح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فاما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيهـا وهو انه اذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة (القسم الثانى الطاعات) وهى مرتبطة بالنيات فى اصل صحتها وفى تضاعف فضلها اما الاصل فهو ان ينوى بها عبادة الله تعـالى لا غير فان نوى الرياء صارت معصية واما تضاعف الفضل فبـكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمـكن ان ينوى بها خيرات

بدل ولا يحل وقد تقدم فى العلم (١) حديث ان لله ثلثمائة خلق من تقرب اليـه بواحد منها دخل الجنة وأحبها اليـه السخاء تقدم فى كتاب المحبة والشوق

وباطنـة قال الظاهرة الموافى والغنى والباطنة البلاوى والفقر فان هـذه نعم اخروية لما يستوجب بها من الجـزاء (وحقيقة) الشكر ان يرى جميع المقضى له به نعما غـير مايضره فى دينه لان الله تعالى لا يقضى للعبـد المؤمن شـيئا الا وهو نعمة فى حقه فاما عاجلة يعرفها و يفهمها واما آجلة بمـا يقضى له من المكاره فاما ان تكون درجة له او تمحيصا او تـكفيرا فاذا علم ان مولاه انصح له من نفسه واعلم بمصـالحه وان كل مامنه نعم فقـد شكر (قولهم فى الخوف) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الحـكمة مخافة الله (وروى) عنه عليـه الصلاة

كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة (١) تضاعف كل حسنة عشر امثالها كما ورد به الخبر ومثاله القعود فى المسجد فانه طاعة ويمكن ان ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل اعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين اولها ان يعتقد انه بيت الله وان داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (٢) من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره وثانيها ان ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى جملة انتظاره فى الصلاة وهو معنى قوله تعالى ورابطوا وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والاعضاء عن الحركات والترددات فان الاعتكاف كف وهو فى معنى الصوم وهو نوع ترهب ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) رهبانية امتى القعود فى المساجد ورابعها عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد وخامسها التجرد لذكر الله او لاستماع ذكره وللتذكر به كما روى فى الخبر (٤) من غدا الى المسجد ليذكر الله تعالى او يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى وسادسها ان يقصد افادة العلم بامر بمعروف ونهى عن منكر اذ المسجد لا يخلو عمن يسىء فى صلاته او يتعاطى ما لا يحل له فليامره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه فى خيره الذى يعلم منه فتتضاعف خيراته وسابعها ان يستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش اهل الدين المحبين لله وفى الله وثامنها ان يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من ان يتعاطى فى بيت الله ما يقتضى هتك الحرمة وقد قال الحسن بن على رضى الله عنهما من ادمن الاختلاف الى المسجد رزقه الله احدى سبع خصال اخا مستفادا فى الله او رحمة مستنزلة او علما مستطرفا او كلمة تدله على هدى او تصرفه عن ردى او يترك الذنوب خشية او حياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات اذ ما من طاعة الله الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فبهذا تزكو الاعمال وتتضاعف الحسنات

(القسم الثالث المباحات) وما من شىء من المباحات الا ويحتمل نية او نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات فما اعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغى ان يستحقر العبد شيأ من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة انه لم فعله وما الذى قصد به هذا مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٥) حلالها حساب وحرامها عقاب وفى حديث (٦) معاذ بن جبل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليسال يوم القيامة عن كل شىء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعيه وعن لمسه ثوب اخيه وفى خبر آخر من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية فان قلت فما الذى يمكن ان ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله فاعلم ان من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفى سائر الاوقات يتصور ان يقصد التنعم بلذات الدنيا او يقصد بها اظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده اقرانه او يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة او ليتودد به الى قلوب

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشرة امثالها تقدم (٢) حديث من قعد فى المسجد فقد زار الله وحق على المزور اكرام زائره ابن حبان فى الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقى فى الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا باسناد صحيح وقد تقدم فى الصلاة (٣) حديث رهبانية امتى القعود فى المساجد لم اجد له اصلا (٤) حديث من غدا الى المسجد يذكر الله او يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى هو موقوف من قول كعب الاحبار رويناه فى جزء ابى طوق وللطبرانى فى الكبير من حديث ابى امامة من غدا الى المسجد لا يريد الا ان يتعلم خيرا او يعلمه كان له كاجر حج تاما حجه واسناده جيد وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة من غدا الى المسجد او راح اعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا او راح (٥) حديث حلالها حساب وحرامها عقاب تقدم (٦) حديث معاذ ان العبد ليسال يوم القيامة عن كل شىء حتى عن كحل عينه وعن فتات الطين باصبعيه وعن لمسه ثوب اخيه لم اجد له اسناد

والسلام أنه قال كان داود النبي عليه السلام يعوده الناس يظنون ان به مرضا وما به مرض الا الخوف من الله تعالى والحياء منه (قال) ابو عمرو الدمشقى الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان (وقال) بعضهم ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ولكن الخائف التارك ما يخاف ان يعذب عليه (وقيل) الخائف الذى لا يخاف غير الله قيل اى لا يخاف لنفسه انما يخاف اجلالا له والخوف للنفس خوف العقوبة (وقال) سهل الخوف ذكر والرجاء أنثى أى منهما تتولد حقائق الايمان (قال) الله تعالى

النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا للنظر اليهن ولامور أخر لاتحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون انتن من الجيفة فى القيامة الا القصد الاول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية الا انه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيأ من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بان يستعجل مايفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى وأما(١) النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوى بذلك ايضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى ان يدخله زائر الله الا طيب الرائحة وان يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه وان يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى الى ايذاء مخالطيه وان يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين اذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية كما قيل

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا * ان لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم اشار به الى ان التسبب الى الشر شر وان يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها اذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه واذا لم يغلب على قلبه الا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وان ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها الا حديث النفس وليس ذلك من النية فى شىء والمباحات كثيرة ولا يمكن احصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف انى لاستحب ان يكون لى فى كل شىء نية حتى فى اكلى وشربى ونومى ودخولى الى الخلاء وكل ذلك مما يمكن ان يقصد به التقرب الى الله تعالى لان كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الاكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب اهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به امة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا باكله ونكاحه وأغلب حظوظ النفس الاكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغى أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله واذا بلغه اغتياب غيره له فليطلب قلبه بأنه سيحمل سيآته وستنقل الى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن الجواب ففى الخبر(٢) ان العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك وفى الخبر(٣) ان العبد ليوافى القيامة بحسنات امثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيآتهم ثم صكوا له صكا الى النار وبالجملة فاياك ثم اياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز

---

(١) حديث ان لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبو داود والحاكم وصححه من حديث ابى هريرة وأبى سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب ان كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولابى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ماعلى احدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته وفى اسناده اختلاف وفى الصحيحين ان عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يارسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة الحديث (٢) حديث ان العبد ليحاسب فتبطل اعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه اعمال الذين اغتابوك الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم من حديث شبيب بن سعد البلوى مختصرا ان العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة (٣) حديث ان العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف

ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله (قيل) هذه الآية قطب القرآن لان مدار الامر كله على هذا (وقيل) ان الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان فقال تعالى هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه (وقال) سهل كمال الايمان بالعلم وكمال العلم بالخوف (وقال) ايضا العلم كسب الايمان والخوف كسب المعرفة (وقال) ذوالنون لا يسقى المحبة الا كاس المحبة الا من بعد ان

من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت ان اترّ به من حائط جار لى فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب فتربته فتهف بى هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثورى فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال انى لبسته لله تعالى ولا أريد ان اسويه لغير الله وقد قال الحسن ان الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بينى وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطى واخذت خيطا من ثوبى فهذا وامثاله من الاخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل ان يدقق عليك وراقب احوالك ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل اولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد الذى تنال به من الدنيا وما الذى يفوتك به من الآخرة وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة فاذن علمت أنه لا باعث الا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك والا فامسك ثم راقب أيضا قلبك فى امساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة فلا ينبغى ان يكون الداعى هوى خفى لا يطلع عليه ولا يغرنك ظواهر الامور ومشهورات الخيرات وافطن للاغوار والاسرار تخرج من حيز أهل الاغترار فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل فى حائط بالطين وكان أجير القوم فقدموا له رغيفه اذا كان لا يأكل الا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا ان الخير فى طلب المساعدة فى الطعام فقال انى أعمل لقوم بالاجرة وقدموا الى الرغيف لأتقوى به على عملهم فلو اكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر فى البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص فى فرض وترك الدعوة الى الطعام نقص فى فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمنى حتى لعق اصابعه ثم قال لولا أنى اخذته بدين لأحببت ان تأكل منه وقال سفيان من دعا رجلا الى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان اجابه فأكل فعليه وزران وان لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد باحد الوزرين النفاق وبالثانى تعريضه أخاه لما يكره لو علمه فهكذا ينبغى ان يتفقد العبد نيته فى سائر الاعمال فلا يقدم ولا يحجم الا بنية فان لم تحضر النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار

﴿ بيان ان النية غير داخلة تحت الاختيار ﴾

اعلم ان الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات فيقول فى نفسه عند تدريسه أو تجارته او اكله نويت ان أدرس لله او اتجر لله او آكل لله ويظن ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر او انتقال من خاطر الى خاطر والنية بمعزل من جميع ذلك وانما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ما ظهر لها ان فيه غرضها اما عاجلا واما آجلا والميل اذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقول الشبعان نويت ان اشتهى الطعام واميل اليه او قول الفارغ نويت ان اعشق فلانا واحبه واعظمه بقلبى فذلك محال بل لا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشىء وميله اليه وتوجهه نحوه الا باكتساب اسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وانما تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده فى كل حين واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل اقوى منه وذلك يمكن فى كل وقت والدواعى والصوارف لها اسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالاشخاص وبالاحوال وبالاعمال فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا فى الولد دينا ولا دنيا لا يمكنه ان يواقع على نية الولد بل لا يمكن الا على نية قضاء الشهوة اذ النية هى اجابة الباعث ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوى الولد واذا لم يغلب على قلبه (1) أن اقامة النكاح اتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) حديث ان النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم فى آداب النكاح

ينضج الخوف قلبه (وقال) فضيل بن عياض اذا قيل لك تخاف الله اسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت فليس وصفك وصف من يخاف

﴿ قولهم فى الرجاء ﴾

(قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان ثم يقول وعزتى وجلالى لا أجعل من آمن بى فى ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بى (قيل) جاء اعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يلى حساب الخلق فقال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه قال نعم

يعظم فضلها لا يمكن ان ينوي بالنكاح اتباع السنة الا ان يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا ان يقوى اولا ايمانه بالشرع و يقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم و يدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره فاذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة الى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد فاذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه و يردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات اذلم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره ان هات المدرى فقالت اجيء بالمرآة فسكت ساعة ثم قال نعم فقيل له في ذلك فقال كان لي في المدرى نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هياها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة فقيل للثوري الا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان أحدهم اذا سئل عملا من أعمال البر يقول ان رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث الا بنية وكان يسئل ان يحدث فلا يحدث ولا يسئل فيبتدىء فقيل له في ذلك قال أفتحبون ان احدث بغير نية اذا حضرتني نية فعلت وحكي ان داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود انا لم أخرجه على الاسانيد فانظر فيه بعين الخبر انما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال أحمد فرده علي حتى انظر فيه بالعين التي نظرت فاخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية وقال بعضهم انا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال ابنه الا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا لان النية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون ان يعملوا عملا الا بنية لعلمهم بان النية روح العمل وان العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا ان النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى فقد تتيسر في بعض الاوقات وقد تتعذر في بعضها نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الاحوال احضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة الى اصل الخير فينبعث الى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض الا بجهد جهيد وغايته ان يتذكر النار و يحذر نفسه عقابها او نعيم الجنة و يرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته واما الطاعة على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا وهذه اعز النيات واعلاها و يعز على بسيط الارض من نفهما فضلا عمن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات اقسام اذ منهم من يكون عمله اجابة لباعث الخوف فانه يتقي النار ومنهم من يعمل اجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وان كان نازلا بالاضافة الى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لامر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة لانه ميل الى الموعود في الآخرة وان كان من جنس المالوفات في الدنيا واغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة فالعامل لاجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالاجير السوء ودرجته درجة البله وانه لينالها بعمله اذا كثر أهل الجنة البله واما عبادة ذوي الالباب فانها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الاعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء ارفع درجة من الالتفات الى المنكوح والمطعوم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر الى وجهه الكريم و يسخرون ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى الحور العين ممن يتنعم بالنظر الى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فان التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين

فتبسم الاعرابي فقال النبي صلى الله عليه وسلم مما ضحكت يا اعرابي فقال ان الكريم اذا قدر عفا واذا حاسب سامح (وقال) شاه الكرماني علامة الرجاء حسن الطاعة (وقيل) الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال (وقيل) قرب القلب من ملاطفة الرب قال أبو علي الروذباري الخوف والرجاء كجناحي الطائر اذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه (قال) ابو عبد الله بن خفيف الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو (قال) مطرف لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا والخوف والرجاء للايمان كالجناحين ولا يكون خائفا الا وهو راج

اشد

اشد واعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان واعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها والفها لها واعراضها عن النظر الى جمال وجوه النساء فعمى اكثر القلوب عن ابصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن ادراك جمال النساء فانها لا تشعر به اصلا ولا تلتفت اليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت اليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم * حكى ان احمد بن خضرويه رأى ربه عزوجل فى المنام فقال له كل الناس يطلبون منى الجنة الا أبايزيد فانه يطلبنى ورأى ابو يزيد ربه فى المنام فقال يارب كيف الطريق اليك فقال اترك نفسك وتعال الى ورؤى الشبلى بعد موته فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال لم يطالبنى على الدعاوى بالبرهان الا على قول واحد قلت يوما اى خسارة اعظم من خسران الجنة فقال اى خسارة اعظم من خسران لقائى والغرض ان هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول الى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث اعمالا وافعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانا نقول من حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة اليه وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة لان الاعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه افضل من الانتصار فى الظلم وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو فيكون ذلك افضل ومثل ان يكون له نية فى الاكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات فى المستقبل وليس تنبعث نيته فى الحالين للصوم والصلاة فالاكل والنوم هو الافضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم انه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو افضل له من الصلاة قال ابو الدرداء انى لاستجم نفسى بشىء من اللهو فيكون ذلك عونا لى على الحق وقال على كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها اذا اكرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها الا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعد القاصر فى الطب وانما يبتغى به ان يعيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق فى لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك الى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدى قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره الى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغى للمريد ان يضمر انكارا على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم ان يعترض على استاذه بل ينبغى ان يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من احوالهما يسلمه لهما الى ان ينكشف له اسرار ذلك بان يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق

﴿ الباب الثانى فى الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته ﴾

﴿ فضيلة الاخلاص ﴾

قال الله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال الا لله الدين الخالص وقال تعالى الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله وقال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا نزلت فيمن يعمل لله ويحب ان يحمد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله وعن (٢) مصعب بن سعد عن ابيه قال ظن ابى ان له فضلا على من هو دونه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم انما نصر الله عزوجل هذه الامة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم

ولا راجيا الا وهو خائف لان موجب الخوف الايمان وبالايمان رجاء وموجب الرجاء الايمان ومن الايمان خوف ولهذا المعنى روى عن لقمان انه قال لابنه خف الله تعالى خوفا لا تامن فيه مكره وارجه اشد من خوفك قال فكيف استطيع ذلك وانما لى قلب واحد قال اما علمت ان المؤمن لذو قلبين يخاف باحدهما ويرجو بالآخر وهذا لانهما من حكم الايمان ﴿ قولهم فى التوكل ﴾ قال السرى التوكل الانخلاع من الحول والقوة (وقال) الجنيد التوكل ان تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل (وقال) سهل كل

﴿ الباب الثانى فى الاخلاص ﴾

(١) حديث ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله الترمذى وصححه من حديث النعمان بن بشير

(٢) حديث مصعب بن سعد عن ابيه انه ظن ان له فضلا على من دونه من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم انما نصر الله هذه الامة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ

وصلاتهم وعن (١) الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من احببت من عبادى وقال على ابن ابى طالب كرم الله وجهه قال لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم (٢) قال لمعاذ بن جبل اخلص العمل يجزك منه القليل وقال عليه السلام (٣) مامن عبد يخلص لله العمل اربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال عليه السلام (٤) اول من يسال يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ماصنعت فيما علمت فيقول يارب كنت اقوم به آناء الليل واطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت ان يقال فلان عالم الا فقد قيل ذلك ورجل اتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد انعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت اتصدق به آناء الليل واطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت ان يقال فلان جواد الا فقد قيل ذلك و رجل قتل فى سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب امرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت ان يقال فلان شجاع الا فقد قيل ذلك قال ابو هريرة ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال يا اباهريرة أولئك اول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله اذ قال من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآية وفى الاسرائيليات ان عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا ان ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك واخذ فاسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس فى صورة شيخ فقال اين تريد رحمك الله قال اريد ان اقطع هذه الشجرة قال وما انت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال ان هذا من عبادتى قال فانى لا اتركك ان تقطعها فقاتله فاخذه العابد فطرحه الى الارض وقعد على صدره فقال له ابليس اطلقنى حتى اكلمك فقام عنه فقال له ابليس ياهذا ان الله تعالى قد اسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها انت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء فى أقاليم الارض ولوشاء لبعثهم الى اهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لابد لى من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز ابليس فقال له هل لك فى أمر فصل بينى و بينك وهو خير لك وانفع قال وماهو قال أطلقنى حتى أقول لك فاطلقه فقال ابليس انت رجل فقير لا شىء لك انما انت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب ان تتفضل على اخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الامر ولك على ان اجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين اذا أصبحت أخذتهما فانفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على اخوانك فيكون ذلك انفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التى يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع اخوانك المؤمنين قطعك اياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمنى قطع هذه الشجرة ولا امرنى الله ان أقطعها فاكون عاصيا بتركها وما ذكره اكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد الى متعبده فبات فلما اصبح رأى دينارين عند رأسه فاخذهما وكذلك الغد ثم اصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب واخذ فاسه على عاتقه فاستقبله

هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم (١) حديث الحسن مرسلا يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من احببت من عبادى رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلا يقول كل واحد من رواته سالت فلانا عن الاخلاص فقال وهو من رواية احمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى واحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه ابو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على ابن ابى طالب بسند ضعيف (٢) حديث انه قال لمعاذ اخلص العمل يجزك منه القليل ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ واسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله اربعين يوما ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات عن ابى موسى وقد تقدم (٤) حديث اول من يسال يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم

المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فانه وجه بلا قفا (قال) بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالايمان فقال وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وقال وعلى الله فليتوكل المؤمنون وقال لنبيه وتوكل على الحى الذى لا يموت (وقال) ذوالنون التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة (وقال) ابو بكر الزقاق التوكل رد العيش الى يوم واحد واسقاط هم غد (وقال) ابو بكر الواسطى اصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وان لا يفارق التوكل فى امانيه ولا يلتفت بسره الى توكله لحظة

ابليس

ابليس فى صورة شيخ فقال له الى أين قال اقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك اليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فاخذه ابليس وصرعه فاذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد ابليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الامر أو لاذبحنك فنظر العابد فاذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتنى فخل عنى وأخبرنى كيف غلبتك أولا وغلبتنى الآن فقال لانك غضبت اول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرنى الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين اذ لا يتخلص العبد من الشيطان الا بالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخى رحمه الله تعالى يضرب نفسه و يقول يا نفس أخلصى تتخلصى وقال يعقوب المكفوف المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته وقال سليمان طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها الا الله تعالى وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الى أبى موسى الاشعرى من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه و بين الناس وكتب بعض الاولياء الى أخ له أخلص النية فى اعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السختيانى تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الاعمال وكان مطرف يقول من صفا صفى له ومن خلط خلط عليه ورؤى بعضهم فى المنام فقيل له كيف وجدت أعمالك فقال كل شىء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها فى كفة الحسنات وكان فى قلنسوتى خيط من حرير فرأيته فى كفة السيئات وكان قد نفق حمار لى قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور فى كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها فقيل لى انه قد وجه حيث بعثت به فانه لما قيل لك قد مات قلت فى لعنة الله فبطل أجرك فيه ولو قلت فى سبيل الله لوجدته فى حسناتك وفى رواية قال و كنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فاعجبنى نظرهم الى فوجدت ذلك لا على ولا لى قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله اذ لم يكن عليه فقد احسن اليه وقال يحيى بن معاذ الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم وقيل كان رجل يخرج فى زى النساء و يحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق ان حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا ان أغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة الى الرجل والى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال ان نجوت من هذه الفضيحة لا أعود الى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا ان أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة * وقال بعض الصوفية كنت قائما مع أبى عبيد التسترى وهو يحرث ارضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض اخوانه من الابدال فساره بشىء فقال ابو عبيد لا فمر كالسحاب يمسح الارض حتى غاب عن عينى فقلت لابى عبيد ما قال لك فقال سالنى ان احج معه قلت لا قلت فهلا فعلت قال ليس لى فى الحج نية وقد نويت ان أتمم هذه الارض العشية فاخاف ان حججت معه لاجله تعرضت لمقت الله تعالى لانى أدخل فى عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندى من سبعين حجة و يروى عن بعضهم قال غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة فقلت أشتريها فانتفع بها فى غزوى فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال احدهما لصاحبه اكتب الغزاة فاملى عليه خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان فى سبيل الله ثم نظر الى وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت الله الله فى امرى ما خرجت أتجر ومامعى تجارة أتجر فيها ما خرجت الا للغزو فقال يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد ان تربح فيها فبكيت وقلت لا تكتبونى تاجرا فنظر الى صاحبه وقال ماترى فقال اكتب خرج فلان غازيا الا انه اشترى فى طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى لان تصلى ركعتين فى خلوة تخلصهما خير لك من ان تكتب سبعين حديثا أوسبعمائة بعلو وقال بعضهم فى اخلاص ساعة نجاة الابد ولكن الاخلاص عزيز و يقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص وقال بعضهم اذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم واعطاه الاعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها واعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها وقال السوسى مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط وقال الجنيد ان لله عبادا

فى عمره (وقال) بعضهم من أراد ان يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه و ينس الدنيا وأهلها لان حقيقة التوكل لا يقوم له احد من الخلق على كماله (وقال) سهل أول مقامات التوكل ان يكون العبد بين يدى الله تعالى كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف اراد ولا يكون له حركة ولا تدبير (وقال) حمدون القصار التوكل هو الاعتصام بالله (وقال) سهل أيضا العلم كله باب من التعبد والتعبد كله باب من الورع والورع كله باب من الزهد والزهد كله باب من التوكل (وقال) التقوى واليقين مثل كفتى الميزان

عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فأستدعاهم الاخلاص الى ابواب البر أجمع وقال محمد بن سعيد المروزى الامر كله يرجع الى اصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى مافعل وتخلص فيما تعمل فاذا انت قد سعدت بهذين وفزت فى الدارين

﴿ بيان حقيقة الاخلاص ﴾

اعلم أن كل شىء يتصور ان يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا قال الله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فانما خلوص اللبن ان لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن ان يمتزج به والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك الا ان الشرك درجات فالاخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الالهية والشرك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وانما يكون ذلك فى القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وانها ترجع الى اجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه اخلاصا بالاضافة الى المنوى فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ومن كان غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب كما ان الالحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه اذ قد ذكرنا ما يتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات واقل اموره ماورد فى الخبر من [1] ان المرائى يدعى يوم القيامة باربع اسام يامرائى يامخادع يامشرك ياكافر وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر امامن الرياء أومن غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك ان يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه او يحج ليصح مزاجه بحركة السفر او يتخلص من شر يعرض له فى بلده أوليهرب عن عدوله فى منزله او يتبرم باهله وولده أو بشغل هو فيه فاراد ان يستريح منه اياما اوليغزو ليمارس الحرب ويتعلم اسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها أو يصلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به ليراقب اهله اورحله او يتعلم العلم ليسهل عليه طلب مايكفيه من المال او ليكون عزيزا بين العشيرة اوليكون عقاره او ماله محروسا بعز العلم عن الاطماع او اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث اوتكفل بخدمة العلماء اوالصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس اولينال به رفقا فى الدنيا او كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه او حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء اوتوضأ ليتنظف او يتبرد أواغتسل لتطيب رائحته اوروى الحديث ليعرف بعلو الاسناد او اعتكف فى المسجد ليخف كراء المسكن اوصام ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام اوليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الاكل عنها اوتصدق على السائل ليقطع ابرامه فى السؤال عن نفسه او يعود مريضا ليعاد اذا مرض او يشيع جنازة ليشيع جنائز اهله او يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف اليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل اخف عليه بسبب هذه الامور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن ان يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك وقد قال تعالى انا اغنى الشركاء عن الشركة وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ويميل اليه القلب قل أم كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به اخلاصه والانسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ واغراض عاجلة من هذه الاجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ ان كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الامر على صاحبه فيها وانما نظرنا فيما اذا كان القصد الاصلى هو التقرب وانضافت

(١) حديث ان المرائى يدعى يوم القيامة يامرائى يامخادع الحديث ابن أبى الدنيا فى كتاب السنة والاخلاص وقد تقدم

إليه

والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان ويقع لى أن التوكل على قدر العلم بالوكيل فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا ومن كمل توكله غاب فى رؤية الوكيل عن رؤية توكله ثم ان قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل فى القسمة وان الاقسام نصبت بازاء المقسوم لهم عدلا وموازنة فان النظر الى غير الله لوجود الجهل فى النفس وكل ما أحس بشىء يقدح فى توكله يراه من منبع النفس فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس وكماله يثبت بغيبة النفس وليس للاقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وانما شغلهم فى تغييب النفس

اليه هذه الامور ثم هذه الشوائب اما ان تكون فى رتبة الموافقة او فى رتبة المشاركة او فى رتبة المعاونة كما سبق فى النية و بالجملة فاما ان يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني اواقوى منه اواضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وانما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور الا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الاكل والشرب ايضا بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث انه ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لانه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله تعالى و يتمنى ان لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج الى الاكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة و يكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لانه ضرورة دينه فلا يكون له هم الا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو اكل اوشرب اوقضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص فى الاعمال مسدود عليه الا على الندور وكما ان من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت اخلاصا فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة و بالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك الا نادرا فاذا علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من اعمال يتعب الانسان فيها و يظن انها خالصة لوجه الله و يكون فيها مغرورا لانه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم انه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الاول لانى تاخرت يوما لعذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتني خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى فعرفت ان نظر الناس الى فى الصف الاول كان مسرتى وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الاعمال من امثاله وقل من يتنبه له الا من وفقه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى و بدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون و بدا لهم سيئات ما كسبوا و بقوله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للاكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك و يقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين و يفرح بقبول الناس قوله واقبالهم عليه وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى اذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه و يقول انما غمك لا نقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك الى غيرك اذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ولا يدرى المسكين ان انقياده للحق وتسليمه الامر افضل واجزل ثوابا واعود عليه فى الآخرة من انفراده وليت شعرى لو اغتم عمر رضى الله عنه بتصدى ابى بكر رضى الله تعالى عنه للامامة اكان غمه محمودا او مذموما ولا يستريب ذودين ان لو كان ذلك لكان مذموما لان انقياده للحق وتسليمه الامر الى من هو اصلح منه اعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع مافيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو اولى منه بالامر فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد ينخدع بعض اهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بانه لو ظهر من هو اولى منه بالامر لفرح به واخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القياد فى الوعد بامثال ذلك قبل نزول الامر ثم اذا دهاه الامر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه الا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع الا الشاذ النادر

بتقوية مواد القلب فاذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر اليه وكلما تحرك من النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى ان الله يعلم مايدعون من دونه من شيء فيغلب وجود الحق الاعيان والاكوان و يرى الكون بالله من غير استقلال الكون فى نفسه و يصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقدح فى توكل مثل هذا المتوكل مايقدح فى توكل الضعفاء فى التوكل من وجود الاسباب والوسائط لانه يرى الاسباب مواتا لا حياة لها الا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة

والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر

﴿بيان أقاويل الشيوخ فى الاخلاص﴾

قال السوسى الاخلاص فقد رؤية الاخلاص فان من شاهد فى اخلاصه الاخلاص فقد احتاج اخلاصه الى اخلاص وماذكره اشارة الى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات الى الاخلاص والنظر اليه عجب وهو من جملة الافات والخالص ماصفا عن جميع الافات فهذا تعرض لافة واحدة وقال سهل رحمه الله تعالى الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفى معناه قول ابراهيم بن أدهم الاخلاص صدق النية مع الله تعالى وقيل لسهل أى شىء أشد على النفس فقال الاخلاص اذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم الاخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين وهذا اشارة الى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعابد لاجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل الا وجه الله تعالى وهو اشارة الى اخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق فاما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة والا فهو فى طلب حظ البطن والفرج وانما المطلوب الحق لذوى الالباب وجه الله تعالى فقط وهو القائل لا يتحرك الانسان الا الحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهيه ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضى أبو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات الالهيه وماذكره حق ولكن القوم انما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة فى الجنة فقط فاما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر الى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الالهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا اليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره وقال أبو عثمان الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الخالق فقط وهذا اشارة الى افة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص فى العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه اشارة الى مجرد الاخفاء وقد قيل الاخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد وقال المحاسبي الاخلاص هو اخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا اشارة الى مجرد نفى الرياء وكذلك قول الخواص من شرب من كاس الرياسة فقد خرج عن اخلاص العبودية وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الاعمال فقال الذى يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لانه أقوى الاسباب المشوشة للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص تصفيه العمل من الكدورات وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما وقيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والاقاويل فى هذا كثيرة ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وانما البيان الشافى بيان سيد الاولين والاخرين صلى الله عليه وسلم (١) اذ سئل عن الاخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذا اشارة الى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا

﴿بيان درجات الشوائب والافات المكدرة للاخلاص﴾

اعلم ان الافات المشوشة للاخلاص بعضها جلى و بعضها خفى و بعضها ضعيف مع الجلاء و بعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها فى الخفاء والجلاء الا بمثال وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا فنقول

(قولهم فى الرضا) قال الحرث الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم وقال ذو النون الرضا سرور القلب بمر القضاء (وقال) سفيان عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت له أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض فسألها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى فقالت اذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة وقال سهل اذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة فطوبى لهم وحسن مآب (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا (وقال) عليه السلام ان الله تعالى بحكمته

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال ان تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يارسول الله حدثنى بامر أعتصم به قال قل ربى الله ثم استقم

الشيطان يدخل الافة على المصلى مهما كان مخلصا فى صلاته ثم نظر اليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين * الدرجة الثانية يكون المريد قد فهم هذه الافة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت اليه و يستمر فى صلاته كما كان فيأتيه فى معرض الخير و يقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك و يتاسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم ان أحسنت وعليك الوزر ان أسات فاحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الاول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالاول وهو أيضا عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه ان كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة ولا يمكن ان تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره الى غيره فيكون له ثواب عليه فاما هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به أثيب عليه واما هو فيطالب بتلبيسه و يعاقب على اظهاره من نفسه ما ليس متصفا به * الدرجة الثالثة وهى ادق مما قبلها ان يجرب العبد نفسه فى ذلك و يتنبه لكيد الشيطان و يعلم ان مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء و يعلم ان الاخلاص فى ان تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملا و يستحى من نفسه ومن ربه ان يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه فى الخلوة و يحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملا و يصلى فى الملا ايضا كذلك فهذا ايضا من الرياء الغامض لانه حسن صلاته فى الخلوة لتحسن فى الملا فلا يكون قد فرق بينهما فالتفاته فى الخلوه والملا الى الخلق بل الاخلاص ان تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكان نفس هذا ليست تسمح باساءة الصلاة بين اظهر الناس ثم يستحى من نفسه ان يكون فى صورة المرائين و يظن ان ذلك يزول بان تستوى صلاته فى الخلا والملا وهيهات بل زوال ذلك بان لا يلتفت الى الخلق كما لا يلتفت الى الجمادات فى الخلا والملا جميعا وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملا والخلا جميعا وهذا من المكايد الخفية للشيطان * الدرجة الرابعة وهى ادق واخفى ان ينظر اليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن ان يقول له اخشع لاجلهم فانه قد عرف انه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ومن انت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله الى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه و يظن ان ذلك عين الاخلاص وهو عين المكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره الى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه فى الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الامن من هذه الافة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة كما يألفه فى الملا ولا يكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فما دام يفرق فى احواله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفى من الرياء وهذا (1) الشرك اخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء كما ورد به الخبر ولا يسلم من الشيطان الا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته والا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات حتى فى كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن فى اوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفى لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان الى فعل ذلك و يقول هذه سنة لا ينبغى أن تتركها و يكون انبعاث القلب باطنا لها لاجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه ومالا يسلم عن هذه الافات كلها فليس بخالص بل من يعتكف فى مسجد معمور نظيف حسن

وهو عند مسلم بلفظ قل لى فى الاسلام قولا لا أسال عنه احدا بعدك قال قل امنت بالله ثم استقم (1) حديث الشرك اخفى فى قلب ابن ادم من دبيب النملة السوداء فى الظلمة الظلماء على الصخرة تقدم فى العلم وفى ذم الجاه والرياء

جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط (وقال) الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل الى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه الى الرضا وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فانهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والاخرة لانه فى الجنة لا يستغنى عن الرضا والمحبة (وقال) ابن عطاء الرضا سكون القلب الى قديم اختيار الله للعبد لانه اختار له الافضل فيرضى له وهو ترك السخط (وقال) أبو تراب ليس ينال الرضا من الله من للدنيا فى قلبه مقدار قال السرى خمس من أخلاق المقربين الرضا عن الله فيما تحب

العمارة يانس اليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الانس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع اليه ويتبين ذلك في ميله الى احد المسجدين أو احد الموضعين اذا كان احسن من الاخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه الا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس اغمض من ذلك وادق كثيرا ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل واريد به العالم البصير بدقائق آفات الاعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره الى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي الى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر الغبي فهكذا يتفاوت امر العبادات بل اشد واعظم ومداخل الآفات المتطرقة الى فنون الاعمال لا يمكن حصرها واحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل ايضا فلا فائدة في التفصيل

﴿بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به﴾

اعلم ان العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء او حظوظ النفس فقد اختلف الناس في ان ذلك هل يقتضي ثوابا ام يقتضي عقابا ام لا يقتضي شيئا اصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به الا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب واما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وانما النظر في المشوب وظاهر (١) الاخبار تدل على انه لا ثواب له وليس تخلو الاخبار عن تعارض فيه والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله ان ينظر الى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الرياء أغلب واقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وان كان قصد التقرب أغلب بالاضافة الى الباعث الاخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها فلا ينبغي ان يضيع قصد الخير بل ان كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وان كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد * وكشف الغطاء عن هذا ان الاعمال تاثيرها في القلوب بتاكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وانما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على وفقها فاذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فاذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة واذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة واحدهما مهلك والاخر منج فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الاخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة اذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كانه لم يتناولهما وان كان احدهما غالبا لم يخل الغالب عن اثر فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والادوية ولا ينفك عن اثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تاثير في انارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو ابعاده فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده

(١) الاخبار التي يدل ظاهرها على ان العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الاخبار عن تعارض ابو داود من حديث ابي هريرة ان رجلا قال يارسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له الحديث وللنسائي من حديث ابي امامة باسناد حسن ارأيت رجلا غزا يلتمس الاجر والذكر ماله فقال لا شيء له فاعادها ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا وابتغي به وجهه وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث ابي هريرة الرجل يعمل العمل فيسر فاذا اطلع عليه اعجبه قال له أجران اجر السر واجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء

النفس وتكره والحب له بالتحبب اليه والحياء من الله والانس به والوحشة مما سواه (وقال الفضيل الراضي لا يتمنى فوق منزلته شيا وقال ابن شمعون الرضا بالحق والرضا له والرضا عنه فالرضا به مدبرا ومختارا والرضا عنه قاسما ومعطيا والرضا له الها وربا وسئل) ابو سعيد هل يجوز ان يكون العبد راضيا ساخطا قال نعم يجوز ان يكون راضيا عن ربه ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله وقيل للحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ان اباذر يقول الفقر احب الى من الغنى والسقم أحب الى من

شبرا فقد عاد الى ما كان فلم يكن له ولا عليه وان كان الفعل مما يقربه شبرين والاخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) أتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيبه فاذا اجتمعا جميعا فلابد وان يتدافعا بالضرورة و يشهد لهذا اجماع الامة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال انما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه الى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وانما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الاصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب وما عندي ان الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم و بين جهة لا غنيمة فيها و يبعد أن يقال ادراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم بل العدل أن يقال اذا كان الباعث الاصلي والمزعج القوي هو اعلاء كلمة الله تعالى وانما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه الى الغنيمة اصلا فان هذا الالتفات نقصان لا محالة فان قلت فالآيات والاخبار تدل على ان شوب الرياء محبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى (٢) طاوس وغيره من التابعين ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدق فيحب ان يحمد و يؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا وقد قصد الاجر والحمد جميعا وروى (٣) معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ادنى الرياء شرك وقال (٤) ابو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم يقال لمن اشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له وروى عن عبادة ان الله عزوجل يقول انا اغنى الاغنياء عن الشركة من عمل لي عملا فاشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي وروى (٥) ابو موسى ان اعرابيا اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله ان يكون قد ملا دفتي راحلته ورقا وقال (٦) ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هاجر يبتغي شيا من الدنيا فهو له فنقول هذه الاحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك الا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيا من الدنيا وكان ذلك هو الاغلب على همه وقد ذكرنا ان ذلك عصيان وعدوان لا لان طلب الدنيا حرام ولكن طلبها باعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها واما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي وقد بينا انه اذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي ان يرجى عليه ثواب ثم ان الانسان عند الشركة ابدا في خطر فانه لا يدري اي الامرين اغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا اي لا يرجي اللقاء مع الشركة التي احسن احوالها التساقط و يجوز ان يقال ايضا منصب الشهادة لا ينال الا بالاخلاص في الغزو و بعيد ان يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه الى مجرد الغزو وان لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار احداهما غنية والاخرى فقيرة

---

(١) حديث اتبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعدة من التابعين ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف او قال يتصدق فيحب ان يحمد و يؤجر فنزلت فمن كان يرجو لقاء ربه ابن ابي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس وقد تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث معاذ ادنى الرياء شرك الطبراني والحاكم وتقدم فيه (٤) حديث ابي هريرة يقال لمن اشرك في عمله خذ اجرك ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود ابن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث ابي هريرة من عمل عملا اشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطا فهو له كله (٥) حديث ابي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله

الصحة قال رحم الله أبا ذر أما أنا فاقول من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له وقال علي رضي الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال (وقال) يحيي يرجع الامر كله الى هذين الاصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى بما عمل وتخلص فيما تعمل (وقال) بعضهم الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتاسف عليها (وقيل) ليحيي ابن معاذ متى يبلغ العبد الى مقام الرضا قال اذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل

فال الى سرية لاغنياء لاعلاء كلمة الله والغنيمة لا ثواب له على غزوه ألبتة ونعوذ بالله ان يكون الأمر كذلك فان هذا حرج فى الدين ومدخل لليأس على المسلمين لان أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الانسان عنها الا على الندور فيكون تاثير هذا فى نقصان الثواب فاما أن يكون فى احباطه فلا نعم الانسان فيه على خطر عظيم لانه ربما يظن ان الباعث الاقوى هو قصد التقرب الى الله ويكون الاغلب على سره الحظ النفسي وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الاجر الا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وان بالغ فى الاحتياط فلذلك ينبغى ان يكون ابدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا ان تكون فى عبادته آفة يكون وبالها اكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغى ان يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لا أعتد بما ظهر من عملى وقال عبد العزيز بن ابى رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت فى شيء من اعمال الله تعالى الا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لا لى ولا على ومع هذا فلا ينبغى ان يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى ان بعض الفقراء كان يخدم أباسعيد الخراز ويخف فى اعماله فتكلم ابو سعيد فى الاخلاص يوما يريد اخلاص الحركات فاخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالب بالاخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك فساله عن امره فاخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وانه يعجز عنها فى اكثر اعماله فيتركها فقال ابو سعيد لا تفعل اذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الاخلاص فما قلت لك اترك العمل وانما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لاجل الخلق شرك

﴿ الباب الثالث فى الصدق وفضيلته وحقيقته ﴾

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) ان الصدق يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدى الى الفجور والفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ويكفى فى فضيلة الصدق ان الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الانبياء به فى معرض المدح والثناء فقال واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا وقال واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وقال تعالى واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا وقال ابن عباس اربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر وقال بشر بن الحرث من عامل الله بالصدق استوحش من الناس وقال ابو عبد الله الرملى رأيت منصور الدينورى فى المنام فقلت له ما فعل الله بك قال غفر لى ورحمنى وأعطانى مالم أؤمل فقلت له احسن ما توجه العبد به الى الله ماذا قال الصدق واقبح ما توجه به الكذب وقال ابو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك وقال رجل لحكيم ما رأيت صدقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن على الكتانى قال وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة اركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول وقال الثورى فى قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود من صدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته وصاح رجل فى مجلس الشبلى ورمى نفسه فى دجلة فقال الشبلى ان كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وان كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون وقال بعضهم اجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث

به يقول ان أعطيتنى قبلت وان منعتنى رضيت وان تركتنى عبدت وان دعوتنى اجبت وقال الشبلى رحمه الله بين يدى الجنيد لا حول ولا قوة الا بالله قال الجنيد قولك ذا ضيق صدر فقال صدقت قال فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء وهذا انما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على اصل الرضا وذلك ان الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه وانشراح القلب من نور اليقين قال الله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فاذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعاين

(الباب الثالث فى الصدق)

(١) حديث ان الصدق يهدى الى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

خصال انها اذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها الا ببعض الاسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الاعمال وطيب المطعم وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني اسرائيل يجتمعون فيقرؤنها و يتدارسونها * لا كنز انفع من العلم ولا مال اربح من الحلم ولا حسب اوضع من الغضب ولا قرين أزين من العلم ولا رفيق اشين من الجهل ولا شرف اعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل افضل من الفكر ولا حسنة أعلى من الصبر ولا سيئة اخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء اوجع من الخرق ولا رسول اعدل من الحق ولا دليل انصح من الصدق ولا فقر اذل من الطمع ولا غنى اشقى من الجمع ولا حياة اطيب من الصحة ولا معيشة اهنا من العفة ولا عبادة احسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس احفظ من الصمت ولا غائب اقرب من الموت * وقال محمد بن سعيد المروزى اذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة وقال ابو بكر الوراق احفظ بالصدق فيما بينك و بين الله تعالى والرفق فيما بينك و بين الخلق وقيل لذى النون هل للعبد الى صلاح اموره سبيل فقال

قد بقينا من الذنوب حيارى * نطلب الصدق ماالیه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل ماأصل هذا الامر الذى نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة فقيل زدنا فقال التقى والحياء وطيب الغذاء وعن (١) ابن عباس رضى الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق وعن الجنيد فى قوله تعالى ليسال الصادقين عن صدقهم قال يسال الصادقين عند انفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر

﴿ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه ﴾

اعلم ان لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان صدق فى القول وصدق فى النية والارادة وصدق فى العزم وصدق فى الوفاء بالعزم وصدق فى العمل وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق لانه مبالغة فى الصدق ثم هم ايضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شيء من الجملة فهو صادق بالاضافة الى مافيه صدقه (الصدق الاول) صدق اللسان وذلك لايكون الا فى الاخبار او فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه والخبر اما ان يتعلق بالماضى او بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد ان يحفظ الفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وهذا هو اشهر انواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الاشياء على خلاف ماهى عليه فهو صادق ولكن هذا الصدق كمالان احدهما الاحتراز عن المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لانها تقوم مقام الكذب اذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ماهو عليه فى نفسه الا ان ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الاحوال وفى تاديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على اسرار الملك فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه ان يكون نطقه فيه لله فيما يامره الحق به و يقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لان الصدق ما اريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه فى مثل هذا الموضع ينبغى ان يعدل الى المعاريض ما وجد اليه سبيلا (٢) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورى بغيره وذلك كى لاينتهى الخبر الى الاعداء فيقصد وليس هذا من الكذب فى شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيرا او انمى خيرا ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع من اصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم اجده بهذا اللفظ (٢) حديث كان اذا اراد سفرا ورى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٣) حديث ليس بكذاب من اصلح بين الناس الحديث

حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والتضجر لان اتساع القدرة يتضمن حلاوة الحب وفصل المحبوب بوقع الرضا عن المحب الصادق لان المحب يرى ان الفعل من المحبوب مراده واختياره فيفنى فى لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه كما قيل وكل مايفعل المحبوب محبوب

(الباب الحادى والستون فى ذكر الاحوال وشرحها)

(حدثنا) شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا ابو طالب الزينبى قال اخبرتنا كريمة المروزية قالت انا ابو الهيثم الكشميهنى قال أنا ابو عبد الله الفربرى قال أنا

في مصالح الحرب والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا الصدق النية وارادة الخير فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته خطي باصبعك دائرة وضعي الاصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم انه ليس في الدار فالكمال الاول في اللفظ ان يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا الا عند الضرورة والكمال الثاني ان يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بامانى الدنيا وشهواته فهو كذب وكقوله اياك نعبد وقوله انا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبدا لنفسه أو عبد الدنيا اوعبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام ياعبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة سمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له وانما العبد الحق لله عز وجل من اعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فخلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد الا الله تعالى ثم قد تجاوز هذا الى مقام آخر اسنى منه يسمى الحرية وهو ان يعتق ايضا عن ارادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب او ابعاد فتفنى ارادته في ارادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه ان حركه تحرك وان سكنه سكن وان ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين و بعدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه ان يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول (الصدق الثاني) في النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو ان لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز ان يسمى كاذبا كما روينا في فضيلة الاخلاص من حديث (٢) الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت فقال فعلت كذا وكذا فقال الله تعالى كذبت بل اردت ان يقال فلان عالم فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في ارادته ونيته وقد قال بعضهم الصدق صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقد قالوا انك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق الى الخبر وهذا القول يتضمن اخبارا بقرينة الحال اذ صاحبه يظهر من نفسه انه يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معاني الصدق الى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلابد وان يكون مخلصا (الصدق الثالث) صدق العزم فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه او بشطره وان لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم ابال وان قتلت وان اعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي او كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى

متفق عليه من حديث ام كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط وقد تقدم (١) حديث تعس عبد الدينار الحديث البخاري من حديث ابي هريرة وقد تقدم (٢) حديث الثلاثة حين سال العالم ماذا عملت فيما علمت الحديث تقدم

ابو عبد الله البخاري قال ثنا سليمان ابن حرب قال حدثنا شعبة عن قتادة عن انس ابن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن أحب عبدا لا يحبه الا الله ومن يكره ان يعود في الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار (وأخبرنا) شيخنا ابو زرعة طاهر ابن ابي الفضل قال انا ابو بكر ابن خلف قال انا ابو عبد الرحمن قال انا ابو عمر ابن حيوة قال حدثني ابو عبيد ابن مؤمل عن أبيه قال حدثني بشر بن محمد قال حدثنا عبد الملك

والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه ابداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه لان اقدم فتضرب عنقى احب الى من ان اتامر على قوم فيهم ابو بكر رضى الله عنه فانه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بانه لا يتامر مع وجود ابى بكر رضى الله عنه واكد ذلك بما ذكره من القتل ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهى به الى ان يرضى بالقتل فيه ولكن اذا خلى ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين ان يقتل هو او ابو بكر كانت حياته احب اليه من حياة ابى بكر الصديق

(الصدق الرابع) فى الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال اذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقد روى عن (١) انس ان عمه انس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه اما والله لئن ارانى الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما اصنع قال فشهد احداً فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا ابا عمرو الى اين فقال واهاً لريح الجنة انى اجد ريحها دون احد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت اخته بنت النضر ما عرفت اخى الا بثيابه فنزلت هذه الآية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (٢) ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم احد شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وقال (٣) فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الشهداء اربعة رجل مؤمن جيد الايمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس اليه اعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته قال الراوى فلا ادرى قلنسوة عمر او قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل جيد الايمان اذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح اتاه سهم عائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ورجل اسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة * وقال مجاهد رجلان خرجا على ملا من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين وقال بعضهم انما هو شىء نووه فى انفسهم لم يتكلموا به فقال ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون فجعل العزم عهداً وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق اشد من الصدق الثالث فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الاسباب ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لان اقدم فتضرب عنقى احب الى من ان اتامر على قوم فيهم ابو بكر اللهم الا ان تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا اجده الآن لانى لا آمن ان يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها اشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم وقال ابو سعيد الخراز رأيت فى المنام كان ملكين نزلا من السماء فقالا لى

---

(١) حديث انس ان عمه انس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله باحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول رجال صدقوا والآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصراً ان هذه الآية نزلت فى انس بن النضر (٢) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم احد وقرأ هذه الآية ابو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا (٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء اربعة رجل مؤمن جيد الايمان الحديث الترمذى

ابن وهب عن ابراهيم بن ابى عبلة عن العرباض ابن سارية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم اجعل حبك احب الى من نفسى وسمعى وبصرى واهلى ومالى ومن الماء البارد فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب خالص الحب وخالص الحب هو ان يحب الله تعالى بكليته وذلك ان العبد قد يكون فى حال قائما بشروط حاله بحكم العلم والجبلة تتقاضاه بضد العلم مثل ان يكون راضيا والجبلة قد تكره ويكون النظر الى الانقياد بالعلم لا الى الاستعصاء بالجبلة فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الايمان ويحب الاهل والولد بحكم الطبع

ما الصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لى صدقت وعرجا الى السماء ﴿الصدق الخامس﴾ فى الاعمال وهو ان يجتهد حتى لا تدل اعماله الظاهرة على امر فى باطنه لا يتصف هو به لا بان يترك الاعمال ولكن بان يستجر الباطن الى تصديق الظاهر وهذا مخالف ماذكرنا من ترك الرياء لان المرائى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر اليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه اعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن اعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الاعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وان لم يكن ملتفتا الى الخلق ولا مرائيا اياهم ولا ينجو من هذا الا باستواء السريرة والعلانية بان يكون باطنه مثل ظاهره او خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الاسرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا مخالفة الظاهر للباطن ان كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الاخلاص وان كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة وقال يزيد بن الحرث اذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وان كانت سريرته افضل من علانيته فذلك الفضل وان كانت علانيته افضل من سريرته فذلك الجور وانشدوا

اذا السر والاعلان فى المؤمن استوى * فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا
فان خالف الاعلان سرا فماله * على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار فى السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضى المنى

وقال عطية بن عبد الغافر اذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا وقال معاوية ابن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن اذا أمر بشئ كان من أعمل الناس به واذا نهى عن شئ كان من أترك الناس له ولم أر احدا قط اشبه سريرة بعلانية منه وكان ابو عبد الرحمن الزاهد يقول الهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالامانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ويبكى وقال أبو يعقوب النهرجورى الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية فاذا مساواة السريرة للعلانية احد انواع الصدق ﴿الصدق السادس﴾ وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق فى مقامات الدين كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الامور فان هذه الامور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها واذا غلب الشئ وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذا هى الشهوة الصادقة وقال الله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا الى قوله أولئك هم الصادقون وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى قوله أولئك الذين صدقوا (٢) وسئل أبوذر عن الايمان فقرأ هذه الاية فقيل له سألناك عن الايمان فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ هذه الاية ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الاخر الا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق اى غير بالغ درجة الحقيقة اما تراه اذا خاف سلطانا او قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه اكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به اهله وولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالانس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للاخطار كل ذلك خوفا من درك المحذور ثم انه يخاف النار ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند جريان معصية

وقال حسن (١) حديث اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى الحديث تقدم ولم اجده (٢) حديث ابى ذر سألته عن الايمان فقرأ قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر الى قوله أولئك الذين صدقوا رواه محمد ابن نصر المروزى فى تعظيم قدر الصلاة باسانيد منقطعة لم اجد له اسنادا

وللمحبة وجوه وبواعث المحبة فى الانسان متنوعة * فمنها محبة الروح ومحبة القلب ومحبة النفس ومحبة العقل فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الاهل والمال والماء البارد معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى حتى يكون حب الله تعالى غالبا فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته حتى يكون حب الله تعالى اغلب فى الطبع ايضا والجبلة من حب الماء البارد وهذا يكون حبا صافيا لخواص تنغمر به وبنوره نار الطبع والجبلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه الى مواطن القرب (قال) الواسطى فى قوله تعالى يحبهم

عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها فالتحقيق في هذه الامور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله اما ضعيف واما قوي فاذا قوي سمي صادقا فيه فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) لجبريل عليه السلام احب ان اراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل أرني فواعده البقيع في ليلة مقمرة فاتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا هو به قد سد الافق يعني جوانب السماء فوقع النبي صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الاولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ماظننت أن احدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت اسرافيل ان العرش لعلى كاهله وان رجليه قد مرقتا تحت تخوم الارض السفلى وانه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع يعني كالعصفور الصغير فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع الى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملا الاعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما لن تبلغ حقيقة الايمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله وقال مطرف مامن الناس أحد الا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه الا أن بعض الحمق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر في جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها احقر حقير فالصادق اذا في جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الامور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن قوي وفيما سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى افرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ماهي قائلة وماهو مقول لها حتى يفرغ من دفنها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا الا علمت انه حق فقال ابن المسيب ماظننت ان هذه الخصال تجتمع الا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الامور وكم قوم من جلة الصحابة قد ادوا الصلاة وتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الاغلب لا تتعرض الا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال ابو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون وصدق الطاعة لاهل العلم والورع وصدق المعرفة لاهل الولاية الذين هم اوتاد الارض وكل هذا يدور على ماذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو ايضا غير محيط بجميع الاقسام وقال جعفر الصادق الصدق هو المجاهدة وان لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى هو اجتباكم وقيل أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام اني اذا احببت عبدا ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لانظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا وان وجدته جزوعا يشكوني الى خلقي خذلته ولا أبالي فاذا من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها تم كتاب الصدق والاخلاص يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

---

(١) حديث لم أر مثل النار نام هاربها الحديث تقدم (٢) حديث قال لجبريل احب ان اراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك الحديث تقدم في كتاب الرجاء والخوف اخصر من هذا والذي ثبت في الصحيح انه رأى جبريل في صورته مرتين (٣) حديث مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملا الاعلى كالحلس البالي من خشية الله الحديث محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث ابن عبيد الايادي ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارد وهذا مرسل (٤) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر في جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها احقر حقير لم أجد له اصلا في حديث مرفوع

ويحبونه كما انه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته فالهاء راجعة الى الذات دون النعوت والصفات (وقال) بعضهم المحب شرطه ان تلحقه سكرات المحبة فاذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فاذا الحب حبان حب عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامتثال الامر وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء وهذا الحب يخرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر الى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل (وأما) الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السكرات وهو

﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجترحت المطلع على ضمائر القلوب اذا هجست الحسيب على خواطر عباده اذا اختلجت الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والارض تحركت اوسكنت المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الاعمال وان خفيت المتفضل بقبول طاعات العباد وان صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وان كثرت وانما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما احضرت وتنظر فيما قدمت واخرت فتعلم انه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت و بعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضيله بقبول بضاعتها المزجات لخابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للايمان وانشرحت و بيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتادبت و بحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت و بتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت و بلطف عنايته تترجح كفة الحسنات اذا ثقلت و بتيسيره تيسرت من الطاعات ماتيسرت فمنه العطاء والجزاء والابعاد والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى آله سادة الاصفياء وعلى اصحابه قادة الاتقياء (امابعد) فقد قال الله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينابها وكفى بنا حاسبين وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممافيه و يقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا وقال تعالى يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بماعملوا احصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد وقال تعالى يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقال تعالى ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وقال تعالى يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من سوء تود لو ان بينها و بينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه وقال تعالى واعلموا ان الله يعلم مافى انفسكم فاحذروه فعرف ارباب البصائر من جملة العباد ان الله تعالى لهم بالمرصاد وانهم سيناقشون فى الحساب و يطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا انه لا ينجيهم من هذه الاخطار الا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الانفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل ان يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته الى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا انه لا ينجيهم منه الا طاعة الله وقد امرهم بالصبر والمرابطة فقال عزمن قائل ياايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا فرابطوا أنفسهم اولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولا بد من شرحها و بيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الاعمال فيها واصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة و يتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات و بالله التوفيق

﴿ المقام الاول من المرابطة المشارطة ﴾

اعلم ان مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما ان التاجر يستعين بشريكه فيسلم اليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر فى طريق الآخرة وانما مطلبه وربحه تزكية النفس لان بذلك فلاحها قال الله تعالى قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها وانما فلاحها بالاعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة اذ يستعملها و يستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما ان الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه فى الربح فيحتاج الى ان يشارطه اولا و يراقبه ثانيا و يحاسبه ثالثا و يعاقبه او يعاتبه رابعا فكذلك العقل يحتاج الى مشارطه النفس اولا فيوظف عليها الوظائف و يشرط عليها

الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه اياه وهذا الحب يكون من الاحوال لانه مخص موهبة ليس للكسب فيه مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم أحب الى من الماء البارد لانه كلام عن وجدان روح تلتذ بحب الذات (وهذا) الحب روح والحب الذى يظهر عن مطالعة الصفات و يطلع من مطالع الايمان قالب هذا الروح ولما صحت محبتهم هذه اخبر الله تعالى عنهم بقوله أذلة على المؤمنين لان المحب يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه و ينشد لعين تفدى الف عين وتتقى و يكرم الف للحبيب المكرم وهذا الحب الخالص هو اصل

الشروط

الشروط ويرشدها الى طرق الفلاح ويجزم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو اهملها لم ير منها الا الخيانة وتضييع راس المال كالعبد الخائن اذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغى ان يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الاعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الانبياء والشهداء فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه فى ارباح الدنيا مع انها محتقرة بالاضافة الى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها الى التصرم والانقضاء ولا خير فى خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لان الشر الذى لا يدوم اذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر والخير الذى لا يدوم يبقى الاسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الاخر ان لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فان كل نفس من انفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن ان يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه ابد الاباد فانقضاء هذه الانفاس ضائعة اومصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل فاذا اصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما ان التاجر عند تسليم البضاعة الى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة الا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع الياس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد امهلنى الله فيه وانسا فى اجلى وانعم على به ولو توفانى لكنت اتمنى ان يرجعنى الى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسبي انك قد توفيت ثم قد رددت فاياك ثم اياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمى يا نفس ان اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد فى الخبر انه[1] ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوأة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار مالو وزع على اهل النار لادهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بالم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع مالو قسم على اهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة اخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه وهى الساعة التى نام فيها أوغفل اواشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ماينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير اذا اهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدى اليوم فى ان تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى اسباب ملكك ولا تميلى الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وان دخلت الجنة فالم الغبن وحسرته لا يطاق وان كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب ان المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين اشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن فهذه وصيته لنفسه فى اوقاته ثم ليستانف لها وصية فى أعضائه السبعة وهى العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها اليها فانها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم اعمال هذه التجارة وان لجهنم سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم وانما تتعين تلك الابواب لمن عصى الله تعالى بهذه الاعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها اما العين فيحفظها عن النظر الى وجه من ليس له بمحرم اوالى عورة مسلم اوالنظر الى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فان الله تعالى يسال عبده عن فضول النظر كما يساله عن فضول الكلام ثم اذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى اعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوأة من

الاحوال السنية وموجبها وهو فى الاحوال كالتوبة فى المقامات فمن صححت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ماشرحناه اولا ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الاحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك والتوبة لهذا الحب ايضا بمثابة الجسمان لانها مشتملة على الحب العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ومن اخذ فى طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة

وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الامر عليها في عضو عضو لاسيما اللسان والبطن أما اللسان فلانه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والاطعمة واللعن والدعاء على الاعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع انه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وارشاد عباد الله الى طريق الله واصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار الا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة ومايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الاكل من الحلال واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشرط على نفسه انها ان خالفت شيأ من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشرط عليها في جميع الاعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الاعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها باسبابها وهذه شروط يفتقر اليها في كل يوم ولكن اذا تعود الانسان شرط ذلك على نفسه اياما وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وان اطاع في بعضها بقيت الحاجة الى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه في ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من اعمال الدنيا من ولاية او تجارة او تدريس اذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج الى ان يقضي حق الله فيها فعليه ان يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتادب يؤثر فيها وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين فهذا وما يجرى مجراه هو اول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى واعلموا ان الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه في المستقبل وروى (١) عبادة بن الصامت انه عليه السلام قال لرجل ساله أن يوصيه ويعظه اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وقال بعض الحكماء اذا أردت ان يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فان مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان ان المؤمن اذا أبصر العاقبة أمن الندامة وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم انه قال (٢) الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله دان نفسه اى حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله أئنا لمدينون اى لمحاسبون وقال عمر رضي الله عنه حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا وتهيؤا للعرض الاكبر وكتب الى ابي موسى الاشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل لديان الارض من ديان السماء فعلاه بالدرة وقال الا من حاسب نفسه فقال كعب يا امير المؤمنين انها الى جنبها في التوراة ما بينهما حرف الا من حاسب نفسه وهذا كله اشارة الى المحاسبة للمستقبل اذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الامور اولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم اقدم عليها فباشرها

(المرابطة الثانية المراقبة) اذا اوصى الانسان نفسه وشرط عليها ماذكرناه فلا يبقى الا المراقبة لها عند الخوض

حسناته الحديث بطوله لم اجد له اصلا (١) حديث عبادة بن الصامت اذا اردت امرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم

(٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم

النصوح وعند ذلك لا يتقلب في اطوار المقامات لان التقلب في اطوار المقامات والترقي من شيء منها الى شيء طريق المحبين ومن اخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ومن قوله تعالى ويهدي اليه من ينيب اثبت كون الانابة سببا للهداية في حق المحب وفي حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب فقال تعالى الله يجتبي اليه من يشاء فمن اخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط اطوار المقامات ويندرج فيه صفوها وخالصها باتم وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها

في

فى الاعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فانها ان تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها (أما الفضيلة) فقد (١) سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال أن تعبد الله كانك تراه وقال عليه السلام (٢) اعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقد قال تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وقال تعالى ألم يعلم بان الله يرى وقال الله تعالى ان الله كان عليكم رقيبا وقال تعالى والذين هم لامانتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون. قال ابن المبارك لرجل راقب الله تعالى فساله عن تفسيره فقال كن ابدا كانك ترى الله عزوجل وقال عبد الواحد بن زيد اذا كان سيدى رقيبا على فلا أبالى بغيره وقال أبو عثمان المغربى افضل ما يلزم الانسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم وقال ابن عطاء افضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الاوقات وقال الجريرى امرنا هذا مبنى على اصلين ان تلزم نفسك المراقبة لله عزوجل ويكون العلم على ظاهرك قائما وقال ابو عثمان قال لى ابو حفص اذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك * وحكى انه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض اصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه احد ودفع الى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح اصحابك فقال لم اجد موضعا لا يرانى فيه احد اذ الله مطلع على فى كل مكان فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا حق لك ان تكرم وحكى ان زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف مالك اتستحيين من مراقبة جماد ولا استحيى من مراقبة الملك الجبار وحكى عن بعض الاحداث انه راود جارية على نفسها فقالت له الا تستحى فقال ممن استحيى وما يرانا الا الكواكب قالت فاين مكوكبها وقال رجل للجنيد بم استعين على غض البصر فقال بعلمك ان نظر الناظر اليك اسبق من نظرك الى المنظور اليه وقال الجنيد انما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عزوجل وعن مالك بن دينار قال جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقهن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها قال يقول الله عز وجل انما يسكن جنات عدن الذين اذا هموا بالمعاصى ذكروا عظمتى فراقبونى والذين انثنت اصلابهم من خشيتى وعزتى وجلالى انى لاهم بعذاب اهل الارض فاذا نظرت الى اهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب وسئل المحاسبى عن المراقبة فقال اولها علم القلب بقرب الرب تعالى وقال المرتعش المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظه ويروى ان الله تعالى قال للملائكته انتم موكلون بالظاهر وانا الرقيب على الباطن وقال محمد بن على الترمذى اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره اليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه وقال سهل لم يتزين القلب بشىء افضل ولا اشرف من علم العبد بان الله شاهده حيث كان وسئل بعضهم عن قوله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عزوجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى فى السر والعلانية وانتظار الموت بالتاهب له ومحاسبة نفسك قبل ان تحاسب وقد قيل

اذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل * خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا ان ماتخفيه عنه يغيب

الم تر ان اليوم اسرع ذاهب * وان غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان ابن على عظنى فقال لئن كنت اذا عصيت الله خاليا ظننت انه يراك لقد اجترأت على

(١) حديث سال جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كانك تراه متفق عليه من حديث ابى هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث اعبد الله كانك تراه الحديث تقدم

بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها لانه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية فالزهد يصفيه عن الرغبة والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء جمود فى النفس ماأشرق عليها شموس المحبة الخاصة فبقى ظلمتها وجمودها فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها فما اذا ينزع الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحرقت رغبته

أمر عظيم ولئن كنت تظن انه لا يراك فلقد كفرت وقال سفيان الثورى عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة وقال فرقد السنجي ان المنافق ينظر فاذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وانما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى مكة فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال يا راعى بعني شاة من هذه الغنم فقال انى مملوك فقال قل لسيدك أكلها الذئب قال فاين الله قال فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا الى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو ان تعتقك فى الآخرة

﴿بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها﴾

اعلم ان حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم اليه فمن احترز من أمر من الامور بسبب غيره يقال انه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب اما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته اليه وملاحظته اياه وانصرافه اليه وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بان الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وان سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة اذا صارت يقينا أعنى انها خلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب الى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه اليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون الى الصديقين والى أصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين الدرجة الاولى مراقبة المقربين من الصديقين وهى مراقبة التعظيم والاجلال وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير أصلا وهذه مراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فانها مقصورة على القلب أما الجوارح فانها تتعطل عن التلفت الى المباحات فضلا عن المحظورات واذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج الى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فاذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع انه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال لمن عاتبه اذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة لملوك الارض حتى ان خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له وقد قيل لعبد الواحد بن زيد هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق فقال ما أعرف الا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان الا سريعا حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا عتبة فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من لقيت فى الطريق فقال ما رأيت أحدا ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا فقال ما ظننتها الا جدارا وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم فتقدمت اليه فاردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى فقلت أنت وحدك فقال معى ربى وملكاى فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فاشار نحو السماء وقام ومشى وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم الا منه ولا يسمع الا فيه فهذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك الا بما هو فيه ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شىء فقال له من أين أخذت هذه المراقبة

وماذا يصفى منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته وما ذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعة ممن لم تسلم كلية (قال) الروذبارى ما لم تخرج من كليتك لا تدخل فى حد المحبة وقال أبو يزيد من قتلته محبته فديته رؤيته ومن قتله عشقه فديته منادمته (أخبرنا) بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال سمعت أحمد ابن على بن جعفر يقول سمعت الحسين بن علويه يقول قال أبو زيد ذلك فاذا التقلب فى أطوار المقامات لعوام المحبين وطى بساط الاطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن هممهم

والسكون

والسكون فقال من سنور كانت لنا فكانت اذا ارادت الصيد رابطت راس الحجر لا تتحرك لها شعرة (قال ابو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر اريد الرملة للقاء ابى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد ان فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت اليهما نظرة لعلك تستفيد منها فدخلت صور وانا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شىء فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم اسمع الجواب فقلت نشدتكما بالله الا رددتما على السلام فرفع الشاب راسه من مرقعته فنظر الى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل الا القليل فخذ من القليل الكثير يا ابن خفيف ما اقل شغلك حتى تتفرغ الى لقائنا قال فاخذ بكليتى ثم طاطا رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه الى وقال يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة ايام لا آكل ولا اشرب ولا انام ولا رأيتهما اكلا شيئا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى احلفهما ان يعظانى اعلى ان انتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه وقال لى يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك * الدرجة الثانية مراقبة الورعين من اصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الاحوال والاعمال الا انها مع ممارسته الاعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يتقدمون ولا يحجمون الا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فانهم يرون الله فى الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك فى خلوتك قد تتعاطى اعمالا فيحضرك صبى او امرأة فتعلم انه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن اجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وان كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها تهيج الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك او كبير من الاكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما انت فيه شغلا به لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج ان يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل اما قبل العمل فلينظر ان ماظهر له وتحرك بفعله خاطره اهو لله خاصة او هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان لله تعالى أمضاه وان كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله اليه وعرفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وانها عدوة نفسها ان لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف فى بداية الامور الى حد البيان واجب محتوم لا محيص لاحد عنه فان فى الخبر انه (١) ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وان صغرت ثلاثة دواوين الديوان الاول لم والثانى كيف والثالث لمن ومعنى لم اى لم فعلت هذا اكان عليك ان تفعله لمولاك او ملت اليه بشهوتك وهواك فان سلم منه بان كان عليه ان يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا فان لله فى كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته الا بعلم فيقال له كيف فعلت ابعلم محقق أم بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت الوجه الله خالصا وفاء بقولك لا اله الا الله فيكون أجرك على الله او لمخلوق مثلك فخذ اجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ام عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وان عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى اذ كنت عبدا لى تاكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى اما سمعتنى اقول ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون

(١) حديث ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وان صغرت ثلاثة دواوين الأول لم والثانى كيف والثالث لمن

المقامات وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات وهى مواطن من يتعثر فى ذيال بقاياه (قال) بعض الكبار لابراهيم الخواص الى ماذا ادى بك التصوف فقال الى التوكل فقال تسعى فى عمران باطنك اين انت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل فالنفس اذا تحركت بصفتها متفلتة من دائرة الزهد يردها الزاهد الى الدائرة بزهده والمتوكل اذا تحركت نفسه يردها بتوكله والرضى يردها برضاه وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفتقر الى سياسة العلم وفى ذلك تنسم روح القرب من بعيد وهو اداء حق العبودية مبلغ العلم

لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه و يحك أما سمعتني أقول ألا لله الدين الخالص فاذا عرف العبد انه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل ان تطالب وأعد للسؤال جوابا وليكن الجواب صوابا فلا يبدىء ولا يعيد الا بعد التثبت ولا يحرك جفنا ولا أنملة الا بعد التامل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) لماذا ان الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين باصبعيه وعن لمسه ثوب اخيه و قال الحسن كان احدهم اذا أراد ان يتصدق بصدقة نظر وتثبت فان كان لله امضاه وقال الحسن رحمه الله تعالى عبدا وقف عند همه فان كان لله مضى وان لغيره تاخر وقال فى حديث (٢) سعد حين أوصاه سلمان اتق الله عند همك اذا هممت وقال محمد بن على ان المؤمن وقاف متان يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الاول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا الا العلم المتين والمعرفة الحقيقية باسرار الاعمال واغوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه ابليس ولم يعرف مايوافق هواه ولم يميز بينه و بين مايحبه الله و يرضاه فى نيته وهمه وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذه المراقبة بل الاكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولا تظنن ان الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لانه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقى ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم الله تعالى على كل عبد ان يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم انه لله تعالى فيمضيه اوهو لهوى النفس فيتقيه و يزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الاولى فى الباطل اذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث الفعل والفعل يورث البوار والمقت فينبغي ان تحسم مادة الشر من منبعه الاول وهو الخاطر فان جميع ماوراءه يتبعه ومهما اشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم و يستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضىء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل اشد فقد اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لاتسال عنى عالما اسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتى اولئك قطاع الطريق على عبادى فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء انوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضىء بها من استدبرها واقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهى شهوات الدنيا فلتكن همة المريد اولا فى احكام العلم اوفى طلب عالم معرض عن الدنيا اوضعيف الرغبة فيها ان لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات جمع بين الامرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات ولذلك قال عليه السلام (٤) من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه ابدا فما قدر العقل الضعيف الذى يسعد الآدمى به حتى يمد الى محوه ومحقه بمفارقة الذنوب ومعرفة آفات الاعمال قد اندرست فى هذه الاعصار فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه واخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذى ماقصد به الا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان

و بحسبه الاجتهاد والكسب ومن أخذ فى طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بانوار فضل الحق ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة العكوف محمية عن الطوارق والصروف لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلب فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه وهو غير كائن فيها على معنى انه كيف تقلب كان زاهدا وان رغب لانه بالحق لا بنفسه وان رؤى منه الالتفات الى الاسباب فهو متوكل وان وجد منه الكراهة فهو راض لان كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد اليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة

لم اقف له على اصل (١) حديث قال لماذا ان الرجل ليسال عن كحل عينيه الحديث تقدم فى الذى قبله (٢) حديث سعد حين اوصاه سلمان ان اتق الله عند همك اذا هممت احمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث ابو نعيم فى الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر المدنى ضعفه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه

فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفى الخبر (١) أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع اهل العراق واهل الشام لما أشكل عليهم الامر كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه معجبا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال (٢) فاذا رايت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى راى برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ولا تقف ماليس لك به علم وقوله عليه السلام (٣) اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث واراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما اشكل عليه و يتبع ظنه ولصعوبة هذا الامر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم ارنى الحق حقا وارزقنى اتباعه وارنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابها على فاتبع الهوى (٤) وقال عيسى عليه السلام الامور ثلاثة امر استبان رشده فاتبعه وامر استبان غيه فاجتنبه وامر اشكل عليك فكله الى عالمه وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم (٥) اللهم انى اعوذ بك ان اقول فى الدين بغير علم فاعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والايمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده وكان فضل الله عليك عظيما واراد به العلم وقال تعالى فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال تعالى ان علينا للهدى وقال ثم ان علينا بيانه وقال وعلى الله قصد السبيل وقال على كرم الله وجهه الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد اقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب الى كل جميل واوثق العرا التقوى واوثق سبب اخذت به سبب بينك و بين الله تعالى انما لك من دنياك ما اصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تاته اتاك وان كنت جازعا على ماأصيب مما فى يديك فلا تجزع على مالم يصل اليك واستدل على مالم يكن بما كان فانما الامور اشباه والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته و يسوءه فوت مالم يكن ليدركه فمانالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك اسفا وليكن سرورك بماقدمت واسفك على ماخلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة * فاذا النظر الاول للمراقب نظره فى الهم والحركة اهى لله ام للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم (٦) ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لايخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من عمله واذا عرض له امران احدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا واكثر ماينكشف له فى حركاته ان يكون مباحا ولكن لايعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم (٧) من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه * النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه و يحسن النية فى اتمامه و يكمل صورته و يتعاطاه على اكمل مايمكنه وهذا ملازم له فى جميع احواله فانه لايخلو فى جميع احواله عن حركة وسكون فاذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الادب فان كان قاعدا مثلا فلا ينبغى ان يقعد مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم (٨) خير المجالس ما استقبل به القبلة ولا يجلس متربعا اذ لا يجالس الملوك كذلك

موهوبة محمولة لمطوف بها صار عين الداء دواءه وصار الاعلال شفاءه وناب طالب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضا أوصار مطلوبه من الله ينوب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا (قالت) رابعة محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه (وقال) أبو عبد الله القرشى حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك ولا يبقى لك منك شىء (وقال) أبو الحسين الوراق السرور بالله من شدة المحبة له والمحبة فى القلب نار تحرق كل دنس (وقال) يحيى بن معاذ صبر المحبين اشد من صبر الزاهدين واعجبا كيف يصبر الانسان عن

ابدا تقدم ولم اجده (١) حديث انتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت لم اجده (٢) حديث فاذا رايت شحا مطاعا وهوى متبعا الحديث تقدم (٣) حديث اياكم والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الامور ثلاثة الحديث الطبرانى من حديث ابن عباس باسناد ضعيف (٥) حديث اللهم انى اعوذ بك ان اقول فى الدين بغير علم لم اجده (٦) حديث ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لايخاف فى الله لومة لائم الحديث ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابى هريرة وقد تقدم (٧) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه تقدم (٨) حديث خير المجالس ما استقبل به القبلة الحاكم من حديث

وملك الملوك مطلع عليه قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس الملوك فلم أجلس بعد ذلك متربعا وان كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فاذا لا يخلو العبد اما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح فمراقبته فى الطاعة بالاخلاص والاكمال ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات وان كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر وان كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الادب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة احواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها او نعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه اما فعل يلزمه مباشرته او محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به الى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه فينبغى ان يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الاقسام الثلاثة فاذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الاعمال ليشتغل بها فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والارباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ولا تنس نصيبك من الدنيا وكل ذلك انما يمكن بصبر ساعة واحدة فان الساعات ثلاث ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش اليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها وساعة راهنة ينبغى ان يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فان لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وان أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الاولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كانه فى آخر انفاسه فلعله آخر انفاسه وهو لا يدرى واذا امكن ان يكون آخر أنفاسه فينبغى ان يكون على وجه لا يكره ان يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع احواله مقصورة على مارواه (١) أبو ذر رضى الله تعالى عنه من قوله عليه السلام لا يكون المؤمن ظاعنا الا فى ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة فى غير محرم وما روى عنه أيضا فى معناه (٢) وعلى العاقل ان تكون له اربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يناجى فيها نفسه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فان فى هذه الساعة عونا له على بقية الساعات ثم هذه الساعة التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغى ان يخلو عن عمل هو افضل الاعمال وهو الذكر والفكر فان الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له كان ذلك افضل من كثير من اعمال الجوارح والناس فيه اقسام قسم ينظرون اليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لاسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الالباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار اليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون انفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون فى الصنعة الصانع ويترقون منها الى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر ابواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين اذ المحب اذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله فى النظر منه الى الصانع مجال رحب ان فتحت له ابواب الملكوت وذلك عزيز جدا وقسم رابع ينظرون اليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على مافاتهم منه

ابن عباس وقد تقدم (١) حديث ابى ذر لا يكون المؤمن ظاعنا الا فى ثلاث تزود لمعاد الحديث احمد وابن حبان والحاكم وصححه انه صلى الله عليه وسلم قال انه فى صحف موسى وقد تقدم (٢) حديث وعلى العاقل ان يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجى فيها ربه الحديث وهى بقية حديث أبى ذر الذى قبله

حبيبه (وقال بعضهم) من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب ومن ادعى محبة الجنة من غير انفاق ملكه فهو كذاب ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقراء فهو كذاب وكانت رابعة تنشد

تعصى الاله وانت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته ... ان المحب لمن يحب مطيع

واذا كان الحب للاحوال كالتوبة للمقامات فمن ادعى حالا يعتبر حبه ومن ادعى محبة تعتبر توبته فان التوبة قالب روح الحب وهذا الروح قيامه بهذا القلب والاحوال

ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذمون منه مالا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هوالله تعالى وان من ذم شيئا من خلق الله بغير اذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الاعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الاصول

﴿ المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها ﴾

(أما الفضيلة) فقد قال الله تعالى ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد وهذه اشارة الى المحاسبة على مامضى من الاعمال ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يارسول الله أوصني فقال أمستوص انت فقال نعم قال اذا هممت بامر فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له اربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) انى لاستغفر الله تعالى واتوب اليه في اليوم مائة مرة وقال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه كان يضرب قدميه بالدرة اذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران انه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه اشد محاسبة من شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان ابا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما احد من الناس احب الى من عمر ثم قال لها كيف قلت فاعادت عليه ماقال فقال لا احد اعز على من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وابدلها بكلمة غيرها وحديث (٣) ابي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض مما فاته وفي حديث ابن سلام انه حمل حزمة من حطب فقيل له ياابا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك مايكفونك هذا فقال اردت ان اجرب نفسي هل تنكره وقال الحسن المومن قوام على نفسه يحاسبها لله وانما خف الحساب على قوم حاسبوا انفسهم في الدنيا وانما شق الحساب يوم القيامة على قوم اخذوا هذا الامر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال ان المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله انك لتعجبني وانك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع الى نفسه فيقول ماذا اردت بهذا والله لا اعذر بهذا والله لا اعود لهذا ابدا ان شاء الله وقال انس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب امير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله او ليعذبنك وقال الحسن في قوله تعالى ولا اقسم بالنفس اللوامة قال لا يلقى المؤمن الا يعاتب نفسه ماذا اردت بكلمتي ماذا اردت باكلتي ماذا اردت بشربتي والفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم الزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه وقال ميمون بن مهران التقي اشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح وقال ابراهيم التيمي مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها واشرب من انهارها واعانق ابكارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها واشرب من صديدها واعالج سلاسلها واغلالها فقلت لنفسي يانفس اي شيء تريدين فقالت اريد ان ارد الى الدنيا فاعمل صالحا قلت فانت في الامنية فاعملي وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن

(١) حديث لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر مسلم من حديث ابي هريرة (٢) حديث انى لاستغفر الله واتوب اليه في اليوم مائة مرة تقدم غير مرة (٣) حديث ابي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة تقدم غير مرة

اعراض قوامها بجوهر الروح (وقال) سمنون ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لان النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء مع من أحب فهو مع الله تعالى (وقال) ابو يعقوب السوسي لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة الى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هذا بالمحبة فاذا خرج المحب الى هذه النسبة كان محبا من غير محبة (سئل) الجنيد عن المحبة قال دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب (قيل) هذا على معنى قوله تعالى فاذا احببته كنت له سمعا وبصرا وذلك ان المحبة اذا صفت وكملت

يصير الحساب الى غيره رحم الله امرأ اخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر فى مكياله رحم الله امرأ نظر فى ميزانه فما زال يقول حتى أبكانى وحكى صاحب للاحنف بن قيس قال كنت صحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء الى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه ياحنيف ماحملك على ماصنعت يوم كذا ماحملك على ماصنعت يوم كذا

﴿ بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل ﴾

اعلم ان العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها مالو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى الا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ماهذه المساهلة الا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصى وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الامارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض اولا فان اداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وان اداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها مايتدارك به مافرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن فى شيء منها فينبغى ان يتقى غبينة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ماسيتولاه غيره فى صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وافكاره وقيامه وقعوده واكله وشربه ونومه حتى عن سكوته انه لم سكت وعن سكونه لم سكن فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر ادى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقى على نفسه فيثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن ان يستوفى منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك الا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة فى جميع الاعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فاذا هى احد وعشرون الف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال ياويلتى ألقى الملك باحد وعشرين الف ذنب فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة الى الفردوس الاعلى فهكذا ينبغى ان يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك احصاه الله ونسوه

﴿ المرابطة الرابعة فى معاقبة النفس على تقصيرها ﴾

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى فلا ينبغى ان يهملها فانه ان اهملها سهل عليه مقارفة المعاصى وانست بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغى ان يعاقبها فاذا كل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى ان يعاقب البطن بالجوع واذا نظر الى غير محرم ينبغى ان يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من اطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة فقد

لاتزال تجذب وصفها الى محبوبها فاذا انتهت الى غاية جهدها وقفت والرابطة متاصلة متأكدة وكمال وصف المحبة ازال الموانع من المحب وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفا على المحب المخلص من موانع قادحة فى صدق الحب ونظرا الى قصوره بعد استنفاد جهده فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب فيقول عند ذلك

انا من اهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتنى ابصرته
واذا ابصرته ابصرتنا

وهذا الذى عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى عن منصور بن ابراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست وروى أنه كان فى بنى اسرائيل رجل يتعبد فى صومعته فمكث كذلك زمانا طويلا فاشرف ذات يوم فاذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فاخرج رجله لينزل اليها فادركه الله بسابقة فقال ماهذا الذى أريد أن أصنع فرجعت اليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد ان يعيد رجله الى الصومعة قال هيهات هيهات رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى لا يكون والله ذلك أبدا فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الامطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأنزل فى بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكريبي يقول أصابتنى ليلة جنابة فاحتجت ان أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت فى نفسى تاخرا وتقصيرا فحدثتنى نفسى بالتاخير حتى اصبح وأسخن الماء او ادخل الحمام ولا اعنى على نفسى فقلت واعجباه انا اعامل الله فى طول عمرى فيجب له على حق فلا اجد فى المسارعة واجد الوقوف والتاخر آليت ان لا أغتسل الا فى مرقعتى هذه وآليت ان لا أنزعها ولا اعصرها ولا أجففها فى الشمس ويحكى ان غزوان وأبا موسى كانا فى بعض مغازيهما فتكشفت له جارية فنظر اليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال انك للحاظة الى مايضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة الى امرأة فجعل على نفسه ان لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش ويحكى ان حسان بن أبى سنان مر بغرفة فقال متى بنيت هذه ثم اقبل على نفسه فقال تسالين عما لا يعنيك لاعاقبنك بصوم سنة فصامها وقال مالك بن ضيغم جاء رباح القيسى يسال عن ابى بعد العصر فقلنا انه نائم فقال انوم هذه الساعة هذا وقت نوم ثم ولى منصرفا فاتبعناه رسولا وقلنا الا نوقظه لك فجاء الرسول وقال هو اشغل من ان يفهم عنى شيا ادركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول اقلت وقت نوم هذه الساعة افكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء ومايدريك ان هذا ليس وقت نوم تتكلمين بما لا تعلمين اما ان لله على عهد الا انقضه ابدا لا أوسدك الارض لنوم حولا الا لمرض حائل اولعقل زائل سوأة لك اما تستحين كم توبخين وعن غيك لا تنتهين قال وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته ويحكى عن تميم الدارى انه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع (١) وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم اشد حرا أجيفة بالليل بطالة بالنهار فبينما هو كذلك اذ أبصر النبى صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة فاتاه فقال غلبتنى نفسى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم الم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لاصحابه تزودوا من أخيكم فجعل الرجل يقول له يافلان ادع لى يافلان ادع لى فقال النبى صلى الله عليه وسلم عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم وقال حذيفة بن قتادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها فقال ماعلى وجه الارض نفس أبغض الى منها فكيف أعطيها شهواتها ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات وهو فى بيته على التراب فقال ياداود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له وعن وهب بن منبه ان رجلا تعبد زمانا ثم بدت له الى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يا كل فى كل سبت احدى عشرة تمرة ثم سال حاجته فلم يعطها فرجع الى نفسه وقال منك أتيت لو كان فيك خير لاعطيت حاجتك فنزل اليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك وقال عبد الله بن قيس كنا فى غزاة لنا نحضر العدو فصيح فى الناس فقاموا الى المصاف فى يوم شديد الريح واذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى أهلك وعيالك فاطعتك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حرا الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أومرسل ولا أدرى من طلحة هذا

تخلقوا باخلاق الله لانه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستمد للمحبة والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية ولكن سنة الله جارية ان يزكى نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتاييده واذا منح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب روحه بجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والاخلاق ويكون ذلك عنده رتبة فى الوصول فتارة ينبعث الشوق من باطنه الى ماوراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذى يسكن نيران شوقه وبباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب ولولا باعث الشوق

أهلك وعيالك فاطمتك ورجعت والله لاعرضنك اليوم على الله أخذك اوتركك فقلت لارمقنه اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان فى اوائلهم ثم ان العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله مازال ذلك دابه حتى رأيته صرع فعددت به وبدابته ستين او اكثر من ستين طعنة وقد ذكرناه حديث ابى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وان عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة و يقول ماذا عملت اليوم وعن مجمع انه رفع رأسه الى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه ان لا يرفع رأسه الى السماء مادام فى الدنيا وكان الاحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع اصبعه عليه و يقول لنفسه ماحملك على ان صنعت يوم كذا كذا وانكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم المه ثم جعل يقول لنفسه و يحك انما اريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائى وهو يأكل عند افطاره خبزا بغير ملح فقال له لو اكلته بملح فقال ان نفسى لتدعونى الى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحا مادام فى الدنيا فهكذا كانت عقوبة اولى الحزم لانفسهم والعجب انك تعاقب عبدك وامتك واهلك وولدك على مايصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى امر وتخاف انك لو تجاوزت عنهم لخرج امرهم عن الاختيار و بغوا عليك ثم تهمل نفسك وهى اعظم عدولك واشد طغيانا عليك وضررك من طغيانها اعظم من ضررك من طغيان اهلك فان غايتهم ان يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلمت ان العيش عيش الآخرة وان فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الاخرة فهى بالمعاقبة اولى من غيرها ﴿ المرابطة الخامسة المجاهدة ﴾ وهوانه اذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغى ان يعاقبها بالعقوبات التى مضت وان رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل اوورد من الاوراد فينبغى ان يؤدبها بتثقيل الاوراد عليها و يلزمها فنونا من الوظائف جبرا لمافات منه وتداركا لمافرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بان تصدق بارض كانت له قيمتها مائتا الف درهم وكان ابن عمر اذا فاتته صلاة فى جماعة احيا تلك الليلة واخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين وفات ابن ابى ربيعة ركعتا الفجر فاعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة اوالحج ماشيا اوالتصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها فان قلت ان كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الاوراد فما سبيل معالجتها فاقول سبيلك فى ذلك ان تسمعها ماورد فى الاخبار من فضل المجتهدين (١) ومن انفع اسباب العلاج ان تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة فتلاحظ اقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت اذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت الى احوال محمد بن واسع والى اجتهاده فعملت على ذلك اسبوعا الا ان هذا العلاج قد تعذر اذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الاولين فينبغى ان يعدل من المشاهدة الى السماع فلا شىء انفع من سماع احوالهم ومطالعة اخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم ابد الاباد لا ينقطع فما اعظم ملكهم وما اشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ثم ياتيه الموت و يحال بينه و بين كل مايشتهيه ابد الاباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من اوصاف المجتهدين وفضائلهم مايحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) رحم الله

رجع القهقرى وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه ومن ظن من الوصول غيرما ذكرناه او تخايل له غير هذا القدر فهو متعرض لمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت (واشارات) الشيوخ فى الاستغراق والفناء كلها عائدة الى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا وامنت اللوث الوجودى من بقاء صفات النفس واذا صحت المحبة ترتبت عليها الاحوال وتبعتها (سئل) الشبلى عن المحبة فقال كاس لها وهج اذا استقر فى الحواس وسكن

---

(١) الاخبار الواردة فى حق المجتهدين ابوداود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر ايات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة اية كتب من القانتين ومن قام بالف اية كتب من المقنطرين وله وللنسائى وابن ماجه من حديث ابى هريرة باسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وايقظ امرأته وللترمذى من حديث بلال عليكم بقيام الليل فانه داب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولا يصح وقد تقدم فى الاوراد مع غيره من الاخبار فى ذلك (٢) حديث رحم الله اقواما تحسبهم مرضى وماهم بمرضى لم اجد له اصلا فى حديث مرفوع ولكن رواه احمد فى الزهد موقوفا على على فى كلام له قال فيه ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم

اقواما

أقواما يحسبهم الناس مرضى وماهم بمرضى قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى والذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ويروى ان الله تعالى يقول للملائكته ما بال عبادي مجتهدين فيقولون الهنا خوفتهم شيا فخافوه وشوقتهم الى شيء فاشتاقوا اليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف لو رآني عبادي لكانوا اشد اجتهادا وقال الحسن أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا اقبل ولا يتاسفون على شيء منها ادبر ولهى كانت اهون في اعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بارجلكم ان كان احدهم ليعش عمره كله ماطوى له ثوب ولا امر اهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الارض شيا قط وادركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم اذا جنهم الليل فقيام على اطرافهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم اذا عملوا الحسنة فرحوا بها وداوبوا في شكرها وسالوا الله ان يتقبلها واذا عملوا السيئة احزنتهم وسالوا الله أن يغفرها لهم والله مازالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ماسلموا من الذنوب ولانجوا الا بالمغفرة ويحكى ان قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه واذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر له يافتى ماالذي بلغ بك ما ارى فقال ياامير المؤمنين اسقام وامراض فقال سالتك بالله الاصدقتني فقال ياامير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكاني انظر الى عرش ربي والناس يساقون الى الجنة والنار فاظمات لذلك نهاري واسهرت ليلي وقليل حقر كل ماانا فيه في جنب ثواب الله وعقابه وقال ابو نعيم كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا ياكل الخبز فقيل له في ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال ان في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال ياابن اخي ان لي في البيت منذ عشرين سنة مانظرت الى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام وقال محمد بن عبد العزيز جلسنا الى احمد بن رزين من غدوة الى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة فقيل له في ذلك فقال ان الله عزوجل خلق العينين لينظر بهما العبد الى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة وقالت امراة مسروق ما كان يوجد مسروق الا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله ان كنت لاجلس خلفه فابكي رحمة له وقال ابو الدرداء لولا ثلاث ما احببت العيش يوما واحدا الظما لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل ومجالسة اقوام ينتقون اطايب الكلام كما ينتقى اطايب الثمر وكان الاسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له ان الله عزوجل لم يامرك بكل هذا فقال انما انا عبد مملوك لا ادع من الاستكانة شيا الاجئت به وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم الف ركعة حتى اقعد من رجليه فكان يصلي جالسا الف ركعة فاذا صلى العصر احتبى ثم قال عجبت للخليقة كيف ارادت بك بدلا منك عجبت للخليقة كيف انست بسواك بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البناني قد حببت اليه الصلاة فكان يقول اللهم ان كنت اذنت لاحد ان يصلي لك في قبره فائذن لي ان اصلي في قبري وقال الجنيد مارايت أعبد من السري أتت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤي مضطجعا الا في علة الموت وقال الحرث بن سعد مر قوم براهب فراوا مايصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال وماهذا عند مايراد بالخلق من ملاقاة الاهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ انفسهم ونسوا حظهم الاكبر من ربهم فبكى القوم عن آخرهم وعن ابي محمد المغازلي قال جاور ابو محمد الجريري

من مرض (١) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذي من حديث ابي بكرة خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم

في النفوس تلاشت (وقيل) للمحبة ظاهر وباطن ظاهرها اتباع رضا المحبوب وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه (فمن الاحوال السنية في المحبة الشوق) ولا يكون المحب الامشتاقا أبدا لان أمر الحق تعالى لانهاية له فما من حال يبلغها المحب الا ويعلم أن ماوراء ذلك أوفى منها وأتم حزني كحسنك لا الذا أمد ينهى اليه ولا الذا أمد (ثم) هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه وانما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين قال احمد ابن ابي الحواري دخلت على ابي

بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند الى عمود ولا الى حائط ولم يمد رجليه فمر عليه أبو بكر الكتانى فسلم عليه وقال له يا ابا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطنى فاعاننى على ظاهرى فاطرق الكتانى ومشى مفكرا وعن بعضهم قال دخلت على فتح الموصلى فرايته قد مد كفيه يبكى حتى رايت الدموع تنحدر من بين اصابعه فدنوت منه فاذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت يرحمك الله يا فتح بكيت الدم فقال لولا انك احلفتنى بالله ما اخبرتك نعم بكيت دما فقلت له على ماذا بكيت الدموع فقال على تخلفى عن واجب حق الله تعالى و بكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لى الدموع قال فرايته بعد موته فى المنام فقلت ماصنع الله بك قال غفرلى فقلت له فماذا صنع فى دموعك فقال قربنى ربى عزوجل وقال لى يافتح الدمع على ما ذا قلت يارب على تخلفى عن واجب حقك فقال والدم على ماذا قلت على دموعى ان لا تصح لى فقال لى يافتح ماذا اردت بهذا كله وعزتى وجلالى لقد صعد حافظاك اربعين سنة بصحيفتك مافيها خطيئة وقيل ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب منفرد عن الناس فنادوه فاشرف عليهم من صومعته فقالوا ياراهب انا قد اخطانا الطريق فكيف الطريق فاوما براسه الى السماء فعلم القوم ما اراد فقالوا ياراهب انا سائلوك فهل انت مجيبنا فقال سلوا ولا تكثر وا فان النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث فعجب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال على نياتهم فقالوا اوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فان خير الزاد ما بلغ البغية ثم ارشدهم الى الطريق وادخل راسه فى صومعته وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته ياراهب فلم يجبنى فناديته الثانية فلم يجبنى فناديته الثالثة فاشرف على وقال ياهذا ما انا براهب انما الراهب من رهب الله فى سمائه وعظمه فى كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر فى حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم قد اسهره ذكر النار ومسالة الجبار فذلك هو الراهب واما انا فكلب عقور حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا اعقرهم فقلت ياراهب فماذا الذى قطع الخلق عن الله بعد ان عرفوه فقال يا اخى لم يقطع الخلق عن الله الا حب الدنيا وزينتها لانها محل المعاصى والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب الى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه ❊ وقيل لداود الطائى او سرحت لحيتك فقال انى اذا الفارغ وكان أو يس القرنى يقول هذه ليلة الركوع فيحيى الليل كله فى ركعة واذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيحيى الليل كله فى سجدة وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك قال الرفق أطلب دعينى أتعب قليلا وأتنعم طويلا وحج مسروق فما نام قط الا ساجدا وقال سفيان الثورى عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى وقال عبد الله بن داود كان أحدهم اذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم الف ركعة ثم يقول لنفسه قومى يامأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكى و يقول ذهب نصف عملى وكانت ابنة الربيع ابن خثيم تقول له ياأبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام فيقول ياابنتاه ان أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع مايلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يابنى لعلك قتلت قتيلا قال نعم ياأماه قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفوعنك فوالله لو يعلمون ماأنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول ياأماه هى نفسى وعن عمر ابن اخت بشر بن الحرث قال سمعت خالى بشر بن الحرث يقول لامى يااختى جوفى وخواصرى تضرب على فقالت له امى تاذن لى حتى اصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك فقال لها و يحك اخاف ان يقول من اين لك هذا الدقيق فلا ادرى ايش اقول له فبكت امى و بكى معها و بكيت معهم قال عمرو رأت امى مابيشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له امى يا اخى ليت امك لم تلدنى فقد والله تقطعت كبدى مما ارى بك فسمعته يقول لها وانا فليت امى لم تلدنى واذا ولدتنى لم يدر ثديها على قال عمرو وكانت امى تبكى عليه الليل والنهار وقال الربيع اتيت اويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا اشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام الى

سليمان الدرانى فرايته يبكى فقلت ما يبكيك رحمك الله قال ويحك يا احمد اذا جن هذا الليل افترشت اهل المحبة اقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم واشرف الجليل جل جلاله عليهم يقول بعينى من تلذذ بكلامى واستراح الى مناجاتى وانى مطلع عليهم فى خلواتهم اسمع انينهم وارى بكاءهم ياجبريل ناد فيهم ماهذا البكاء الذى اراه فيكم هل خبركم مخبر ان حبيبا يعذب احبابه بالنار كيف يجمل بى ان اعذب قوما اذا جن عليهم الليل تملقوا الى فبى حلفت اذا وردوا القيامة على ان اسفرلهم عن

الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم انى أعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل الى اويس فقال يا ابا عبد الله مالى أراك كأنك مريض فقال ومالا و يس ان لا يكون مريضا يطعم المريض واويس غير طاعم وينام المريض واويس غير نائم وقال احمد بن حرب يا عجبا لمن يعرف ان الجنة تزين فوقه وان النار تسعر تحته كيف ينام بينهما وقال رجل من النساك اتيت ابراهيم بن ادهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت ارقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب الى جنب الليل كله حتى طلع الفجر واذن المؤذن فوثب الى الصلاة ولم يحدث وضوأ فحاك ذلك فى صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة احيانا وفى اودية النار احيانا فهل فى ذلك نوم وقال ثابت البنانى ادركت رجالا كان احدهم يصلى فيعجز عن ان يأتى فراشه الا حبوا وقيل مكث ابو بكر بن عياش اربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء فى احدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به اهله وقيل كان ورده ستون فى كل يوم خمسمائة ركعة وعن ابى بكر المطوعى قال كان وردى فى شبيبتى كل يوم وليلة اقرأ فيه قل هو الله احد احدى وثلاثين الف مرة او اربعين الف مرة شك الراوى وكان منصور بن المعتمر اذا رأيته قلت رجل اصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين ان حركته جاءت عيناه باربع ولقد قالت له امه ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لا تسكت لعلك يا بنى اصبت نفسا لعلك قتلت قتيلا فيقول يا أمه انا اعلم بما صنعت بنفسى وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو الا انى صرفت طعام النهار الى الليل ونوم الليل الى النهار وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان اذا جاء الليل قال اذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار قال اذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فاذا جاء الليل قال من خاف ادلج عند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس اربعة اشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار ويروى عن رجل من اصحاب على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه انه قال صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما ارى اليوم شيأ يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين اقدامهم وجباههم وكانوا اذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله وكان ابو مسلم الخولانى قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومى فوالله لازحفن بك زحفا حتى يكون الكلال منك لا منى فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب بها ساقه ويقول انت اولى بالضرب من دابتى وكان يقول ايظن اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ان يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمنهم عليه زحاما حتى يعلموا انهم قد خلفوا وراءهم رجالا وكان صفوان ابن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا وكان اذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضر به البرد واذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وانه مات وهو ساجد وانه كان يقول اللهم انى احب لقاءك فاحب لقائى وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت اذا غدوت بدأت بعائشة رضى الله عنها اسلم عليها فغدوت يوما اليها فاذا هى تصلى صلاة الضحى وهى تقرأ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وتبكى وتدعو وتردد الآية فقمت حتى مللت وهى كما هى فلما رأيت ذلك ذهبت الى السوق فقلت افرغ من حاجتى ثم ارجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكى وتدعو وقال محمد بن اسحق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الاسود حاجا اعتلت احدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء وقال بعضهم ما اخاف من الموت الا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه سيما الصالحين صفرة الالوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين

وجهى وابيحهم رياض قدسى (وهذه) احوال قوم من المحبين اقيموا مقام الشوق والشوق من المحبة كالزهد من التوبة اذا استقرت التوبة ظهر الزهد واذا استقرت المحبة ظهر الشوق (قال) الواسطى فى قوله تعالى وعجلت اليك رب لترضى قال شوقا واستهانة بمن وراءه قال هم الاء على اثرى من شوقه الى مكالمة الله ورمى بالالواح لما فاته من وقته (قال) ابو عثمان الشوق ثمرة المحبة فمن احب الله اشتاق الى لقائه (وقال) ايضا فى قوله تعالى فان اجل الله لآت تقربة للمشتاقين معناه انى اعلم ان شوقكم الى غالب وانا اجلت

وقيل للحسن مابال المجتهدين أحسن الناس وجوها فقال لانهم خلوا بالرحمن فالبسهم نورا من نوره وكان عامر بن عبدالقيس يقول الهى خلقتنى ولم تؤامرنى وتميتنى ولا تعلمنى وخلقت معى عدوا وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم قلت لى استمسك الهى كيف استمسك ان لم تمسكنى الهى فى الدنيا الهموم والاحزان وفى الآخر العقاب والحساب فاين الراحة والفرح وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان اذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد فحدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر الى صياحه ولكن انظر الى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب وكان له اهل و بنات وكان يقوم فيصلى ليلا طويلا فاذا كان السحر نادى باعلى صوته ايها الركب المرسون اكل هذا الليل ترقدون افلا تقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارىء ومن ههنا متوضىء فاذا طلع الفجر نادى باعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعض الحكماء ان لله عبادا انعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فاطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والامر اليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين و بيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوب ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ومالا يمكن واصفا ان يصفه فهم فى باطن امورهم كالديباج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن ارادهم تواضعا وهذه طريقة لا يبلغ اليها بالتكلف وانما هو فضل الله يؤتيه من يشاء وقال بعض الصالحين بينما انا أسير فى بعض جبال بيت المقدس اذ هبطت الى واد هو هنالك فاذا انا بصوت قد علا واذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فاذا انا بروضة عليها شجر ملتف واذا انا برجل قائم فيها يردد هذه الآية يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الى قوله و يحذركم الله نفسه قال فجلست خلفه اسمع كلامه وهو يردد هذه الآية اذ صاح صيحة خر مغشيا عليه فقلت واأسفاه هذا لشقائى ثم انتظرت افاقته فافاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول اعوذ بك من مقام الكذابين اعوذ بك من اعمال البطالين اعوذ بك من اعراض الغافلين ثم قال خشعت قلوب الخائفين واليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال مالى وللدنيا وما للدنيا ولى عليك يادنيا بابناء جنسك والاف نعيمك الى محبيك فاذهبي وايام فاخدعى ثم قال اين القرون الماضية واهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فناديته ياعبدالله انا منذ اليوم خلفك انتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الاوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت الى نفسه ام كيف يفرغ من ذهبت ايامه و بقيت آثامه ثم قال انت لها ولكل شدة اتوقع نزولها ثم غنى لها ساعة وقرأ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ثم صاح صيحة اخرى اشد من الاولى وخر مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدنوت منه فاذا هو يضطرب ثم افاق وهو يقول من انا ما خطرى هب لى اساءتى من فضلك وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك اذا وقفت بين يديك فقلت له بالذى ترجوه لنفسك وتثق به الا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من او بقته ذنوبه انى لفى هذا الموضع منذ شاء الله اجاهد ابليس و يجاهدنى فلم يجد عونا على ليخرجنى مما انا فيه غيرك فاليك عنى يامخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت الى حديثك شعبة من قلبي وانا اعوذ بالله من شرك ثم ارجو ان يعيذنى من سخطه و يتفضل على برحمته قال فقلت هذا ولى لله اخاف ان اشغله فاعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته وقال بعض الصالحين بينما انا اسير فى مسيرلى اذ ملت الى الشجرة لاستريح تحتها فاذا انا بشيخ قد اشرف على فقال لى ياهذا قم فان الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعه فسمعته وهو يقول كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لى فى الموت فقلت وفيما بعد الموت فقال من ايقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ثم قال يامن لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر اليك واملأ قلبي من المحبة لك واجرنى من ذل التوبيخ غدا عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن

للقائكم اجلا وعن قريب يكون وصولكم الى من تشتاقون اليه (وقال) ذوالنون الشوق اعلى الدرجات واعلى المقامات فاذا بلغها الانسان استبطا الموت شوقا الى ربه ورجاء للقائه والنظر اليه (وعندى) ان الشوق الكائن فى المحبين الى رتب يتوقعونها فى الدنيا غير الشوق الذى يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكاشف اهل وده بعطايا يجدونها علما و يطلبونها ذوقا فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت وربما الاحياء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى كما قال

الاعراض عنك ثم قال لولا حلمك لم يسعني اجلي ولولا عفوك لم ينبسط فما عندك أملي ثم مضى و تركني وقد انشدوا في هذا المعنى

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد * تراه بقمة او بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات * يكدر ثقلها صفو الرقاد
فان هاجت مخاوفه وزادت * فدعوته أغثني يا عمادى
فانت بما ألاقيه عليم * كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضا

ألذ من التلذذ بالغوانى * اذا أقبلن في حلل حسان
منيب فر من اهل ومال * يسيح الى مكان من مكان
ليخمل ذكره و يعيش فردا * و يظهر في العبادة بالامانى
تلذذه التلاوة اين ولى * وذكر بالفؤاد و باللسان
وعند الموت ياتيه بشير * يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما اراد وما تمنى * من الراحات في غرف الجنان

و كان كرز بن و برة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات و يجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له قد اجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة فقيل خمسون ألف سنة فقال كيف يعجز احدكم ان يعمل سبع يوم حتى يامن ذلك اليوم يعنى انك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرا و كنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع احوال هؤلاء فانه قد اعز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو انجع في القلب وابعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة واذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع احوال هؤلاء فان لم تكن ابل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذووا البصائر في الدين و بين الاقتداء بالجهلة الغافلين من اهل عصرك ولا ترض لها ان تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالاغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثتك نفسك بان هؤلاء رجال اقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع احوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا يستنكفي ان تكوني اقل من امرأة فاخسس برجل يقصر عن امرأة في امر دينها ودنياها ولنذكر الآن نبذة من احوال المجتهدات فقد روي عن حبيبة العدوية انها كانت اذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت الهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم تقبل على صلاتها فاذا طلع الفجر قالت الهى هذا الليل قد ادبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فاهنأ أم رددتها على فاعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من وجودك وكرمك و يروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل و كانت مكفوفة البصر فاذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون اليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون الى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا الهى اسالك لا بغيرك ان تجعلنى في أول زمرة السابقين وان ترفعنى لديك في عليين في درجة المقربين وان تلحقنى بعبادك الصالحين فانت ارحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكى الى الفجر وقال يحيى بن بسطام كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لى لو أتيناها اذا خلت فامرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذاك قال فاتيناها فقلت لها لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيا فكان لك اقوى على ما تريدين قال فبكت ثم قالت والله لوددت انى ابكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأنى لى بالبكاء فلم تزل تردد وانى

الجليل لرسوله عليه الصلاة والسلام قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين فمن كانت حياته لله منحة الكريم لذة المناجاة والمحبة فتمتلىء عينه من النقد ثم يكاشفه من المنح والعطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق الى ما بعد الموت وانكر بعضهم مقام الشوق وقال انما يكون الشوق لغائب ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ولهذا سئل الانطاكى عن الشوق فقال انما يشتاق الى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته وانكار الشوق على الاطلاق لا أرى له وجها لان رتب العطايا والمنح من

لى بالبكاء حتى غشى عليها وقال محمد بن معاذ حدثتني امرأة من المتعبدات قالت رأيت فى منامى كأنى أدخلت الجنة
فاذا اهل الجنة قيام على ابوابهم فقلت ماشان أهل الجنة قيام فقال لى قائل خرجوا ينظرون الى هذه المراة التى
زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة فقيل امة سوداء من اهل الآيكة يقال لها شعوانة قالت فقلت
اختى والله قالت فبينما أنا كذلك اذا اقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت يا اختى اما ترين مكانى
من مكانك فلو دعوت لى مولاك فالحقنى بك قالت فتبسمت الى وقالت لم يان لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين
الزمي الحزن قلبك وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن كانت لى جارية رومية
وكنت بها معجبا فكانت فى بعض الليالى نائمة الى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم اجدها فقمت اطلبها فاذا هى ساجدة
وهى تقول بحبك لى الا ما غفرت لى ذنوبى فقلت لها لا تقولى بحبك لى ولكن قولى بحبي لك فقالت يامولاى
بحبه لى اخرجنى من الشرك الى الاسلام وبحبه لى ايقظ عينى وكثير من خلقه نيام وقال ابو هاشم القرشى
قدمت علينا امرأة من اهل اليمن يقال لها سرية فنزلت فى بعض ديارنا قال فكنت اسمع لها من الليل انينا وشهيقا
فقلت يوما لخادمى اشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فاشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير انها لا ترد طرفها
عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال الى حال وكل احوالك لها حسنة
وكل بلائك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة اتراها تظن انك
لا ترى سوء فعالها وانت عليم خبير وانت على كل شىء قدير * وقال ذو النون المصرى خرجت ليلة من وادى
كنعان فلما علوت الوادى اذا سواد مقبل على وهو يقول وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ويبكى فلما قرب
منى السواد اذا هى امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة فقالت لى من انت غير فزعة منى فقلت رجل غريب
فقالت ياهذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لى ما الذى ابكاك فقلت قد وقع الدواء على داء
قد قرح فاسرع فى نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لا يبكى قالت لا قلت ولم ذاك
قالت لان البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها * وقال احمد بن على استاذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا
الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهى تقول اللهم انى اعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك
ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا امة الله ادعى لنا فقالت جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ثم قالت لنا مكث
عطاء السلمى اربعين سنة فكان لا ينظر الى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فاصابه فتق فى بطنه فياليت
عفيرة اذا رفعت رأسها لم تعص وياليتها اذا عصت لم تعد وقال بعض الصالحين خرجت يوما الى السوق ومعى جارية
حبشية فاحتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجي وقلت لا تبرحى حتى انصرف اليك
قال فانصرفت فلم اجدها فى الموضع فانصرفت الى منزلى وانا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى
فقالت يا مولاى لا تعجل على انك اجلستنى فى موضع لم ار فيه ذاكرا لله تعالى فخفت ان يخسف بذلك الموضع
فعجبت لقولها وقلت لها انت حرة فقالت ساء ما صنعت كنت اخدمك فيكون لى اجران واما الآن فقد ذهب عنى
احدهما وقال ابن العلاء السعدى كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما
اتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا الى هذه
المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت قالت اصبحنا اضيافا منيخين
بارض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت ان يكن لعينى عند الله
خير فما يضرهما ما ذهب منهما فى الدنيا وان كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء اطول من هذا ثم اعرضت
قال فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير ما نحن فيه * وكانت معاذة العدوية اذا جاء النهار تقول هذا يومى
الذى اموت فيه فما تطعم حتى تمسى فاذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى اموت فيها فتصلى حتى تصبح وقال ابو سليمان
الدارانى بت ليلة عند رابعة فقامت الى محراب لها وقمت انا الى ناحية من البيت فلم تزل قائمة الى السحر فلما كان

انصبة القرب اذ كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة الى ما وجد ولكن يكون مشتاقا الى مالم يجد من انصبة القرب فكيف يمنع حال الشوق والامر هكذا (ووجه آخر) ان الانسان لا بدله من امور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم وقوفه على حد العلم الذى يقتضيه حكم الحال ووجود هذه الامور مثير لنار الشوق ولا نعني بالشوق الا مطالبة تنبعث من الباطن الى الاولى والاعلى من انصبة القرب وهذه المطالبة كائنة فى المحبين فالشوق اذا كائن لا وجه

السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن نصوم له غدا وكانت شموانة تقول فى دعائها الهى ما أشوقنى الى لقائك وأعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين الهى ان كان دنا أجلى ولم يقر بنى منك عملى فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى فان عفوت فمن أولى منك بذلك وان عذبت فمن اعدل منك هنالك الهى قد جرت على نفسى فى النظر لها و بقى لها حسن نظرك فالويل لها ان لم تسعدها الهى انك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى باحسانه ان يسعفنى عند مماتى بغفرانه الهى كيف اياس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى الا الجميل فى حياتى الهى ان كانت ذنوبى قد اخافتنى فان محبتى لك قد اجارتنى فتول من امرى ما انت اهله وعد بفضلك على من غره جهله الهى لو اردت اهانتى لما هديتنى ولو اردت فضيحتى لم تسترنى فمتعنى بما له هديتنى وادم لى ما به سترتنى الهى ما اظنك تردنى فى حاجة افنيت فيها عمرى الهى لولا ماقارفت من الذنوب ماخفت عقابك ولولا ماعرفت من كرمك ما رجوت ثوابك وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت و بكت حتى عميت وصلت حتى اقعدت وكانت تصلى قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئا من العفو ليهون عليها الامر قال فشهقت ثم قالت علمى بنفسى قرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت ان الله لم يخلقنى ولم أك شيئا مذكورا ثم اقبلت على صلاتها * فعليك ان كنت من المرابطين المراقبين لنفسك ان تطالع احوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك و يزيد حرصك واياك ان تنظر الى اهل عصرك فانك ان تطع اكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وان اردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الاولياء فهو مشتمل على شرح احوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك و بعد اهل عصرك من اهل الدين فان حدثتك نفسك بالنظر الى اهل زمانك وقالت انما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الاعوان والآن فان خالفت اهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك الا ما يجرى عليهم والمصيبة اذا عمت طابت فاياك ان تتدلى بحبل غرورها و تنخدع بتزويرها وقل لها أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق اهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم ياخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال وقدرت انت على ان تفارقيهم وتركبي فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك ان المصيبة اذا عمت طابت ام تتركين موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتاخذين حذرك مما دهاك فاذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى الا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الابد وانت متعرضة له فى كل حال ومن اين تطيب المصيبة اذا عمت ولاهل النار شغل شاغل عن الالتفات الى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار الا بموافقة اهل زمانهم حيث قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون فعليك اذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت ان لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها

﴿ المرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها ﴾

اعلم ان اعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت امارة بالسوء ميالة الى الشر فرارة من الخير وامرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فان اهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وان لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى اقسم الله بها ورجوت ان تصير النفس المطمئنة المدعوة الى ان تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل اولا بوعظ نفسك اوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى وقال تعالى وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وسبيلك ان تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وانها ابدا تتعزز بفطنتها

لا انكار وقد قال قوم شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبة فيكون فى حال الغيبة مشتاقا الى اللقاء ويكون فى حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا الى زوائد ومبار من الحبيب وافضاله وهذا هو الذى أراه وأختاره (وقال) فارس قلوب المشتاقين منورة بنور الله فاذا تحركت اشتياقا أضاء النور ما بين المشرق والمغرب فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون الى أشهدكم أنى اليهم أشوق (وقال) أبو يزيد لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار (سئل) ابن عطاء عن

وهدايتها ويشتد انفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يانفس مااعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وانت اشد الناس غباوة وحمقا أما تعرفين ماين يديك من الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما على القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وانت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أوغدا فاراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا أما تعلمين ان كل ماهو آت قريب وأن البعيد ماليس بآت اما تعلمين ان الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وانه لا يأتي فى شيء دون شيء ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل دون نهار ولا يأتي فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الانفاس يمكن ان يكون فيه الموت فجاة فان لم يكن الموت فجاة فيكون المرض فجاة ثم يفضى الى الموت فمالك لا تستعدين للموت وهو اقرب اليك من كل قريب اما تتدبرين قوله تعالى اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ويحك يانفس ان كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك ان الله لا يراك فما اعظم كفرك وان كان مع علمك باطلاعه عليك فما اشد وقاحتك واقل حياءك ويحك يانفس لو واجهك عبد من عبيدك بل اخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه افتظنين انك تطيقين عذابه هيهات هيهات جربى نفسك ان الهاك البطر عن اليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس او فى بيت الحمام أوقربى اصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه الى كرم الله تعالى واذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى الا بالدينار والدراهم فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل اليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب افتحسبين ان الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت ان سنة الله لا تبديل لها وان رب الآخرة والدنيا واحد وان ليس للانسان الا ماسعى ويحك يانفس ما اعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك واثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها وقال فى امر الآخرة وان ليس للانسان الا ماسعى فقد تكفل لك بامر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبته بافعالك واصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل امر الآخرة الى سعيك فاعرضت عنها اعراض المغرور المستحقر ماهذا من علامات الايمان لو كان الايمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الاسفل من النار ويحك يانفس كانك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين انك اذا مت انفلت وتخلصت وهيهات اتحسبين انك تتركين سدى ألم تكونى نطفة من منى يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على ان يحيى الموتى فان كان هذا من اضمارك فما اكفرك واجهلك اماتتفكرين انه مماذا خلقك من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم اماتك فاقبرك افتكذبينه فى قوله ثم اذا شاء انشرك فان لم تكونى مكذبة فمالك لا تاخذين حذرك ولوان يهوديا اخبرك فى الذطعمتك بانه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه افكان قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة اقل عندك تاثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم والعجب انه لو اخبرك طفل بان فى ثوبك عقربا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان افكان قول الانبياء والعلماء والحكماء وكافة الاولياء اقل عندك من قول صبى من جملة الاغبياء ام صار حر جهنم واغلالها وانكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وافاعيها وعقاربها احقر عندك من عقرب لا تحسين بالمها الا يوما او اقل منه ماهذه افعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان كنت يانفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فبما اذا امنت استعجال الاجل وهبك انك

الشوق فقال هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الاكباد من البعد بعد القرب (سئل) بعضهم هل الشوق اعلى ام المحبة فقال المحبة لان الشوق يتولد منها فلا مشتاق الا من غلبه الحب فالحب اصل والشوق فرع وقال النصراباذى للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له اثر ولا قرار (ومنها الانس) وقد سئل الجنيد عن الانس فقال ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة (وسئل) ذو النون عن الانس فقال هو انبساط المحب الى المحبوب قيل معناه قول الخليل ارنى

وعدت بالامهال مائة سنة افتظنين ان من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح و يقدر على قطع العقبة بها ان ظننت ذلك فما اعظم جهلك ارأيت لوسافر رجل ليتفقه فى الغربة فاقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه فى السنة الاخيرة عند رجوعه الى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه ان تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة او حسبانه ان مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه ثم هبي ان الجهد فى آخر العمر نافع وانه موصل الى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك فان اوحى اليك بالامهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب الا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة افتنتظرين يوما يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده اما تتاملين منذ كم تعدين نفسك وتقولين غداً غداً فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته اما علمت ان الغد الذى جاء وصار يوما كان له حكم الامس لا بل تعجزين عنه اليوم فانت غداً عنه اعجز واعجز لان الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها فاذا عجز العبد عن قلعها للضعف واخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فاخرها الى سنة اخرى مع العلم بان طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا و يزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فاذا كنت ايتها النفس لا تفهمين هذه الامور الجلية وتركنين الى التسويف فما بالك تدعين الحكمة واية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة الا حرصى على لذة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والمشقات فما اشد غباوتك واقبح اعتذارك ان كنت صادقة فى ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة ابداً الآباد ولا مطمع فى ذلك الا فى الجنة فان كنت ناظرة لشهواتك فالنظر لها فى مخالفتها فرب أكلة تمنع اكلات وماقولك فى عقل مريض اشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة ايام ليصح و يهنا بشرب طول عمره وأخبره انه ان شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة ايام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالاضافة الى الابد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالاضافة الى جميع العمر وان طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة واطول مدة اوالم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على الم المجاهدة كيف يطيق الم عذاب الله ما اراك تتوانين عن النظر لنفسك الا لكفر خفى اوحمق جلى اما الكفر الخفى فهو ضعف ايمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب وما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات الى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع انك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز اوحبة من المال اوكلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين الى غرضك فى ذلك بجميع الحيل و بهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى ويحك يانفس لا ينبغى ان تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظرى لنفسك فما امرك بمهم لغيرك ولا تضيعى اوقاتك فالانفاس معدودة فاذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى للاخرة على قدر بقائك فيها يانفس اما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الاسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك افتظنين ايتها النفس ان زمهرير جهنم اخف برداً واقصر مدة من زمهرير الشتاء ام تظنين ان ذلك دون هذا كلا ان يكون هذا كذلك او ان يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة افتظنين ان العبد ينجو منها

كيف تحيى الموتى وقول موسى ارنى انظر اليك وانشد لرويم
شغلت قلبي بما لديك فلا
ينفك طول الحياة عن فكر
آنستنى منك بالوداد فقد
اوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنس يعارضنى
يوعدنى عنك منك بالظفر
وحيثما كنت يامدى هممى
فانت منى بموضع النظر
(وروى) ان مطرف بن الشخير كتب الى عمر بن عبد العزيز ليكن انسك بالله وانقطاعك اليه فان لله عباداً استانسوا بالله وكانوا فى وحدتهم اشد استئناسا من الناس فى كثرتهم واوحش ما يكون الناس

بغير سعي هيهات كما لا يندفع برد الشتاء الا بالجبة والنار وسائر الاسباب فلا يندفع حر النار و بردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وانما كرم الله تعالى فى ان عرفك طريق التحصن و يسر لك اسبابه لا فى ان يندفع عنك العذاب دون حصنه كما ان كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء ان خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديد وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك وكما ان شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وانما تشترينه لنفسك اذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك ايضا هو مستغن عنها وانما هي طريقك الى نجاتك فمن احسن فلنفسه ومن اساء فعليها والله غني عن العالمين ويحك يا نفس انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وكما بدأنا اول خلق نعيده وكما بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا ويحك يا نفس ما اراك الا الفت الدنيا وانست بها فعسر عليك مفارقتها وانت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فى نفسك مودتها فاحسبي انك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن اهوال القيامة واحوالها فما انت مؤمنة بالموت المفرق بينك و بين محابك افترين ان من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره الى وجه مليح يعلم انه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة الى مفارقته اهو معدود من العقلاء ام من الحمقى اما تعلمين ان الدنيا دار لملك الملوك ومالك فيها الا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم (١) ان روح القدس نفث فى روعي احبب من احببت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك مجزى به وعش ما شئت فانك ميت و يحك يا نفس اما تعلمين ان كل من يلتفت الى ملاذ الدنيا و يانس بها مع ان الموت من ورائه فانما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وانما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري اوما تنظرين الى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف اورث الله ارضهم وديارهم اعداءهم اما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون و يبنون ما لا يسكنون و يؤملون ما لا يدركون يبني كل واحد قصرا مرفوعا الى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الارض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس اعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا و يخرب آخرته وهو صائر اليها قطعا اما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم واحسبي انك لست ذات بصيرة تهتدي الى هذه الامور وانما تميلين بالطبع الى التشبه والاقتداء فقيسي عقل الانبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو اعقل عندك ان كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء يا نفس ما اعجب امرك واشد جهلك واظهر طغيانك عجبا لك كيف تعمين عن هذه الامور الواضحة الجلية ولعلك يا نفس اسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها اوما تتفكرين ان الجاه لا معنى له الا ميل القلوب من بعض الناس اليك فاحسبي ان كل من على وجه الارض سجد لك وأطاعك أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الارض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة ان بقي هذا ان كنت ملكا من ملوك الارض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الاسباب كيف و يأبى ادبارك وشقاوتك أن يسلم لك امر محلتك بل امر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها ام ما لك لا تزهدين فى قليلها بعد ان زهد فيك كثيرها وما لك تفرحين بدنيا ان ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها و يزيدون عليك فى نعيمها وزينتها فاف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الاخساء فما اجهلك واخس همتك واسقط رايك اذ رغبت عن ان تكوني فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين ابد الابدين لتكوني فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين اياما قلائل فيا حسرة عليك ان خسرت الدنيا والدين فبادري و يحك يا نفس فقد اشرفت على الهلاك واقترب

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعي احبب من احببت فانك مفارقه الحديث تقدم فى العلم وغيره

الموت

أنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس اوحش ما يكونون قال الواسطي لا يصل الى محل الانس من لم يستوحش من الاكوان كلها وقال ابو الحسين الوراق لا يكون الانس بالله الا ومعه التعظيم لان كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه الا الله تعالى فانك لا تزداد به انسا الا ازددت منه هيبة وتعظيما (قالت) رابعة كل مطيع مستانس وانشدت

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثي
وابحت جسمي من اراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس
وحبيب قلبي فى الفؤاد انيسي

(وقال مالك بن دينار) من لم يانس بمحادثة

الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ويحك يانفس مالك الا الأيام معدودة هي بضاعتك ان اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف اذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك أما تعلمين يانفس ان الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود انيسك والفزع الاكبر بين يديك أما علمت يانفس ان عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على انفسهم كلهم بالايمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم اما تعلمين يانفس انهم يتمنون الرجعة الى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك مافرط منهم وأنت في امنيتهم و يوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين ايامك في الغفلة والبطالة و يحك يانفس اما تستحين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم افتستحين من الخلق ولا تستحين من الخالق ويحك اهو اهون الناظرين عليك اتامرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين الى الله وانت عنه فارة وتذكرين بالله وانت ناسية اما تعلمين يانفس ان المذنب انتن من العذرة وان العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وانت غير طيبة في نفسك و يحك يانفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت ان الناس مايصيبهم بلاء الا بشؤمك ويحك يانفس قد جعلت نفسك حمارا لابليس يقودك الى حيث يريد و يسخر بك ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات مالو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح في يديك وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلاتك وقد لعن الله ابليس بخطيئة واحدة بعد ان عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه و يحك يانفس ما أغدرك و يحك يانفس ما أوقحك و يحك يانفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي و يحك يانفس كم تعقدين فتنقضين و يحك كم تعهدين فتغدرين و يحك يانفس اتشتغلين مع هذا الخطايا بعمارة دنياك كانك غير مرتحلة عنها أما تنظرين الى اهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا و بنوا مشيدا وأملوا بعيدا فاصبح جمعهم بورا و بنيانهم قبورا وأملهم غرورا و يحك يانفس امالك بهم عبرة امالك اليهم نظرة اتظنين انهم دعوا الى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ماتتوهمين ما انت الا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك فابني على وجه الارض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك اما تخافين اذا بلغت النفس منك التراقي ان تبدو رسل ربك منحدرة اليك بسواد الالوان وكلح الوجوه و بشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم او يقبل منك الحزن او يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يانفس انك مع هذا تدعين البصيرة ومن فطنتك انك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ومانفع مال يزيد وعمر ينقص و يحك يانفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فانت تشاهدين ذلك في اخوانك واقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري ايتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه ان لا يترك عبدا امره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظري يانفس باي بدن تقفين بين يدي الله وباي لسان تجيبين واعدي للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملي بقية عمرك في ايام قصار لايام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملي قبل ان لا تعملي اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الاحرار قبل ان تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك و يفرح ويلهو و يمرح ويأكل و يشرب وقد حق له في كتاب الله انه من وقود النار فليكن نظرك يانفس الى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما اوتي و يبتغي الزيادة فيما بقي و ينهى الناس ولا ينتهي واعلمي يانفس انه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظي يانفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة

الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره * قيل لبعضهم من معك في الدار قال الله تعالى معي ولا يستوحش من أنس بربه (وقال الخراز) الانس محادثة الارواح مع المحبوب في مجالس القرب ووصف بعض العارفين صفة اهل المحبة الواصلين فقال جدد لهم الود في كل طرفة بدوام الاتصال وآواهم في كنفه بحقائق السكون اليه حتى أنت قلوبهم وحنت أرواحهم شوقا وكان الحب والشوق منهم اشارة من الحق اليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله فذهبت مناهم وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه

فان من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وماأراك بهاراضية ولا لهذه الموعظة واعية فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم تزل فبقلة المخالطة والكلام فان لم تزل فبصلة الارحام واللطف بالايتام فان لم تزل فاعلمى ان الله قد طبع على قلبك واقفل عليه وانه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره و باطنه فوطنى نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها اهلا فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك الى القنوط ولا سبيل لك الى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظرى الآن هل ياخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستغيثى بارحم الراحمين واشتكى الى اكرم الاكرمين وادمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية لعله ان يرحم ضعفك و يغيثك فان مصيبتك قد عظمت و بليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجا ولا منجا الا الى مولاك فافزعى اليه بالتضرع واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لانه يرحم المتضرع الذليل و يغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر وقد اصبحت اليه اليوم مضطرة والى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسؤل جواد والمستغاث به بر رؤف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا ارحم الراحمين يا رحمن يا رحيم ياحليم ياعظيم يا كريم انا المذنب المصر انا الجرىء الذى لا اقلع انا المتمادى الذى لا استحى هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل اغاثتى وفرجى وأرنى آثار رحمتك وأذقنى برد عفوك ومغفرتك وارزقنى قوة عصمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بابيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما اهبط الله آدم من الجنة الى الارض مكث لا ترقا له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه فى اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فاوحى الله تعالى اليه يا آدم ماهذا الجهد الذى ارى بك قال يارب عظمت مصيبتي وأحاطت بى خطيئتى وأخرجت من ملكوت ربى فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة وفى دار البلاء بعد العافية وفى دار الزوال بعد القرار وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا ابكى على خطيئتى فاوحى الله تعالى اليه يا آدم ألم اصطفك لنفسي واحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك سخطى الم أخلقك بيدى ونفخت فيك من روحى وأسجدت لك ملائكتى فعصيت أمرى ونسيت عهدى وتعرضت لسخطى فوعزتى وجلالى لو ملأت الارض رجالا كلهم مثلك يعبدوننى وتسبحوننى ثم عصونى لانزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام وكان عبيد الله البجلى كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله الهى انا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى انا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة اخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب اخرى واعبيداه ان كانت النار لك مقيلا وماوى واعبيداه ان كانت المقامع لراسك تهيا واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى وقال منصور بن عمار سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهو يقول يارب وعزتك ما اردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك اذ عصيتك وانا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسي واعاننى على ذلك شقوتى وغرنى سترك المرخي على فعصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى فمن عذابك الآن من يستنقذنى او بحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عنى واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا اذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين اجوز ام مع المثقلين احط و يلى كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى و يلى كلما طال عمرى كثرت معاصى فالى متى أتوب والى متى أعود اما آن لى ان استحى

لهم ولو ان الحق تعالى أمر جميع الانبياء يسألون لهم ماسالوه بعض مااعدلهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه وكان نصيبهم معرفتهم به وفراغ هممهم عليه واجتماع أهوائهم فيه فصار يحسدهم من عبيده العموم ان رفع عن قلوبهم جميع الهموم (وأنشد فى معناه)

كانت لقلبي اهواء مفرقة فاستجمعت اذ رأتك النفس اهوائى
فصار يحسدنى من كنت احسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يادينى ودنيائى

(وقد) يكون

من ربي فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وانما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن اهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك ان لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام تم كتاب المحاسبة والمراقبة يتلوه كتاب التفكر ان شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

﴿ كتاب التفكر وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ولم يجعل لمراقي أقدام الاوهام ومرمى سهام الافهام الى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا واذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ثم قيل لها أجيلي في ذل العبودية منك فكرا لانك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدرا وان طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرا فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى وجددي لكل نعمة منها ذكراً وشكرا وتاملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزاً وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وايمانا وكفرا وعرفانا ونكرا فان جاوزت النظر في الافعال الى النظر في الذات فقد حاولت أمرا امرا وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا فقد انبهرت العقول دون مبادى اشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وان كان لم يعد سيادته فخرا صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله واصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا ﴿ أما بعد ﴾ فقد وردت السنة بان(١) تفكر ساعة خير من عبادة سنة وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الانوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره وموردة ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيما ذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه فان كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم او من الاحوال او منهما جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر اولا فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته ثم مجارى الفكر ومسارحه ان شاء الله تعالى

﴿ فضيلة التفكر ﴾

قد امر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا وقد قال (٢) ابن عباس رضي الله عنهما ان قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره وعن النبي صلى الله عليه وسلم(٣) انه خرج على قوم ذات

﴿ كتاب التفكر ﴾

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ورواه ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة واسناده ضعيف جدا ورواه ابو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة (٢) حديث ابن عباس ان قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الاصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر اصح منه ورواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٣) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تتكلمون

من الانس الانس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات وهذا القدر من الانس نعمة من الله تعالى ومنحة منه ولكن ليس هو حال الانس الذي يكون للمحبين والانس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الاسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس وحقيقته عندي كنس الوجود بثقل لائح العظمة وانتشار الروح في ميادين الفتوح وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهيبة وفي الهيبة اجتماع الروح وسموه الى محل النفس وهذا الذي وصفناه

يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لاتتكلمون فقالوا نتفكر فى خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا فى خلقه ولاتتفكروا فيه فان بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها و بياضها نورها مسيرة الشمس اربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يارسول الله فاين الشيطان منهم قال مايدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم قال لا يدرون خلق آدم أم لا وعن (١) عطاء قال انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير الى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا و بيننا و بينها حجاب فقالت ياعبيد مايمنعك من زيارتنا قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم زرغبا تزدد حبا قال ابن عمير فاخبرينا باعجب شىء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجبا اتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال ذرينى أتعبد لربى عز وجل فقام الى القربة فتوضا منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى اتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتاخر فقال ويحك يابلال ومايمنعنى ان أبكى وقد انزل الله تعالى على فى هذه الليلة ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها فقيل للاوزاعى ماغاية التفكر فيهن قال يقرؤهن و يعقلهن وعن محمد بن واسع ان رجلا من اهل البصرة ركب الى أم ذر بعد موت ابى ذر فسالها عن عبادة ابى ذر فقالت كان نهاره أجمع فى ناحية البيت يتفكر وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم انك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان ابن عيينة كثيرا مايتمثل بقول القائل

اذا المرء كانت له فكرة ＊ ففى كل شىء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم ياروح الله هل على الارض اليوم مثلك فقال نعم من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلى وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفى قوله تعالى ساصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق قال أمنع قلوبهم التفكر فى امرى وعن (٢) ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطوا اعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وماحظها من العبادة قال النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة انها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها الى ماقد ادخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ولم تقر لهم فى الدنيا عين وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يالقمان انك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان ان طول الوحدة افهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه ماطالت فكرة امرئ قط الا علم وماعلم امرؤ قط الا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة فى نعم الله عز وجل من افضل العبادة وقال عبد الله ابن المبارك يوما لسهل بن على ورآه ساكتا متفكرا أين بلغت قال الصراط وقال بشر لو تفكر الناس فى عظمة الله ماعصوا الله عز وجل وعن ابن عباس ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب و بينا ابو شريح يمشى اذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكى فقيل له مايبكيك قال تفكرت فى ذهاب عمرى وقلة عملى واقتراب اجلى وقال ابو سليمان عودوا اعينكم البكاء وقلوبكم التفكر وقال ابو سليمان الفكر فى الدنيا

فقالوا نتفكر فى خلق الله الحديث رويناه فى جزء من حديث عبد الله بن سلام (١) حديث عطاء انطلقت انا وعبيد بن عمير الى عائشة الحديث قال ابن عمير فاخبرينا باعجب شىء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى نزول ان فى خلق السموات والارض وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم فى الصبر والشكر وأنه فى صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن ابى سليمان عن عطاء (٢) حديث ابى سعيد الخدرى اعطوا اعينكم حظها من العبادة الحديث ابن ابى الدنيا ومن طريقه ابو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة باسناد ضعيف

من أنس الذات وهيبة الذات يكون فى مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء وهما غير الانس والهيبة اللذين يذهبان بوجود الفناء لان الهيبة والانس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام التلوين وماذكرناه بعد الفناء فى مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات ومن الانس خضوع النفس المطمئنة ومن الهيبة خشوعها والخضوع والخشوع يتقاربان و يفترقان بفرق لطيف يدرك بايماء الروح (ومنها) القرب قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام واسجد واقترب وقد ورد اقرب ما يكون العبد من ربه فى سجوده فالساجد

حجاب عن الآخرة وعقوبة لاهل الولاية والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب وقال حاتم من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف وقال ابن عباس التفكر فى الخير يدعو الى العمل به والندم على الشر يدعو الى تركه ويروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبه انى لست أقبل كلام كل حكيم ولكن انظر الى همه وهواه فاذا كان همه وهواه لى جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وان لم يتكلم وقال الحسن ان أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة وقال اسحاق بن خلف كان داود الطائى رحمه الله تعالى على سطح فى ليلة قمراء فتفكر فى ملكوت السموات والارض وهو ينظر الى السماء ويبكى حتى وقع فى دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن أنه لص فلما نظر الى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذى طرحك من السطح قال ماشعرت بذلك وقال الجنيد أشرف المجالس واعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكاس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال ياهامن مجالس ما اجلها ومن شراب ما الذه طوبى لمن رزقه وقال الشافعى رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال ايضا صحة النظر فى الامور نجاة من الغرور والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة ففكر قبل ان تعزم وتدبر قبل ان تهجم وشاور قبل ان تقدم وقال ايضا الفضائل اربع احداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها فى الشهوة والثالثة القوة وقوامها فى الغضب والرابعة العدل وقوامه فى اعتدال قوى النفس فهذه اقاويل العلماء فى الفكرة وماشرع احد منهم فى ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

﴿ بيان حقيقة الفكر وثمرته ﴾

اعلم ان معنى الفكر هو احضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثاله ان من مال الى العاجلة وآثر الحياة الدنيا واراد ان يعرف ان الآخرة اولى بالايثار من العاجلة فله طريقان احدهما ان يسمع من غيره ان الآخرة اولى بالايثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الامر فيميل بعمله الى ايثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة والطريق الثانى ان يعرف ان الابقى اولى بالايثار ثم يعرف ان الآخرة ابقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو ان الآخرة اولى بالايثار ولا يمكن تحقق المعرفة بان الاخرة اولى بالايثار الا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين فى القلب للتوصل به الى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتاملا وتدبرا اما التدبر والتامل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة واما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهى مختلفة المعانى وان كان اصل المسمى واحدا كما ان اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شىء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه من حيث نسبته الى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير اشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على احضار المعرفتين من حيث انه يعبر منهما الى معرفة ثالثة وان لم يقع العبور ولم يمكن الا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار واما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث ان فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحى عن القلب وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر والمعارف اذا اجتمعت فى القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة اخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فاذا حصلت معرفة اخرى وازدوجت مع معرفة اخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج ويتمادى العلوم ويتمادى الفكر الى غير نهاية وانما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت او بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى الى

اذا أذيق طعم السجود يقرب لانه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب (قال) بعضهم انى لاأجد الحضور فاقول يا الله أو يارب فاجد ذلك على أثقل من الجبال قيل ولم قال لان النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادى جليسه وانما هى اشارات وملاحظات ومناغات وملاطفات وهذا الذى وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب ولكنه مشعر بمحو ومؤذن بسكر يكون ذلك لمن غابت نفسه فى نور روحه لغلبة سكره وقوة محوه فاذا صحا وأفاق

طريق التفكر وأما أكثر الناس فانما منعوا الزيادة فى العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التى بها تستثمر العلوم كالذى لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ماهو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتاليفها وايقاع الازدواج المفضى الى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور الهى فى القلب يحصل بالفطرة كما كان للانبياء صلوات الله عليهم اجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الاكثر ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير فى الايراد فكم من انسان يعلم ان الآخرة اولى بالايثار علما حقيقيا ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على ايراده والتعبير عنه مع انه لم تحصل معرفته الا عن المعرفتين السابقتين وهو ان الابقى اولى بالايثار وان الآخرة ابقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو ان الآخرة اولى بالايثار فرجع حاصل حقيقة التفكر الى احضار معرفتين للتوصل بهما الى معرفة ثالثة واما ثمرة الفكر فهى العلوم والاحوال والاعمال ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير نعم اذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب واذا تغير حال القلب تغيرت اعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكر وانه خير من الذكر والتذكر لان الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر فاذا التفكر افضل من جملة الاعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فقيل هو الذى ينقل من المكاره الى المحاب ومن الرغبة والحرص الى الزهد والقناعة وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا وان اردت ان تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ماذكرناه من أمر الآخرة فان الفكر فيه يعرفنا ان الاخرة أولى بالايثار فاذا رسخت هذه المعرفة يقينا فى قلوبنا تغيرت القلوب الى الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا وهذا ماعنيناه بالحال اذا كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل اليها والنفرة عن الاخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت ارادته ورغبته ثم اثمر تغير الارادة اعمال الجوارح فى اطراح الدنيا والاقبال على أعمال الاخرة فههنا خمس درجات اولاها التذكر وهو احضار المعرفتين فى القلب وثانيتها التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب مايتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضىء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد ان لم تكن مبصرة وتنتهض الاعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تاليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل الى مالم يكن يميل اليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى مالم يكن يراه ثم تنتهض الاعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند ادراك البصر مالم يكن يبصره فاذا ثمرة الفكر العلوم والاحوال والعلوم لا نهاية لها والاحوال التى تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو اراد مريد ان يحصر فنون الفكر ومجاريه وانه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لان مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالاضافة الى مهمات العلوم الدينية وبالاضافة الى الاحوال التى هى مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جمليا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فانها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من افكار مخصوصة فلنشر الى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر

(بيان مجارى الفكر)

اعلم ان الفكر قد يجرى فى امر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين وانما غرضنا مايتعلق بالدين فلنترك

تتخلص الروح من النفس والنفس من الروح ويعود كل من العبد الى محله ومقامه فيقول يا الله ويارب بلسان النفس المطمئنة العائدة الى مقام حاجتها ومحل عبوديتها والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الاقوال وهذا اتم واقرب من الاول لانه وفى حق القرب باستقلال الروح بالفتوح واقام رسم العبوديه بعود حكم النفس الى محل الافتقار وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح باقامة رسم العبودية من النفس (وقال) الجنيد ان الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب مايرى من قرب قلوب عباده منه فانظر

القسم الآخر ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد و بين الرب تعالى فجميع افكار العبد اما ان تتعلق بالعبد وصفاته واحواله واما ان تتعلق بالمعبود وصفاته وافعاله لا يمكن ان يخرج عن هذين القسمين ومايتعلق بالعبد اما ان يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى اوفيم هو مكروه ولا حاجة الى الفكر في غير هذين القسمين ومايتعلق بالرب تعالى اما ان يكون نظرا في ذاته وصفاته واسمائه الحسنى واما ان يكون في افعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والارض ومابينهما و ينكشف لك انحصار الفكر في هذه الاقسام بمثال وهو ان حال السائرين الى الله تعالى والمشتاقين الى لقائه يضاهي حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا فنقول العاشق المستغرق الهم بعشقه لايعدو فكره من ان يتعلق بمعشوقه او يتعلق بنفسه فان تفكر في معشوقه فاما ان يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه و بمشاهدته واما ان يتفكر في افعاله اللطيفة الحسنة الدالة على اخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته وان تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها اوفي الصفات التي تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فان تفكر في شيء خارج عن هذه الاقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لان العشق التام الكامل مايستغرق العاشق و يستوفي القلب حتى لايترك فيه متسعا لغيره فحب الله تعالى ينبغي ان يكون كذلك فلايعدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصورا في هذه الاقسام الاربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة اصلا فلنبدأ بالقسم الاول وهو تفكره في صفات نفسه وافعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو المقصود بهذا الكتاب واما القسم الاخر فيتعلق بعلم المكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله او محبوب ينقسم الى ظاهر كالطاعات والمعاصي والى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصي تنقسم الى مايتعلق بالاعضاء السبعة والى ماينسب الى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام و يجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة امور الاول التفكر في انه هل هو مكروه عند الله ام لا فرب شيء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر والثاني التفكر في انه ان كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه والثالث ان هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه او هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه اوقارفه فيما مضى من الاحوال فيحتاج الى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم الى هذه الانقسامات فاذا جمعت هذه الاقسام زادت مجاري الفكر في هذه الاقسام على مائة والعبد مدفوع الى الفكر اما في جميعها اوفي اكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ولكن انحصر هذا القسم في اربعة انواع الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات فنذكر في كل نوع مثالا ليقيس به المريد سائرها و ينفتح له باب الفكر و يتسع عليه طريقه ❁ (النوع الاول المعاصي) ❁ ينبغي ان يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع اعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها اولا بسها بالامس فيتداركها بالترك والندم او هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان و يقول انه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني الى غير ذلك من المكاره فيقرر اولا في نفسه انها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في احواله انه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر انه كيف يحترز منه و يعلم انه لايتم له ذلك الا بالعزلة والانفراد او بان لايجالس الا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله والا فيضع حجرا في فيه اذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز و يتفكر في سمعه انه يصغي به الى الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللهو والبدعة وان ذلك انما يسمعه من زيد وعمرو وانه ينبغي ان يحترز عنه بالاعتزال او بالنهي عن المنكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه انه انما يعصي الله تعالى فيه بالاكل والشرب اما بكثرة الاكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله واما باكل الحرام

ماذا يقرب من قلبك (وقال ابو يعقوب السوسي) مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فاذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب وقد قال قائلهم

قد تحققتك في السـ ـر فناجاك لساني
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
ان يكن غيبك التعـ ـظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجـ ـد من الاحشاء داني

❁قال ذوالنون ما ازداد احد من الله قربة الا ازداد هيبة (وقال سهل) ادنى مقام من مقامات القرب الحياء وقال النصر اباذي باتباع السنة تنال المعرفة و باداء الفرائض تنال القربة و بالمواظبة على النوافل

أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ومامكسبه و يتفكر في طريق الحلال ومداخله ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام و يقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وان أكل الحلال هو أساس العبادات كلها(1) وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الاحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الاعضاء عنها ﴿وأما النوع الثاني وهو الطاعات﴾ فينظر أولا في الفرائض المكتوبة عليه انه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر في الافعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلا ان العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والارض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وانا قادر على ان اشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا افعله وأنا قادر على أن أنظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فادخل السرور على قلبه وأنظر الى فلان الفاسق بعين الازدراء فازجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله وكذلك يقول في سمعه اني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر فمالي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لاشكره فمالي اكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان و يقول اني قادر على أن اتقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد الى قلوب اهل الصلاح والسؤال عن احوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمر والعالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول انا قادر على ان اتصدق بالمال الفلاني فاني مستغن عنه ومهما احتجت اليه رزقني الله تعالى مثله وان كنت محتاجا الآن فانا الى ثواب الايثار احوج مني الى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلمانه وأولاده فان كل ذلك ادواته واسبابه و يقدر على ان يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها و يتفكر فيما يرغبه في البدار الى تلك الطاعات و يتفكر في اخلاص النية فيها و يطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات ﴿واما النوع الثالث فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب﴾ فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك و يتفقد من قلبه هذه الصفات فان ظن ان قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فان النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف فاذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي ان تجرب بحمل حزمة حطب في السوق كما كان الاولون يجربون به أنفسهم واذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر في الاسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين ان منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة كما لو رأى في نفسه عجبا بالعمل فيتفكر و يقول انما عملي ببدني وجارحتي و بقدرتي وارادتي وكل ذلك ليس مني ولا الي وانما هو من خلق الله وفضله علي فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وارادتي وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وارادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي فاذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة و يقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت وكم من كافر في الحال يموت مقربا الى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فاذا عرف أن الكبر مهلك وان أصله الحماقة فيتفكر في علاج ازالة ذلك بان يتعاطى أفعال المتواضعين واذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في ان هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه

(1) حديث ان الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم

تنال المحبة * ومنها الحياء والحياء على الوصف العام والوصف الخاص فاما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله استحيوا من الله حق الحياء قالوا انا نستحي يارسول الله قال ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وماوعى والبطن وماحوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الاخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء وهذا الحياء من المقامات وأما الحياء الخاص فمن الاحوال وهو ما نقل عن عثمان رضي الله عنه انه قال اني لاغتسل في البيت المظلم فانطوى حياء من الله

وعن الملائكة المقربين أبعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب (وأما النوع الرابع وهو المنجيات) فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق اليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي القربة الى الله تعالى فاذا افتقر الى شيء منها فليعلم أنها احوال لا يثمرها الا علوم وان العلوم لا يثمرها الا أفكار فاذا اراد ان يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه اولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه انه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم واذا اراد ان يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في احسان الله اليه وأياديه عليه وفي ارساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك واذا اراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير الى طرف منه في القسم الثاني من الفكر واذا اراد حال الخوف فلينظر اولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في النقير والقطمير ثم في الصراط ودقته وحدته ثم في خطر الامر عنده انه يصرف الى الشمال فيكون من اصحاب النار او يصرف الى اليمين فينزل دار القرار ثم ليحضر بعد اهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها واهوالها وسلاسلها واغلالها وزقومها وصديدها وانواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها وانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها وانهم كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وانهم اذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا الى جميع ما ورد في القرآن من شرحها واذا اراد ان يستجلب حال الرجاء فلينظر الى الجنة ونعيمها واشجارها وانهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب احوال محبوبة او التنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الاحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر اما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه انفع من قراءة القرآن بالتفكر فانه جامع لجميع المقامات والاحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الاحوال وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغي ان يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد اخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم فليتوقف في التامل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها اسرارا لا تنحصر ولا يوقف عليها الا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فانه قد اوتي جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تاملها العالم حق التامل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والاخبار يطول فانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم (٢) ان روح القدس نفث في روعي احبب من احببت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزي به فان هذه الكلمات جامعة حكم الاولين والآخرين وهي كافية للمتاملين فيها طول العمر اذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت الى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى او مكروهة والمبتدئ ينبغي ان يكون مستغرق الوقت في هذه الافكار حتى يعمر قلبه بالاخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم ان

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم اوتي جوامع الكلم تقدم (٢) حديث ان روح القدس نفث في روعي احبب من احببت فانك مفارقه الحديث تقدم غير مرة

(أخبرنا أبو زرعة) عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادي يقول سمعت أحمد السقطي بن صالح يقول سمعت محمد بن عبدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول قال لي سري احفظ عني ما أقول لك أن الحياء والانس يطوفان بالقلب فاذا وجدا فيه الزهد والورع حطا والا رحلا والحياء اطراق الروح اجلالا لعظيم الجلال والانس التذاذ الروح بكمال الجمال فاذا اجتمعا فهو الغاية في المنى والنهاية في العطاء وأنشد شيخ الاسلام

أشتاقه فاذا بدا أطرقت من اجلاله
لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله

هذا مع انه افضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه اى ينسى نفسه واحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فانه لا يتفرغ للنظر في احوال نفسه واوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة المشاق فاما ماذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره في اصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادى فلقيه الحسين بن منصور وقال فيم أنت قال ادور في البوادى اصلح حالى في التوكل فقال الحسين أفنيت عمرك في عمران باطنك فاين الفناء في التوحيد فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين واما التنزه عن الصفات المهلكات فيجرى مجرى الخروج عن العدة في النكاح واما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرى مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب فهكذا ينبغى ان تفهم طريق الدين ان كنت من اهل المجالسة وان كنت كالعبد السوء لا يتحرك الا خوفا من الضرب وطمعا في الاجرة فدونك واتعاب البدن بالاعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الاعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون واذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه فينبغى ان تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى واحوالك المقربة اليه سبحانه وتعالى بل كل مريد فينبغى ان يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فانه ان سلم منها سلم من غيرها وهى البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه ومن المنجيات عشرة الندم على الذنوب والصبر على البلاء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص في الاعمال وحسن الخلق مع الخلق وحب الله تعالى والخشوع له فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته اياها وتنزيه قلبه عنها يعلم ان ذلك لم يتم الا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله الى نفسه لم يقدر على محو اقل الرذائل عن نفسه فيقبل على التسعة الباقية وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقى وهذا يحتاج اليه المريد المشمر واما اكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغى ان يثبتوا في جرائدهم المعاصى الظاهرة كاكل الشبهة واطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والإفراط في معادات الاعداء وموالاة الاولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فان اكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى في جوارحه ومالم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغى ان يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها مثاله العالم الورع فانه لا يخلو في غالب الامر عن اظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت اما بالتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها الا الصديقون فانه ان كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الاعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وان رد كلامه لم يخل عن غيظ وانفة وحقد على من يرده وهو اكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول ان غيظك من حيث انه رد الحق وانكره فان وجد تفرقة بين ان يرد عليه كلامه او يرد على عالم اخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد او الاعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والايراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلمين

الموت في ادباره
والعيش في اقباله
واصد عنه اذا بدا
واروم طيف خياله
قال بعض الحكماء من تكلم في الحياء ولا يستحى من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج (وقال ذو النون) الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ماسبق منك الى ربك (وقال ابن عطاء) والعلم الاكبر الهيبة والحياء فاذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه (وقال ابو سليمان) ان العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء واشرفهم منزلة من عمل على الحياء لما ايقن ان الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته اكثر مما استحيا العاصون من سيآتهم

والشيطان قد يلبس عليه و يقول انما حرصك على تحسين الالفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق و يحسن موقعه فى القلب اعلاء لدين الله فان كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وانما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما و يكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو فى موالاة غيره وان كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهى الامر باهل العلم الى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته الى غيره وان كان يعلم انه منتفع بغيره ومستفيد منه فى دينه وكل ذلك رشح الصفات المستكنة فى سر القلب التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وانما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو اما مالك واما هالك ولا مطمع له فى سلامة العوام فمن أحس فى نفسه بهذه الصفات المهلكات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الانس اذا قالوا لا تفعل هذا فان هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق وليقل لهم ان دين الاسلام مستغن عنى فانه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ولو مت لم تنهدم اركان الاسلام فان الدين مستغن عنى وانا فلست مستغنيا عن اصلاح قلبى واما اداء ذلك الى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فان الناس لو حبسوا فى السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب الى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتر عن عمله الى يوم القيامة بل ينتهض لنشر العلم اقوام لا نصيب لهم فى الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم (٢) وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر فلا ينبغى ان يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى فى قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فان ذلك بذر النفاق قال صلى الله عليه وسلم (٣) حب الجاه والمال ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ماذئبان ضاريان ارسلا فى زريبة غنم باكثر افسادا فيهما من حب الجاه والمال فى دين المرء المسلم ولا ينقلع حب الجاه من القلب الا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه فى قلوبهم فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفى استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم المتقى فاما امثالنا فينبغى ان يكون تفكرنا فيما يقوى ايماننا بيوم الحساب اذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا ان هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما اعمالنا اعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيأ هرب منه ومن رجا شيأ طلبه وقد علمنا ان الهرب من النار بترك الشبهات والحرام و بترك المعاصى ونحن منهمكون فيها وان طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون فى الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم الا انه يقتدى بنا فى الحرص على الدنيا والتكالب عليها و يقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء احق واولى باجتنابه منا فليتنا كنا بالعوام اذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما اعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى ان يصلحنا و يصلح بنا و يوفقنا للتوبة قبل ان يتوفانا انه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا فهذه مجارى افكار العلماء والصالحين فى علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن انفسهم وارتقوا منها الى التفكر فى جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك الا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات وان ظهر شىء منه قبل ذلك كان

(وقال بعضهم) الغالب على قلوب المستحيين الاجلال والتعظيم دائما عند نظر الله اليهم * ومنها الاتصال (قال النورى) الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الاسرار وقال بعضهم الاتصال وصول السر الى مقام الذهول وقال بعضهم الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه (وقال) سهل بن عبد الله حركوا بالبلاء فتحركوا ولو سكنوا اتصلوا (وقال يحيى بن معاذ الرازى) العمال اربعة تائب وزاهد ومشتاق وواصل فالتائب محجوب بتوبته والزاهد محجوب بزهده والمشتاق محجوب بحاله والواصل

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر تقدم ايضا فى العلم (٣) حديث حب المال والجاه ينبت النفاق فى القلب الحديث تقدم (٤) حديث ماذئبان جائعان ارسل فى زريبة غنم الحديث تقدم

مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد اخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ولا طريق له فى كمال التنعم الا باخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفى القبر يزيد الم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف فى التنبيه على مجارى فكر العبد فى صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى * القسم الثانى الفكر فى جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامان * المقام الاعلى الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى اسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تفكروا فى ذات الله وذلك لان العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق احوال ابصارهم بالاضافة الى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالاضافة الى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يختفى نهارا وانما يتردد ليلا ينظر فى بقية نور الشمس اذا وقع على الارض واحوال الصديقين كحال الانسان فى النظر الى الشمس فانه يقدر على النظر اليها ولا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو ادام النظر ونظره المختطف اليها يورث العمش ويفرق البصر وكذلك النظر الى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب اذا أن لا يتعرض لمجاري الفكر فى ذات الله سبحانه وصفاته فان اكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء وهو ان الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الاقطار والجهات وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول اقوام حتى انكروه اذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال اقل من هذا اذ قيل لهم انه يتعاظم ويتعالى عن ان يكون له راس ورجل ويد وعين وعضو وان يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فانكروا هذا وظنوا ان ذلك قدح فى عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام ان هذا وصف بطيخ هندى لا وصف الاله لظن المسكين ان الجلالة والعظمة فى هذه الاعضاء وهذا لان الانسان لا يعرف الا نفسه فلا يستعظم الا نفسه فكل ما لا يساويه فى صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته ان يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك فى حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لانكر ذلك وقال كيف يكون خالقى أنقص منى أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لى آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقى ومصورى وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل وان الانسان لجهول ظلوم كفار ولذلك أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه لا تخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون ولما كان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته مخطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق ان لا يتعرض لمجارى الفكر فيه لكنا نعدل الى المقام الثانى وهو النظر فى افعاله ومجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره فى خلقه فانها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر الى صفاته من اثار صفاته فانا لا نطيق النظر الى صفاته كما انا نطيق النظر الى الارض مهما استنارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالاضافة الى نور القمر وسائر الكواكب لان نور الارض من اثار نور الشمس والنظر فى الاثار يدل على المؤثر دلالة ما وان كان لا يقوم مقام النظر فى نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا اثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من انوار ذاته بل لا ظلمة اشد من العدم ولا نور اظهر من الوجود ووجود الاشياء كلها نور من انوار ذاته تعالى وتقدس اذ قوام وجود الاشياء بذاته القيوم بنفسه كما ان قوام نور الاجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بان يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر اليها فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر اليها فكذلك الافعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بانوار الذات بعد ان تباعدنا عنها بواسطة الافعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق

لا يحجبه عن الحق شيء (وقال ابو سعيد القرشي) الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القطع ابدا والمتصل الذى بجهده يتصل وكلما دنا انقطع وكان هذا الذى ذكره حال المريد والمراد لكون احدهما مبادأ بالكشوف وكون الآخر مردود الى الاجتهاد (وقال ابو يزيد) الواصلون فى ثلاثة احرف همهم لله وشغلهم فى الله ورجوعهم الى الله وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك ان الله تعالى اذا احب عبدا ان يوصله اختصر عليه الطريق وقرب اليه البعيد وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال رويم

الله ولا تتفكروا فى ذات الله تعالى   (بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى)

اعلم ان كل مافى الوجود ممـا سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصـفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظاهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن لانه لوكان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره ولـكنا نشير الى جمل منه ليكون ذلك كالمثـال لما عداه فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة الى مالا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التى لا نعلمهـا كما قال الله تعالى و يخلق مالا تعلمون سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون وقال وننشئكم فيما لا تعلمون والى مايعرف اصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا ان نتفكر فى تفصيلهـا وهى منقسمة الى ما ادركناه بحس البصر والى مالا ندركه بالبصر اما الذى لا ندركه بالبصر فـكالملائـكة والجن والشياطين والعرش والـكرسى وغير ذلك ومجال الفكر فى هذه الاشياء مما يضيق و يغمض فلنعدل الى الاقرب الى الافهام وهى المدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والارض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكوا كبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها والارض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وانهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بـين السماء والارض وهو الجو مدرك بغيومها وامطارها وثلوجها ورعـدها و برقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها فهذه هى الاجناس المشاهدة من السموات والارض ومابينهما وكل جنس منها ينقسم الى انواع وكل نوع ينقسم الى اقسام و يتشعب كل قسم الى اصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة فى السموات والارض من جماد اونبات ولاحيوان ولافلك ولا كوكب الا والله تعالى هو محركها وفى حركتها حكمة اوحكمتان اوعشر او الف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهى الآيات الدالة عليه وقد ورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال الله تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب وكما قال تعالى ومن آياته من اول القرآن الى آخره فلنذكر كيفية الفـكر فى بعض الآيات (فمن آياته) الانسان المخلوق من النطفة واقرب شىء اليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ماتنقضى الاعمار فى الوقوف على عشر عشيره وانت غافل عنه فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد امرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال وفى انفسكم افلا تبصرون وذكر انك مخلوق من نطفة قذرة فقال قتل الانسان ما اكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره وقال تعالى ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون وقال تعـالى الم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى وقال تعالى الم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم وقال اولم يرالانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج ثم ذكر كيف جعل النطفة علقه والعلقة مضغة والمضغة عظاما فقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة الآية فتكرير ذكر النطفة فى الـكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه و يترك التفكر فى معناه فانظر الآن الى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة لوتركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وانتنت كيف اخرجها رب الارباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والانثى والقى الالفة والمحبة فى قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من اعماق العروق وجمعه فى الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم قسم اجزاء النطفة وهى متشابهة متساوية الى العظـام والاعصاب والعروق والاوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والاعصاب والعروق الاعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق

أهل الوصـول أوصل الله اليهم قلوبهم فهم محفـوظـون القوى ممنوعون من الخلق ابدا (وقال) ذو النوى مارجع من رجع الا من الطريق وما وصل اليـه * احد فرجع عنه واعلم ان الاتصال والمواصلة أشار اليـه الشيـوخ وكل من وصـل الى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفـاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبـة فى التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار وهـذه رتبة فى الوصول ومنهم من يوقف فى مقام الهيبـة والانس بما يكاشف

السمع والبصر والانف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤسها بالاصابع وقسم الاصابع بالانامل ثم كيف ركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ثم كيف قسم كل عضو من هذه الاعضاء باقسام اخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها اوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الابصار فلو ذهبنا الى ان نصف ما فى آحاد هذه الاعضاء من العجائب والايات لانقضى فيه الاعمار فانظر الان الى العظام وهى اجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة واشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه و ببعض اعضائه مفتقرا للتردد فى حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض باوتار انبتها من احد طرفى العظم والصقه بالعظم الاخر كالرباط له ثم خلق فى احد طرفى العظم زوائد خارجة منه وفى الاخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد ان اراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الاشكال والصور فالف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف واربعة عشر للحى الاعلى واثنان للحى الاسفل والبقية هى الاسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهى الانياب والاضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من اسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من اربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة اجزاء مختلفة فيتصل به من اسفله عظم العصعص وهو ايضا مؤلف من ثلاثة اجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين واصابع الرجلين فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام فى بدن الانسان مائتا عظم وثمانية واربعون عظما سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة وليس المقصود من ذكر اعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الاطباء والمشرحون وانما الغرض ان ينظر منها فى مدبرها وخالقها انه كيف قدرها ودبرها وخالف بين اشكالها واقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص لانه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج الى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها واهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فشتان بين النظرين ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهى العضلات فخلق فى بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط واغشية وهى مختلفة المقادير والاشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فاربع وعشرون عضلة منها هى لتحريك حدقة العين واجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وامر الاعصاب والعروق والاوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول فللفكر مجال فى آحاد هذه الاجزاء ثم فى آحاد هذه الاعضاء ثم فى جملة البدن فكل ذلك نظر الى عجائب اجسام البدن وعجائب المعانى والصفات التى لاتدرك بالحواس أعظم فانظر الآن الى ظاهر الانسان وباطنه والى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة مايقضى به العجب وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته فى اوضاعها وأشكالها ومقاديرها واعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف

قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلى طريق الصفات وهو رتبة فى الوصول ومنهم من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه انوار اليقين والمشاهدة مغيبا فى شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهذا المقام رتبة فى الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لمح وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى رتب الوصول فاذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الاحوال الشريفة انه بعد فى اول المنزل فاين

صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظنن ان ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هى أحكم خلقا واتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما فى الارض الى عجائب السموات ولذلك قال تعالى أأنتم اشد خلقا ام السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها واخرج ضحاها فارجع الآن الى النطفة وتامل حالها اولا وما صارت اليه ثانيا وتامل انه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمعا او بصرا او عقلا اوقدرة اوعلما اوروحا او يخلقوا فيها عظما اوعرقا اوعصبا اوجلدا او شعرا هل يقدرون على ذلك بل لو ارادوا ان يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد ان خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت الى صورة انسان مصور على حائط تانق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الانسان وقال الناظر اليها كانه انسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم فى قلبك محله مع انك تعلم ان تلك الصورة انما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط وبالقدرة وبالعلم وبالارادة وشىء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وانما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكثر تعجبك منه وتستعظمه وانت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها فى الاصلاب والترائب ثم اخرجها منها وشكلها فاحسن تشكيلها وقدرها فاحسن تقديرها وتصويرها وقسم اجزاءها المتشابهة الى اجزاء مختلفة فاحكم العظام فى ارجائها وحسن اشكال اعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها واعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر اساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها واحسن شكلها ولونها وهيآتها ثم حماها بالاجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها ثم اظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد اقطارها فهو ينظر اليها ثم شق اذنيه واودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها اذا قصدها دابة فى حال النوم ثم رفع الانف من وسط الوجه واحسن شكله وفتح منخريه واودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه واغذيته وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه وفتح الفم واودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب وزين الفم بالاسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فاحكم اصولها وحد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كانها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الاشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الاصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والاصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالاهداب ثم خلق الاعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء الى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها والكلية تخدمها بجذب المائية عنها والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ثم تخرجه فى طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد فى ايصال الدم الى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد الى المقاصد وعرض الكف وقسم الاصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الاربعة فى جانب والابهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع ولو اجتمع الاولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الاربع وتفاوت الاربع فى الطول وترتيبها فى صف

الوصول هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الابدى فكيف فى العمر القصير الدنيوى * ومنها القبض والبسط وهما حالان شريفان قال الله تعالى والله يقبض ويبسط وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا باشارات هى علامات القبض والبسط ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لانهم اكتفوا بالاشارة والاشارة تقنع الاهل وأحببت ان اشبع الكلام فيهما لعله يتشوق الى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم (واعلم) أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده

واحد لم يقدر واعليه اذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والاعطاء فان بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وان جمعها كانت له آلة للضرب وان ضمها ضما غير تام كانت له مغرفة له وان بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ثم خلق الاظفار على رؤسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التى لا تتناولها الانامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذى هو أخس الاعضاء لو عدمه الانسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولم يقم احد مقامه فى حك بدنه ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك الا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر اليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيأ فشيئا ولا يرى المصور ولا آلته فهل رايت مصورا اوفاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كانه عاقل بصير بما يحتاج اليه ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التقام الثدى ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الاغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليها فم الصبي ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه الا بعد المص تدريجا فان الطفل لا يطيق منه الا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان الى تمام الحولين لانه فى الحولين لا يتغذى الا باللبن فيستغنى عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فانبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف اخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا اما كفورا اوشكورا مطيعا اوعاصيا مؤمنا او كافرا تصديقا لقوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا فانظر الى اللطف والكرم الى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية والعجب كل العجب ممن يرى خطا حسنا او نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه الى التفكر فى النقاش والخطاط وانه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ثم ينظر الى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها فهو اقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك الا ان تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك وانما خاصية الانسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والارض وعجائب الآفاق والانفس اذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لانسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير اذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فاولئك كالانعام بل هم اضل سبيلا واذا عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الارض التى هى مقرك ثم فى انهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها الى ملكوت السموات (اما الارض) فمن آياته ان خلق الارض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وارسى فيها الجبال اوتادا لها تمنعها من ان تميد ثم وسع اكنافها

ووقتهما وموسمهما فى اوائل حال المحبة الخاصة لا فى نهايتها ولا قبيل حال المحبة الخاصة فمن هو فى مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الايمان لا يكون له قبض ولا بسط وانما يكون له خوف ورجاء وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن ذلك قبضا وبسطا وليس هو ذلك وانما هو هم يعتريه فيظنه قبضا واهتزازا نفسانى ونشاط طبيعى يظنه بسطا والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها وما دامت صفة الامارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط والهم وهيج ساجور النفس والنشاط ارتفاع موج النفس

حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وان طالت اعمارهم وكثر تطوافهم فقال تعالى والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون وقال تعالى هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وقال تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا وقد أكثر فى كتابه العزيز من ذكر الارض ليتفكر فى عجائبها فظهرها مقر للاحياء وبطنها مرقد للاموات قال تعالى ألم نجعل الارض كفاتا أحياء وأمواتا فانظر الى الارض وهى ميتة فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وانبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف اودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الانهار تجرى على وجهها واخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شئ حى فاخرج به فنون الاشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والاراييح يفضل بعضها على بعض فى الاكل تسقى بماء واحد وتخرج من ارض واحدة فان قلت ان اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ثم انظر الى ارض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا انزل عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج الوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف اصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف اودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا اذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل الى الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل اليهما وهذا يصفى الدم وهذا يستحيل دماء وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تنبت من الارض ورقة ولا تبنة الا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت ببث البذر فى الارض وبعضه بغرس الاغصان وبعضه يركب فى الشجر ولو أردنا ان نذكر اختلاف اجناس النبات وانواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الايام فى وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات (ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الارض) ففى الارض قطع متجاورات مختلفة فانظر الى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل وكيف هدى الله الناس الى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الاوانى والآلات والنقود والحلى منها ثم انظر الى معادن الارض من النفط والكبريت والقار وغيرها واقلها الملح ولا يحتاج اليه الا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك اليها فانظر الى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الاراضى سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطييبا لطعامك اذا اكلته فيتهنا عيشك وما من جماد ولا حيوان ولا نبات الا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ماخلق شئ منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا بل خلق الكل بالحق كما ينبغى وعلى الوجه الذى ينبغى وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى وماخلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين ماخلقناهما الا بالحق (ومن آياته اصناف الحيوانات) وانقسامها الى مايطير والى ما يمشى وانقسام مايمشى الى مايمشى على رجلين والى ما يمشى على اربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها فى المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والبهائم الاهلية ترى فيهما من العجائب ما تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن ان يستقصى ذلك بل لو اردنا ان نذكر عجائب البقة او النملة او النحلة او العنكبوت وهى من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفى جمعها غذائها وفى الفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى

عند تلاطم بحر الطبع فاذا ارتقى من حال المحبة العامة الى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لانه ارتقى من رتبة الايمان الى رتبة الايقان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى (قال) الواسطى يقبضك عمالك ويبسط لما له (وقال) النورى يقبضك باياك ويبسطك لاياه واعلم ان وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة والقبض والبسط باعتبار ذلك منها وصاحب القلب تحت حجاب نورانى

حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها الى حاجاتها لم تقدر على ذلك فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب اولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فادونه حتى يمكنه ان يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدىء و يلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو الى الجانب الآخر فيحكم الطرف الاخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا و يجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى اذا احكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى و يضيف بعضه الى بعض و يحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى و يراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة و يجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب و يقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة فاذا وقع الصيد بادر الى أخذه واكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفى الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر و بقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير فاذا طارت رمى بنفسه اليه فاخذه ولف خيطه على رجليه واحكمه ثم اكله ومامن حيوان صغير ولا كبير الا وفيه من العجائب ما لا يحصى افترى انه تعلم هذه الصنعة من نفسه اوتكون بنفسه اوكونه ادمى أوعلمه اولا هادى له ولا معلم أفيشك ذو بصيرة فى انه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن امر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف افلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ماتتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب ايضا لاحصر له فان الحيوانات واشكالها واخلاقها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة نعم اذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما اعجبه والانسان اعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التى الفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها واصوافها واوبارها واشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه واكنانا لهم فى ظعنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم واوعية لاغذيتهم وصوانا لاقدامهم وجعل البانها ولحومها اغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب و بعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ماخلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه اياها فسبحان من الامور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تامل وتدبر ومن غير استعانة بوزير اومشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق الا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسال الله تعالى ان يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته ﴿ ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض ﴾ التى هى قطع من البحر الاعظم المحيط بجميع الارض حتى ان جميع المكشوف من البوادى والجبال من الماء بالاضافة الى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم و بقية الارض مستورة بالماء قال النبي صلى الله عليه وسلم (1) الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض فانسب اصطبلا الى جميع الارض واعلم ان الارض بالاضافة الى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الارض ومافيها فتامل الآن عجائب البحر فان عجائب مافيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب لاتشاهده على وجه الارض كما ان سعته اضعاف سعة الارض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ماترى ظهورها فى البحر فتظن انها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران اذا اشتعلت فتتحرك و يعلم انها حيوان ومامن صنف من اصناف حيوان البر من فرس او طير أو بقر اوانسان الا فى البحر امثاله واضعافه وفيه اجناس لا يعهد لها نظير فى البر وقد ذكرت اوصافها فى مجلدات وجمعها اقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وانما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تامل ماعداه من العنبر

(١) حديث الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض تقدم ولم اجده

واصناف

لوجود قلبه كان صاحب النفس تحت حجاب ظلمانى لوجود نفسه فاذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يقيده الحال ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود النورانى الذى هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب فاذا عاد الى الوجود من الفناء والبقاء يعود الى الوجود النورانى الذى هو القلب فيعود القبض والبسط اليه عند ذلك ومهما تخلص الى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس اولا القبض ثم البسط ثم لاقبض ولا بسط لان القبض والبسط يقع فى الوجود فاما مع

واصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن كيف امسكها الله تعالى على وجه الماء وسيرفيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم وسخرلهم الفلك لتحمل اثقالهم ثم ارسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات واعجب من ذلك كله ماهو اظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء كانه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كانه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى اخراجها فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء اذا احتاج الى شربها او الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتامل فى عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية ارباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذى لب اما ترانى وترى صورتى وتركيبى وصفاتى ومنافعى واختلاف حالاتى وكثرة فوائدى اتظن انى كونت نفسى اوخلقنى احد من جنسى اوما تستحيى ان تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة احرف فتقطع بانها من صنعة آدمى عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر الى عجائب الخطوط الالهية المرقومة على صفحات وجهى بالقلم الالهى الذى لا تدرك الابصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لارباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهمنى فى ظلمة الاحشاء مغموسة فى دم الحيض فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى فينقش النقاش حدقتى واجفانى وجبهتى وخدى وشفتى فترى التقويس يظهر شيا فشيا على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجه ولا خبر منها للام ولا للاب ولا للنطفة ولا للرحم أفما هذا النقاش باعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت اليها مرة اومرتين لتعلمته فهل تقدر على ان تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع اجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها ان الذى صور ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور كما ان نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين فان كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه أعجب من كل عجب فان الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بان تتعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه فله الخلق والامر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه (ومن اياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الارض) لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة فى جو السماء ومستبقة سباحة فيه باجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب امواج البحر فاذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فان شاء جعله نشرا بين يدى رحمته كما قال سبحانه وارسلنا الرياح لواقح فيصل بحركته روح الهواء الى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء وان شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر ثم انظر الى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوى ليغمسه فى الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة امسك الله تعالى السفن على وجه الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص فى الماء لان الهواء

الفناء والبقاء فلا ثم ان القبض قد يكون عقوبة الافراط فى البسط وذلك ان الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا فتسترق النفس السمع عند ذلك وتاخذ نصيبها فاذا وصل أثر الوارد الى النفس طغت بطبعها وأفرطت فى البسط حتى تنشا كل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض اذا فتش لا يكون الامن حركة النفس وظهورها بصفتها لوتادبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ماوجد صاحب القلب القبض ومادام روحه وانسه ورعاية الاعتدال الذى يسد باب القبض متلقى

ينقبض عن الغوص فى الماء فلاينفصل عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف كالذى يقع فى بئر فيتعلق بذيل رجل قوى ممتنع عن الهوى فى البئر فالسفينه بمقعرها تتشبث باذيال الهوى القوى حتى تمتنع من الهوى والغوص فى الماء فسبحان من علق المركب الثقيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر الى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والامطار والثلوج والشهب والصواعق فهى عجائب مابين السماء والارض وقد اشار القرآن الى جملة ذلك فى قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين وهذا هو الذى بينهما وأشار الى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى والسحاب المسخر بين السماء والارض وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة الا أن ترى المطر بعينيك وتسمع الرعد باذنك فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم الى عالم الملا الاعلى فقد فتحت عينيك فادركت ظاهرها فغمض عينيك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه اذ لا مطمع فى استقصائه فتامل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى اذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جو السماء الى أن ياذن الله فى ارسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى وعلى الشكل الذى شاءه فترى السحاب يرش الماء على الارض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة باخرى بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدم المتاخر ولا يتاخر المتقدم حتى يصيب الارض قطرة قطرة فلو اجتمع الاولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها فى بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها الا الذى أوجدها ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الارض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط الهى لا يدرك بالبصر الظاهر انها رزق الدودة الفلانية التى فى ناحية الجبل الفلانى تصل اليها عند عطشها فى الوقت الفلانى هذا مع ما فى انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلائق القاهر مالاحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس للمؤمنين من خلقه الا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا للعميان الجاحدين الا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل المغرور انما ينزل الماء لانه ثقيل بطبعه وانما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له مامعنى الطبع وما الذى خلقه ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقيل وما الذى رقى الماء المصبوب فى اسافل الشجر الى أعالى الاغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى الى أسفل ثم ارتفع الى فوق فى داخل تجاويف الاشجار شيئا فشيئا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر فى جميع أطراف الاوراق فيغذى كل جزء من كل ورقة ويجرى اليها فى تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذى هو اصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار فكان الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن ادراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة فيصل الماء فى اجوافها الى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك الى سائر اجزاء الفواكه فان كان الماء يتحرك بطبعه الى أسفل فكيف تحرك الى فوق فان كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب وان كان ينتهى بالآخرة الى خالق السموات والارض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من اول الامر فنهاية الجاهل بداية العاقل ﴿ومن آياته ملكوت السموات والارض ومافيها من الكواكب﴾ وهو الامر كله ومن اراد الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا فالارض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالاضافة الى السموات قطرة فى بحر واصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه فما من سورة الا وتشتمل على

من قوله تعالى لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم فوارد الفرح ما دام موقوفا على الروح والقلب لا يكتنف ولا يستوجب صاحبه القبض سيما اذا لطف بالفرح بالوارد بالايواء الى الله واذا لم يلتبج بالايواء الى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أتى الممنوع منه فمن ذلك القبض فى بعض الاحايين وهذا من ألطف الذنوب الموجبة للقبض وفى النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض ثم الخوف والرجاء لا يعدمها صاحب القبض والبسط ولا صاحب الانس والهيبة لانهما من ضرورة

تفخيمها

تفخيمها فى مواضع وكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى والسماء ذات البروج والسماء والطارق والسماء ذات الحبك والسماء ومابناها وكقوله تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها وكقوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس وقوله تعالى والنجم اذا هوى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم فقد علمت ان عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الاولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الارزاق عليه واضافها اليه فقال تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وأثنى على المتفكرين فيه فقال و يتفكرون فى خلق السموات والارض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى تجاوزها من غير فكر وذم المعرضين عنها فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون فاى نسبة لجميع البحار والارض الى السماء وهى متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير الى ان يبلغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وقال سبحانه و بنينا فوقكم سبعا شدادا وقال أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها فانظر الى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ولا تظنن ان معنى النظر الى الملكوت بان تمد البصر اليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فان البهائم تشاركك فى هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض لا بل كل مايدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وماغاب عن الابصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط احد بشىء من علمه الا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول فاجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت عسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى اقطارها الى ان يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك ان تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال رأى قلبى ربى وهذا لان بلوغ الاقصى لا يكون الا بعد مجاوزة الادنى وادنى شىء اليك نفسك ثم الارض التى هى مقرك ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحيوان وماعلى وجه الارض ثم عجائب الجو وهو مابين السماء والارض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسى ثم العرش ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز الى النظر الى رب العرش والكرسى والسموات والارض ومابينهما فبينك و بين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وانت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهى معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر والى ماذا أتطلع فارفع الآن رأسك الى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص الى ان يطويها الله تعالى طى السجل للكتب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف الوانها فبعضها يميل الى الحمرة و بعضها الى البياض و بعضها اللون الرصاصى ثم انظر كيفية اشكالها فبعضها على صورة العقرب و بعضها على صورة الحمل والثور والاسد والانسان ومامن صورة فى الارض الا ولها مثال فى السماء ثم انظر الى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر الى ايلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر الى امالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فاذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء واذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ واذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السموات لا مطمع فى

(١) حديث ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته اى قوله تعالى و يتفكرون فى خلق السموات والارض

الايمان فلا ينعدمان وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الايمان لنقصان الحظ من القلب وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب وقد يرد على الباطن قبض و بسط ولا يعرف سببهما ولا يخفى سبب القبض والبسط الا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام (ومن) أحكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط وانما علم ذلك لمن استقام قلبه ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما

احصاء عشرعشير جزء من اجزائها وانمـاهذا تنبيه على طريق الفـكر واعتقد على الجلة انه مامن كوكب من الـكواكب الا لله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ثم فى مقداره ثم فى شكله ثم فى لونه ثم فى وضعه من السماء وقربه من وسط السماء و بعده وقربه من الـكواكب التى بجنبه و بعده وقس على ذلك ماذكرناه من أعضاء بدنك اذ مامن جزء الى وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الارض الى عالم السماء لافى كبر جسمه ولا فى كثرة معانيه وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى عـا بينهما من التفاوت فى كبر الارض فانت تعرف من كبر الارض واتساع أطرافها انه لايقدر آدمى على أن يدركها و يدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة (١) وفى الاخبار مايدل على عظمها ثم الـكواكب التى تراها أصغرها مثل الارض ثمانى مرات وأكبرها ينتهى الى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الارض و بهذا تعرف ارتفاعها و بعدها اذ بالبعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى الى بعدها فقال رفع سمكها فسواها وفى الاخبار أن (٢) مابين كل سماء الى الاخرى مسيرة خمسمائة عام فاذا كان مقدار كوكب واحد مثل الارض أضعافا فانظر الى كثرة الـكواكب ثم انظر الى السماء التى الـكواكب مركوزة فيها والى عظمها ثم انظر الى سرعة حركتها وأنت لاتحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لـكن لاتشك انها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب لان الزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى تمـامه يسير وذلك الـكوكب هو مثل الارض مائة مرة وزيادة فقد دار الفلك فى هذه اللحظة مثل الارض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر (٣) جبريل عليه السلام عن سرعة حركته اذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال من حين قلت لا الى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام فانظر الى عظم شخصها ثم الى خفة حركتها ثم انظر الى قدرة الفاطر الحـكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الارض وتفتح عينيك نحـوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر اليها بل انظر الى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك انك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلاينقطع تعجبك منه ولاتزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وانت ابدا تنظر الى هـذا البيت العظيم والى ارضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب امتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لاتتحدث فيه ولاتلتفت بقلبك اليه فمـا هـذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الارض التى هى اخس أجزاء هـذا البيت ومع هذا فلا تنظر اليه ليس له سبب الا انه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك و بيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم الا شهوتك او حشمتك وغاية شهوتك ان تملأ بطنك ولا تقدر على ان تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك ان تقبـل عليك عشرة اومائة من معارفك فينافقون بالسنتهم بين يديك و يضمرون خبائث الاعتقادات عليك وان صـدقوك فى موتهم اياك فـلا يملـكون لك

فنفسه مطمئنة لاتنقـدح من جـوهرها نار توجب القبض ولا يتلاطم بحـر طبعها من اهوية الهـوى حـتى يظهر منه البسط وربمـا صار لمثل هـذا القبض والبسط فى نفسه لامـن نفسه فتـكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط فى نفسه المطمئنة ومالقلبه قبض ولابسط لان القلب متحصن بشعاع نور الروح مستقر فى دعة القرب فلا قبض ولا بسط (ومنها الفناء والبقاء) قدقيل الفناء ان يفنى عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظ بل يفنى عن الاشياء كلها شـغلا بمن فنى فيـه وقـد قال عامر بن عبدالله لاابالى امرأة

تقدم (١) الحديث الدال على عظم الشمس) احمد من حديث عبدالله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال فى نار الله الحامية لولا مانزعها من امر الله لاهلـكت ماعلى الارض وللطبرانى فى الـكبير من حديث ابى امامة وكل بالشمس تسعة املاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ماأتت على شىء الا احرقتـه (٢) حديث بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام الترمذى من رواية الحسن عن ابى هريرة قال غريب قال ويروى عن ايوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من ابى هريرة ورواه ابو الشيخ فى العظمة من رواية ابى نصرة عن ابى ذر ورجاله ثقات الا انه لا يعرف لابى نصرة سماع من ابى ذر (٣) حديث انه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لا نعم تقول فقال كيف تقول لا نعم فقال من حين قلت لا الى ان قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام لم اجد له اصلا

ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والارض ثم غفلت عن التنعم بالنظر الى جلال مالك الملكوت والملك ومامثلك ومثل عقلك الا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الاركان مزين بالجوارى والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس فانها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لوقدرت على النطق الاعن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها فاما حال القصر والملك الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لاقدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها الى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء الا ماتعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات الا ماتعرفه النملة منك ومن سكان بيتك نعم ليس للنملة طريق الاان تعرفك وتعرف عجائب قصرك و بدائع صنع الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على ان تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ماالخلق غافلون عنه ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فانه مجال لا آخر له ولواستقصينا اعمارا طويلة لم نقدر على شرح ماتفضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ماعرفناه قليل نزر حقير بالاضافة الى ماعرفه جملة العلماء والاولياء وماعرفوه قليل نزر حقير بالاضافة الى ماعرفه الانبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ماعرفوه قليل بالاضافة الى ماعرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الانبياء كلهم قليل بالاضافة الى ماعرفته الملائكة المقربون كاسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والانس اذا أضيف الى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق ان يسمى علما بل هو ان يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا اقرب فسبحان من عرف عباده ماعرف ثم خطب جميعهم فقال وما أوتيتم من العلم الا قليلا فهذا بيان معاقد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لامحالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته اتم وهذا كما انك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه اوشعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى ان كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من ابيات شعره يزيده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك فهكذا تامل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتاليفه وكل مافى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا وانما لكل عبد منهما بقدر مارزق فلنقتصر على ماذكرناه ولنضف الى هذا مافصلناه فى كتاب الشكر فانا نظرنا فى ذلك الكتاب فى فعل الله تعالى من حيث هو احسان الينا وانعام علينا وفى هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث انه فعل الله فقط وكل مانظرنا فيه فان الطبيعى ينظر فيه و يكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته ومامن ذرة فى السماء والارض الا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدى به من يشاء فمن نظر فى هذه الامور من حيث انها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تاثير بعضها فى بعض لامن حيث ارتباطها بمسبب الاسباب فقد شقى وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ونساله ان يجنبنا مزلة اقدام الجهال بمنه و كرمه وفضله وجوده ورحمته تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه يتلوه كتاب ذكر الموت ومابعده و به كمل جمع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه

﴿ كتاب ذكر الموت ومابعده وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات و به اختتام كتاب احياء علوم الدين ﴾

﴿ كتاب ذكر الموت ومابعده ﴾

رأيت أم حائطا ويكون محفوظا فيما لله عليه مصروفا عن جميع المخالفات والبقاء يعقبه وهو ان يفنى عماله و يبقى بما لله تعالى (وقيل) الباقى ان تصير الاشياء كلها له شيا واحدا فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته فكان فانيا عن المخالفات باقيا فى الموافقات (وعندى) أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح وليس من الفناء والبقاء فى شىء ومن الاشارة الى الفناء ماروى عن عبد الله بن عمر أنه سلم عليه انسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه فشكاه الى بعض أصحابه فقال له كنا نتراءى الله فى ذلك

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمدلله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة وكسر به ظهورالا كاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تنزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة حتى جاءهم الوعد الحق فارداهم فى الحافرة فنقلوا من القصور الى القبور ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجوارى والغلمان الى مقاساة الهوام والديدان ومن التنعم بالطعام والشراب الى التمرغ فى التراب ومن أنس العشرة الى وحشة الوحدة ومن المضجع الوثير الى المصرع الوبيل فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا واتخذوا من دونه حجابا وحرزا وانظر هل تحس منهم من احد اوتسمع لهم ركزا فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء واستأثر باستحقاق البقاء وأذل اصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ثم جعل الموت مخلصا للاتقياء وموعدا فى حقهم للقاء وجعل القبر سجنا للاشقياء وحبسا ضيقا عليهم الى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام بالنقم القاهرة وله الشكر فى السموات والارض وله الحمد فى الاولى والآخرة والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله واصحابه وسلم تسليما كثيرا ﴿ اما بعد ﴾ فجدير بمن الموت مصرعه والتراب مضجعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر مقره و بطن الارض مستقره والقيامة موعده والجنة اوالنار مورده انلا يكون له فكر الا فى الموت ولاذكر الا له ولا استعداد الا لأجله ولا تدبير الا فيه ولا تطلع الا اليه ولا تعريج الا عليه ولا اهتمام الا به ولا حول الا حوله ولا انتظار وتربص الا له وحقيق بان يعد نفسه من الموتى ويراها فى اصحاب القبور فان كل ماهو آت قريب والبعيد ماليس بآت وقدقال صلى الله عليه وسلم (١) الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ولن يتيسر الاستعداد للشىء الا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره الا عند التذكر بالاصغاء الى المذكرات له والنظر فى المنبهات عليه ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه واحوال الاخرة والقيامة والجنة والنار مالا بد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقى من العمر الا القليل والخلق عنه غافلون اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ونحن نذكر مايتعلق بالموت فى شطرين

﴿ الشطر الاول فى مقدماته وتوابعه الى نفخة الصور وفيه ثمانية ابواب ﴾

* الباب الاول فى فضل ذكر الموت والترغيب فيه * الباب الثانى فى ذكر طول الامل وقصره * الباب الثالث فى سكرات الموت وشدته ومايستحب من الاحوال عند الموت * الباب الرابع فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده * الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين * الباب السادس فى اقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور * الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر الى نفخة الصور * الباب الثامن فيما عرف من احوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

﴿ الباب الاول فى ذكر الموت والترغيب فى الاكثار من ذكره ﴾

اعلم ان المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ثم الناس امامنهمك واما تائب مبتدىء اوعارف منته اما المنهمك فلا يذكر الموت وان ذكره فيذكره للتاسف على دنياه و يشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا واما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من ان يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد وهو معذور فى كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله

المكان (وقيل) الفناء وهو الغيبة عن الاشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل (وقال الخراز) الفناء هو التلاشى بالحق والبقاء هو الحضور مع الحق (وقال) الجنيد الفنا استعجام الكل عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته وقال ابراهيم بن شيبان علم الفناء والبقاء يدور على اخلاص الوحدانيه وصحة العبوديه وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة (وسئل) الخراز ماعلامة الفانى قال علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة الا من الله تعالى (وقال ابوسعيد الخراز أهل الفناء فى الفناء صحتهم ان يصحبهم على

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة

﴿ الباب الاول فى ذكر الموت والترغيب فيه ﴾

عليه وسلم (١) من كره لقاء الله كره الله لقاءه فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذى يتاخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقائه وعلامة هذا ان يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه والا التحق بالمنهمك فى الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لانه موعد للقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا فى غالب الامر يستبطىء مجىء الموت و يحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين و ينتقل الى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة انه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم اللهم ان كنت تعلم ان الفقر احب الى من الغنى والسقم احب الى من الصحة والموت احب الى من العيش فسهل على الموت حتى القاك فاذا التائب معذور فى كراهة الموت وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره الى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون احب الاشياء اليه احبها الى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل فان المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا اذ ينغص عليه نعيمه و يكدر عليه صفو لذته وكل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من اسباب النجاة

(بيان فضل ذكر الموت كيفما كان)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) اكثروا من ذكر هاذم اللذات معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما اكلتم منها سمينا (٤) وقالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله هل يحشر مع الشهداء احد قال نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة وانما سبب هذه الفضيلة كلها ان ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور و يتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو الى الانهماك فى شهوات الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٥) تحفة المؤمن الموت وانما قال هذا لان الدنيا سجن المؤمن اذ لا يزال فيها فى عناء من معاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه فالموت اطلاق له من هذا العذاب والاطلاق تحفة فى حقه وقال صلى الله عليه وسلم (٦) الموت كفارة لكل مسلم واراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذى يسلم المسلمون من لسانه و يده و يتحقق فيه اخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصى الا باللمم والصغائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر واقامته الفرائض قال (٧) عطاء الخراسانى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت وقال (٨) انس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب و يزهد فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم (٩) كفى بالموت

(١) حديث من كره لقاء الله كره الله لقاءه متفق عليه من حديث ابى هريرة (٢) حديث اكثروا من ذكرها ذم اللذات الترمذى وقال حسن والنسائى وابن ماجه من حديث ابى هريرة وقد تقدم (٣) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما اكلتم منها سمينا البيهقى فى الشعب من حديث ام حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء احد قال نعم من ذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن ابى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلا بسند حسن (٦) حديث الموت كفارة لكل مسلم ابو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب والخطيب فى التاريخ من حديث انس قال ابن العربى فى سراج المريدين انه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزى وقد جمعت طرقه فى جزء (٧) حديث عطاء الخراسانى مر النبى صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجالسكم بذكر مكدر اللذات الحديث ابن ابى الدنيا فى الموت هكذا مرسلا ورويناه فى امالى الخلال من حديث انس ولا يصح (٨) حديث انس اكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب و يزهد فى الدنيا ابن ابى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف جدا (٩) حديث كفى بالموت مفرقا الحرث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث

البقاء واهل البقاء فى البقاء صحتهم ان يصحبهم علم الفناء * واعلم ان اقاويل الشيوخ فى الفناء والبقاء كثيرة فبعضها اشارة الى فناء المخالفات و بقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة و بعضها يشير الى زوال الرغبة والحرص والامل وهذا يقتضيه الزهد و بعضها اشارة الى فناء الاوصاف المذمومة و بقاء الاوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس و بعضها اشارة الى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من امر الحق سبحانه وتعالى على العبد

مفرقا وقال عليه السلام (١) كفى بالموت واعظا (٢) وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون و يضحكون فقال اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لوتعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (٣) وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال كيف ذكر صاحبكم الموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك وقال (٤) ابن عمر رضى الله عنهما اتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الانصار من اكيس الناس واكرم الناس يارسول الله فقال أكثرهم ذكرا للموت واشدهم استعدادا له اولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة

﴿واما الآثار﴾ فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا وقال الربيع بن خثيم ماغائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بى احدا وسلونى الى ربى سلا وكتب بعض الحكماء الى رجل من اخوانه يا اخى احذر الموت فى هذه الدار قبل ان تصير الى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده وكان ابن سيرين اذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والاخرة ثم يبكون حتى كان بين ايديهم جنازة وقال ابراهيم التيمى شيآن قطعاعنى لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدى الله عز وجل وقال كعب من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها وقال مطرف رأيت فيما يرى النائم كان قائلا يقول فى وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فو الله ماتراهم الا والهين وقال اشعث كنا ندخل على الحسن فانما هو النار وامر الاخرة وذكر الموت وقالت صفية رضى الله عنها ان امرأة اشتكت الى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها فقالت اكثرى ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها وكان عيسى عليه السلام اذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما وكان داود عليه السلام اذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت اليه نفسه وقال الحسن مارأيت عاقلا قط الا اصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظنى فقال انت أول خليفة تموت قال زدنى قال ليس من ابائك أحد الى آدم الا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا فى داره فكان ينام فى كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير ان هذا الموت قد نغص على اهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة اكثر ذكر الموت فان كنت واسع العيش ضيقه عليك وان كنت ضيق العيش وسعه عليك وقال ابو سليمان الدرانى قلت لام هرون اتحبين الموت قالت لا قلت لم قالت لوعصيت ادميا ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته

﴿بيان الطريق فى تحقيق ذكر الموت فى القلب﴾

اعلم ان الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت فى قلبه فالطريق فيه ان يفرغ العبد قلبه عن كل شىء

انس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن ابى الدنيا فى البر والصلة من رواية ابى عبد الرحمن الحبلى مرسلا (١) حديث كفى بالموت واعظا الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد (٢) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون و يضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن ابى الدنيا فى الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٣) حديث ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت الحديث ابن ابى الدنيا فى الموت من حديث انس بسند ضعيف وابن المبارك فى الزهد قال انا مالك ابن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه (٤) حديث ابن عمر أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الانصار من اكيس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن ابى الدنيا بكماله باسناد جيد

فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد وهو ينقسم الى فناء ظاهر و فناء باطن فاما الفناء الظاهر فهو ان يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الافعال و يسلب عن العبد اختياره وارادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا الا بالحق ثم ياخذ فى المعاملة مع الله تعالى بحسبه حتى سمعت ان بعض من أقيم فى هذا المقام من الفناء كان يبقى اياما لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه و يقيض الله تعالى له من يطعمه و يسقيه كيف شاء واحب ولهذا العمرى فناء لانه فنى عن نفسه وعن الغير نظرا الى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن

الاعن ذكر الموت الذى هو بين يديه كالذى يريد ان يسافر الى مفازة مخطرة أو يركب البحر فانه لا يتفكر الا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك ان يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا و ينكسر قلبه وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله واقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب و يتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم و يتامل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا اولادهم وضيعوا اموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجل رجلا وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتامله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الاسباب وركونه الى القوة والشباب وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وانه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب اسنانه وكيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج اليه الى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه و بين الموت الا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء اما بالجنة او بالنار فعند ذلك ينظر فى نفسه انه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم قال ابو الدرداء رضى الله عنه اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كاحدهم وقال ابن مسعود رضى الله عنه السعيد من وعظ بغيره وقال عمر بن عبد العزيز الا ترون انكم تجهزون كل يوم غاديا او رائحا الى الله عز وجل تضعونه فى صدع من الارض قد توسد التراب وخلف الاحباب وقطع الاسباب فملازمة هذه الافكار وامثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك ان يستعد له و يتجافى عن دار الغرور والا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى فى التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشىء من الدنيا ينبغى ان يتذكر فى الحال انه لابد له من مفارقته نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فاعجبه حسنها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير اليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

﴿ الباب الثانى فى طول الامل وفضيلة قصر الامل وسبب طوله وكيفية معالجته ﴾

﴿ فضيلة قصر الامل ﴾

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر اذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا امسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك يا عبد الله لا تدرى ما اسمك غدا وروى (٢) على كرم الله وجهه انه صلى الله عليه وسلم قال ان اشد ما اخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الامل فاما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق واما طول الامل فانه الحب للدنيا ثم قال الا ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب و يبغض واذا احب عبدا اعطاه الايمان الا ان للدين ابناء وللدنيا ابناء فكونوا من ابناء الدين ولا تكونوا من ابناء الدنيا الا ان الدنيا قد ارتحلت مولية الا ان الآخرة قد ارتحلت مقبلة الا وانكم فى يوم عمل ليس فيه حساب الا وانكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل وقالت (٣) ام المنذر اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية الى الناس فقال أيها الناس اما تستحيون من الله قالوا وما ذاك يارسول الله قال تجمعون مالا تأكلون وتاملون مالا تدركون

﴿ الباب الثانى فى طول الامل ﴾

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر فى آخر حديث كن فى الدنيا كانك غريب (٢) حديث على ان اشد ما اخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الامل الحديث بطوله ابن ابى الدنيا فى كتاب قصر الامل ورواه ايضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف (٣) حديث ام المنذر ايها الناس اما تستحيون من الله تعالى قالوا وماذاك يارسول الله قال تجمعون مالا تأكلون الحديث ابن ابى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم

أن يكاشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب احساسه وقد يتفق غيبة الاحساس لبعض الاشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الاطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى وقلت له هل يكون بقاء المتخيلات فى السر ووجود الوسواس من الشرك الخفى وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفى فقال لى هذا يكون فى مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفى ام لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة

وتبنون مالا تسكنون وقال (١) ابوسعيد الخدري اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الا تعجبون من اسامة المشترى الى شهر ان اسامة لطويل الامل والذى نفسى بيده ماطرفت عيناى الاظننت ان شفرى لايلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت انى واضعه حتى اقبض ولا لقمت لقمة الاظننت انى لا اسيغها حتى اغص بها من الموت ثم قال يابنى آدم ان كنتم تعقلون فعدوا انفسكم من الموتى والذى نفسى بيده ان ماتوعدون لات وما انتم بمعجزين وعن (٢) ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فاقول له يارسول الله ان الماء منك قريب فيقول مايدرينى لعلى لا ابلغه وروى (٣) انه صلى الله عليه وسلم اخذ ثلاثة اعواد فغرز عودا بين يديه والاخر الى جنبه واما الثالث فابعده فقال هل تدرون ماهذا قالوا الله ورسوله اعلم قال هذا الانسان وهذا الاجل وذاك الامل يتعاطاه ابن ادم ويختلجه الاجل دون الامل وقال عليه السلام (٤) مثل ابن آدم والى جنبه تسع وتسعون منية ان اخطاته المنايا وقع فى الهرم قال ابن مسعود هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع اليه والهرم وراء الحتوف والامل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع اليه فايها امر به اخذه فان اخطاته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الامل (٥) قال عبد الله خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا الى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال اتدرون ماهذا قلنا الله ورسوله اعلم قال هذا الانسان للخط الذى فى الوسط وهذا الاجل محيط به وهذه الاعراض للخطوط التى حوله تنهشه ان اخطاه هذا نهشه هذا وذاك الامل يعنى الخط الخارج وقال (٦) انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والامل وفى رواية وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) نجا اول هذه الامة باليقين والزهد ويهلك اخر هذه الامة بالبخل والامل وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الارض فقال عيسى اللهم انزع منه الامل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد اليه الامل فقام فجعل يعمل فساله عيسى عن ذلك فقال بينما انا اعمل اذ قالت لى نفسى الى متى تعمل وأنت شيخ كبير فالقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لى نفسى والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقمت الى مسحاتى وقال (٨) الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم

---

(١) حديث أبى سعيد اشترى ابن زيد من زيد ابن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبى الدنيا فى قصر الامل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف (٢) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالباب فاقول الماء منك قريب فيقول مايدرينى لعلى لا أبلغه ابن المبارك فى الزهد وابن ابى الدنيا فى قصر الامل والبزار بسند ضعيف (٣) حديث انه اخذ ثلاثة اعواد فغرز عودا بين يديه الحديث احمد وابن ابى الدنيا فى قصر الامل واللفظ له والرامهرمزى فى الامثال من رواية ابى المتوكل الناجى عن ابى سعيد الخدرى واسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن ابى الدنيا ايضا من رواية ابى المتوكل مرسلا (٤) حديث مثل ابن آدم والى جنبه تسع وتسعون منية الحديث الترمذى من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن (٥) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا الحديث رواه البخارى (٦) حديث انس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والامل وفى رواية ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر رواه مسلم باللفظ الثانى وابن ابى الدنيا فى قصر الامل باللفظ الاول باسناد صحيح (٧) حديث نجا اول هذه الامة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل ابن ابى الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده (٨) حديث الحسن أكلكم يحب ان يدخل الجنة قالوا نعم يارسول الله قال قصروا من الامل الحديث ابن ابى الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا

فوقعت اسطوانة فى الجامع فانزعج لهدتها اهل السوق فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحس بالاسطوانة ووقوعها فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا ثم قد يتسع وعاؤه حتى لعله يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل مايجرى عليه من قول وفعل ويكون من اقسام الفناء ان يكون فى كل فعل وقول مرجعه الى الله وينتظر الاذن فى كليات اموره ليكون فى الاشياء بالله لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لاذن الحق فى كليات اموره راجع الى الله بباطنه فى جزئياتها فان ومن

يارسول الله قال قصروا من الامل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء [1] وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم إنى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل (الآثار) قال مطرف بن عبدالله لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنئوا بعيش ولا قامت بينهم الاسواق وقال الحسن السهو والامل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولاهما ما مشى المسلمون فى الطرق وقال الثورى بلغنى ان الانسان خلق احمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش وقال ابو سعيد بن عبد الرحمن انما عمرت الدنيا بقلة عقول اهلها وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه ثلاث اعجبتنى حتى اضحكتنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدرى اساخط رب العالمين عليه ام راض وثلاث احزنتنى حتى ابكتنى فراق الاحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدى الله ولا ادرى الى الجنة يؤمر بى او الى النار * وقال بعضهم رأيت زرارة بن ابى اوفى بعد موته فى المنام فقلت اى الاعمال ابلغ عندكم قال التوكل وقصر الأمل وقال الثورى الزهد فى الدنيا قصر الامل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة وسأل المفضل بن فضالة ربه ان يرفع عنه الامل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الامل فرجع الى الطعام والشراب وقيل للحسن يا أباسعيد الا تغسل قميصك فقال الامر اعجل من ذلك وقال الحسن الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم انا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه وقال داود الطائى لو املت ان اعيش شهرا لرأيتنى قد اتيت عظيما وكيف اؤمل ذلك وارى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل والنهار * وحكى انه جاء شقيق البلخى الى استاذ له يقال له ابو هاشم الرمانى وفى طرف كسائه شيء مصرور فقال له استاذه ايش هذا معك فقال لوزات دفعها الى اخ لى وقال احب ان تفطر عليها فقال ياشقيق وانت تحدث نفسك انك تبقى الى الليل لا كلمتك ابدا قال فاغلق فى وجهى الباب ودخل * وقال عمر بن عبدالعزيز فى خطبته ان لكل سفر زادا لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا الى الاخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما اعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الامد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم فانه والله ما بسط امل من لا يدرى لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسى بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا وانما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وانما يفرح من امن اهوال القيامة فاما من لا يداوى كلما الا اصابه جرح من ناحية اخرى فكيف يفرح اعوذ بالله من ان آمركم بما لا انهى عنه نفسى فتخسر صفقتى ويظهر عيبتى وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الارض لتشققت اما تعلمون انه ليس بين الجنة والنار منزلة وانكم صائرون الى احداهما وكتب رجل الى اخ له اما بعد فان الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى اضغاث احلام والسلام وكتب آخر الى اخ له ان الحزن على الدنيا طويل والموت من الانسان قريب وللنقص فى كل يوم منه نصيب وللبلاء فى جسمه دبيب فبادر قبل ان تنادى بالرحيل والسلام وقال الحسن كان ادم عليه السلام قبل ان يخطىء أمله خلف ظهره واجله بين عينيه فلما اصاب الخطيئة حول فجعل امله بين عينيه واجله خلف ظهره * وقال عبد الله بن سميط سمعت ابى يقول ايها المغتر بطول صحته اما رأيت ميتا قط من غير سقم ايها المغتر بطول المهلة اما رأيت ماخوذا قط من غير عدة انك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك ابالصحة تغترون ام بطول العافية تمرحون ام الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترؤن ان ملك الموت اذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك اما علمت ان ساعة الموت

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم انى اعوذ بك من امل يمنع خير الاخرة واعوذ بك من حياة تمنع خير الممات واعوذ بك من امل يمنع خير العمل ابن ابى الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبى صلى الله عليه وسلم وفى اسناده ضعف وجهالة ولا ادرى من حوشب.

ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظر للفعل ولا منتظر الاذن هو باق والباقى فى مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق والفانى محجوب بالحق عن الخلق والفناء الظاهر لارباب القلوب والاحوال والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الاحوال وصار بالله لا بالاحوال وخرج من القلب فصار مع مقلبه لا مع قلبه

(الباب الثانى والستون فى شرح كلمات مشيرة الى بعض الاحوال فى اصطلاح الصوفية)

(أخبرنا) الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى ابن سلمان اجازة قال أنا أبو الفضل

ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت وقال أبو زكريا التيمي بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام اذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرؤه فاتى بوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم انك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت الى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فبكى سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رايت كتابا من محمد بن يوسف الى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فانى احمد الله اليك الذى لا اله الا هو أما بعد فانى احذرك متحولك من دار مهلتك الى دار اقامتك وجزاء أعمالك فتصير فى قرار باطن الارض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك و ينتهرانك فان يكن الله معك فلا باس ولا وحشة ولا فاقة وان يكن غير ذلك فاعاذنى الله واياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الارض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الاسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور و كم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فياليت شعرى ما حالى وحالك يومئذ ففى هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الامل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله وايا كم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فانما نحن به وله والسلام * وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس انكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وان لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فخاب وشقى غدا عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شىء وجنته التى عرضها السموات والارض وانما يكون الامان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بباق وشقوة بسعادة الا ترون انكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون الا ترون انكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع امله فتضعونه فى بطن صدع من الارض غير موسد ولا ممهد قد خلع الاسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب وايم الله انى لاقول مقالتى هذه ولا اعلم عند احدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ولكنها سنن من الله عادلة أمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته وما عاد الى مجلسه حتى مات وقال القعقاع ابن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتانى ما أحببت تاخير شىء عن شىء وقال الثورى رأيت شيخا فى مسجد الكوفة يقول انا فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة انتظر الموت ان ينزل بى ولو أتانى ما أمرته بشىء ولا نهيته عن شىء ولا لى على احد شىء ولا لاحد عندى شىء وقال عبد الله بن ثعلبه تضحك ولعل اكفانك قد خرجت عن عند القصار وقال أبو محمد بن على الزاهد خرجنا فى جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائى فانتبذ فقعد ناحية وهى تدفن فجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال امله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب واعلم يا اخى ان كل شىء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤم واعلم ان اهل الدنيا جميعا من اهل القبور انما يندمون على ما يخلفون و يفرحون بما يقدمون فما ندم عليه اهل القبور اهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون وروى ان معروفا الكرخى رحمه الله تعالى اقام الصلاة قال محمد بن أبى توبة فقال لى تقدم فقلت انى ان صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وانت تحدث نفسك أن تصلى صلاة اخرى نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته ان الدنيا ليست بدار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على اهلها الظعن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فاحسنوا رحمكم الله منها الرحلة باحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد التقوى انما الدنيا كفىء ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم فى الدنيا ينافس وهو قرير العين اذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه

محمد بن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم الاصفهانى قال ثنا محمد بن ابراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشى قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبى الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان من معادن التقوى تعلمك الى ما قد علمت علم ما لم تعلم والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه وانما يزهد الرجل فى علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم فمشايخ الصوفية احكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله مالى وعملوا بما علموا لموضع تقواهم فعلمهم الله تعالى ما لم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الاشارات

فسلبه آثاره ودنياه وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ان الدنيا لا تسر بقدر ما تضر انها تسر قليلا وتحزن طويلا * وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه انه كان يقول فى خطبته أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان اين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب قد تضعضع بهم الدهر فاصبحوا فى ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا

﴿ بيان السبب فى طول الامل وعلاجه ﴾

اعلم ان طول الامل له سببان احدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو انه اذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالامانى الباطلة فيمنى نفسه ابدا بما يوافق مراده وانما يوافق مراده البقاء فى الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من مال واهل ودار واصدقاء ودواب وسائر اسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له فى بعض الاحوال امر الموت والحاجة الى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال الايام بين يديك الى ان تكبر ثم تتوب واذا كبر فيقول الى ان تصير شيخا فاذا صار شيخا قال الى ان تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة او تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له او تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض فى شغل الا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة اشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل الى شغل بل الى أشغال الى ان تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر اهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف والمسوف المسكين لا يدرى ان الذى يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غدا وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن انه يتصور ان يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات فما يفرغ منها الا من اطرحها

فما قضى احد منها لبانته * وما انتهى ارب الا الى أرب

واصل هذه الامانى كلها حب الدنيا والانس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم (١) أحبب من احببت فانك مفارقه واما الجهل فهو ان الانسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين ان مشايخ بلده لو عدوا لكانوا اقل من عشر رجال البلد وانما قلوا لان الموت فى الشباب أكثر فالى ان يموت شيخ يموت الف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجاة ولا يدرى ان ذلك غير بعيد وان كان ذلك بعيدا فالمرض فجاة غير بعيد وكل مرض فانما يقع فجاة واذا مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا الغافل وعلم ان الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الامور وحب الدنيا دعواه الى طول الامل والى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبدا يظن ان الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو ابدا يظن انه يشيع الجنائز ولا يقدر ان تشيع جنازته لان هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فاما موت نفسه فلم يألفه ولا يتصور ان يألفه فانه لم يقع واذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الاول وهو الآخر وسبيله ان يقيس نفسه بغيره ويعلم انه لا بد وان تحمل جنازته ويدفن فى قبره ولعل اللبن الذى يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدرى فتسويفه جهل محض واذا عرفت ان سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه اما الجهل فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة واما حب الدنيا فالعلاج فى اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذى اعيا الاولين والآخرين علاجه ولا علاج له الا الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا

(١) حديث احبب من احببت فانك مفارقه الحديث تقدم غير مرة

واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الاسرار وترسخ قدمهم فى العلم (قال) أبو سعيد الخراز اول الفهم لكلام الله العمل به لان فيه العلم والفهم والاستنباط واول الفهم القاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (وقال أبو بكر) الواسطى الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بارواحهم فى غيب الغيب وفى سر السر فعرفهم ما عرفهم واراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرد من غيرهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون

فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت الى الدنيا كلها وان اعطى ملك الارض من المشرق الى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا الا قدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها أو يترسخ فى القلب حبها مع الايمان بالآخرة فنسأل الله تعالى ان يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب مثل النظر الى من مات من الاقران والاشكال وانهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا أما من كان مستعدا فقد فاز فوزا عظيما وأما من كان مغرورا بطول الامل فقد خسر خسرانا مبينا فلينظر الانسان كل ساعة فى اطرافه واعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة وكيف تتفتت عظامها وليتفكر ان الدود يبدأ بحدقته اليمنى اولا أو اليسرى فما على بدنه شىء الا وهو طعمة الدود وماله من نفسه الا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر واهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فامثال هذه الافكار هى التى تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه الى الاستعداد له

بيان مراتب الناس فى طول الامل وقصره

اعلم ان الناس فى ذلك يتفاوتون فمنهم من يامل البقاء و يشتهى ذلك أبدا قال الله تعالى يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ومنهم من يامل البقاء الى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه وهو الذى يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ماهم ومنهم من يامل الى سنة فلا يشتغل بتدبير ماوراءها فلا يقدر لنفسه وجودا فى عام قابل ولكن هذا يستعد فى الصيف للشتاء وفى الشتاء للصيف فاذا جمع مايكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ومنهم من يامل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر فى الصيف ثياب الشتاء ولا فى الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله الى يوم وليلة فلا يستعد الا لنهاره وأما للغد فلا * قال عيسى عليه السلام لا تهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فستأتى فيه ارزاقكم مع آجالكم وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لم يتجاوز أمله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم ياعبد الله اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا امسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ومنهم من لا يقدر البقاء ايضا ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة و يقول لعلى لا أبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كانه واقع به فهو ينتظره وهذا الانسان هو الذى يصلى صلاة مودع وفيه ورد مانقل عن (٢) معاذ بن جبل رضى الله عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة ايمانه فقال ماخطوت خطوة الا ظننت انى لا أتبعها أخرى وكما نقل عن الاسود وهو حبشى انه كان يصلى ليلا و يلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ماهذا قال انظر ملك الموت من اى جهة يأتينى فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر و يوم بل بينهما تفاوت فى الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ثم يظهر اثر قصر الامل فى المبادرة الى العمل وكل انسان يدعى انه قصير الامل وهو كاذب وانما يظهر ذلك باعماله فانه يعتنى باسباب ربما لا يحتاج اليها فى سنة فيدل ذلك على طول امله وانما علامة التوفيق ان يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة فليستعد للموت الذى يرد عليه فى الوقت فان عاش الى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بانه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله الى الصباح وهكذا اذا أصبح ولا يتيسر هذا الا لمن فرغ القلب عن الغد ومايكون فيه فمثل هذا اذا مات سعد وغنم وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يامسكين فان السير حاث بك وانت

(١) حديث الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ماهم لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال

(٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة ايمانه فقال ماخطوت خطوة الا ظننت انى لا أتبعها أخرى أبو نعيم فى الحلية

محت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة (وقد ورد فى الخبر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سفيان ابن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة انه قال ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله فاذا نطقوا به لا ينكره الا اهل الغرة بالله (اخبرنا) أبو زرعة قال أنا أبو بكر بن خلف قال ثنا ابو عبد الرحمن قال سمعت النصرابادى يقول سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشى يقول هى أسرار الله تعالى يبديها الى أمناء

غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك الا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه

﴿ بيان المبادرة الى العمل وحذر آفة التاخير ﴾

اعلم ان من له أخوان غائبان و ينتظر قدوم أحدهما فى غد وينتظر قدوم الاخر بعد شهر أوسنة فلا يستعد للذى يقدم الى شهر أوسنة وانما يستعد للذى ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ماوراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذى مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا فانه أبدا يرى لنفسه متسعا فى تلك السنة فيؤخر العمل كما قال صلى الله عليه وسلم (١) ماينتظر أحدكم من الدنيا الاغنى مطغيا أوفقرا منسيا أومرضا مفسدا أوهرما مقيدا أوموتا مجهزا أوالدجال فالدجال شر غائب ينتظر أوالساعة والساعة أدهى وأمر وقال (٢) ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال صلى الله عليه وسلم (٣) نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ أى انه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم (٤) من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه (٦) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أنس من أصحابه غفلة أوغرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة اما بشقاوة واما بسعادة وقال (٧) أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد وقال (٨) ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال مابقى من الدنيا الا كما بقى من يومنا هذا فى مثل مامضى منه وقال صلى الله عليه وسلم (٩) مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله الى آخره فبقى متعلقا بخيط فى اخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع وقال (١٠) جابر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كانه منذر جيش يقول صبحتكم ومسيتكم بعثت انا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه (١١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل الصدر انفسح فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة

أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهى من الاسرار التى لم يطلع عليها الا الخواص (وقال) أبوسعيد الخراز للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الابدية ويخبرون عنها بعبارة الازلية وهى من العلم المجهول فقوله بلسان الابدية وعبارة الازلية اشارة الى انهم بالله ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بى ينطق وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (فما تداولته ألسنتهم من الكلمات تفهيما من بعضهم للبعض

من حديث انس وهو ضعيف (١) حديث ماينتظر احدكم من الدنيا الاغناء مطغيا اوفقرا منسيا الحديث الترمذى من حديث ابى هريرة بلفظ هل ينتظرون الا غناء الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن الدنيا فى قصر الامل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن ابى الدنيا فيه باسناد حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد عن رواية عمرو بن ميمون الازدى مرسلا (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخارى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف ادلج ومن ادلج بلغ المنزل الترمذى من حديث ابى هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذى وحسنه من حديث ابى بن كعب (٦) حديث كان اذا أنس من اصحابه غفلة اوغرة نادى فيهم بصوت رفيع اتتكم المنية الحديث ابن الدنيا فى قصر الامل من حديث زيد السليمى (٧) حديث ابى هريرة انا النذير والموت المغير والساعة والموعد ابن ابى الدنيا فى قصر الامل وابو القاسم البغوى باسناد فيه لين (٨) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على اطراف السعف فقال مابقى من الدنيا الا مثل مابقى من يومنا هذا فى مثل مامضى منه ابى الدنيا فيه باسناد حسن وللترمذى نحوه من حديث ابى سعيد وحسنه (٩) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من اوله الى اخره الحديث ابن ابى الدنيا فيه من حديث انس ولا يصح (١٠) حديث جابر كان اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن ابى الدنيا فى قصر الامل واللفظ له (١١) حديث ابن مسعود تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل القلب انفسح الحديث ابن ابى الدنيا فى قصر

الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وقال السدى الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا أى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة مامن صباح ولا مساء الا ومناد ينادى أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى انها لاحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم او يتاخر فى الموت وقال سحيم مولى بنى تميم جلست الى عامر بن عبد الله وهو يصلى فاوجز فى صلاته ثم اقبل على فقال ارحنى بحاجتك فانى ابادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقمت عنه وقام الى صلاته ومر داود الطائى فساله رجل عن حديث فقال دعنى انما ابادر خروج نفسى قال عمر رضى الله عنه التؤدة فى كل شىء خير الا فى اعمال الخير للآخرة وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادرى قبل ان ياتيك الامر ويحك بادرى قبل ان يأتيك الامر حتى كرر ذلك ستين مرة اسمعه ولا يرانى وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة المبادرة فانما هى الانفاس لو حبست انقطعت عنكم اعمالكم التى تتقربون بها الى الله عزوجل رحم الله امرأ انظر الى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الاية انما نعد لهم عدا يعنى الانفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق اهلك آخر العدد دخولك فى قبرك واجتهد ابو موسى الاشعرى قبل موته اجتهادا شديدا فقيل له لو امسكت اورفقت بنفسك بعض الرفق فقال ان الخيل اذا ارسلت فقاربت راس مجراها اخرجت جميع ما عندها والذى بقى من اجلى اقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات وكان يقول لامرأته شدى رحالك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد اظلكم وترحلوا فقد جد بكم وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وان غائبا يحدبه الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الاوبة وان قادما يحل بالفوز او الشقوة لمستحق لافضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان اجله مستور عنه وامله خادع له والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين اليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه اغفل ما يكون عليها وانه ما بين احدكم وبين الجنة أو النار الا الموت أن ينزل به فيالها حسرة على ذى غفلة ان يكون عمره عليه حجة وان ترديه ايامه الى شقوة جعلنا الله واياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة انه سميع الدعاء وانه بيده الخير دائما فعال لما يشاء وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى فتنتم انفسكم قال بالشهوات واللذات وتربصتم قال بالتوبة وارتبتم قال شككتم حتى جاء أمر الله قال الموت وغركم بالله الغرور قال الشيطان وقال الحسن تصبروا وتشددوا فانما هى ايام قلائل وانما انتم ركب وقوف يوشك ان يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم وقال ابن مسعود مامنكم من احد اصبح الا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة (١) وقال ابو عبيدة الباجى دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم واهلا حياكم الله بالسلام واحلنا واياكم دار المقام هذه علانية حسنة ان صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله ان تسمعوه بهذه الاذن وتخرجوه من هذه الاذن فان من راى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر اليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون اتيتم ورب الكعبة كانكم والامر معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فاكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالارض واجتهد فى العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى ياتيه اجله وهو على ذلك وقال عاصم الاحول قال لى فضيل الرقاشى وانا سائله ياهذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فان الامر يخلص اليك دونهم ولا تقل اذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار فى لا شىء فان الامر محفوظ عليك ولم ترشيا قط احسن طلبا ولا اسرع ادراكا من حسنة حديثة لذنب قديم

الامل والحاكم فى المستدرك وقد تقدم (١) حديث ابى عبيدة الباجى دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث ابن ابى الدنيا فى قصر الامل وابن حبان فى الثقات وابو نعيم فى الحلية من هذا الوجه

واشارة منهم الى احوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والتفرقة قيل اصل الجمع والتفرقة قوله تعالى شهد الله انه لا اله الا هو فهذا جمع ثم فرق فقال والملائكة واولوا العلم وقوله تعالى آمنا بالله جمع ثم فرق بقوله وما انزل الينا والجمع اصل والتفرقة فرع فكل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل (وقال الجنيد) القرب بالوجد جمع وغيبته فى البشرية تفرقة وقيل جمعهم فى المعرفة وفرقهم فى الاحوال والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه الا الحق فمتى شاهد غيره فما جمع والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة وعباراتهم

(الباب الثالث فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الاحوال عنده)

اعلم انه لولم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرا بان يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقا بان يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك * وقال لقمان لابنه يابنى أمر لا تدرى متى يلقاك استعدله قبل ان يفجاك والعجب أن الانسان لو كان فى اعظم اللذات واطيب مجالس اللهو فانتظر ان يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزاع وهو عنه غافل فما لهذا سبب الا الجهل والغرور * واعلم ان شدة الالم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة الا من ذاقها ومن لم يذقها فانما يعرفها اما بالقياس الى الآلام التى ادركها واما بالاستدلال باحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه فاما القياس الذى يشهدله فهو ان كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالالم فاذا كان فيه الروح فالمدرك للالم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح او حريق سرى الاثر الى الروح فبقدر مايسرى الى الروح يتالم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الاجزاء فلا يصيب الروح الا بعض الالم فان كان فى الآلام مايباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما اعظم ذلك الالم وما أشده * والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع اجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى اعماق البدن الا وقد حل به الالم فلو اصابته شوكة فالالم الذى يجده انما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى اصابته الشوكة وانما يعظم اثر الاحتراق لان أجزاء النار تغوص فى سائر اجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا او باطنا الا وتصيبه النار فتحسه الاجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر اجزاء اللحم وأما الجراحة فانما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط فكان لذلك الم الجرح دون الم النار فالم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع اجزائه فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الاعصاب وجزء من الاجزاء ومفصل من المفاصل ومن اصل كل شعرة وبشرة من الفرق الى القدم فلا تسال عن كربه وألمه حتى قالوا ان الموت لاشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لان قطع البدن بالسيف انما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف اذا كان المتناول المباشر نفس الروح وانما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه وانما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لان الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستعانة اما العقل فقد غشيه وشوشه واما اللسان فقد ابكمه واما الاطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح والاستعانة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى كانه ظهر منه التراب الذى هو اصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالالم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان الى اعالى اجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى اصله وترتفع الانثيان الى اعالى موضعهما وتخضر انامله فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتالم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من اعضائه تدريجا فتبرد اولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها الى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا واهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) تقبل توبة العبد مالم يغرغر وقال مجاهد فى قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن قال اذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسال عن طعم مرارة

في ذلك كثيرة والمقصود انهم أشاروا بالجمع الى تجريد التوحيد وأشاروا بالتفرقة الى الاكتساب فعلى هذا لا جمع الا بتفرقة ويقولون فلان فى عين الجمع يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه فاذا عاد الى شيء من أعماله عاد الى التفرقة فصحة الجمع بالتفرقة وصحة التفرقة بالجمع فهذا يرجع حاصله الى ان الجمع من العلم بالله والتفرقة من العلم بامر الله ولا بد منهما جميعا (قال) المزين الجمع عين الفناء بالله والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض وقد غلط قوم وادعوا انهم فى عين الجمع واشاروا الى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب

(١) حديث ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

لموت وكرب به عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (١) اللهم هون على محمد سكرات الموت والناس انما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الاشياء قبل وقوعها انما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الانبياء عليهم السلام والاولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة يعني الموت فقد خفت الموت مخافة اوقفني خوفي من الموت على الموت وروى ان نفرا من بني اسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض لو دعوتم الله تعالى ان يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا نسائلونه فدعوا الله تعالى فاذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال ياقوم ما اردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ماسكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا اغبط احدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي انه عليه السلام (٢) كان يقول اللهم انك تاخذ الروح من بين العصب والقصب والانامل اللهم فاعني على الموت وهونه على وعن (٣) الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال قدر ثلثمائة ضربة بالسيف (٤) وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال ان اهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف الا ومعها صوف (٥) ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال اني اعلم مايلقى مامنه عرق الا و يالم للموت على حدته وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال و يقول ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لالف ضربة بالسيف اهون علي من موت على فراش وقال الاوزاعي بلغنا ان الميت يجد الم الموت مالم يبعث من قبره وقال شداد بن اوس الموت افظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو اشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور ولو ان الميت نشر فاخبر اهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم وعن زيد بن أسلم عن ابيه قال اذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنه واذا كان للكافر معروف لم يجز به هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير الى النار وعن بعضهم انه كان يسال كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له فانت كيف تجده فقال كان السموات مطبقة على الارض وكان نفسي يخرج من ثقب ابرة وقال صلى الله عليه وسلم (٦) موت الفجاة راحة للمؤمن واسف على الفاجر وروى عن (٧) مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لو ان شعرة من شعر الميت وضعت على اهل السموات والارض لماتوا باذن الله تعالى لان في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء الا امات و يروى (٨) لو ان قطرة من الم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت وروى ان ابراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له

فترندقوا وانما الجمع حكم الروح والتفرقة حكم القالب ومادام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة (وقال) الواسطي اذا نظرت الى نفسك فرقت واذا نظرت الى ربك جمعت واذا كنت قائما بغيرك فانت فان بلا جمع ولا تفرقة (وقيل) جمعهم بذاته وفرقهم في صفاته وقد يريدون بالجمع والتفرقة انه اذا اثبت لنفسه كسبا ونظر الى اعماله فهو في التفرقة واذا أثبت الاشياء بالحق فهو في الجمع ومجموع الاشارات ينبيء أن المكون يفرق والمكون يجمع فمن افرد المكون جمع ومن نظر الى المكون فرق

---

(١) حديث كان يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت تقدم (٢) حديث كان يقول اللهم انك تاخذ الروح من بين العصب والقصب والانامل الحديث ابن ابي الدنيا في كتاب الموت من حديث صمصمة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي (٣) حديث الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف ابن ابي الدنيا فيه هكذا مرسلا ورجاله ثقات (٤) حديث سئل عن الموت وشدته فقال ان اهون الموت بمنزلة حسكة الحديث ابن ابي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا (٥) حديث دخل على مريض فقال اني لاعلم مايلقى ما منه عرق الا و يالم للموت على حدته ابن ابي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات (٦) حديث موت الفجاة راحة للمؤمن واسف على الفاجر احمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال واخذه اسف ولابي داود من حديث خالد السلمي موت الفجاة أخذة اسف (٧) حديث مكحول لو ان شعرة من شعر الميت وضعت على اهل السموات والارض لماتوا الحديث ابن ابي الدنيا في الموت من رواية ابي ميسرة رفعه وفيه لو ان الم شعرة وزاد وان في يوم القيامة لتسعين هولا ادناها هولا يضاعف على الموت سبعين الف ضعف وابو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسلا حسن الاسناد (٨) حديث لو ان قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت لم اجد له أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فانه قال ويروى

كيف وجدت الموت ياخليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال أما انا قد هونا عليك وروي عن موسى عليه السلام انه لما صارت روحه الى الله تعالى قال له ربه ياموسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير وروى عنه انه قال وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) انه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه و يقول اللهم هون على سكرات الموت (٢) وفاطمة رضي الله عنها تقول وا كرباه لكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على ابيك بعد اليوم وقال عمر رضي الله عنه لكعب الاحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا امير المؤمنين ان الموت كغصن كثير الشوك ادخل في جوف رجل واخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فاخذ ما اخذ وابقى ما ابقى وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقني وافارقك الى يوم القيامة فهذه سكرات الموت على اولياء الله واحبابه فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث (الاولى) شدة النزع كما ذكرناه (الداهية الثانية) مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب اعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته فقد روى عن ابراهيم الخليل عليه السلام انه قال لملك الموت هل تستطيع ان تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر قال لا تطيق ذلك قال بلى قال فاعرض عني فاعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح اسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فغشي على ابراهيم عليه السلام ثم افاق وقد عاد ملك الموت الى صورته الاولى فقال ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت الا صورة وجهك لكان حسبه وروى (٤) ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان اذا خرج أغلق الابواب فاغلق ذات يوم وخرج فاشرفت امرأته فاذا هي برجل في الدار فقالت من ادخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من انت فقال انا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني الحجاب فقال فانت والله اذا ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه وروى ان عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال تكلمي باذن الله فقالت ياروح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي اذ بدا الى ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ثم خرجت نفسي اليه فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة و ياليت ما كان من ذلك الانس كان وحشة فهذه داهية يلقاها العصاة و يكفاها المطيعون فقد حكى الانبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال وأما المطيع فانه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن ابراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل في جوف البيت فقال من أدخلك داري فقال أدخلنيها ربها فقال أنا ربها فقال أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن قال نعم فاعرض عني فاعرض ثم التفت فاذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال ياملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت الا صورتك كان حسبه

(١) حديث أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه و يقول اللهم هون على سكرات الموت متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث ان فاطمة قالت وا كرباه لكربك يا أبت الحديث البخاري من حديث أنس بلفظ وا كرب أبتاه وفي رواية لابن خزيمة وا كرباه (٣) حديث ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رويناه في الاربعين لابي هدبة ابراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك (٤) حديث أبي هريرة ان داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد

فالتفرقة عبودية والجمع توحيد فاذا أثبت طاعته نظرا الى كسبه فرق واذا أثبتها بالله جمع واذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ويمكن أن يقال رؤية الافعال تفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع (سئل) بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كلم فكان المكلم والمكلم هو وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا اياه سمع ومعنى هذا ان الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع ولولا تلك القوة ما قدر على السمع

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهيب بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله فان كان مطيعا قالا له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح احضرتناه وان كان فاجرا قالا له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخوص بصر الميت اليهما ولا يرجع الى الدنيا أبدا (الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت باحد البشريين اما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة ومن هذا كان خوف أرباب الالباب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم اين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة او النار وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من احب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذاك بذاك ان المؤمن اذا فرج له عما هو قادم عليه احب لقاء الله واحب الله لقاءه وروى ان حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظر أي ساعة هي فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح الى النار ودخل مروان على ابى هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال ابو هريرة اللهم اشدد ثم بكى ابو هريرة وقال والله ما أبكي حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر احدى البشريين من ربي بجنة ام بنار وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) انه قال ان الله اذا رضي عن عبد قال يا ملك الموت اذهب الى فلان فائتني بروحه لاريحه حسبي من عمله قد بلوته فوجدته حيث احب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان واصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فاذا نظر اليهم ابليس وضع يده على راسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك ياسيدنا فيقول اما ترون ما اعطى هذا العبد من الكرامة اين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان معصوما وقال الحسن لا راحة للمؤمن الا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وامنه وعزه وشرفه وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهي قال نظرة الى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه اليه ثم قال يا اخواناه الساعة والله افارقكم الى النار أو الى الجنة وقال محمد بن واسع عند الموت يا اخواناه عليكم السلام الى النار او يعفو الله وتمنى بعضهم ان يبقى في النزع ابدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب ✽ فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع ولكنا لا نطول بذكره واعادته

﴿ بيان ما يستحب من احوال المحتضر عند الموت ﴾

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدء والسكون ومن لسانه ان يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه

باسناد جيد نحوه وابن ابى الدنيا في كتاب الموت لفظه (١) حديث لن يخرج احدكم من الدنيا حتى يعلم اين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ابن ابى الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم اين مصيره الى الجنة ام الى النار وفي رواية حرام على نفس ان تخرج من الدنيا حتى تعلم من اهل الجنة هي ام من اهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك ان المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وان الكافر اذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته الحديث (٢) حديث من احب لقاء الله احب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه الحديث متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث ان الله اذا رضي على عبده قال يا ملك الموت اذهب الى فلان فائتني بروحه لا ريحه الحديث ابن ابى الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في اول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على انه مرفوع وللنسائي من حديث ابى هريرة باسناد صحيح اذا حضر الميت اتته ملائكة

ثم أنشد القائل متمثلا

و بدا له من بعد ما اندمل الهوى برق تألق موهنا لمعانه

يبدو كحاشية الرداء ودونه صعب الذرى متمنع أركانه

فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق نظرا اليه ورده أشجانه

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به اجفانه

(ومنها) قولهم التجلي والاستتار (قال) الجنيد انما هو تاديب وتهذيب وتذويب فالتاديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للاولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلي راجع الى ظهور صفات النفس

أن يكون حسن الظن بالله تعالى أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) ارقبوا الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه ودمعت عيناه و يبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به واذا غط غطيط المخنوق واحمر لونه وار بدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) لقنوا موتاكم لا اله الا الله وفى رواية (٣) حذيفة فانها تهدم ماقبلها من الخطايا وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) من مات وهو يعلم أن لا اله الا الله دخل الجنة وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان اذا احتضر الميت فلقنوه لا اله الا الله فانه مامن عبد يختم له بها عند موته الا كانت زاده الى الجنة وقال عمر رضى الله عنه احضروا موتاكم وذكروهم فانهم يرون مالا ترون ولقنوهم لا اله الا الله وقال (٥) أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر فى قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا اله الا الله فغفر له بكلمة الاخلاص و ينبغى للملقن أن لا يلح فى التلقين ولكن يتلطف فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك و يؤدى الى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة و يخشى ان يكون ذلك سبب سوء الخاتمة وانما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس فى قلبه شىء غير الله فاذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم فى حقه وان كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا اليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الامر فى خطر المشيئة فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى الا ان يتفضل الله تعالى بالقبول وأما حسن الظن فهو مستحب فى هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الرجاء وقد وردت الاخبار بفضل حسن الظن بالله (٦) دخل واثلة بن الاسقع على مريض فقال أخبرنى كيف ظنك بالله قال أغرقتنى ذنوب لى واشرفت على هلكة ولكنى ارجو رحمة ربى فكبر واثلة وكبر اهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء (٧) ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك قال ارجو الله واخاف ذنوبى فقال النبي صلى الله عليه وسلم مااجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا اعطاه الله الذى يرجو وآمنه من الذى يخاف وقال ثابت البنانى كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له يابنى ان لك يوما فاذكر يومك فلما نزل به امر الله تعالى اكبت عليه امه وجعلت تقول له يابنى قد كنت احذرك مصرعك هذا واقول ان لك يوما فقال ياامه ان لى ربا كثير المعروف وانى لارجو ان لا يعدمنى اليوم بعض معروفه قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه وقال جابر بن وداعة كان شاب به رهق فاحتضر فقالت له امه يابنى توصى بشىء قال نعم خاتمى لا تسلبينيه فان فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمنى فلما دفن رؤى فى المنام فقال اخبروا امى ان الكلمة قد نفعتنى وان الله قد غفر لى * ومرض اعرابى فقيل له انك تموت فقال اين يذهب بى قالوا الى الله قال فما كراهتى ان اذهب الى من لا يرى الخير الا منه وقال ابو المعتمر بن سليمان قال ابى لما حضرته الوفاة يامعتمر حدثنى بالرخص لعلى القى الله

(ومنها) (الاستتار وهو اشارة الى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب (ومنها) التجلى ثم التجلى قد يكون بطريق الافعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم فاما لهم فلانهم به يرجعون الى مصالح النفوس وأما لغيرهم فلانه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقهم فى جمع الجمع و بروزهم لله الواحد القهار (قال بعضهم) علامة تجلى الحق للاسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم فمن عبر

الرحمة بجريرة بيضاء فيقولون أخرجى راضية مرضية عنك الى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان الحديث (١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه وذرفت عيناه الحديث الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول من حديث سلمان ولا يصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لا اله الا الله تقدم (٣) حديث حذيفة فانها تهدم ماقبلها تقدم (٤) حديث من مات وهو يعلم ان لا اله الا الله دخل الجنة تقدم (٥) حديث ابى هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر فى قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن ابى الدنيا فى كتاب المحتضرين وللطبرانى والبيهقى فى الشعب واسناده جيد الا ان فى رواية البيهقى رجلا لم يسم وسمى فى رواية الطبرانى اسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف (٦) حديث دخل واثلة بن الاسقع على مريض فقال اخبرنى كيف ظنك بالله وفيه يقول الله انا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم واحمد والبيهقى فى الشعب به جميعا (٧) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال ارجو الله واخاف ذنوبى الحديث تقدم

عز وجل وأنا احسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

﴿ بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها ﴾

قال أشعث بن أسلم سال ابراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال ياملك الموت ما تصنع اذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بارض والتقى الزحفان كيف تصنع قال ادعو الارواح باذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد دحيت له الارض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بانه خليل الله عز وجل وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالى لا أراك تعدل بين الناس تاخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك باعلم منك انما هي صحف أو كتب تلقى الى فيها أسماء وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك اراد ان يركب الى الارض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فاتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء ابليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر الى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فاخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما قال ان لى اليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن فقهره على لجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فادنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعنى حتى أرجع الى اهلى واقضى حاجتى وأودعهم قال لا والله لا ترى اهلك وثقلك ابدا فقبض روحه فخر كانه خشبة ثم مضى فلقى عبدا مؤمنا في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال ان لى اليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساره وقال انا ملك الموت فقال اهلا ومرحبا بمن طالت غيبته على فوالله ما كان في الارض غائب احب الى ان القاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالى حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على اى حال شئت ان اقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم انى أمرت بذلك قال فدعنى حتى أتوضا واصلى ثم اقبض روحي وانا ساجد فقبض روحه وهو ساجد وقال ابو بكر بن عبد الله المزنى جمع رجل من بنى اسرائيل مالا فلما اشرف على الموت قال لبنيه ارونى اصناف اموالى فاتى بشيء كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر اليه بكى تحسرا عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فوالذي خولك ما انا بخارج من منزلك حتى افرق بين روحك و بدنك قال فالمهلة حتى افرقه قال هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور اجلك فقبض روحه * وروى ان رجلا جمع مالا فاوعى ولم يدع صنفا من المال الا اتخذه وابتنى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسا من غلمانه ثم جمع اهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريره ورفع احدى رجليه على الاخرى وهم ياكلون فلما فرغوا قال يانفس انعمى لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى اقبل اليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب في عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا افزعه وهو على فراشه فوثب اليه الغلمان وقالوا ما شانك فقال ادعو الى مولاكم فقالوا والى مثلك يخرج مولانا قال نعم فاخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم فقرع الباب قرعة اشد من الاولى فوثب اليه الحرس فقال اخبروه انى ملك الموت فلما سمعوه القى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع فقال قولوا له قولا لينا وقولوا هل تاخذ به احدا فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما انت صانع فانى لست بخارج منها حتى اخرج روحك فامر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال انت شغلتني عن عبادة ربى ومنعتنى ان اتخلى لربى فانطق الله المال فقال لم تسبنى وقد كنت تدخل على السلاطين بى ويرد المتقى عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بى وتجلس مجالس الملوك بى وتنفقنى في سبيل الشر فلا امتنع منك ولو انفقتنى في سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فسقط وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الارض مثله ثم عرج الى السماء فقالت الملائكة لمن كنت اشد رحمة ممن قبضت روحه قال امرت بقبض نفس امراة في فلاة من الارض فاتيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغربتها

أوفهم فهو صاحب استدلال لا ناظر اجلال (وقال بعضهم) التجلى رفع حجبة البشرية لا ان يتلون ذات الحق عز وجل والاستتار ان تكون البشرية حائلة بينك و بين شهود الغيب (ومنها التجريد والتفريد) الاشارة منهم في التجريد والتفريد ان العبد يتجرد عن الاغراض فيما يفعله لا ياتى بما ياتى به نظرا الى الاغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا والتفريد ان لا يرى نفسه فيما ياتى به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنفى الاغيار والتفريد بنفى نفسه واستغراقه

ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لا متعهد له بها فقالت الملائكة الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار اذا كان ليلة النصف من شعبان دفع الى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة قال فان العبد ليغرس الغراس و ينكح الازواج و يبنى البنيان وان اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى * وقال الحسن ما من يوم الا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى اجله قبض روحه فاذا قبض روحه أقبل أهله برنة و بكاء فيأخذ ملك الموت بعضادتى الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفنيت له عمرا ولا انتقصت له اجلا وان لى فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم احدا قال الحسن فوالله لو يرون مقامه و يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على انفسهم وقال يزيد الرقاشى بينما جبار من الجبابرة من بنى اسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض أهله اذ نظر الى شخص قد دخل من باب بيته فثاور اليه فزعا مغضبا فقال له من أنت ومن أدخلك على دارى فقال أما الذى أدخلنى الدار فربها وأما أنا فالذى لا يمنع منى الحجاب ولا استاذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فسقط فى يده الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه اليه مستجديا متذللا له فقال له انت اذا ملك الموت قال انا هو قال فهل انت ممهلى حتى أحدث عهدا قال هيهات انقطعت مدتك وانقضت انفاسك ونفدت ساعاتك فليس الى تاخيرك سبيل قال فالى اين تذهب بى قال الى عملك الذى قدمته والى بيتك الذى مهدته قال فانى لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فالى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين اهله فمن بين صارخ و باك قال يزيد الرقاشى لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك اكثر وعن الاعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال لقد رأيته ينظر الى كانه يريدنى قال فماذا تريد قال اريد ان تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى الى اقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد ان أتاه ثانيا رأيتك تديم النظر الى واحد من جلسائى قال نعم كنت اتعجب منه لانى كنت أمرت ان اقبضه باقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك

﴿ الباب الرابع فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ﴾

﴿ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

اعلم ان فى رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة حيا وميتا وفعلا وقولا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين اذ لم يكن احدا كرم على الله منه اذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل اخره لحظة بعد حضور منيته لا بل ارسل اليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض ارواح الانام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر الى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل الى مقعد صدق فى جوار الرحمن فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر انينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه اهلا وعشيرا وهل سامحه اذا كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيهات بل امتثل ما كان به مامورا واتبع ما وجده فى اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو اول من تنشق عنه الارض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب انا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن اسراء الشهوات وقرناء المعاصى والسيآت فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وامام المتقين وحبيب رب العالمين لعلنا نظن اننا مخلدون أو نتوهم انا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيهات هيهات

فى رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه (ومنها الوجد والتواجد والوجود) فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا و يغيره عن هيئته و يتطلع الى الله تعالى وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها الى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج الى فضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت بثبوت الجبال وقد قيل
قد كان يطربنى وجدى فاقعدنى عن رؤية الوجد من فى الوجد

بل نتيقن أنا جميعا على النار واردون ثم لا ينجو منها الا المتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون بل ظلمنا انفسنا ان كنا كذلك لغالب الظن متنظرين فما نحن والله من المتقين وقد قال الله رب العالمين وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فلينظر كل عبد الى نفسه انه الى الظالمين اقرب ام الى المتقين فانظر الى نفسك بعد ان تنظر الى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ماوفقوا له من الخائفين ثم انظر الى سيد المرسلين فانه كان من أمره على يقين اذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد امره عند الانقلاب الى جنة المأوى قال (١) ابن مسعود رضي الله عنه دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق فنظر الينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله انى لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الاجل والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى والى جنة المأوى والى الكاس الاوفى فاقرؤا على انفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمة الله * وروى (٢) انه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته من لامتي بعدي فاوحي الله تعالى الى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته و بشره بانه اسرع الناس خروجا من الارض اذا بعثوا وسيدهم اذا اجتمعوا وأن الجنة محرمة على الامم حتى تدخلها أمته فقال الآن قرت عيني وقالت (٣) عائشة رضي الله عنها أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لاهل احد ودعا لهم وأوصى بالانصار فقال أما بعد يامعشر المهاجرين فانكم تزيدون واصبحت الانصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم وان الانصار عيبتي التي اويت اليها فاكرموا كريمهم يعني محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال ان عبدا خير بين الدنيا و بين ماعند الله فاختار ماعند الله فبكى ابو بكر رضي الله عنه وظن انه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا ابا بكر سدوا هذه الابواب الشوارع في المسجد الا باب أبي بكر فاني لا اعلم امرأ افضل عندي في الصحبة من أبي بكر قالت (٤) عائشة رضي الله عنها فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومي و بين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت فدخل على أخي عبد الرحمن و بيده سواك فجعل ينظر اليه فعرفت انه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فاوما برأسه أي نعم فناولته اياه فادخله في فيه فاشتد عليه فقلت الينه لك فاوما برأسه اي نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده و يقول لا اله الا الله ان للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الاعلى الرفيق الاعلى فقالت اذا والله لا يختارنا

موجود والوجد يطرب من في الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود (ومنها الغلبة) الغلبة وجد متلاحق فالوجد كالبرق يبدو والغلبة كتلاحق البرق وتراتره يغيب عن التميز فالوجد ينطفىء سريعا والغلبة تبقى للاسرار حرزا منيعا (ومنها المسامرة) وهي تفرد الارواح بخفي مناجاتها ولطيف مناغاتها في سر السر بلطيف ادراكها للقلب لتفرد الروح بها فتلتذ بها دون القلب (ومنها السكر والصحو) فالسكر استيلاء سلطان الحال والصحو العود الى ترتيب الافعال وتهذيب الاقوال قال محمد بن

---

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه واسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الاصبهاني لم يسمع هذا من مرة وانما هو عمن اخبره عن مرة قال ولا اعلم احدا رواه عن عبد الله غير مرة قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية بن عون عن ابن مسعود ورويناه في مشيخة القاضي ابي بكر الانصاري من رواية الحسن العرني عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان والحسن العرني انما يرويه عن مرة كما رواه ابن ابي الدنيا والطبراني في الاوسط (٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لامتي بعدي فاوحى الله تعالى الى جبريل ان بشر حبيبي انى لا أخذله في أمته الحديث الطبراني من حديث جابر و بن عباس في حديث طويل فيه من لامتي المصطفاة من بعدي قال ابشر ياحبيب الله فان الله عزوجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الانبياء والامم حتى تدخلها انت وامتك قال الآن طابت نفسي واسناده ضعيف (٣) حديث عائشة امرنا ان نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لاهل احد الحديث الدارمي في مسنده وفيه ابراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة (٤) حديث عائشة قبض في بيتي وفي يومي و بين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه

وروى (١) سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الانصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضى الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فاعلمه بمكانهم واشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فاعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضى الله عنه فاعلمه بمثله فمد يده وقال هافتناولوه فقال ماتقولون قالوا نقول نخشى أن تموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج متوكئا على على والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على اسفل مرقاة من المنبر وثاب الناس اليه فحمد الله وأثنى عليه وقال ايها الناس انه بلغنى انكم تخافون على الموت كانه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع اليكم وتنعى اليكم انفسكم هل خلد نبي قبلى فيمن بعث فاخلد فيكم الا انى لاحق بربى وانكم لاحقون به وانى اوصيكم بالمهاجرين الاولين خيرا واوصى المهاجرين فيما بينهم فان الله عز وجل قال والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا الى اخرها وان الامور تجرى باذن الله فلا يحملنكم استبطاء امر على استعجاله فان الله عز وجل لا يعجل لعجلة احد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا ارحامكم واوصيكم بالانصار خيرا فانهم الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلكم ان تحسنوا اليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم فى الديار ألم يؤثروكم على انفسهم وبهم الخصاصة الا فمن ولى ان يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم الا ولا تستأثروا عليهم الا وانى فرط لكم وانتم لاحقون بى الا وان موعدكم الحوض حوضى اعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء اشد بياضا من اللبن والين من الزبد واحلى من الشهد من شرب منه لم يظمأ ابدا حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك من حرمه فى الموقف غدا حرم الخير كله الا فمن احب ان يرده على غدا فليكفف لسانه ويده الا مما ينبغى فقال العباس يانبي الله اوص بقريش فقال انما اوصى بهذا الامر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا ياايها الناس ان الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فاذا بر الناس برهم ائمتهم واذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وروى (٢) ابن مسعود رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر رضى الله عنه سل ياابابكر فقال يارسول الله دنا الاجل فقال قد دنا الاجل وتدلى فقال ليهنك يانبي الله ماعند الله فليت شعرى عن منقلبنا فقال الى الله والى سدرة المنتهى ثم الى جنة المأوى والفردوس الاعلى والكاس الاوفى والرفيق الاعلى والحظ والعيش المهنا فقال يانبي الله من يلى غسلك قال رجال من اهل بيتى الادنى فالادنى قال ففيم نكفنك فقال فى ثيابى هذه وفى حلة يمانية وفى بياض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا اذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة فان اول من يصلى على الله عز وجل هو الذى يصلى عليكم وملائكته ثم يأذن للملائكة فى الصلاة على فاول من يدخل على من خلق الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة باجمعها صلى الله عليهم اجمعين ثم انتم فادخلوا على افواجا فصلوا على افواجا زمرة زمرة وسلموا

عند الموت الحديث متفق عليه (١) حديث سعيد بن عبد الله عن ابيه قال لما رات الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا اطافوا بالمسجد فدخل العباس فاعلمه بمكانهم واشفاقهم فذكر الحديث فى خروجه متوكئا معصوب الراس يخط برجليه حتى جلس على اسفل مرقاة من المنبر فذكر خطبته بطولها وهو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم اجد له اصلا وابوه عبد الله بن ضرار بن الازور تابعى روى عن ابن مسعود قال ابو حاتم فيه وفى ابيه سعيد ليس بالقوى (٢) حديث ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر سل يا ابابكر فقال يارسول الله دنا الاجل فقال قد دنا الاجل الحديث فى سؤالهم له من يلى غسلك وفيم نكفنك وكيفية الصلاة عليه رواه ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدى باسناد ضعيف الى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل

خفيف السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب وقال الواسطى مقامات الوجد أربعة الذهول ثم الحيرة ثم السكر ثم الصحو كمن سمع بالبحر ثم دنا منه ثم دخل فيه ثم أخذته الامواج فعلى هذا من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ومن عاد كل شئ منه الى مستقره فهو صاح فالسكر لارباب القلوب والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب (ومنها المحو والاثبات) المحو بازالة أوصاف النفوس والاثبات بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس أو المحو محو رسوم الاعمال بنظر الفناء الى نفسه ومامنه والاثبات

تسليما ولا ترذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الامام وأهل بيتى الادنى فالادنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان قال فمن يدخلك القبر قال زمر من أهل بيتى الادنى فالادنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فادوا عنى الى من بعدى وقال (١) عبد الله بن زمعة جاء بلال فى أول شهر ربيع الاول فاذن بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر يصلى بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب الا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يابى الله ذلك والمسلمون قالها ثلاث مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله ان أبا بكر رجل رقيق القلب اذا قام فى مقامك غلبه البكاء فقال انكن صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بى والله لولا أنى ظننت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك مافعلت فيقول عبد الله انى لم ار احدا اولى بذلك منك قالت عائشة رضى الله عنها وماقلت ذاك ولا صرفته عن أبى بكر الا رغبة به عن الدنيا ولما فى الولاية من المخاطرة والهلكة الا من سلم الله وخشيت ايضا ان لا يكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حى ابدا الا ان يشاء الله فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فاذا الامر امر الله والقضاء قضاؤه وعصمه الله من كل ماتخوفت عليه من امر الدنيا والدين * وقالت (٢) عائشة رضى الله عنها فلما كان اليوم الذى مات فيه

ضعيف كما تقدم (١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال فى اول ربيع الامل فاذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروا ابا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم ار بحضرة الباب الا عمر فى رجال ليس فيهم ابو بكر الحديث ابو داود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة ان ابا بكر رجل رقيق الى آخره ولم يقل فى اول ربيع الاول وقال مروا من يصلى بالناس وقال يابى الله ذلك والمؤمنون مرتين وفى رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن ابى قحافة يقول ذلك مغضبا واما فى آخره من قول عائشة ففى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يارسول الله ان ابا بكر رجل رقيق اذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال انكن صواحبات يوسف مروا ابا بكر فليصل بالناس (٢) حديث عائشة لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة فى اول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين واخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عنى هذا الملك يستاذن على الحديث بطوله فى مجىء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجىء جبريل ثم مجىء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبرانى فى الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف فى حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الامر وأوحى الله الى ملك الموت ان اهبط الى حبيبي وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم فى احسن صورة وارفق به فى قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه فى قبضه فقال ياملك الموت اين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته فى سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك فما كان باسرع أن اتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما اعد الله له وفيه ادن ياملك الموت فانته الى ما أمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك الى ان قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل فى ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد المنعم بن ادريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال احمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه ادريس أيضا متروك قاله الدارقطنى ورواه الطبرانى ايضا من حديث الحسين بن على ان جبريل جاءه اولا فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء اسماعيل وان جبريل دخل أولا فساله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر ايضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس فى مجىء ملك الموت اولا واستئذانه وقوله ان ربك يقرئك السلام فقال اين جبريل فقال هو قريب منى الآن ياتى فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث

اثباتها بما أنشا الحق له من الوجود به فهو بالحق لا بنفسه باثبات الحق اياه مستانفا بعد أن محاه عن أوصافه * قال ابن عطاء يمحو أوصافهم ويثبت اسرارهم (ومنها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين) فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستدلال وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال قال فارس علم اليقين لا اضطراب فيه وعين اليقين هو العلم الذى اودعه الله الاسرار والعلم اذا انفرد عن نعت اليقين كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة فى اول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينما نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عنى هذا الملك يستاذن على فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى فجلس وتنحيت فى جانب البيت فناجى الملك طويلا ثم انه دعانى فاعاد رأسه فى حجرى وقال للنسوة ادخلن فقلت ماهذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل ياعائشة هذا ملك الموت جاءنى فقال ان الله عز وجل ارسلني وامرنى ان لا ادخل عليك الا باذن فان لم تاذن لى أرجع وان اذنت لى دخلت وامرنى ان لا اقبضك حتى تامرنى فماذا أمرك فقلت اكفف عنى حتى ياتينى جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل فقالت عائشة رضى الله عنها فاستقبلنا بامر لم يكن له عندنا جواب ولا راى فوجمنا وكانما ضربنا بصاخة مانحير اليه شيئا ومايتكلم احد من اهل البيت اعظاما لذلك الامر وهيبة ملات اجوافنا قالت وجاء جبريل فى ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام و يقول كيف تجدك وهو اعلم بالذى تجد منك ولكن اراد ان يزيدك كرامة وشرفا وان يتم كرامتك وشرفك على الخلق وان تكون سنة فى أمتك فقال اجدنى وجعا فقال ابشر فان الله تعالى اراد ان يبلغك ما اعد لك فقال ياجبريل ان ملك الموت استاذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد ان ربك اليك مشتاق الم يعلمك الذى يريد بك لا والله ما استاذن ملك الموت على احد قط ولا يستاذن عليه ابدا الا ان ربك متم شرفك وهو اليك مشتاق قال فلا تبرح اذا حتى يجىء واذن للنساء فقال يافاطمة ادنى فاكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال ادنى منى رأسك فاكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام فكان الذى رأينا منها عجبا فسالنها بعد ذلك فقالت اخبرنى وقال انى ميت اليوم فبكيت ثم قال انى دعوت الله ان يلحقك بى فى اول اهلى وان يجعلك معى فضحكت وادنت ابنيها منه فشمهما وقالت وجاء ملك الموت فسلم واستاذن فاذن له فقال الملك ما تامرنا يا محمد قال الحقنى بربى الآن فقال بل من يومك هذا اما ان ربك اليك مشتاق ولم يتردد عن احد تردده عنك ولم ينهنى عن الدخول على احد الا باذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يارسول الله هذا آخر ما انزل فيه الى الارض ابدا طوى الوحى وطويت الدنيا وما كان لى فى الارض حاجة غيرك ومالى فيها حاجة الا حضورك ثم لزوم موقفى لا والذى بعث محمدا بالحق مافى البيت احد يستطيع ان يحير اليه فى ذلك كلمة ولا يبعث الى احد من رجاله لعظم مايسمع من حديثه ووجدنا واشفاقنا قالت فقمت الى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديى وامسكت بصدره وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا مارأيته من انسان قط فجعلت اسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شىء اطيب منه فكنت اقول له اذا افاق بابى انت وامى ونفسى واهلى ماتلقى جبهتك من الرشح فقال ياعائشة ان نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا وبعثنا الى اهلنا فكان اول رجل جاءنا ولم يشهده اخى بعثه الى ابى فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يجىء احد وانما صدهم الله عنه لانه ولاه جبريل وميكائيل وجعل اذا اغمى عليه قال بل الرفيق الاعلى كان الخيرة تعاد عليه فاذا اطاق الكلام قال الصلاة الصلاة انكم لا تزالون متماسكين ماصليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة قالت (١) عائشة رضى الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين قالت فاطمة رضى الله عنها مالقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الامة تصاب فيه بعظيمة وقالت ام كلثوم يوم اصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها مالقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل على وفيه قتل ابى

علما بشبهة فاذا انضم اليه اليقين كان علما بلا شبهه وحق اليقين هو حقيقة ما أشار اليه علم اليقين وعين اليقين وقال الجنيد حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك وهو ان يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما اخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ابقيت لعيالك قال الله ورسوله وقال بعضهم علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجمع وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق فالاسم والرسم للعوام وعلم اليقين للاولياء وعين اليقين للخواص

---

(١) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر

قاله البخاري وابن حبان

فالقيت من يوم الاثنين وقالت (١) عائشة رضي الله عنها لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجي رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبي فاختلفوا فكذب بعضهم بموته واخرس بعضهم فما تكلم الا بعد البعد وخلط اخرون فلاثوا الكلام بغير بيان و بقي آخرون معهم عقولهم واقعد اخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلي فيمن اقعد وعثمان فيمن اخرس فخرج عمر على الناس وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت وليرجعنه الله عز وجل وليقطعن ايدي وارجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت انما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم وفي رواية انه قال يا ايها الناس كفوا السنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يمت والله لا اسمع احدا يذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات الا علوته بسيفي هذا * واما علي فانه اقعد فلم يبرح في البيت واما عثمان فجعل لا يكلم احدا يؤخذ بيده فيجاء به و يذهب به ولم يكن احد من المسلمين في مثل حال ابي بكر والعباس فان الله عز وجل ايدهما بالتوفيق والسداد وان كان الناس لم يرعووا الا بقول ابي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا اله الا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين اظهركم انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون (٢) و بلغ ابا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم اكب عليه فقبله ثم قال بابي انت وامي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج الى الناس فقال ايها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فانه حي لا يموت قال الله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم الاية فكان الناس لم يسمعوا هذه الاية الا يومئذ وفي رواية (٣) ان ابا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فاكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي و يقول بابي انت وامي ونفسي واهلي طبت حيا وميتا انقطع لموتك مالم ينقطع لموت احد من الانبياء والنبوة فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا ان موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا انك نهيت عن البكاء لانفذنا عليك ماء العيون فاما

---

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجي رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته واخرس بعضهم فما تكلم الا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم واقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته وعلي فيمن اقعد وعثمان فيمن اخرس فخرج عمر على الناس وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت الحديث الى قوله عند ربكم تختصمون لم اجد له اصلا وهو منكر (٢) حديث بلغ ابا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم اكب عليه فقبله و بكى ثم قال بابي انت وامي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث الى اخر قوله وكان الناس لم يسمعوا هذه الاية الا يومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة ان ابا بكر اقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشي بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم اكب عليه فقبله و بكى ثم قال بابي وامي انت والله لا يجمع الله عليك موتتين اما الموتة التي كتبت عليك فقد متها ولهما من حديث ابن عباس ان ابا بكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكان الناس لم يعلموا ان الله انزل هذه الاية حتى تلاها ابو بكر لفظ البخاري فيهما (٣) حديث ان ابا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فاكب عليه فكشف الثوب عن وجهه الحديث الى قوله واحفظه فينا ابن ابي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء ابو بكر

الاولياء وحق اليقين للانبياء عليهم الصلاة والسلام وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

(ومنها الوقت) والمراد بالوقت ماهو غالب على العبد واغلب ماعلى العبد وقته فانه كالسيف يمضي الوقت بحكمه و يقطع وقد يراد بالوقت مايهجم على العبد لا بكسبه فيتصرف فيه فيكون بحكمه يقال فلان بحكم الوقت يعني ماخوذا عما منه بما للحق (ومنها النية والشهود) فالشهود هو الحضور وقتا بنعت المراقبة ووقتا بوصف المشاهدة فمادام العبد موصوفا بالشهود والرعاية فهو حاضر فاذا فقد حال المشاهدة

مالا نستطيع نفيه عنا فكمدوادكار محالفان لا يبرحان اللهم فابلغه عنااذ كرنا يامحمد صلى الله عليك عندربك ولنكن من بالك فلولاماخلفت من السكينة لم يقم احد لما خلفت من الوحشة اللهم ابلغ نبيك عناواحفظه فينا * وعن ابن عمر انه لما دخل ابو بكرالبيت وصلى واثنى عج اهل البيت عجيجاسمعه اهل المصلى كلماذ كر شيا ازدادوا فما سكن عجيجهم الا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال السلام عليكم ياأهل البيت كل نفس ذائقة الموت الآية (١) ان فى الله خلفامن كل احدودركامن كل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا و به فثقوا فاستمعواله وانكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقدصوته فاطلع احدهم فلم يرأ حدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته ياأهل البيت اذ كروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فالله فاطيعوا و بامره فاعملوا فقال ابو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم واستوفى القمقاع بن عمروحكاية خطبة ابى بكر رضى الله عنه فقال قام ابو بكر فى الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة عن النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال اشهد ان لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الاحزاب وحده فلله الحمدوحده واشهد ان محمدا عبده وسوله وخاتم انبيائه واشهد ان الكتاب كما نزل وان الدين كما شرع وان الحديث كما حدث وان القول كما قال وان الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وامينك وخيرتك وصفوتك بافضل ماصليت به على احدمن خلقك اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك و بركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وامام المتقين محمد قائد الخير وامام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الاولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة و بلغه الدرجة والوسيلة فى الجنة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد و بارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم انك حميد مجيد ايها الناس انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لم يمت وان الله قد تقدم اليكم فى امره فلا تدعوه جزعا فان الله عز وجل قداختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ماعندكم وقبضه الى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن اخذ بهماعرف ومن

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه الحديث الى آخره (١) حديث ابن عمر فى سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم ان فى الله خلفامن كل احدودركامن كل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجواو به فثقوا ثم سمعوا آخر بعده ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضامن كل رغبة فالله فاطيعوا وبامره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع لم أجدفيه ذكر اليسع وأماذكر الخضر فى التعزية فانكر النووى وجوده فى كتب الحديث وقال انما ذكره الاصحاب قلت بلى قدرواه الحاكم فى المستدرك فى حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث انس ايضاقال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين فى ازار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بعضادتى باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فالى الله تعالى فانيبوا ونظره اليكم فى البلاء فانظروا فان المصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا يميناوشمالا فلم يروا أحدا فقال ابو بكر لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا ورواه الطبرانى فى الاوسط واسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبى الدنيا ايضا من حديث على بن ابى طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت فسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله و بركاته ان فى الله عوضامن كل مصيبة وخلفامن كل هالك ودركامن كل فائت فبالله فثقواواياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال على تدورن من هذا هوالخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين على بن الحسين و بين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلا من غير

والمرا قبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب وقد يعنون بالغيبة الغيبة عن الاشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا الى مقام الفناء

(ومنها الذوق والشرب والرى) فالذوق ايمان والشرب علم والرى حال فالذوق لارباب البواده والشرب لارباب الطوالع واللوائح واللوامع والرى لارباب الاحوال وذلك أن الاحوال هى التى تستقر فالم يستقر فليس بحال وانماهى لوامع وطوالع وقيل الحال لاتستقر لانها تحول فاذا استقرت تكون مقاما

(ومنها المحاضرة

فرق بينهما أنكر ياايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فليحق بكم و يفتنكم وقال ابن عباس لما فرغ ابو بكر من خطبته قال ياعمر انت الذي بلغني انك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم اماترى ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا كذا وكذا و يوم كذا كذا وكذا وقال تعالى فى كتابه انك ميت وانهم ميتون فقال والله لكانى لم اسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا اشهد ان الكتاب كما انزل وان الحديث كما حدث وان الله حي لا يموت انا لله وانا اليه راجعون وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس الى ابى بكر * وقالت عائشة رضى الله عنها لما اجتمعوا لغسله قالوا والله ما ندرى كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا اونغسله فى ثيابه قالت فارسل الله عليهم النوم حتى ما بقى منهم رجل الا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل لا يدرى من هو غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه حتى اذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه اردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فاقررناه فغسلناه فى قميصه كما نغسل وتانا مستلقيا ما نشاء ان يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه الا قلب لنا حتى نفرغ منه وان معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء و يصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا الادفن معه قال (1) ابو جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ثم وضع عليها فى أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة ففى وفاته عبرة تامة وللمسلمين به اسوة حسنة

﴿ وفاة ابو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ﴾

لما احتضر ابو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما فان الحى الى الجديد احوج من الميت وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ربيع اليتامى عصمة للارامل

فقال ابو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعو لك طبيبا ينظر اليك قال قد نظر الى طبيبى وقال انى فعال لما اريد ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه يعوده فقال ياابابكر اوصنا فقال ان الله فتح عليكم الدنيا فلا تاخذن منها الا بلاغك واعلم ان من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله فلا تخفرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك ولما ثقل ابو بكر رضى الله تعالى عنه واراد الناس منه ان يستخلف فاستخلف عمر رضى الله عنه فقال الناس له استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك فقال اقول استخلفت على خلقك خير خلقك ثم ارسل الى عمر رضى الله عنه فجاء فقال انى موصيك بوصية اعلم ان لله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل وان لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار وانه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق ان يثقل وانما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل ان يخف وان الله

ذكر على كما رواه الشافعى فى الام وليس فيه ذكر الخضر (1) حديث ابى جعفر فرش لحده بمفرشة وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة اما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا واما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها واما كونه ما بنى فى حياته فتقدم ايضا

والمكاشفة والمشاهدة ﴿ فالمحاضرة لارباب التلوين والمشاهدة لارباب التمكين والمكاشفة بينهما الى ان تستقر فالمشاهدة والمحاضرة لاهل العلم والمكاشفة لاهل العين والمشاهدة لاهل الحق اى حق اليقين (ومنها الطوارق والبوادى والباده والواقع والقادح والطوالع واللوامع واللوائح) وهذه كلها الفاظ متقاربة المعنى ويمكن بسط القول فيها ويكون حاصل ذلك راجعا الى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه والمقصود ان هذه الاسماء كلها مبادى الحال ومقدماته واذا صح الحال استوعب هذه الاسماء كلها ومعانيها

ذكر

ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا فيقول القائل انا افضل من هؤلاء وان الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ولا يلقى بيديه الى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق فان حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب احب اليك من الموت ولا بد لك منه وان ضيعت وصيتى فلا يكون غائب ابغض اليك من الموت ولا بد لك منه ولست بمعجزه وقال سعيد بن المسيب لما احتضر ابو بكر رضى الله عنه اتاه ناس من الصحابة فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فانا نراك لما بك فقال ابو بكر من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الافق المبين قالوا وما الافق المبين قال قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وانهار واشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى ذلك المكان اللهم انك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك اليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسعير اللهم انك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل ان تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقنى بمعاصيك اللهم انك علمت ما تكسب كل نفس قبل ان تخلقها فلا محيص لها مما علمت فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك اللهم ان احدا لا يشاء حتى تشاء فاجعل مشيئتك ان اشاء ما يقربنى اليك اللهم انك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شى الا باذنك فاجعل حركاتى فى تقواك اللهم انك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلنى من خير القسمين اللهم انك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما اهلا فاجعلنى من سكان جنتك اللهم انك اردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح صدرى للايمان وزينه فى قلبى اللهم انك دبرت الامور وجعلت مصيرها اليك فاحينى بعد الموت حياة طيبة وقربنى اليك زلفى اللهم من اصبح وامسى ثقته ورجاؤه غيرك فانت ثقتى ورجائى ولا حول ولا قوة الا بالله قال ابو بكر هذا كله فى كتاب الله عز وجل

﴿ وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ﴾

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة اصيب عمر ما بينى و بينه الا عبد الله بن عباس وكان اذا مر بين الصفين قام بينهما فاذا رأى خللا قال استووا حتى اذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف او النحل او نحو ذلك فى الركعة الاولى حتى يجتمع الناس فما هو الا ان كبر فسمعته يقول قتلنى او اكلنى الكلب حين طعنه ابو لؤلؤة وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على احد يمينا او شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة وفى رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج انه مؤخوذ نحر نفسه وتناول عمر رضى الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فاما من كان يلى عمر فقد رأى ما رايت واما نواحى المسجد ما يدرون ما الامر غير انهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلنى قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة فقال عمر رضى الله عنه قاتله الله لقد كنت امرت به معروفا ثم قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم قد كنت انت وابوك تحبان ان يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس اكثرهم رقيقا فقال ابن عباس ان شئت فعلت اى ان شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا الى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل الى بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال فقائل يقول اخاف عليه وقائل يقول لا باس فاتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم اتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فعرفوا انه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال ابشر يا امير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الاسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت ان ذلك كان كفافا لا على ولا لى فلما ادبر الرجل اذا ازاره يمس الارض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن اخى ارفع ثوبك فانه ابقى لثوبك واتقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ما على من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين الفا او نحوه فقال ان وفى به مال آل عمر فاده من اموالهم والا فسل

﴿ ومنها التلوين والتمكين ﴾ فالتلوين لارباب القلوب لانهم تحت حجب القلوب وللقلوب تخلص الى الصفات وللصفات تعدد بتعدد جهاتها فظهر لارباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الاحوال وخرقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم التغير فى الذات اذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا الى مواطن القرب من انصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين فالتلوين حينئذ

فى بنى عدى بن كعب فان لم تف اموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم الى غيرهم وأد عنى هذا المال انطلق الى ام المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل امير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين اميرا وقل يستاذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستاذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى فقال يقرا عليك عمر بن الخطاب السلام و يستاذن ان يدفن مع صاحبيه فقالت كنت اريده لنفسى ولا وثرنه اليوم على نفسى فلما اقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعونى فاسنده رجل اليه فقال ما لديك قال الذى تحب يا امير المؤمنين قد اذنت قال الحمد لله ما كان شىء اهم الى من ذلك فاذا انا قبضت فاحملونى ثم سلم وقل يستاذن عمر فان اذنت لى فادخلونى وان ردتنى ردونى الى مقابر المسلمين وجاءت ام المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رايناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستاذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا اوص يا امير المؤمنين واستخلف فقال ما ارى احق بهذا الامر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شىء كهيئة التعزية له فان اصابت الامارة سعدا فذاك والا فليستعن به ايكم امر فانى لم اعزله من عجز ولا خيانة وقال اوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الاولين ان يعرف لهم فضلهم و يحفظ لهم حرمتهم واوصيه بالانصار خيرا الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم ان يقبل من محسنهم وان يعفو عن مسيئهم واوصيه باهل الامصار خيرا فانهم ردء الاسلام وجباة الاموال وغيظ العدو وان لا ياخذ منهم الا فضلهم عن رضا منهم واوصيه بالاعراب خيرا فانهم اصل العرب ومادة الاسلام وان ياخذ من حواشى اموالهم و يرد على فقرائهم واوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يوفى لهم بعهدهم وان يقاتل لهم من ورائهم ولا يكلفهم الا طاقتهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر وقال يستاذن عمر بن الخطاب فقالت ادخلوه فادخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه الحديث وعن النبى صلى الله عليه وسلم (١) قال قال لى جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر وعن (٢) ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون و يصلون قبل ان يرفع وانا فيهم فلم يرعنى الا رجل قد اخذ بمنكبى فالتفت فاذا هو على بن ابى طالب رضى الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت احدا أحب الى أن ألقى الله بمثل عمله منك وايم الله ان كنت لاظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وابو بكر وعمر وخرجت أنا وابو بكر وعمر ودخلت انا وابو بكر وعمر فانى كنت لارجو ولاظن ان يجعلك الله معهما

﴿وفاة عثمان رضى الله عنه﴾

الحديث فى قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام اتيت اخى عثمان لاسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا اخى رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة وهى خوخة فى البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فادلى الى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى انى لاجد برده بين ثديى و بين كتفى وقال لى ان شئت نصرت عليهم وان شئت افطرت عندنا فاخترت ان افطر عنده فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان فى الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط قالوا سمعناه يقول اللهم اجمع امة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذى نفسى بيده لو دعا الله ان لا يجتمعوا ابدا ما اجتمعوا الى يوم القيامة وعن (٣) ثمامة بن حزن القشيرى قال شهدت الدار حين اشرف عليهم عثمان رضى الله عنه

(١) حديث قال لى جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر ابو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة من حديث ابى بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون و يصلون فذكر قول على ابن ابى طالب كنت كثيرا اسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت انا وابا بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة بن حزن القشيرى شهدت الدار حين اشرف عليهم عثمان الحديث الترمذى وقال حسن والنسائى

يكون فى نفوسهم لانها فى محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين الواقع فى النفوس لايخرج صاحبه عن حال التمكن لان جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الانسانية وثبوت القدم فى التمكين كشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمكين ان لا يكون للعبد تغير فانه بشر وانما المعنى فيه ان ما كوشف من الحقيقة لايتوارى عنه ابدا ولا يتناقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشىء فى حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الاحوال ويكون ثبوته على مستقر

فقال

فقال ائتونى بصاحبيكم اللذين البا كم على قال فجىء بهما كأنما هما جملان أو حماران فاشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال انشدكم بالله والاسلام هل تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بهاماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى رومة يجعل دلوه من دلاء المسلمين بخيرله منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى فانتم اليوم تمنعونى ان اشرب منها ومن ماء البحر قالوا اللهم نعم قال انشدكم الله والاسلام هل تعلمون انى جهزت جيش العسرة من مالى قالوا نعم قال انشدكم الله والاسلام هل تعلمون ان المسجد كان قد ضاق باهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى فانتم اليوم تمنعونى ان اصلى فيها ركعتين قالوا اللهم نعم قال انشدكم الله والاسلام هل تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه ابو بكر وعمر وانا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن ثبير فما عليك الا نبي وصديق وشهيد ان قالوا اللهم نعم قال الله اكبر شهدوا لى ورب الكعبة انى شهيد وروى عن شيخ من ضبة ان عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين اللهم انى استعديك عليهم واستعينك على جميع امورى واسالك الصبر على ما ابتليتنى

(وفاة على كرم الله وجهه)

قال الاصبغ الحنظلى لما كانت الليلة التى اصيب فيها على كرم الله وجهه اتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول

اشدد حيازيمك للموت ❊ فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ❊ اذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت ام كلثوم ابنة على رضي الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل ابى صلاة الغداة وعن شيخ من قريش ان عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن على انه لما ضرب اوصى بنيه ثم لم ينطق الا بلا اله الا الله حتى قبض ولما ثقل الحسن بن على رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا اخى لاى شيء تجزع تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى على بن ابى طالب وهما ابواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما اماك وعلى حمزة وجعفر وهما عماك قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن انهم قاتلوه قام فى أصحابه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الامر ما ترون وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمرت حتى لم يبق منها الا كصبابة الاناء الا حسيس من عيش كالمرعى الوبيل الا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى وانى لا ارى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا جرما

❊ الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين ❊

لما حضرت معاوية بن ابى سفيان الوفاة قال اقعدونى فقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطام الا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان و بكى حتى علا بكاؤه وقال يارب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم اقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولم يثق باحد سواك وروى عن شيخ من قريش انه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأوا فى جلده غضونا فحمد الله واثنى عليه ثم قال اما بعد فهل الدنيا اجمع الا ما جربنا ورأينا اما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا فما لبثتنا الدنيا ان نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة فاصبحت الدنيا وقد وترتنا واخلقتنا واستلأمت الينا اف للدنيا من دار ثم اف لها من دار و يروى ان آخر خطبة خطبها معاوية ان قال ايها الناس ان من زرع قد استحصد وانى

الايمان وتلوينه فى زوائد الاحوال (ومنها النفس) ويقال النفس المنتهى والوقت المبتدى والحال المتوسط فكأنه اشارة منهم الى أن المبتدىء يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور بل تكون المواجيد مقرونة بانفاسه مقيمة لا تتناوب عليه وهذه كلها احوال لاربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع ببركتهم آمين (الباب الثالث والستون فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها)

قدوليتكم ولن يليكم أحد من بعدى الا وهو شر منى كما كان من قبلى خيرامنى و يايزيد اذا وفى اجلى فول غسلى رجلا لبيبا فان اللبيب من الله بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد الى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره واظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى و يايزيد احفظ وصية الله فى الوالدين فاذا ادرجتمونى فى جديدى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وارحم الراحمين وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وأنى لم أل من هذا الامر شيئا * ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر الى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ولم أل من امر الدنيا شيئا فبلغ ذلك أباحازم فقال الحمد لله الذى جعلهم اذا حضرهم الموت يتمنون مانحن فيه واذا حضرنا الموت لم نتمن ماهم فيه وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه كيف تجدك ياامير المؤمنين قال اجدنى كما قال الله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم الآية ومات* وقالت فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت اسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده فجلست فى بيت آخر بينى و بينه باب وهو فى قبة له فسمعته يقول تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ثم هدأ فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له انظر أنائم هو فلما دخل صاح فوثبت فاذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت اعهد ياأمير المؤمنين قال احذركم مثل مصرعى هذا فانه لا بدلكم منه وروى انه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر اليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولا تامن الموت ايضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل احسست بذلك ياامير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال فتعالج ياامير المؤمنين فانى اخاف ان تذهب نفسك قال ربى خير مذهوب اليه والله لو علمت ان شفائى عند شحمة اذنى مارفعت يدى الى أذنى فتناولته اللهم خر لعمر فى لقائك فلم يلبث الا اياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ياامير المؤمنين ابشر فقد احيا الله بك سننا واظهر بك عدلا فبكى ثم قال اليس اوقف فاسال عن امر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى ان لا تقوم بحجتها بين يدى الله الا ان يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مماضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث الا يسيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال اجلسونى فاجلسوه فقال انا الذى امرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ثلاث مرات ولكن لا اله الا الله ثم رفع رأسه فاحد النظر فقيل له فى ذلك فقال انى لأرى خضرة ماهم بانس ولا جن ثم قبض رحمه الله وحكى عن هرون الرشيد انه انتقى أكفانه بيده عند الموت وكان ينظر اليها و يقول ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه وفرش المامون رمادا واضطجع عليه وكان يقول يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان المعتصم يقول عند موته لو علمت ان عمرى هكذا قصير مافعلت وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له لا باس عليك ياامير المؤمنين فقال ليس الا هذا لقد ذهبت الدنيا واقبلت الآخرة وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر الى صناديق لبنيه من ياخذها بما فيها ليته كان بعرا وقال الحجاج عند موته اللهم اغفرلى فان الناس يقولون انك لا تغفر لى فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه و يغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال اقالها قيل نعم قال عسى

﴿ بيان اقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من اهل التصوف رضى الله عنهم اجمعين ﴾

لما حضر معاذا رضى الله عنه الوفاة قال اللهم انى قد كنت اخافك وانا اليوم ارجوك اللهم انك تعلم انى لم أكن احب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الانهار ولا لغرس الاشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ولما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه احد كان كلما افاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام ابو النجيب السهروردى قال انا الشريف ابو طالب الحسين ابن محمد الزينبى قال اخبرتنا كريمة المروزية قالت اخبرنا ابو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى قال انا ابو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى قال حدثنا ابو عبد الله محمد بن اسمعيل بن ابراهيم البخارى قال حدثنا الحميدى قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى بن سعيد الانصارى قال اخبرنى محمد بن ابراهيم التيمى انه سمع علقمة ابن وقاص قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

ماأختنقني خنقك فوعزتك انك تعلم ان قلبي يحبك (١) ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له مايبكيك قال ماابكي جزعا على الدنيا ولكن عهدالينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تكون بلغة احدنا من الدنيا كزاد الراكب فلما مات سلمان نظر في جميع ماترك فاذاقيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناه فقال بل واطرباه غدا نلقى الأحبه محمداً وحز به وقيل فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال لمثل هذا فليعمل العاملون ولما حضرابراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له مايبكيك قال انتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة او بالنار ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له مايبكيك فقال والله ماابكي لذنب اعلم اني اتيته ولكن اخاف اني اتيت شيأ حسبته هينا وهوعند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبدالقيس الوفاة بكى فقيل له مايبكيك قال ماابكي جزعا من الموت ولاحرصا على الدنيا ولكن ابكي على مايفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وابعد سفراه واقلة زاده ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له مايبكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وانت هوذا تموت فقيراغريبا قال اسكت فاني سالت الله تعالى ان يحييني حياة الاغنياء وان يميتني موت الفقراء ثم قال له لقني ولاتعد علي مالم أتكلم بكلام ثان وقال عطاء بن يسار تبدى ابليس لرجل عند الموت فقال له نجوت فقال ما آمنك بعدو بكى بعضهم عند الموت فقيل له مايبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عزوجل انما يتقبل الله من المتقين ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال ان أمرا هذا اوله لجدير ان يتقى آخره وان أمرا هذا آخره لجدير ان يزهد في اوله وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن فختم فقلت له في هذه الحالة ياأبا القاسم فقال ومن اولى بذلك مني وهوذا تطوى صحيفتي وقال رويم حضرت وفاة ابي سعيد الخراز وهو يقول

حنين قلوب العارفين الى الذكر * وتذكارهم وقت المناجاة للسر

اديرت كؤس للمنايا عليهم * فاغفوعن الدنيا كاغفاء ذي الشكر

همومهمو جوالة بمعسكر * به اهل ود الله كالانجم الزهر

فاجسامهم في الارض قتلى بحبه * وارواحهم في الحجب نحو العلا تسري

فما عرسوا الا بقرب حبيبهم * وماعرجوا من مس بؤس ولاضر

وقيل للجنيد ان اباسعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن بعجب ان تطير روحه اشتياقا وقيل لذي النون عندموته ماتشتهي قال ان اعرفه قبل موتي بلحظة وقيل لبعضهم وهوفي النزع قل الله فقال الى متى تقولون الله وانا محترق بالله وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الانسان ان يموت فيه قال فاشاروا اليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى الى ذلك المكان ومدرجليه ومات وكان ابوالعباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت الدار التفتت اليه وقالت قدمت ووقعت ميتة ويحكى عن فاطمة اخت ابي علي الروذباري قالت لما قرب أجل ابي علي الروذباري وكان رأسه في حجري فتح عينيه وقال هذه ابواب السماء قدفتحت وهذه الجنان قد زينت وهذاقائل يقول ياأباعلي قدبلغناك الرتبة القصوى وان لم تردها ثم انشا يقول

وحقك لانظرت الى سواكا * بعين مودة حتى اراكا

اراك معذبي بفتور لحظ * وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد قل لا اله الا الله فقال مانسيته فاذكره وسال جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ماالذي

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكون بلغة احدنا من الدنيا كزاد الراكب احمد والحاكم وصححه وقد تقدم

يقول انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او الى امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجراليه * النية اول العمل وبحسبها يكون العمل وأهم ما للمريد في ابتداء امره في طريق القوم ان يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزيهم ويجالس طائفتهم لله تعالى فان دخوله في طريقهم هجرة حاله ووقته (وقدوود) المهاجر من هجر مانهاه الله عنه وقد قال الله تعالى * ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله

رأيت منه فقال قال على درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بالوف فما على قلبي شغل أعظم منه ثم قال وضئني للصلاة ففعلت فنسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال ماتقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر وكان يشق عليه كانك تحب الحياة فقال القدوم على الله شديد وقيل لصالح بن مسمار الا توصى بابنك وعيالك فقال انى لاستحيي من الله ان اوصى بهم الى غيره ولما احتضر ابو سليمان الداراني اتاه اصحابه فقالوا ابشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير و يعاقبك بالكبير ولما احتضر ابو بكر الواسطى قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها مايبكيك فقالت عليك ابكى فقال ان كنت باكية فابكى على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم اربعين سنة وقال الجنيد دخلت على سرى السقطى اعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك فانشا يقول

كيف اشكوا الى طبيبي مابى * والذى بى أصابنى من طبيبي

فاخذت المروحة لاروحه فقال كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق ثم انشا يقول

القلب محترق والدمع مستبق * والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لاقرار له * مما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب ان يك شيء فيه لى فرج * فامنن على به مادام بى رمق

وحكى ان قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا اله الا الله فانشا يقول

ان بيتا انت ساكنه * غير محتاج الى السرج * وجهك المامول حجتنا
يوم ياتى الناس بالحجج * لااتاح الله لى فرجا * يوم ادعو منك بالفرج

وحكى ان ابا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه ثم اجاب بعد ساعة وقال اعذرنى فانى كنت في وردى ثم ولى وجهه الى القبلة وكبر ومات وقيل للكتانى لما حضرته الوفاة ما كان عملك فقال لولم يقرب اجلى ما اخبرتكم به وقفت على باب قلبي اربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه وحكى عن المعتمر قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فافاق فقال من المتكلم فقلت أنا فقال ان ملك الموت عليه السلام يقول لى انى بكل سخى رفيق ثم طفىء ولما حضرت يوسف بن اسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقا فقال يا ابا محمد هذا اوان القلق والجزع فقال يا ابا عبد الله وكيف لا اقلق ولا اجزع وانى لا اعلم انى صدقت الله في شيء من عملى فقال حذيفة واعجبا لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته انه لا يعلم انه صدق الله في شيء من عمله وعن المغازلى قال دخلت على شيخ لى من اصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول يمكنك ان تعمل ما تريد فارفق بي ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينورى في وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بمافيها فما اعرتها طرفي وقيل لرويم عند الموت قل لا اله الا الله فقال لا احسن غيره ولما حضر الثورى الوفاة قيل له قل لا اله الا الله فقال اليس ثم امر ودخل المزنى على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذى توفى فيه فقال له كيف اصبحت يا ابا عبد الله فقال اصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ولسوء عملى ملاقيا ولكاس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا ادرى اروحى تصير الى الجنة فاهنيها ام الى النار فاعزيها ثم انشا يقول

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي * جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبي فلما قرنته * بعفوك ربى كان عفوك اعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل * تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم يغوى بابليس عابد * فكيف وقد اغوى صفيك آدما

فالمريد ينبغى ان يخرج الى طريق القوم لله تعالى فانه ان وصل الى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وان ادركه الموت قبل الوصول الى نهايات القوم فاجره على الله وكل من كانت بدايته احكم كانت نهايته اتم (اخبرنا) ابو زرعة اجازة عن ابن خلف عن ابى عبد الرحمن عن ابى العباس البغدادى عن جعفر الخلدى قال سمعت الجنيد يقول اكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء فالمريد فى اول سلوك هذا الطريق يحتاج الى احكام النية واحكام النية تنزيهها من دواعى الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة فانى لي أوان الجواب فهذه أقاويلهم وانما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالاضافة الى أحوالهم

﴿الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور﴾

اعلم ان الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لاهل الغفلة فانها لا تزيدهم مشاهدتها الا قساوة لانهم يظنون أنهم أبدا الى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد الى جنازة الا ويقدر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولعله في غد أو بعد غد ويروى عن ابي هريرة انه كان اذا رأى جنازة قال امضوا فانا على الاثر وكان مكحول الدمشقي اذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رائحون موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الاول والآخر لا عقل له وقال اسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر اليه ولما مات اخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تقر عيني حتى اعلم الى ماذا صرت اليه ولا اعلم ما دمت حيا وقال الاعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا نرى الا متقنعا باكيا فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لا ننظر الى جماعة يحضرون جنازة الا واكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون الا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر اقرانه واقاربه الا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم الا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله اذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة الا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والاهوال التي بين ايدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فان احسن احوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ولو عقلوا لبكوا على انفسهم لا على الميت نظر ابراهيم الزيات الى اناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على انفسكم لكان خيرا لكم انه نجا من اهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى ومرارة الموت وقد ذاق وخوف الخاتمة وقد امن وقال ابو عمرو بن العلاء جلست الى جرير وهو يملي على كاتبه شعرا فاطلعت جنازة فامسك وقال شيبتني والله هذه الجنائز وانشأ يقول

تروعنا الجنائز مقبلات * ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب * فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه والاستعداد والمشي امامها على هيئة التواضع كما ذكرنا ادابه وسننه في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وان كان فاسقا واساءة الظن بالنفس وان كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لا تدرى حقيقتها ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلي في قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا ابا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وان قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا ويحكى ان رجلا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته اذ لم يدر بها احد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها الى المصلى فما صلى عليه احد فحملتها الى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد ان يصلي عليها فانتشر الخبر في البلد بان الزاهد نزل ليصلي على فلان فخرج اهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لي في المنام انزل الى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها احد الا امرأة فصل عليه

حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى (وكتب) سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك (وكتب) بعض الصالحين الى أخيه أخلص النية في أعمالك يكفك قليل من العمل ومن لم يهتد الى النية بنفسه يصحب من يعلمه حسن النية قال سهل بن عبد الله التستري أول ما يؤمر به المريد المبتدىء التبري من الحركات المذمومة ثم النقل الى الحركات المحمودة ثم التفرد لامر الله تعالى ثم التوقف في الرشاد ثم الثبات ثم البيان ثم

فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وانه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظرى هل تعرفين منه شيأ من اعمال الخير قالت نعم ثلاثة اشياء كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه و يتوضأ و يصلى الصبح فى جماعة ثم يعود الى الماخور و يشتغل بالفسق والثانى انه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم او يتيمين وكان احسانه اليهم اكثر من احسانه الى أولاده وكان شديد التفقد لهم والثالث انه كان يفيق فى اثناء سكره فى ظلام الليل فيبكى و يقول يارب اى زاوية من زوايا جهنم تريد ان تملأها بهذا الخبيث يعنى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع اشكاله من امره * وعن صلة ابن اشيم وقد دفن أخاله فقال على قبره

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة * والا فانى لا اخالك ناجيا

﴿ بيان حال القبر واقاويلهم عند القبور ﴾

قال(١) الضحاك قال رجل يارسول الله من ازهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من ايامه وعد نفسه من اهل القبور وقيل لعلى كرم الله وجهه ما شانك جاورت المقبرة قال انى اجدهم خير جيران انى اجدهم جيران صدق يكفون الالسنة و يذكرون الاخرة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) ما رأيت منظرا الا والقبر افظع منه وقال(٣) عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس الى قبر وكنت أدنى القوم منه فبكى و بكيت و بكوا فقال ما يبكيكم قلنا بكينا لبكائك قال هذا قبر امى آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فاذن لى فاستأذنته ان استغفر لها فابى على فادركنى ما يدرك الولد من الرقة وكان(٤) عثمان بن عفان رضى الله عنه اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكى اذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان القبر اول منازل الآخرة فان نجا منه صاحبه فما بعده ايسر منه وان لم ينج منه فما بعده اشد وقيل ان عمرو ابن العاص نظر الى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه فقال ذكرت اهل القبور وما حيل بينهم و بينه فاحببت ان اتقرب الى الله بهما وقال مجاهد اول ما يكلم ابن ادم حفرته فتقول انا بيت الدود و بيت الوحدة و بيت الغربة و بيت الظلمة هذا ما اعددت لك فما اعددت لى وقال ابوذر الا اخبركم بيوم فقرى يوم اوضع فى قبرى وكان ابو الدرداء يقعد الى القبور فقيل له فى ذلك فقال اجلس الى قوم يذكرونى معادى و اذا قمت لم يغتابونى وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا و يقول يا اهل القبور مالى اذا دعوتكم لا تجيبونى ثم يقول حيل والله بينهم و بين جوابى وكانى بى اكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة الى طلوع الفجر * وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد ارقت الليلة اتفكر فى القبر وساكنه انك لو رايت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الانس منك به ولرايت بيتا تجول فيه الهوام و يجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح و بلى الاكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشى يقول ايها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته المستانس فى بطن الارض باعماله ليت شعرى باى

(١) حديث الضحاك قال رجل يارسول الله من ازهد الناس قال من لم ينس القبور والبلى الحديث تقدم
(٢) حديث ما رايت منظرا الا والقبر افظع منه تقدم فى الباب الثالث من اداب الصحبة (٣) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس على قبر وكنت ادنى القوم الحديث وفيه هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فاذن لى الحديث وتقدم فى اداب الصحبة ايضا ورواه ابن ابى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب واخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه ايوب بن هانى ضعفه ابن معين وقال ابو حاتم صالح (٤) حديث عثمان كان اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه ان القبر اول منازل الاخرة الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى اداب الصحبة

القرب ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة و يكون الرضا والتسليم مراده والتفويض والتوكل حاله ثم يمن الله تعالى بعد هذه بالمعرفة فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام هذا من كلام سهل جمع فيه ما فى البداية والنهاية ومتى تمسك المريد بالصدق والاخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه واخلاصه شيء مثل متابعة امر الشرع وقطع النظر عن الخلق فكل الافات التى دخلت على اهل البدايات لموضع نظرهم الى الخلق و بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أعمالك استبشرت و باى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله باعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان اذا نظر الى القبور خار كما يخور الثور وقال حاتم الاصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يااماه ليتك كنت بى عقيما ان لابنك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا وقال يحيى ابن معاذ ياابن آدم دعاك ربك الى دار السلام فانظر من اين تجيبه ان اجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة اليه دخلتها وان اجبته من قبرك منعتها وكان الحسن ابن صالح اذا اشرف على المقابر يقول مااحسن ظواهرك انما الدواهى فى بواطنك وكان عطاء السلمى اذا جن عليه الليل خرج الى المقبرة ثم يقول يااهل القبور متم فواموتاه وعاينتم اعمالكم فواعملاه ثم يقول غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول رب ارجعونى لعلى اعمل صالحا فيما تركت يرددها ثم يرد على نفسه يار بيع قد رجعتك فاعمل وقال احمد بن حرب تتعجب الارض من رجل يمهد مضجعه و يسوى فراشه للنوم فتقول ياابن آدم لم لاتذكر طول بلاك ومابينى و بينك شىء وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز الى المقبرة فلما نظر الى القبور بكى ثم أقبل على فقال ياميمون هذه قبور آبائى بنى امية كانهم لم يشاركوا اهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم اماتراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى واصابت الهوام مقيلا فى ابدانهم ثم بكى وقال والله مااعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البنانى دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فاذا بصوت قائل يقول ياثابت لا يغرنك صموت اهلها فكم من نفس مغمومة فيها وروى ان فاطمة بنت الحسين نظرت الى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية * لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل انها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قاموا الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يئسوا فانقلبوا وقال ابو موسى التميمى توفيت امرأة الفرزدق فخرج فى جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن ياابا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة ان لا اله الا الله منذ ستين سنة فلما دفنت اقام الفرزدق على قبرها فقال

اخاف وراء القبر ان لم تعافنى * اشد من القبر التهابا واضيقا
اذا جاءنى يوم القيامة قائد * عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من اولاد آدم من مشى * الى النار مغلول القلادة ازرقا

وقد انشدوا فى اهل القبور

قف بالقبور وقل على ساحاتها * من منكم المغمور فى ظلماتها
ومن المكرم منكم فى قعرها * قد ذاق برد الامن من روعاتها
اما السكون لذى العيون فواحد * لا يستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لاخبروك بالسن * تصف الحقائق بعد من حالاتها
اما المطيع فنازل فى روضة * يفضى الى ماشاء الله من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب * فى حفرة ياوى الى حياتها
وعقارب تسعى اليه فروحه * فى شدة التعذيب من لدغاتها

ومر اداود الطائى على امراة تبكى على قبر وهى تقول

عدمت الحياة ولانلتها * اذا كنت فى القبر قد الحدوكا

أنه قال لا يكمل ايمان المرء حتى يكون الناس عنده كالاباعر ثم يرجع الى نفسه فيراها أصغر صاغر اشارة الى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بعاداتهم (قال) أحمد بن خضرويه من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق فان الله تعالى مع الصادقين وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدق يهدى الى البر ولابد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم الى ان يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وأنفع شىء للمريد معرفة النفس ولا يقوم

فكيف أذوق لطعم الكرى * وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناه ليت شعري باى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخرمغشيا عليه وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فانشات أقول أتيت القبور فناديتها * فاين المعظم والمحتقر

وابن المدل بسلطانه * وابن المزكى اذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها اسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول

تفانوا جميعا فما مخبر * وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الثرى * فتمحو محاسن تلك الصور

فياسائلى عن أناس مضوا * امالك فيما ترى معتبر

﴿ قال فرجعت وانا باك ﴾

﴿ ابيات وجدت مكتوبة على القبور ﴾

﴿ وجد مكتوبا على قبر ﴾

تناجيك اجداث وهن صموت * وسكانها تحت التراب خفوت

ايا جامع الدنيا لغير بلاغه * لمن تجمع الدنيا وانت تموت

﴿ ووجد على قبر آخر مكتوبا ﴾

ايا غانم اما ذراك فواسع * وقبرك معمور الجوانب محكم

وماينفع المقبور عمران قبره * اذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك مررت على المقابر فاذا على قبر مكتوب

يمر اقاربى جنبات قبرى * كأن اقاربى لم يعرفونى

ذووا الميراث يقتسمون مالى * ومايالون ان جحدوا ديونى

وقد اخذوا سهامهم وعاشوا * فيالله اسرع مانسونى

﴿ ووجد على قبر مكتوبا ﴾

ان الحبيب من الاحباب مختلس * لا يمنع الموت بواب ولا حرس

فكيف تفرح بالدنيا ولذتها * يامن يعد عليه اللفظ والنفس

اصبحت ياغافلا فى النقص منغمسا * وانت دهرك فى اللذات منغمس

لا يرحم الموت ذا جهل لغرته * ولا الذى كان منه العلم يقتبس

كم اخرس الموت فى قبر وقفت به * عن الجواب لسانا مابه خرس

قد كان قصرك معمورا له شرف * فقبرك اليوم فى الاجداث مندرس

﴿ ووجد على قبر اخر مكتوبا ﴾

وقفت على الاحبه حين صفت * قبورهم كافراس الرهان

فلما ان بكيت وفاض دمعى * رأت عيناى بينهم مكانى

﴿ ووجد على قبر طبيب مكتوبا ﴾

قد قلت لما قال لى قائل * قد صار لقمان الى رمسه * فاين مايوصف من طبه

وحذقه فى الماء مع جسه * هيهات لايدفع عن غيره * من كان لايدفع عن نفسه

﴿ ووجد على قبر اخر مكتوبا ﴾

ياايها الناس كان لى امل * قصر بى عن بلوغه الاجل * فليتق الله ربه رجل

بواجب حق معرفة النفس من له فى الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات اوعليه من الهوى بقية (قال) زيد بن اسلم خصلتان هما كمال امرك تصبح لاتهم لله بمعصية وتمسى ولاتهم لله بمعصية فاذا احكم الزهد والتقوى انكشفت له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها وخفى شهواتها ودسائسها وتلبيساتها ومن تمسك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى (قال ذو النون) لله تعالى فى ارضه سيف ماوضع على شىء الاقطع وهو الصدق ونقل فى معنى

أمكنه فى حياته العمل * ما أنا وحدى نقلت حيث ترى * كل الى مثله سينتقل

فهذه ابيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذى ينظر الى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم انهم لا يبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم وليتحقق انه لو عرض عليهم يوم من ايام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك أحب اليهم من الدنيا بحذافيرها لانهم عرفوا قدر الاعمار وانكشفت له حقائق الامور فانما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب فانهم انما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وانت قادر على تلك الساعة ولعلك تقدر على امثالها ثم أنت مضيع لها فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الامر من الاختيار اذ لم تاخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين رأيت اخا لى فى الله فيما يرى النائم فقلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لان اقدر على ان اقولها يعنى الحمد لله رب العالمين أحب الى من الدنيا ومافيها ثم قال الم تر حيث كانوا يدفنوننى فان فلانا قد قام فصلى ركعتين لان اكون اقدر على ان اصليهما احب الى من الدنيا ومافيها

(بيان اقاويلهم عند موت الولد)

حق على من مات ولده اوقريب من اقاربه ان ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالو كانا فى سفر فسبقه الولد الى البلد الذى هو مستقره ووطنه فانه لا يعظم عليه تاسفه لعلمه انه لاحق به على القرب وليس بينهما الا تقدم وتاخر وهكذا الموت فان معناه السبق الى الوطن الى ان يلحق المتاخر واذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لان اقدم سقطا احب الى من ان اخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله وانما ذكر السقط تنبيها بالادنى على الاعلى والا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن اسلم توفى ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فقيل له ما كان عدله عندك قال ملء الارض ذهبا قيل له فان لك من الاجر فى الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اواثنان قال اواثنان وليخص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه ارجى دعاء وأقربه الى الاجابة ووقف محمد ابن سليمان على قبر ولده فقال اللهم انى اصبحت ارجوك له واخافك عليه فحقق رجائى وآمن خوفى ووقف ابو سنان على قبر ابنه فقال اللهم انى قد غفرت له ماوجب لى عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فانك اجود واكرم ووقف اعرابى على قبر ابنه فقال اللهم انى قد وهبت له ماقصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك ولما مات ذر بن عمر ابن ذر قام ابوه عمر بن ذر بعد ماوضع فى لحده فقال ياذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم ان هذا ذر متعتنى به ماامتعتنى ووفيته اجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت الزمته طاعتك وطاعتى اللهم وما وعدتنى عليه من الاجر فى مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب لى عذابه ولا تعذبه فابكى الناس ثم قال عند انصرافه ماعلينا بعدك من خصاصة ياذر ومابنا الى انسان مع الله حاجة فلقد مضينا وتركناك ولو اقمنا ما نفعناك ونظر رجل الى امراة بالبصرة فقال مارايت مثل هذه النضارة وماذاك الا من قلة الحزن فقالت ياعبد الله انى لفى حزن مايشركنى فيه احد قال فكيف قالت ان زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الاضحى وكان لى صبيان مليحان يلعبان فقال اكبرهما للآخر اتريد ان اريك كيف ذبح ابى الشاة قال نعم فاخذه وذبحه وما شعرنا به الا متشحطا فى دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجا الى جبل فرهقه ذئب فاكله وخرج ابوه

(١) حديث لان اقدم سقطا احب الى من ان اخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله لم اجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث ابى هريرة لسقط اقدمه بين يدى احب الى من فارس اخلفه خلفى (٢) حديث لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم فى النكاح

الصدق ان عابدا من بنى اسرائيل راودته ملكة عن نفسه فقال اجعلوا الى ماء فى الخلاء اتنظف به ثم صعد على موضع فى القصر فرمى بنفسه فاوحى الله تعالى الى ملك الهواء ان الزم عبدى قال فلزمه ووضعه على الارض وضعا رفيقا فقيل لابليس الا اغويته فقال ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى (وينبغى) للمريد ان تكون له فى كل شىء نية لله تعالى حتى فى اكله وشربه وملبوسه

يطالبه ثم ت عطشا من شدة الحر قالت فافرد فى الدهر كما ترى فامثال هذه المصائب ينبغى ان تتذكر عند موت الاولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فما من مصيبة الا ويتصور ماهو أعظم منها ومايدفعه الله فى كل حال هو الاكبر

﴿ بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به ﴾

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وزيارة قبور الصالحين مستحبة لاجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد روى عن على رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (٢) كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا (٣) وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فى ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ (٤) وفى هذا اليوم قال أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار كما أوردناه من قبل * وقال (٥) ابن أبى مليكة اقبلت عائشة رضى الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من اين أقبلت قالت من قبر أخى عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم امر بها ولا ينبغى أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء فى الخروج الى المقابر فانهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر فلا يفى خير زيارتهن بشرها ولا يخلون فى الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لاجلها نعم لا باس بخروج المرأة فى ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر * وقال (٦) أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك ان يحزنك فان الحزين فى ظل الله * وقال ابن أبى مليكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد الا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه ان فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة فى الايام فتصلى وتبكى عنده وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٨) من زار قبر أبويه أو احدهما فى كل جمعة غفر له وكتب برا وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩) ان الرجل يموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين وقال النبى صلى الله عليه وسلم

فلا يلبس الا لله ولا يأكل الا لله ولا يشرب الا لله ولا ينام الا لله لان هذه كلها ارفاق ادخلها على النفس كانت لله لا تستعصى النفس وتجيب الى ما راد منها من المعاملة لله والاخلاص واذا دخل فى شىء من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه وقد ورد فى الخبر من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه اطيب من المسك الاذفر ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة

(١) حديث نهيه عن زيارة القبور ثم اذنه فى ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم (٢) حديث على كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا رواه احمد وأبو يعلى فى مسنده وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور واللفظ له ولم يقل احمد وابو يعلى غير ان لا تقولوا هجرا وفيه على بن زيد بن جدعان عن ربيعة ابن النابغة قال البخارى لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان فى الثقات (٣) حديث زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فى الف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه احمد ابن عمران الاخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا منه قريبا من الف راكب وفيه انه لم يؤذن له فى الاستغفار لها (٤) حديث وقال فى هذا اليوم اذن لى فى الزيارة دون الاستغفار تقدم فى الحديث قبله من حديث بريدة انه لم يؤذن له فى الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث ابى هريرة استاذنت ربى ان استغفر لامى فلم يأذن لى واستاذنت ان ازور قبرها فاذن لى (٥) حديث ابن أبى مليكة اقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يا ام المؤمنين من أين اقبلت قالت من قبر اخى عبد الرحمن قلت اليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم امر بها ابن أبى الدنيا فى القبور باسناد جيد (٦) حديث أبى ذر زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة الحديث ابن أبى الدنيا فى القبور والحاكم باسناد جيد (٧) حديث ابن أبى مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن ابى الدنيا فيه هكذا مرسلا واسناده حسن (٨) حديث من زار قبر أبويه أو احدهما فى كل جمعة غفر له وكتب برا الطبرانى فى الصغير والاوسط من حديث أبى هريرة وابن ابى الدنيا فى القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبرانى يحيى بن العلاء البجلى متروك (٩) حديث ابن سيرين ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن ابى الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الاسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عقبة بن ابى العيزار عن محمد بن جحادة

(١) من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة وقال كعب الاحبار ما من فجر يطلع الا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون باجنحتهم و يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى اذا انشقت الارض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه * والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى * قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء الى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي و ينصرف * وعن أبي امامة قال رأيت انس بن مالك اتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت انه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ما من رجل يزور قبر اخيه و يجلس عنده الا استانس به ورد عليه حتى يقوم وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين ياتونك و يسلمون عليك اتفقه سلامهم قال نعم وارد عليهم و قال ابو هريرة اذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه واذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصما في منامي بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت قال بلى فقلت اين انت فقال انا والله في روضة من رياض الجنة انا ونفر من اصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها الى ابي بكر ابن عبد الله المزني فنتلاقى اخباركم قلت اجسامكم ام ارواحكم قال هيهات بليت الاجسام وانما تتلاقى الارواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا اياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة و يوم الجمعة كله و يوم السبت الى طلوع الشمس قلت وكيف ذلك دون الايام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو اخرت الى يوم الاثنين قال بلغني ان الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة و يوما قبله و يوما بعده وقال الضحاك من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته قيل وكيف ذلك قال لمكان يوم الجمعة وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف الى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فاذا امسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيآتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فامسيت ذات ليلة فانصرفت الى اهلي ولم آت المقابر فادعو كما كنت ادعو فبينما انا نائم اذا بخلق كثير قد جاؤني فقلت ما انتم وما حاجتكم قالوا نحن اهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا انك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك الى اهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك فما تركتها بعد ذلك وقال بشار بن غالب النجراني رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تاتينا على اطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذلك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الاحياء اذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على اطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم اتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان اليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ما الميت في قبره الا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من ابيه او أخيه او صديق له فاذا لحقته كانت احب اليه من الدنيا وما فيها وان هدايا الاحياء للاموات الدعاء والاستغفار * وقال بعضهم مات اخ لي فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك قال اتاني آت بشهاب

(وقيل) كان أنس يقول طيبوا كفي بمسك فان ثابتا يصافحني و يقبل يدي وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك الى الله بنيتهم قال المريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ولا يسامح نفسه ان تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة الا لله تعالى وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوي عند كل لقمة و يقول بلسانه أيضا آكل هذه اللقمة لله تعالى ولا ينفع القول اذا لم تكن النية في القلب

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن انس و يحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف (١) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي تقدم في اسرار الحج (٢) حديث من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه (٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر اخيه و يجلس عنده الا استانس به ورد عليه حتى يقوم ابن ابي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم اقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الاشبيلي (٤) حديث ما الميت في قبره الا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من ابيه او من اخيه او صديق له الحديث ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

من نار فلولا ان داعيا دعالي لرايت انه سيضر بي به ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال(١) سعيد بن عبد الله الازدي شهدت أبا امامة الباهلي وهو في النزع فقال ياسعيد اذا مت فاصنعوا بي كما امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا مات احدكم فسويتم عليه التراب فليقم احدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة فانه يسمع ولا يجيب ثم ليقل يافلان بن فلانة الثانية فانه يستوي قاعدا ثم ليقل يافلان بن فلانة الثالثة فانه يقول ارشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول اذكر ماخرجت عليه من الدنيا شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وانك رضيت بالله ربا و بالاسلام دينا و بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا و بالقرآن اماما فان منكرا ونكيرا يتاخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا مايقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما فقال رجل يارسول الله فان لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه الى حواء ولاباس بقراءة القرآن على القبور روى عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع احمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له احمد ياهذا ان القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لاحمد يا اباعبد الله ماتقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال اخبرني مبشر بن اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه انه اوصى اذا دفن ان يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال له احمد فارجع الى الرجل فقل له يقرأ * وقال محمد بن احمد المروزي سمعت احمد بن حنبل يقول اذا دخلتم المقابر فاقرؤا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله احد واجعلوا ثواب ذلك لاهل المقابر فانه يصل اليهم وقال ابو قلابة اقبلت من الشام الى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فاذا صاحب القبر يشتكيني يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال انكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا ومافيها ثم قال جزى الله عنا اهل الدنيا خيرا اقرئهم السلام فانه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي ان يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وانما يحصل له الاعتبار بان يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وانه على القرب سيلحق به كما روى عن مطرف بن ابي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان اذا جاء الليل تحزمت ثم قامت الى المحراب واذا جاء النهار خرجت الى القبور فبلغني انها عوتبت في كثرة اتيانها المقابر فقالت ان القلب القاسي اذا جفا لم يلينه الا رسوم البلى واني لآتي القبور فكأني انظر وقد خرجوا من بين اطباقها وكأني انظر الى تلك الوجوه المتعفرة والى تلك الاجسام المتغيرة والى تلك الاجفان الدسمة فيالها من نظرة لو اشربها العباد قلوبهم ماانكل مرارتها للانفس واشد تلفها للابدان بل ينبغي ان يحضر من صورة الميت ماذكره عمر ابن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صوته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يافلان لو رأيتني بعد ثلاث وقد ادخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الاسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ونتا البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت اعجب مماتراه الآن و يستحب الثناء على الميت وان لايذكر الا بالجميل قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) اذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لاتسبوا

لان النيــة عمل القلب وانما اللسان ترجمان فـالم تشتمل عليهـا عزيمة القلب لله لا تكون نيــة (ونادى) رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال هات المدرى اراد الميل ليفرق شعره فقالت له امرأته اجيء بالمدرى والمرآة فسكت ثم قال نعم فقال له من سمعه سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم فقال اني قلت لهـا هات المدرى بنية فلما قالت والمرآة لم يكن لي في المرآة نيــة فتوقفت حتى هيا الله

حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل (١) حديث سعيد بن عبد الله الازدي قال شهدت ابا امامة الباهلي وهو في النزع فقال ياسعيد اذا مت فاصنعوا بي كما امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا مات احدكم فسويتم عليه التراب فليقم احدكم على راس قبره ثم يقول يافلان بن فلانة الحديث في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا باسناد ضعيف (٢) حديث اذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه ابو داود من حديث عائشة باسناد جيد (٣) حديث لاتسبوا الاموات فانهم قد افضوا الى ماقدموا

الاموات فانهم قد افضوا الى ماقدموا وقال صلى الله عليه وسلم (١) لاتذكروا موتاكم الابخير فانهم ان يكونوا من أهل الجنة تأثموا وان يكونوا من اهل النار فحسبهم ماهم فيه وقال (٢) انس بن مالك مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاثنوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا باخرى فاثنوا عليها خيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال ان هذا اثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا اثنيتم عليه شراً فوجبت له النار وانتم شهداء الله فى الارض وقال (٣) ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكته اشهدكم انى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن علمى فى عبدى

﴿ الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر الى نفخة الصور ﴾

﴿ بيان حقيقه الموت ﴾

اعلم ان للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد اخطؤا فيها فظن بعضهم ان الموت هو العدم وانه لاحشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وان موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم انه ينعدم بالموت ولا يتالم بعقاب ولا يتنعم بثواب مادام فى القبر الى ان يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون ان الروح باقية لاتنعدم بالموت وانما المثاب والمعاقب هى الارواح دون الاجساد وان الاجساد لا تبعث ولا تحشر اصلا وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والاخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وان الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة واما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فان الاعضاء آلات للروح تستعملها حتى انها لتبطش باليد وتسمع بالاذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الاشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتالم بنفسه بانواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بانواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالاعضاء فكل ماهو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وماهو لها بواسطة الاعضاء فيتعطل بموت الجسد الى أن تعاد الروح الى الجسد ولا يبعد ان تعاد الروح الى الجسد فى القبر ولا يبعد ان تؤخر الى يوم البعث والله اعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وانما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل اعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه و بشدة تقع فى الاعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الاعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الاعضاء كلها وكل الاعضاء آلات والروح هى المستعملة لها واعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الانسان العلوم وآلام الغموم ولذات الافراح ومهما بطل تصرفها فى الاعضاء لم تبطل منها العلوم والادراكات ولا بطل منها الافراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لايموت اى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن ان يكون آلة له كما ان معنى الزمانة خروج

البخارى من حديث عائشة ايضا (١) حديث لا تذكروا موتاكم الابخير الحديث ابن ابى الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصرا على ماذكر منه هنا بلفظ هلكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٢) حديث انس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاثنوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٣) حديث أبى هريرة ان العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك الحديث احمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن ابى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عزوجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث ابيات من جيرانه الادنين بخير الا قال الله عزوجل قد قبلت شهادة عبادى على ماعلموا وغفرت له ما اعلم

تعالى لى نية فقلت له وكل مبتدىء لا يحكم اساس بدايته بهاجرة الالاف والاصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بدايته وقد قيل من قلة الصدق كثرة الخلطاء وانفع ماله لزوم الصمت وان لا يطرق سمعه كلام الناس فان باطنه يتغير ويتاثر بالأقوال المختلفة وكل من لا يعلم كمال زهده فى الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لا يعرفه ابدا فان عدم معرفته لا يفتح عليه خيرا و بواطن اهل الابتداء

اليد عن ان تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقة فى الاعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهى باقية نعم تغير حاله من جهتين احداهما انه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه اهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين ان تسلب هذه الاشياء من الانسان وبين ان يسلب الانسان من هذه الاشياء فان المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بان ينهب مال الرجل وتارة بان يسبى الرجل عن الملك والمال والالم واحد فى الحالتين وانما معنى الموت سلب الانسان عن أمواله بازعاجه الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له فى الدنيا شىء يأنس به ويستريح اليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه فى مفارقته بل يلتفت قلبه الى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى الى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وان لم يكن يفرح الا بذكر الله ولم يأنس الا به عظم نعيمه وتمت سعادته اذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل اذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة والثانى انه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفا له فى الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا فى النوم والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا واول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع اعماله فلا ينظر الى سيئة الا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران الفراق اعنى فراق ما كان يطمئن اليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لاجل الزاد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد اذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا الا بقدر الضرورة وكان يود ان تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه الى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن اليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره وملكه وحريمه اعتمادا على ان الملك يتساهل فى أمره أو على ان الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله فاخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت الى من يتشفع اليه فى العصاة عليه فانظر الى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن اليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فان الخزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما فهذه اشارة الى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت اذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها وادراك ماهية ذاتها (١) ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من امر ربى فليس لاحد من علماء الدين ان يكشف عن سر الروح وان اطلع عليه وانما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على ان الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام أدراكها آيات وأخبار كثيرة أما الآيات فما ورد فى الشهداء اذ قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين ولما (٢) قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم

كالشمع تقبل كل نقش وربما استضر المبتدى بمجرد النظر الى الناس ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشى فيقف من الاشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد ان يكون نظره الى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره ثم يتقى موضع نظر الناس اليه واحساسهم منه بالرعاية والاحتراز فان علم الناس منه بذلك اضر عليه من فعله ولا يستحقر فضول

---

(١) حديث انه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتكلم فى الروح متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى ويسألونك عن الروح وقد تقدم (٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يافلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا الحديث مسلم من حديث عمر بن الخطاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يافلان يافلان يافلان قد وجدت ماوعدني ربي حقافهل وجدتم ماوعد ربكم حقافقيل يارسول اتناديهم وهم اموات فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده انهم لاسمع لهذا الكلام منكم الا انهم لايقدرون على الجواب فهذا نص فى بقاء روح الشقى و بقاء ادراكها ومعرفتها والاية نص فى ارواح الشهداء ولا يخلو الميت عن سعادة اوشقاوة وقال صلى الله عليه وسلم (١) القبر اماحفرة من حفر النار او روضة من رياض الجنة وهذا نص صريح على ان الموت معناه تغير حال فقط وان ماسيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تاخر وانما يتاخر بعض انواع العذاب والثواب دون اصله وروى (٢) انس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته وقال صلى الله عليه وسلم (٣) اذا مات احدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية ان كان من اهل الجنة فمن الجنة وان كان من اهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث اليه يوم القيامة وليس يخفى مافى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال وعن ابى قيس قال كنا مع علقمة فى جنازة فقال اماهذا فقد قامت قيامته وقال على كرم الله وجهه حرام على نفس ان تخرج من الدنيا حتى تعلم من اهل الجنة هى ام من اهل النار وقال (٤) ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة وقال مسروق ماغبطت احدا ماغبطت مؤمنا فى اللحد قد استراح من نصب الدنيا وامن من عذاب الله وقال يعلى بن الوليد كنت امشى يوما مع ابى الدرداء فقلت له ماتحب لمن تحب قال الموت قلت فان لم يمت قال يقل ماله وولده وانما احب الموت لانه لايحبه الا المؤمن والموت اطلاق المؤمن من السجن وانما احب قلة المال والولد لانه فتنة وسبب للانس بالدنيا والانس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء فكل ماسوى الله وذكره والانس به فلابد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمر وانما مثل المؤمن حين تخرج نفسه اوروحه مثل رجل بات فى سجن فاخرج منه فهو يتفسح فى الارض و يتقلب فيها وهذا الذى ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له انس الا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان فى الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذى كان به انسه من غير عائق ولا دافع وما اجدر ذلك بان يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله لانهم ماقدموا على القتال الا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين الى لقاء الله راضين بالقتل فى طلب مرضاته فان نظر الى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لايلتفت قلبه الى المبيع وان نظر الى الاخرة فقد اشتراها وتشوق اليها فما اعظم فرحه بما اشتراه اذا رآه وما اقل التفاته الى ماباعه اذا فارقه وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق فى بعض الاحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب للموت فكان سببا لادراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا اعظم النعيم اذ معنى النعيم ان ينال الانسان مايريده قال الله تعالى ولهم مايشتهون فكان هذا اجمع عبارة لمعانى لذات الجنة واعظم العذاب ان يمنع الانسان عن مراده كما قال الله تعالى وحيل بينهم و بين مايشتهون فكان هذا اجمع عبارة لعقوبات اهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما انقطع نفسه من غير تاخير وهذا امر انكشف لارباب القلوب بنور اليقين وان اردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع احاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة اخرى فقد روى عن (٥) عائشة رضى الله عنها انها قالت قال رسول الله

الشى فان كل شىء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر الى الفضول ثم يجر الى تضييع الاصول (قال سفيان) انما حرموا الوصول بتضييع الاصول فكل من لا يتمسك بالضرورة فى القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وانحلت شيا بعد شىء (قال سهل ابن عبد الله) من لم يعبد الله اختيارا يعبد

(١) حديث القبر اماحفرة من حفر النار اوروضة من رياض الجنة الترمذى من حديث ابى سعيد وتقدم فى الرجاء والخوف (٢) حديث انس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته ابن ابى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف وقد تقدم (٣) حديث اذا مات احدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث ابى هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانى القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن ابى الدنيا فتان (٥) حديث عائشة الا ابشرك ياجابر الحديث وفيه ان الله احيا اباك فاقعده بين يديه الحديث ابن ابى الدنيا فى الموت باسناد فيه ضعف وللترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر الا ابشرك بما لقى الله به اباك

صلى الله عليه وسلم لجابر الا أبشرك ياجابر وكان قد استشهد ابوه يوم احد فقال بلى بشرك الله بالخير فقال ان الله عزوجل قد احيا اباك واقعده بين يديه وقال تمن على عبدى ماشئت أعطيكه فقال يارب ماعبدتك حق عبادتك تمنى عليك أن تردنى الى الدنيا فأ قاتل مع نبيك فاقتل فيك مرة أخرى قال له انه قد سبق منى انك اليها لا ترجع وقال كعب يوجد رجل فى الجنة يبكى فيقال له لم تبكى وانت فى الجنة قال ابكى لانى لم أقتل فى الله الا قتلة واحدة فكنت اشتهى ان ارد فاقتل فيه قتلات واعلم ان المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ماتكون الدنيا بالاضافة اليه كالسجن والمضيق ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب الى بستان واسع الاكناف لا يبلغ طرفه اقصاه فيه انواع الاشجار والازهار والثمار والطيور فلا يشتهى العود الى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا (١) فقال لرجل مات اصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لاهلها فان كان قد رضى فلا يسره ان يرجع الى الدنيا كما لا يسر احدكم ان يرجع الى بطن امه فعرفك بها ان نسبة سعة الآخرة الى الدنيا كنسبة سعة الدنيا الى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم (٢) ان مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن امه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ووضع لم يحب ان يرجع الى مكانه وكذلك المؤمن يجزع من الموت فاذا افضى الى ربه لم يحب ان يرجع الى الدنيا كما لا يحب الجنين ان يرجع الى بطن امه (٣) وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا قد مات فقال مستريح اومستراح منه اشار بالمستريح الى المؤمن وبالمستراح منه الى الفاجر اذ يستريح اهل الدنيا منه وقال ابو عمر صاحب السقيا مررنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر الى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلا فواراها ثم قال ان هذه الابدان ليس يضرها هذا الثرى شيأ وانما الارواح التى تعاقب وتثاب الى يوم القيامة وعن عمرو بن دينار قال مامن ميت يموت الا وهو يعلم ما يكون فى اهله بعده وانهم ليغسلونه ويكفنونه وانه لينظر اليهم وقال مالك بن انس بلغنى ان ارواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت وقال (٤) النعمان بن بشير سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول الا انه لم يبق من الدنيا الا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى اخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم وقال (٥) أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تفضحوا موتاكم بسيئات اعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ولذلك قال أبو الدرداء اللهم انى أعوذ بك ان اعمل عملا اخزى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص

قال بلى يارسول الله الحديث وفيه فقال ياعبدى تمن على اعطك قال يارب تحيينى فاقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه انه سبق منى انهم لا يرجعون (١) حديث قال لرجل مات اصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لاهلها فان كان قد رضى فلا يسره ان يرجع الى الدنيا كما لا يسر احدكم ان يرجع الى بطن امه ابن ابى الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات (٢) حديث ان مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن امه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ووضع لم يحب ان يرجع الى مكانه ابن ابى الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفى عن سليم ابن عامر الجنائزى مرسلا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا قد مات فقال مستريح اومستراح منه متفق عليه من حديث ابى قتادة بلفظ مر عليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن ابى الدنيا فى الموت باللفظ الذى اورده المصنف (٤) حديث النعمان بن بشير الا انه لم يبق من الدنيا الا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى اخوانكم من اهل القبور فان اعمالكم تعرض عليهم ابن ابى الدنيا وابو بكر بن لال من رواية مالك ادى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكماله الازدى فى الضعفاء وقال لا يصح اسناده وذكره ابن ابى حاتم فى الجرح والتعديل بكماله فى ترجمة ابى اسمعيل السكونى رواية عن مالك بن ادى ونقل عن ابيه ان كلا منهما مجهول قال الازدى لا يصح اسناده وذكر ابن حبان فى الثقات مالك بن ادى (٥) حديث ابى هريرة لا تفضحوا موتاكم بسيئات اعمالكم فانها تعرض على اوليائكم من اهل القبور ابن ابى الدنيا والمحاملى باسناد ضعيف ولاحمد من رواية من سمع انسا عن انس ان اعمالكم تعرض على اقاربكم وعشائركم من الاموات الحديث

خلق اضعافا وينفتح على العبد ابواب الرخص والاتساع ويهلك مع الهالكين ولا ينبغى للمبتدئ أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا فان معرفتهم سم قاتل وقد ورد الدنيا مبغوضة الله فمن تمسك بحبل منها قادته الى النار وما حبل من حبالها الا كابنائها والطالبين لها والمحبين فمن عرفهم انجذب اليها شاء أو أبى ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام

عن

عن أرواح المؤمنين اذا ماتوا اين هي قال في حواصل طير بيض في ظل العرش وارواح الكافرين في الارض السابعة وقال (١) أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره وقال صالح لمرى بلغنى ان الارواح تتلاقى عند الموت فتقول ارواح الموتى للروح التى تخرج اليهم كيف كان مأواك وفي اى الجسدين كنت في طيب او خبيث وقال عبيد بن عمير اهل القبور يترقبون الاخبار فاذا اتاهم الميت قالوا ما فعل فلان فيقول الم ياتكم او ما قدم عليكم فيقولون انا لله وانا اليه راجعون سلك به غير سبيلنا وعن جعفر بن سعيد قال اذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب وقال مجاهد ان الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره وروى (٢) ابو ايوب الانصارى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها اهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون انظروا اخاكم حتى يستريح فانه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فاذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبلي قالوا انا لله وانا اليه راجعون ذهب به الى امه الهاوية

﴿بيان كلام القبر للميت﴾

وكلام الموتى اما بلسان المقال او بلسان الحال التى هى افصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الاحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بى الم تعلم انى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بى اذ كنت تمر بى فذاذا فان كان مصلحا اجاب عنه مجيب القبر فيقول ارأيت ان كان يامر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر انى اذا اتحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه الى الله تعالى والفذاذ هو الذى يقدم رجلا ويؤخر اخرى هكذا فسره الراوى وقال عبيد بن عمير الليثى ليس من ميت يموت الا نادته حفرته التى يدفن فيها انا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وان كنت عاصيا فانا اليوم عليك نقمة انا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا وقال محمد بن صبيح بلغنا ان الرجل اذا وضع في قبره فعذب او اصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى ايها المتخلف في الدنيا بعد اخوانه وجيرانه اما كان لك فينا معتبر اما كان لك في متقدمنا اياك فكرة اما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وانت في المهلة فهلا استدركت ما فات اخوانك وتناديه بقاع الارض ايها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من اهلك في بطن الارض ممن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله الى القبور وانت تراه محمولا تهاداه أحبته الى المنزل الذى لا بد له منه وقال يزيد الرقاشى بلغنى ان الميت اذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم انطقها الله فقالت ايها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الاخلاء والاهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا وقال كعب اذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته اعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة اليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد اطال بى القيام لله عليهما فياتونه من قبل رأسه فيقول الصيام لا سبيل لكم عليه فقد اطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فياتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد اليكم عنه فقد انصب نفسه واتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فياتونه من قبل يديه فتقول

النهار فانه يدخل عليه منهم أشر مما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا وربما يشيرون الى ان الاعمال شغل المتعبدين وان ارباب الاحوال ارتقوا عن ذلك و ينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان فحسب ولا ينبغي ان يدخل هذا الكلام سمعه رأسا فانا اختبرنا ومارسنا الامور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ورأينا ان الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون

(١) حديث ابى سعيد الخدرى ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره رواه احمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية او ابن معاوية نسبه عبد الملك بن حسن (٢) حديث ابى ايوب ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها اهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا اخاكم حتى يستريح ابن ابى الدنيا في كتاب الموت والطبرانى في مسند الشاميين باسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابى ايوب باسناد جيد ورفعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائى وابن حبان بنحوه من حديث أبى هريرة باسناد جيد (٣) حديث يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك ابن ادم ما غرك بى الم تعلم انى بيت الفتنة الحديث ابن ابى الدنيا في كتاب القبور والطبرانى في مسند الشاميين وابو احمد الحاكم في الكنى من حديث ابى الحجاج الثمالى باسناد ضعيف

الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيا طبت حيا وطبت ميتا قال وتاتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة و يفسح له في قبره مد بصره و يؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره الى يوم يبعثه الله من قبره وقال (١) عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء الا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي فماذا أعددت لي

﴿بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير﴾

قال (٢) البراء بن عازب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم اني اعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال ان المؤمن اذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كان وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فاذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب الا يحب ان يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فاروه مااعددت له من الكرامة فاني وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم الآية وانه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم قال فينتهرانه انتهارا شديدا وهي آخر فتنة تعرض على الميت فاذا قال ذلك نادى مناد ان قد صدقت وهي معنى قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت الآية ثم ياتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول ابشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من انت فيقول انا عملك الصالح والله ماعلمت ان كنت لسريعا الى طاعة الله بطيأ عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادي مناد ان افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيفرش له من فرش الجنة و يفتح له باب الى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى ارجع إلى اهلي ومالي قال وأما الكافر فانه اذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت اليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فاذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك في السماء وغلقت ابواب السماء فليس منها باب الا يكره ان يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه نبذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فاروه ماأعددت له من الشر اني وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم الآية وانه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال له ياهذا من ربك ومن نبيك ومادينك فيقول لا ادري فيقال لا دريت ثم ياتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول ابشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من انت فيقول انا عملك الخبيث والله ان كنت لسريعا في معصية الله بطيأ عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وانت فجزاك الله شرا ثم يقيض له اصم اعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على ان يقلوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الارضين ليس الثقلين قال ثم ينادي مناد ان افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا الى النار فيفرش له لوحان من نار و يفتح له باب الى النار وقال محمد بن علي مامن ميت يموت الا مثل له

الزيادات والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء في احوالهم فعلى العبد المتمسك بكل فريضة وفضيلة فبذلك يثبت قدمه في بدايته ويراعي يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصا لا يمزجه بشيء من أحوال نفسه ومآربها ويبكر الى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة وان اغتسل قريبا من وقت الصلاة اذا امكنه ذلك فحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ولو

---

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه الا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد الا انه قال بلغني ولم يرفعه (٢) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم اني اعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا

عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص الى حسناته و يطرق عن سيئاته وقال (١) أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن اذا احتضر اتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين و يقال ايتها النفس المطمئنة اخرجي راضية ومرضيا عنك الى روح الله وكرامته فاذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة و بعث بها الى عليين وان الكافر اذا احتضر اتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا و يقال ايتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطا عليك الى هوان الله وعذابه فاذا اخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وان لها نشيشا و يطوى عليها المسح و يذهب بها الى سجين وعن محمد بن كعب القرظي انه كان يقرأ قوله تعالى حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت قال اى شىء تريد فى اى شىء ترغب اتريد ان ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشق الانهار قال لا لعلي اعمل صالحا فيما تركت قال فيقول الجبار كلا انها كلمة هو قائلها اى ليقولنها عند الموت وقال (٢) ابو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن فى قبره فى روضة خضراء و يرحب له فى قبره سبعون ذراعا و يضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا انزلت فان له معيشة ضنكا قالوا الله ورسوله اعلم قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤس يخدشونه و يلحسونه و ينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون ولا ينبغي ان يتعجب من هذا العدد على الخصوص فان اعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الاخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات فان لها اصولا معدودة ثم تتشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها الى اقسام وتلك الصفات باعيانها هى المهلكات وهى باعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذى ايذاء الحية وارباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها الا ان مقدار عددها لا يوقف عليه الا بنور النبوة فامثال هذه الاخبار لها ظواهر صحيحة واسرار خفية ولكنها عند ارباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي ان ينكر ظواهرها بل اقل درجات الايمان التصديق والتسليم فان قلت فنحن نشاهد الكافر فى قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيأ من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة فاعلم ان لك ثلاث مقدمات فى التصديق بامثال هذا (احدها) وهو الاظهر والاصح والاسلم ان تصدق بانها موجودة وهى تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الامور الملكوتية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت اما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه و يؤمنون بانه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح اصل الايمان بالملائكة والوحي اهم عليك وان كنت آمنت به وجوزت ان يشاهد النبي ما لا تشاهده الامة فكيف لا تجوز هذا فى الميت وكما ان الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات والحيات والعقارب التى تلدغ فى القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هى جنس آخر وتدرك بحاسة اخرى ﴿المقام الثانى﴾ ان تتذكر امر النائم وانه قد يرى فى نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح فى نومه و يعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه و يتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وانت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية والحية موجودة فى حقه والعذاب حاصل ولكنه فى حقك غير مشاهد واذا كان العذاب فى ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل او تشاهد ﴿المقام الثالث﴾ انك تعلم ان الحية بنفسها لا تؤلم بل الذى يلقاك منها وهو السم ثم السم ليس هو الالم بل عذابك فى الاثر الذى يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الاثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب الا بان يضاف الى السبب الذى يفضى اليه فى العادة فانه لو خلق

اشتريت الماء بعشائك ومامن نبي الا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة فان غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين و يشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الاذكار من غير فتور الى أن يصلي الجمعة و يجلس معتكفا فى الجامع الى أن يصلي فرض العصر و بقية النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فانه يرى بركة ذلك فى جميع الاسبوع حتى

(١) حديث ابى هريرة ان المؤمن اذا حضرته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان الحديث ابى الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف (٢) حديث ابى هريرة المؤمن فى قبره فى روضة خضراء و يرحب له فى

فى الانسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها الا بالاضافة اليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وأن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق فانه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فانه قد سلط العشق فى الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك فى حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لى مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ما حال من كان له واحد * غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح الا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم الى اعدائه ثم ينضاف الى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته على ما فاته من نعيم الاخرة أبد الاباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذى يعذب به اذ لا يتبع نار الفراق الا نار جهنم كما قال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب الا الله وكان مشتاقا الى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الامن من الزوال ابد الاباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب فاذا ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذى يلدغه اذا أخذ منه فرسه فليستعد لهذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده واحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك اليه فاذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات وكما لو اخذ ذلك منه وهو حى فيعظم عقابه فكذلك اذا مات لانا قد بينا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لانه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود اليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت اذ قد انسد عليه طرق التسلى وحصل اليأس فاذا كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو اخذ منه فانه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به فان كان مخفا فى الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم نجا المخفون وان كان مثقلا عظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم[1] صاحب الدرهم اخف حسابا من صاحب الدرهمين وما من شىء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت الا وهو حسرة عليك بعد الموت فان شئت فاستكثر وان شئت فاستقلل فان استكثرت فلست بمستكثر الا من الحسرة وان استقللت فلست تخفف الا عن ظهرك وانما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الاغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا اليها فهذه مقامات الايمان فى حيات القبر وعقاربه وفى سائر انواع عذابه رأى ابو سعيد الخدرى ابنا له قد مات فى المنام فقال له يا بنى عظنى قال لا تخالف الله تعالى فيما يريد قال يا بنى زدنى قال يا ابت لا تطيق قال قل قال لا تجعل بينك وبين الله قميصا فما لبس قميصا ثلاثين سنة فان قلت فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث فاعلم ان فى الناس من لم يثبت الا الاول وانكر ما بعده ومنهم من انكر الاول واثبت الثانى ومنهم من لم يثبت الا الثالث وانما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار ان كل ذلك فى حيز الامكان وان من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته

يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة وقد كان من الصادقين من يضبط احواله واقواله وافعاله جميع الاسبوع لانه يوم المزيد لكل صادق ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارا يعتبر به سائر الاسبوع الذى مضى فانه اذا كان الاسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الانوار والبركات وما يجده فى يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة الانشراح فلما ضيع فى الاسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدا ان يلبس

قبره سبعون ذراعا الحديث ورواه ابن حبان (١) حديث صاحب الدرهم اخف حسابا من صاحب الدرهمين

وجهله

وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من افعال الله تعالى مالم يأنس به و يالفه وذلك جهل وقصور بل هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الانواع ورب عبد تجمع عليه هذه الانواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره هذا هو الحق فصدق به تقليدا فيعز على بسيط الارض من يعرف ذلك تحقيقا والذى اوصيك به ان لا تكثر نظرك فى تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان فان اهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن اخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع انفه فاخذ طول الليل يتفكر فى انه هل يقطعه بسكين او بسيف او بموسى واهمل طريق الحيلة فى دفع اصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع ان العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم او نعيم مقيم فينبغى ان يكون الاستعداد له فاما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

﴿ بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر ﴾

قال (١) ابو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا مات العبد اتاه ملكان اسودان ازرقان يقال لاحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول فى النبى فان كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فيقولان ان كنا لنعلم انك تقول ذلك ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين ذراعا و ينور له فى قبره ثم يقال له نم فيقول دعونى ارجع الى اهلى فاخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذى لا يوقظه الا احب اهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وان كان منافقا قال لا ادرى كنت اسمع الناس يقولون شيا وكنت اقوله فيقولان ان كنا لنعلم انك تقول ذلك ثم يقال للارض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها اضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وعن (٢) عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يا عمر كيف بك اذا انت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة اذرع فى ذراع وشبر ثم رجعوا اليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فاذا انصرفوا عنك اتاك فتانا القبر منكر ونكير اصواتهما كالرعد القاصف وابصارهما كالبرق الخاطف يجران اشعارهما ويبحثان القبر بانيابهما فتلتلاك وترتراك كيف بك عند ذلك يا عمر فقال عمر ويكون معى مثل عقلى الآن قال نعم قال اذا اكفيكهما وهذا نص صريح فى ان العقل لا يتغير بالموت انما يتغير البدن والاعضاء فيكون الميت عاقلا مدركا عالما بالآلام واللذات كما كان لا يتغير من عقله شئ وليس العقل المدرك هذه الاعضاء بل هو شئ باطن ليس له طول ولا عرض بل لا ينقسم فى نفسه هو المدرك للاشياء ولو تناثرت اعضاء الانسان كلها ولم يبق الا الجزء المدرك الذى لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الانسان العاقل بكماله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت فان ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم وقال محمد بن المنكدر بلغنى ان الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء صماء فى يدها سوط من حديد فى رأسه مثل غرب الجمل تضربه به الى يوم القيامة لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه وقال ابو هريرة اذا وضع الميت فى قبره جاءت اعماله الصالحة فاحتوشته فان اتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن وان اتاه من قبل رجليه جاء قيامه وان اتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطنى للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه وان جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول اما انى لو رأيت

لم اجد له اصلا (١) حديث ابى هريرة اذا مات العبد اتاه ملكان اسودان ازرقان يقال لاحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذى وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك اذا انت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة اذرع فى ذراع وشبر الحديث ابن ابى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقى فى الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلا قلت ووصله ابن بطة فى الابانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقى فى الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الاسناد تفرد به مفضل ولاحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أيرد الينا

للناس اما المرتفع من الثياب او ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد ففى لبس المرتفع للناس هوى وفى لبس الخشن رياء فلا يلبس الا الله بلغنا ان سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم امسك وقال لبسته بنية لله فلا أغيره فالبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولا بد للمبتدىء ان يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه

خلالا لـكنت أنا صاحبه قال سفيان تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عنـد ذلك بارك الله لك فى مضجعك فنعم الاخـلاء أخلاؤك ونعم الاصحاب اصحابك وعن (١) حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال يضغط المؤمن فى هذا ضغطة ترد منها حمائله وقالت (٢) عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ وعن أنس قال (٣) توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله فلما انتهينا الى القبر فدخله التمع وجهه صفرة فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأنا فمم ذلك قال ذكرت ضغطة ابنتى وشدة عذاب القبر فاتيت فاخبرت ان الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين

﴿ الباب الثامن فيما عرف من احوال الموتى بالمكاشفة فى المنام ﴾

اعلم ان انوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار تعرفنا احوال الموتى على الجملة وانقسامهم الى سعداء وأشقياء ولـكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينـكشف بذلك أصلا فانا ان عولنا على ايمـان زيد وعمر فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له وان عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فـكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى انما يتقبل الله من المتقين فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو الا بمشاهدته ومشاهدة ما يجرى عليه واذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة الى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وانما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين فى قلب كل انسان ولـكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور ان يبصر بها شيأ من عالم الملـكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الانبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا الى الملـكوت وشاهدوا عجائبه الموتى فى عالم الملـكوت فشاهدوهم وأخبروا ولذلك (٤) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته وكذلك حال ابى جابر لما استشهد اذ أخبره ان الله اقعده بين يديه ليس بينهما ستر ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الانبياء والاولياء الذين تقرب درجتهم منهم وانما الممكن من أمثالنا مشاهدة اخرى ضعيفة الا انها ايضا مشاهدة نبوية وأعنى بها المشاهدة فى المنام وهى من انوار النبوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهو أيضا انكشاف لا يحصل الا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق الا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ومن كثر فساده ومعاصيه اظلم قلبه فكان ما يراه اضغاث احلام ولذلك (٦) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا وهو اشارة الى طهارة الباطن ايضا فهو الاصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتـكملة لها ومهما صفا الباطن انـكشف

عقولنا فقال نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر بفيه الحجر (١) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه الحديث رواه احمد بسند ضعيف (٢) حديث عائشة ان للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها احد لنجا سعد بن معاذ رواه احمد باسناد جيد (٣) حديث انس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة الحديث وفيه لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين ابن ابى الدنيا فى الموت من رواية سليمان الاعمش عن أنس ولم يسمع منه

﴿الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة﴾

(٤) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته وكذلك حال ابى جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث فى الباب الذى قبله (٥) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة تقدم (٦) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء اذا اتيت مضجعك

فيحفظ من القرآن من السبع الى الجميع الى اقل او اكثر كيف أمكن ولا يصغى الى قول من يقول ملازمة ذكر واحد افضل من تلاوة القرآن فانه يجد بتلاوة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى وانما اختار بعض المشايخ ان يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه ومن لازم التلاوة فى الخلوة وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أوفى ما يفيده الذكر

فى حدقة القلب ماسيكون فى المستقبل كما (١) انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم حتى نزل قوله تعالى لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق وقلما يخلو الانسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى و بدائع فطرة الآدمى وهو من أوضح الادلة على عالم الملكوت والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو ان تعلم ان القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الامور وان كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم الى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب المبين وتارة بامام مبين كما ورد فى القرآن فجميع ماجرى فى العالم وماسيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظنن ان ذلك اللوح من خشب او حديد أو عظم وان الكتاب من كاغد أو رق بل ينبغى ان تفهم قطعا ان لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما ان ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل ان كنت تطلب له مثالا يقربه الى فهمك فاعلم ان ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه فانه مسطور فيه حتى كانه حين يقرؤه ينظر اليه ولو فتشت دماغه جزأ جزأ لم تشاهد من ذلك الخط حرفا وان كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغى ان تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ماقدره الله تعالى وقضاه واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه الا ان يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه و بين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت فان هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلألأ فى مرآة القلب شىء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد يثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب ومادام متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ومعنى النوم ان تركد الحواس عليه فلا توردها على القلب فاذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا فى جوهره ارتفع الحجاب بينه و بين اللوح المحفوظ فوقع فى قلبه شىء مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة اخرى اذا ارتفع الحجاب بينهما الا ان النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون المتخيلات اثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ فاذا انتبه لم يتذكر الا الخيال فيحتاج المعبر ان ينظر الى هذا الخيال حكاية اى معنى من المعانى فيرجع الى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى وامثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير ويكفيك مثال واحد وهو ان رجلا قال لابن سيرين رأيت كان بيدى خاتما اختم به افواه الرجال وفروج النساء فقال انت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان قال صدقت فانظر ان روح الختم هو المنع ولاجله يراد الختم وانما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا للناس من الاكل والشرب ولكن الخيال الف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى فى الحفظ الا الصورة الخيالية فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت وانما الموت هو عجب من العجائب وهذا لانه يشبهه من وجه ضعيف اثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ماسيكون فى المستقبل فماذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب و يكشف الغطاء بالكلية حتى يرى الانسان عند انقطاع النفس من غير تاخير نفسه اما محفوفة بالانكال والمخازى والفضائح نعوذ بالله من ذلك واما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للاشقياء وقد انكشف الغطاء لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد و يقال افسحر هذا ام انتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا اولا تصبروا

الواحد فاذا سئم فى بعض الاحايين يصانع النفس على الذكر مصانعة و ينزل من التلاوة الى الذكر فانه اخف على النفس و ينبغى ان يعلم ان الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لايجمع فيه بين القلب واللسان لايعتد به كل الاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فانه مضر وداء عضال فيطالب نفسه ان تصير فى تلاوة معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما ان التلاوة

فتوضا وتوكا للصلاة الحديث (١) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ابن

سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون واليهم الاشارة بقوله تعالى وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون فاعلم العلماء واحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والايات مالم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكون للعاقل هم وغم الا الفكرة فى خطر تلك الحال ان الحجاب عماذا يرتفع وما الذى ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة ام سعادة دائمة لكان ذلك كافيا فى استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين ايدينا واعجب من ذلك فرحنا باموالنا واهلينا و باسبابنا وذريتنا بل باعضائنا وسمعنا وبصرنا مع انا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن (١) اين من ينفث روح القدس فى روعه فيقول ما قال لسيد الابنين احبب من احببت فانك مفارقه وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل (٢) لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (٣) ولم يخلف دينارا ولا درهما ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال (٤) لو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن فبين ان خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وان حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب وقد قال لامته ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله فاما امته من اتبعه وما اتبعه الا من اعرض عن الدنيا واقبل على الآخرة فانه مادعا الا الى الله واليوم الاخر وما صرف الا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما اعرضت عن الدنيا واقبلت على الاخرة فقد سلكت سبيله الذى سلكه و بقدر ماسلكت سبيله فقد اتبعته و بقدر ما اتبعته فقد صرت من امته و بقدر ما اقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم فاما من طغى واثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى فلو خرجت من مكمن الغرور وانصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت انك من حين تصبح الى حين تمسى لا تسعى الا فى الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن الا لعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من امته واتباعه ما ابعد ظنك وما ابرد طمعك أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ولنرجع الى ما كنا فيه و بصدده فقد امتد عنان الكلام الى غير مقصده ولنذكر الان من المنامات الكاشفة لاحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به اذ ذهبت النبوة و بقيت المبشرات وليس ذلك الا المنامات

﴿بيان منامات تكشف عن احوال الموتى والاعمال النافعة فى الآخرة﴾

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) وقد قال عليه السلام من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فان الشيطان لا يتمثل بى وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فرأيته لا ينظر الى فقلت يارسول الله ما شانى فالتفت الى وقال ألست المقبل وانت صائم قال والذى نفسى بيده لا اقبل امرأة وانا صائم ابدا وقال العباس رضى الله عنه كنت ودا لعمر فاشتهيت ان اراه فى المنام فما رايته الا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا اوان فراغى ان كان عرشى ليهد لولا انى لقيته رؤفا رحيما وقال الحسن بن على قال لى على رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى منامى فقلت يارسول الله مالقيت من امتك قال ادع عليهم فقلت اللهم ابدلنى بهم من هو خير لى منهم وابدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج فضربه ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله استغفر لى فاعرض عنى فقلت يارسول الله ان سفيان (٦) ابن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله انك لم تسأل شيا قط فقلت لا فاقبل على فقال غفر الله لك وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لابى لهب مصاحبا له فلما مات واخبر الله عنه

على اللسان هو مشغول بها ولا يزعجها بكلام آخر هكذا . يكون معنى القرآن فى القلب لا يزعجه بحديث النفس وان كان اعجمى لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه فيشتغل باطنه بمطالعة نظر الله اليه مكان حديث النفس فان بالدوام على ذلك يصير من ارباب المشاهدة (قال مالك) قلوب الصديقين اذا سمعت القرآن طربت الى الآخرة فليتمسك المريد بهذه الاصول وليستمن بدوام

أبى حاتم فى تفسيره من رواية مجاهد مرسلا (١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى احبب من احببت فانك مفارقه الحديث تقدم (٢) حديث لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة تقدم ايضا (٣) حديث لم يخلف دينارا ولا درهما تقدم ايضا (٤) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن تقدم ايضا (٥) حديث من رآنى فى المنام فقد رآنى فان الشيطان لا يتخيل بى متفق عليه من حديث ابى هريرة (٦) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر ما سئل النبى صلى الله عليه وسلم شيا قط فقال لا رواه مسلم وقد تقدم

بعـا أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسالت الله تعالى حولا ان يريني اياه في المنام قال فرأيته يلتهب نارا فسالته عن حاله فقال صرت الى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح الا ليلة الاثنين في كل الايام والليالي قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة اياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحا به فاثابني الله بذلك ان رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجا فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن الا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فسالته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة الى مكة ومعي أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينما انا نائم اذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فاذا هو ميت أسود الوجه فداخلني من ذلك رعب فبينا انا في ذلك الغم اذ غلبتني عيني فنمت فاذا على رأس ابي أربعة سودان معهم اعمدة حديد اذ اقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه بيده ثم اتاني فقال قم فقد بيض الله وجه ابيك فقلت له من انت بابي انت وأمي فقال انا محمد قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه ابي فاذا هو ابيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم * وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده فسلمت وجلست فبينما انا جالس اذ اتي بعلي ومعاوية فادخلا بيتا واجيف عليهما الباب وانا انظر فما كان باسرع من ان خرج علي رضي الله عنه وهو يقول قضي لي ورب الكعبة وما كان باسرع من ان خرج معاوية على اثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فانكره اصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال الا تعلم ماصنعت امتي بعدي قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم اصحابه ارفعها الى الله تعالى فجاء الخبر بعد اربعة وعشرين يوما بقتله في اليوم الذي رآه ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له انك كنت تقول ابدا في لسانك هذا اوردني الموارد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا اله الا الله فاوردني الجنة

﴿بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم اجمعين﴾

قال بعض المشايخ رأيت منهما الدورقي في المنام فقلت ياسيدي مافعل الله بك فقال دير بي في الجنان فقيل لي ياممتم هل استحسنت فيها شيا قلت ياسيدي فقال لو استحسنت منها شيا لوكلتك اليه ولم اوصلك الى ورؤي يوسف ابن الحسين في المنام فقيل له مافعل الله بك قال غفر لي قيل بماذا قال ماخلطت جدا بهزل وعن منصور بن اسمعيل قال رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت مافعل الله بك قال اوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب اقررت به الا ذنبا واحدا فاني استحييت ان اقر به فاوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت الى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله ان اذكره وقال ابو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك اذا انشقت السماء فنزل ملكان احدهما بيده طشت وبيد الآخر ابريق فوضع الطشت من يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم امر حتى غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي فقال احدهما للآخر لا تصب على يده فانه ليس منهم فقلت يارسول الله اليس قد روي عنك انك قلت المرء مع من احب قال بلى قلت يارسول الله فاني احبك واحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فانه منهم وقال الجنيد رأيت في المنام كأني اتكلم على الناس فوقف على ملك فقال اقرب ماتقرب به المتقربون الى الله تعالى ماذا فقلت عمل خفي بميزان وفي فولى الملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤي مجمع في النوم فقيل له كيف رأيت الامر فقال رايت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة وقال رجل من اهل الشام للعلاء بن زياد رايتك في النوم كأنك في الجنة فنزل عن مجلسه واقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد امرا فعصمت منه فاشخص رجلا تقتلني وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره وقال صالح بن بشير رايت عطاء السلمي في النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال اما والله لقد اعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دائما فقلت في اي

بدوام الافتقار الى الله فبذلك ثبات قدمه (قال سهل) على قدر لزوم الالتجاء والافتقار الى الله تعالى يعرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره الى الله فدام الافتقار الى الله أصل كل خير ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم وهذا الافتقار مع كل الانفاس لا يتشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون

الدرجات نت فقال مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين الاية وسئل زرارة بن ابى اوفى فى المنام اى الاعمال افضل عندكم فقال الرضا وقصر الامل وقال يزيد بن مذعور رأيت الاوزاعى فى المنام فقلت يا ابا عمرو دلنى على عمل اتقرب به الى الله تعالى قال مارأيت هناك درجة ارفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكى حتى اظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى فى المنام فقلت يا أخى مافعل الله بك فقال كل ذنب أستغفرت منه غفرلى ومالم استغفر منه لم يغفرلى وقال على الطلحى رأيت فى المنام امرأة لاتشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجينى نفسك قالت اخطبنى الى سيدى وامهرنى قلت وما مهرك قالت حبس نفسك عن آفاتها وقال ابراهيم بن اسحق الحربى رأيت زبيدة فى المنام فقلت مافعل الله بك قالت غفرلى فقلت لها بما انفقت فى طريق مكة قالت اما النفقات التى انفقتها رجعت اجورها الى اربابها وغفرلى بنيتى ولما مات سفيان الثورى رئ فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال وضعت أول قدمى على الصراط والثانى فى الجنة وقال احمد ابن ابى الحوارى رأيت فيما يرى النائم جارية مارأيت احسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا فقلت لها مما اضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فمسحت به وجهى فمن ثم ضوء وجهى كما ترى وقال الكتانى رايت الجنيد فى المنام فقلت له مافعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا الاعلى ركعتين كنا نصليهما فى الليل ورئيت زبيدة فى المنام فقيل لها مافعل الله بك قالت غفرلى بهذه الكلمات الاربع لا اله الا الله افنى بها عمرى لا اله الا الله ادخل بها قبرى لا اله الا الله اخلو بها وحدى لا اله الا الله القى بها ربى ورئى بشر فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال رحمنى ربى عز وجل وقال يا بشر اما استحييت منى كنت تخافنى كل ذلك الخوف ورؤى ابو سليمان فى النوم فقيل له مافعل الله بك قال رحمنى وما كان شئ اضرعلى من اشارات القوم الى وقال ابو بكر الكتانى رايت فى النوم شابا لم ار احسن منه فقلت له من انت قال التقوى قلت فاين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فاذا امرأة سوداء فقلت من انت قالت انا السقم قلت فاين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتعاهدت ان لا اضحك الا غلبة وقال ابو سعيد الخراز رايت فى المنام كان ابليس وثب على فاخذت العصا لاضربه فلم يفزع منها فهتف بى هاتف ان هذا لايخاف من هذه وانما يخاف من نور يكون فى القلب وقال المسوحى رأيت ابليس فى النوم يمشى عريانا فقلت ألا تستحيى من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمى وأشار بيده الى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخراز كنت فى دمشق فرأيت فى المنام كان النبي صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فجاء فوقف على وأنا أقول شيا من الاصوات وأدق فى صدرى فقال شر هذا أكثر من خيره * وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثورى فى النوم كانه فى الجنة يطير من شجرة الى شجرة يقول لمثل هذا فليعمل العاملون فقلت له أوصنى قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثورى فقلت مافعل الله بك فقال

نظرت الى ربى كفاحا فقال لى * هنيا رضائى عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما اذا أظلم الدجى * بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته * وزرنى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام فقيل له مافعل الله بك قال ناقشنى حتى أيست فلما رأى ياسى تغمدنى برحمته ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال غفرلى وجعلنى حجة على المحبين ورؤى الثورى فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال رحمنى فقيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال حاسبونا فدققوا ثم منوا فاعتقوا ورؤى مالك بن أنس فقيل له مافعل الله بك قال غفرلى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحى الذى لايموت ورئ

الافتقار الى الله فيها وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا علمناه ذلك وتحققناه وقال سهل من انتقل من نفس الى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وادنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه (وبلغنا) ان حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه

فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن ابواب السماء مفتحة وكان مناديا ينادى ألا ان الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض ورئ الجاحظ فقيل له مافعل الله بك فقال

ولا تكتب بخطك غير شئ * يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد ابليس فى المنام عريانا فقال ألا تستحى من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى واحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتبهت غدوت الى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأونى قالوا لا يغرنك حديث الخبيث ورؤى النصراباذى بمكة بعد وفاته فى النوم فقيل له مافعل الله بك قال عوتبت عتاب الاشراف ثم نوديت ياأبا القاسم أبعد الاتصال انفصال فقلت لا ياذا الجلال فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربى ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة فقالت ياعتبة انا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الاعمال شيئا فيحال بينى و بينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى عليها حتى القاك وقيل رأى ايوب السختيانى جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فراى الميت بعضهم فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال غفرلى وقال قل لايوب قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذاً لامسكتم خشية الانفاق وقال بعضهم رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى نورا وملائكة نزولا وملائكة صعودا فقلت اى ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه وقال ابو سعيد الشحام رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام فقلت ايها الشيخ قال دع التشييخ قلت تلك الاحوال التى شاهدتها فقال لم تغن عنا فقلت مافعل الله بك قال غفرلى بمسائل كان يسال عنها العجز وقال ابو بكر الرشيدى رايت محمدا الطوسى المعلم فى النوم فقال لى قل لابى سعيد الصفار المؤدب

وكنا على ان لا نحول عن الهوى * فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال فانتبهت فذكرت ذلك له فقال كنت ازور قبره كل جمعة فلم ازره هذه الجمعة وقال ابن راشد رايت ابن المبارك فى النوم بعد موته فقلت اليس قدمت قال بلى قلت فما صنع الله بك قال غفرلى مغفرة احاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثورى قال بخ بخ ذاك من الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وقال الربيع بن سليمان رايت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام فقلت يا ابا عبد الله ماصنع الله بك قال اجلسنى على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب وراى رجل من اصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادى ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين واصطفى الحسن البصرى على اهل زمانه وقال ابو يعقوب القارى الدقيق رايت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا أويس القرنى فاتيته فقلت اوصنى رحمك الله فكلح فى وجهى فقلت مسترشد فارشدنى ارشدك الله فاقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ثم ولى وتركنى وقال ابو بكر بن ابى مريم رايت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت مافعلت ياورقاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فاى الاعمال وجدتموها افضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد ابن نعامة هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرآها ابوها فى المنام فقال لها يابنية اخبرينى عن الآخرة قالت ياابت قدمنا على امر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسبيحة أو تسبيحتان او ركعة اوركعتان فى فسحة عمل احب الى من الدنيا ومافيها وقال بعض اصحاب عتبة الغلام رايت عتبة فى المنام فقلت ماصنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك قال فلما اصبحت جئت الى بيتى فاذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت ياهادى المضلين ويا راحم المذنبين و يامقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الاحياء المرزوقين الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رايت سفيان الثورى فى الجنة يطير من نخلة الى نخلة ومن شجرة الى شجرة فقلت يا اباعبد الله بم نلت هذا قال بالورع قلت فما بال على بن عاصم قال ذاك لايكاد يرى الا كما يرى الكوكب وراى رجل من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال يارسول الله عظنى قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو فى نقصان ومن كان

الدار ثم رجع الى نفسه وقال مالى وهذا السؤال وهل هذه الاكلة لا تعنينى وهل هذا الا الاستيلاء نفسى وقلة أدبها وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم عزائم الرجال بلغوا ما بلغوا (أخبرنا) أبو زرعة اجازة قال أنا ابو بكر بن خلف قال انا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصوراً

فى نقصان فالموت خيرله وقال الشافعى رحمة الله عليه دهمنى فى هذه الايام أمر امضنى وآلمنى ولم يطلع عليه غير الله عزوجل فلما كان البارحة اتانى آت فى منامى فقال لى يا محمد بن ادريس قل اللهم انى لا املك لنفسى نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا استطيع ان آخذ الا ما أعطيتنى ولا أتقى الا ما وقيتنى اللهم فوفقنى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الاعمال المقربة الى الله زلفى فلنذكر بعدها ما بين يدى الموتى من ابتداء نفخة الصور الى آخر القرار اما فى الجنة أو فى النار والحمد لله حمد الشاكرين

﴿الشطر الثانى من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور الى آخر الاستقرار فى الجنة أو النار وتفصيل ما بين يديه من الاهوال والاخطار﴾ وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر واهله وصفة عرق اهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهيه واساميه وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الخصماء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها وانكالها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة واصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وانهارها واشجارها ولباس اهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر الى وجه الله تعالى وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب ان شاء الله تعالى

﴿صفة نفخة الصور﴾

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره ان كان مغضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الاخطار التى بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء اما بالاسعاد واما بالاشقاء فهذه احوال واهوال لابد لك من معرفتها ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها وأكثر الناس لم يدخل الايمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والاهوال بل اذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن اخبر بان ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذى اخبره صدقت ثم مد يده لتناوله كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له ان يشتمنى وكذبنى وما ينبغى له ان يكذبنى أما شتمه اياى فيقول ان لى ولدا واما تكذيبه فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وانما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لامثال تلك الامور ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوانات وقيل له ان صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمى المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال تعالى أيحسب الانسان ان يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ففى خلق الآدمى مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب اعضائه أعاجيب تزيد على الاعاجيب فى بعثه واعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك فى صنعته وقدرته فان كان فى ايمانك ضعف فقو الايمان بالنظر فى النشأة الاولى فان الثانية مثلها واسهل منها وان كنت قوى الايمان بها فاشعر قلبك تلك المخاوف والاخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار لتسلب عن

﴿الشطر الثانى من وقت نفخة الصور﴾

(١) حديث قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له ان يشتمنى وكذبنى وما ينبغى له ان يكذبنى الحديث البخارى

يقول سمعت أبا عمرو الانماطى يقول سمعت الجنيد يقول لو اقبل صادق على الله الف سنة ثم اعرض عنه لحظة لكان ما فاته من الله أكثر مما ناله وهذه الجملة يحتاج المبتدئ ان يحكمها والمنتهى عالم بها عامل بحقائقها فالمبتدئ صادق والمنتهى صديق قال ابو سعيد القرشى الصادق الذى ظاهره مستقيم

قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور فانها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فوقك الى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا الى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الامر كما قال تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وقال تعالى فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وقال تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ما ينظرون الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون فلو لم يكن بين يدى الموتى الا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بان يتقى فانها نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والارض يعنى يموتون بها الا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة واصغى بالاذن ينتظر متى يؤمر فينفخ قال مقاتل الصور هو القرن وذلك ان اسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والارض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الاولى فاذا نفخ صعق من فى السموات والارض اى مات كل حيوان من شدة الفزع الا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ثم يؤمر ملك الموت ان يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح اسرافيل ثم يامر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد النفخة الاولى فى البرزخ اربعين سنة ثم يحيى الله اسرافيل فيامره ان ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون على ارجائهم ينظرون الى البعث وقال صلى الله عليه وسلم (٢) حين بعث الى بعث الى صاحب الصور فاهوى به الى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ الا فاتقوا النفخة فتفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظار الما يقضى عليهم من سعادة او شقاوة وانت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل ان كنت فى الدنيا من المترفين والاغنياء المتنعمين فملوك الارض فى ذلك اليوم اذل اهل ارض الجمع واصغرهم واحقرهم يوطؤن بالاقدام مثل الذر وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رؤسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى واذا الوحوش حشرت ثم اقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى فور بك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا فتفكر فى حالك وحال قلبك هنالك

﴿صفة أرض المحشر وأهله﴾

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا الى ارض المحشر ارض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها

وباطنه يميل احيانا الى حظ النفس وعلامته ان يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض واذا اشتغل بالذكر نور الروح بحظوظ النفس يحجب عن الاذكار والصدق الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلوين الاحوال لا يحجبه عن الله وعن الاذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا

من حديث ابى هريرة (١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة الحديث الترمذى من حديث ابى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ ان صاحبي القرن بايديهما اوفى ايديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران وفى رواية ابن ماجه الحجاج بن ارطاه مختلف فيه (٢) حديث حين بعث الى بعث الى صاحب الصور فاهوى به الى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى الحديث لم اجده هكذا بل قد ورد ان اسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري فى التاريخ وابو الشيخ فى كتاب العظمة من حديث ابى هريرة ان الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والارض خلق الصور فاعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره الى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخاري لم يصح وفى رواية لابى الشيخ ماطرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد

عوجاولا أمتاولا ترى عليهار بوة يختفي الانسان وراءهاولا وهدة ينخفض عن الاعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لاتفاوت فيه يساقون اليه زمرا فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف اصنافهم من أقطار الارض اذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الاولى والرادفة هي الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الابصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لاحد قال الراوي والعفرة بياض ليس بالناصع والنقي هو النقي عن القشر والنخالة ومعلم أي لابناء يستر ولاتفاوت يرد البصر ولاتظنن أن تلك الارض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها الا في الاسم قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات قال ابن عباس يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها ومافيها وتمد مد الاديم العكاظي ارض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها فانظر يامسكين في هول ذلك اليوم وشدته فانه اذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر واظلمت الارض لخمود سراجها فبيناهم كذلك اذا دارت السماء من فوق رؤسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام والملائكة قيام على حافاتها وارجائها فياهول صوت انشقاقها في سمعك وياهيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا الى بعض فقال شغل الناس عن ذلك لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه فاعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات الى غيرهم قال (٣) ابو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة اصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال الذي امشاهم على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم ففي طبع الآدمي انكار كل مالم يانس به ولولم يشاهد الانسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لانكر تصور المشي على غير رجل والمشي بالرجل ايضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فاياك ان تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس مافي الدنيا فانك لولم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت اشد انكارا لها فاحضر في قلبك صورتك وانت واقف عاريا مكشوفا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة او الشقاوة واعظم هذه الحال فانها عظيمة

﴿صفة العرق﴾

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف اهل السموات السبع والارضين السبع من ملك وجن وانس وشيطان ووحش وسبع وطير فاشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة امرها ثم ادنيت من رؤس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الارض ظل الا ظل عرش رب العالمين

طعام والصديق يريد نفسه لله واقرب الاحوال الى النبوة الصديقية (وقال ابو يزيد) آخر نهايات الصديقين اول درجات الانبياء * واعلم ان ارباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله وارواحهم خلصت عن ظلمات النفوس ووطئت بساط القرب ونفوسهم منقادة مطاوعة صالحة مع القلب مجيبة الى كل

ينظر نحو العرش مخافة ان يؤمر قبل ان يرتد اليه طرفه كان عينيه كوكبان دريان واسنادها جيد (١) حديث يحشر الناس يوم القيامة على ارض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لاحد متفق عليه من حديث سهل ابن سعد وفصل البخاري قوله ليس فيها معلم لاحد فجعلها من قول سهل اوغيره وادرجها مسلم فيه (٢) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد الجمهم العرق وبلغ شحوم الاذان قالت سودة راوية الحديث واسوأتاه الحديث الثعلبي والبغوي وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي القائلة واسوأتاه ورواه الطبراني في الاوسط من حديث ام سلمة وهي القائلة واسوأتاه (٣) حديث ابي هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث ورواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من انس ان رجلا قال يانبي الله كيف يحشر الكافر على

ولم يتمكن من الاستظلال به الا المقربون فمن بين مستظل بالعرش و بين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الاقدام وانضاف اليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الانفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من اصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على ابدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه و بعضهم حقويه و بعضهم الى شحمة اذنيه و بعضهم كاد يغيب فيه قال (١) ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب احدهم فى رشحه الى انصاف اذنيه وقال (٢) أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الارض سبعين باعا و يلجمهم و يبلغ آذانهم كذا رواه البخاري ومسلم فى الصحيح وفى حديث آخر (٣) قياما شاخصة ابصارهم اربعين سنة الى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب وقال (٤) عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تدنو الشمس من الارض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه وأشار بيده فالجمها فاه ومنهم من يغطيه العرق وضرب بيده على رأسه هكذا فتامل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب ارحنى من هذا الكرب والانتظار ولو الى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدرى الى اين يبلغ بك العرق واعلم ان كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة فى امر بمعروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة و يطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم ان تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات اهون امرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة فانه يوم عظيمة شدته طويلة مدته

صفة طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة ابصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه اكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم قال كعب وقتادة يوم يقوم الناس لرب العالمين قال يقومون مقدار ثلثمائة عام قال عبدالله (٥) بن عمرو وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال كيف بكم اذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين الف سنة لا ينظر اليكم وقال الحسن ماظنك بيوم قاموا فيه على اقدامهم مقدار خمسين الف سنة لا يأكلون فيها اكلة ولا يشربون فيها شربة حتى اذا انقطعت اعناقهم عطشا واحترقت اجوافهم جوعا انصرف بهم الى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم فلم يتعلقوا بنبي الا دفعهم وقال دعونى نفسى نفسى شغلنى امرى عن امر غيرى واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا

ماتجيب اليه القلوب ارواحهم متعلقة بالمقام الاعلى انطفأت فيهم نيران الهوى وتخمر فى بواطنهم صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق أبى بكر رضى الله عنه من اراد ان ينظر الى ميت يمشى على وجه الارض فلينظر الى ابى بكر اشارة منه عليه الصلاة والسلام الى ما كوشف به من

وجهك قال اليس الذي امشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على ان يمشيه على وجهه يوم القيامة (١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب احدهم فى رشحه الى انصاف اذنيه متفق عليه (٢) حديث ابى هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الارض سبعين ذراعا الحديث اخرجاه فى الصحيحين كما ذكر المصنف (٣) حديث قياما شاخصة ابصارهم اربعين سنة الى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه ابو طيبة عيسى بن سليمان الجرجانى ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا اظن انه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه (٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الارض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه احمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم اذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين الف سنة لا ينظر اليكم قلت انما هو عبدالله بن عمرو رواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكره ابن ابى حاتم راو يا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمى اربعة هذا

غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لا يملكون الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر واعلم ان من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فانه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون اهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا فاجتهد ان تكون من اولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالامر اليك والاستعداد بيدك فاعمل في ايام قصار لايام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وامرك يسيرا

صريح العلم الذي لا يصل اليه عوام المؤمنين الا بعد الموت حيث يقال فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد فارباب النهايات ماتت أهويتهم وخلعت ارواحهم (قال) يحيى بن معاذ وقد سئل عن وصف العارف فقال رجل معهم بائن منهم وقال مرة عبد كان فبان فارباب النهايات هم عند الله بحقيقتهم

﴿صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه﴾

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شانه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوانه يوم ترى السماء فيه قد انفطرت والكواكب من هوله قد انتثرت والنجوم الزواهر قد انكدرت والشمس قد كورت والجبال قد سيرت والعشار قد عطلت والوحوش قد حشرت والبحار قد سجرت والنفوس الى الابدان قد زوجت والجحيم قد سعرت والجنة قد أزلفت والجبال قد نسفت والارض قد مدت يوم ترى الارض قد زلزلت فيه زلزالها واخرجت الارض اثقالها يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم يوم تحمل الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية يوم تسير الجبال وترى الارض بارزة يوم ترج الارض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش يوم تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار يوم تنسف فيه الجبال نسفا فتترك قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ولا يسئل فيه عن الاجرام بل يؤخذ بالنواصي والاقدام يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه امدا بعيدا يوم تعلم فيه كل نفس ما احضرت وتشهد ما قدمت واخرت يوم تخرس فيه الالسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين اذ قال له الصديق رضي الله عنه اراك قد شبت يا رسول الله قال (٢) شيبتني هود واخواتها وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت فيا أيها القارئ العاجز انما حظك من قراءتك ان تمجمج القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بان تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين واذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة احد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها واكثر من اساميها لتقف بكثرة اساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الاسامي تكرير الاسامي والالقاب بل الغرض تنبيه اولي الالباب فتحت كل اسم من

احدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون (١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون اهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا ابو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث ابي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولابي يعلى من حديث ابي هريرة باسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب الى ان تغرب ورواه البيهقي في الشعب الى ان قال اظنه رفعه بلفظ ان الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة

(٢) حديث شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت الترمذي وحسنه والحاكم

اسماء القيامة سر وفى كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميها وهى يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى فيه السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الابصار ويوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم تدعون الى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من اخيه وامه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم تردفيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الاستار يوم تخشع فيه الابصار وتسكن الاصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيآت يوم يساق العباد ومعهم الاشهاد ويشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم واغلى الحميم وزفرت النار ويأس الكفار وسعرت النيران وتغيرت الالوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الانسان فيا ايها الانسان ماغرك بربك الكريم حيث اغلقت الابواب وارخيت الستور واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة وانشق القمر انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ثم يكون أحسن احوالنا ان نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة اوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه فنعوذ بالله من هذه الغفلة ان لم يداركنا الله بواسع رحمته

(صفة المساءلة)

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الاحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينما انت فى كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها اذ نزلت ملائكة من ارجاء السماء باجسام عظام واشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا ان يأخذوا بنواصى المجرمين الى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (1) ان الله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام فاظنك بنفسك اذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة ارسلوا اليك ليأخذوك الى مقام العرض وتراهم على

موقنين بتوقيت الاجل جعلهم الله تعالى من جنوده فى خلقه بهم يهدى وبهم يرشد وبهم يجذب اهل الارادة كلامهم دواء ونظرهم دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالعلم (قال ذوالنون) علامة العارف ثلاثة لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ولا

(1) حديث ان الله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام لم اره بهذا اللفظ وصححه وقد تقدم

عظم اشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح الا ويخرون لاذقانهم خوفا من ان يكونوا هم الماخوذين فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يبادر اقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفيكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم اجلالا لخالقهم عن ان يكون فيهم فنادوا باصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه اهل الارض وقالوا سبحان ربنا ماهو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله فلنسالن الذين ارسل اليهم ولنسالن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين وقوله فور بك لنسالنهم اجمعين عما كانوا يعملون فيبدأ سبحانه بالانبياء يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك انت علام الغيوب فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الانبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة اذ يقال لهم ماذا اجبتم وقد ارسلتم الى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا انك انت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون اذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم الى ان يقويهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لامته هل بلغكم فيقولون ما اتانا من نذير ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله فيبقى متشخصا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الانبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يا فلان بن فلانة هلم الى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى اقوام ان يذهب بهم الى النار ولا تعرض قبائح اعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملا الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش واشرقت الارض بنور ربها وايقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد انه ما يراه أحد سواه وانه المقصود بالاخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل ائتني بالنار فيجيء بها جبريل ويقول يا جهنم اجيبي خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت الى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها وانتهضت خزنتها متوثبة الى الخلائق غضبا على من عصا الله تعالى وخالف أمره فاخطر ببالك واحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلات فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب وولوا مدبرين يوم ترى كل امة جاثية وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور وينادي الصديقون نفسي نفسي فبينماهم كذلك اذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا انهم ماخوذون ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بابصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وزهلت العقول من السعداء والاشقياء اجمعين وبعد ذلك اقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا اجبتم فاذا راوا ما قداقيم من السياسة على الانبياء اشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والاخ من اخيه والزوج من زوجته وبقي كل واحد منتظرا لامره ثم يؤخذ واحدا واحدا فيساله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه واعضائه قال[1] ابو هريرة قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له الم اكرمك واسودك وازوجك واسخر لك الخيل والابل واذرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول اظننت انك ملاقي فيقول لا فيقول فانا انساك كما نسيتني فتوهم نفسك يا مسكين وقد اخذت الملائكة بعضديك وانت واقف بين يدي الله

يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك استار محارم الله فارباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا واذلة أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرا صافيا يتناولون

(١) حديث ابي هريرة هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب

تعالى يسالك شفاها فيقول لك ألم انعم عليك بالشباب ففماذا ابليته الم امهل لك فى العمر ففماذا افنيته الم ارزقك المال فمن اين اكتسبته وفماذا انفقته الم اكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك انعامه ومعاصيك واياديه ومساويك فان انكرت شهدت عليك جوارحك * (١) قال انس رضى الله عنه كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم قال اتدرون مم اضحك قلنا الله ورسوله اعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب الم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فانى لا اجيز على نفسى الا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقى قال فتنطق باعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لاعضائه بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل فنعوذ بالله من الافتضاح على ملا الخلق بشهادة الاعضاء الا ان الله تعالى وعد المؤمن بان يستر عليه ولا يطلع عليه غيره (٢) سال ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنو احدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول انى سترتها عليك فى الدنيا وأنى اغفرها لك اليوم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة فهذا انما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بان يجازى بمثله فى القيامة وهب انه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء الى العرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك اذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك مظلم فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم فتوهم نفسك انك فى ايدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك الى عرش الرحمن فرموك من ايديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن منى فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وعجز فليت شعرى باى قدم تقف بين يديه وباى لسان تجيب وباى قلب تعقل ما تقول ثم تفكر فى عظم حيائك اذا ذكرك ذنوبك اذ يقول ياعبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى فاظهرت لهم الجميل أكنت اهون عليك من سائر عبادى استخففت بنظرى اليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى الم انعم عليك فماذا غرك بى أظننت انى لا اراك وانك لا تلقانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ما منكم من احد الا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) ليقفن احدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له الم انعم عليك الم أوتك مالا فيقول بلى فيقول الم ارسل اليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى الا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى الا النار فليتق احدكم النار ولو بشق تمرة فان لم يجد فبكلمة طيبة وقال ابن مسعود ما منكم من احد الا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو احدكم بالقمر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ماغرك بى يا ابن آدم ماعملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا اجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها الى مالا يحل لك الم اكن

الشهوات تارة رفقا بالنفوس لانها معهم كالطفل الذى يلاطف بالشئ ويهدى له شئ لانه مقهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تاسيا بالانبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية قال يحيى بن معاذ الدنيا عروس تطلبها ما شطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها

الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد بها مسلم (١) حديث انس تدرون مم اضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٢) حديث سال ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى الحديث رواه مسلم (٣) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم (٤) حديث ما منكم من أحد الا ويسأله رب العالمين الحديث متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبى حاتم بلفظ الا سيكلمه الحديث (٥) حديث ليقفن أحدكم بين يدى الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان

رفيا على أذنيك وهكذا حتى عدسائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يساله عن أربع خصال عن عمره فيما افناه وعن علمه ما عمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما ذا أنفقه فاعظم يامسكين بحيائك عند ذلك و بخطرك فانك بين ان يقال لها سترتها عليك في الدنيا وانا أغفرها لك اليوم فمن ذلك يعظم سرورك وفرحك و يغبطك الاولون والآخرون واما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والارض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما امت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك

﴿صفة الميزان﴾

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب الى الايمان والشمائل فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق اسود فلقطهم لقط الطير الحب وينطوي عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم النار و ينادي عليهم شقاوة لا سعادة بعدها وقسم آخر لا سيئة لهم فينادي مناد ليقم الحمادون لله على كل حال فيقومون و يسرحون الى الجنة ثم يفعل ذلك باهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى و ينادي عليهم سعادة لا شقاوة بعدها و يبقى قسم ثالث وهم الاكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى ان الغالب حسناتهم أوسيآتهم ولكن يابى الله الا ان يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيآت و ينصب الميزان وتشخص الابصار الى الكتب أتقع في اليمين أوفي الشمال ثم الى لسان الميزان أيميل الى جانب السيآت اوالى جانب الحسنات وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق وروى (١) الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس فذكرت الاخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال مايبكيك ياعائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسي بيده في ثلاث واطن فان احدا لا يذكر الا نفسه اذا وضعت الموازين ووزنت الاعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه ياخذ كتابه أو بشماله وعند الصراط وعن انس قال يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان و يوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها ابدا وان خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها ابدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية و بايديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فياخذون نصيب النار الى النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة انه يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام (٢) فيقول له قم يا ادم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك ابلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعند اصحابه قال اعملوا وابشروا فوالذي نفس محمد بيده ان معكم لخليقتين ما كانتا مع احد قط الا كثرتاه مع من هلك من بني ادم و بني ابليس قالوا وماهما يارسول الله قال ياجوج وماجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وابشروا فوالذي نفس محمد بيده ما انتم في الناس يوم القيامة الا كالشامة في جنب البعير او كالرقمة في ذراع الدابة

﴿صفة الخصماء ورد المظالم﴾

والعارف بالله مشتغل بسيده ولا يلتفت اليها (واعلم) ان المنتهي مع كمال حاله لا يستغني ايضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات واخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وانواع البر وقد غلط في هذا خلق وظنوا ان المنتهي استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول الملاذ

الحديث البخاري من حديث عدي بن حاتم (١) حديث الحسن ان عائشة ذكرت الاخرة فبكت الحديث وفيه فقال مايبكيك ياعائشة قالت ذكرت الاخرة هل تذكرون اهليكم يوم القيامة الحديث ابوداود من رواية الحسن انها ذكرت النار فبكت فقال مايبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وانه نعس واسناده جيد (٢) حديث يقول الله ياادم قم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل الف تسعمائة وتسع وتسعون الحديث متفق عليه من حديث ابي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث ابي هريرة نحوه وقد تقدم

قدعرفت هول الميزان وخطره وان الاعين شاخصة الى لسان الميزان فمن ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ومن خفت موازينه فامه هاويه وماادراك ماهيه نار حامية واعلم انه لاينجو من خطر الميزان الا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله واقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا وانما حسابه لنفسه ان يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك مافرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وان مات قبل رد المظالم احاط به خصماؤه فهذا ياخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلببه هذا يقول ظلمتنى وهذا يقول شتمتنى وهذا يقول استهزأت بى وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى وهذا يقول جاورتنى فاسأت جوارى وهذا يقول عاملتنى فغششتنى وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى واخفيت عنى عيب سلعتك وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما اطعمتنى وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى فبينا انت كذلك وقد انشب الخصماء فيك مخالبهم واحكموا فى تلابيبك ايديهم وانت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق فى عمرك احد عاملته على درهم او جالسته فى مجلس الا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة او خيانة او نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء الى سيدك ومولاك لعله يخلصك من ايديهم اذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار وتتذكر ما انذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعى رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء وانذر الناس فما اشد فرحك اليوم بتمضمضك باعراض الناس وتناولك اموالهم وما اشد حسراتك فى ذلك اليوم اذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وانت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على ان ترد حقا او تظهر عذرا فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل الى خصمائك عوضا عن حقوقهم قال(1) ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون من المفلس قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال المفلس من امتى من ياتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وياتى وقد شتم هذا وقذف هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته وان فنيت حسناته قبل ان يقضى ماعليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار فانظر الى مصيبتك فى مثل هذا اليوم اذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان فان سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك واخذوها ولعلك لو حاسبت نفسك وانت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت انه ينقضى عنك يوم الا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من اكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرناء فقد روى ابو ذر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال(2) يا ابا ذر اتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة وقال ابو هريرة فى قوله عز وجل ومامن دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم انه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شىء فيبلغ من عدل الله تعالى ان ياخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فذلك حين يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا فكيف انت يامسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول اين حسناتى فيقال نقلت الى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصبك واشتد

(1) حديث ابى هريرة هل تدرون من المفلس قالوا المفلس يارسول الله من لادرهم له ولا متاع الحديث تقدم

(2) حديث ياابا ذر اتدرى فيما ينتطحان قال لا قال ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما احمد من رواية اشياخ

والشهوات وهذا خطأ الا من حيث انه يحجب العارف عن معرفته ولكن يوقف عن مقام المزيد وقوم لما رأوا ان هذه الاشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا اليها واسترسلوا فيها وقنعوا باداء الفرائض واتسعوا فى المآكل والمشرب وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الاحوال وتقيد بنور الحال وعدم

بسبب الكف عنها عناؤك فيقول يارب هذه سيات مافارقتها قط فيقال هذه سيات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبالغة والمجاورة والمخاطبة والمناظرات والمذاكرات والمدارسة وسائر اصناف المعاملة قال(١)ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان قد يئس ان تعبد الاصنام بارض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليجيء يوم القيامة بامثال الجبال من الطاعات فيرى انهن سينجينه فما يزال عبد يجيء فيقول رب ان فلانا ظلمني بمظلمة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وان مثل ذلك مثل نفر نزلوا بفلاة من الارض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبسوا ان اعظموا نارهم وصنعوا ما ارادوا وكذلك الذنوب (٢)ولما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يارسول الله ايكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال نعم ليكررن عليكم حتى تؤوا الى كل ذي حق حقه قال الزبير والله ان الامر لشديد فاعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال (٣)انس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله العباد عراة غبرا بهما قال قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب انا الملك انا الديان لا ينبغي لاحد من اهل الجنة ان يدخل الجنة ولاحد من اهل النار عليه مظلمة حتى اقتصه منه ولا لاحد من اهل النار ان يدخل النار ولاحد من اهل الجنة عنده مظلمة حتى اقتصه منه حتى اللطمة قلنا وكيف وانما ناتي الله عز وجل عراة غبرا بهما فقال بالحسنات والسيئات فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد باخذ اموالهم والتعرض لاعراضهم وتضييق قلوبهم واساءة الخلق في معاشرتهم فان ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة اليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال ارباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الاخلاص بحيث لا يطلع عليه الا الله فعساه يقربه ذلك الى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لاحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن (٤) انس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يارسول الله بابي انت وامي قال رجلان من امتي جثيا بين يدي رب العزة فقال احدهما يارب خذ لي مظلمتي من اخي فقال الله تعالى اعط اخاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتي شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يارب يتحمل عني من اوزاري وقال فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال ان ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس الى ان يحمل عنهم من اوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال يارب ارى مدائن من فضة

لم يسموا عن أبي ذر (١)حديث ابن مسعود ان الشيطان قد ايس ان تعبد الاصنام بارض العرب ولكن سيرضى منكم بما دون ذلك المحتقرات وهي الموبقات الحديث وفي اخره وان مثل ذلك مثل نفر نزلوا بفلاة الحديث رواه احمد والبيهقي في الشعب مقتصرا على اخره اياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث واسناده جيد فاما اول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر ان الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يارسول الله ايكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر العباد عراة غبرا بهما قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء الحديث قلت ليس من حديث أنس وانما هو عبيد الله ابن أنيس رواه احمد باسناد حسن وقال غرلا مكان غبرا (٤)حديث انس بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما اضحكك يارسول الله بابي وامي قال رجلان من امتي جثيا بين يدي رب العالمين الحديث بطوله ابن ابي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرك وقد تقدم

التخلص بالكناية الى نور الحق ومن تخلص من نور الحال الى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر ويوقف نفسه مقام العبيد كاحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى باماطة الاذى عن الطريق ولا يستكبر ولا تستنكف ان يعود في صور عوام المؤمنين من اظهار الارادة بكل بر وصلة

مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لاى نبي هذا أو لاى صديق هذا أو لاى شهيد هذا قال لمن أعطانى الثمن قال يارب ومن يملك ثمنه قال انت تملكه قال وما هو قال عفوك عن اخيك قال يارب انى قد عفوت عنه قال الله تعالى خذ بيد اخيك فادخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله واصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين وهذا تنبيه على ان ذلك انما ينال بالتخلق باخلاق الله وهو اصلاح ذات البين وسائر الاخلاق فتفكر الآن فى نفسك ان خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الابد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء و بنعيم لا يدور بحواشيه الفناء وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابيض وجهك واستنار واشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الاوزار ظهرك ونضرة نسيم النعيم و برد الرضا يتلألأ من جبينك وخلق الاولين والآخرين ينظرون اليك والى حالك و يغبطونك فى حسنك وجمالك والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك و ينادون على رؤس الاشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها ابدا افترى ان هذا المنصب ليس باعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك فان كنت تعلم انه خير منه بل لا نسبة له اليه فتوسل الى ادراك هذه الرتبة بالاخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك الا به وان تكن الاخرى والعياذ بالله بان خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لاجلها فقال عليك لعنتى ياعبد السوء لا أتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء الا و يسود وجهك ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق اجمعين وعند ذلك تتثال اليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فاقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فاخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون الى اسوداد وجهك والى ظهور خزيك وأنت تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى الملائكة و يقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد بعدها ابدا وربما يكون ذلك بذنب اذنبته خفية عن عباد الله اوطلبا للمكانة فى قلوبهم اوخوفا من الافتضاح عندهم فما اعظم جهلك اذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملا العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الاليم والسياق بايدى الزبانية الى سواء الجحيم فهذه احوالك وانت لم تشعر بالخطر الاعظم وهو خطر الصراط

﴿صفة الصراط﴾

ثم تفكر بعد هذه الاهوال فى قول الله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وفى قوله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم انهم مسئولون فالناس بعد هذه الاهوال يساقون الى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار احد من السيف وأدق من الشعر فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا واثقل ظهره بالاوزار وعصى تعثر فى اول قدم من الصراط وتردى فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك اذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها وقد كلفت ان تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالاوزار المانعة لك عن المشى على بساط الارض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك اذا وضعت عليه احدى رجليك فاحسست بحدته واضطررت الى ان ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون و يتعثرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب وأنت تنظر اليهم كيف ينتكسون فتتسفل الى جهة النار رؤسهم وتعلو ارجلهم فياله من منظر ما أفظعه ومرتقى ما اصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر الى حالك وانت تزحف عليه وتصعد اليه وانت مثقل الظهر باوزارك تلتفت يمينا وشمالا الى الخلق وهم يتهافتون

فيتناول الشهوات وقتا رفقا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطواعة لانها أسيرته و يمنعها الشهوات وقتا لان فى ذلك صلاحها واعتبر هذا سواء بحال الصبي فانه ان جاوز حد الاعتدال من اعطاء المراد وقتا ومنعه وقتا انفسد طبعه لان الجبلة لابد من قمعها بسياسة العلم وما دامت الجبلة باقية لابد من سياسة العلم

في النار والرسول عليه السلام يقول يارب سلم سلم والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت اليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت لحياتي ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا ياليتني كنت ترابا ياليتني كنت نسيا منسيا ياليت امي لم تلدني وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله وينادي المنادي اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يبقى سبيل الا الصياح والانين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الاخطار بين يديك فان كنت غير مؤمن بذلك فما اطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم وان كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالاستعداد له متهاونا فما اعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك ايمانك اذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك الا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وان سلمت فناهيك به هولا وفزعا ورعبا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (1) يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فاكون اول من يجيز بامته من الرسل ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم يارسول الله قال فانها مثل شوك السعدان غير انه لا يعلم قدر عظمها الا الله تعالى تختطف الناس باعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو وقال (2) أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يحبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فاما اهل النار الذين هم اهلها فلا يموتون ولا يحيون واما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحما ثم يؤذن في الشفاعة وذكر الى آخر الحديث وعن (3) ابن مسعود رضي الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما اربعين سنة شاخصة ابصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء وذكر الحديث الى ان ذكر وقت سجود المؤمنين قال ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤسكم فيرفعون رؤسهم فيعطيهم نورهم على قدر اعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره اصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره اصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على ابهام قدمه فيضيء مرة ويخبو مرة فاذا اضاء قدم قدمه فمشى واذا اظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى يمر الذي اعطى نوره على ابهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق اخرى وتعلق رجل وتجر اخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فاذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد اعطاني الله ما لم يعط احدا اذ نجاني منها بعد اذ رأيتها فينطلق به الى غدير عند باب الجنة فيغتسل وقال (4) انس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصراط كحد السيف او كحد الشعرة وان الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وان جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتي واني لاقول يارب سلم سلم فالزالون

وهذا باب غامض دخل في النهايات على المنتهى من ذلك دواخل ووقع الركون وانسد به باب المزيد فالمنتهي ملك ناصية الاختيار في الاخذ والترك ولا بد له من اخذ وترك في الاعمال والحظوظ ففي الاعمال لا بد له من أخذ وترك فتارة يأتي بالاعمال كآحاد الصادقين وتارة يترك زيادة الاعمال رفقا بالنفس وتارة باخذ الحظوظ

---

(1) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فاكون اول من يجيز متفق عليه من حديث ابي هريرة في اثناء حديث طويل (2) حديث أبي سعيد يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف الحديث متفق عليه مع اختلاف اللفظ (3) حديث ابن مسعود يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما اربعين سنة شاخصة ابصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث الى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا (4) حديث انس الصراط كحد السيف او كحد الشعرة الحديث البيهقي في الشعب وقال هذا اسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميري عن انس مرفوعا الصراط كحد الشعرة

والزلات يومئذ كثيرفهذه أهوال الصراط وعظائمه فطول فيه فكرك فان اسلم الناس من اهوال يوم القيامة من طال فيها فكره فى الدنيا فان الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الاهوال فى الدنيا امنها فى الاخرة ولست اعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك و يرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود الى لهوك ولعبك فاذا من الخوف فى شىء بل من خاف شيا هرب منه ومن رجا شيا طلبه فلا ينجيك الا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى و يحثك على طاعته وابعد من رقة النساء خوف الحمقى اذا سمعوا الاهوال سبق الى السنتهم الاستعاذة فقال احدهم استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هى سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار فى صحراء ووراءه حصن فاذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه اعوذ بهذا الحصن الحصين واستعين بشدة بنيانه واحكام اركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد فى مكانه فانى يغنى ذلك عنه من السبع وكذلك اهوال الاخرة ليس لها حصن الا قول لا اله الا الله صادقا ومعنى صدقه ان لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن اتخذ الهه هواه فهو بعيد من الصدق فى توحيده وامره مخطر فى نفسه فان عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا الى مراعاة قلوب الصالحين من امته ومتبركا بادعيتهم فعساك ان تنال من شفاعته اوشفاعتهم فتنجو بالشفاعة ان كنت قليل البضاعة

صفة الشفاعة

اعلم انه اذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الانبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة فى اهله وقرابته واصدقائه ومعارفه فكن حريصا على ان تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بان لا تحقر آدميا اصلا فان الله تعالى خبأ ولايته فى عباده فلعل الذى تزدريه عينك هو ولى الله ولا تستصغر معصية اصلا فان الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر اصلا طاعة فان الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة او النية الحسنة اومايجرى مجراه وشواهد الشفاعة فى القرآن والاخبار كثيرة قال الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى روى (١) عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول ابراهيم عليه السلام رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم وقول عيسى عليه السلام ان تعذبهم فانهم عبادك ثم رفع يديه وقال امتى امتى ثم بكى فقال الله عزوجل ياجبريل اذهب الى محمد فسله مايبكيك فاتاه جبريل فسأله فاخبره والله اعلم به فقال ياجبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك فى امتك ولا نسوءك وقال صلى الله عليه وسلم (٢) اعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر واحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وجعلت لى الارض مسجدا وترابها طهورا فايما رجل من امتى ادركته الصلاة فليصل واعطيت الشفاعة وكل نبى بعث الى قومه خاصة و بعثت الى الناس عامة وقال صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة كنت

او كحد السيف قال وهى رواية صحيحة انتهى ورواه احمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة (١) حديث عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول ابراهيم صلى الله عليه وسلم رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم وقول عيسى صلى الله عليه وسلم ان تعذبهم فانهم عبادك ثم رفع يديه ثم قال امتى ثم بكى الحديث وفيه ياجبريل اذهب الى محمد فقل انا سنرضيك ولا نسوءك فى امتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وانما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الاحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ (٢) حديث اعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلى الحديث وفيه واعطيت الشفاعة متفق عليه من حديث جابر اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر الترمذى وابن ماجه من حديث ابى بن كعب قال الترمذى حسن صحيح

والشهوات رفقا بالنفس وتارة يتركها افتقادا للنفس بحسن السياسة فيكون فى ذلك كله مختارا فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية فهو زاهد تارك بالكلية ومن استرسل فى اخذها فهو راغب بالكلية والمنتهى شمل الطرفين فانه على غاية الاعتدال واقف على الصراط بين الافراط والتفريط فمن ردت اليه

امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر وقال صلى الله عليه وسلم (١) أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الارض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه وقال صلى الله عليه وسلم (٢) لكل نبي دعوة مستجابة فاريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة وقال (٣) ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصب للانبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعث بي الى الجنة وتبقى أمتي بعدي فاقول يارب امتي فيقول الله عز وجل يامحمد وماتريد أن أصنع بامتك فاقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكا كابرجال قد بعث بهم الى النار وحتى ان مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لغضب ربك فى امتك من بقية وقال صلى الله عليه وسلم (٤) انى لاشفع يوم القيامة لاكثر مما على وجه الارض من حجر ومدر وقال (٥) ابو هريرة اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع اليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال انا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الاولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس بعضهم لبعض الا ترون ماقد بلغكم الا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فياتون آدم فيقولون له انت ابو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا الى ربك الاترى مانحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه قد نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى نوح فياتون نوحا عليه السلام فيقولون يانوح أنت أول الرسل الى أهل الارض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا الى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وانه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى ابراهيم خليل الله فياتون ابراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبي الله وخليله من أهل الارض اشفع لنا الى ربك الاترى مانحن فيه فيقول لهم ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله واني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى موسى فياتون موسى عليه السلام فيقولون أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا الى ربك ألا ترى مانحن فيه فيقول ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله واني قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى عيسى عليه السلام فياتون عيسى فيقولون ياعيسى أنت رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا الى ربك الاترى مانحن فيه فيقول عيسى عليه السلام ان ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم فياتوني فيقولون يامحمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر اشفع لنا الى ربك الاترى مانحن فيه فانطلق فآتي تحت

الاقسام فى النهاية فاخذها زاهدا فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار وتارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال وكما ان الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار فكذلك الزاهد فى الزهد الآخذ من الدنيا ما سيق اليه لرؤيته فعل الله مقيدا بالاخذ واذا استقرت النهاية لا يتقيد بالاخذ ولا بالترك

(١) حديث انا سيد ولد آدم ولا فخر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث ابى سعيد الخدري
(٢) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فاريد ان اختبيء دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة متفق عليه من حديث انس ورواه مسلم من حديث ابى هريرة (٣) حديث ابن عباس ينصب للانبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لا اجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا الحديث الطبراني فى الاوسط وفى اسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٤) حديث انى لاشفع يوم القيامة لاكثر مما على وجه الارض من حجر ومدر احمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن (٥) حديث ابى هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم اتى بلحم فرفع اليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال انا سيد الناس الحديث بطوله فى الشفاعة قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا ابراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية اخرجها مسلم

العرش فاقع ساجدا لربي ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيأ لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فارفع رأسي فاقول أمتي أمتي يارب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الايمن من ابواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الابواب ثم قال والذي نفسي بيده ان بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة و بصرى وفي حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا ابراهيم وهو قوله في الكوكب هذا ربي وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا وقوله اني سقيم فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة ايضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يدخل الجنة بشفاعة رجل من امتي أكثر من ربيعة ومضر وقال صلى الله عليه وسلم (٢) يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولاهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله وقال (٣) أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا من اهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من اهل النار و يقول يافلان هل تعرفني فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول انا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لي بها عند ربك فيسال الله تعالى ذكره و يقول اني أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني فقلت لا من أنت فقال انا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار وعن (٤) أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا اول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا يئسوا لواء الحمد يومئذ بيدي وانا اكرم ولد ادم على ربي ولا فخر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) اني اقوم بين يدي ربي عز وجل فاكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس احد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري وقال (٦) ابن عباس رضي الله عنهما جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا ان الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا وقال اخر ماذا باعجب من كلام موسى كلمه تكليما وقال اخر فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت كلامكم وتعجبكم ان ابراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وادم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وانا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وانا أول شافع واول مشفع يوم القيامة ولا فخر وانا اول من يحرك حلق

بل يترك وقتا واختياره من اختيار الله و يأخذ وقتا واختياره من اختيار الله وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة يأتي بهما وقتا و يسمح للنفس وقتا لانه يختار صحيح في الاختيار في الحالين وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية وكل حال يستقر و يستقيم بشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه

(١) حديث يدخل الجنة بشفاعة رجل من امتي أكثر من ربيعة ومضر رويناه في جزء ابي عمر بن السماك من حديث ابي امامة الا انه قال مثل احد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان المشيخة يرون ان ذلك الرجل عثمان بن عفان واسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن ابي الجدعاء يدخل الجنة بشفاعة الرجل من امتي اكثر من بني تميم قالوا سواك قال سواي قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل اراد بالرجل اويسا (٢) حديث يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولاهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله الترمذي من حديث ابي سعيد ان من امتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة الحديث وقال حسن وللبزار من حديث أنس ان الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (٣) حديث أنس ان رجلا من اهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من اهل النار و يقول يافلان هل تعرفني فيقول لا والله ما اعرفك من انت فيقول انا الذي مررت بي في الدنيا يوما فاستسقيتني شربة فسقيتك الحديث في شفاعته فيه واخراجه من النار ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف (٤) حديث انس انا اول الناس خروجا اذا بعثوا الحديث الترمذي وقال حسن غريب (٥) حديث فاكسى حلة من حلل الجنة ثم اقوم عن يمين العرش الحديث الترمذي من حديث ابي هريرة وقال حسن غريب صحيح (٦) حديث ابن عباس جلس ناس من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم

الجنة فيفتح الله لى فادخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الاولين والآخرين ولا فخر

﴿ صفة الحوض ﴾

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الاخبار على وصفه ونحن نرجو ان يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه فان من صفاته ان من شرب منه لم يظما أبدا قال (١) أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكت فقال آية أنزلت على آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا اعطيناك الكوثر حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر قالوا الله ورسوله أعلم قال انه نهر وعدنيه ربى عز وجل فى الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه امتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء وقال (٢) أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما انا اسير فى الجنة اذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف قلت ماهذا ياجبريل قال هذا الكوثر الذى اعطاك ربك فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٣) مابين لابتى حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء او مثل مابين المدينة وعمان وروي (٤) ابن عمر انه لما نزل قوله تعالى انا اعطيناك الكوثر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب شرابه اشد بياضا من اللبن واحلى من العسل واطيب ريحا من المسك يجرى على جنادل اللؤلؤ والمرجان وقال (٥) ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حوضى مابين عدن الى عمان البلقاء ماؤه اشد بياضا من اللبن واحلى من العسل واكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظما بعدها ابدا اول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن هم يارسول الله قال هم الشعث رؤسا الدنس ثيابا الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم ابواب السدد فقال عمر ابن عبد العزيز والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى ابواب السدد الا ان يرحمنى الله لاجرم لا ادهن رأسى حتى يشعث ولا اغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ (٦) وعن ابى ذر قال قلت يارسول الله ما آنية الحوض قال والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المصحية من شرب منه لم يظما آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله مابين عمان وايلة ماؤه اشد بياضا من اللبن واحلى من العسل وعن (٧) سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبي حوضا وانهم يتباهون ايهم أكثر واردة وانى لارجوا ان اكون اكثرهم واردة فهذا رجاء رسول الله صلى الله

فقال بعضهم عجبا ان الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا الحديث رواه الترمذى وقال غريب (١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت فقال آية أنزلت على آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا اعطيناك الكوثر رواه مسلم (٢) حديث أنس بينما انا اسير فى الجنة اذا انا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف الحديث الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول انس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم الى السماء الحديث وهو مرفوع وان لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث انس مابين لابتى حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء اومثل مابين المدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى انا اعطيناك الكوثر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب الحديث الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى فى مسنده وهو اقرب الى لفظ المصنف (٥) حديث ثوبان ان حوضى مابين عدن الى عمان البلقا الحديث الترمذى وقال غريب وابن ماجه (٦) حديث ابى ذر قلت يارسول الله ما آنية الحوض قال والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء الحديث رواه مسلم (٧) حديث سمرة ان لكل نبي حوضا وانهم ليتباهون ايهم اكثر واردة الحديث الترمذى وقال غريب قال وقد روى الاشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو اصح

الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل انى عزمت ان لا آكل اللحم قال فانى آكل اللحم واحبه ولو سألت ربي ان يطعمنى كل يوم لاطعمني وذلك يدلك على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختارا فى

عليه وسلم فليرج كل عبد ان يكون فى جملة الواردين وليحذر ان يكون متمنيا ومغترا وهو يظن انه راج فان الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الارض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالانبات ودفع الصواعق الى اوان الحصاد فاما من ترك الحراثة او الزراعة وتنقية الارض وسقيها واخذ يرجو من فضل الله ان ينبت له الحب الفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين فى شىء وهكذا رجاء اكثر الخلق وهو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور والغفلة فان الاغترار بالله اعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور

﴿ القول فى صفة جهنم واهوالها وانكالها ﴾

يا ايها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما انت مرتحل عنه واصرف الفكر الى موردك فانك اخبرت بان النار مورد للجميع اذ قيل وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فانت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه وتامل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا فبينما هم فى كربها واهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة انبائها وتشفيع شفعائها اذ احاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب واظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح من شدة الغيظ والغضب فعند ذلك ايقن المجرمون بالعطب وجثت الامم على الركب حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب وخرج المنادى من الزبانية قائلا اين فلان بن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الامل المضيع عمره فى سوء العمل فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه الى العذاب الشديد وينكسونه فى قعر الجحيم و يقولون له ذق انك انت العزيز الكريم فاسكنوا دارا ضيقة الارجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك يخلد فيها الاسير ويوقد فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرها الجحيم الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم أمانيهم فيها الهلاك ومالهم منها فكاك قد شدت اقدامهم الى النواصى واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى ينادون من أكنافها و يصيحون فى نواحيها واطرافها يامالك قد حق علينا الوعيد يامالك قد اثقلنا الحديد يامالك قد نضجت منا الجلود يامالك اخرجنا منها فانا لانعود فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسؤا فيها ولا تكلمون ولو اخرجتم منها لكنتم الى مانهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى مافرطوا فى جنب الله يتاسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الاسف بل يكبون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن ايمانهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى فى النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل فهم يتجلجلون فى مضايقها و يتحطمون فى دركاتها و يضطربون بين غواشيها تغلى بهم النار كغلى القدور و يهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من افواههم وتنقطع من العطش اكبادهم وتسيل على الخدود احداقهم و يسقط من الوجنات لحومها و يتمعط من الاطراف شعورها بل جلودها وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الارواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهى تنش فى لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت اليهم وقد سودت وجوههم اشد سوادا من الحميم واعميت ابصارهم وابكمت السنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت اذانهم ومزقت قلوبهم وغلت ايديهم الى اعناقهم وجمع بين نواصيهم واقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم و يطؤن حسك الحديد باحداقهم فلهيب النار سار فى بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر اعضائهم هذا بعض جملة احوالهم وانظر الآن فى تفصيل اهوالهم وتفكر ايضا فى اودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله

ذلك ان شاء أكل وان شاء لم يأكل وكان يترك الاكل اختيارا وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعا وهذا اذا قالوه على معنى انه لا يلزمهم التاسى به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة

عليه وسلم (١) ان فى جهنم سبعين الف واد فى كل واد سبعون الف شعب فى كل شعب سبعون الف ثعبان وسبعون الف عقرب لا ينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله وقال (٢) على كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن او وادى الحزن قيل يارسول الله وما وادى او جب الحزن قال واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة اعده الله تعالى للقراء المرائين فهذه سعة جهنم وانشعاب اوديتها وهى بحسب عدد اودية الدنيا وشهواتها وعدد ابوابها بعدد الاعضاء السبعة التى بها يعصى العبد بعضها فوق بعض الاعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية فانظر الآن فى عمق الهاوية فانه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهى ارب من الدنيا الا الى ارب اعظم منه فلا تنتهى هاوية من جهنم الا الى هاوية أعمق منها قال (٣) ابو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتدرون ماهذا قلنا الله ورسوله اعلم قال هذا حجر ارسل فى جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى الى قعرها ثم انظر الى تفاوت الدركات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما ان اكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها الى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف انواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه الا ان اقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ماهو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) ان ادنى اهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه فانظر الآن الى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت فى شدة عذاب النار فقرب اصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم انك اخطأت فى القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان اشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات لو وجد اهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه وعن هذا عبر فى بعض الاخبار حيث قيل (٥) ان نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى طاقها اهل الدنيا بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال (٦) امر الله تعالى ان يوقد على النار الف عام حتى احمرت ثم اوقد عليها الف عام حتى ابيضت ثم اوقد عليها الف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة وقال صلى الله عليه وسلم (٧) اشتكت النار الى ربها فقالت يارب اكل بعضى بعضا فاذن لها فى نفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف فاشد ما تجدونه فى الصيف من حرها واشد ما تجدونه فى الشتاء من زمهريرها وقال انس بن مالك يؤتى بانعم الناس فى الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه فى النار غمسة ثم يقال له هل رايت نعيما قط فيقول لا ويؤتى باشد الناس ضرا فى الدنيا فيقال اغمسوه فى الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا وقال ابو هريرة لو كان فى المسجد مائة الف او يزيدون

التاسى بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لارباب الرخص وفعله لارباب العزائم ثم ان المنتهى يحاكى حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام فى دعاء الخلق الى الحق فكل ما كان يعتمده رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغى ان يعتمده فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يخلوا اما انه

---

(١) ان فى جهنم سبعين الف واد فى كل واد سبعون الف شعب فى كل شعب سبعون الف ثعبان وسبعون الف عقرب لا ينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله لم اجده هكذا بجملته وسياتى بعده ما ورد فى ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث على تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادى الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادى الحزن وقال باطل وابو نعيم والاصبهانى بسند ضعيف رواه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث ابى هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم فى ذم الجاه والرياء (٣) حديث ابى هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة الحديث وفيه هذا حجر أرسل فى جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث ان ادنى اهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير (٥) حديث ان نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى اطاقها اهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها احد وللبزار من حديث انس وهو ضعيف وما وصلت اليكم حتى احسبه قال نضحت بالماء فتضىء عليكم (٦) حديث امر الله ان يوقد على النار الف عام حتى احمرت الحديث تقدم (٧) حديث اشتكت النار الى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فاذن لها بنفسين الحديث متفق عليه من حديث

ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا وقد قال بعض العلماء فى قوله تلفح وجوههم النار انها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما على عظم الا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق قال (١) أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ان دلوا من غساق جهنم ألقى فى الدنيا لانتن أهل الارض فهذا شرابهم اذا استغاثوا من العطاش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه و يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ثم انظر الى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى ثم انكم ايها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم وقال تعالى انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كانه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم وقال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية وقال تعالى ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما وقال (٢) ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك وقال (٣) انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبثتها عليكم وقال (٤) ابو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع و يستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيستغيثون بشراب فيرفع اليهم الحميم بكلاليب الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب بطونهم قطع ما فى بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم ان ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال قال فيقولون ادعوا مالكا فيدعون فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك قال فيجيبهم انكم ماكثون قال الاعمش أنبئت أن بين دعائهم و بين اجابة مالك اياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخسؤا فيها ولا تكلمون قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك أخذوا فى الزفير والحسرة والويل وقال (٥) أبو امامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى و يسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه قال يقرب اليه فيتكرهه فاذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع امعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم وقال تعالى وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن الى حيات جهنم وعقاربها والى شدة سمومها وعظم اشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على اهلها واغريت بهم فهى لا تفتر عن النهش

كان ليقتدى به واما انه كان لمزيد كان يجده بذلك فان كان ليقتدي به فالمنتهى أيضا مقتدى به ينبغى ان يأتى بمثل ذلك والصحيح الحق ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء بل كان يجد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلة * قال الله تعالى خطابا له واعبد ربك حتى يأتيك اليقين لانه بذلك

ابى هريرة (١) حديث ابى سعيد الخدرى لو ان دلوا من غساق القى فى الدنيا لانتن اهل الارض الترمذى وقال انما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٢) حديث ابن عباس لو ان قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا افسدت على اهل الارض معاشهم الحديث الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه (٣) حديث انس ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم الحديث لم اجد له اسنادا (٤) حديث ابى الدرداء يلقى على اهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذى من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن ابى الدرداء قال الدارمى والناس لا يعرفون هذا الحديث وانما روى عن الاعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن ام الدرداء عن ابى الدرداء قوله (٥) حديث ابى امامة فى قوله تعالى و يسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه قال يقرب اليه الحديث الترمذى

واللدغ ساعة واحدة قال (١) ابو هريره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامه شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه يعني أشداقه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله الآية وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (٢) ان في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وان فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب انما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وايذاء الناس ومن وقي ذلك وقي هذه الحيات فلم تمثل له ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في اجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع اجزائها دفعة واحدة على التوالي (٣) قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه وقال عليه السلام (٥) ان الكافر ليجر لسانه في سجين يوم القيامة يتواطؤه الناس ومع عظم الاجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في اول القائهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك وقال (٧) أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل على اهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الاخدود لو ارسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك قال محمد بن كعب لاهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في اربعة فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها ابدا يقولون ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيقولون الله تعالى مجيبا لهم ذلكم بانه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ثم يقول ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا فيجيبهم الله تعالى اولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال فيقولون ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى اولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ثم يقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها ابدا وذلك غاية شدة العذاب قال مالك بن انس رضي الله عنه قال زيد بن اسلم في قوله تعالى سواء علينا أجزعنا ام صبرنا مالنا من محيص قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا سواء علينا اجزعنا ام صبرنا وقال صلى الله عليه وسلم (٨) يؤتى بالموت يوم القيامة

ازداد استمدادا من الحضرة الالهية وقرع باب الكرم والنبي عليه الصلاة والسلام مفتقر الى الزيادة من الله تعالى غير مستغن عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطه جنسية النفس كان يدعو الخلق الى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا اليه ولا انتفعوا به

وقال غريب (١) حديث ابي هريرة من اتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا اقرع الحديث البخاري من حديث ابي هريرة ومسلم من حديث جابر بنحوه (٢) حديث ان في النار لحيات مثل اعناق البخت يلسعن اللسعة الحديث احمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٣) حديث ابي هريرة ضرس الكافر في النار مثل احد الحديث رواه مسلم (٤) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه الترمذي من حديث ابي سعيد وقال حسن صحيح غريب (٥) حديث ان الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتوطأ الناس الترمذي من رواية ابي المخارق عن ابن عمر وقال غريب وابو المخارق لا يعرف (٦) حديث يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون الف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود (٨) حديث انس يرسل على اهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن انس والرقاشي ضعيف (٧) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كانه كبش املح فيذبح البخاري من حديث ابن عمر ومسلم

كانه

كانه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار و يقال يا اهل الجنة خلود بلاموت و يا أهل النار خلود بلاموت وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل ورؤي الحسن رضي الله عنه جالسا فى زاوية وهو يبكي فقيل له لم تبكي فقال أخشى أن يطرحني فى النار ولا يبالي فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها واحزانها ومحنها وحسراتها لانهاية له فاعظم الامور عليهم مع مايلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بانهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة اذلم يبيعوا ذلك الا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منغصة فيقولون فى انفسهم واحسرتاه كيف اهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف انفسنا الصبر أياما قلائل ولوصبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه و بقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان فيالحسرة هؤلاء وقد فاتهم مافاتهم و بلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها ثم انهم لولم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يؤتى يوم القيامة بناس من النار الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا الى قصورها والى ما أعد الله لاهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة مارجع الاولون والآخرون بمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تريناما أريتنا من ثوابك وما اعددت فيها لاوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك اردت بكم كنتم اذا خلوتم بارزتموني بالعظائم واذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤون الناس بخلاف ماتعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني واجللتم الناس ولم تجلوني وتركتم للناس ولم تتركوالى فاليوم أذيقكم العذاب الاليم مع ماحرمتكم من الثواب المقيم قال أحمد بن حرب ان احدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح وقال داود الهى لاصبر لى على حر شمسك فكيف صبري على حر نارك ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يامسكين فى هذه الاهوال واعلم ان الله تعالى خلق النار باهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وان هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ولعمري الاشارة به الى يوم القيامة بل فى أزل الازل ولكن اظهر يوم القيامة ماسبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري ان القضاء بماذا سبق فى حقك فان قلت فليت شعري ماذا موردي والى ماذا مآلي ومرجعي وما الذي سبق به القضاء فى حقي فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهو ان تنظر الى احوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فابشر فانك مبعد عن النار وان كنت لا تقصد خيرا الا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا الا و يتيسر لك اسبابه فاعلم انك مقضى عليك فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم

﴿ القول فى صفة الجنة واصناف نعيمها ﴾

اعلم ان تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى فتامل نعيمها وسرورها فان من بعد من احدهما استقر لا محالة فى الاخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لاهل الجنان وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء الى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الاليم فتفكر فى اهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق

و بين نفسه الطاهرة ونفوس الاتباع رابطة التأليف كما بين روحه وارواحهم رابطة التاليف ان النفوس ألفت آنفا كما ان الارواح ألفت أولا ولكل روح مع نفسه تاليف خاص والسكون والتـأليف والامتزاج واقع بين الارواح والنفوس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم العمل لتصفية نفسه

---

(١) حديث يؤتى يوم القيامة بناس من النار الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا روائحها الحديث رويناه فى الاربعين لابى هدبة عن انس وابو هدبة ابراهيم بن هدبة هالك من حديث ابى سعيد وقد تقدم

مختوم جالسين على منابر الياقوت الاحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض فيها بسط من العبقرى الاخضر متكئين على ارائك منصوبة على أطراف انهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كانهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان يمشين فى درجات الجنان اذا اختالت احداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون الفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الابيض ماتتحير فيه الابصار مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن باكواب وأباريق وكاس من معين بيضاء لذة للشاربين و يطوف عليهم خدام وولدان كامثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون فى مقام أمين فى جنات وعيون فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون و بانواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب المنون آمنون فهم فيها يتنعمون و يا كلون من أطعمتها و يشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا فى انهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان وعلى ارض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران و يمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور و يؤتون باكواب واى اكواب باكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب كوكب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته لم يصنعه ادمى فيقصر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى اشراقها ولكن من أين للشمس مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة احداقه فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها و يوقن بانه لايموت اهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الاحداث بعين التغيير الى اهلها كيف يانس بدار قد أذن الله فى خرابها و يتهنا بعيش دونها والله لو لم يكن فيها الا سلامة الابدان مع الامن من الموت والجوع والعطش وسائر اصناف الحدثان لكان جديرا بان يهجر الدنيا بسببها وان لا يؤثر عليها التصرم والتنغص من ضرورته كيف واهلها ملوك آمنون وفى انواع السرور ممتعون لهم فيها كل مايشتهون وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون والى وجه الله الكريم ينظرون و ينالون بالنظر من الله مالا ينظرون معه الى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين اصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها امنون قال(١) أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى مناد يا أهل الجنة ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا ابدا وان لكم ان تحيوا فلا تموتوا ابدا وان لكم ان تشبوا فلا تهرموا ابدا وان لكم ان تنعموا فلا تباسوا ابدا فذلك قوله عز وجل ونودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون ومهما اردت ان تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان واقرأ من قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان الى اخر سورة الرحمن واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وان اردت ان تعرف تفصيل صفاتها من الاخبار فتامل الآن تفصيلها بعد ان اطلعت على جملتها وتامل اولا (عدد الجنان) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان قال(٢) جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب انيتهما ومافيهما ومابين القوم و بين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن ثم انظر الى (أبواب الجنة) فانها كثيرة بحسب اصول الطاعات كما ان ابواب النار بحسب أصول المعاصى قال(٣) ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من انفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من ابواب الجنة كلها وللجنة ثمانية ابواب فمن كان من اهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من اهل

ونفوس الاتباع فما احتاج اليه نفسه من ذلك ناله وما فضل من ذلك وصل الى نفوس الامة وهكذا المنتهى مع الاصحاب والاتباع على هذا المعنى فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل ولا يسترسل فى الشهوات واللذات الابدلالة تخص النفس ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك الا بتاييد الله تعالى ونور الحكمة

(١) حديث ابى هريرة ينادى مناد ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا ابدا الحديث مسلم من حديث ابى هريرة وابى سعيد (٢) حديث جنتان من فضة انيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب انيتهما ومافيهما الحديث متفق عليه من حديث ابى موسى (٣) حديث ابى هريرة من انفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من ابواب الجنة

الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من اهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد فقال أبو بكر رضى الله عنه والله ماعلى احدمن ضرورة من أيها دعى فهل يدعى احدمنها كلها قال نعم وأرجو أن تكون منهم وعن عاصم بن ضمرة عن على كرم الله وجهه انه ذكر النار فعظم امرها ذكر الا احفظه ثم قال وسيق الذين اتقوا ربهم والى الجنة زمرا حتى اذا انتهوا الى باب من ابوابها وجد عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا الى احداهما كما امروا به فشربوا منها فاذهبت مافى بطونهم من اذى اوباس ثم عمدوا الى الاخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها ابدا ولا تشعث رؤسهم كانما دهنوا بالدهان ثم انتهوا الى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان اهل الدنيا بالحبيب تقدم عليهم من غيبة يقولون له ابشر اعد الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من اولئك الولدان الى بعض ازواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا فتقول انت رأيته فيقول انا رأيته وهو باثرى فيستخفها الفرح حتى تقوم الى اسكفة بابها فاذا انتهى الى منزله نظر الى اساس بنيانه فاذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح احمر واخضر واصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر الى سقفه فاذا مثل البرق ولولا ان الله تعالى قدره لالم ان يذهب بصره ثم يطاطا رأسه فاذا ازواجه واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ثم اتكا فقال الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ثم ينادى مناد تحيون فلا تموتون ابدا وتقيمون فلا تظعنون ابدا وتصحون فلا تمرضون ابدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) اتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من انت فاقول محمد فيقول بك امرت ان لا افتح لاحد قبلك ثم تامل الان فى ﴿ غرف الجنة ﴾ واختلاف درجات العلو فيها فان الآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا وكما ان بين الناس فى الطاعات الظاهرة والاخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر فان كنت تطلب اعلى الدرجات فاجتهد ان لا يسبقك احد بطاعة الله تعالى فقد امرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وقال تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون والعجب انه لو تقدم عليك اقرانك اوجيرانك بزيادة درهم او بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك وأحسن احوالك ان تستقر فى الجنة وانت لا تسلم فيها من اقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها فقال قال (٢) ابو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل الجنة ليتراءون اهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يارسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وقال ايضا (٣) ان اهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى افق من آفاق السماء وان ابا بكر وعمر منهم وانعما وقال (٤) جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا احدثكم بغرف الجنة قالت قلت بلى يارسول الله صلى الله عليك بابينا انت وامنا قال ان فى الجنة غرفا من اصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعم واللذات والسرور مالا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يارسول الله ولمن هذه الغرف قال لمن افشى السلام وأطعم الطعام وادام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يارسول الله ومن يطيق ذلك قال امتى تطيق ذلك وساخبركم عن ذلك من لقى اخاه فسلم عليه اورد عليه فقد افشى السلام ومن اطعم اهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد اطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة ايام فقد ادام الصيام ومن صلى

وكل من يحتاج الى صحة الجلوة للغير لا بد له من خلوة صحيحة بالحق حتى تكون جلوته فى حماية خلوته ومن يتراءى له أن أوقاته كلها خلوة وأنه لا يحجبه شىء وان اوقاته بالله ولله ولا يرى نقصانا لان الله مافطنه لحقيقة المزيد فهو تحنيج فى حاله غير أنه تحت قصور لا نه ما نبه لسياسة الجبلة وماعرف سر تمليك الاختيار وما وقف من

الحديث متفق عليه (١) حديث اتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من انت فاقول محمد الحديث مسلم من حديث انس (٢) حديث ابى سعيد ان اهل الجنة ليتراءون اهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكواكب الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث ان اهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابى سعيد (٤) حديث جابر الا احدثكم بغرف الجنة قلت يارسول الله بابينا انت وامنا

العشاء الآخرة وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام يعنى اليهود والنصارى والمجوس [(١)] وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصور من لؤلؤ فى كل قصر سبعون دارا من ياقوت احمر فى كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر فى على بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام فى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن فى كل غداة يعنى من القوة ما يأتى على ذلك أجمع

﴿ صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها ﴾

تامل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها القناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال [(٢)] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك [(٣)] وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص وقال [(٤)] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره ان يسقيه الله عز وجل الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره ان يكسوه الله الحرير فى الاخرة فليتركه فى الدنيا [(٥)] انهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك [(٦)] ولو كان أدنى اهل الجنة حلية عدلت بحلية اهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به فى الآخرة افضل من حلية الدنيا جميعها وقال [(٧)] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤا ان شئتم وظل ممدود وقال [(٨)] أبو امامة كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ان الله عز وجل ينفعنا بالاعراب ومسائلهم اقبل اعرابى فقال يارسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدرى ان فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هى قال السدر فان لها شوكا فقال قد قال الله تعالى فى سدر مخضود يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الاخر وقال جرير بن عبد الله نزلنا الصفاح فاذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس ان تبلغه فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فاظله فانطلق فاظله فلما استيقظ فاذا هو سلمان فاتيته اسلم عليه فقال ياجرير تواضع لله فان من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة قلت لا ادرى قال ظلم الناس بعضهم بعضا ثم أخذ

ان فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر الحديث ابو نعيم من رواية الحسن عن جابر (١) حديث سئل عن قوله تعالى ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصور من لؤلؤ الحديث ابو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة والاجرى فى كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سالت اباهريرة وعمران بن حصين فى هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن ابى حاتم والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة على قول الجمهور (٢) حديث ابى هريرة ان حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذى بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس اسناده بذلك القوى وليس عندى بمتصل ورواه البزار من حديث ابى سعيد باسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه باسناد صحيح (٣) حديث سئل عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص مسلم من حديث ابى سعيد ان ابن صياد سال النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره (٤) حديث ابى هريرة من سره ان يسقيه الله الخمر فى الاخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره ان يكسوه الله الحرير فليتركه فى الدنيا الطبرانى فى الاوسط باسناد حسن وللنسائى باسناد صحيح من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الاخرة (٥) حديث انهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك العقيلى فى الضعفاء من حديث ابى هريرة (٦) حديث لو كان ادنى اهل الجنة حلية عدلت بحلية اهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به فى الاخرة أفضل من حلية اهل الدنيا جميعها الطبرانى فى الاوسط من حديث ابى هريرة باسناد حسن (٧) حديث ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة (٨) حديث ابى أمامة اقبل اعرابى فقال يارسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية قال ما هى قال السدر الحديث ابن المبارك فى الزهد عن

البيان على البيضاء النقية وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه فقد يسمعها الانسان ويبنى عليها والاولى أن يفتقر الى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها حتى يسمعه الله من ذلك الصواب (نقل) عن بعضهم انه سئل عن كمال المعرفة فقال اذا اجتمعت المتفرقات واستوت الاحوال والاماكن وسقطت

عو يدا الا كاداراه من صغره فقال ياجر يرلوطلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده قلت يا ابا عبد الله فاين النخل والشجر قال اصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر

﴿صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وارائكهم وخيامهم﴾

قال الله تعالى يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير والآيات فى ذلك كثيرة وانما تفصيله فى الاخبار فقد روى ابو هريرة (١) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من يدخل الجنة ينعم لا يباس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه فى الجنة مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢) وقال رجل يارسول الله اخبرنا عن ثياب اهل الجنة اخلق تخلق ام نسج تنسج فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مم تضحكون من جاهل سال عالما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين وقال (٣) ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اول زمرة تلج صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم وامشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية وفى رواية على كل زوجة سبعون حلة وقال صلى الله عليه وسلم (٤) فى قوله تعالى يحلون فيها من اساور من ذهب قال ان عليهم التيجان ان ادنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب وقال صلى الله عليه وسلم (٥) الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن اهل لا يراهم الاخرون رواه البخارى فى الصحيح قال ابن عباس الخيمة درة مجوفة فرسخ فى فرسخ لها اربعة الاف مصراع من ذهب وقال (٦) ابو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال مابين الفراشين كما بين السماء والارض

﴿صفة طعام اهل الجنة﴾

بيان طعام اهل الجنة مذكور فى القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن واصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابها وذكر الله تعالى شراب اهل الجنة فى مواضع كثيرة وقد قال (٧) ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من احبار اليهود فذكر اسئلة الى ان قال فمن اول اجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد الحوت قال فما غذاؤهم على أثرها قال ينحر لهم ثور الجنة الذى كان ياكل فى اطرافها قال فما شرابهم عليه قال من عين فيها تسمى سلسبيلا

صفوان بن عمرو وعن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لابى امامة (١) حديث ابى هريرة من يدخل الجنة ينعم ولا يباس لا تبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله فى الجنة مالا عين رأت الخ فانفق عليه الشيخان من حديث آخر لابى هريرة قال الله تعالى اعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت الحديث (٢) حديث قال رجل يارسول الله اخبرنا عن ثياب اهل الجنة تخلق خلقا ام تنسج نسجا الحديث النسائى من حديث عبد الله بن عمر (٣) حديث ابى هريرة اول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث فى قوله تعالى يحلون فيها من اساور من ذهب قال ان عليهم التيجان ادنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب الترمذى من حديث ابى سعيد دون ذكر الاية وقال لا نعرفه الا من حديث رشدين بن سعد (٥) حديث الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا الحديث عزاه المصنف للبخارى وهو متفق عليه من حديث ابى موسى الاشعرى (٦) حديث ابى سعيد فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال مابين الفراشين كما بين السماء والارض الترمذى بلفظ ارتفاعها لكما بين السماء والارض خمسمائة سنة وقال غريب لا نعرفه الا من حديث رشدين بن سعد (٧) حديث ثوبان جاء حبر من احبار اليهود فذكر اسئلة الى ان قال فمن اول الناس اجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة فى اوله واخره

رؤية التمييز ومثل هذا القول يوهم ان لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الاعمال وبين تركها ولم يفهم منه ان القائل اراد بذلك معنى خاصا يعنى ان حظ المعرفة لا يتغير بحال من الاحوال وهذا صحيح لان حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر الى التمييز وتستوى الاحوال فيه ولكن حظ

فقال صدقت وقال(١) زيد بن ارقم جاء رجل من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابا القاسم الست تزعم ان اهل الجنة يا كلون فيها ويشربون وقال لاصحابه ان اقرلي بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسي بيده ان احدهم ليعطى قوة مائة رجل فى المطعم والمشرب والجماع فقال اليهود فان الذى يا كل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فاذا البطن قد ضمر وقال(٢) ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتنظر الى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا وقال(٣) حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة طيرا امثال البخاتى قال ابو بكر رضى الله عنه انها لناعمة يارسول الله قال انعم منها من يا كلها وانت ممن يا كلها يا ابا بكر وقال عبد الله ابن عمرو فى قوله تعالى يطاف عليهم بصحاف قال يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صفحة فيها لون ليس فى الاخرى مثله وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ومزاجه من تسنيم قال يمزج لاصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا وقال ابو الدرداء رضى الله عنه فى قوله تعالى ختامه مسك قال هو شراب ابيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو ان رجلا من اهل الدنيا ادخل يده فيه ثم اخرجها لم يبق ذو روح الا وجد ريح طيبها

صفة الحور العين والولدان

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الاخبار بزيادة شرح فيه روى انس رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال(٤) غدوة فى سبيل الله اوروحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس احدكم اوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو ان امرأة من نساء اهل الجنة اطلعت الى الارض لاضاءت وللملأت ما بينهما رائحة ولنصيفها على راسها خير من الدنيا بما فيها يعنى الخمار وقال ابو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى كانهن الياقوت والمرجان قال ينظر الى وجهها فى خدرها اصفى من المرآة وان ادنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب وانه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك وقال(٦) أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بى دخلت الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الاخضر والياقوت

المريد يتغير ويحتاج الى التمييز وليس فى هذا الكلام وامثاله ما ينافى ما ذكرناه (قيل) لمحمد ابن الفضل حاجة العارفين الى ماذا قال حاجتهم الى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلها الا وهى الاستقامه وكل من كان اتم معرفة كان اتم استقامة فاستقامة ارباب النهاية على التمام والمبتدى الابتداء مأخوذ فى الاعمال محجوب

---

(١) حديث زيد بن ارقم جاء رجل من اليهود فقال يا أبا القاسم الست تزعم أن أهل الجنة يا كلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك النسائى فى الكبرى باسناد صحيح (٢) حديث ابن مسعود انك لتنظر الى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بن يديك مشويا البزار باسناد فيه ضعف (٣) حديث حذيفة ان فى الجنة طيرا امثال البخاتى الحديث غريب من حديث حذيفة ولاحمد من حديث أنس باسناد صحيح ان طير الجنة كامثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال ابو بكر يارسول الله ان هذه الطير ناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثا وانى أرجو ان تكون ممن يا كل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال فيه طير اعناقها كاعناق الجزر قال عمر ان هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لابى بكر وقال حسن (٤) حديث غدوة فى سبيل الله اوروحة خير من الدنيا وما فيها الحديث البخارى من حديث انس (٥) حديث ابى سعيد الخدرى فى قوله تعالى كانهن الياقوت والمرجان قال تنظر الى وجهها فى خدرها اصفى من المرآة الحديث ابو يعلى من رواية ابى الهيثم عن ابى سعيد باسناد حسن ورواه احمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية ابى الهيثم عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا دون ذكر ابى سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود ان المراة من نساء اهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفا وقال وهذا اصح وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم (٦) حديث انس لما اسرى بى دخلت فى الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الاخضر والياقوت الاحمر الحديث وفيه ان جبريل قال هؤلاء المقصورات فى الخيام وفيه فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط لم اجده هكذا بتمامه وللترمذى من حديث على ان فى الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن اصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات

الاحمر فقلن السلام عليك يارسول الله فقلت ياجبريل ماهذا النداء قال هؤلاء المقصورات فى الخيام استأذن ربهن فى السلام عليك فاذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط ابدا ونحن الخالدات فلا نظعن ابدا وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى حور مقصورات فى الخيام وقال مجاهد فى قوله تعالى وازواج مطهرة قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمنى والولد وقال الاوزاعى فى شغل فاكهون قال شغلهم افتضاض الابكار (١) وقال رجل يارسول الله ايباضع اهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد افضل من سبعين منكم وقال عبدالله بن عمر ان ادنى اهل الجنة منزلة من يسعى معه الف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ان الرجل من اهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء واربعة آلاف وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحد منهن مقدار عمره فى الدنيا وقال النبى صلى الله عليه وسلم (٣) ان فى الجنة سوقا مافيها بيع ولا شراء الا الصور من الرجال والنساء فاذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وان فيها لمجتمع الحور العين يرفعن باصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نباس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له وقال (٤) انس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الحور فى الجنة يتغنين نحن الحور الحسان خبئنا لازواج كرام وقال يحيى بن كثير فى قوله تعالى فى روضة يحبرون قال السماع فى الجنة وقال (٥) ابو امامة الباهلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن عبد يدخل الجنة الا و يجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه باحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه

﴿بيان جمل مفرقة من اوصاف اهل الجنة وردت بها الاخبار﴾

روى (٦) أسامة بن زيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه الا هل مشمر للجنة ان الجنة لاخطر لها هى ورب الكعبة نور يتلالا و ريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة فى حبرة ونعمة فى مقام ابدا ونضرة فى دار عالية بهية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يارسول الله قال قولوا ان شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه (٧) وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هل فى الجنة خيل فانها تعجبنى قال ان

فلا نباس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب ولابى الشيخ فى كتاب العظمة من حديث ابن ابى اوفى بسند ضعيف فيجتمعن فى كل سبعة ايام فيقلن باصوات الحديث (١) حديث قال رجل يارسول الله ايباضع اهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد افضل من سبعين منكم الترمذى وصححه وابن حبان من حديث انس يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فقيل او يطيق ذلك قال يعطى قوة مائة (٢) حديث ان الرجل من اهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء واربعة الاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا ابو الشيخ فى طبقات المحدثين وفى كتاب العظمة من حديث ابن ابى اوفى الا انه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقه لهن واسناده ضعيف وتقدم قبله بحديث (٣) حديث ان فى الجنة سوقا مافيها بيع ولا شراء الا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرقه فى موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين (٤) حديث انس ان الحور فى الجنة يتغنين فيقلن نحن الحور الحسان خبئن لازواج كرام الطبرانى فى الاوسط وفيه الحسن بن داود المنكرى قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدى ارجو انه لا باس به (٥) حديث ابى امامة مامن عبد يدخل الجنة الا و يجلس عند رأسه وعن رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه باحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه الطبرانى باسناد حسن (٦) حديث اسامة بن زيد الا هل من مشمر للجنة ان الجنة لاخطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٧) حديث جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له هل فى الجنة خيل فانها تعجبنى الحديث الترمذى من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودى مختلف فيه ورواه ابن المبارك فى الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط

بها عن الاحوال وفى التوسط محفوظ بالاحوال فقد يحجب عن الاعمال وفى الانتهاء لاتحجبه الاعمال عن الاحوال ولا الاحوال عن الاعمال وذلك هو الفضل العظيم (سئل الجنيد) عن النهاية فقال هى الرجوع الى البداية وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال معناه انه كان فى ابتداء امره فى جهل ثم وصل الى

احببت ذلك تيت بفرس من ياقوته حمراء فتطير بك فى الجنة حيث شئت وقال له رجل ان الابل تعجبنى فهل فى الجنة من ابل فقال ياعبدالله ان ادخلت الجنة فلك فيها مااشتهت نفسك ولذة عيناك وعن (١) ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل من اهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى يكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) اذا استقر اهل الجنة فى الجنة اشتاق الاخوان الى الاخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا فيلتقيان و يتحدثان ما كان بينهما فى دار الدنيا فيقول يااخى تذكر يوم كذا فى مجلس كذا فدعونا الله عزوجل فغفر لنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ان اهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحولون ابناء ثلاثة وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا فى عرض سبعة اذرع وقال رسول صلى الله عليه وسلم (٤) ادنى اهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم وثنتان وسبعون زوجة و ينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية الى صنعاء وان عليهم التيجان وان ادنى لؤلؤ منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب وقال صلى الله عليه وسلم (٥) نظرت الى الجنة فاذا الرمانة من رمانها كخلف البعير المقتب واذا طيرها كالبخت واذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن انت فقالت لزيد بن حارثة واذا فى الجنة مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال كعب خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمى فقالت قد فلح المؤمنون فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا وقد ذكر الحسن البصرى رحمه الله جملتها فقال ان رمانها مثل الدلاء وان انهارها لمن ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وانهار من خمر لذة للشار بين لاتسفه الاحلام ولا تصدع منها الرؤس وان فيها ما لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملوك ناعمون ابناء ثلاث وثلاثين فى سن واحد طولهم ستون ذراعا فى السماء كحل جرد مرد قد امنوا العذاب واطمانت بهم الدار وان انهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد وان عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها الا الله تعالى وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وان لهم فيها خيلا وابلا هفافة رحالها وازمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وازواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون وان المرأة لتاخذ بين اصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله الاخلاق من السوء والاجساد من الموت لايمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغطون وانما هو جشاء

المعرفة ثم ردالى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى لكيلا يعلم بعد علم شيا (وقال بعضهم) اعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه و يجوز ان يكون معنى ذلك ماذكرناه انه يبادىء الاعمال ثم يرقى الى الاحوال ثم يجمع له بين الاعمال والاحوال وهذا يكون للمنتهى المراد الماخوذ

مرسلا قال الترمذى وهذا اصح وقد ذكر ابو موسى المدينى عبدالرحمن بن سابط فى ذيله على ابن منده الصحابة ولا يصح له صحبة (١) حديث ابى سعيد ان الرجل من اهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى ويكون حمله وفصاله ونشاته فى ساعة واحدة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب قال وقد اختلف اهل العلم فى هذا فقال بعضهم فى الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولاحمد من حديث لابى رزين يلذو يلم مثل لذاتكم فى الدنيا و يلتذذن بكم غير ان لا توالد (٢) حديث اذا استقر اهل الجنة فى الجنة اشتاق الاخوان الى الاخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن انس وقال لانعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم الا بهذا الاسناد تفرد به انس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الاصفهانى فى الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر انس (٣) حديث اهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحلون ابناء ثلاثة وثلاثين الحديث الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله بيض جعاد ودون قوله على خلق آدم الى اخره ورواه ايضا من حديث ابى هريرة مختصرا اهل الجنة جرد مرد كحل وقال غريب وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة على صورة ابيهم آدم ستون ذراعا (٤) حديث ادنى اهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم الحديث الترمذى من حديث ابى سعيد منقطعا من اوله الى قوله وان عليهم التيجان ومن هنا باسناده ايضا وقال لا نعرفه الا من حديث رشد بن سعد (٥) حديث نظرت الى الجنة فاذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب واذا طيرها كالبخت الحديث رواه الثعلبى فى تفسير من رواية ابى هرون العبدى عن ابى سعيد وابو هرون اسمه عمارة بن جوين ضعيف جدا وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة يقول

ورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما ... يس لبل يكر الغدو على الرواح والرواح على الغدو وان آخر من يدخل الجنة وادناهم منزلة ليمد له فى بصره وملكه مسيرة مائة عام فى قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ويفسح له فى بصره حتى ينظر الى اقصاه كما ينظر الى ادناه يغدى عليهم بسبعين الف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها فى كل صحفة لون ليس فى الاخرى مثله ويجد طعم آخره كما يجد طعم اوله وان فى الجنة لياقوتة فيها سبعون الف دار فى كل دار سبعون الف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب وقال مجاهد ان ادنى اهل الجنة منزلة لمن يسير فى ملكه الف سنة يرى اقصاه كما يرى ادناه وارفعهم الذى ينظر الى ربه بالغداة والعشى وقال سعيد بن المسيب ليس احد من اهل الجنة الا وفى يده ثلاثة اسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة وقال ابو هريرة رضى الله عنه ان فى الجنة حوراء يقال لها العيناء اذا مشت مشى عن يمينها و يسارها سبعون الف وصيفة وهى تقول اين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال يحيى بن معاذ ترك الدنيا شديد وفوت الجنة اشد وترك الدنيا مهر الآخرة وقال ايضا فى طلب الدنيا ذل النفوس وفى طلب الآخرة عز النفوس فياعجبا لمن يختار المذلة فى طلب مايفنى و يترك العز فى طلب مايبقى

﴿ صفة الرؤية والنظر الى وجه الله تبارك وتعالى ﴾

قال الله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة وهذه الزيادة هى النظر الى وجه الله تعالى وهى اللذة الكبرى التى ينسى فيها نعيم اهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها فى كتاب المحبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده اهل البدعة قال (١) جرير بن عبد الله البجلى كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم ان لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهو مخرج فى الصحيحين وروى مسلم فى الصحيح عن (٢) صهيب قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال اذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار نادى مناد يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد ان ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ألم يثقل موازيننا و يبيض وجوهنا و يدخلنا الجنة و يجرنا من النار قال فيرفع الحجاب و ينظرون الى وجه الله عز وجل فما اعطوا شيا احب اليهم من النظر اليه وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النعمى وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور اهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لا نسبة لشىء من لذات الجنة الى لذة اللقاء وقد اوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغى ان تكون همة العبد من الجنة بشىء سوى لقاء المولى واما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البهيمة المسرحة فى المرعى

﴿ نختم الكتاب بباب فى سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك ﴾

فقد (٤) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفال وليس لنا من الاعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفاؤل ونرجو ان يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال تعالى قل ياعبادى الذين اسرفوا

الله اعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (١) حديث جرير كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم الحديث هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف (٢) حديث صهيب فى قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة رواه مسلم كما ذكره المصنف

﴿ باب فى سعة الرحمة ﴾

(٣) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل متفق عليه من حديث انس فى اثناء حديث و يعجبنى الفال الصالح الكلمة الحسنة ولهما من حديث ابى هريرة وخيرها الفال قالوا وما الفال قال الكلمة الصالحة يسمعها

فى طريق المجبو بين تنجذب روحه الى الحضرة الالهية وتستتبع القلب والقلب يستتبع النفس والنفس تستتبع القالب فيكون بكليته قائما بالله ساجدا بين يدى الله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد لك سوادى وخيالى وقال الله تعالى ولله يسجد

على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى ومن يعمل سوا او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم اوطغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ونستغفره من اقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعيناه واظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدناه به من انفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه او كلام نظمناه او علم افدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا او كتبه أو سمعه ان نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا او باطنا فان الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على اصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خلق الله عزوجل لا وسيلة لنا اليه الا فضله وكرمه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ان لله تعالى مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون واخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ويروى انه (٢) اذا كان يوم القيامة اخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه ان رحمتي سبقت غضبي وانا ارحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول ابشروا معشر المسلمين فانه ليس منكم احد الا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة الف الف وعشرة آلاف الف وقال صلى الله عليه وسلم (٥) ان الله عزوجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل احببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد اوجبت لكم مغفرتي وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) يقول الله عزوجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما اوخافني في مقام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) اذا اجتمع اهل النار في النار ومن شاء الله معهم من اهل القبلة قال الكفار المسلمين الم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما اغنى عنكم اسلامكم اذا انتم معنا في النار فيقولون كانت

من في السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والاصال والظلال والقوالب تسجد بسجود الارواح وعند ذلك تسري روح المحبة في جميع اجزائهم وابعاضهم فيتـــلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودا فيحبهم الله تعالى ويحبهم الى خلقه نعمة منه

احدكم (١) حديث ان لله تعالى مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس الحديث مسلم من حديث ابي هريرة وسلمان (٢) حديث اذا كان يوم القيامة اخرج الله كتابا من تحت العرش فيه ان رحمتي سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث ابي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي لفظ البخاري وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه ان رحمتي تغلب غضبي (٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول ابشروا معشر المسلمين فانه ليس منكم احد الا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا او نصرانيا مسلم من حديث ابي موسى اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا او نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار ولابي داود امتي امة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة الحديث واما اول الحديث فرواه الطبراني من حديث ابي موسى ايضا يتجلى الله ربنا ناضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا الى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه علي بن زيد بن جدعان (٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة الف الف وعشرة آلاف الف الطبراني من حديث انس باسناد ضعيف (٥) ان الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل احببتم لقائي فيقولون نعم الحديث احمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة اخرجوا من النار من ذكرني يوما اوخافني في مقام الترمذي من حديث انس وقال حسن غريب (٧) حديث اذا اجتمع اهل النار في النار ومن شاء الله معهم من اهل القبلة قال الكفار للمسلمين الم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما اغنى عنكم اسلامكم اذا انتم معنا في النار الحديث في اخراج اهل القبلة من النار ثم قرا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين النسائي في الكبرى من حديث جابر بنحوه باسناد صحيح

لنا ذنوب فاخذنا بها فيسمع الله عز وجل ماقالوا فيامر باخراج من كان فى النار من اهل القبلة فيخرجون فاذا راى ذلك الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما اخرجوا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لله ارحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وقال جابر ابن عبد الله من زادت حسناته على سياته يوم القيامة فذلك الذى يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسياته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وانما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن او بق نفسه واثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام ياموسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتى وجلالى لو استغاث بى لاغثته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما انا بظلام للعبيد ويامر بردهما الى النار فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ويتلكا الآخر فيؤمر بردهما ويسالهما عن فعلهما فيقول الذى عدى الى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم اكن لاتعرض لسخطك ثانية ويقول الذى تلكا حسن ظنى بك كان يشعرنى ان لا تردنى اليها بعد ما اخرجتنى منها فيامر بهما الى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى ويروى ان اعرابيا سمع ابن عباس يقرأ وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها فقال الاعرابى والله ما انقذكم منها وهو يريد ان يوقعكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه وقال (١) الصنابحى دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت فبكيت فقال مهلا لم تبكى فو الله مامن حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير الا حدثتكموه الا حديثا واحدا وسوف احدثكموه اليوم وقد احيط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله حرم الله عليه النار وقال (٤) عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يستخلص رجلا من امتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول اتنكر من هذا شيا اظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول افلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة وانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول انك لا تظلم قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط (٥) ان الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن امرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يار بنا لم نذر فيها احدا ممن امرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فاخرجوه

عليهم وفضلا على ما أخبرنا شيخنا ضيـاء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا ابوطالب الزينبى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت انا ابو الهيثم الكشميهنى قال أنا عبد الله الفربرى قال أنا أبو عبد الله البخارى قال حدثنى اسحق قال حدثنا عبد

(١) حديث لله ارحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى اوله قصة المرأة من السبى اذا وجدت صبيا فى السبى فاخذته فالصقته ببطنها فارضعته (٢) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا امة محمد اما ما كان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى رويناه فى سباعيات ابى الاسعد القشيرى من حديث انس وفيه الحسين ابن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة (٣) حديث الصنابحى عن عبادة ابن الصامت من شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله حرمه الله على النار مسلم من هذا الوجه واتفق عليه من غير رواية الصنابحى بلفظ آخر حديث عبد الله ابن عمرو ان الله يستخلص رجلا من امتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب (٥) حديث ان الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث فى اخراج الموحدين وقوله تعالى لاهل الجنة فلا اسخط عليكم بعده ابدا اخرجا

فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها احدا ممن أمرتنا به فكان ابو سعيد يقول ان لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤا ان شئتم ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في افواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل الا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون الى الشمس أصفر واخضر وما يكون منها الى الظل ابيض قالوا يا رسول الله كانك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم اهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين ادخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط احدا من العالمين فيقول الله تعالى ان لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء افضل من هذا فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده ابدا رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وروى البخاري ايضا عن (١) ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الامم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه احد والنبي معه الرهط فرايت سوادا كثيرا فرجوت ان تكون امتي فقيل لي هذا موسى وقومه ثم قيل انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الافق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة وعن (٢) عمرو بن حزم الانصاري قال تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج الا لصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج الينا فقلنا يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا انه قد حدث حدث قال لم يحدث الا خيران ربي عز وجل وعدني ان يدخل من أمتي الجنة سبعين الفا لا حساب عليهم واني سالت ربي في هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فاعطاني مع كل واحد من السبعين الفا سبعين الفا قال قلت يا رب وتبلغ أمتي هذا قال أكمل لك العدد من الاعراب وقال (٣) أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك انه من مات لا يشرك بالله شيا دخل الجنة فقلت يا جبريل وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى قلت وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى قلت وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى وان شرب الخمر وقال (٤) أبو الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف

الصمد قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن ابيه عن ابي صالح عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى اذا احب عبدا نادى جبريل ان الله تعالى قد احب فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء ان الله

في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد (١) حديث ابن عباس عرضت على الامم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد الحديث الى قوله سبقك بها عكاشة رواه البخاري (٢) حديث عمرو بن حزم الانصاري تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج الا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه ان ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين الفا لا حساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين الفا سبعين الفا البيهقي في البعث والنشور ولأحمد وابي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين الفا وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الاوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فهلا استزدته فقال قد استزدته فاعطاني مع كل رجل سبعين الفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فاعطاني هكذا وفرج عبد الله ابن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحثى عليه وفيه موسى ابن عبيدة الربذي ضعيف (٣) حديث أبي ذر عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك إنه من مات لا يشرك بالله شيا دخل الجنة الحديث متفق عليه بلفظ أتاني جبريل فبشرني وفي رواية لهما أتاني آت من ربي (٤) حديث أبي الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت

مقام ر به جنتان فقلت وان سرق وان زنى يارسول الله فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى يارسول الله قال وان رغم انف أبي الدرداء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من اهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار وروى مسلم في الصحيح عن (٢) ابى بردة انه حدث عمر بن عبد العزيز عن ابيه ابى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يموت رجل مسلم الا ادخل الله تعالى مكانه النار يهوديا او نصرانيا فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذى لا اله الا هو ثلاث مرات ان اباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف له وروى انه (٣) وقف صبي في بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة فى خباء القوم فاقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها حتى اخذت الصبي وألصقته الى صدرها ثم القت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر وقالت ابنى ابنى فبكى الناس وتركوا ما هم فيه فاقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فاخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال اعجبتم من رحمة هذه لا بنها قالوا نعم قال صلى الله عليه وسلم فان الله تبارك وتعالى ارحم بكم جميعا من هذه بابنها فتفرق المسلمون على أفضل السرور واعظم البشارة فهذه الاحاديث وما أوردناه فى كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى فنرجو من الله تعالى ان لا يعاملنا بما نستحقه و يتفضل علينا بما هو اهله بمنه وسعة جوده ورحمته

وان زنى وان سرق الحديث رواه أحمد باسناد صحيح (١) حديث اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار رواه مسلم من حديث ابى موسى نحوه وقد تقدم (٢) حديث أبى بردة انه حدث عمر بن عبد العزيز عن ابيه ابى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يموت رجل مسلم الا ادخل الله مكانه النار يهوديا او نصرانيا عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك (٣) حديث وقف صبي فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة الحديث وفيه الله ارحم بكم جميعا من هذه بابنها متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فاذا امرأة من السبي تسعى اذ وجدت صبيا فى السبي اخذته فالصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار قلنا لا والله وهى تقدر على ان لا تطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله ارحم بعباده من هذه بولدها اللفظ لمسلم وقال البخارى فاذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى اذ وجدت صبيا الحديث والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد فى كل حركة وهدء يقول مؤلفه عبد الرحيم ابن الحسين العراقى انى أكملت مسودة هذا التاليف فى سنة ٧٥١ وأكملت تبييض هذا المختصر منها فى يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الاول سنة ٧٩٠ انتهى

قد احب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء و يوضع له القبول فى الارض و بالله العون والعصمة والتوفيق

تم بحمد الله المعيد المبدى كتاب عوارف المعارف للامام السهروردى والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين

﴿ يقول مصححه راجي غفران المساوي محمد محمد ماضي الرخاوي ﴾

نحمدك يا من شرحت الحقائق لقلوب غرست في رياضها أشجار محبتك وسقيت بغيوث رجائك وأزعجت بسوط خوفك فاحسنت متابعة شريعتك وأثمرت غصونها احياء هدايتك ومنحت زائد عنايتك فصحت بعد غفلتها ونهضت في اقتفاء مرضاتك بعد طول رقدتها ونشكرك وقفت من عبادك من أبان عن واضح الحق اللثام حتى اتضح للسالك خزى من أثار في وجه الصدق القتام ونسالك ان تديم وافر صلواتك وكامل تسليماتك على خاتم النبيين ورسولك الى الخلق أجمعين من جملت سنته فى قوله وفعله هى الطريق اليك فمن شذ عنها ولو قلامة ظفر لا يظفر من مرضاتك بما يدله عليك وعلى آله سفينة النجاه الذين هم العروة الوثقى لمن يرجو شفاعته ورضاه وأصحابه الذين تهذبت نفوسهم بمتابعته فصاروا أنجما يهتدى بهم فى شريعته وكل من اقتفى آثارهم وجاهد نفسه ليلقط من رياض أحوالهم ازهارهم (أما بعد) فان اولى ما يهتم الانسان بتحصيله وصرف العناية الى قراءته وترتيله ما تستطب به النفوس من أمراضها وتستعز به فى تقويم أغراضها ولا شىء أوفى بذلك مع مزيد حسن مبين من كتاب احياء علوم الدين لامام الائمة وحجة الامة الشيخ محمد بن محمد الغزالى طيب الله ثراه ولقاه بما يتمناه وهو كتاب لا يستطيع البيان وصف محاسنه ولا يستجرىء البنان حصر درر معادنه خصوصا وقد قرن بتخريج العراقى لاحاديثه فى كتابه المسمى بالمغنى عن حمل الاسفار فى الاسفار فضاءت به شموس الاحياء وارتفع عن وجوه دلائلها الغبار وعنى فى التصحيح بمراجعة الشرح وصحيح النسخ فجاء كتابا لم يسبق لرونقه مثيل ولم يكن له فى المحاسن عديل لاسيما وقد حسن الطبع شكل وضعه وزين مبانى صنعه محلى الهوامش والطرر ومزين الحواشى والغرر بالكتب الجليلة الاول كتاب تعريف الاحيا بفضائل الاحيا للعلامة الشيخ محيى الدين قدوة المسلمين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوى والثانى كتاب الاملا عن اشكالات الاحيا للامام الغزالى والثالث عوارف المعارف للامام السهروردي رحمهم الله وكان الفراغ من طبعه فى أوائل شهر صفر الخير سنة ١٣٤٨ هجريه على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية آمين



﴿ فهرست الجزء الرابع وهو الربع الرابع من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالى ﴾

صحيفة

﴿تمت﴾


Bibliotheca Alexandrina
05297745